

مختصر
منها القاصد

تأليف
الإمام أحمد بن محمد بن عبد الرحمن
ابن قدامة المقدسي

تحقيق
زهير الشاويش

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة الإسلامية

الطبعة التاسعة

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

المكتبة الإسلامية

بيروت : ص.ب. : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٥)
دمشق : ص.ب. : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب. : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

مقدمة لمحقق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّوْا وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧١﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد :

فهذه الطبعة التاسعة^(١) من كتاب «مختصر منهاج القاصدين»، نقدمها للقارئ الكريم، راجين الله سبحانه أن ينفع بها كما نفع في طبعاتنا السابقة، آمليين أن يدخر الله لنا الأجر والثواب ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم]، ولا ينفع الإنسان إلا ما قدم من عمل صالح ونية خالصة ليقبله الله؛ فإنه سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً صادقاً لا غش فيه ولا تدليس ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

(١) معلنين أسفنا لوجود الطبعات الكثيرة التي اعتمدت على طبعاتنا دون أي إشارة لما نقلته عنا؛ مع أن في مخطوطات التراث الألوفاً مما يحتاجه الناس، لينصرف إلى تحقيقه وطبعه من يريد النفع للعباد.

وإن هذا الكتاب من مجموعة كتب تناولتها الأيدي في الوعظ والإرشاد، مستمدة من كتاب سبق للشيخ أبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي «قوت القلوب» الذي اعتمده العلامة الإمام الغزالي^(١) أصلاً لكتابه «إحياء علوم الدين» ويعد من أكثر الكتب انتشاراً وتأثيراً، وقد أنصرف إلى اختصاره عشرات من العلماء، وشرحه العلامة الزبيدي: في موسوعته الكبيرة «شرح الإحياء»، وخدمه بتخريج أحاديثه العلامة المحدث الحافظ العراقي، واستدرك الحافظ ابن حجر العسقلاني ما فات شيخه العراقي، ثم صنف الشيخ قاسم بن قطلوبغا كتاباً سماه: «تحفة الأحياء فيما فات من تخاريج أحاديث الإحياء».

وما زالت المختصرات تثرى منذ الاختصار الأول للشيخ أحمد بن محمد الغزالي أخي مؤلف «الإحياء» حتى يومنا هذا، وعرفت منها:

مختصر محمد بن علي العجلوني، ومختصر محمد بن سعيد اليميني، ومختصر أحمد بن موسى الموصلي، ومختصر الإمام السيوطي، و«عين العلم» الذي شرحه ملا علي القاري^(٢).

ومن آخر هذه المختصرات «تهذيب الأخلاق» للعلامة عبد الحي بن فخر الدين النذوي (١٢٨٦-١٣٤١هـ) والد شيخنا العلامة أبي الحسن؛ عليّ الحسنيّ النذوي رحمه الله (١٣٣٢-١٤٢٠هـ) الذي طبعته للمرة الأولى في المكتب الإسلامي.

وكذلك من أحسنها: اختصار شيخ مشايخنا علامة الشام جمال الدين القاسمي^(٣).

(١) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، انظر «الأعلام» ٢٢/٧ الطبعة السادسة.

(٢) «كشف الظنون» ٢٣/١ و ١١٨٢/٢.

(٣) هو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (١٢٨٣-١٣٣٢هـ).

وقد حققه أخي العالم الفاضل الأستاذ عاصم - حفظه الله - ابن أستاذنا الشيخ محمد بهجة بن بهاء الدين البيطار (١٣١١-١٣٩٦هـ).

وقد أختصره الإمام عبد الرحمن ابن الجوزي في كتاب سَمَاه «منهاج القاصدين»؛ والإمام ابن الجوزي عالم حنبلي مشارك في كثير من العلوم^(١) التي كان يتقنها الغزالي، وزاد عليه: عِلْمُهُ بالحديث النبوي سنداً وامتناً، لذلك أبدل الكثير من أحاديثه الضعيفة والموضوعة بالأحاديث الصحيحة والحسنة، ثم جاء ابن قدامة فأختصر «منهاج القاصدين» اختصاراً قيماً مفيداً، وهو هذا الذي بين يديك.

وقد أضفت - إلى الأصول التي سبق ويسرّها الله لي - أصلاً مخطوطاً عثرْتُ عليه حديثاً، أفاد في إصلاح بعض ما كان أشكل علينا في طبعاتنا السابقة.

وقد أضفت عليه في هذه الطبعة تعليقات موجزة، زيادة على تعليقاتنا السابقة، لتعين القارئ الكريم، وأحلتُ بعض أحاديثه مجدداً إلى طبعات صدرت مؤخراً وإلى تخريجات أستاذي المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمته الله (١٣٣٢-١٤٢٠هـ) في كتبه - ما أمكن ذلك - بتصرف يسير.

وإنك - يا أخي - ستجد في ذلك: أهمية المنهج العلمي الذي سار عليه أستاذنا الألباني رحمته الله، ويسرّ الله لنا إعانته عليه في المكتب الإسلامي؛ بتقديم السنة الشريفة مسرة لكل مُطَّلِع، مقسمة إلى قسمين؛

الأول: الصحيح والحسن،

والثاني: الضعيف والموضوع^(٢).

وبقي في الكتاب مع ذلك هَنَات؛ لا يخلو منها كتاب، ومخالفات؛ سببها العُلُوُّ في بعض الموضوعات.

وعلى كل؛ فالكتاب نافع إن شاء الله.

(١) ومنها كتابه العظيم «زاد المسير في علم التفسير»: طُبِعَ في المكتب الإسلامي بتحقيقي ومشاركة الأستاذين الفاضلين عبد القادر، وشعيب الأرنؤوط..

(٢) كما في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، و «سلسلة الأحاديث الضعيفة»، و «صحيح الجامع الصغير»، و «ضعيف الجامع الصغير»، و «صحيح الترغيب والترهيب»، و «صحيح الكلم الطيب»؛ وكلها طبع المكتب الإسلامي.

ومؤلف هذا المختصر هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي عمر محمد ابن قدامة كما جاء في الأصول المخطوطة للكتاب.

والذي يغلب على الظن أن (بن محمد) مقحمة. فإن كان هذا الظن صحيحاً، فإنه معروف ومشهور، وله ترجمة في العديد من الكتب. وإليك ما قال ابن رجب الحنبلي عنه في «الذيل على طبقات الحنابلة» باختصار إذ قال:

٤٣٠ - أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، الصالحي، قاضي القضاة، شيخ الإسلام، شمس الدين أبي محمد، ابن الشيخ أبي عمر، وقد سبق ذكر أبيه وجده.

ولد في شعبان سنة إحدى وخمسين وستمئة.

وسمع الحديث ولم يبلغ أوان الرواية، وتفقه على والده. وولي القضاء في حياة والده بإشارته.

قال البرزالي: كان خطيب الجبل، وقاضي القضاة، ومدرس أكثر المدارس وشيخ الحنابلة، وكان فقيهاً فاضلاً، سريع الحفظ، جيد الفهم، كثير المكارم شهماً شجاعاً، ولي القضاء ولم يبلغ ثلاثين سنة، فقام به أتم قيام.

وقال اليونيني: كانت له الخطابة بالجامع المظفرّي، والإمامة بحلقة الحنابلة بجامع دمشق، ونظر أوقاف الحنابلة. وكان مشكور السيرة في ولايته، وعنده معرفة بالأحكام، وفقه نفس، وفضيلة ومشاركة في كثير من العلوم من غير استقلال، وكان يركب الخيل، ويلبس السلاح، ويحضر الغزوات. وحج مراراً.

وقال غيره: ودرس بدار الحديث الأشرفية بالسفح، وشهد فتح طرابلس مع السلطان الملك المنصور. وكان شاباً مليحاً مهيباً، تام الشكل بديناً، ليس له من اللحية إلا شعيرات يسيرة، وكان مليح السيرة، ذكياً مليح الدروس، له قدرة على الحفظ، ومشاركة جيدة في العلوم، وله شعر جيد.

توفي يوم الثلاثاء ثاني عشر جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وستمئة، بمنزله بقاسيون. وصلي عليه ضحوة يوم الأربعاء خارج جامع الجبل، وحضره

نائب السلطنة والأمراء والقضاة والأعيان، ودفن عند أبيه وجده، رحمهما الله تعالى، وكان عمره ثمانية وثلاثين سنة. انتهى كلام ابن رجب.

قلنا: وهذا الذي استظهرناه هو اجتهاد، ولذلك لم نغير اسم المؤلف لا على غلاف الكتاب ولا في المقدمة.

أضف إلى ذلك، أننا لم نجد في كل ما رجعنا إليه، من مظان، مَنْ ذَكَرَ «مختصر منهاج القاصدين» هذا، له أو لغيره، وكذلك في مختصرات «الإحياء». فالتزمنا ما ذكر في المخطوطات، أتباعاً منا للأصول العلمية.

وإنني أرجو الله سبحانه أن يجعلنا من الهداة المهديين، الحافظين لحدوده، الْمُتَّقِينَ سُنَّةَ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وآخر دعوانا ﴿إِنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠﴾ [يونس].

بيروت في ١٤٢١/٢/٤.

زهير الشاوش

فترج بالضم كجد حراميس جمع مزعجت
ويقال أزججه أخله من مكانه الخ

للاطفة الملاعبة أخ
ويروى برينه إليك أتمك أخ

الحاظ بالكسر ملاطفة لك أخ

المتأطأ المضروب
أخ

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله مبتلي المؤمنين في غفلاتهم بمشغلات الألقاظ ومُنْتَهَى التاجيس
من جفلاتهم بملاطفات الوقاظ ومحدث العارفين في خلواتهم بأحلى
الكلمات والألفاظ محمد الزاهد بشرف شهادتهم تأد باحق مرقوا
عن الظاهرين إلى الظاهرة قاموا إلى محاربة النفوس قيام اللبث الحروب
للمفاتيح وحفظوا ما استحقوا وما حفظوا الحفظ أجدد الكثرة فأتيت
العقد أتم الألفاظ وأصلى وأسلم على نبينا محمد الذي أعجز القصر بما جاب
قسا قيس يوم عكاظ وعكالي الله وأصحابه أهل اليقين والتقى والاستيقاظ
صلوة أتقى بها يوم المعين وتبقى والشواظ نابه وقودها الناس والحيوة
عليها ملائكة غلاظ قال مؤلفه عبد الرحمان بن علي بن محمد بن المؤزى
رحمة الله تعالى عليه سميت كتابي هذا ومنهاج القاصدين ومفيد القاصدين
واسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا به ومن قرأه أو سمعه أو نظره أو أن
يجعله خالص الوجهه وأن يحتم لنا خير ويدقق لما يرصيه من القول
والعمل والنية وإن يسامحننا في تقصيرنا ونفرضنا ولا يكلفنا إلى أنفسنا طرفة
عين ولا إلى بعد من خلقه فانه حسبكم من اللوكيل قال المصنف رحمه الله تعالى
بعد فرغه من الخطبة أما بعد فاني أرى أنك أيها المرید الصادق والمجازم
العلوم قد وطلعت نفسك على الخلق عن فضول الدنيا الشاغلة وغزوت
على الألفاظ فقصاع إلى الأخرة على منك أن تحالطة الخلق بوجوب الضابط
وأهمل الحاسية للنفس أصل التفريط وإن لم تجد رك أذكرك الغوث
وإن مراحل الإلهام تسرع بالركب إلى منزل الموت فنظرت أي أنيس
من

منهاج قاصدين لابن الجزري

قال النبي عليه السلام سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله أمام عادل
و شاب نشأ في عبادة الله ثم ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه
حتى يعود إليه ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل
ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه ورجل دعت امرأة ذات حسن
و جمال فقال في أخاف الله رب العالمين ورجل تصدق فاحصاه حتى لا يعلم
شماله ما ينفق بمنه عماد
قال النبي عليه السلام إذا ذكمت البراغيث فخذ قدامك الماء وقرأ عليه سبع مرار
وما لنا إلا لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما أذاقتمونا وعلى
الله فليتوكل المتوكلون إن كنتم امنتم بالله فكفوا عما شئركم فترش الماء
على فراشك فانك نيت ^{خبر} انها البراغيث السود تلك الليل: انما من شرو من النور

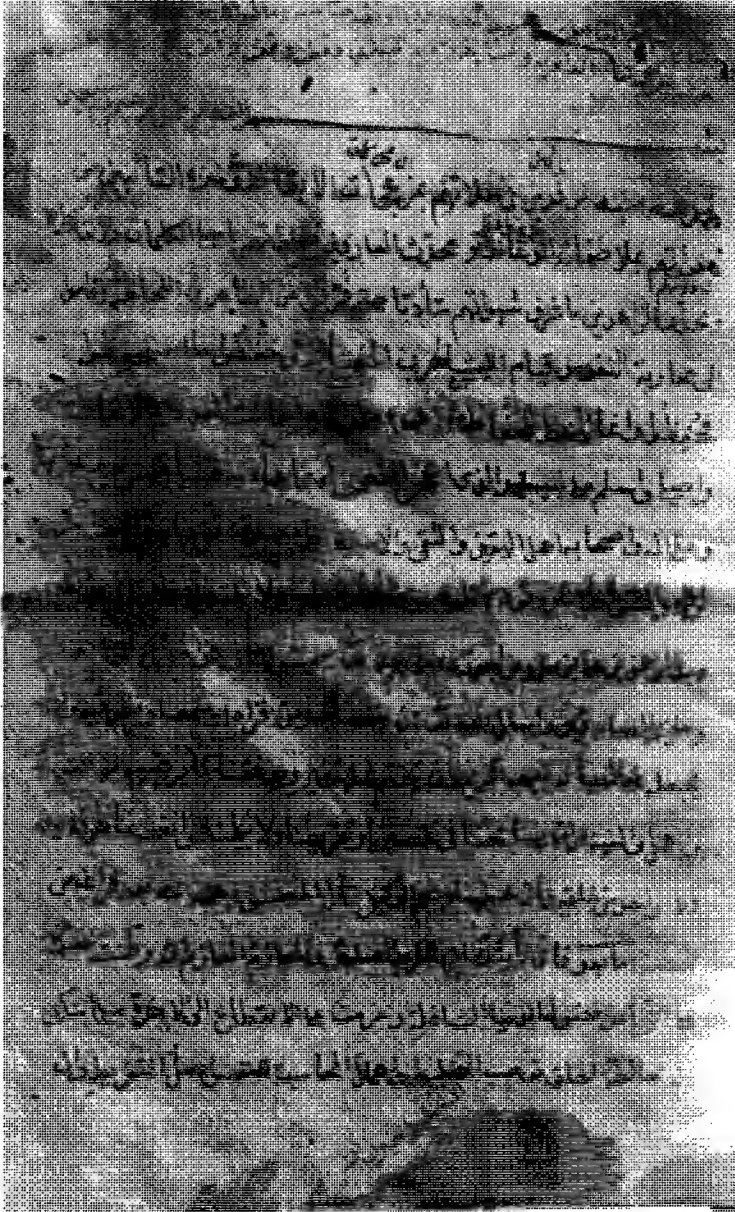
إذا أراد أن لا يجتلم قال النبي عليه السلام من قرأ هذا الدعاء وقت النوم
لم يجتلم قطعا اللهم اني اعوذ بك من الاحتلام وعبادة الشيطان
في اليقظة والنمام

وفي الزنا و إذا أراد أن يدفع البراد من الرزق فليقرأ ثلث مرات أو ايت ما
تحرثون انتم تزرعونوه ام نحن الرارعون ويشير كل مرة باصبعه الى جراد
الارض

إذا أراد شيئا من الحاجات فاضم اسما مختصا من الاسماء الحسني
لمردك الى كلمة التوحيد وداوم على حضور القلب مثل أن يقول
لا اله الا الله الرزاق في طلب الغناء لا اله الا الله المستغنى
طلب الاستقام وقر على هذا سائر ما هذا البحر صحيح لا شك فيها
من رويها



صورة من مخطوطة مكتبة المدرسة القادرية في بغداد



صورة من مخطوطة مكتبة زهير الشاويش الثانية (الملخص)

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِالْإِسْلَامِ

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال الشيخ الإمام العالم العامل الأوحد، نجم الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد العلامة، عز الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد العلامة شيخ الإسلام مفتي الأنام، سيد العلماء والحكام، شمس الدين أبي محمد عبد الرحمن ابن الشيخ الإمام العالم العامل العارف الزاهد الورع شيخ الإسلام، أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، المقدسي الحنبلي رضي الله عنه^(١).

الحمد لله الذي عمّ برحمته جميع العباد، وخصّ أهل طاعته بالهداية إلى سبيل الرشاد، ووقفهم بلطفه لصالح الأعمال؛ ففازوا ببلوغ المراد.

أحمدته حَمْدَ مُغْتَرِفٍ بجزيل الإرفاد^(٢)، وأعوذ به من وَبِيلِ الطرد والإبعاد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أذخرها ليوم المعاد.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، موضح طريق الهدى والرشاد والسداد، قانع الجاحدين والملحدين من أهل الزيغ والعناد، صلّى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه الأكرمين الأجواد، صلاة تبلغه بها نهاية الأمل والمراد.

وَبَعْدُ: فإنني كنت وقفت مرة على كتاب: «منهاج القاصدين ومفيد الصادقين»

(١) جرت عادة العلماء أن يكتب مثل هذه المقدمة التلميذ المتلقي عنهم الكتاب أو الإجازة. ويكون ما بعدها هو كلام الشيخ.

(٢) الإرفاد: الإعطاء والإعانة.

للشيخ الإمام العالم الأوحـد جمال الدين ابن الجوزي، رحمه الله تعالى، فرأيته من أجل الكتب وأنفعها، وأجمعها وأكثرها فوائد، فحصل عندي بموقع، ورغبت في تحصيله ومطالعة. فلما تأملتـه ثانياً، وجدته فوق ما كان في نفسي، لكن رأيتـه كتاباً مبسوطاً، فأحببت أن أعلق منه هذا المختصر الذي قد احتوى على أكثر مقاصده، وأجل مهماته وفوائده، سوى ما ذكر في أوائله من مسائل ظاهرة تتعلق بالفروع، فإنها مشهورة في كتب الفقه المستفيضة بين الناس، إذ كان المقصود من الكتاب غير ذلك.

ولم ألتزم فيه المحافظة على ترتيبه وذكر ألفاظه بعينها، بل ذكرت بعضها بالمعنى قصداً للاختصار، وربما ذكرت فيه حديثاً أو شيئاً يسيراً من غيره إن كان مناسباً له، والله تعالى أعلم.

[قال المصنف]: [بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله منبه الراقدين في غفلاتهم بمزعجات الإيقاظ، ومنزه التائبين من هفواتهم بملاطفات الوعاظ، ومحدث العارفين في خلواتهم بأحلى الكلمات والألفاظ، ومحذر الزاهدين بأشرف شهواتهم تأديباً حتى فرقوا عن الظاهرين للحاظ، وقاموا إلى محاربة النفوس قيام الليث لحرب المغتاز، وحفظوا ما استحفظوا فحفظوا وإنما الحفظ للحفاظ.

أحمده حمداً كثيراً فائت العدد دائم الألفاظ، وأصلي وأسلم على نبيه محمد الذي أعجز الفصحاء بما جاء به قساقيس يوم عكاظ، وعلى آله وأصحابه أهل اليقين والتقوى والاستيقاظ، صلاة أتقي بها يوم البعث حر ﴿لَطَنٌ﴾ وال﴿شَوَاطُ﴾ ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ﴾ [التحریم: ٦٠].

قال مؤلفه عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ : سميت كتابي هذا : «منهاج القاصدين ومفيد الصادقين».

وأسأل الله تعالى أن ينفعنا به ومن قرأه، أو سمعه، أو نظر فيه، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يختم لنا بخير، ويوفقنا لما يرضيه من القول

والعمل والنية، وأن يسامحنا في تقصيرنا وتفريطنا ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا إلى أحد من خلقه، فإنه حسبنا ونعم الوكيل^(١).

قال المصنف [ابن الجوزي] رحمة الله عليه - بعد فراغه من هذه الخطبة:

أما بعد: فإني رأيتك أيها المريد الصادق، والعازم الجازم، قد وطنت نفسك على التخلي عن فضول الدنيا الشاغلة، وعزمت على الانقطاع إلى الآخرة، علماً منك أن مخالطة الخلق توجب التخليط، وإهمال المحاسبة للنفس أصل التفريط، وأن العمر إن لم يستدرك أدركه الفوت، وأن مراحل الأنفاس تسرع بالراكب إلى منزل الموت. فنظرتُ أي أنيس من الكتب تستصحبه في خلوتك، وتستنتقه في حال صمتك، فإذا أنت تؤثر كتاب «إحياء علوم الدين» وتزعم أنفرادك في جنسه، ونفاسته في نفسه.

فأعلم أن في كتاب «الإحياء» آفات لا يعلمها إلا العلماء. وأقلها الأحاديث الباطلة الموضوعية والموقوفة، وقد جعلها مرفوعة، وإنما نقلها كما أقرها لا أنه أفرها، ولا ينبغي التعبد بحديث موضوع، والأغترار بلفظ مصنوع. وكيف أرتضي لك أن تصلي صلوات الأيام ولياليها، وليس فيها كلمة قالها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟!

وكيف أؤثر أن يطرق سمعك من كلام المتصوفة الذي جمعه^(٢) وندب إلى العمل به ما لا حاصل له من الكلام في الفناء، والبقاء، والأمر بشدة الجوع، والخروج إلى السياحة في غير حاجة، والدخول في الفلاة بغير زاد، إلى غير ذلك مما قد كشفتُ عن عواره^(٣) في كتابي المسمى بـ«تلبيس إبليس»^(٤).

(١) هذه الخطبة ما بين الحاصرتين [] قد ابتدئ بها في بعض النسخ من المختصر والأصل أيضاً، وظننا أنها مقدمة ابن الجوزي وقد أسقطها النساخ من المختصر، وبعضهم قد اقتصر على خطبة ابن الجوزي دون خطبة المختصر، ولذلك جمعناهما معاً.

(٢) أي صاحب «الإحياء».

(٣) العوار بالفتح: العيب وقد يضم.

(٤) تحقيق الأستاذ عصام فارس الحرستاني، وخرّج أحاديثه الشيخ محمد إبراهيم الزغلي. وهو من مطبوعات المكتب الإسلامي.

وسأكتب لك كتاباً يخلو عن مفسده، ولا يخلّ بفوائده، أعتمد فيه من النقول: الأصحّ والأشهر، ومن المعنى: الأثبت والأجود، وأحذف ما يصلح حذفه، وأزيد ما يصلح أن يزداد.

ثم قال [ابن الجوزي] بعد ذلك: وإذ قد صبح عزمك على العزلة لأستيفاء حق الحق من النفس، والأخذ على يدها، فليكن وكيلك عليها العلم، وكن باحثاً عن دقائق هواها لعلك تسلم، وأحذر سبيل أحد رجلين:

عالم عرف الجدل في الفقه وأقتنع برئاسته، أو نال القضاء فسعى في حفظ منزلته، أو زخرف الوعظ فضيق أعين شبكته.

أو زاهد يتقلب برأيه الفاسد في جهالته، ويتقرب بتقبييل يده وأعتقاد بركته، ويعمل بهواه دون شرع الله وسنته.

فهذان عادلان عن منهاج الصواب، مقتنعان بقشور الأعمال عن خالص اللباب، خادعان للمبتدئين بلامع السراب، وطريقهما بمعزل عن سنن السلف الصالح الذي هو جادة الاستقامة وطريق السلامة.

وسأدرج لك في هذا الكتاب إن شاء الله من أخبارهم ما يدل على آثارهم. وكتابنا هذا يحتاج إليه المنتهي، كما يفتقر إليه المبتدي، لأن فيه أسرار العبادات، والتحذير من آفات المعاملات.

وقد تبعت المصنف^(١) في تقسيمه الكتاب إلى أربعة أرباع^(٢):

الأول: ربع العبادات.

والثاني: ربع العادات.

والثالث: ربع المهلكات.

والرابع: ربع المنجيات.

وكل واحد من هذه الأقسام الأربعة يشتمل على: كتب، وأبواب، وفصول. فمن أقسام الربع الأول:

(١) يفهم أن هذا مطابق لمختصر ابن الجوزي. وهو كذلك موافق لأصل كتاب الغزالي رحمه الله.

(٢) وفي بعض النسخ: وقد جعله المصنف أربعة أرباع.

رُبْعُ الْعِبَادَاتِ

١ - كِتَابُ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ وَمَا يَنْعَلِقُ بِهِ ^(١)

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. قال ابن عباس: [للعلماء] درجات فوق المؤمنين سبعمئة درجة، ما بين كل درجتين مسيرة خمسمئة عام. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وفي «الصحيحين» من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» ^(٢). وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما: عابد، والآخر: عالم، فقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل علي على أذناكم»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ، وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - حَتَّى النَّمْلَةِ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحَوْتِ - لِيُصَلُّوا عَلَى مُعَلِّمِي النَّاسِ الْخَيْرِ» ^(٣). رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح [غريب].

-
- (١) من أحسن الكتب المؤلفة في فضل العلم «أقتضاء العلم العمل» للحافظ الخطيب البغدادي بتحقيق المحدث الألباني. وكتاب «تعليم المتعلم» للعلامة الزرنوجي، تحقيق الدكتور مروان القباني. وهما من مطبوعات المكتب الإسلامي.
- (٢) هو عند البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧). وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٢٠٢/١٨٠) عن أبي هريرة، طبع مكتب التربية، وتوزيع المكتب الإسلامي. وتنظر «الصحيحة» (١١٩٥-١١٩٥)، و«صحيح الجامع» (٦١١١-٦١١٢).
- (٣) «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٨٥/٢١٦١) ^(*). وهو في «صحيح الترغيب» (٧٧). وما بين الحاصرتين من «تحفة الأشراف» ١٧٧/٤.
-

(*) يلاحظ أننا استعملنا الترميم الأول لطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج بإشرافي، كما استعملنا الترميم الثاني لطبعة أستاذنا الشيخ أحمد شاكر رحمه الله.

وفي حديث آخر: «فَضَّلُ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوْرَثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»^(١) رواه الترمذي، وأبو داود، وابن ماجه.

وعن صفوان بن عَسَّالٍ رضي الله عنه أَن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ»^(٢) رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه.

قال الخطَّابِيُّ: فِي مَعْنَى (وَضَعَهَا أَجْنِحَتَهَا) ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:
أَحَدُهَا: أَنَّهُ بَسَطَ الْأَجْنَحَةَ.

الثَّانِي: أَنَّهُ بِمَعْنَى التَّوَاضُعِ تَعْظِيمًا لَطَالِبِ الْعِلْمِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ النُّزُولُ عِنْدَ مَجَالَسِ الْعِلْمِ وَتَرْكِ الطَّيْرَانِ.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(٣) رواه مسلم.

وَرَوَى عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِيُخَيَّرَ بِهِ الْإِسْلَامَ، كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْجَنَّةِ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ»^(٤).
وفيه أخبار كثيرة.

(١) قطعة من حديث في «صحيح سنن أبي داود» (٣٠٩٦/٣٦٤١)، وكذا «صحيح الترمذي» (٢١٥٩/٣٦٨٢)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٢٣/١٨٢) - وليس عندهما: «ليلة البدر» - عن أبي الدرداء.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٠٥٩)، وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٣٥٣٥/٢٨٠١)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٢٦/١٨٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٣٠٩٧/٣٦٤٣)].

(٤) رواه الدارمي ١/ ١٠٠ من مراسيل الحسن البصري، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/ ١٢٣: فيه محمد بن الجعد متروك.

وكان بعض الحكماء يقول: ليت شِعْري، أي شيء أدرك مَنْ فاتَه العلم،
وأي شيء فات من أدرك العلم.

ومن فضائل التعليم ما أخرجاه في «الصحيحين» عن سهل بن سعد، أن
رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ
من أن يكون لك خُمْرُ النَّعَمِ»^(١).

وقال ابن عباس: (إن الذي يعلم الناس الخير تستغفر له كل دابة حتى
الحوت في البحر)^(٢) وروي نحو ذلك في حديث مرفوع إلى النبي ﷺ.

فإن قيل: ما وجه استغفار الحوت للمعلم؟

فالجواب: أن نفع العلم يعم كل شيء حتى الحوت، فإن العلماء عَرَفُوا
بالعلم ما يحل ويحرم، وأوصوا بالإحسان إلى كل شيء حتى إلى المذبوح
والحوت، فألهم الله تعالى الكل الاستغفار لهم جزاءً لِحُسْنِ صَنِيعِهِمْ.

وعن أبي موسى عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به من
الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء،
فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها
الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا
تمسك ماء ولا تنبت كلاً. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به
فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت
به»^(٣) أخرجاه في «الصحيحين».

فانظر رحمك الله إلى هذا الحديث ما أوقعه على الخلق، فإن الفقهاء أولي
الفهم، كمثل البقاع التي قبلت الماء فأنبتت الكلاً، لأنهم علموا وفهموا،

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦)، وأبو داود [«صحيحه» (٣١٠٩)/
(٣٦٦١)].

(٢) أخرجه الدارمي ٩٩/١ موقوفاً. وصححه الألباني مرفوعاً - بمجموع طريقه عن
عائشة وأبي أمامة المتقدم - في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٨٥٢).

(٣) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

وفرعوا وعلموا. وغاية الناقلين من المحدثين الذين لم يرزقوا الفقه والفهم، أنهم كمثل الأجاذب التي حفظت الماء فانتفع بما عندهم. وأما الذين سمعوا ولم يتعلموا ولم يحفظوا، فهمُ العوامُ الجَهْلَةُ.

وقال الحسن رحمته الله : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم .

وقال معاذ بن جبل رحمته الله : تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومُدارسَتُهُ تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة.

وقال كعب رحمته الله : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ؛ أَنْ : تَعَلَّمْ يا موسى الخير وعَلِّمهُ للناس، فَإِنِّي مُنَوِّرٌ لِمُعَلِّمِ الْخَيْرِ وَمُتَعَلِّمِهِ قُبُورَهُمْ حتَّى لا يستوحشوا بمكانهم .

فصل

[في العلم المحمود والمذموم وأقسامهما العلم فريضة على كل مسلم] ^(١) رواه أحمد في «العلل». قال المصنّف رحمته الله : اختلف الناس في ذلك . وأحكامهما]

فقال الفقهاء : هو علم الفقه، إذ به يعرف الحلال والحرام .

وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة، إذ بهما يُتَوَصَّلُ إلى العلوم كُلِّها .

وقالت الصوفية : هو علم الإخلاص وآفات النفوس .

وقال المتكلمون : هو علم الكلام .

إلى غير ذلك من الأقوال التي ليس فيها قول مرصّي .

والصحيح أنه علم معاملة العبد لربه .

والمعاملة التي كُلِّفَها على ثلاثة أقسام : اعتقاد، وفعل، وترك .

(١) صحيح بمجموع طرقه وشواهده، وينظر «المنتخب من العلل للخلال [عن أحمد]» (٦١-٦٢)، و«صحيح الجامع» (٣٩١٣-٣٩١٤).

فإذا بلغ الصبي، فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناها وإن لم يحصل ذلك بالنظر والدليل، لأن النبي ﷺ اكتفى من أجلاف العرب بالتصديق من غير تعلم دليل، فذلك فرض الوقت، ثم يجب عليه النظر والاستدلال. فإذا جاء وقت الصلاة، وجب عليه تعلم الطهارة والصلاة، فإذا عاش إلى رمضان وجب عليه تعلم الصوم، فإن كان له مال وحال عليه الحول وجب عليه تعلم الزكاة، وإن جاء وقت الحج وهو مستطيع وجب عليه المناسك.

وأما التَّروك، فهو بحسب ما يتجدد من الأحوال، إذ لا يجب على الأعمى تعلم ما يحرم النظر إليه، ولا على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، فإن كان في بلد يُتَعاطى فيه شرب الخمر ولبس الحرير، وجب عليه أن يعرف تحريم ذلك.

وأما الاعتقادات، فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة، وجب عليه تعلم ما يصل به إلى إزالة الشك، وإن كان في بلد قد كثرت فيه البدع، وجب عليه أن يتلقن الحق، كما لو كان تاجراً في بلد قد شاع فيه الربا وجب عليه تعلم الحذر منه.

وينبغي أن يتعلم الإيمان بالبعث والجنة والنار.

فَبَانَ بما ذكرنا أنَّ المراد بطلب العلم الذي هو فرض عين: ما يتعين وجوبه على الشخص.

فأما فرض الكفاية، فهو كل علم لا يُسْتَغْنَى عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان على الصحة. والحساب، فإنه ضروري في قسمة الموارث والوصايا وغيرها.

[بيان العلم
الذي هو فرض
كفاية]

فهذه العلوم لو خلا البلد عمن يقوم بها حَرَجَ أهل البلد، وإذا قام بها واحد، كفى وسقط الفرض عن الباقيين.

ولا يتعجب من قولنا: (إن الطب والحساب من فروض الكفاية)، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفاية، كالفلاحة، والحياسة، بل الحجابة، فإنه لو خلا البلد عن حجام لأسرع الهلاك إليهم، فإن الذي أنزل الداء أنزل

الدواء وأرشد إلى استعماله . وأما التعمق في دقائق الحساب ، ودقائق الطب وغير ذلك ، فهذا يُعدُّ فضلةً ، لأنه يستغنى عنه^(١) .

وقد يكون بعض العلوم مباحاً ، كالعلم بالأشعار التي لا سُخْفَ فيها ، وتواريخ الأخبار .

وقد يكون بعضها مذموماً ، كعلم السحر ، والطلّسمات ، والتليسات .
فأما العلوم الشرعية ، فكلها محمودة ، وتنقسم إلى : أصول ، وفروع ، ومقدمات ، ومتممات .

فالأصول : كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع الأمة ، وآثار الصحابة .
والفروع : ما فهم من هذه الأصول من معان تنبّهت لها العقول حتى فهم من اللفظ الملفوظ وغيره ، كما فهم من قوله : « لا يقضي القاضي وهو غضبان »^(٢) أنه لا يقضي جائعاً .

والمقدمات : هي التي تجري مجرى الآلات ، كعلم النحو واللغة ، فإنهما آلة لعلم كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

والمتممات : كعلم القراءات ، ومخارج الحروف ، وكالعلم بأسماء رجال الحديث وعدالتهم وأحوالهم ، فهذه هي العلوم الشرعية ، وكلها محمودة .

فصل

فأما علم المعاملة - وهو علم أحوال القلب : كالخوف ، والرجاء ، والرضا ، والصدق ، والإخلاص وغير ذلك - فهذا العلم به ارتفع العلماء ، وبتحقيقه اشتهرت أذكراهم ، ك: سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، وأبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد .

(١) إن التَّعَمُّقَ في الطب وسائر العلوم الكونية من الفروض الكفائية التي يجب على المسلمين أن يتقنوها ، ليستفيدوا من نتائجها الطيبة المثمرة التي تعود عليهم بالخير والنفع ، ولا تَقْوَى شوكة المسلمين ، ولا تقوم لهم قائمة إلا بالإسلام عقيدة وفقهاً وجهاً ، والعلوم من وسائل الحياة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) .

(٢) أخرجه البخاري (٧١٥٨) ، ومسلم (١٧١٧) عن أبي بكرة .

وإنما انحطت رتبة المُسمَّين بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات، لتشغلهم بصور العلم من غير أخذ على النفس أن تبلغ إلى حقائقه وتعمل بخفائيه . وأنت تجد الفقيه يتكلم في الظُّهار، واللَّعان، والسبق، والرمي، ويفرع التفريعات التي تمضي الدهور فيها ولا يُحتاج إلى مسألة منها؛ ولا يتكلم في الإخلاص، ولا يحذر من الرياء، ولهذا عليه فرض عين، لأن في إهماله هلاكه، والأول فرض كفاية، ولو أنه سئل عن علة ترك المناقشة للنفس في الإخلاص والرياء لم يكن له جواب . ولو سئل عن علة تشاغله بمسائل اللعان والرمي، لقال : هذا فرض كفاية . ولقد صدق، ولكن خفي عليه أن الحساب فرض كفاية أيضاً، فهلا تشاغل به ! وإنما تبهرج عليه النفس، لأن مقصودها من الرياء والسمعة : يحصل بالمناظرة، لا بالحساب .

واعلم أنه قد بُدِّلَت ألفاظ وحُرِّفَت، ونقلت إلى معان لم يُرِدْها [بيان ما بُدِّل من السلف الصالح .

ألفاظ العلوم]

فمن ذلك : الفقه، فإنهم تصرفوا فيه بالتخصيص، فخصوه بمعرفة الفروع وعللها، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول منطلقاً على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب . ولذلك قال الحسن البصري : (إنما الفقيه : الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لهم)^(١) .

فكان إطلاقهم اسمَ الفقه على علم الآخرة أكثر، لأنه لم يكن متناولاً للفتاوى، ولكن كان متناولاً لذلك بطريق العموم والشمول، فبان من هذا التخصيص تلبيسُ بعث الناس على التجرد لعلم الفتاوى الظاهرة، والإعراض عن علم المعاملة للآخرة .

(١) أخرج بعضه ابن بطة في «إبطال الحيل» (ص ١٦ - بتحقيقي)، وفيه آثار أخرى تنظر (ص ١٢-٢٠) .

اللفظ الثاني: العلم، فقد كان ذلك يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته، أي: نعمه وأفعاله في عباده؛ فخصوه وسمّوا به في الغالب: المناظر في مسائل الفقه وإن كان جاهلاً بالتفسير والأخبار.

اللفظ الثالث: التوحيد، وقد كان ذلك إشارة إلى أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط، فيشمر ذلك التوكل والرضا؛ وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام في الأصول، وذلك من المنكرات عند السلف.

اللفظ الرابع: التذكير والذكر، قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات]. وقال النبي ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فأزنعوا». قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر»^(١)؛ فنقلوا ذلك إلى القصص وما يحتوي عليه اليوم مجلس القاص من الشطح والطامات.

ومن تشاغل في وعظه بذكر قصص الأولين، فليعلم أن أكثر ما يحكى في ذلك لا يثبت، كما ينقلون أن يوسف عليه السلام حلّ بكتته، وأنه رأى يعقوب عاضاً على يده، وأن داود جهز أوريا حتى قتل. فمثل هذا يضر سماعه.

وأما الشطح والطامات، فمن أشد ما يؤذي العوام، لأنها تشتمل على ذكر المحبة والوصال وألم الفراق، وعامة الحاضرين أجلاف، بواطنهم محشوة بالشهوات وحُب الصور، فلا يحرك ذلك من قلوبهم إلا ما هو مُستَكِنٌ في نفوسهم، فيشتعل فيها نار الشهوات، فيصيحون، وكل ذلك فساد.

وربما احتوى الشطح على الدعاوى العريضة في محبة الله تعالى، وفي هذا ضرر عظيم. وقد ترك جماعة من الفلاحين فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوى^(٢).

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٨٧/٣٥١٠) عن أنس.

(٢) ولا يشاهد من أصحاب هذه الطرق التي تدعو لذلك إلا ما لا يصح، وما لا ينفع، وهذا الإمام الغزالي - صاحب الأصل - ينعى عليهم، وكذلك غيره، وحتى يومنا هذا لم يتبدل لهم خلق، ولم يصلح لهم حال.

اللفظ الخامس: الحكمة . والحكمة: العلم والعمل به . =
 = قال ابن قتيبة: لا يكون الرجل حكيماً حتى يجمع العلم والعمل ، وقد صار لهذا الاسم يطلق في هذا الزمان على الطبيب والمُنَجِّم .

فصل

واعلم أن العلوم المحمودة تنقسم إلى قسمين:

الأول: محمود إلى أقصى غاياته، وكلما كان أكثر كان أفضل من العلوم المحمودة]

وأحسن، وهو العلم بالله تعالى، وبصفاته، وأفعاله، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته، والتوصل به إلى سعادة الآخرة، وهو البحر الذي لا يدرك غوره، وإنما يحوم المَحْوَمُونَ على سواحل وأطرافه بقدر ما تيسر لهم .

القسم الثاني: العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص، وهي التي ذكرناها من فروض الكفايات، فإن في كل علم منها اقتصاراً واقتصاداً واستقصاءً .

فكن أحد رجلين: إما مشغولاً بنفسك، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ من نفسك . وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك، واشتغل بإصلاح باطنك وتطهيره من الصفات الذميمة، كالحرص والحسد والرياء والعجب قبل إصلاح ظاهرك، وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى في (رُنع: المَهْلِكَات). فإن لم تتفرغ من ذلك فلا تشتغل بفروض الكفايات، فإن في الخلق كثيراً يقومون بذلك، فإن مُهْلِكَ نَفْسِهِ في طلب إصلاح غيره سَفِيهٌ، ومَثَلُهُ مثل من دخلت العقارب تحت ثيابه وهو يَذُبُّ الذباب عن غيره .

فإن تفرغت من نفسك وتطهيرها - وما أبعد ذلك - فاشتغل بفروض الكفايات ورَاعِ التدرِج في ذلك .

فابتدئ بكتاب الله ﷻ، ثم بسنة رسوله ﷺ، ثم بعلوم القرآن: من التفسير، ومن ناسخ ومنسوخ، ومُحَكَّم ومتشابه، إلى غير ذلك .

وكذلك في السنة، ثم اشتغل بالفروع، وأصول الفقه، وهكذا بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت .
ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلباً للاستقصاء، فإن العلم كثير، والعمر قصير . وهذه العلوم آلات يراد بها غيرها، وكل شيء يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب .

فصل

[بيان التلبس في
تشبيه هذه المناظرات الأخلاق المذمومة، ولا يسلم صاحبها من كبر، لاحتقار
بمشاورات الصحابة الْمُقْصِرِينَ عنه، وَعُجِبَ بنفسه لارتفاعه على كثير من نظرائه . ولا
ومفاوضات السلف] يسلم من الرياء، لأن جمهور مقصود المناظر اليوم عِلْمُ الناس
بغلبته، وإطلاق ألسنتهم بشكره ومدحه، فهو يُذهِبُ عمره في العلوم التي تُعِينُ
على المناظرة بما لا ينفع في الآخرة، ك: حسن اللفظ، وحفظ النوادر .
وقد روي في الحديث عن النبي صَلَّى الله عليه وسلّم أنه قال:
«أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه علمه»^(١) .

(١) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٥٠٧) . قال الألباني في «ضعيف الجامع» (٨٦٨)،
و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١٦٣٤): ضعيف جداً .

باب في آداب المتعلم والمعلم وآفات العلم، وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة

أما المتعلم، فينبغي له تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات، إذ العلم عبادة القلب.

وينبغي له قطع العلائق الشاغلة، فإن الفكرة متى توزعت قصرت عن إدراك الحقائق.

وقد كان السلف يُؤثرون العلم على كل شيء، فروي عن الإمام أحمد رحمته الله أنه لم يتزوج إلا بعد الأربعين، وأُهديت إلى أبي بكر بن الأنباري جارية، فلما دخلت عليه تفكر في استخراج مسألة، فعزبت^(١) عنه، فقال: أخرجوها إلى النّخاس^(٢). فقالت: هل لي من ذنب؟ قال: لا، إلا أن قلبي اشتغل بك، وما قدّر مثلك أن يمنعي علمي!

وعلى المتعلم أن يُلقِي زِمَامَه إلى المعلم إلقاء المريض زِمَامَه إلى الطبيب، فيتواضع له، ويبالغ في خدمته.

وقد كان ابن عباس رضي الله عنه يأخذ بركاب زيد بن ثابت رضي الله عنه ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء.

ومتى تكبر المتعلم أن يستفيد من غير موصوف بالتقدم، فهو جاهل، لأن (الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها). وليدغ رأيه لرأي معلمه، فإن خطأ المعلم أنفع للمتعلم من صواب نفسه.

قال علي رضي الله عنه: إن من حق العالم عليك أن تُسَلِّمَ على القوم عامة، وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشير عنده بيدك، ولا تغمز بعينك، ولا تكثر

(١) أي: خفي عليه حل هذه المسألة.

(٢) هو: بائع الدواب والعبيد.

عليه السؤال، ولا تعينه في الجواب، ولا تلح عليه إذا كَسِلَ، ولا تراجعهُ إذا امتنع، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سرّاً، ولا تغتابنّ عنده أحداً، ولا تطلبينّ عثرته، وإن زلّ قَبِلْتَ معذرتَه، ولا تقولنّ له: (سمعت فلاناً يقول كذا، ولا: إن فلاناً يقول خلافك)، ولا تَصِفَنَّ عنده عالماً، ولا تعرضنّ من طول صحبته، ولا ترفع نفسك عن خدمته، وإذا عرضت له حاجة سبقت القوم إليها، فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء.

وينبغي أن يحترز الخائض في العلم في مبتدأ الأمر من الإصغاء إلى اختلاف الناس، فإن ذلك يحير عقله ويفتر ذهنه. وينبغي له أن يأخذ من كل شيء أحسنه، لأن العمر لا يتسع لجميع العلوم. ثم يصرف من جمام وقته إلى أشرف العلوم، وهو العلم المتعلق بالآخرة، الذي به يكتسب اليقين الذي حصله أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حتى شهد له رسول الله ﷺ فقال: «ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره»^(١).

فهذه وظائف المتعلم.

[بيان وظائف وأما المعلم، فعليه وظائف أيضاً:
المرشد المعلم]

من ذلك: الشفقة على المتعلمين، وأن يُجْزِيَهُمْ مُجْزَى بنيه، ولا يطلب على إفاضته العلم أجراً، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً، بل يُعَلِّمُ لوجه الله تعالى. ولا يرى لنفسه منّة على المتعلمين، بل يرى الفضل لهم إذ هيؤوا قلوبهم للتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلم فيها. فهم كالذي يعير الأرض لمن يزرع فيها، فلا ينبغي أن يطلب المعلم الأجر إلا من الله سبحانه. وقد كان السلف يمتنعون من قبول هدية المتعلم.

ومنها: ألا يدّخر من نصح المتعلم شيئاً، وأن يزجره عن سوء الأخلاق

(١) قال العراقي في «تخريج الإحياء» ٢٣/١: (أخرجه الترمذي الحكيم في «النوادر» [ص ٣٤٥ - المجردة من الإسناد] من قول بكر بن عبدالله المزني [(١٠٦هـ) - (١٠٦هـ)] ولم أجده مرفوعاً). وتنظر «الضعيفة» (٩٦٢).

بطريق التعريض مهما أمكن ، لا على وجه التوبيخ ، فإن التوبيخ يهتك حجاب الهيبة .

ومنها : أن ينظر في فهم المتعلم ومقدار عقله . فلا يلقي إليه ما لا يدركه فهمه ولا يحيط به عقله . فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : «أمرت أن أخطب الناس على قدر عقولهم»^(١) .

وقال علي عليه السلام : إِنَّ هُنَا عِلْمًا لَوْ أَصِبتْ لَهُ حَمَلَتُهُ .
وقال الشافعي رحمه الله :

أَنْتَرُ دُرًّا بَيْنَ سَارِحَةِ النَّعَمِ أُنْظِمُ مَنْشُورًا لِرَاعِيَةِ الْغَنَمِ
وَمَنْ مَنَحَ الْجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمَ
ومنها : أن يكون المعلم عاملاً بعلمه ، ولا يكذب قوله فَعَلَهُ .
قال الله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَكْتُبُونَ ﴾
[البقرة : ٤٤] .

وقال علي عليه السلام : قَصَمَ ظَهري رَجُلَانِ : عَالِمٌ مَتَهَتَكَ ، وَجَاهِلٌ مَتَسَّكَ .

فصل في آفات العلم وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة

علماء السوء^(٢) : هم الذين قَضَوْهم من العلم التنعم بالدنيا ، والتوصل إلى المنزلة عند أهلها . وقد روى أبو هريرة عليه السلام ، عن النبي ﷺ أنه قال : «مَنْ تَعَلَّمَ

(١) أخرجه الحسن بن سفيان - وعنه الديلمي - بسند ضعيف جداً كما قال الحافظ ابن حجر العسقلاني ونقله عنه السخاوي في «المقاصد» (١٨٠) .

لكن روى البخاري (١٢٧) من قول علي : (حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!) . وروى مسلم ١١/١ أن عبد الله بن مسعود قال : (ما أنت بمحدث قوم حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) .

(٢) وأنظر كتاب «تلبيس إبليس» للإمام ابن الجوزي فإنه فضح علماء السوء وتوسع بذلك ، بتحقيق عصام الحارستاني وتخريج محمد الزغلي ، طبع المكتب الإسلامي .

علماً مما يُبتغى به وجه الله ﷻ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة»^(١) يعني: ربحها.

وفي حديث آخر أنه قال: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، فهو في النار»^(٢) رواه الترمذي. وفي ذلك أحاديث كثيرة.

وقال بعض السلف: أشد الناس ندامة عند الموت عالم مُقَرِّط. واعلم أن المأخوذ على العالم أن يقوم بالأوامر والنواهي، وليس عليه أن يكون زاهداً ولا معرضاً عن المباحات، إلا أنه ينبغي له أن يتقلل من الدنيا مهما استطاع، لأنه ليس كل جسم يقبل التقلل، فإن الناس يتفاوتون. وروي أن سفيان الثوري رحمه الله كان حسن المطعم، وكان يقول: إن الدابة إذا لم تحسن إليها في العلف لم تعمل.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يصبر في خشونة العيش على أمر عظيم. والطباع تتفاوت.

ومن صفات علماء الآخرة: أن يعلموا أن الدنيا حقيرة، وأن الآخرة شريفة، وأنهما كالضرتين، فهم يؤثرون الآخرة، ولا تخالف أفعالهم أقوالهم، ويكون مئيلهم إلى العلم النافع في الآخرة، ويجتنبون العلوم التي يقل نفعها إثارة لما يعظم نفعه، كما روي عن شقيق البلخي أنه قال لحاتم: قد صحبتني مدة، فماذا تعلمت؟ قال: ثمان مسائل:

أما الأولى: فإني نظرت إلى الخلق، فإذا كل شخص له محبوب، فإذا وصل إلى القبر فارقه محبوبه، فجعلت محبوبي حسناتي لتكون معي في القبر.

(١) رواه الإمام أحمد (٨٤٣١)، وهو في «صحيح أبي داود» (٣١١٤/٣٦٦٤)، و«صحيح ابن ماجه» (٢٥٢/٢٠٤). وينظر «صحيح الجامع» (٦١٥٩).

(٢) أخرجه بحروفه: الطبراني في «الأوسط»، والبراز (١٧٨) - كما في «المجمع» ١/ ١٨٣ - عن أنس. وقريب من لفظه في «صحيح ابن ماجه» (٢٠٩/٢٦٠) عن أبي هريرة، وكذا عنده (٢٥٣/٢٠٥) عن ابن عمر. وفي «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٥٤/٢١٣٨) عن كعب بن مالك.

وأما الثانية: فإني نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات]، فأجهدتها في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى .

وأما الثالثة: فإني رأيت كل من معه شيء له قيمة عنده يحفظه، ثم نظرت في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، فكلما وقع معي شيء له قيمة وجهته إليه ليبقى لي عنده .

وأما الرابعة: فإني رأيت الناس يرجعون إلى المال والحسب والشرف، وليست بشيء . فنظرت إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ [الحجرات: ١٣]، فعملت في التقوى لأكون عنده كريماً .

وأما الخامسة: فإني رأيت الناس يتحاسدون، فنظرت في قوله تعالى: ﴿تَحَنُّنٌ فَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فتركت الحسد .

السادسة: رأيتهم يتعادون، فنظرت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُرْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، فتركت عداوتهم واتخذت الشيطان وحده عدواً .

السابعة: رأيتهم يذللون أنفسهم في طلب الرزق، فنظرت في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فاشتغلت بما له علي وتركت ما لي عنده .

الثامنة: رأيتهم متوكلين على تجارتهم وصنائعهم وصحة أبدانهم، فتوكلت على الله تعالى .

ومن صفات علماء الآخرة: أن يكونوا منقبضين عن السلاطين، محترزين من مخالطتهم .

قال حذيفة رضي الله عنه: إياكم ومواقف الفتن . قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه .

وقال سعيد بن المسيّب: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء، فاحذروا منه، فإنه لئس .

وقال بعض السلف: إنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه .

ومن صفات علماء الآخرة: ألا يتسرعوا إلى الفتوى، وألا يفتوا إلا بما يَتَقَنَّون صحته. وقد كان السلف يتدافعون الفتوى حتى ترجع إلى الأول.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: (أدركت في هذا المسجد مئة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ، ما أحد يسأل عن حديث أو فتوى إلا وَدَّ أن أخاه كفاه ذلك).

ثم قد آل الأمر إلى إقدام أقوام يدعون العلم اليوم، يُقدِّمون على الجواب في مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع أهل بدر واستشارهم.

ومن صفاتهم: أن يكون أكثر بحثهم في علم الأعمال عما يفسدها ويكدر القلوب ويهيج الوسوس، فإن صور الأعمال قريبة سهلة، وإنما التعب في تصفيتها، وأصل الدين: التوقي من الشر، ولا يصح أن يتوقى حتى يعرف.

ومن صفاتهم: البحث عن أسرار الأعمال الشرعية، والملاحظة لِجَكمها.

فإن عَجَزَ عن الاطلاع على العلة كفاه التسليم للشرع.

ومن صفاتهم: اتباع الصحابة وخيار التابعين وتوقى كُلَّ مُخَدَّث.

٢ - كِتَابُ الطَّهَارَةِ وَأَسْرَارِهَا وَالصَّلَاةِ وَمَا يَنْعَلِقُ بِهَا

أَعْلَمُ أَنَّ الطَّهَارَةَ لَهَا أَرْبَعُ مَرَاتِبَ :

الأولى : تطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس والفضلات .

الثانية : تطهير الجوارح من الذنوب والآثام .

والثالثة : تطهير القلوب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة .

والرابعة : تطهير السر عما سوى الله تعالى، ولهذا هو الغاية القصوى، فمن قَوِيَتْ بصيرته سَمَتْ إلى هذا المطلوب، ومن عَمِيَتْ بصيرته لم يفهم من مراتب الطهارة إلا المرتبة الأولى، فتراه يضيع أكثر زمانه الشريف في المبالغة في الاستنجاء وغسل الثياب: ظَنًّا منه - بحكم الوسوسة وقِلَّة العلم - أن الطهارة المطلوبة هي هذه فقط، وجهلاً بِسِيَرِ المتقدمين الذين كانوا يستغرقون الزمان في تطهير القلوب ويتساهلون في أمر الظاهر. كما روي عن عمر رضي الله عنه أنه توضأ من جَرَّة نصرانية^(١). وكانوا لا يكادون يغسلون أيديهم من الزَّهْم^(٢) ويصلُّون على الأرض، ويمشون حفاة، ويقتصرون في الاستجمار على الأحجار.

وقد انتهى الأمر إلى قوم يُسَمُّون الرُّعُونَ^(٣) نظافة، فترى أكثر زمانهم يمضي في تزيين الظواهر، وبواطنهم خراب مَخْشُوءٌ بخبائث الكِبَر والعُجْب، والجهل، والرياء، والنفاق. ولو رأوا (مقتصرأ على الاستجمار على الحجر، أو حافياً يمشي على الأرض، أو على من يصلي عليها من غير حائل، أو متوضئاً من آنية عجوز) لأنكروا عليه أشد الإنكار، ولَقَّبُوهُ بالقَذِر، واستنكفوا

(١) صحيح. علق البخاري أصله [قبل (١٩٣)] ووصله البيهقي ٣٢/١.

(٢) هو الوسخ الدسم.

(٣) الرعونة: هي الحمافة.

من مؤاكلته . فانظر كيف جعلوا البذاذة^(١) - التي هي من الإيمان - قذارة ، والرعونة نظافة ، وصيروا المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً . لكن من قصد بهذه الطهارة النظافة ولم يسرف في الماء ، ولم يعتقد أن استعمال الماء الكثير أصل الدين : فليس ذلك بمنكر ، بل هو فعل حسن . وليرجع في معرفة الأنجاس والأحداث إلى كتب الفقه ، فإن المقصود من هذا الكتاب الآداب .

[إزالة] وأما إزالة الفضلات ، فهي نوعان :

[الفضلات]

أوساخ تزال ، كالذي يجتمع في الرأس من الوسخ والدّرَن ، فيستحب تنظيفه بالغسل والترحيل^(٢) والتدهين لإزالة الشُّعث ، وكذلك ما يجتمع في الأذن والأنف من الوسخ يستحب إزالته .

ويستحب التسوك والمضمضة لإزالة ما على الأسنان واللسان من القَلَح^(٣) ، وكذلك وسخ البراجم^(٤) ، والدرن الذي يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق ، وذلك يزيله الغسل .

ولا بأس بدخول الحمام ، فإنه أبلغ في الإزالة ، وقد دخله جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ، لكن على داخله صيانة عورته من نظر الغير إليها ولمسه إياها . وينبغي للدّاخل إليه أن يتذكر بحرارته حرّ النار ، فإن فكر المؤمن لا يزال يجول في كل شيء من أمور الدنيا فيذكر به أمور الآخرة ، لأن الغالب على المؤمن أمر الآخرة ، وكل إناء ينضح بما فيه . ألا ترى أنه لو دخل إلى دار معمورة : بَزَّازٌ ، وَنَجَّارٌ ، وَبَنَاءٌ ، وَحَائِكٌ ، رأيت البَزَّاز ينظر إلى الفراش يتأمل قيمتها ، والحائك ينظر إلى نسج الثياب ، والنَّجَّار ينظر إلى سقف الدار ، والبَنَاء ينظر إلى الحائط . فكذلك المؤمن إن رأى ظُلْمَةً ذكر ظلمة القبر ، وإن سمع

(١) البذاذة : رثانة الهيئة ، أراد التواضع في اللباس وترك التبجح والتفاخر . و«البذاذة من الإيمان» في «صحيح الجامع» (٢٨٧٩ - طبع المكتب الإسلامي) .

(٢) ترحيل الشعر : تسريحه وتنظيفه وتحسينه .

(٣) القلح : وسخ الأسنان ويؤدي إلى مرضها .

(٤) البراجم : عقد أصابع اليدين .

صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور، وإن رأى نعيماً ذكر نعيم الجنة، وإن رأى عذاباً ذكر النار.

ويكره دخول الحمام قريباً من الغروب وبين العشاءين، فإنه وقت انتشار الشياطين.

النوع الثاني من إزالة الفضلات: أجزاء تحذف، مثل قص الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وقص الأظافر. ويكره تنف الشيب، ويستحب خضابه. وباقي مراتب الطهارة يأتي في (ربع: المَهْلِكَات) و (المُنْجِيَات) إن شاء الله تعالى.

[كتاب: أسرار

الصلاة ومهمات]

فصل

وأما الصلاة فإنها عماد الدين وُغْرَةُ الطاعات. وقد ورد في فضائل الصلاة أخبار كثيرة مشهورة.

ومن أحسن آدابها الخشوع.

[فضيلة

وقد روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من امرئ الخشوع تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت له كَفَّارَةً لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة، وذلك الدهر كله»^(١). وله في حديث أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «من صلى ركعتين لا يُحَدِّثُ فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٢).

وكان ابن الزبير رضي الله عنه إذا قام في الصلاة كأنه عُوذٌ؛ من الخشوع، وكان يسجد

(١) رواه مسلم (٢٢٨). ومعنى «ما لم يؤت كبيرة»، أي: ما لم يعملها. قال النووي: معناه أن الذنوب كلها تغفر إلا الكبائر؛ فإنها تكفرها التوبة أو الرحمة. «وذلك الدهر كله»، أي: التكفير بسبب الصلاة مستمر في جميع الأزمان، لا يختص بزمان دون زمان، فانتصاب الدهر على الظرفية. اهـ من حاشية «صحيح مسلم».

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩)، ومسلم (٢٢٦)، وأبو داود «صحيحه» (٩٧/١٠٦)، والنسائي «صحيحه» (٨٢ و ١١٢).

فتنزل العصفير على ظهره لا تحسبه إلا جَذَع حائط، وصلى يوماً في الجِجْر^(١) فجاء حجرٌ قدامه^(٢) فذهب ببعض ثوبه فما انقتل .

وقال مَيْمُون بن مِهْرَان رضي الله عنه : ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتاً في صلاةٍ قَطُّ، ولقد انهدمت ناحية المسجد ففزع أهل السوق لِهَدمِها، وإنه لفي المسجد يصلي فما التفت .

وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ اضفّر لَوْنُهُ، فقليل له : ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فقال : أتدرون بين يدي مَنْ أريد أن أقوم؟

[في الشروط الباطنة من أعمال القلب] واعلم أن للصلاة أركاناً وواجبات وسنناً، وروحها النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب، فإن الصلاة تشتمل على أذكار ومناجاة وأفعال، ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة، لأن النطق إذا لم يُعْرَبْ عما في الضمير كان بمنزلة الهَذْيَان، وكذلك لا يُحْصَل المقصود من الأفعال، لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة، ومن الركوع والسجود الذُّلُّ والتعظيم، ولم يكن القلب حاضراً، لم يحصل المقصود، فإن الفعل متى خرج عن مقصوده بقي صورة لا اعتبار بها. قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]. والمقصود أن الواصل إلى الله سبحانه هو الوصف الذي استولى على القلب حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة، فلا بد من حضور القلب في الصلاة. ولكن يُسامح الشارع في غفلة تطرأ، لأن حضور القلب في أولها ينسحب حكمه على باقيها.

والمعاني [الباطنة] التي تتم بها حياة الصلاة كثيرة:

[بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة] منها: حضور القلب كما ذكرنا، ومعناه أن يفرغ القلب من غير ما هو مُلَابِسٌ له، وسبب ذلك الهِمَّةُ، فإنه متى أَهَمَّكَ أمر حضر قلبك ضرورة، فلا علاج لإحضاره إلا صرف الهمة إلى الصلاة.

(١) الحجر: حطيم الكعبة.

(٢) في النسخة الثانية: قذافه. وهي المنجنيق.

وانصراف الهمة يَفْقُو وَيَضْعُفُ بحسب قوة الإيمان بالآخرة واحتقار الدنيا، فمتى رأيت قلبك لا يحضر في الصلاة، فاعلم أن سببه ضَعْفُ الإيمان، فاجتهد في تقويته .

المعنى الثاني: التَّفَهُمُ لمعنى الكلام، فإنه أمر وراء حضور القلب، لأنه ربما كان القلب حاضراً مع اللفظ دون المعنى، فينبغي صرف الذهن إلى إدراك المعنى بدفع الخواطر الشاغلة وقطع موادها، فإن المواد إذا لم تنقطع لم تنصرف الخواطر عنها .

والمواد: إما ظاهرة وهي ما يشغل السمع والبصر . وإما باطنة، وهي أشد، كمن تَسَعَّبَتْ به الهموم في أودية الدنيا، فإنه لا ينحصر فِكْرُهُ في فنٍّ واحد، ولم يُغْنِهِ غَضُّ البصر؛ لأن ما وقع في القلب كافٍ في الاشتغال به .
وعلاج ذلك :

إن كان من المواد الظاهرة، بقطع ما يَشْغَلُ السَّمْعَ والبَصَرَ، وهو القُرْبُ من القبلة، والنظر إلى موضع سجوده، والاحتراز في الصلاة من المواضع المنقوشة، وألاً يترك عنده ما يشغل حِسَّهُ، فإن النبي ﷺ لما صَلَّى في أُنْجَانِيَّة^(١) لها أعلامٌ نَزَعَهَا وقال: «إِنهَا أَلْهَتْنِي أَنْفَاءً عَنِ صَلَاتِي»^(٢) .

وإن كان من المواد الباطنة، فطريق علاجه أن يَرُدَّ النفس قهراً إلى ما يقرأ في الصلاة وَيَشْغَلَهَا به عن غيره، وَيَسْتَعِدَّ لذلك قبل الدخول في الصلاة، بأن يقضي أشغاله، ويجتهد في تفرغ قلبه، وَيُجَدِّدُ عَلَى نفسه ذكر الآخرة وخطر

(١) بكسر الباء، ويروى بفتحها: كساء منسوب إلى منبج بكسر الباء: مدينة في شرق حلب، وَفُتِحَتْ في التَّسَبُّبِ، وهو الأصح، فقد كانت تصل الثياب والفراء منها إلى الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية . وقيل: إلى موضع اسمه أنجان وراء النهر .

(٢) هو في البخاري (٣٧٣)، ومسلم (٥٥٦)، و«صحيح أبي داود» (٤٠٥٢/٣٤١٨)، و«صحيح النسائي» (٧٤٣)، و«صحيح ابن ماجه» (٣٥٥٠/٢٨٥٩) عن عائشة .

القيام بين يَدَيِ اللَّهِ ﷻ وهول المَطْلَع، فإن لم تَسْكُنِ الأفكارُ بذلك، فليعلم أنه إنما يتفكر فيما أَهَمَّهُ وأَشْتَهَاه، فليترك تلك الشهوات وليقطع تلك العلائق.

وأعلم أن العلة متى تمكّنت لا يَنفَعُها إلا الدواء القوي، والعلة إذا قويت جاذبت المَصْلِيَّ وجاذبها إلى أن تنقضي الصلاة في المجاذبة، ومثل ذلك كمثّل رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره، وكانت أصوات العصفير تشوش عليه، وفي يده خشبة يُطَيِّرُها بها، فما يستقر فكره حتى تعود العصفير فيشتغل بها، فقليل له: هذا شيء لا ينقطع، فإن أردت الخلاص فأقطع الشجرة. فكذلك شجرة الشهوة إذا عَلَتْ وتفرعت أغصانها، أُنْجَذِبَتْ إِلَيْهَا الأفكار كأنجذاب العصفير إلى الأشجار والذباب إلى الأقدار. فذهب العمر النفيس: في دفع ما لا يندفع، وسبب هذه الشهوة التي توجب هذه الأفكار: حُبُّ الدنيا.

قيل لعامر بن عبد قيس: هل تُحدّثك نفسك في شيء من أمور الدنيا في الصلاة؟ فقال: لَأَنْ تختلف الأَسِنَّةُ فِي أَحَبِّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أجد هذا.

وأعلم أن قطع حب الدنيا عن القلب أمر صعب، وزواله بالكلية عزيز، فليقع الاجتهاد في الممكن منه، والله الموفق المعين.

الثالث: التعظيم لله والهيبة، وذلك يتولد في شيئين: معرفة جلال الله تعالى وعَظَمَتِهِ، ومعرفة حقارة النفس وأنها مستعبدة. فيتولد من المعرفتين: الاستكانة، والخشوع.

- ومن ذلك: الرجاء: فإنه زائد على الخوف، فكم من مُعْظَمٍ مَلِكاً يهابه لخوف سَطَوَتِهِ كما يرجو بَرَّهُ.

والمصلي ينبغي أن يكون راجياً بصلاته الثواب، كما يخاف من تقصيره العقاب.	[بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في
وينبغي للمصلي أن يحضر قلبه عند كل شيء من الصلاة، فإذا	القلب - عند كل
سمع نداء المؤذن فليمثل النداء للقيام ويشمر للإجابة، ولينظر	ركن وشرط - من
ماذا يجيب، وبأي بدن يحضر، وإذا ستر عورته، فليعلم أن	أعمال الصلاة]

المراد من ذلك تغطية فضائح بدنه عن الخلق، فليذكر عورات باطنه وفضائح سرّه التي لا يطلع عليها إلا الخالق وليس لها عنه ساتر، وأنها يكفرها: الندم، والحياء، والخوف .

وإذا استقبل القبلة، فقد صرف وجهه عن الجهات إلى جهة بيت الله، فَصَرَفَ قلبه إلى الله تعالى أولى من ذلك، فكما أنه لا يتوجه إلى جهة البيت إلا بالأنصراف عن غيرها، كذلك القلب لا ينصرف إلى الله تعالى إلا بالأنصراف عما سواه .

وإذا كبرت أيها المصلي، فلا يكذب قلبك لسانك، إلا إذا كان في قلبك شيء أكبر من الله تعالى فقد كذبت . فأحذر أن يكون الهوى عندك أكبر بدليل إثارك موافقته على طاعة الله تعالى .

فإذا استعذت، فأعلم أن الاستعاذة هي لَجَأٌ إلى الله سبحانه، فإذا لم تلجأ بقلبك كان كلامك لغواً، وتفهم معنى ما تتلو، وأحضر التفهم بقلبك عند قولك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) وأستحضر لطفه عند قولك: ﴿الْكَفَى الرَّجِيءُ﴾، وعظمته عند قولك: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٣)، وكذلك في جميع ما تتلو .

وقد روينا عن زرارة بن أوفى أنه قرأ في صلاته: ﴿فَإِذَا نَقَرَ فِي النَّاقُورِ﴾ (٤) [المدرثر]، فَخَرَّ مَيِّتاً^(١)، وما ذاك إلا لأنه صور تلك الحال فأثرت عنده التلف .

وأستشعر في ركوعك التواضع، وفي سُجُودك زيادة الذلّ، لأنك وضعت النفس موضعها، ورددت الفرع إلى أصله بالسجود على التراب الذي خلقت منه، وتفهم معنى الأذكار بالذوق .

وأعلم أن أداء الصلاة بهذه الشروط الباطنة سبب لِعِلاء القلب من الصدأ وحصول الأنوار فيه التي بها تلمح عظمة المعبود، وتطلع على أسرارهِ ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٥) [العنكبوت] .

(١) حسن الإسناد، أخرجه الترمذي [صحيح سننه] - (٤٤٥/٣٦٦) .

فأما من هو قائم بصورة الصلاة دون معانيها، فإنه لا يطلع على شيء من ذلك بل ينكر وجوده.

فصل في آداب تتعلق بصلاة الجمعة ويوم الجمعة

وهي نحو من خمسة عشر:

أحدها: أن يستعد لها من يوم الخميس وفي ليلة الجمعة: بالتنظيف، وغسل الثياب، وإعداد ما يَصْلُحُ لها.

الثاني: الاغتسال في يومها، كما جاء في الأحاديث في «الصحيحين» وغيرها^(١) والأفضل في الاغتسال أن يكون قبل الرواح إليها بزمان يسير.

الثالث: التزيّن بتنظيف البدن، وقص الأظفار، والسواك، وغير ذلك مما تقدم من إزالة الفضلات، وبتطيب ولبس أحسن ثيابه.

الرابع: التبكير إليها ماشياً. وينبغي للساعي إلى الجامع أن يمشي بسكون وخشوع، وينوي الاعتكاف في المسجد إلى وقت خروجه.

الخامس: ألا يتخطى رقاب الناس، ولا يفرق بين اثنين إلا أن يرى فرجة فيتخطى إليها.

السادس: ألا يمر بين يدي المصلي.

السابع: أن يطلب الصف الأول، إلا أن يرى منكراً أو يسمعه فيكون له في التأخر عُذْر.

الثامن: أن يقطع التنفل من الصلاة والذكر عند خروج الإمام من صومعته، ويشغل بإجابة المؤذن، ثم بأستماع الخطبة.

التاسع: أن يصلي السنة بعد الجمعة إن شاء ركعتين، وإن شاء أربعاً، وإن شاء ستاً.

العاشر: أن يقيم في المسجد حتى يصلي العصر، وإن أقام إلى المغرب فهو أفضل.

(١) فيه الكثير ومنها ما جاء في «صحيح الترغيب» (٧٠٣-٧٠٦).

الحادي عشر: أن يراقب الساعة الشريفة التي في يوم الجمعة بإحضار القلب وملازمة الذكر.

وَأُخْتَلِفَ في هذه الساعة: ففي أفراد مسلم من حديث أبي موسى: أنها ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تُقضى الصلاة^(١).

وفي حديث آخر: هي ما بين فراغ الإمام من الخطبة إلى أن تقضى الصلاة^(٢). وفي حديث جابر: أنها آخر ساعة بعد العصر^(٣).

وفي حديث أنس قال: «التمسوها ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس»^(٤). وقال أبو بكر الأثرم: لا تخلو هذه الأحاديث من وجهين: إما أن يكون بعضها أصح من بعض. وإما أن تكون هذه الساعة تنتقل في الأوقات كَتَنَقُّلِ ليلة القدر في ليالي العشر.

الثاني عشر: أن يُكثِرَ من الصلاة على النبي ﷺ في هذا اليوم، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من صَلَّى عليَّ في يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة»^(٥). وإن أحب زاد في الصلاة عليه الدعاء له، كقوله:

(١) هذا الحديث مع أنه في «صحيح مسلم» (٨٥٣) فقد قال الألباني في «ضعيف أبي داود» (١٠٤٩/٢٢٩): (ضعيف - والمحمول موقوف). أي أن الراجح أنه من قول أبي موسى.

(٢) «ضعيف سنن ابن ماجه» (١١٣٨/٢٣٥)، و«ضعيف سنن الترمذي» (٤٩٠/٧٥) عن عمرو بن عوف، طبع المكتب الإسلامي.

(٣) هو في «صحيح أبي داود» (١٠٤٨/٩٢٦)، و«صحيح النسائي» (١٣١٦). ومعناه في «صحيح ابن ماجه» (١١٣٩/٩٣٤) عن ابن سلام مرفوعاً.

(٤) «صحيح الترمذي» (٤٨٩/٤٠٦). وتنظر «المشكاة» (١٣٦٠)، و«الصحيح» (٢٥٨٣).

(٥) حكم عليه الألباني جملةً بالوضع في «الضعيفة» (٢١٥) وساقه من حديث أنس؛ الذي أخرجه عنه الخطيب في «تاريخ بغداد» ٤٨٩/١٣، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٧٩٦). وأخرجه من حديث أبي هريرة: ابن شاهين في «الأفراد» وغيرها، وابن بشكوال من طريقه، وأبو الشيخ وغيرهم وكذا الأزدي. وأخرجه ابن بشكوال عن سهل بن عبد الله =

(اللهم آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، والدرجة الرفيعة، وأبعثه المقام المحمود الذي وعدته، اللهم أجز نبينا عنا ما هو أهله). ولْيُضَفَّ إِلَى الصَّلَاةِ الاستغفار، فإنه مستحب في ذلك اليوم.

الثالث عشر: أن يقرأ سورة الكهف، فقد جاء في حديث من رواية عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ألا أحدثكم بسورة مَلَأَ عِظْمُهَا ما بين السماء والأرض، ولكاتبها من الأجر مثل ذلك. وَمَنْ قَرَأَهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُفِرَ لَهُ ما بينها وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام. ومن قرأ الخُمُسَ الأواخر منها عند نومه بعثه الله تعالى أي الليل^(١) شاء؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «سورة الكهف»^(٢).

وروي في حديث آخر: أن من قرأها في يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وفي الفتنة^(٣).

ويستحب أن يُكثِرَ من قراءة القرآن في يوم الجمعة، وأن يختم فيه، أو في ليلة الجمعة إن قدر.

الرابع عشر: أن يتصدق في يوم الجمعة بما أمكن، ولتُكُنْ صدقته خارج المسجد. ويستحب أن يصلي صلاة التسبيح في يوم الجمعة.

الخامس عشر: يستحب أن يجعل يوم الجمعة لأعمال الآخرة، ويَكْفُ عن جميع أشغال الدنيا.

= أما جملة (اللهم آتِ محمداً الوسيلة . . .) فلم نجد أحداً من السلف فعله، وقد ثبت بعضه بعد الأذان.

(١) أي: أي جزء من الليل.

(٢) أخرجه ابن مردويه والديلمي، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٢١٦٠)، و«الضعيفة» (٢٤٨٢): ضعيف جداً.

(٣) أخرجه ابن مردويه والضياء في «المختارة» عن علي، وقال عبد الحق في «أحكامه»: سنده مجهول. كذا في «شرح الإحياء» ٢٩٢/٣.

فصل في ذكر النوافل

وأعلم أن ما عدا الفرائض من الصلاة ثلاثة أقسام: سنن، ومستحبات، وتطوعات.

ونعني بالسنة: ما نُقِلَ عن رسول الله ﷺ المواظبة عليه، كالرواتب عُقِيب الفرائض والوتر.

ونعني بالمستحب: ما ورد الخبر بفضلله ولم تُثَقَلِ المواظبة عليه، كالصلاة عند دخول المنزل والخروج منه.

ونعني بالتطوعات: ما وراء ذلك مما لم يرد به خبر، لكن العبد يتطوع بفعله. وتسمى هذه الأقسام الثلاثة: نوافل، لأن النفل هو زيادة، وهذه زيادة على الفرائض.

وأعلم أن أفضل تطوعات البدن: الصلاة.

وأقسام النوافل وفضائلها مشهورة مذكورة في كتب الفقه وغيرها، لكن نذكر منها صلاة التسبيح، لأنها قد تخفى صفتها على بعض الناس. فروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال للعباس: «يا عمّاه، ألا أُعْطِيكَ، ألا أُعَلِّمُكَ» وذكر الحديث إلى أن قال: «تصلي أربع ركعات، تقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم قلت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خُمُسَ عَشْرَةَ مرة، ثم تركع وتقولها وأنت راکع عَشْرًا، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عَشْرًا، ثم تهوي ساجداً فتقولها وأنت ساجد عَشْرًا، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عَشْرًا، ثم تسجد فتقولها عَشْرًا، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عَشْرًا قبل أن تقوم، فذلك خمس وسبعون، تفعل ذلك في أربع ركعات. إن استطعت أن تُصَلِّيَهَا في كل يوم مرة فأفعل، فإن لم تفعل، ففي كل جمعة مرة، فإن لم تفعل، ففي كل شهر مرة، فإن لم تفعل، ففي كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة»^(١).

(١) هو في «صحيح أبي داود» (١١٥٢/١٢٩٧)، و«صحيح ابن ماجه» (١١٣٩/

١٣٨٧)، و«صحيح ابن خزيمة» (١٢١٦).

فصل

[أوقات النهي ولا يتطوع في أوقات النهي بصلاة لا سبب لها، كصلاة التسبيح، عن الصلاة] لأن النهي مؤكد فيها عن الصلاة، وهذه الأشياء ضعيفة فلا تقاومه . وأما ما له سبب، كتحية المسجد، وصلاة الكسوف، والاستسقاء ونحوها، فعلى روايتين :

وأعلم أن النهي عن الصلاة في الأوقات الثلاثة له ثلاثة أسرار : أحدها : ترك التشبه بعباد الشمس .

الثاني : التحذير من السجود لقرن الشيطان، فإن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان، فإذا أرتفعت فارقتها، فإذا أستوت قارنها، فإذا زالت الشمس فارقتها، فإذا تضيقت للغروب قارنها، فإذا غربت فارقتها .

الثالث : أن سالكي طريق الآخرة مواظبون على العبادات، والمواظبة على نمط واحد يورث الملل، فإذا وقع المنع زاد النشاط، لأن النفس حريصة على ما مُنعت منه، فَمُنِعَ الإنسان من الصلاة في أوقات النهي، ولم يُمنع من نوع آخر من التعبد، كالقراءة، والتسبيح؛ لِيُنْتَقَلَ العابدُ من حالٍ إلى حالٍ، كما جعلت الصلاة متنوعة بين : قيام، وقعود، وركوع، وسجود، والله أعلم .

٣ - كِتَابُ الزَّكَاةِ وَأَسْرَارِهَا وَمَا يَنْعَلِقُ بِهَا

الزكاة أحد مباني الإسلام، وقد قرنها الله ﷺ، بالصلاة، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣، ٨٣، ١١٠. النساء: ٧٧. النور: ٥٦. المزمل: ٢٠].

أما أنواع الزكاة، وأقسامها، وأسباب وجوبها، فظاهر مشهور في مظانّه من كتب الفقه، وإنما نذكر ههنا بعض الشروط والآداب.

فمن الشروط أن يُخْرِجَ المنصوص عليه، ولا يخرج القيمة في الصحيح، فإن من أجاز إخراج القيمة إنما تَلَمَّحَ سَدَّ الخَلَّةِ فقط، وسد الخلة ليس هو كل المقصود بل بعضه، فإن واجبات الشرع ثلاثة أقسام:

[في الأداء
وشروطه الباطنة
والظاهرة]

قسم: تعبد محض، كرمي الجمار، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليُظْهِرَ عبودية العبد بفعل ما لا يعقل له معنى، لأن ما يعقل معناه يساعد عليه الطبع ويدعو إليه، فلا يَظْهَرُ خلوص العبودية به، بخلاف ما ذكرنا.

والقسم الثاني: عكس ذلك، وهو ما لا يقصد منه التعبد، بل المقصود منه حَظُّ مَحْضٍ، كقضاء دين الأدميين، ورَدُّ المغصوب ونحو ذلك. وكذلك لا تعتبر فيه النية ولا الفعل، بل كيفما وصل الحق إلى مُسْتَحِقِّهِ حصل المقصود وسقط خطاب الشرع. فهذان قسمان لا تركيب فيهما.

وأما القسم الثالث: فهو المركب، وهو أن يقصد منه الأمران جميعاً: امتحان المُكَلَّفِ، وحظ العباد، فيجتمع فيه تَعَبُدٌ رمي الجمار، وحظ رَدِّ الحقوق، فلا ينبغي أن ينسى أدق المَعْنَيْنِ وهو التعبد، ولعل الأَدَقُّ هو الأَهَمُّ. والزكاة من هَذَا القبيل، فحظ الفقير مقصود في سَدِّ الخَلَّةِ، وحق التعبد مقصود الشرع في أَتْبَاعِ التفاصيل، وبهذا الاعتبار صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج والله أعلم.

فصل في دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

اعلم أن على مريد الآخرة في زكاته وظائف:

الأولى: أن يفهم المراد من الزكاة، وهو ثلاثة أشياء: ابتلاء مدعي محبة الله تعالى بإخراج محبوبه، والتزهد عن صفة البخل المهلك، وشكر نعمة المال.

الوظيفة الثانية: الإسرار بإخراجها لكونه أبعد من الرياء والسمعة. وفي الإظهار إذلال الفقير أيضاً، فإن خاف أن يتهم بعدم الإخراج أعطى من لا يبالي من الفقراء بالأخذ بين الجماعة علانية، وأعطى غيره سراً.

الوظيفة الثالثة: ألا يفسدها ﴿بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وذلك أن الإنسان إذا رأى نفسه محسناً إلى الفقير، مُنِعِماً عليه بالإعطاء؛ ربما حصل منه ذلك. ولو حقق النظر لرأى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله الذي هو طهرة له. وإذا استحضر مع ذلك أن إخراج الزكاة شكر لنعمة المال؛ فلا يبقى بينه وبين الفقير معاملة. ولا ينبغي أن يحتقر الفقير لفقره، لأن الفضل ليس بالمال ولا النقص بعلمه.

الوظيفة الرابعة: أن يستصغر العطية، فإن المُسْتَغْظَمَ للفعل مُعْجَبٌ به. وقد قيل: لا يَتِمُّ المعروف إلا بثلاث: بتصغيره، وتعجيله، وستره.

الوظيفة الخامسة: أن يتقي من ماله أحله وأجوده وأحبه إليه.

أما الحل، فـ «إن الله» - تعالى - «طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً»^(١).

وأما الأجود، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَيْتَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. وينبغي أن يلاحظ في ذلك أمرين: أحدهما: حق الله ﷻ بالتعظيم له، فإنه أحق من اختيار له، ولو أن الإنسان قدم إلى ضيفه طعاماً رديئاً لأَوْغَرَ صدره. والثاني: حق نفسه، فإن الذي يُقَدِّمه هو الذي يلقاه غداً في القيامة، فينبغي أن يختار الأجود لنفسه.

وأما أحبه إليه، فلقوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِنْ مَّا حُبُّونَا﴾ [آل

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) عن أبي هريرة.

عمران: ٩٢]. وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا اشتدَّ حبه لشيء من ماله قرَّبه لله ﷻ. وروي: أنه نزل الجُحفة وهو شاكٍ، فقال: إني لأشتهي حِيتاناً، فألتمسوا له فلم يجدوا إلا حوتاً، فأخذته أمرأته فصنَعته ثم قرَّبه إليه، فأتى مسكين، فقال ابن عمر ﷺ: خُذْهُ. فقال له أهله: سبحان الله! قد عَثِينَا^(١) ومعنا زاد نعطيه. فقال: إن عبد الله يحبه.

وروي أن سائلاً وقف بباب الربيع بن خُثيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: أطعموه سَكراً. فقالوا: نطعمه خبزاً أنفع له. فقال: ويحكم أطعموه سَكراً، فإن الربيع يحب السكر.

الوظيفة السادسة: أن يطلب لصدقته من تزكو به، وهم خصوص من عموم الأصناف الثمانية، ولهم صفات:

الأولى؛ التقوى، فليُخَصَّ بصدقته المتقين، فإنه يَرَدُّ بها همهم إلى الله تعالى.

وقد كان عامر بن عبدالله بن الزبير يتخير العُباد وهم سجدوا، فيأتيهم بالضرة فيها دنائير والدرهم، فيضعها عند نعالهم بحيث يحسون بها ولا يشعرون بمكانه، فقليل له: ما يمنحك أن ترسل بها إليهم؟ فيقول: أكره أن يتمر وجه أحدهم إذا نظر إلى رسولي أو لقيني.

الصفة الثانية: العلم، فإن في إعطاء العالم إعانة على العلم ونشر الدين. وذلك تقوية للشرعة.

الثالثة: أن يكون ممن يرى الإنعام من الله وحده، ولا يلتفت إلى الأسباب إلا بقدر ما ندب إليه من شكرها. فأما الذي عادته المدح عند العطاء، فإنه سيذم حين المنع.

الرابعة: أن يكون صائناً لفقره، ساتراً لحاجته، كاتماً للشكوى، كما قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. وهؤلاء لا يُحَصِّلُونَ في شبكة الطالب إلا بعد البحث عنهم، وسؤال أهل كل محلة عمن هذه صفته.

(١) أي: كلَّفْنَا ما يشق علينا حتى أَسْطَعْنَا جُلْبَهُ لك.

الخامسة: أن يكون ذا عائلة، أو محبوساً لمرض أو دين، فهذا من المُخَصَّرِينَ، والتصدق عليه إطلاقاً لحصره.

السادسة: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام، فإن الصدقة عليهم صدقة وصيلة، وكل من جمع من هذه الخلال خَلَّتَيْن أو أكثر، كان إعطاؤه أفضل على قدر ما جمع.

فصل في آداب القايض

لا بد أن يكون آخذ الزكاة من الأصناف الثمانية، وعليه في ذلك وظائف:

الأولى: أن يفهم أن الله تعالى أوجب صرف الزكاة إليه ليكفيه ما أهمه، ويجعل همومه همّاً واحداً في طلب رضا الله عز وجل.

الثانية: أن يشكر المعطي ويدعو له ويثني عليه، وليكن ذلك بمقدار شكر السبب، فإن «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»^(١) كما ورد في الحديث. ومن تمام الشكر ألا يحتقر العطاء وإن قل، ولا يذمه، ويُعْطِي ما فيه من عَيْب. وكما أن وظيفة المعطي الاستصغار، فوظيفة المعطى الاستعظام، وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله ﷻ. فأما من لا يرى الواسطة واسطة، فهو جاهل، وإنما المُتَكَرَّر أن يرى الواسطة أصلاً.

الوظيفة الثالثة: أن ينظر فيما يُعطاه، فإن لم يكن مِنْ جِلٍّ لم يأخذه أصلاً، لأن إخراج مال الغير ليس بزكاة؛ وإن كان من شبهة، تورّع عنه، إلا أن يضيق عليه الأمر. فمن كان أكثر كسبه حراماً، فأخرج الزكاة ولم يُعرف لما أخرجه مالكٌ معيّن، كانت الفتوى فيه أن يتصدق به^(٢)، فيجوز لهذا الفقير أن يأخذ قدر حاجته عند ضيق الأمر عليه وعجزه عن الصافي.

(١) هو في «صحيح أبي داود» (٤٠٢٦/٤٨١١) وغيره من حديث أبي هريرة.

(٢) عبارة الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ -: إذا ضاق الأمر عليه، (أي الآخذ) وكان ما يُسَلَّم إليه لا يُعرف له مالاً معيناً فله أن يأخذ بقدر الحاجة، فإذا أخذ لم يكن أَخَذَ زكاةً، إذ لا يقع زكاةٌ عن مؤديه، وهو حرام.

الرابعة: أن يتوقى مواقع الشُّبّه في قدر ما يأخذ، فيأخذ القدر المباح له، ولا يأخذ أكثر من حاجته، فإن كان غارماً لم يَزِدْ على مقدار الدين، أو غازياً لم يأخذ إلا بمقدار ما يحتاج إليه. وإن أخذ بالمسكنة أخذ قدر حاجته دون ما يستغني عنه، وكل ذلك موكول إلى اجتهداه، والورع ترك ما يريب.

وأختلف العلماء في قدر الغنى المانع من الزكاة، والصحيح فيه أن يكون له كفاية على الدوام، إما من تجارة، أو صناعة، أو أجر عقار، أو غير ذلك، وإن كان له بعض الكفاية أخذ ما يتممها، وإن لم يكن له ذلك أخذ ما يكفيه. وليكن ما يأخذه بقدر ما يكفي سنة ولا يزيد على ذلك، وإنما اعتبر بالسنة، لأنها إذا ذهبت جاء وقت الأخذ، وإذا أخذ الأكثر منها ضيق على الفقراء.

فصل في صدقة التطوع وفضلها وآدابها

أما فضائل الصدقة فهي كثيرة مشهورة:

منها: ما روى البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أينكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟» قالوا: يا رسول الله! ما متنا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: «فإن ماله ما قَدَّم، ومال وارثه ما أَّخَّر»^(١).

وفي «الصحيحين» من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من تصدق بعَدْلٍ^(٢) ثمرة من كَسْبٍ طَيِّبٍ - ولا يصعد إلى الله إلا الطَّيِّب - فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربِّيها لصاحبها كما يربِّي أحدكم فُلُوهُ»^(٣) حتى تكون مثل الجبل»^(٤).

(١) البخاري (٦٤٤٢)، و«صحيح النسائي» (٣٣٧٧). وتنظر «الصحيحة» (١٤٨٦)، و«صحيح الجامع» (٢٦٩٦).

(٢) بعَدْلٍ: أي بمثل.

(٣) فُلُوهُ، أي: المهر الصغير، وما زال مستعملاً عند أهل الخيل وسكان البادية. وقيل: كل صغير من أولاد ذوات الحافر.

(٤) البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)، والترمذي [«صحيحه» (٥٣٢/٦٦١)]، والنسائي [«صحيحه» (٢٣٦٥)]، وينظر «صحيح الجامع» (٥٦٠٠)، و«الإرواء» (٨٨٦).

وفي حديث آخر: «إن الصدقة لتطفئ غضب الرب، وتقي ميتة السوء»^(١).

وفي حديث آخر: «تصدقوا فإن الصدقة فكأككم من النار»^(٢).

وعن بُريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يُخرج أحدٌ شيئاً من الصدقة حتى يُفكَّ عنه لَحي سبعين شيطاناً»^(٣).

وروي أن راهباً تعبد في صومعة ستين سنة، ثم نزل يوماً ومعه رغيف، فعرضت له امرأة فتكشفت له، فوقع عليها، فأدركه الموت وهو على تلك الحال. وجاء سائل فأعطاه الرغيف ومات، فجيء بعمل ستين سنة، فوضع في كفة وخطيئته في كفة، فرجحت بعمله، حتى جيء بالرغيف فوضع مع عمله، فرجح بخطيئته.

وفي أفراد مسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما نقصت صدقة من مال»^(٤).

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ: «ما بقي منها؟» فقالت: ما بقي منها إلا كتفها. فقال: «بقي كلها إلا كتفها»^(٥).

وأما آدابها، فنحو ما تقدم في الزكاة، وأختلفوا: أيما أفضل للفقير، أن يأخذ من الزكاة، أو من الصدقة؟ فقال قوم: من الزكاة أفضل، وقال آخرون: من الصدقة أفضل.

(١) هو في «ضعيف الترمذي» للألباني (١٠٥/٦٦٤)، لكن صححه في «الإرواء» (٨٨٥)، و«الصحيحة» (١٩٠٨) بلفظ: «صدقة السر تطفئ غضب الرب».

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم في «الحلية» ١٠/٤٠٣ عن أنس. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٤٣٩)، والضعيفة (١٦٢٨).

(٣) رواه أحمد (٢٢٩٥٥)، والحاكم ١/٤١٧، وابن خزيمة (٢٤٥٧)، والطبراني في «الأوسط»، وينظر «صحيح الجامع» (٥٨١٤)، و«الصحيحة» (١٢٦٨).

(٤) سيأتي صفحة (٢٣١) الحاشية (٢).

(٥) رواه الترمذي [«صحيحه» (٢٠٠٩/٢٤٧٠)]. وتنظر «الصحيحة» (٢٥٤٤).

وأما أفضل الصدقة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى ﴿إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٨٢) [الواقعة] قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان»^(١) أخرجاه في «الصحيحين».

(١) البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢)، وأحمد (٩٣٥١)، وأبو داود [«صحيحه» (٢٨٦٥/٢٤٩١)]، والنسائي [«صحيحه» (٢٣٨٢ و ٣٣٧٦)]. وينظر «الإرواء» (١٦٠٢).

٤ - كِتَابُ الصَّوْمِ وَأَسْرَارُهُ وَمَهْمَاتُهُ وَمَا يَنْغُلِقُ بِهِ

أَعْلَمُ أَنَّ فِي الصَّوْمِ خَصِيصَةً لَيْسَتْ لغيره، وهي إضافته إلى الله ﷻ حيث يقول سبحانه: «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»^(١) وكفى بهذه الإضافة شرفاً كما شرف البيت بإضافته إليه في قوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: ٢٦]. وإنما فضل الصَّوْمِ لمعنيين:

أحدهما: أنه سِرٌّ وعَمَلٌ باطن، لا يراه الخلق ولا يدخله رياء.

الثاني: أنه قهر لعدو الله، لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب، وما دامت أرض الشهوات مُخَصَّبةً. فالشياطين يترددون إلى ذلك المَرعى، وبترك الشهوات تَضِيقُ عليهم المسالك. وفي الصَّوْمِ أخبار كثيرة تدلُّ على فضله، وهي مشهورة.

فصل في سنن الصَّوْمِ

يُستحب السحور، وتأخيرهُ، وتعجيل الفطر، وأن يفطر على التَّمَرِ. ويُستحب الجُود في رمضان، وفِعْلُ المعروف، وكثرة الصدقة، اقتداءً برسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم^(٢). ويُستحب دراسة القرآن، والاعتكاف في رمضان لا سيما في العشر الأواخر، وزيادة الاجتهاد فيه.

(١) حديث قدسي رواه البخاري (٥٩٢٧)، ومسلم (١١٥١)، والنسائي [«صحيحه» (٢٠٨٨-٢٠٩٦)] عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٨)، والنسائي [«صحيح سننه» (١٩٨١)]، وانظر «إرواء الغليل» (٨٨٨).

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ إذا دخل العشر الأخير، شَدَّ مِثْرَه، وأحيا الليل، وأيقظ أهله^(١).

وذكر العلماء في معنى (شَدَّ المِثْرَ) وجهين :

أحدهما : أنه الإعراض عن النساء .

الثاني : أنه كناية عن الجِدِّ والتشمير في العمل .

قالوا : وكان سبب اجتهداه في العشر طلب ليلة القدر .

بيان أسرار الصوم وآدابه

وللصوم ثلاث مراتب : صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص .

فأما صوم العموم : فهو كَفُّ البطن والفرج عن قضاء الشهوة .

فأما صوم الخصوص : فهو كَفُّ النظر، واللسان، واليد، والرجل، والسمع، وسائر الجوارح عن الآثام .

وأما صوم خصوص الخصوص : فهو صوم القلب عن الهَمَمِ الدنيئة، والأفكار المُبْعِدة عن الله تعالى، وكَفُّه عما سوى الله تعالى بالكُلِّية . وهذا الصوم له شروح تأتي في غير هذا الموضع .

فمن آداب صوم الخصوص : غَضُّ البصر، وحفظ اللسان عما يؤذي ؛ من كلام محرم أو مكروه، أو ما لا يفيد، وجِراسَةُ باقي الجوارح .

وفي الحديث - من رواية البخاري - أن النبي ﷺ قال : «من لم يدَعِ قول

(١) رواه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤)، وأبو داود [«صحيحه» (١٣٢٦)/

(١٣٧٦)]، والنسائي [«صحيحه» (١٥٤٥)]، وابن ماجه [«صحيحه» (١٤٣١)/

(١٧٦٨)].

الزور والعمل به، فليس لله حاجة^(١) في أن يدَعَ طعامه وشرابه^(٢).

ومن آدابه: ألا يمتلئ من الطعام في الليل، بل يأكل بمقدار الكفاية، فإنه «ما ملأ ابن آدم وعاءَ شراً من بطن»^(٣). ومتى شبع أول الليل لم ينتفع بنفسه في باقيه، وكذلك إذا شبع وقت السحر لم ينتفع بنفسه إلى قريب من الظهر، لأن كثرة الأكل تورث الكسل والفتور، ثم يفوت المقصود من الصيام بكثرة الأكل، لأن المراد منه أن يذوق طعم الجوع، ويكون تاركاً للمُشتهى.

[في التطوع
بالصيام وترتيب
الأوراد فيه]
فأما صوم التطوع، فأعلم أن استحباب الصوم يتأكد في الأيام
الفاضلة.

وفواضل الأيام:

بعضها: يوجد في كل سنة، كصيام ستة أيام من شوال بعد رمضان، وكصيام يوم عرفة، ويوم عاشوراء، وعشر ذي الحجة، والمحرم.

وبعضها: يتكرر في كل شهر، كأوله، وأوسطه، وآخره، فمن صام أول الشهر وأوسطه وآخره، فقد أحسن، غير أن الأفضل أن يجعل الثلاثة: أيام البيض.

وبعضها: يتكرر في كل أسبوع، وهو يوم الاثنين ويوم الخميس.

وأفضل صوم التطوع صوم داود عليه السلام، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وذلك يجمع الثلاثة معان:

أحدها: أن النفس تعطى يوم الفطر حظّها، وتستوفي يوم الصوم تعبّها، وفي ذلك جمع بين ما لها وما عليها، وهو العَدْل.

(١) المعنى: أن الله لا يبالي بعمله ولا ينظر إليه؛ لأنه أمسك عما أبيح له في غير وقت الصوم، ولم يمسك عما حرم عليه في سائر الأحيان.

(٢) رواه البخاري (١٩٠٣)، وأحمد (٩٨٢٠)، وأبو داود [«صحيحه» (٢٠٧٠/٢٣٦٢)]، والترمذي [«صحيحه» (٧٠٧/٥٦٩)] عن أبي هريرة. وينظر «صحيح الجامع» (٦٥٣٩).

(٣) صحيح؛ سيأتي صفحة ٩١ حاشية (٢).

الثاني: أن يوم الأكل يومُ شُكْرِ، ويوم الصوم يوم صبر، والإيمان نصفان: شكر، وصبر.

والثالث: أنه أشق على النفس في المجاهدة، لأنها كلما أُنِسَتْ بِحَالَةٍ نُقِلَتْ عنها.

فأما صوم الدهر كله، ففي أفراد مسلم من حديث أبي قتادة: أن عمر رضي الله عنه سأل النبي ﷺ فقال: كيف بمن يصوم الدهر كله؟ فقال: «لا صام ولا أفطر» - أو «لم يصم ولم يفطر» - ^(١). وهذا محمول على من سرد الصوم في الأيام المنهي عن صيامها، فأما إذا أفطر يومي العيدين وأيام التشريق فلا بأس بذلك، فقد روي عن هشام بن عروة أن أباه كان يسرد الصوم، وكانت عائشة رضي الله عنها تسرد.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: سرد أبو طلحة الصوم بعد رسول الله ﷺ أربعين عاماً.

وأعلم أن من رَزَقَ فِطْنَةً، علم المقصود من الصوم، فحمل نفسه قدر ما لا يُغِجِزُه عما هو أفضل منه. فقد كان ابن مسعود قليل الصوم، وكان يقول: إذا صُمْتُ ضَعُفْتُ عن الصلاة، وأنا أختار الصلاة عن الصوم. وكان بعضهم إذا صام ضَعُفَ عن قراءة القرآن، فكان يُكْثِرُ الفطر حتى يَقْدِرَ على التلاوة. وكل إنسان أعلم بحالِهِ وما يُضِلُّهُ ^(٢).

(١) رواه مسلم (١١٦٢)، وأبو داود [«صحيحه» (٢١١٩/٢٤٢٥)]، والنسائي [«صحيحه» (٢٢٤٧)] عن أبي قتادة.

وفي «صحيح النسائي» (٢٢٤٣) عن عمران، و(٢٢٤٤ و ٢٢٤٥) عن عبدالله ابن الشخير، و(٢٢٤٦) عن عمر.

(٢) قال ابن عبد البر في كتابه «التمهيد»:

كتب العمري العابد إلى الإمام مالك رحمته الله يَحُضُّهُ على الانفراد والعمل، ويرغبه عن الاجتماع إليه في العلم.

فكتب إليه مالك: إن الله تعالى قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فَرُبَّ رجلٍ =

هـ - كِتَابُ الْحَجِّ وَأَسْرَارُهُ وَفَضَائِلُهُ وَنَحْوُ ذَلِكَ

[في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول الودائع . وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ، ويرد ما عنده من ينبغي لمن أراد الحج أن يبدأ بالتوبة ، ورد المظالم ، وقضاء الديون ،

السفر...] ويستصحب من المال الحلال ما يكفيه لذهابه ورجوعه من غير تقتير ، على وجه يمكنه معه التوسع في الزاد ، والرفق بالفقراء .

ويستصحب ما يضلحه ، كالسواك ، والمشط ، والمرآة ، والمُكْحَلَة^(١) .

ويتصدق بشيء قبل خروجه . وإذا أكرت فليُظهر للجَمَّال كل ما يريد أن يحمله من قليل وكثير . وقد قال رجل لابن المبارك : احمل لي هذه الرقعة إلى فلان ، فقال : حتى أستاذن الجمال .

وينبغي أن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير مُعِيناً عليه : إن نسي ذكركه ، وإن ذكر أعانه ، وإن ضاق صدره صبره .

وليؤمّر الرفقاء عليهم : أحسنهم خُلُقاً ، وأرفقهم بالأصحاب . وإنما احتيج إلى التأشير لأن الآراء تختلف ، فلا ينتظم التدبير . وعلى الأمير : الرفق بالقوم ، والنظر في مصالحهم ، وأن يجعل نفسه وقاية لهم .

وينبغي للمسافر : تطيب الكلام ، وإطعام الطعام ، وإظهار محاسن الأخلاق ؛

= فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم ، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصيام ، وآخر فتح له في الجهاد ولم يفتح له في الصلاة .

ونُشِرُ العلم وتعليمه من أشرف أعمال البر ، وقد رُضِيَ بما فتح الله ﷻ فيه من ذلك ، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه ، وأرجو أن يكون كِلَانَا على خير وبر ، ويجب على كُلِّ منا أن يرضى بما قسم له ، والسلام .

(١) يصطحب معه ما ينفعه ، وهذا يختلف من زمن إلى زمن ، ومن بلد إلى بلد .

فإن السفر يُخْرِجُ خبايا الباطن، ومن كان في السفر - الذي هو مَظِنَّة الضَّجَر - حَسَنَ الخُلُقِ: كان في الحضر أحسن خلقاً.
وقد قيل: إذا أثنى على الرجل مُعَامِلُوهُ في الحضر ورُفَقَاؤُهُ في السفر، فلا تشكُّوا في صلاحه.

وينبغي له أن يودع رُفَقَاءَهُ وإخوانه المقيمين، ويلتمس أَدْعِيَتَهُمْ، ويجعل خروجه بُكْرَةً يوم الخميس، ولْيُصَلِّ في منزله ركعتين قبل الخروج منه، ويستودع الله أهله وماله، ويستعمل الأدعية والأذكار المأثورة عند خروجه من منزله، وفي ركوبه ونزوله، وهي مشهورة في كثير من الكتب في مناسك الحج. وكذلك جميع المناسك - من الإحرام، والطواف، والسَّغْي، والوقوف بعرفة، وغير ذلك من أعمال الحج - يأتي فيها بما ذكر من الأذكار والدعوات والآداب، وكل ذلك مستوفى في كتب الفقه وغيرها، فَلْيُطَلِّبْ هناك^(١).

فصل في الآداب الباطنة والإشارة إلى أسرار الحج

أعلم أنه لا وصول إلى الله ﷻ إلا بالتجرد والانفراد لخدمته، وقد كان الرهبان ينفردون في الجبال طلباً للأنس بالله، فجعل الحج رهبانية لهذه الأمة.
فمن الآداب المذكورة، أن يكون خالياً في حَجِّهِ من تجارة تشغل قلبه وتفرق همَّه، ليجتمع على طاعة الله تعالى، وأن يكون أشعث أغبر، رَثَّ الهيئة، غير مستَكْبِرٍ من الزينة.

وينبغي أن يجتنب ركوب المحمل إلا من عذر، كمن لا يستمسك على الزاملة^(٢) فإن النبي ﷺ حج على راحلة وتحت رَحْلٍ رَثٍّ^(٣).

-
- (١) ومن أحسن ما ينفَعُك للأدعية كتاب «صحيح الكلم الطيب»، وللمناسك كتاب «حجة النبي ﷺ» للمحدث محمد ناصر الدين الألباني، وهما طبع المكتب الإسلامي.
(٢) بغير يركب ويحمل عليه المتاع، والمزاملة: المبادلة على البعير الواحد.
(٣) رواه ابن ماجه «صحيحه» [٢٣٣٧/٢٨٩٠] عن أنس، وتنظر «الصحيحه» (٢٦١٧).

وفي حديث جابر، عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْهِي بِالْحَاجِّ الْمَلَائِكَةَ فيقول: أَنْظِرُوا إِلَى عِبَادِي، أَتَوْنِي شُعْنًا غُيْرًا» ﴿٢٧﴾ [الحج]، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ^(١).

وقد شَرَّفَ اللهُ تعالى بَيْنَهُ وَعَظَّمَهُ، وَنَصَبَهُ مَقْصِدًا لِعِبَادِهِ، وَجَعَلَ مَا حَوْلَهُ حَرَمًا لَهُ تَفْخِيمًا لِأَمْرِهِ، وَتَعْظِيمًا لِشَأْنِهِ، وَجَعَلَ عَرَفَةَ كَالْمِيدَانِ عَلَى فَنَائِهِ.

وَأَعْلَمَ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَفْعَالِ الْحَجِّ تَذَكُّرًا لِلْمُتَذَكِّرِ، وَعِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِ: فَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ يَتَذَكَّرُ بِتَحْصِيلِ الزَّادِ زَادَ الْآخِرَةِ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَلِيَحْذَرُ أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُهُ فَاسِدَةً مِنَ الرِّيَاءِ وَالسَّمْعَةِ فَلَا تَصْحَبُهُ وَلَا تَنْفَعُهُ، كَالطَّعَامِ الرُّطْبِ الَّذِي يَفْسُدُ فِي أَوَّلِ مَنَازِلِ السَّفَرِ فَيَبْقَى صَاحِبُهُ وَقْتُ الْحَاجَةِ مُتَحِيرًا. فَإِذَا فَارَقَ وَطَنَهُ وَدَخَلَ الْبَادِيَةَ وَشَهِدَ تِلْكَ الْعُقَبَاتِ، فَلْيَتَذَكَّرْ بِذَلِكَ خُرُوجَهُ مِنَ الدُّنْيَا بِالْمَوْتِ إِلَى مِيقَاتِ الْقِيَامَةِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْأَهْوَالِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ يَتَذَكَّرَ وَقْتُ إِحْرَامِهِ وَتَجَرُّدِهِ مِنْ ثِيَابِهِ، إِذَا لَبَسَ الْمَحْرَمَ الْإِحْرَامَ لِبَسَ كَفَنَهُ، وَأَنَّهُ سَيَلْقَى رَبَّهُ عَلَى زِيٍّ مُخَالَفٍ لِزِيِّ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَإِذَا لَبَّى فَلْيَسْتَحْضِرْ تَبْلِيغَتَهُ إِبَابَةَ اللَّهِ تَعَالَى إِذْ قَالَ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]، وَلْيَرْجُ الْقَبُولَ، وَلْيَخْشَ عَدَمَ الْإِجَابَةِ. وَكَذَلِكَ إِذَا وَصَلَ إِلَى الْحَرَمِ يَنْبَغِي أَنْ يَرْجُو الْأَمْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَأَنْ يَخْشَى أَلَّا يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْقُرْبِ. غَيْرَ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الرَّجَاءُ غَالِبًا، لِأَنَّ الْكَرَمَ عَمِيمَ. وَحَقُّ الزَّائِرِ مَرْعِيٌّ، وَذِمَامُ الْمُسْتَجِيرِ لَا يَضِيعُ.

وَمِنْ ذَلِكَ: إِذَا رَأَى الْبَيْتَ الْحَرَامَ اسْتَحْضِرْ عَظَمَتَهُ فِي قَلْبِهِ، وَشَكَرْ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى تَبْلِيغِهِ رَتَبَةَ الْوَافِدِينَ إِلَيْهِ، وَلْيَسْتَشْعِرْ عَظَمَةَ الطَّوَافِ بِهِ، فَإِنَّ صَلَاةَ، وَيَعْتَقِدُ عِنْدَ اسْتِلَامِ الْحَجَرِ أَنَّهُ مُبَايَعٌ لِلَّهِ عَلَى طَاعَتِهِ. وَيُضْمُ إِلَى ذَلِكَ عَزِيمَتُهُ عَلَى الْوَفَاءِ بِالْبَيْعَةِ. وَلْيَتَذَكَّرْ بِالتَّعَلُّقِ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ وَالتَّصَاقِ بِالْمُلْتَزِمِ لَجَأِ الْمُذْنِبِ إِلَى سَيِّدِهِ، وَقُرْبِ الْمُحِبِّ.

(١) رواه ابن خزيمة (٢٨٤٠)، وغيره من حديث جابر. وقد صح من حديث أبي هريرة وابن عمرو وعائشة. وينظر «صحيح الجامع» (١٨٦٧ و ١٨٦٨).

وأنشد بعضهم في ذلك :

سُتُورُ بيتك نَيْلُ الأمن منك وقد علقتُها مستجيراً أيها الباري
وما أظنك لما أنْ عُلِقْتُ بها خوفاً من النار تُدنيني من النار
وها أنا جارُ بيتِ أنت قلت لنا: حَجُّوا إليه وقد أوصيتَ بالجار

ومن ذلك: إذا سعى بين الصفا والمروة، ينبغي أن يمثلها: بِكَفْتَي الميزان، وتردده بينهما في عَرَصات القيامة، أو تردد العبد إلى باب دار الملك، إظهاراً لخلوص خدمته، ورجاء الملاحظة بعين رحمته، وطمعاً في قضاء حاجته .
وأما الوقوف بعرفة، فأذكر بما ترى فيه من ازدحام الخلق، وارتفاع أصواتهم واختلاف لغاتهم: موقفَ القيامة، واجتماع الأمم في ذلك الموطن، واستشفاعهم .

فإذا رميت الجمار، فأقصد بذلك ألانقياد للأمر، وإظهار الرُّق والعبودية، ومجردة الامتثال من غير حظ النفس .

وأما المدينة: فإذا لاحت لك فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله تعالى لنبيه ﷺ وشرع إليها هجرته، وجعل فيها تربيته .

ثم مثل في نفسك مواقع أقدام رسول الله ﷺ عند ترده فيها، وتصور خشوعه وسكينته، فإذا قصدت زيارته^(١)، فأحضر قلبك لتعظيمه، والهيبة له، ومثل صورته الكريمة في خيالك، وأستحضر عظيم مرتبته في قلبك، ثم سلّم عليه؛

وأعلم أنه عالم بحضورك وتسليمك، كما ورد في الحديث^(٢) .

(١) ويستحضر المسافر من بلده زيارة مسجده ﷺ، وفي المدينة يستحضر زيارة قبره المكرم . وبذلك يخرج من مخالفة نهيه ﷺ عن شد الرحال لغير المساجد الثلاثة: «المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وابن عمرو . «صحيح الجامع الصغير» (٧٣٣٢) .

(٢) هو في «صحيح أبي داود» (٢٠٤١/١٧٩٥) عن أبي هريرة بلفظ: «ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام» .

٦ - كِتَابُ آدَابِ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَذِكْرُ فَضْلِهِ

أعظم فضائل القرآن أنه كلام الله ﷻ، وقد مدحه الله تعالى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢، ١٥٥]. ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

وفي أفراد البخاري من حديث عثمان بن عفان ؓ، أن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(١).

وعن أنس ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ﷻ أهلين من الناس»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»^(٢)، رواه النسائي.

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قال: «لا يعذب الله قلباً وعى القرآن»^(٣). وعن ابن عمر ؓ، عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وأرتقِ ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»^(٤) صححه الترمذي.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧)، والترمذي [صحيحه] (٢٣٢٦/٢٩٠٧)، وأبو داود [صحيحه] (١٢٨٩/١٤٥٢)، وابن ماجه [صحيحه] (١٧٤/٢١١). وتنظر «الصحيحه» (١١٧٣).

(٢) إنما رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٠٣١). ورواه أيضاً أحمد (١٢٢٦٤). وهو في «صحيح ابن ماجه» (١٧٨/٢١٥). وينظر «صحيح الجامع» (٢١٦٥)، و«الضعيفة» (١٥٨٢).

(٣) رواه الدليمي (٧٧٩٨) عن عقبة بن عامر. وفيه (ابن لهيعة: ضعيف)، (والوليد بن مسلم: يدلّس تدليس التسوية).

(٤) رواه أحمد (٦٧٩٦)، وهو في «صحيح الترمذي» (٢٣٢٩/٢٩١٤)، و«صحيح أبي داود» (١٣٠٠/١٤٦٤). وتنظر «المشكاة» (٢١٣٤).

وعن بُريدة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول: أنا صاحبك القرآن: الذي أظمأتك في الهواجر^(١)، وأسهرت ليلك، وإن كُلَّ تاجر من وراء تجارته، وإنِّي لك اليوم من وراء كل تجارة، فيُعطي المُلْك^(٢) بيمينه، والخُلْد^(٣) بشماله، ويوضَّع على رأسه تاجُ الوقار، ويكسى والداه حُلَّتَيْن لا تُقوَّم لهما الدنيا، فيقولان: بم كُسيْنَا هذا؟ فيقال: بأخذِ وَلَدِكُما القرآنَ، ثم يقال: اقرأ وأصعد في دَرَج الجنة وعَرَفَها، فهو في صعودٍ ما كان يقرأ؛ هَذَا^(٤) كان أو ترتيلاً^(٥)».

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ينبغي لحامل القرآن أن يُعرَفَ بِلَيْلِهِ إذ الناسُ نائمون، وبنهاره إذ الناس مُفطرون، وبِحُزْنِهِ إذ الناس يفرحون، وببُكَائِهِ إذ الناس يضحكون، وبصُمْتِهِ إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون. ولا ينبغي أن يكون جافياً ولا غافلاً ولا صَخَاباً^(٦) ولا حديداً^(٧). وقال الفُضَيْلُ: حاملُ القرآن: حاملُ رايةِ الإسلام، لا ينبغي أن يَلْعُوَ مع مَنْ يَلْعُو، ولا يَسْهُوَ مع مَنْ يسهو، ولا يَلْهُوَ مع مَنْ يلهو، تعظيماً لله تعالى. ولا ينبغي أن يكون له إلى أحد حاجة، بل ينبغي أن تكون حوائج الناس إليه.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: رأيت رَبَّ العِزَّة في المنام، فقلت: يا رب، ما

(١) نصف النهار عند اشتداد الحر.

(٢) يريد: القدرة والتصرف.

(٣) الدوام والخلود.

(٤) أي: القراءة بسرعة.

(٥) أخرجه أحمد (٢٢٩٤٤)، والدارمي (٢/٤٥٠-٤٥١). وأخرجه مختصراً ابن ماجه «صحيحه» (٣٧٨١/٣٠٤٨).

(٦) الصخب: شدة الصوت.

(٧) الحديد: شديد الغضب.

أَقْرَبُ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْكَ الْمُتَقَرَّبُونَ؟ فقال: بكلامي يا أحمد. فقلت: يا رب، بفهم أو بغير فهم؟ فقال: بفهم وبغير فهم.

فصل في آداب التلاوة

ينبغي لقارئ القرآن أن يكون على وضوء، مُسْتَعْمِلاً للأدب، مُطَرِّقاً، غير مُتَرَيِّع ولا مُتَكَبِّرٍ ولا جالسٍ على هيئة المُتَكَبِّرِ. وأفضل الأحوال: أن يقرأ في الصلاة قائماً، وأن يكون في المسجد.

فأما مقدار القراءة؛ فقد اختلفت فيها عادات السلف: فمنهم من كان يختم كل يوم وليلة ختمةً، ومنهم من كان يختم في اليوم واللييلة أكثر من ذلك، ومنهم من كان يختم في ثلاث، ومنهم من كان يختم في أسبوع، ومنهم من كان يختم في كل شهر، اشتغالاً بالتدبير، أو بنشر العلم، أو بتعليمه، أو بنوع من التعبد غير القراءة، أو بغيره من اكتساب الدنيا.

وأولئ الأمر: ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمة، ولا يؤذيه في بدنه، ولا يفوته معه الترتيل والفهم.

قال ابن عباس رضي الله عنه: لَأَنْ أَقْرَأَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، وَأُرْتَلِّهُمَا وَأَتَدَبَّرَهُمَا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ هَذَرَمَةً^(١).

ومن وجد حُلُوسَةً في وقت، فَلْيَغْتَنِمْ كَثْرَةَ الْقِرَاءَةِ لِيَفُوزَ بِكَثْرَةِ الثَّوَابِ، فَقَدْ كَانَ عِثْمَانُ رضي الله عنه يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي رَكْعَةِ يَوْتَرِهَا، وَكَانَ الشَّافِعِيُّ يَخْتِمُ فِي رَمَضَانَ سِتِينَ خْتَمَةً.

وأما الدوام: فليكن على قدر الإمكان، كما أشرنا إليه، وَأَسْتَحَبَّ بَعْضُهُمْ إِذَا خَتَمَ بِالنَّهَارِ أَنْ يَخْتِمَ فِي رَكْعَتِي الْفَجْرِ أَوْ بَعْدَهُمَا، وَإِذَا خَتَمَ بِاللَّيْلِ أَنْ يَخْتِمَ فِي رَكْعَتِي الْمَغْرِبِ أَوْ بَعْدَهُمَا؛ يَسْتَقْبِلُ بِالْخْتَمَةِ أَوَّلَ اللَّيْلِ وَأَوَّلَ النَّهَارِ.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: مَنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ فَلَهُ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ.

وكان أنس رضي الله عنه إِذَا خَتَمَ الْقُرْآنَ جَمَعَ أَهْلَهُ وَدَعَا.

(١) الهذرة: السرعة في القراءة والكلام.

فصل: ويستحب تحسين القراءة، وإذا لم يكن حسن الصوت حسنه ما أستطاع، فأما القراءة بالألحان، فقد كرهها السلف.

ويُستحب الإسرار بالقراءة، وقد جاء في حديث: «فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية»^(١)، إلا أنه ينبغي أن يُسمع نفسه.

ولا بأس بالجهر في بعض الأوقات لمقصود صحيح، إما لتجويد الحفظ، أو ليصرف عن نفسه الكسل والنوم، أو ليقوّظ الوسنان^(٢).

فأما حكم القراءة في الصلاة، ومقدار ما يقرأ في صلاة الفرض، وموضع الجهر والإسرار، فذلك معروف مشهور في كتب الفقه.

ومن كان عنده مصحف: ينبغي له أن يقرأ فيه كل يوم آيات سيرة لثلا يكون مهجوراً.

وينبغي لتالي القرآن العظيم أن ينظر كيف لطفَ الله تعالى بخلقه في [في أعمال إيصال معاني كلامه إلى أفهامهم؟ وأن يعلم أنَّ ما يقرؤه ليس من كلام الباطن في البشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه ويتدبر كلامه، فإن التدبر هو التلاوة] المقصود من القراءة، وإن لم يُحصل التدبر إلا بترداد الآية فليُرَدِّدْهَا، فقد روى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قام ليلة بآية يُرَدِّدْهَا ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾^(٣)،

(١) هذا اللفظ نقله الغزالي - في «الإحياء» الذي هو أصل «منهاج القاصدين» - عن «قوت القلوب»، ولم يرد الحديث بهذا اللفظ وإنما ورد بلفظ:

«الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمُسِرُّ بالقرآن كالمُسِرُّ بالصدقة» وهو بهذا اللفظ الأخير في «صحيح الترمذي» (٢٣٣١/٢٩١٩)، وأخرج أبو داود نحوه [«صحيحه» (١١٨٤/١٣٣٣)] عن عقبة بن عامر. وتنظر «المشكاة» (٢٢٠٢)، و«صحيح الجامع» (٣١٠٥).

(٢) الوسنان: كثير النعاس.

(٣) وتماها: ﴿... وَإِنْ تَعَذَّبْتُمْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ أَلَرَّيُّ الْحَكِيمِ﴾ [المائدة]. وهو في «صحيح ابن ماجه» (١١١٠/١٣٥٠)، و«صحيح النسائي» (٩٦٦).

وقام تميم الداري بآية وهي قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(١)، وكذلك قام بها الربيع بن خثيم ليلة .

وينبغي للتالي أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، ويتفهم ذلك، فإذا تلا قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١، ...]، فليعلم عظمته ويتلمح قدرته في كل ما يراه، وإذا تلا: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة]، فليتفكر في نطفة متشابهة الأجزاء، كيف تنقسم إلى لحم وعظم، وعرق وعصب، وأشكال مختلفة من رأس ويد ورجل؟ ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة كالسمع والبصر والعقل، وغير ذلك، فليتأمل هذه العجائب .

وإذا تلا أحوال المكذبين فليشعر الخوف من السطوة إن غفل عن أمتثال الأمر .

وليتخلل التالي من موانع الفهم، مثل أن يخيل الشيطان إليه أنه ما حقق تلاوة الحرف ولا أخرجه من مخرجه، فيكرره التالي، فيصرف همته عن فهم المعنى .

ومن ذلك أن يكون التالي مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، فهو كالجرب على المرأة، يمنع من تجلي الحق، فالقلب مثل المرأة، والشهوات مثل الصدا، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرأة . والريضة للقلب - بإمالة الشهوات - مثل الجلاء للمرأة .

وينبغي لتالي القرآن أن يعلم أنه مقصود بخطاب القرآن ووعيده، وأن القصص لم يرد بها السمر^(٢) بل العبر، فليتنبه لذلك، فحينئذ يتلو تلاوة عبد كاتبه سيده بمقصود، وليتأمل الكتاب ويعمل بمقتضاه، فإن مثل العاصي إذا قرأ القرآن وكثره، كمثل من كرر كتاب الملك وأعرض عن عمارة مملكته وما أمر

(١) وتماها: ﴿... سَوَاءٌ نَجَّيْتَهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية] .

(٢) أي: الحديث والخبر .

به في الكتاب، فهو مقتصر على دراسته، مخالف أوامره، فلو ترك الدراسة مع المخالفة كان أبعد من الاستهزاء وأستحقاق المَقْتِ.

وينبغي أن يَتَبَرَّأَ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وألا يلتفت إلى نفسه بعين الرضا والتزكية، فإنَّ من رأى نفسه بصورة التقصير، كان ذلك سَبَبَ قُرْبِهِ.

٧ - كِتَابُ الْأَذْكَارِ وَالذَّعَوَاتِ وَغَيْرَهَا

أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ عِبَادَةٌ تَوْدِيُّ بِاللِّسَانِ أَفْضَلُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ، وَرَفَعَ الْحَوَائِجَ بِالْأَدْعِيَةِ الْخَالِصَةِ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَبَدَّلَ عَلَى فَضْلِ الذِّكْرِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]^(١)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ: (أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَّتَاهُ)»^(٢).

[فضيلة مجالس الذكر] وفي أفراد مسلم عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَقْعِدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي مَنْ عِنْدَهُ»^(٣).

وَفِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مَذْكُورَةٌ فِي فُضَائِلِ الْأَعْمَالِ. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا فَتَفَرَّقُوا عَلَىٰ غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ إِلَّا تَفَرَّقُوا عَنْ مِثْلِ جِيْفَةِ الْحِمَارِ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَجْلِسَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤).

(١) أَنْظَرُ «زَادَ الْمَسِيرَ» ٥٢٧/١ - طَبَعُ الْمَكْتَبِ الْإِسْلَامِيِّ - لِلْإِمَامِ ابْنِ الْجَوَازِيِّ - مُؤَلِّفٍ أَصْلَ هَذَا الْكِتَابِ - فَبِهِ بَيَانُ ضَلَالِ أَذْعِيَاءِ الذِّكْرِ، الرَّاقِصِينَ فِي حَلَقَاتٍ مَا يُسَمَّى بِ(الذِّكْرِ)!

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ (١٠٩٥٠)، وَهُوَ فِي «صَحِيحِ سَنَنِ ابْنِ مَاجَه» (٣٧٩٢/٣٠٥٩)، وَعَلَقَهُ الْبُخَارِيُّ قَبْلَ الْحَدِيثِ (٧٥٢٤).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ [صَحِيحِ سَنَنِ] (٣٣٧٨/٢٦٨٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ. وَيَنْظُرُ «صَحِيحُ الْجَامِعِ» (٧٧٥٧).

(٤) هُوَ فِي «صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ» (٤٨٥٥/٤٠٦٤) نَحْوَهُ. وَتَرَاجَعَ «الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ» (٧٧).

وفي حديث آخر: «لا يجلس قوم مجلساً لا يذكرون الله ﷻ ولا يصلون على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة»^(١).

وأما فضيلة الدعاء: فقد روى أبو هريرة ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس شيء أكرم على الله ﷻ من الدعاء»^(٢).

و«أشرف العبادة الدعاء»^(٣).

و«من لا يسأل الله يغضب عليه»^(٤).

وفي حديث آخر: «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يُسأل»^(٥). [آداب الدعاء]

وللدعاء آداب: من ذلك أن يتحرى الأوقات الشريفة، كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الشهور، والجمعة من الأسبوع، والسَّحَر من الليل. ومن الأوقات الشريفة بين الأذان والإقامة، وعُقيب الصلوات، وعند نزول الغيث، وعند القتال في سبيل الله، وعند ختم القرآن، وفي السجود، وعند الإفطار، وعند حضور القلب ووجَّله.

وعلى الحقيقة فإن شرف الأوقات يرجع إلى شرف الحالات، فإن وقت السحر وقت صفاء القلب وفراغه، وحالة السجود حالة الذل.

ومن آداب الدعاء أن يدعُو مستقبل القبلة، ويرفع يديه ثم يمسح بهما وجهه، وأن يخفض صوته حال الدعاء. ومن آدابه أن يبدأ بذكر الله ﷻ، ثم يصلي على النبي ﷺ، ولا يتكلف السجع في الدعاء. ومن آدابه - وهو الأدب الباطن وهو الأصل في الإجابة - التوبة، ورد المظالم.

(١) أخرجه أحمد (٩٩٤٧)، ورواه ابن حبان والحاكم والخطيب. ينظر «صحيح الجامع» (٧٦٢٤).

(٢) «صحيح ابن ماجه» (٣٨٢٩/٣٠٨٧)، و«صحيح الترمذي» (٣٣٧٠/٢٦٨٤).

(٣) ضعيف: «الأدب المفرد» (٧١٣).

(٤) أخرجه أحمد (٩٦٨١) وغيره كابن ماجه «[صحيحه]» (٣٨٢٧/٣٠٨٥)، والترمذي «[صحيحه]» (٣٣٧٣/٢٦٨٦). وتنظر «الصحيحه» (٢٦٥٤).

(٥) ضعيف جداً؛ رواه الترمذي «[ضعيف سننه]» (٣٥٧١/٧٢٠) عن ابن مسعود. وتنظر «الضعيفة» (٤٩٢)، و«ضعيف الجامع» (٣٢٧٨).

[كتاب : ترتيب الأوراد
وتفصيل إحياء الليل]

فصل في الأوراد وفضلها

وتوزيع العبادات على مقادير الأوقات

أعلم أنه إذا حصلت المعرفة لله سبحانه والتصديق بوعدده، والعلم بقصر العمر، وجب ترك التقصير في هذا العمر القصير، والنفس متى وقفت على فن واحد حصل لها ملل، فمن التلطف نقلها من فن إلى فن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَمْرَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۖ﴾ [الإنسان]. فهذا ونحوه مما ذكر من الآيات في ذلك يدل على أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على الدوام، وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۖ﴾ [الفرقان] أي يخلف أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات في الآخر.

بيان عدد أوراد الليل والنهار وترتيبها

أوراد النهار سبعة، وأوراد الليل ستة، فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به .

الورد الأول من أوراد النهار: ما بين طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، وهو وقت شريف، وقد أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ ۖ﴾ [التكوير] فينبغي للمريد إذا أنتبه من النوم أن يذكر الله ﷻ فيقول: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»^(١). روي ذلك عن النبي ﷺ من أفراد البخاري.

وفي أفراد مسلم، من حديث أبْنِ مسعود ؓ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمسى قال: «أَمْسِينَا وَأَمْسَى الْمَلِكُ اللَّهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَقْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ﴾ [التغابن] رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٢) عن حذيفة. و(٦٣٢٥) عن أبي ذر. ومسلم (٢٧١١) عن البراء.

النار وعذاب في القبر»^(١) . وإذا أصبح قال ذلك أيضاً: «أصبحنا وأصبح الملك لله . . .» إلى آخره .

ويقول: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم»^(٢) ثلاث مرات .

«رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً»^(٣) .

فإذا صُلِّيَ الفجر قال وهو ثانٍ رجله قبل أن يتكلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير»^(٤) عشر مرات .

ويذكر سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما أستطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك^(٥) بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(٦) .

ويقول: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم^(٧) خَنِيفاً مَسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾» [آل عمران]»^(٨) .

(١) هو عند مسلم (٢٧٢٣)، وأبي داود [«صحيح سننه» (٤٢٣٨/٥٠٧١)]، والترمذي [«صحيح سننه» (٣٣٩٠/٢٦٩٩)] .

(٢) «صحيح أبي داود» (٤٢٤٤/٥٠٨٨)، و«صحيح سنن الترمذي» (٣٣٨٥/٢٦٩٨)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٨٦٩/٣١٢٠) من حديث عثمان .

(٣) رواه ابن ماجه [«ضعيفه» (٣٨٧٠/٨٤٥)] . وتنظر «الصحيحه» (٢٦٨٦) .

(٤) رواه الترمذي [«صحيح سننه» (٣٤٧٠/٢٧٦٠)] . وصححه الألباني في «تمام المنة» ص ٢٢٨-٢٢٩ .

(٥) أي: أعترف لك .

(٦) رواه البخاري (٦٣٠٦) وغيره من حديث شداد بن أوس .

(٧) أي: مثلاً من جميع الأديان إلى الإسلام .

(٨) رواه أحمد ٤٠٦/٣ (١٥٣٣٨) والدارمي من حديث عبد الرحمن بن أبزى، وهو في «الصحيحه» (٢٩٨٩) .

ويدعو: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، وأجعل الموت راحة لي من كل شر»^(١).

ويدعو بدعاء أبي الدرداء: «اللهم أنت ربي، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] عليك توكلت، وأنت ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة]، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق]. اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابة أنت ﴿ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ [هود]»^(٢).

فهذه الأدعية لا يستغني المريد عن حفظها.

وينبغي له قبل خروجه إلى صلاة الفجر أن يصلي السُّنة في منزله، ثم يخرج متوجهاً إلى المسجد ويقول: «اللهم إني أسألك بحق السائلين»^(٣) عليك، وبحق مَمَشَايَ هَذَا، فَإِنِّي لَمْ أَخْرَجْ أَشْرًا، وَلَا بَطْرًا، وَلَا رِيَاءَ وَلَا سَمْعَةَ، خَرَجْتُ اتِّقَاءَ سَخَطِكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ، أَسْأَلُكَ أَنْ تَنْقِذَنِي مِنَ النَّارِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»^(٤).

فإذا دخل المسجد، فليقل ما روى مسلم في «صحيحه» أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج، فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك»^(٥).

(١) رواه مسلم (٢٧٢٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) قال العراقي ٣١٦/١: أخرجه الطبراني في «الدعاء» من حديث أبي الدرداء؛ ضعيف.

(٣) حق السائلين، ما كتبه الله على نفسه من إجابتهم، وإلا؛ فليس لأحد حق على الله، وفي هذا الحديث مقال على كل حال.

(٤) هو في «ضعيف ابن ماجه» (٧٧٨/١٦٨)، ورواه أحمد (١١١٤٠).

(٥) هو عند مسلم (٧١٣)، وفي «صحيح سنن أبي داود» (٤٦٥/٤٤٠)، و«صحيح سنن النسائي» (٧٠٤)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٧٧٢/٦٢٦).

ثم يطلب الصف الأول منتظراً للجماعة داعياً بنحو ما تقدم من الأذكار والأدعية .

فإذا صلى الفجر، أَسْتَحَبَّ أن يمكث في مكانه إلى طلوع الشمس .
فقد روى أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من صلى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة»^(١) .

ولتكن وظائف وقته أربعاً: الدعاء، والذكر، والقراءة، والفكر .
وليأت بما أمكنه، وليتفكر في قطع القواطع، وشغل الشواغل عن الخير ليؤدي وظائف يومه . وليتفكر في نعم الله تعالى ليتوفر شكره .
الورد الثاني: ما بين طلوع الشمس إلى الضحى، وذلك بِمُضِيِّ ثلاث ساعات من النهار، إذا فرض النهار اثنتي عشرة ساعة، وهو الربع، ولهذا وقت شريف وفيه وظيفتان :

إحداهما: صلاة الضحى .

والثانية: ما يتعلق بالناس من عيادة مريض، أو تشييع جنازة، أو حضور مجلس علم، أو قضاء حاجة مسلم . وإن لم يفعل شيئاً من ذلك تشاغل بالقراءة والذكر .

الورد الثالث: من وقت الضحى إلى الزوال، والوظيفة في هذا الوقت، الأقسام الأربعة، وزيادة أمرين :

أحدهما: الاشتغال بالكسب والمعاش، وحضور السوق، فإن كان تاجراً فَلْيَتَجَرَّ بصدق وأمانة، وإن كان صاحب صنعة، فليصنع بنصيحة وشفقة، ولا يَسْ ذكّر الله تعالى في جميع أشغاله، وليقنع بالقليل .

والثاني: القيلولة، فإنها مما تُعِينُ على قيام الليل، كما يُعِينُ السحور على

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٥٨٦/٤٨٠) . وينظر «صحيح الجامع» (٦٣٤٦) .

صيام النهار . فإن نام فليجتهد في الانتباه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة قبل دخول الوقت .

وأعلم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ، فالاعتدال أن ينام من ذلك الثلث ، وهو ثمان ساعات ، فمن نام أقل من ذلك لم يأمن اضطراب بدنه ، ومن نام أكثر من ذلك كثر كسله ، فإذا نام أكثر من ذلك في الليل ، فلا وجه لنومه في النهار ، بل من نقص منه أستوفى ما نقص في النهار .

الورد الرابع : ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر ، وهو أقصر أوراد النهار وأفضلها . فينبغي له في هذا الوقت إذا أذن المؤذن أن يجيبه بمثل قوله ، ثم يقوم فيصلي أربع ركعات ، ويستحب أن يطيلهن ، فإن أبواب السماء تفتح حيث^(١) ، ثم يصلي الظهر وستتها ، ثم يتطوع بعدها بأربع .

الورد الخامس : ما بعد ذلك إلى العصر ، يستحب له في هذا الوقت الاشتغال بالذكر ، والصلاة ، وفنون الخير ، ومن أفضل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة .

الورد السادس : إذا دخل وقت العصر إلى أن تَصَفَّرَ الشمس ، وليس في هذا الوقت صلاة سوى أربع ركعات بين الأذانين ، ثم فرض العصر ، ثم يتشاغل بالأقسام الأربعة التي سبق ذكرها في الورد الأول ، والأفضل فيه تلاوة القرآن بالتدبر والفهم .

الورد السابع : من أصفرار الشمس إلى أن تغرب ، وهو وقت شريف .

قال الحسن البصري رحمته الله : كانوا أشدَّ تعظيماً للعشي من أول النهار .

فيستحب في هذا الوقت التسبيح ، والاستغفار خاصة .

وبالمغرب تنتهي أوراد النهار فينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه ، فقد أنقضت من طريقه مرحلة . وليعلم أن العمر أيام تنقضي جملتها بأنقضاء أحادها .

(١) من حديث أبي أيوب وعبدالله بن السائب ، وهو في «صحيح الترغيب» (٥٨٢) و(٥٨٣) . وكذا البزار من حديث ثوبان .

قال الحسن: يا ابن آدم، إنما أنت أيام، إذا مضى يومك مضى بعضك .
وليتفكر هل ساوى يومه أمسه؟ فإن رأى أنه قد توفر على الخير في نهاره،
فليشكر الله ﷻ على التوفيق، فإن تكن الأخرى، فليتب وليعزم على تلافي ما
سبق من التفريط في الليل، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]
وليشكر الله تعالى على صحة جسمه، وبقاء بقية من عمره يمكن فيها
استدراك التقصير. وقد كان جماعة من السلف يستحبون ألا ينقضي يوم إلا
عن صدقة، ويجتهدون فيما أمكن من كل خير.

ذكر أوراد الليل

الورد الأول: إذا غربت الشمس إلى وقت العشاء، فإذا غربت صلى المغرب
وأشغل بإحياء ما بين العشاءين:

فقد روي عن أنس ﷺ في قوله تعالى: ﴿نَجَافِي جُؤُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة] أن هذه الآية نزلت في
أصحاب رسول الله ﷺ، كانوا يصلون بين المغرب والعشاء^(١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى بعد المغرب ست
ركعات ولم يتكلم فيما بينهن بسوء، عُدِلْنَ له بعبادة أثنتي عشرة سنة»^(٢). رواه
الترمذي.

الورد الثاني: من غيبوبة الشفق الأحمر إلى وقت النوم، يُستحب أن يصلي
بين الأذنين ما أمكنه، وليكن في قراءته: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [تبارك: ١].

فقد كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأهما^(٣).

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٣١٩٤/٢٥٥٤).

(٢) ضعيف جداً؛ «ضعيف ابن ماجه» (١٣٧٤/٢٨٩)، و«ضعيف الترمذي» (٦٦/٤٣٥). وتنظر «الضعيفة» (٤٦٩)، و«ضعيف الجامع» (٥٦٦١).

(٣) رواه الترمذي وغيره عن جابر، وهو في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٥٨٥)، و«صحيح الجامع» (٤٨٧٣).

وفي حديث آخر عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة»^(١).

الوزد الثالث: الوتر قبل النوم، إلا من كان عادته القيام بالليل، فإن تأخيرَه في حقه أفضل، قالت عائشة رضي الله عنها: (من كُلَّ الليل قد أوتر رسول الله ﷺ: من أول الليل، وأوسطه، وآخره فانتَهَى وتره إلى السحر)^(٢) متفق عليه. ثم ليقل بعد الوتر: «سبحان الملك القدوس»^(٣) ثلاث مرات.

الوزد الرابع: النوم، وإنما عددناه من الأوراد، لأنه إذا رُوِّعِيَتْ آدابه وحسن المقصود به اخْتَسِبَ عبادة.

وقد قال معاذ رضي الله عنه: إني لَأَخْتَسِبُ في نَوْمِي كما أحتسب في قَوْمِي.

فمن آداب النوم: أن ينام على طهارة:

لما روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن ينام [وهو جُنُبٌ] توضأ وضوءه للصلاة^(٤).

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن الأرواح يعرج بها في منامها إلى السماء فتؤمر بالسجود عند العرش، فما كان منها طاهراً سجد عند العرش، وما كان ليس بطاهر سجد بعيداً عن العرش.

ومن آدابه أن يتوب قبل نومه، لأنه ينبغي لمن طهر ظاهره أن يطهر باطنه، لأنه ربما مات في نومه.

ومنها: أن يزيل كل غشٍّ في قلبه لمسلم، ولا ينوي ظلمه، ولا يعزم على خطيئة إذا استيقظ.

(١) رواه البيهقي عن ابن مسعود، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٧٧٣)، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٢٨٩)، و«الفوائد المجموعة» (٩٧٣). وكلها طبع المكتب الإسلامي.

(٢) رواه البخاري (٩٩٦)، ومسلم (٧٤٥) وغيرهما.

(٣) «صحيح سنن النسائي» (١٦٠٤ و ١٦٣٢) عن أبي.

(٤) أخرجه مسلم (٣٠٥)، وما بين الحاصرتين منه.

ومنها: ألا يبيت من له شيء يوصي به إلا ووصيته مكتوبة عنده، لأن في «الصحيحين» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «ما حق أمرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»^(١). وينبغي له أيضاً ألا يبالي في تمهيد الفراش مُتَنَعِماً بذلك، فإنه يزيد في النوم، فإن النبي ﷺ تُنِي له فراشه، فقال: «مَنْعَتْنِي وَطْأَتُهُ صَلَاتِي اللَّيْلَةَ»^(٢).

وينبغي ألا ينام حتى يغلبه النوم، فقد كان السلف لا ينامون إلا غَلَبَةً. ومن آدابه أن يستقبل القبلة، وأن يدعو بما ورد من الأحاديث في ذلك، وأن ينام على جنبه الأيمن، فمما جاء في ذلك ما روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فإنه لا يدري ما حدث بعده»^(٣). فإذا وضع جنبه فليقل: «بِأَسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَأَرْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَأَحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ» أخرجاه في «الصحيحين».

وفي «الصحيحين» أيضاً، من حديث عائشة، أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧)، وهو في «صحيح أبي داود» (٢٤٨٨/٢٨٦٢)، و«صحيح الترمذي» (٩٧٤/٧٧٩)، و«صحيح النسائي» (٣٣٧٩ و ٣٣٨٠ و ٣٣٨٢)، و«صحيح ابن ماجه» (٢١٨٥/٢٦٩٩ و ٢١٨٦/٢٧٠٢). وينظر «الإرواء» (١٦٥٢)، و«صحيح الجامع» (٥٦١٥).

(٢) جزء من حديث رواه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» - ص ١٣٧ من طبعة الجميلي - بإسناد واه.

(٣) رواه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤)، وهو في «صحيح أبي داود» (٤٢٢٣/٥٠٥٠)، و«صحيح الترمذي» (٣٣٩٨/٣٤٠١). وينظر «صحيح الجامع» (٤٠٧).

(٤) رواه البخاري (٥٧٤٨)، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٢٨/٥٠٥٦)، و«صحيح سنن الترمذي» (٣٤٠٢/٢٧٠٨).

وفيهما من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت). فإنك إن مت في ليلتك مت على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيراً»^(١).

وعن علي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال له ولفاطمة: «إذا أخذتما مضاجعكما، أو أويئتما إلى فراشكما، فسبحا الله ثلاثاً وثلاثين، وأحمده ثلاثاً وثلاثين، وكبراه أربعاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم»^(٢) متفق عليه.

وحديث أبي هريرة في حفظ زكاة رمضان مشهور، وفيه أن شيطاناً قال له: «إذا أويت إلى فراشك فأقرأ آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان). فأخبر رسول الله ﷺ، فقال: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب»^(٣).

وفي أفراد مسلم أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي»^(٤).

فإذا استيقظ للتهجد، فلْيَذْغُ بدعاء رسول الله ﷺ: «اللهم ربنا لك الحمد، أنت قِيمُ السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات

(١) رواه البخاري (٢٤٧، ٦٣١١) وله أطراف في أحاديث أخرى، وهو في مسلم (٢٧١٠)، و«صحيح أبي داود» (٤٦/٥٠٤٦)، و«صحيح سنن الترمذي» (٣٧٠٣/٢٨٢٨).

(٢) رواه البخاري (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧)، وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٣٤٠٨/٢٧١٣).

(٣) علقه البخاري (٥٠١٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧١٥)، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٣٠٥٣/٤٢٢٥)، و«صحيح الترمذي» (٣٣٩٦/٢٧٠٤) عن أنس. وينظر «صحيح الجامع» (٤٦٨٩).

والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت مَلِكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومن فيهن،
 ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار
 حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك
 آمنت، وعليك توكلت، وإليك أُنَبِّئُ، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فأغفر
 لي ما قدمت وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ. وفي رواية: «وما أنت
 أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»^(١) متفق عليه.

وليُجْتَهِدَ أن يكون آخر كلامه عند النوم ذكر الله تعالى، وأول ما يجري على
 لسانه عند التيقظ ذكر الله تعالى، فهاتان علامتان على الإيمان.

الورد الخامس من أوراد الليل: يَدْخُلُ بِمُضِيِّ النصف الأول إلى أن يبقى من
 الليل سُدُسُهُ، وذلك وقت شريف.

قال أبو ذر رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ: أي صلاة الليل أفضل؟ فقال:
 «نصف الليل أو جَوْفُ الليل، وقليلٌ فاعِلُهُ»^(٢).

وروي أن داود عليه السلام قال: يا رب، أية ساعة أقوم لك؟ فأوحى الله تعالى
 إليه: يا داود، لا تقم أول الليل ولا آخره، ولكن قم في شطر الليل حتى تخلو
 بي وأخلو بك، وأرفع إليَّ حوائجك.

فإذا قام إلى التهجد، قرأ العشر آيات من آخر سورة (آل عمران)، كما روي
 في «الصحيحين» أن النبي ﷺ فعل ذلك^(٣). وليَدْعُ بما سبق من دعائه ﷺ عند
 قيامه من الليل، ثم يستفتح صلاته بركعتين خفيفتين، لما روى أبو هريرة رضي الله عنه،
 عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قام أحدكم يصلي بالليل، فليبدأ بركعتين
 خفيفتين»^(٤) رواه مسلم.

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان». وينظر «ضعيف الجامع» (١٠٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٩٩٢)، ومسلم (٧٦٣)، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٥٢/٥٨)، و«صحيح النسائي» (١٦٠٨) عن ابن عباس.

(٤) أخرجه (٧٦٨)، لكن صحح الألباني أنه من قول أبي هريرة في «ضعيف سنن أبي داود» (١٣٢٣/٢٨٧)، بإشرافي، طبع المكتب الإسلامي.

ثم يصلي مثنى مثنى، وأكثر ما روي عن النبي ﷺ أنه كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة مع الوتر، وأقلهن سبع^(١).

الورد السادس من الليل: السُّدُس الأخير، وهو وقت السَّحَر، قال الله تعالى: ﴿وَيَا أَشْجَارُ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ﴿٨﴾ [الذاريات].

وفي الحديث: «إن قراءة الرجل آخر الليل محضورة»^(٢).

وجاء طاوس إلى رجل وقت السَّحَر، فقالوا: هو نائم، فقال: ما كنت أرى أن أحداً ينام وقت السَّحَر.

فإذا فرغ المريد من صلاة السحر، فليستغفر الله عز وجل.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يفعل ذلك.

فصل في اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

أعلم أن السالك لطريق الآخرة لا يخلو من ستة أحوال: إما أن يكون عابداً، أو عالماً، أو متعلماً، أو والياً، أو محترفاً، أو مستغرقاً بمحبة الله ﷻ مشغولاً به عن غيره.

الأول: العابد، وهو المنقطع عن الأشغال كلها إلى التعبد، فهذا يستعمل ما ذكرنا من الأوراد، وقد تختلف وظائفه، فقد كانت أحوال المتعبد من السلف مختلفة، فمنهم من كان يغلب على حاله التلاوة، حتى يختم في يوم ختمة، أو ختمتين، أو ثلاثاً، وكان فيهم من يكثّر التسبيح، ومنهم من يكثّر الصلاة، ومنهم من يكثّر الطواف بالبيت.

فإن قيل: فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد؟ فأعلم أن قراءة القرآن في الصلاة قائماً مع التدبر يجمع الجميع، ولكن ربما عُسرت

(١) رواه البخاري (١١٤٠)، ومسلم (٧٣٨) عن عائشة.

(٢) رواه ابن عدي ٢٠٩٣/٦ في ترجمة كلثوم، وقال: يحدث عن عطاء بمراسيل، وعن غيره بما لا يتابع عليه.

المواظبة على ذلك . والأفضل يختلف باختلاف حال الشخص . ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره ، فلينظر المريد ما يراه أشد تأثيراً فيه فيواظب عليه ، فإذا أحس بميلٍ أنتقل عنه إلى غيره .

قال أبو سليمان الداراني: فإذا وجدت قلبك في القيام فلا تركع ، وإذا وجدت في الركوع فلا ترفع .

الثاني: العالم الذي ينتفع الناس بعلمه في فتوى ، أو تدريس ، أو تصنيف ، أو تذكير ، فترتيبه في الأوراد يخالف ترتيب العابد ، فإنه يحتاج إلى المطالعة في الكتب ، والتصنيف ، والإفادة ، فإن استغرق الأوقات في ذلك ، فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات . وإنما نعني بالعلم المُقَدَّم على العبادة: العلم الذي يُرَغَّب في الآخرة ، ويعين على سلوك طريقها . والأولى بالعالم أيضاً أن يقسم أوقاته ، لأن استغراق الأوقات في العلم لا تصبر عليه النفس . فينبغي أن يخص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد على ما ذكرنا . ثم ما بعد طلوع الشمس إلى الضحى في الإفادة والتعليم ، فإن لم يكن عنده من يتعلم ، صرف ذلك الزمان إلى التفكير في العلوم ، فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا: يعين على التفطن للمشكلات . ثم من ضخوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة ، لا يترك ذلك إلا في وقت أكل ، أو طهارة ، أو مكتوبة ، أو قيلولة . ومن العصر إلى أصفار الشمس بسماع ما يُقرأ عليه من تفسير ، أو حديث ، أو علم نافع . ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالاستغفار والتسبيح ، فيكون وزده الأول من عمل اللسان ، والثاني في عمل القلب بالتفكير ، والثالث في عمل العين واليد بالمطالعة والنسخ ، والرابع بعد العصر في عمل السمع لتتروح العين واليد ، فإن المطالعة والنسخ بعد العصر ربما أضرا بالعين .

وأما الليل: فأحسن قسمة فيه قسمة الشافعي رحمته الله ، فإنه كان يقسمه ثلاثة أجزاء: الثلث الأول لكتابة العلم ، والثاني للصلاة ، والثالث للنوم ، فأما الصَّيْفُ ، فربما لا يحتمل ذلك ، إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار .

الثالث: حال المتعلم، فإن التعلم أفضل من التشاغل بالأذكار والنوافل، وحكم المتعلم حكم العالم في ترتيب الأوراد، لكنه يشتغل بالاستفادة حين يشتغل العالم بالإفادة، وبالتعليق والنسخ حين يشتغل العالم بالتصنيف، فإن كان من العوام كان حضوره مجالس الذكر والعلم والوعظ أفضل من اشتغاله بالأوراد المتطوع بها.

الرابع: الوالي مثل الإمام، والقاضي، أو المتولي للنظر في أمر من أمور المسلمين، فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة، لأنه عبادة يتعدى نفعها، فينبغي أن يقتصر في النهار على المكتوبات، ثم يستفرغ باقي الزمان في ذلك، ويقنع بأوراد الليل.

الخامس: المحترف، وهو محتاج إلى الكسب له ولعِياله، فليس له أن يستغرق الزمان في التعب، بل يجتهد في الكسب مع دوام الذكر، فإذا حصل له ما يكفيه عاود الأوراد.

السادس: المستغرق بمحبة الله سبحانه، فهذا ورده بعد المكتوبات حضور القلب مع الله تعالى، وهو يحركه إلى ما يريد من ورده.

وينبغي أن يداوم العمل على الأوراد، لقول النبي ﷺ: «أحب العمل إلى الله تعالى أدومه وإن قل»^(١).

وكان النبي ﷺ عمله ديمة^(٢).

(١) رواه البخاري (٦٤٦٤-٦٤٦٥)، ومسلم (٢١٨) و (٧٨٢) و (٢١٦) كلها بنحوه عن عائشة، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (١٣٦٨/١٢١٩)، و«صحيح النسائي» (٧٣٤). وينظر «صحيح الجامع» (١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٨٧)، ومسلم (٧٨٣)، وأبو داود [«صحيح سننه» (١٢٢١/١٣٧٠)] عن عائشة.

(الديمة): العمل الدائم في سكون. قال أهل اللغة: (الديمة): المطر الدائم في سكون، شبه به عمله في دوامه مع الاقتصاد.

باب في قيام الليل وفضله والأسباب الميسرة لقيامه ونحو ذلك

قال الله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦].
وقال النبي ﷺ: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربكم، ومغفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم»^(١).
وفي فضله أحاديث كثيرة.

وقال الحسن البصري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لم أجد من العبادة شيئاً أشدَّ من الصلاة في جوف الليل، ف قيل له: ما بال المُتَهَجِّدِينَ أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: لأنهم خَلَوْا بِالرَّحْمَنِ فَأَلْبَسَهُمْ مِنْ نُورِهِ.

فصل في الأسباب الميسرة لقيام الليل

اعلم أن قيام الليل صَغْبٌ إلا على من وُفِّقَ للقيام بشروطه الميسرة له، فمن الأسباب ظاهر، ومنها باطن.

فأما الظاهر: فألا يكثر الأكل، كان بعضهم يقول: يا معشر المُريدِينَ، لا تأكلوا كثيراً، فتشربوا كثيراً، فتناموا كثيراً، فتخسروا كثيراً.
ومنها: ألا يتعب نفسه بالنهار بالأعمال الشاقة.

ومنها: ألا يترك القيلولة بالنهار، فإنها تعين على قيام الليل.
ومنها: أن يجتنب الأوزار. قال الثوري: حُرِّمَتْ قِيَامَ اللَّيْلِ خَمْسَةُ أَشْهُرٍ يَذْنِبُ أَذْنَبَتَهُ.

وأما الميسرات الباطنة:

فمنها: سلامة القلب للمسلمين، وخلوه من البدع، وإعراضه عن فضول الدنيا.

(١) «صحيح الترمذي» (٣٥٤٩/٢٨١٤). وينظر «صحيح الجامع» (٤٠٧٩)، و«الإرواء» (٤٥٢)، و«المشكاة» (١٢٢٧).

ومنها: خوفٌ غالبٌ يلزم القلب مع قصرِ الأمل .

ومنها: أن يعرف فضل قيام الليل .

ومن أشرف البواعث على ذلك: الحبُّ لله تعالى، وقوة الإيمان بأنه إذا قام ناجى ربه، وأنه حاضرُهُ ومُشاهدُهُ، فتحمله المناجاة على طول القيام .

قال أبو سليمان رحمته الله: أهل الليل في ليلهم أَلَدُّ من أهل اللّهُو في لَهوهم، ولولا الليل ما أُحبِبْتُ البقاء في الدنيا .

وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أتاها إياه، وذلك كل ليلة»^(١) .

وإحياء الليل مراتب:

أحدها: أن يحيي الليل كله، روي ذلك عن جماعة من السلف .

[بيان طرق
القسمة لأجزاء
الليل]
الثانية: أن يقوم نصف الليل، وهو مروي أيضاً عن جماعة من السلف، وأحسن الطريق في هذا أن ينام الثلث الأول من الليل، والسدس الأخير منه .

المرتبة الثالثة: أن يقوم ثلث الليل، فينبغي أن ينام النصف الأول، والسدس الأخير، وهو قيام داود عليه السلام .

ففي «الصحيحين»: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»^(٢) .

ونوم آخر الليل أحسن، لأنه يذهب بآثار النعاس من الوجه بالغداة، ويقلل صُفْرته .

(١) أخرجه مسلم (٧٥٧)، وأحمد في «مسنده» طبعة المكتب الإسلامي المرقمة (١٤٣٨ و ١٤٥٢٨) عن جابر .

(٢) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩)، وأحمد (٦٩١٨)، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٢١٣٨-٢٤٤٨)، و«صحيح سنن النسائي» (١٥٣٦ و ٢٢٠٩) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٩٠/١٧١٢)، والدارمي ٢٠/٢ عن ابن عمرو . وينظر «رياض الصالحين» (١١٨٥) و«الإرواء» (٩٤٥)، طبع المكتب الإسلامي .

المرتبة الرابعة: أن يقوم سدس الليل أو خُمُسَهُ، والأفضل من ذلك ما كان في النصف الأخير، وبعضهم يقول: أفضله السدس الأخير.
المرتبة الخامسة: ألا يراعي التقدير، فإن مراعاة ذلك صعب.
ثم فيما يفعله طريقان:

أحدهما: أن يقوم أول الليل إلى أن يغلبه النوم فينام، فإذا أُنْتَبِهَ قام، فإذا غلبه النوم نام، وهذا من أشد المُكابدة، وهو طريق جماعة من السلف.
وفي «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه: ما كنا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ مُصَلِّياً من الليل إلا رأيناه، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه^(١).
وكان عمر رضي الله عنه يصلي من الليل ما شاء الله، حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله، فيقول: الصلاة الصلاة.
وقال الضُّحَّاك: أدركت أقواماً يستحيون من الله في سواد هذا الليل من طول الضجعة.

الطريق الثاني: أن ينام أول الليل، فإذا أخذ حَظَّهُ من النوم، وأُنْتَبِهَ، قام الباقي.
قال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: إنما هي أول نومة، فإذا أُنْتَبِهَتْ لم أقلها - يعني: لم ينم -.

المرتبة السادسة: أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين، فقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «صلوا من الليل، صلوا أربعاً، صلوا ركعتين...» الحديث^(٢).

وفي «سنن أبي داود» قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَسْتَيْقِظَ مِنَ اللَّيْلِ

(١) رواه البخاري (١١٤١)، واللفظ للنسائي [«صحيح سننه» (١٥٣٥)].

(٢) رواه البيهقي في «الشعب»، وهو أيضاً في «ضعيف الجامع الصغير» عن الحسن مرسلًا برقم (٣٤٨٨)، طبع المكتب الإسلامي.

ولفظه: «صلوا من الليل ولو أربعاً، صلوا ولو ركعتين، ما من أهل بيت تُعرف لهم صلاة من الليل إلا ناداهم مناد: يا أهل البيت قوموا لصلاتكم».

وَأَيُّقِظْ أَمْرَانَهُ فَصَلَّيَا جَمِيعاً رَكَعَتَيْنِ، كُتِبَا لَيْلَتَيْهِ مِنْ ﴿الَّذِكْرِ﴾ اللَّهُ كَثِيراً
وَالَّذِكْرِ ﴿[الأحزاب: ٣٥]﴾^(١).

وكان طَلْحَةُ بن مُصْرَفٍ يأمر أهله بقيام الليل، ويقول: صلوا ركعتين، فإن الصلاة في جَوْفِ الليل تَحُطُّ الأَوْزَارُ.

فهذه طُرُقُ قِسْمَةِ الليل، فليَتَخَيَّرِ المريد لنفسه ما يَسْهُلُ عليه.

فإن صَعُبَ القيام عليه في وسط الليل، فلا ينبغي أن يُخَلَّ بإحياء ما بين العِشاءين ووزِدِ السَّحَر، ليكون قائماً في الطَّرَفَيْنِ، وهذه مرتبة سابعة.

فصل

فأما من صَعُبَتْ عليه الطهارة في الليل، وثَقُلَتْ عليه الصلاة، فليجلس مستقبل القبلة، وليذكر الله تعالى، وَلْيَذْغُ مهما قدر. فإن لم يجلس فليدع وهو مضطجع. ومن كان له ورد فغلبه النوم وفاته، فليأت به بعد صلاة الضحى. فقد ورد ذلك في الحديث^(٢).

وليحذر من له عادة بقيام الليل أن يتركها، ففي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال لعبد الله بن عمرو: «لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل»^(٣).

فصل في بيان الليالي والأيام الفاضلة

أما الليالي المخصوصات بمزيد الفضل التي يُسْتَحَبُّ إحيائها، فخمس

(١) «صحيح أبي داود» (١٤٥١/١٢٨٨)، وأخرج نحوه (١٣٠٩/١١٥٧)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٣٥/١٠٩٨) عن أبي سعيد وأبي هريرة، وهو في «صحيح الجامع» (٦٠٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٧) عن عمر مرفوعاً بلفظ: «... فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر...».

(٣) رواه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩)، والنسائي [«صحيحه»] (١٦٦٣) و (١٦٦٤) عن ابن عمرو نفسه.

عَشْرَةَ لَيْلَةٍ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُرِيدِ أَنْ يَغْفَلَ عَنْهُمْ، لِأَنَّهُ إِذَا غَفَلَ التَّاجِرُ عَنْ مَوْسَمِ الرِّبْحِ فَمَتَى يَرْبِحُ؟ فَمَنْ هَذِهِ اللَّيَالِي سَبْعٌ فِي رَمَضَانَ: اللَّيْلَةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةَ، وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ صَبِيحَتِهَا وَقْعَةُ بَدْرٍ، وَالسَّتِ الْبَاقِيَةُ هُنَّ أَوْتَارُ الْعَشْرِ، إِذْ فِيهِنَّ تُطْلَبُ لَيْلَةُ الْقَدَرِ. وَأَمَّا الثَّمَانُ الْآخَرُ: فَأُولُ لَيْلَةٍ مِنَ الْمَحْرَمِ، وَلَيْلَةُ عَاشُورَاءَ، وَأُولُ لَيْلَةٍ مِنْ رَجَبٍ، وَلَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْهُ، وَلَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ مِنْهُ فَإِنَّهَا لَيْلَةُ الْمَعْرَاجِ، وَلَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، وَلَيْلَةُ عَرَفَةَ، وَلَيْلَتَا الْعِيدَيْنِ. وَقَدْ وَرَدَ صَلَوَاتٌ لِبَعْضِ هَذِهِ اللَّيَالِي وَلَيْسَ فِيهَا مَا يَثْبُتُ^(١).

وَأَمَّا الْأَيَّامُ الْفَاضِلَةُ فَتِسْعَةٌ عَشْرَ يَوْمًا: يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ عَاشُورَاءَ، وَيَوْمُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ، وَهُوَ أَوَّلُ يَوْمٍ هَبَطَ فِيهِ جَبْرِيلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَيَوْمُ سَبْعٍ عَشْرَةَ مِنْ رَمَضَانَ كَانَ فِيهِ وَقْعَةُ بَدْرٍ، وَيَوْمُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَيَوْمَا الْعِيدَيْنِ، وَالْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ وَهِيَ عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ، وَالْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ وَهِيَ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ.

وَمِنْ فَوَاضِلِ الْأَيَّامِ فِي أَسْبُوعٍ: يَوْمُ الْاِثْنَيْنِ، وَالْخَمِيسِ، وَأَيَّامُ الْبَيْضِ^(٢). وَفِيهَا فَضْلٌ كَبِيرٌ مَذْكُورٌ فِي: (فَضَائِلِ الصُّومِ).

آخر (كتاب: الأوراد)،
وهو آخر (ربع: العبادات)،
وبالله التوفيق.

(١) وهذا صحيح. وليس المقصود بالإحياء قيام كل الليل، بل لا بد من نوم بعضه، ولا فرق في هذا بين ليلة القدر وباقي العشر الأخير من رمضان، وبين غيرها من الليالي.

(٢) وهي ثلاث أواسط الشهر، حيث يكون القمر بدرًا. ومن يظن أنها أوائل شوال فهو واهم.

رُبْعُ الْعَادَاتِ

٨ - بَابُ فِي آدَابِ الْأَكْلِ وَالاجْتِمَاعِ عَلَيْهِ وَالضِّيَافَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ

وآداب الأكل، منها ما هو قبله، ومنها ما هو مع الأكل، ومنها ما هو بعد الأكل.

فمن القسم الأول: غسل اليدين قبل الأكل، كما ورد في الحديث^(١)، لأنها لا تخلو من درن.

ومن ذلك أن يُوضَعَ الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض، فإنه أقرب إلى فعل رسول الله ﷺ مِنْ رَفَعِهِ عَلَى الْمَائِدَةِ، وهو أدنى إلى التواضع.

ومن ذلك أن يجلس الجلسة على السفرة، فينصب رجله اليمنى، ويعتمد على اليسرى، وينوي بأكله أن يتقوى على طاعة الله تعالى ليكون مطيعاً بالأكل، ولا يقصد به التمتع فقط، وعلامة صحة هذه النية أخذ البلغة دون الشبع. قال النبي ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن، حَسِبُ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتٍ يَقْمَنُ ضُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَتُلَّتْ لَطْعَامُهُ، وَتُلَّتْ لَشْرَابِهِ، وَتُلَّتْ لِنَفْسِهِ»^(٢). ومن ضرورة هذه النية ألا يمد يده إلى الطعام إلا وهو جائع، وأن يرفع يده قبل الشبع، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُذِّحْ بِحَتَّاجٍ إِلَى طَبِيبٍ.

ومن ذلك أن يرضى بالموجود من الرزق، ولا يحتقر اليسير منه، وأن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده.

(١) منها: «بركة الطعام الوضوء قبله وبعده» «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١٦٨)، وكلها ضعيفة. قاله العراقي ٣/٢.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٥٥)، وهو في «صحيح الترمذي» (٢٣٨٠/١٩٣٩)، و«صحيح ابن ماجه» (٣٣٤٩/٢٧٠٤)، والحاكم عن المقدم بن مَعْدٍ يَكْرِبُ. وينظر «صحيح الجامع» (٥٦٧٤)، و«الإرواء» (١٩٨٣)، و«الصحيحة» (٢٢٦٥).

القسم الثاني: في الآداب حالة الأكل: وهو أن يبدأ بأسم الله في أوله، ويحمد الله تعالى في آخره.

ومن ذلك أن يأكل باليمين ويصغر اللقمة ويجود مضغها، وألا يمد يده إلى أخرى حتى يبتلع الأولى، ولا يذم مأكولاً.

ومن ذلك أن يأكل مما يليه، إلا أن يكون الطعام متنوعاً كالفاكهة، وليأكل بثلاث أصابع، وإذا وقعت لقمة أخذها.

ومن ذلك ألا ينفخ في الطعام الحار، (ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق واحد)^(١)، ولا يجمعه في كفه، بل يضعه من فيه على ظهر كفه ثم يلقيه، وكذا كل ما له عجم وثقل، ولا يشرب الماء في أثناء الطعام، فإنه أجود في باب الطب.

ومن آداب الشرب أن يتناول الإناء بيمينه، وينظر فيه قبل الشرب، ويمص مَصّاً لا عَبّاً، فقد روي عن علي عليه السلام: (مَصُّوا الماء مَصّاً ولا تَعْبُوهُ عَبّاً، فإن الكِبَادَ من العَبِّ). ولا يشرب قائماً، ويتنفس في شربه ثلاثاً:

ففي «الصحيحين» أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتنفس في شربه ثلاثاً^(٢). والمعنى يتنفس في شربه من الإناء، بأن يباعد الإناء عنه ويتنفس، لا أن يكون النفس في الإناء.

القسم الثالث: من آداب الأكل ما يستحب بعد الطعام. وهو أن يمسك قبل الشبع ويلعق أصابعه، وأن يسلت^(٣) القصعة، وليحمد الله. ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله ليزضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»^(٤). ويغسل يده من الغمر^(٥).

(١) لفعله صلى الله عليه وسلم كما رواه مسلم (٢٠٤٢).

(٢) رواه مسلم (٢٠٢٨)، والترمذي [«صحيح سننه» (١٥٣٦/١٨٨٤)] عن أنس. ومعناه في «صحيح الجامع» (٤٩٥٦)، و«الصحيح» (١٢٧٥).

(٣) أي: يتبع ما بقي فيها من الطعام ويمسحها.

(٤) رواه مسلم (٢٧٣٤)، والترمذي (١٤٨٣/١٨١٦) عن أنس. تنظر «الصحيح» (١٦٥١).

(٥) الغمر - بفتحتين - الدسم والزهومة، من اللحم والسمن.

فصل فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل

من ذلك ألا يبتدئ في الأكل إذا كان معه من يستحق التقديم لِكِبَرِ سِنِّ أو زيادة فضل، إلا أن يكون هو المتبوع .
ومنها ألا يسكتوا على الطعام، بل يتكلمون بالمعروف، ويتحدثون بحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها .
ومن ذلك أن يقصد كلُّ منهم الإيثار لرفيقه، ولا يحوج رفيقه إلى أن يقول له: كُلْ، بل ينسبط ولا يتصنع بالانقباض .
ومن ذلك ألا ينظر إلى أصحابه حالة الأكل لئلا يستحيوا .
ومن ذلك ألا يفعل ما يستقذره من غيره، فلا ينفض يده في القصعة، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة فيه، وإذا أخرج شيئاً من فيه ليرمي به، صرف وجهه عن الطعام، وأخذه بيساره، ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل، ولا الخل في الدسمة، فقد يكرهه غيره، ولا يغمس بقية اللقمة التي أكل منها في المرقعة .

فصل

ويستحب تقديم الطعام إلى الإخوان، رُوِيَ ذلك عن علي عليه السلام أنه قال: لَأَنْ أَجْمَعَ إِخْوَانِي عَلَى صَاحٍ مِنَ الطَّعَامِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً .

وكان خيثة رحمته الله يصنع الخبيص والطعام الطيب، فيدعو إبراهيم الزائرين والأعمش ويقول: كُلُوا، فما صنعتته إلا لكم .

ويقدم ما حضر من غير تكلف، ولا يستأذنهم في التقديم، بل يقدم من غير استئذان، ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده .

ومن آداب الزائر ألا يقترح طعاماً بعينه، وإن خُيِّرَ بين طعامين اختار أيسرهما، إلا أن يعلم أن مضيفه يُسَرُّ بأقتراحه ولا يقصر عن تحصيل ذلك، فقد نزل الشافعي رحمته الله على الزَّعْفَرَانِيِّ، وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة

[في آداب
تقديم الطعام
إلى الإخوان]

بما يطبخ من الألوان، ويسلمها إلى الجارية، فأخذ الشافعي الرقعة وألحق فيها لوناً آخر، فلما علم الزعفراني أشد فرحه .

فصل

[(الدخول على
الأكليين)] ولا ينبغي لأحد إذا علم أن قوماً يأكلون أن يدخل عليهم، فإن صادفهم من غير قصد، فسأله الأكل، نظر، فإن علم أنهم إنما سأله حياء منه، فلا يأكل، وإن علم أنهم يحبون أكله معهم، جاز له أن يأكل. ومن دخل دار صديقه فلم يجده وكان واثقاً به عالمًا أنه إذا أكل من طعامه سر بذلك، جاز له أن يأكل.

فصل

[في آداب
الضيافة] ومن آداب الضيافة، أن يقصد بدعوته الأتقياء دون الفساق، وقال بعض السلف: لا تأكل إلا طعام تقي، ولا يأكل طعامك إلا تقي. وينبغي أن يقصد الفقراء دون الأغنياء، وينبغي ألا يهمل أقرابه في ضيافتهم، فإن إهمالهم يوجب الإيحاش وقطيعة الرحم. وكذلك يراعي الترتيب في أصدقائه ومعارفه، ولا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر، بل أَسْتَعْمَالَ السُّنَّةِ فِي إطعام الطعام واستمالة قلوب الإخوان، وإدخال السرور على قلوب المؤمنين، ولا يدعو من يعلم أنه تشق عليه الإجابة، أو إذا حضر تأذّي بالحاضرين بسبب من الأسباب.

وأما آداب الإجابة، فإن كانت دعوة عرس، فالإجابة عليها واجبة إذا دعاه المسلم في اليوم الأول، وإن كانت لغيره، فهي جائزة، ثم ينبغي ألا يخص الغني بالإجابة^(١) دون الفقير، ولا يمتنع من الدعوة لكونه صائماً، بل يحضر، فإن كان تطوعاً وعلم أن فطره يَسُرُّ أخاه المسلم فليفطر، فأما إن كان الطعام حراماً فليمتنع من الإجابة، وكذلك إذا كان ثَمَّة منكر؛ من: فرش محرمة، أو إناء محرّم، أو مزمار، أو صورة، وكذلك إذا كان الداعي ظالماً أو فاسقاً أو

(١) كذا في الأصول، ولعلها: (الدعوة) فإنها ألزم بالسياق والسباق.

مبتدعاً أو مفاخرأً بدعوته . وينبغي ألا يقصد بالإجابة إلى الدعوة نفس الأكل ، بل ينوي به الاقتداء بالسُّنة ، وإكرام أخيه المؤمن ، وينوي صيانة نفسه عمن يسيء به الظن ، فربما قيل عنه إذا أمتنع : هذا متكبر .
وينبغي أن يتواضع في مجلسه إذا حضر ، ولا يتصدر ، وإن عين له صاحب الدار مكاناً لم يتعدّه ، ولا يكثر النظر إلى المكان الذي يخرج منه الطعام ، فإنه دليل على الشره .

فصل : وأما إحضار الطعام فله خمسة آداب :

الأول : تعجيله ، فذلك من إكرام الضيف .

الثاني : تقديم الفاكهة أولاً قبل غيرها ، وذلك أصلح في باب الطب ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَفَكَهْهَ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ (٢٥) وَلَحَرِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿ (٢٦) ﴾ [الواقعة] (١) .

ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم ، خصوصاً المشوي ، ثم أفضل الطعام بعد اللحم الشريد ، ثم الحلوى ، وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد ، وتكملة الأمر صب الماء الفاتر على اليدين عند الغسل .

الثالث : أن يقدم جميع الألوان الحاضرة .

الرابع : ألا يبادر إلى رفعها بل يمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا أيديهم .

الخامس : أن يقدم من الطعام قدر الكفاية ، فإن التقليل من الكفاية نقص في المروءة .

وينبغي أن يعزل لأهل البيت نصيبهم قبل تقديم الطعام ، فإذا أراد الضيف الانصراف ينبغي أن يخرج معه إلى باب الدار ، فإنه سنة ، وذلك من إكرام الضيف . ومن تمام الإكرام طلاقة الوجه ، وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة .

وأما الضيف فينبغي أن يخرج طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير ، فذلك من حسن الخلق والتواضع ، ولا يخرج إلا برضا صاحب المنزل وإذنه ، ويراعي قلبه في قدر الإقامة .

(١) ليس لهذا علاقة بالطب ، ولا في تقدمه بالآية دليل على ذلك .

٩ - كِتَابُ النِّكَاحِ وَآدَابِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ

لا يختلف العلماء في أن النكاح مستحب، مندوب إليه، كثير
[فوائد (النكاح)] الفضائل، وفيه فوائد:

منها: الولد، لأن المقصود بقاء النسل، وفيه فوائد محبة الله تعالى بالسعي لذلك، ليبقى جنس الإنسان. وفيه طلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير مَنْ به مباهاته. وفيه طلب التبرك بدعاء الولد الصالح، والشفاعة بموت الولد الصغير.

ومن فوائد النكاح: التحصن من الشيطان بدفع غوائل الشهوة، وفيه ترويح النفس، وإيناسها بمخالطة الزوجة.

ومنها: تفرغ القلب عن تدبير المنزل، والتكفل به بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني، وتهيئة أسباب العيش، فإن الإنسان يتعذر عليه أكثر ذلك مع الوحدة، ولو تكفل به لضاع أكثر أوقاته، ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصالحة عون على الدين بهذه الطريقة، إذ أختلاف هذه الأسباب شواغل للقلب.

ومن فوائده أيضاً: مجاهدة النفس، ورياضتها بالرعاية والولاية، والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهم، واحتمال الأذى منهم، والسعي في إصلاحهم وإرشادهم إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهم، والقيام بتربية الأولاد، وكل هذه أعمال عظيمة الفضل، فإنها رعاية وولاية، وفضل الرعاية عظيم، وإنما يحترز منها، من يخاف من القصور عن القيام بحقها، ومقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله عز وجل.

وفي أفراد مسلم، عن النبي ﷺ أنه قال: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار

أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك .
أفضلهم الدينار الذي أنفقته على أهلك»^(١).

فصل: وفي النكاح آفات:

[آفات

أقواها: العجز عن طلب الحلال، فإن ذلك يصعب، فربما أمتدت يد
المتزوج إلى ما ليس له .

الثانية: القصور عن القيام بحقوق النساء، والصبر على أخلاقهن وأذهن،
وفي ذلك خطر، لأن الرجل راع وهو مسؤول عن رعيته .

الثالثة: أن يكون الأهل والولد يشغلونه عن ذكر الله ﷻ، فينقضي ليله
ونهاره بالتمتع بذلك، فلا يتفرغ القلب للفكر في الآخرة والعمل لها .

فهذه مجامع الآفات والفوائد، فالحكم على شخص واحد، بأن الأفضل له
النكاح أو العزوبة مطلقاً: مصروفٌ على الإحاطة بمجامع هذه الأمور، بل
ينبغي للمريد أن يَغْرِض نفسه على هذه الأحوال، فإن أنتفت عنه الآفات
وأجتمعت له الفوائد، بأن كان له مال حلال وحسن خلق، وهو مع ذلك:
شابٌ يحتاج إلى تسكين الشهوة، ومنفردٌ يحتاج إلى تدبير المنزل، فلا شك أن
النكاح أفضل، وإن أنتفت هذه الفوائد واجتمعت فيه الآفات، فتركّه أفضل،
وهذا في حق مَنْ لم يَخْتَجِ إلى النكاح، فإن احتاج إليه فإنه يلزمه .

فصل

ويعتبر في المرأة لطيب العشرة أمور:

[الخصال

أحدها: الدين، وهو الأصل، لقول النبي ﷺ: «عليك بذات المطيبة
الدين»^(٢)، فإذا لم يكن لها دين أفسدت دين زوجها، وأزرت به . وإن للعيش
سلكت سبيل الغيرة لم يزل في بلاء وتكدير عيش .

(١) هو في مسلم (٩٩٥) عن أبي هريرة، ويلفظ: (أعظمها أجراً) بدلاً من (أفضلهم
الدينار).

(٢) رواه مسلم (بعد ١٤٦٦) عن جابر . وروى نحوه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم
(١٤٦٦) عن أبي هريرة.

الثاني: حُسْنُ الخُلُقِ، فَإِنَّ سَيِّئَةَ الخُلُقِ ضررها أكثر من نفعها.
 الثالث: حُسْنُ الخُلُقِ، وهو مطلوب، إذ به يحصل التَّحَصُّنُ، ولهذا أمر
 بالنظر إلى المخطوبة. وقد كان أقوام لا ينظرون في الحسن، ولا يقصدون
 التمتع، كما روي أن الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله اختار امرأة عوراء على
 اختها، إلا أن هذا يندر، والطباع على ضده.
 الرابع: خفة المهر، وقد زَوَّج سعيد بن المسيَّب أخته بدرهمين.
 وقال عمر رضي الله عنه: لا تغالوا في مهر النساء.
 وكما تكره المغالاة في المهر من جهة المرأة، يكره السؤال عن مالها من
 جهة الرجل.

قال الثوري: إذا تزوج الرجل وقال: أي شيء للمرأة؟ فأعلم أنه لص.
 الخامس: البكارة، لأن الشارع ندب إلى ذلك، ولأنها تحب الزوج وتألفه
 أكثر من الثَّيِّب، فيوجب ذلك الودَّ، فإن الطباع مجبولة على الأنس بأول
 مألوف، وهو أيضاً أكمل لمودته لها، لأن الطبع ينفر من التي مَسَّها غيره.
 السادس: أن تكون ولوداً.

السابع: النسب، وهو أن تكون من بيت دينٍ وصلاح.
 الثامن: أن تكون أجنبية.
 وكما ينبغي للرجل أن ينظر في المرأة، ينبغي للولي أن ينظر في دين الرجل
 وأخلاقه وأحواله، لأنها تصير بالنكاح مرقوقة، ومتى زَوَّجها من فاسق أو
 مبتدع، فقد جنى عليها وعلى نفسه.
 قال رجل للحسن: ممن أزوَّج أبتني؟ قال: ممن يتقي الله، فإنه إن أحبها
 أكرمها، وإن أبغضها لن يظلمها.

فصل في آداب المعاشرة

والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة

أما الزوج، فعليه مراعاة الاعتدال والأدب في أثني عشر أمراً:
 الأول: الوليمة، فإنها مستحبة.

الثاني: حُسن الخُلُق مع الزوجات . وأحتمال الأذى منهن لقصور عقلمهن . وفي الحديث الصحيح : «أستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فأستوصوا بالنساء خيراً»^(١) . وأعلم أنه ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها، والحلم على طيشها وغضبها، اقتداء برسول الله ﷺ، ففي «الصحيحين» من حديث عمر رضي الله عنه أن أزواج النبي ﷺ كن يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل^(٢)، والحديث مشهور .

الثالث: أن يداعبها ويمازحها، وقد سبق ﷺ عائشة رضي الله عنها^(٣)، وكان يداعب نساءه ﷺ، وقال لجابر: «هلا بكرة تلاعبها وتلاعبك»^(٤) .

الرابع: أن يكون ذلك بقدر، ولا ينسبط في الدعابة إلى أن تسقط هيئته بالكلية عند المرأة، بل ينبغي أن يقصد طريق الاقتصاد . وقد روينا عن عمر رضي الله عنه أنه عتب على بعض عماله، فكلمته امرأة عمر رضي الله عنه فيه فقالت:

يا أمير المؤمنين فيم وجدت عليه؟ قال: يا عدوة الله، وفيم أنت وهذا؟ إنما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين .

الخامس: الاعتدال في الغيرة، وهو ألا يتغافل عن مبادئ الأمور التي

(١) رواه البخاري (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨) عن أبي هريرة . وينظر «صحيح الجامع الصغير» (٩٦٠) .

(٢) هو في البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩) .

(٣) «صحيح أبي داود» (٢٢٤٨/٢٥٧٨)، و«صحيح ابن ماجه» (١٦١٠/١٩٧٩) عنها . ويراجع «الإرواء» (١٥٠٢)، و«الصحيحة» (١٣١)، و«آداب الزفاف» ص ٢٠٤، طبعة المكتب الإسلامي المنقحة والمهذبة .

(٤) رواه البخاري (٥٣٦٧)، ومسلم (١٤٦٦)، والنسائي «صحيح سننه» (٣٠١٨)، وابن ماجه «صحيح سننه» (١٥٠٧/١٨٦٠) عنه . وينظر «صحيح الجامع الصغير» (٤٢٣٣) .

يخشى غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن، وقد نهى النبي ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً^(١).

السادس: الاعتدال في النفقة والقصد دون الإسراف والتقتير، ولا ينبغي للرجل أن يستأثر عن أهله بالطعام الطيب، فإن ذلك مما يؤغر الصدر.

السابع: أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يدري به كيف معاشرة الحائض، ويُلقَّنها الاعتقاد الصحيح، ويزيل عن قلبها كل بدعة إن كانت، ويعلمها أحكام الصلاة والحيض والاستحاضة، فيعرفها أنها إذا انقطع دمها قبل المغرب بمقدار ركعة فعليها الظهر والعصر، وإذا انقطع دمها قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء، وهذا لا يكاد النساء يُراعينه.

الثامن: إذا كانت له نسوة ينبغي أن يَعدِلَ بينهن، والعدل في المَبيتِ والعطاء، لا في الحب والوطء، فإن ذلك لا يملكه، فإن سافر وأراد استصحاب إحداهن أقرع بينهن، فأيتهن خرج سهمها خرج بها.

التاسع: النشوز، فإذا كان النشوز من المرأة، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً، ولكنه ينبغي أن يتدرج في تأديبها: بتقديم الوعظ والتخويف، فإن لم ينفع، هَجَرها في المضجع، فولأها ظهره أو أنفرد عنها بالفراش، وهجرها في الكلام فيما دون ثلاثة أيام. فإن لم ينفع ضربها ضرباً غير مبرح، وهو ألا يدمي لها جسماً، ولا يضرب لها وجهاً.

العاشر: في آداب الجماع، يستحب البداءة بالتسمية، والانحراف عن القبلة. وأن يَغطى هو وأهله بثوب، وألا يكونا متجردين، وأن يبدأ بالملاعبة والضم والتقبيل. ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة، ثم إذا قضى وطره فيتمهل لتقضي وطرها، فإن إنزالها ربما تأخر.

ومن الآداب: أن تأتزر الحائض بإزار من حَقْوَيْهَا إلى ما بين الركبة إذا أراد

(١) رواه البخاري (١٨٠١)، ومسلم (٧١٥)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٢٤١٣)/ (٢٧٧٦)]، والترمذي [«صحيح سننه» (٢٧١٢/٢١٨٢)] عن جابر.

الاستمتاع بها، ولا يجوز وطؤها في الحيض، ولا في الدبر، ومن أراد أن يجامع مرة ثانية فليغسل فرجه ويتوضأ.

ومن الآداب: ألا يحلق شعره، ولا يقلم أظافره، ولا يخرج دمًا وهو جنب، وأما العزل فهو مباح مع الكراهة.

الحادي عشر: في آداب الولادة، وهي ستة:

الأول: ألا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى، فإنه لا يدري في أيهما الخير.

الثاني: أن يؤذن في أذن المولود حين يولد.

الثالث: أن يسميه اسماً حسناً.

وفي أفراد مسلم: «إن أحب أسمائكم إلى الله ﷻ عبد الله وعبد الرحمن»^(١) ومن كان له اسم مكروه، استحب له تبديله، فقد غيّر النبي ﷺ أسماء جماعة، وقد كره من الأسماء: أفلح، ونافع، ويسار، ورباح، وبركة^(٢)، لأنه يقال: أهو ثمة؟ فيقال: لا.

الرابع: العقيقة عن الذكر شاتان، وعن الأنثى شاة.

الخامس: أن يحنكه بتمرة أو حلاوة.

السادس: الختان.

الثاني عشر: مما يتعلق بالزواج: الطلاق، وهو أبغض المباحات إلى الله ﷻ، فيكره للرجل أن يفاجئ به المرأة من غير ذنب، ولا يجوز للمرأة أن تلجئه إلى طلاقها، فإذا أراد الطلاق فليُرَاعَ فيه أربعة أشياء:

الأول: أن يطلقها في طهر لم يصبها فيه، لثلاث تطول عليها العدة.

(١) أخرجه مسلم (٢١٣٢)، وأبو داود [«صحيحه» (٤١٣٩/٤٩٤٩)]، والترمذي [«صحيحه» (٢٢٧٠/٢٨٣٣)]. وينظر «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» (١١٧٦)، و«صحيح الكلم الطيب» (٧٧/١٧٢-٢١٧) طبع المكتب الإسلامي.

(٢) رواه مسلم (٢١٣٨) عن سمرة.

الثاني: أن يقتصر على طليقة واحدة ليستفيد بها الرجعة إن ندم.

الثالث: أن يتلطف في الأمر في الطلاق بإعطائها ما تتمتع به لينجبر الفاجع، فقد روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه طلق امرأة وبعث إليها بعشرة آلاف درهم، فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق.

الرابع: ألا يفشي سرّها، وفي الحديث الصحيح في أفراد مسلم: «إن من أشرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه، ثم ينشر سرّها»^(١)، وزوي عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأته فقليل له: ما الذي يريبك منها؟ فقال: العاقل لا يهتك سرّ امرأته، فلما طلقها قيل له: لم طلقته؟ فقال: ما لي ولا امرأة غيري.

فهذا كله من بيان ما على الزوج.

القسم الثاني من آداب المعاشرة: ما على الزوجة لزوجها.

عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو جاز لأحد أن يسجد لأحد لأمّرت المرأة أن تسجد لزوجها»^(٢) لعظم حقه عليها.

وفي هذا القسم أحاديث كثيرة تدل على تأكيد حق الزوج على زوجته، وحقوقه عليها كثيرة، وأهمها أمران: أحدهما: الستر والصيانة.

الثاني: القناعة.

وعلى هذا كان النساء في السلف، كان الرجل إذا خرج من منزله يقول له أهله: إياك وكسب الحرام، فإننا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار.

(١) رواه مسلم (١٤٣٧)، وأحمد (١١٦٤٢) عن أبي سعيد الخدري، وحكم بضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (١٠٣٨/٤٨٧٠)، و«ضعيف الجامع» (١٩٨٨)، و«آداب الزفاف» ص ٧٠.

(٢) هو في «صحيح سنن الترمذي» (١١٥٩/٩٢٦) عن أبي هريرة. و«صحيح سنن أبي داود» (١٨٧٣/٢١٤٠) عن قيس بن سعد. و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٠٢/١٨٥٢). ينظر «الإرواء» (١٩٩٨)، و«صحيح الجامع» (٥٢٩٤).

ومن الواجبات عليها: ألا تفرط في ماله، فإن أطمعت عن رضاه كان لها مثل أجره، وإن كان بغير رضاه، كان له الأجر وعليها الوزر.

وينبغي لوالديها تأديبها قبل نقلها إلى الزوج لتعرف آداب العشرة، وينبغي للمرأة أن تكون قاعدة في عُقر بيتها، لازمة لمغزلها، قليلة الكلام لجيرانها، كثيرة الانقباض في حال غيبة زوجها، تحفظه غائباً وحاضراً، وتطلب مسرته في جميع الأحوال، ولا تخونه في نفسها ولا في ماله، ولا توطئ فراشه من يكره، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، ولتكن همتها صلاح شأنها وتدبير بيتها، قائمة بخدمة الدار في كل ما أمكنها، ولتكن مقدمة لحق زوجها على حق نفسها وحق جميع أقربائها^(١).

آخر كتاب النكاح

(١) انظر كتاب «آداب الزفاف» للمحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، فإنه على صغره قد جمع فيه ما يحتاجه المسلم في هذا الأمر من الأحاديث الصحيحة وأحكامها.

وكتاب «الزواج الإسلامي» تأليف الأستاذ محمد علي الضناوي .
وكتاب «تحفة العروس» للأستاذ المربي محمود مهدي الإستانبولي . وكلها طبع المكتب الإسلامي .

١٠ - كِتَابُ آدَابِ الْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ ، وَفَضْلِهِ وَصِحَّةِ الْمَعَامِلِ وَمَا يَنْعَلَقُ بِذَلِكَ

أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ ﷻ بَلَطِيفُ حِكْمَتِهِ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارَ تَسْبَبٍ وَاِكْتِسَابٍ ، تَارَةً لِلْمَعَاشِ ، وَتَارَةً لِلْمَعَادِ ، وَنَحْنُ نُوْرِدُ آدَابَ التَّجَارَاتِ ، وَالصَّنَاعَاتِ ، وَضُرُوبِ الْاِكْتِسَابِ وَأَسْبَابِهَا وَنُشْرِحُهَا .

فصل في فضل الكسب والحث عليه

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۚ ﴾ [النبا] فَذَكَرَهُ فِي مَعْرِضِ الْاِمْتِنَانِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۚ ﴾ [الأعراف] فَجَعَلَهَا نِعْمَةً ، وَطَلَبَ الشُّكْرَ عَلَيْهَا ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ ﴾ [البقرة: ١٩٨] .

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « طَلَبُ الْحَلَالِ جِهَادٌ » ^(١) .
و« إِنْ اللَّهُ لَيُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُحْتَرِفَ » ^(٢) .

وَفِي أَفْرَادِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطْ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنْ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » ^(٣) .
وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : « أَنَّ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ نَجَارًا » ^(٤) .

(١) رَوَاهُ الْقُضَاعِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَأَبُو نَعِيمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ . وَهُوَ فِي «ضَعِيفِ الْجَامِعِ» (٣٦١٩) ، وَ«الضَّعِيفَةِ» (١٣٠١) .

(٢) رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» ، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» عَنْ ابْنِ عُمَرَ . وَهُوَ فِي «ضَعِيفِ الْجَامِعِ» (١٧٠٤) ، وَ«سُلْسَلَةُ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ» (١٣٠١) .

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٠٧٢) عَنْ الْمَقْدَامِ بْنِ مَعْدٍ يُكْرَبُ .

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٣٧٩) ، وَابْنُ مَاجَةٍ [«صَحِيحُهُ» (١٧٤٦/٢١٥٠)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان آدم عليه السلام حراثاً، ونوح نجاراً، وإدريس خياطاً، وإبراهيم ولوط زراعين، وصالح تاجراً، وداود زراداً، وموسى وشعيب ومحمد ابن عبد الله صلوات الله تعالى عليهم وسلم رعاة.

وأما الآثار فروي أن لقمان الحكيم قال لابنه: يا بني أستعن بالكسب الحلال، فإنه ما أفقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب مروءته، وأعظم من هذه الخصال استخفاف الناس به.

وقيل لأحمد بن حنبل: ما تقول في رجل جلس في بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ: «إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي»^(١)، وقوله ﷺ حين ذكر الطير: «تغدو خماصاً وتروح بطاناً»^(٢).

وكان أصحاب رسول الله ﷺ، يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخلهم، والقدوة بهم.

وقال أبو سليمان الداراني: ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يتعب لك، ولكن أبداً برغيفيك فأحرزهما ثم تعبّد.

فإن قيل: فقد قال أبو الدرداء: زاولت التجارة والعبادة فلم يجتمعا، فأخترت العبادة؟ فالجواب: أننا لا نقول: إن التجارة لا تتراد لذاتها، بل للاستغناء عن الناس، وإغناء العائلة، وإفاضة الفضل على الإخوان، فأما إن كان المقصود نفس المال وجمعه، والتفاخر به ونحو ذلك، فهو مذموم.

وليكن العقد الذي به الاكتساب جامعاً لأمر أربعة: الصحة، والعدل، والإحسان، والشفقة على الدين.

(١) أخرجه أحمد (٥١١٦ و ٥٦٦١)، وعلقه البخاري قبل (٢٩١٤)، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٢٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٥ و ٣٧٠)، والترمذي [«صحيحه» (٢٣٤٤/١٩١١)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٥٩/٤١٦٤)] عن عمر. وهو في «الصحيحه» (٣١٠). وسيأتي لفظه بآتم مما هنا في الصفحة (٤١٢) حاشية (٥).

الأمر الأول: في الصحة، فإن كان العقد بيعاً، فله ثلاثة أركان: **المكونات عقد** [الاكتساب] العاقد، والمعقود عليه، واللفظ.

الركن الأول: أما العاقد، فينبغي للتاجر ألا يعامل المجنون، لأنه غير مكلف، فلا يصح بيعه، ولا يعامل العبد إلا أن يعلم أنه مأذون له، وكذلك الصبي لا يعامل إلا أن يكون قد أذن له الأب أو الوصي، فيصير بمنزلة العبد المأذون له، وعند الشافعي، لا تصح عقود الصبي، ومعاملة الأعمى عندنا صحيحة، يصح بيعه وشراؤه، وعند الشافعي لا تصح. وأما الظلمة ومن أكثر ماله حرام، فلا ينبغي أن يعامل إلا في شيء يُعرف أن عينه حلال.

الركن الثاني: المعقود عليه، وهو المال المقصود نقله، ولا يجوز بيع الكلب، لأنه نجس العين، فأما البغل والحمار فيجوز بيعهما، سواء قلنا: إنهما طاهران أو نجسان، ولا بيع الحشرات، ولا بيع العود والمزمار، والصور المصنوعة من الطين ونحوه، ولا يجوز بيع ما لا يقدر على تسليمه حساً ولا شرعاً، أما الحس فكالطير في الهواء، والعبد الآبق ونحوهما، وأما الشرع فكالمرهون، وبيع الأم دون الولد الصغير، أو الولد دون الأم، فهذا ممنوع تسليمه شرعاً.

الركن الثالث: اللفظ، وهو الإيجاب والقبول، فإن تقدم القبول الإيجاب لم يصح في إحدى الروايتين، ويصح في الأخرى، سواء كان بلفظ الماضي أو بلفظ الطلب، فإن تبايعا بالمعاطاة، فظاهر كلام أحمد صحة البيع.

وقال القاضي أبو يعلى: لا يصح ذلك إلا في الأشياء اليسيرة. وهذا أصلح الأقوال، أعني أن تكون المعاطاة في الأشياء المحققة دون النفيسة، لجريان العادات بذلك. وينبغي من طريق الورع ألا يترك الإيجاب والقبول ليخرج عن شبهة الخلاف. وقد شدد الله تعالى في أمر الربا، فينبغي أن يحذر من الوقوع فيه، وهو قسمان: ربا الفضل، وربا النسيئة، فينبغي أن يعرف ذلك وما يجري فيه الربا. ويحتاج أيضاً أن يعرف شروط السلم، والإجارة، والشركة، فإن المكاسب لا تنفك عن هذه العقود المذكورة.

فصل : في الأمر الثاني : وهو العدل، وأجتناب الظلم في المعاملة، ونعني بالظلم ما يتضرر به الغير، وهو ينقسم إلى ما يعم ضرره وما يخص .

الأول : الاحتكار، وهو منهي عنه لما فيه من غلاء السعر وتضييق الأقوات على الناس . وصفته : أن يستكثر من أبتياح الغلات في الغلاء؛ ويتربص بها زيادة الأسعار، فأما إذا دخلت له غلة من ضيعته وحبسها، فليس محتكراً، وكذلك إذا كان الشراء في حال الاتساع والرخص على صفة لا يضيق على الناس، وفي الجملة تكره التجارة في القوت، لأنه قوام الآدمي .

القسم الثاني : ما يخص ضرره، نحو أن يثني على السلعة بما ليس فيها، أو يكتم بعض عيوبها فيضر بذلك المشتري . وقد قال النبي ﷺ : «من غشنا ليس منا»^(١) .

وأعلم أن الغش حرام في البيوع، وفي الصناعات، وقد سئل الإمام أحمد عن رفو الثوب حتى لا يبين، فقال : لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه .

وينبغي للتاجر أن يحقق الوزن، ولا يتخلص في هذا حتى يرجح إذا أعطى، وينقص إذا أخذ، ومتى خلط الخلأف الطعام تراباً ثم كاله فهو مطفف، وكذلك القصاب إذا خلط عظماً لم تجر العادة بمثله .

وقد نهى عن التَّجَشُّسِ، وهو أن يزيد في السلعة من لا يريد شراءها ليغر المشتري، ونهي عن التصرية .

فصل : الأمر الثالث : في الإحسان بالمعاملة، وقد أمر الله تعالى ﴿بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل : ٩٠] فمن الإحسان المسامحة في البيع، وألا يغبنه في الربح بما لا يتغابن في العادة، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه، لأن البيع للربح، ولكن يراعى فيه التقريب، فإن بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد لشدة رغبته وحاجته، فينبغي أن يمتنع البائع من قبول ذلك، فإن ذلك من الإحسان .

(١) أخرجه مسلم (١٠١)، والترمذي [«صحيحه» (١٠٦٠/١٣١٥)] عن أبي هريرة .
ورواه الطبراني وأبو نعيم في «الحلية» عن ابن مسعود . وهو في «صحيح الجامع» (٦٤٠٨)، و«الإرواء» (١٣١٩)، و«الصحيحه» (١٠٥٨) .

ومن ذلك أنه إذا أراد أستيفاء الثمن أو الدين، فيحسن تارة بالمسامحة، وتارة بحط البعض، وتارة بالإنظار، وتارة بالتساهل، وتارة في وجود النقد. ومن الإحسان: أن يقلل من يستقبله، فإنه لا يستقبل إلا متضرر بالبيع، والأحاديث تشهد بفضل هذه الأمور المذكورة، وما لصاحبها من الأجر والثواب.

فصل: الأهر الرابع: شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته. لا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده، بل يراعي دينه، وإنما تتم شفقه على دينه بمراعاة ستة أشياء:

الأول: حسن النية في التجارة، فليُتَوَّجَّ بها الاستعفاف عن السؤال، وكف الطمع عن الناس، والقيام بكفاية العيال، ليكون بذلك من جملة المجاهدين، ولينو النصح للمسلمين.

الثاني: أن يقصد القيام في صناعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات، فإن الصناعة والتجارة لو تركت بطل المعاش، إلا أن من الصناعة ما هو مهم، ومنها ما يستغنى عنه لكونه متعلقاً بالزينة أو طلب التنعم، فليُستَغَلَّ بصناعة مهمة، ليكون في قيامه بها كافياً عن المسلمين مهماً، وليجتنب صناعة الصياغة، والنقش، وتشيد البنيان بالجص، وجميع ما يزخرف به، فإنه مكروه.

ومن المعاصي: خياطة الخياطِ القَبَاءِ الديباج للرجل، ويكره أن يكون جزاراً، لأنه يوجب قساوة القلب، أو حجاماً، أو كناساً لما فيه من مباشرة النجاسة، وفي معناه الدباغ^(١).

ولا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، والعبادات، وفروض الكفايات^(٢).

(١) ليس على هذا دليل من نقل أو عقل، والمسلمون بحاجة إلى كل الأعمال والصنائع.

(٢) وهذا مما يكتمه علماء سوء، ولا يكاد يعرف، بل المعروف عكسه من شدة تزامهم على هذه الوظائف. وينظر «إقامة الدليل والبرهان على تحريم أخذ الأجرة على تلاوة القرآن» لشيخ ابن مانع رَحِمَهُ اللهُ طبع المكتب الإسلامي.

الثالث: ألا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، وسوق الآخرة المساجد، فينبغي أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته، فيواظب على الأوراد، وقد كان صالحو السلف من التجار يجعلون أول النهار وآخره للآخرة، ووسطه للتجارة، وإذا سمع آذان الظهر والعصر، فينبغي أن يترك المعاشَ اشتغالاً بأداء الفرض.

الرابع: أن يلزم ذكر الله تعالى في السوق، ويشغل بالتسبيح والتهليل.
الخامس: ألا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة، فلا يكون أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها.

السادس: ألا يقتصر على اجتناب الحرام، بل يتوقَّى مواقع الشُّبه ومواضع الريب، ولا يقف مع الفتاوى، بل يستفتي قلبه فيجتنب ما يحزُّ في القلب.

بَيَانُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ

اعلم أن طلب الحلال فرض على كل مسلم، وقد أدعى كثير من الجهال عدم الحلال، وقالوا: لم يبق منه إلا الماء الفرات، والحشيش النبات، وما عدا ذلك فقد أفسدته المعاملات الفاسدة، فلما وقع لهم هذا، وعلموا أنه لا بد لهم من الأقوات، توسعوا في الشبهة والحرام، وهذا من الجهل، وقلة العلم، فإن في «الصحيحين» من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «الحلال بَيِّنٌ، والحرام بين، وبينهما أمور مشتهات»^(١).

ولما كانت هذه الدعوى من هؤلاء الجهال بدعة قد عم ضررها، وأستطار في الدين شررها، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة.

ونحن نوضح ذلك في أقسام:

الأول:

في فضيلة طلب الحلال، ودم الحرام، ودرجات الحلال والحرام:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] والطيبات: الحلال، فأمر بذلك قبل العمل، وقال في ذم الحرام: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]^(٢) إلى غير ذلك من الآيات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا

(١) هو في البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، و«صحيح أبي داود» (٣٣٢٩/٢٨٤٨)،

و«صحيح ابن ماجه» (٣٩٨٤/٣٢١٩)، و«صحيح النسائي» (٤١٤٨ و ٥٢٦٨).

وينظر «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام» (٢٠).

(٢) ومن ذلك سرقة الحقوق في المطبوعات، وما بذلوا فيه من جهد التأليف، أو أجور التصحيح، وتكاليف الصف... إلخ.

يقبل إلا طيباً...» وذكر الحديث إلى قوله: (ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذّي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك^(١)) رواه مسلم. وروي في ذلك غير حديث.

وروي أن سعداً سأل رسول الله ﷺ أن تستجاب دعوته، فقال له: «أطب طُعْمَتَكَ تُسْتَجَبَ دَعْوَتُكَ»^(٢).

وقد كان السلف ينظرون في الحلال ويدققون فيه، فأكل أبو بكر الصديق رضي الله عنه شيئاً من شبهة ثم قاءه^(٣).

فصل في درجات الحلال والحرام: أعلم أن الحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيب من بعض، والحرام كله خبيث، ولكن بعضه أخبث من بعض، كما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة، ولكنه يقول: هذا حارٌّ في الدرجة الأولى، وهذا في الدرجة الثانية، وهذا في الثالثة، وهذا في الرابعة. مثال ذلك في الحرام: المأخوذ بعقد فاسد حرام ولكنه ليس في درجة المغصوب على سبيل القهر، بل المغصوب أغلظ، إذ فيه إيذاء الغير، وترك طريق الشرع في الاكتساب، وليس في العقود الفاسدة إلا ترك طريق التبعّد فقط، وكذلك المأخوذ ظلماً من فقير أو صالح أو يتيم، أخبث وأغلظ من المأخوذ من قوي أو غني أو فاسق.

فصل: والورع له درجات أربع:

[درجات

الدرجة الأولى: وهي درجة العدول عن كل ما تقتضي الفتوى (الورع) تحريمه، وهذا لا يحتاج إلى أمثلة.

الدرجة الثانية: الورع عن كل شبهة لا يجب اجتنابها، ولكن يستحب، كما

(١) هو في مسلم (١٠١٥)، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٣٩٠/٢٩٨٩). وينظر «غاية المرام» (١٧).

(٢) قال العراقي: أخرجه الطبراني في «الأوسط» من حديث ابن عباس وفيه من لا أعرفه.

(٣) إنما فعل أبو بكر ذلك، لأنه كان من طعام الكهانة، وهو سُخْتٌ خبيث.

يأتي في قسم الشبهات، ومن هذا قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(١).

الدرجة الثالثة: الورع عن بعض الحلال مخافة الوقوع في الحرام.

الدرجة الرابعة: الورع عن كل ما ليس لله تعالى، وهو ورع الصديقين، مثال ذلك ما روي عن يحيى بن يحيى النيسابوري رحمه الله عليه أنه شرب دواء، فقالت له امرأته: لو مشيت في الدار قليلاً حتى يعمل الدواء، فقال: هذه مشية لا أعرفها، وأنا أحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة. فهذا رجل لم تحضره نية في هذه المشية تتعلق في الدين، فلم يقدم عليها، فهذا من دقائق الورع.

والتحقيق فيه أن الورع له أول وغاية، وبينهما درجات في الاحتياط، فكلما كان الإنسان أشد تشديداً، كان أسرع جوازاً على الصراط، وأخف ظهراً، وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت درجات النار في حق الظلمة بحسب درجات الحرام، فإن شئت فزد في الاحتياط، وإن شئت فترخص، فلنفسك تحتاط وعليها تترخص.

القسم الثاني:

في مراتب الشبهات وتمييزها عن الحلال والحرام:

وحديث النعمان بن بشير^(٢) نص في هذه الأقسام الثلاثة، وهي الحلال والحرام وما بينهما، والمشكل فيها هو المتوسط الذي لا يعرفه كثير من الناس، وهو الشبهة.

ونحن نكشف الغطاء عنها فنقول: الحلال المطلق: الذي لا يتعلق بذاته صفة توجب تحريماً لعينه، ولا يتعلق بأسبابه ما يطرق إليه تحريماً أو كراهية. مثال ذلك: الماء الذي يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملئ أحد، والحرام المحض: ما فيه صفة محرمة، كالشدة في الخمر، والنجاسة في

(١) «صحيح النسائي» (٢٥٦٩)، و«صحيح الترمذي» (٢٥١٨/٢٠٤٥). وهو مخرج

في «الإرواء» (١٢ و ٢٠٧٤)، و«غاية المرام» (١٧٩).

(٢) متفق عليه، سلف تخريجه في الصفحة (١١٠)، الحاشية (١).

البول، أو حصل بسبب منهي عنه، كالمتحصل بالظلم والربا، فهذان الطرفان ظاهران، ويلتحق بهما ما تحقق أمره، ولكن يحتمل غيره، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب ظاهر يدل عليه، فإنَّ صيد البر والبحر حلال، إلا أنه من صاد ظبية أو سمكة، فإنه يحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم أفلتت، وهذا الاحتمال لا يتطرق إلى ماء المطر المختطف من الهواء، فمساكنة ذلك الاحتمال في الصيد ورع الموسوسين، لأنه وَهْمٌ مجرد لا دلالة عليه، فلو دل عليه دليل، مثل أن يجد في الظبية جرحاً لا يقدر عليه، إلا بعد الضبط، كالكَيِّ، ويحتمل أن يكون غيره، فهذا موضع الورع.

وحد الشبهة ما تعارض فيه اعتقادان صدرا عن شيئين مقتضيين لاعتقادين، ومثالات الشبهة كثيرة، والمهم منها مثالان:

- الأول: الشك في السبب المحلل أو المحرم، وينقسم إلى أربعة أنواع:

الأول: أن يكون الحل معلوماً من قبل، ثم يقع الشك في المحلل، فهذه شبهة يجب اجتنابها، ويحرم الإقدام عليها، مثاله أن يرى صيداً فيجرحه فيقع في الماء، فيصادفه ميتاً، ولا يدري هل مات بالغرق أو بالجرح؟ فهذا حرام، لأن الأصل التحريم.

النوع الثاني: أن يعرف الحل ويشك في المحرم، فيكون الأصل الحل، والحكم له، كما لو طار طائر، فقال رجل: إنَّ كان هذا غراباً فأمرأته طالق، وقال آخر: وإن لم يكن غراباً، فأمرأته طالق، ثم التبس الأمر، فإنا لا نقضي بالتحريم في واحدة منهما، ولكن الورع اجتنابهما وتطليقهما.

النوع الثالث: أن يكون الأصل التحريم، ولكن طراً ما يوجب التحليل بظن غالب فهو مشكوك فيه، والغالب حله، مثاله أن يرمى إلى صيد فيغيب عنه، ثم يدركه ميتاً وليس عليه أثر سوى سهمه، فهذا ظاهر فيه الحل، لأن الاحتمال إذا لم يستند إلى دليل ألتحق بالسوسة، فأما إن ظهر عليه أثر صدمة أو جراحة أخرى ألتحق بالنوع الأول.

النوع الرابع: أن يكون الحل معلوماً، ولكن يغلب على الظن طرآن المحرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعاً، مثاله أن يؤدي أجهاده إلى نجاسة أحد الإناءين بالاعتماد على علامة معينة توجب عليه الظن، فتوجب تحريم شربه، كما أوجب منع الوضوء به.

- المثال الثاني: أن يختلط الحرام بالحلال، ويشبه الأمر فيه. وذلك على ضرب:

أحدها: إذا اختلطت ميتة بمُدْكَاة، أو بعشرة من المذكيات، ونحو ذلك من العدد المحصور، ومثله أن تشبه أخته بأجنبيات، فهذه شبهة يجب اجتنابها.

الثاني: أن يختلط حرام محصور بحلال غير محصور، كما لو اشتبهت أخته أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد، بل له أن ينكح من شاء منهن، لأن في تحريمهن حرجاً كبيراً، وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً، لم يلزمه ترك الشراء والأكل، لأن في ذلك حرجاً، وقد علم رسول الله ﷺ وأصحابه أن في الناس من يراي^(١)، وما تركوا الدراهم بالكلية، وأن مِجَنّاً سرق في زمانه^(٢)، وما تركوا شراء مِجَنٍّ، فأجتناب هذا من ورع الوسوسة.

الثالث: أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر، كحكم الأموال في زماننا هذا، فلا يحرم بهذا الاختلاط تناول شيء بعينه، إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام، نحو أن يأخذه من يد سلطان ظالم، فإن لم يكن له علامة، فتركه ورع، ولا يحرم ذلك، لأنه قد علم في زمان رسول الله ﷺ والخلفاء بعده أن أثمان الخمر ودراهم الربا وغلول الغنيمة اختلطت بالأموال، وقد أدركت الصحابة نهب المدينة وتصرف الظلمة ولم يمنعوا من الشراء بالسوق، ولولا صحة ذلك لانسد باب جميع التصرفات، فإن الفسق يغلب على الناس، لكن الأصل في الأموال الحل، وإذا تعارض أصل وغالب،

(١) هذا معروف، ويدل على ذلك ما أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر مرفوعاً: «أول رباً أضع... ربا العباس».

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٩٨)، ومسلم (١٦٨٦) عن ابن عمر.

ولا أمانة على الغالب، حُكِم بالأصل، كما قلنا في طين الشوارع وأواني المشركين، فقد توضحاً عمر رضي الله عنه من جرة نصرانية^(١)، مع أن مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير ولا يحترزون من نجاسة، وكان الصحابة تلبس الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة.

ومن تأمل أحوال الدباغين والصباغين، علم غلبة النجاسة عليهم، فيدل ذلك على أنهم لم يكونوا يحترزون إلا من نجاسة مشاهدة، أو يكون عليها علامة، فأما الظن الذي يستفاد من رد الوهم إلى مجاري الأحوال، فلم يعتبروه، فإن قيل: قد كانوا يتوسعون في أمور الطهارة، ويحترزون من شبهات الحرام، فما الفرق؟ قلنا: إن أردت أنهم كانوا يصلون مع النجاسة فباطل، وإن أردت أنهم احترزوا من كل نجاسة يجب اجتنابها فصحيح، وأما تورعهم عن الشبه، فكان بطريق كف النفس عما ليس به بأس مخافة ما به بأس، والنفس تميل إلى الأموال كيف كانت بخلاف الأنجاس، وقد كانوا يمتنعون مما يشغل قلوبهم من الحلال، والله أعلم.

القسم الثالث:

في البحث، والسؤال، والهجوم، والإهمال ومظانها:

أعلم أنه لو قُدم لك الطعام، أو أهديت لك هدية، أو أردت أن تشتري شيئاً من شخص فليس لك أن تقول: هذا مما لا أتحقق حله، فأريد أن أفتش عنه، وليس لك أن تترك البحث مطلقاً، بل السؤال واجب مرة، وحرام مرة، ومندوب مرة، ومكروه مرة.

والقول الشافي فيه: أن مَظِنَّة السؤال الرِّبِيَّة، وهي تحصل إما من أمر يتعلق بالمال أو بصاحب المال.

أما ما يتعلق بصاحب المال، فنحو أن يكون مجهولاً، وهو الذي ليس عليه قرينة تدل على ظلمه، كزَيِّ الأجناد، ولا على صلاحه، كثياب أهل العلم والزهد، فههنا لا يجب السؤال ولا يجوز، لأن فيه هتك المسلم وإيذاءه، ولا

(١) صحيح، سلف في الصفحة ٣٥ حاشية (١).

يقال لهذا: إنه مشكوك فيه، لأن المشكوك فيه هو الذي تحصل فيه الربية بدلالة، مثل أن يكون على خِلقة الأتراك، وأهل البوادي المعروفين بالظلم، وقطع الطريق، فهذا يجوز معاملته، لأن اليد تدل على الملك، وهذه الدلالات ضعاف، إلا أن التَّرك من الورع.

وأما ما يتعلق بالمال، فنحو أن يختلط الحرام بالحلال، كما إذا طرح في السوق أحمال من طعام مغصوب فأشترها أهل السوق، فإنه لا يجب على من يشتري في تلك البلدة من السوق أن يسأل عما يشتريه، إلا أن يظهر أن أكثر ما في أيديهم حرام، فعند ذلك يجب السؤال، فإن لم يكن الأكثر حراماً كان التفتيش ورعاً غير واجب، وكذلك نقول في رجل له مال حلال خالطه الحرام، مثل أن يكون تاجراً يعامل معاملات صحيحة ويرابي، فهذا إن كان الأكثر من ماله حراماً، لم تجز قبول ضيافته ولا هديته إلا بعد التفتيش، فإن ظهر أن المأخوذ من وجهه حلال جاز، وإلا ترك، وإن كان الحرام أقل، فالمأخوذ شبهة، والورع تركه^(١).

وأعلم أن السؤال إنما يقع لأجل الربية، فلا ينقطع إلا من حيث تنقطع الربية المُفضية له، بآلا يكون المسؤول متهماً، فإن كان متهماً وعلمت أن له غرضاً في حضورك أو قبول هديته، فلا ثقة بقوله، وينبغي أن يسأل غيره.

القسم الرابع:

كيفية خروج النائب عن المظالم المالية.

أعلم أن من تاب وفي يده مال مختلط، فعليه تمييز الحرام وإخراجه، فإن كان معلوم العين، فأمره سهل، وإن كان ملتبساً مختلطاً فإن كان من ذوات الأمثال، كالحبوب والنقود والأذهان، وكان معلوم القدر، ميز ذلك القدر، فإن أشكل فله طريقان:

أحدهما: الأخذ بغالب الظن.

والثاني: الأخذ باليقين، وهو الورع.

(١) يلاحظ أن المؤلف سلك سبيل الوسط في الأمور من غير تشدد أو تقلب.

فإذا أخرج المال الحرام، فإن كان له مالك معين، وجب صرفه إليه أو إلى وارثه، وإن كان لذلك المال زيادة ومنفعة، جمع ذلك كله وصرفه إليه، وإن يش من معرفة المالك ولم يدر أُمات عن وارث أم لا؟ فليتصدق به، وإن كان ذلك من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين، صرف ذلك إلى القناطر والمساجد ومصالح طريق مكة وما ينتفع به كل من يمر من المسلمين.

مسألة: إذا كان في يده مال حلال وشبهة، فليخص نفسه بالحلال، وليقدم قوته وكسوته على أجرة الحجّام والزيت وإسجار التنور، وأصل هذا قوله ﷺ في كسب الحجّام: «أغلفه ناضحك»^(١).

ومن كان في يد أبويه حرام، فليمتنع من مؤاكلتهما، فإن كان شبهة داراهما، فإن لم يقبلا تناول اليسير.

وقد روي أن أم بشر الحافي ناولته تمرّة فأكلها، ثم صعد الغرفة فقاءها.

القسم الخامس:

في إضرار السلاطين وصلاتهم، وما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة، ونحو ذلك.

أعلم أن من أخذ مالا من السلطان، فلا بد أن ينظر في مدخل ذلك إلى السلطان من أين هو، وفي صفته التي يستحق بها الأخذ، وفي المقدار الذي يأخذه، هل يستحقه؟

وقد تورع جماعة عن ذلك، وكان فيهم من يأخذه فيتصدق به.

وأما في هذا الزمان، فالاحتراز عنه أولى، لأنه قد علم طريق الأخذ، ثم لا ينال إلا بالذل والسؤال والسكوت على الإنكار.

وقد كان بعض السلف لا يأخذ، ويعلل بأن باقي المستحقين لم يأخذوا، ولهذا ليس بشيء، لأنه يأخذ حقه ويبقى أولئك في مقام مظلوم، وليس المال مشتركا.

(١) أخرجه أحمد (١٤٢٧٣ و ١٥٠٦١) عن جابر، و(٢٣٦٨٤ و ٢٣٦٨٧ و ٢٣٦٩٢) وكذا ابن ماجه [«صحيحه» (١٧٥٩/٢١٦٦)]، والترمذي [«صحيحه» (١٠٢٧/١٢٧٧)] عن محبصة بن مسعود. وهو مخرج في «الصحيحه» (١٤٠٠).

فصل : أعلم أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال :

[فيما يحل من

مخالطة السلاطين الحالة الأولى : أن تدخل عليهم ، وهي شرها ، فقد روي عن
الظلمة وما النبي ﷺ أنه قال : « من أتى أبواب السلاطين أفتتن »^(١) « وما ازداد عبد
يكرم ... من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بُعداً »^(٢) .

وقال حذيفة : إياكم ومواقف الفتن . فقليل : وما مواقف الفتن ؟ قال : أبواب
الأمراء ، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ، ويقول ما ليس فيه .

وقال بعض الأمراء لبعض الزهاد : ألا تأتيننا ؟ فقال : أخاف إن أذنبتني
فتنتني ، وإن أقصيتني حرمتني ، وليس في يدك ما أريده ، ولا في يدي ما
أخافك عليه ، وإنما أتاك من أتاك ليستغني بك عمن سواك ، وقد أستغنيت عنك
بمن أغناك عني .

فهذه الآثار تبين كراهية مخالطة السلاطين ، وأيضاً فإن الداخل على السلطان
معرض لأن يعصي الله ﷻ ، إما بفعله أو قوله أو سكوته .

أما الفعل : فإن الدخول عليهم في غالب الأحوال يكون إلى أماكن
مغصوبة ، ولو فرض أنه في موضع غير مغصوب ، ففي الغالب يكون ما تحته
أو ما يظله من خيمة أو نحوها من ماله الحرام ، والانتفاع بذلك حرام ، ولو
فرض ذلك حلالاً ، فربما يقع في غيره من المحذورات ، إما أن يسجد له ، أو
يتمثل له قائماً ، ويخدمه ، ويتواضع له بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه .
والتواضع للظالم معصية ، بل من تواضع لغني لأجل غناه لا لمعنى آخر يقتضي
التواضع ، ذهب ثلثا دينه ، فكيف إذا تواضع للظالم ؟ وتقبيل اليد له معصية ، إلا
أن يكون عند خوف ، أو لإمام عادل ، أو عالم يستحق ذلك ، فأما غير من
ذكرنا ، فلا يباح في حقهم إلا مجرد السلام .

(١) « صحيح سنن أبي داود » (٢٤٨٦/٢٨٥٩) من حديث ابن عباس . وكذا هو قطعة
من الحديث الضعيف التالي . لكن بلفظ : « من لزم السلطان افتتن » .

(٢) « ضعيف سنن أبي داود » (٦١٢/٢٨٦٠) من حديث أبي هريرة .

وأما القول، فهو أن يدعو للظالم، أو يثني عليه، أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله، أو بتحريك رأسه، أو باستبشار في وجهه، أو يظهر له الحب والموالاة والأشتياق إلى لقائه، والحرص على طول بقائه، فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام.

وقد جاء في الأثر: (من دعا لظالم بطول البقاء، فقد أحب أن يعصى الله).

ولا يجوز دعاؤه له إلا أن يقول: أصلحك الله، أو وفقك الله، أو نحو ذلك.

وأما السكوت: فهو أن يرى في مجالسهم من الفرش الحرير، وأواني الفضة، والملبوس المحرم على غلمانهم من الحرير، ونحو ذلك، فيسكت. وكل من رأى شيئاً من ذلك وسكت، فهو شريك فيه. وكذا إذا سمع من كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وإيذاء، فإن السكوت عن ذلك كله حرام، لأنه يجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن قلت: إنه يخاف على نفسه، فهو معذور في السكوت. قلنا: صدقت، إلا أنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بعذر، لأنه لو لم يدخل ويشاهد، لم يجب عليه الأمر والنهي؛ وكل من علم بفساد في مكان، وعلم أنه إذا حضر لم يقدر على إزالته، لم يجز له أن يحضر.

فصل: فإن سلم مما ذكرنا كله، وهيات، لم يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه، لما يرى من توسعهم في التمتع، فيزدري نعمة الله عليه، ثم يقتدي به غيره في الدخول، ويكون أكثراً لسواد الظلّمة.

وروي أن سعيد بن المسيب دعي إلى البيعة للوليد وسليمان أبني عبد الملك، فقال: لا أبيع اثنين ما أختلف الليل والنهار. فقالوا: أدخل من هذا الباب وأخرج من الآخر. قال: لا والله لا يقتدي بي أحد من الناس، فجلد مئة وألبس المسوح.

فعلى ما بيّنا لا يجوز الدخول على الأمراء الظلّمة إلا بعذرين:

أحدهما: إلزام من جهتهم يخاف من الخلاف فيه الأذى.

والثاني: أن يدخل ليرفع ظلماً عن مسلم، فيجوز بشرط ألا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولاً، فهذا حكم الدخول.

الحال الثاني: أن يدخل عليه السلطان زائراً، فجواب السلام لا بد منه، وأما القيام والإكرام، فلا يحرم مقابلة له على إكرامه، فإنه بإكرام العلم والدين مستحق للحمد، كما أنه بالظلم مستحق للذم. فإن دخل عليه وحده، وقد رأى أن يقوم إعزازاً للدين فهو أولى، وإن كان دخوله عليه في جمع، فمراعاة حشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا أولى وأمثل، ولا بأس بالقيام على هذه النية، وإن علم أن ذلك لا يورث فساداً في الرعية ولا يناله أذى من غضبه، فترك الإكرام بالقيام أولى. ثم يجب عليه أن ينصحه، ويعرفه تحريم ما يفعله مما لا يدري أنه محرم، فأما إعلامه بتحريم الظلم وشرب الخمر، فلا فائدة فيه، بل عليه أن يخوفه من ركوب المعاصي مهما ظن أن التخويف يؤثّر في قلبه، وعليه أن يرشده إلى المصالح، ومتى عرف طريقاً للشرع يحصل به غرض الظالم عرفه إياه.

الحال الثالث: أن يعتزل عنهم فلا يراهم ولا يروّنه، والسلامة في ذلك، ثم ينبغي أن يعتقد بغضهم على ظلمهم، فلا يحب لقاءهم، ولا يشي عليهم، ولا يستخبر عن أحوالهم، ولا يقترب إلى المتصلين بهم، ولا يتأسف على ما يفوته بسبب مفارقتهم، كما قال بعضهم: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد، إما يوم مضى فلا يجدون لذته، وأنا وإياهم في غد على وجل، وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون هذا اليوم؟!

مسألة: إذا بعث إليك سلطان مالاً لتفرقه على الفقراء، وكان له مالك معين، لم يحل أخذه، وإن لم يكن له، كان حكمه أن يتصدق به كما سبق بيانه، ويتولى تفرقه على الفقراء.

ومن العلماء من أمتنع من أخذه.

وإذا كان أكثر أموالهم الحرام، حرمت معاملتهم.

وما بنته الظلّمة من القناطر والمساجد والسقايات، ينبغي أن ينظر فيه، فإن كانت تلك الأعيان التي بنيت بها لمالك معين، لم يجز العبور عليها إلا للضرورة، وإن لم يعرف مالها جاز العبور عليها، والورع: الأمتناع، والله أعلم.

١١ - كِتَابُ آدَابِ الصَّحْبَةِ وَالْأَخَوَةِ وَمُعَاشَرَةِ الْخَلْقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ

أَعْلَمُ أَنَّ الْأَلْفَةَ ثَمَرَةُ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَالتَّفَرُّقُ ثَمَرَةُ سُوءِ الْخُلُقِ، لِأَنَّ
[فضيلة الألفة
والأخوة] حَسْنَ الْخُلُقِ يُوجِبُ التَّحَابَ وَالتَّوَافُقَ، وَسُوءَ الْخُلُقِ يَثْمُرُ التَّبَاغُضَ
وَالْتِدَابِرَ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي حَسَنِ الْخُلُقِ مِنَ الْفَضْلِ، وَالْأَحَادِيثُ دَالَّةٌ
عَلَى ذَلِكَ.

فَقَدْ رَوَى مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ
أَثْقَلَ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ» ^(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.
وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنْ أَحْبَبَكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ
أَخْلَاقًا. وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَسَاوِيكُمْ أَخْلَاقًا» ^(٢).
وَسُئِلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَنْ أَكْثَرِ مَا يَدْخُلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ وَحَسَنُ
الْخُلُقِ» ^(٣).

وَأَمَّا الْمَحَبَّةُ فِي اللَّهِ تَعَالَى، فَفِي «الصَّحِيحِينَ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ
[بيان معنى
الأخوة في الله] رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»
فَذَكَرَ مِنْهُمْ: «وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ» ^(٤).

(١) «صحيح أبي داود» (٤٧٩٩/٤٠١٤)، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٠٠٢/١٦٢٩).

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ (١٧٧١٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ [«صحيحه» (٢٠١٨/١٦٤٢)] عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ
الْخُسْنِيِّ. وَهُوَ فِي «صحيح الجامع» (١٥٣٥)، وَ«المشكاة» (٤٧٩٧)،
و«الصحيح» (٧٩١).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٠٤/١٦٣٠)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٢٤/٤٢٤٦)
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٤) هُوَ فِي الْبُخَارِيِّ (٦٦٠ ١٤٢٣)، وَمُسْلِمٌ (١٠٣١)، وَ«صحيح الترمذي» (١٩٤٩/٢٣٩١)،
و«صحيح النسائي» (٤٩٧٣). وَيَنْظُرُ «الإرواء» (٨٨٧).

وفي حديث آخر: يقول الله ﷻ: «حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ»^(١).
وفي حديث آخر: «أَوْثَقَ عَرَى الْإِيمَانِ، أَنْ تَحِبَّ فِي اللَّهِ وَتَبْغُضَ فِي اللَّهِ»^(٢). والأحاديث في ذلك كثيرة.

[بيان البغض
في الله] وأعلم أن من يحب في الله يبغض في الله، فإنك إذا أحببت إنساناً لكونه مطيعاً لله، فإذا عصى الله أبغضته في الله، لأن من أحب لسبب أبغض لوجود ضده. وَمَنْ أَجْتَمَعَتْ فِيهِ خِصَالُ مَحْمُودَةٍ وَمَكْرُوهَةٍ، فَإِنَّكَ تَحِبُّهُ مِنْ وَجْهِ وَتَبْغُضُهُ مِنْ وَجْهِ. فَيَنْبَغِي أَنْ تَحِبَّ الْمُسْلِمَ لِإِسْلَامِهِ، وَتَبْغُضَهُ لِمَعْصِيَتِهِ. فَتَكُونُ مَعَهُ عَلَى حَالَةٍ مُتَوَسِّطَةٍ بَيْنَ الْأَنْقِبَاضِ وَالْإِسْتِرْسَالِ. فَأَمَّا مَا يَجْرِي مِنْهُ مَجْرَى الْهَفْوَةِ الَّتِي يُعْلَمُ أَنَّهُ نَادِمٌ عَلَيْهَا، فَالْأُولَى حِينَئِذٍ الْإِغْمَاضُ وَالسُّتْرُ، فَإِذَا أَصْرَّ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، فَلَا بَدَّ مِنْ إِظْهَارِ أَثَرِ الْبَغْضِ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ وَالتَّبَاعُدِ، وَتَغْلِيظِ الْقَوْلِ لَهُ عَلَى حَسَبِ غَلْظِ الْمَعْصِيَةِ وَخِفَتِهَا.

[بيان مراتب
الذين يبغضون
في الله وكيفية
معاملتهم] وأعلم أن المخالف لأمر الله تعالى على أقسام:
أحدها: أن يكون كافراً. فإن كان حَزْبِيّاً، فهو مستحق للقتل
والإرقاق، وليس بعد هذين إهانة. وإن كان ذِمِّيّاً، فلا يجوز إيذاؤه إلا
بالإعراض عنه، والتحقير له بالاضطرار له إلى أضييق المكان، وترك
البداءة بالسلام. فإن سلم قيل له: وعليك. والأولى الكَفُّ عن مخالطته
ومؤاكلته. ومن المكروه الاسترسال إليه والانبساط كما يفعل بالأصدقاء.

القسم الثاني: المبتدع. فإن كان ممن يدعو إلى بدعة، وكانت البدعة بحيث
يكفر بها، فأمره أَشَدُّ مِنَ الذَّمِّ، لأنه لَا يُقَرَّرُ بِجَزِيَةٍ وَلَا يُسَامَحُ بِعَقْدِ ذِمَّةٍ. وإن
كان ممن لَا يكفر بها، فأمره بينه وبين الله تعالى أخف من أمر الكافر لَا

(١) أخرجه مالك ٢/٩٥٣، وأحمد (٢٢٠٢٥) عن معاذ بن جبل. ورواه الطبراني في
«الكبير»، والحاكم عن عبادة بن الصامت. وهو في «صحيح الجامع» (٤٣٢١).

(٢) أخرجه الطبراني عن ابن عباس. وهو في «صحيح الجامع» (٢٥٣٩)،
و«الصحيحة» (١٧٢٨).

محالة، ولكن الأمر في الإنكار عليه أشد منه على الكافر، لأن شر الكافر غير مُتَعَدٍّ، لأنه لا يلتفت إلى قوله، بخلاف المبتدع الذي يدعو إلى بدعته، لأنه يزعم أن ما يدعو إليه حق، فيكون سبباً لِعَوَاية الخلق، فَشَرُّهُ مُتَعَدٍّ، فإظهار بُغْضِهِ والانقطاع عنه ومعاداته وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أَشَدُّ.

فأما المبتدع العامي الذي لا يَقْدِر أن يدعو ولا يُخاف الاقتداء به، فأمره أهون، والأولى أَنْ يُتَلَطَّفَ به في النصيح، فإن قلوب العوام سريعة التقلب، فإن لم ينفع النصيح وكان في الإعراض عنه تقييح لبدعته في غيئه، تأكد استحباب الإعراض عنه. وإن عَلِمَ أن ذلك لا يؤثر؛ لجمود طبعه ورسوخ اعتقاده في قلبه، فالإعراض عنه أولى، لأن البدعة إذا لم يبالغ في تقييحها شاعت بين الخلق وعمَّ فسادها.

القسم الثالث: العاصي بفعله لا بآعتقاده، فإن كانت بحيث يتأذى بها غيره، كالظلم والغضب وشهادة الزور والغيبة والنميمة ونحو ذلك، فالأولى الإعراض عنه وترك مخالطته والانتقابض عن معاملته، وكذلك الحكم في من يدعو إلى الفساد، كالذي يجمع بين الرجال والنساء ويُهَيِّئُ أسباب الشرب لأهل الفساد، فهذا ينبغي إهانته ومقاطعته والإعراض عنه. فأما الذي يفسق في نفسه بشرب خمر أو زنى أو سرقة أو ترك واجب، فالأمر فيه أخف، ولكنه في وقت مباشرته إن صُودِفَ، وجب منعه بما يَمْتَنِعُ به، فإن كان التُّصْح يرْذُده - وكانت أنفع له - نُصِّحْ وإلا أغلِظْ له.

فصل في بيان الصفات المشروطة في من تختار صحبته

روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»^(١).

(١) رواه أبو داود [«صحيح سننه» (٤٠٤٦/٤٨٣٣)]، والترمذي [«صحيح سننه» (٢٣٧٨/١٩٣٧)] من حديث أبي هريرة. وهو في «صحيح الجامع» (٣٥٤٥)، و«الأحاديث الصحيحة» (٩٢٧)، و«مشكاة المصابيح» (٥٠١٩).

وأعلم أنه لا يصلح للصحبة كل أحد، ولا بد أن يتميز المصحوب بصفات وخصال يُزَغَب بسببها في صحبته، وتشترط تلك الخصال بِحَسَبِ الفوائد المطلوبة من الصحبة، وهي إما دنيوية كالانتفاع بالمال والجاه، أو بمجرد الاستئناس بالمشاهدة والمحاورة، وليس ذلك غرضنا، وإما دينية، وتجتمع فيها أغراض مختلفة، منها الاستفادة بالعلم والعمل، ومنها الاستفادة من الجاه تحصيناً عن إيذاء من يُكَدِّر القلب ويَصُدُّ عن العبادة، ومنها الاستفادة من المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت، ومنها الاستعانة في المُهِمَّات، فتكون عُدَّة في المصائب وقوة في الأحوال، ومنها أنتظار الشفاعة في الآخرة، كما قال بعض السلف: استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة. فهذه فوائد تستدعي كل فائدة شرطاً لا تحصل إلا بها.

وفي الجملة، فينبغي أن يكون في من تُؤَثَّر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلاً، حسن الخُلُق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا.

أما العقل، فهو رأس المال، ولا خير في صحبة الأحمق، لأنه يريد أن ينفعك فيضرك، ونعني بالعاقل: الذي يفهم الأمور على ما هي عليه، إما بنفسه، وإما أن يكون بحيث إذا أفهم فهم. وأما حُسْنُ الخُلُق، فلا بد منه، إذ رُبَّ عاقل يغلبه غضب أو شهوة فيطيع هواه، فلا خير في صحبته.

وأما الفاسق، فإنه لا يخاف الله، ومن لا يخاف الله تعالى لا تؤمن غائلته ولا يؤثَّق به.

وأما المبتدع، فيُخاف من صحبته بِسِرَاية بدعته.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عليك بإخوان الصدق تَعِش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء وعُدَّة في البلاء، وَضَع أمر أخيك على أَحْسَنِهِ حتى يجيئك ما يَقْلِيك منه، وأَعْتَزَلْ عَدُوَّكَ، وأَحْذَرْ صَدِيقَكَ إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله، ولا تصحب الفاجر فتتعلَّم من فجوره، ولا تُطْلِغْهُ على سِرِّكَ، وأَسْتَشِرْ في أمرك الذين يخشون الله تعالى.

قال يحيى بن معاذ: بشس الصديق تحتاج أن تقول له: اذكرني في دعائك، وأن تعيش معه بالمدارة، أو تحتاج أن تعتذر إليه.

ودخل جماعة على الحسن وهو نائم، فجعل بعضهم يأكل من فاكهة في البيت، فقال: رحمك الله، هذا والله فعل الإخوان.

وقال أبو جعفر لأصحابه: أَيْدِخُلْ أَحَدَكُمْ يَدَهُ فِي كُمِ أَخِيهِ فَيَأْخُذْ مِنْهُ مَا يَرِيدُ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَلَسْتُمْ بِإِخْوَانٍ كَمَا تَزْعُمُونَ.

وَيُرَوَّى أَنَّ فَتْحَ الْمُؤَصِّلِيِّ جَاءَ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ عَيْسَى التَّمَّارِ، فَلَمْ يَجِدْهُ فِي الْمَنْزَلِ. فَقَالَ لِلْخَادِمَةِ: أَخْرِجِي لِي كَيْسَ أَخِي. فَأَخْرَجَتْهُ، فَأَخَذَ مِنْهُ دَرَاهِمِينَ. وَجَاءَ عَيْسَى إِلَى مَنْزِلِهِ فَأَخْبَرَتْهُ الْجَارِيَةُ بِذَلِكَ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ صَادِقَةً، فَأَنْتَ حُرَّةٌ. فَنَظَرَ فَإِذَا هِيَ قَدْ صَدَقَتْ، فَعَتَّقَهَا^(١).

فصل في بيان ما على الإنسان لأخيه من الحقوق

الحق الأول: قضاء الحاجات والقيام بها، وذلك درجات:

أدناها: القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة، لكن مع البشاشة والاستبشار.

وأوسطها: القيام بالحوائج من غير سؤال.

وأعلاها: تقديم حوائجه على حوائج النفس.

وقد كان بعض السلف يتفقّد عيال أخيه بعد موته أربعين سنة فيقضي

حوائجهم.

الحق الثاني: على اللسان؛ بالسكوت تارة، وبالنطق أخرى.

أما السكوت، فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في حضوره وغيبته، وعن الرّدّ عليه ومُماراته ومناقشته، وعن السؤال عما يكره ظهوره من أحواله. ولا يسأله إذا لقيه: إلى أين؟ فربما لا يريد إعلامه بذلك، وأن يكتُم سرّه ولو بعد القطيعة، ولا يقدح في أحبابه وأهله، ولا يبلّغه قَدَحَ غيره فيه.

(١) بفتح العين، والضم من الأخطاء الشائعة.

وينبغي أن يسكت عن كل ما يكرهه، إلا إذا وجب عليه النطق في أمرٍ
بمعروف أو نهى عن منكر، ولم يجزِ رخصةً في السكوت، فإن مواجهته بذلك
إحسان إليه في المعنى.

وأعلم أنك إن طلبت مُنْزَهاً عن كلِّ عيبٍ لم تجِدْ، ومن غلبت محاسنه على
مساويه فهو الغاية.

وقال ابن المُبارك: المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب الزلات.

وقال الفضيل: الفتوة: الصفح عن زلات الإخوان.

وينبغي أن تترك إساءة الظن بأخيك، وأن تحمل فِعْلَه على الحَسَنِ مهما
أمكن.

وقد قال النبي ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»^(١).

وأعلم أن سوء الظن يدعو إلى التجسس المُنْهِي عنه، وأن ستر العيوب
والتغافل عنه سمة أهل الدين.

وأعلم أنه لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأقل
درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به، ولا شك أنك تنتظر من
أخيك أن يستر عورتك، وأن يسكت عن مساويك، فلو ظهر لك منه ضدُّ ذلك
أشتدَّ عليك، فكيف تنتظر منه ما لا تعزم عليه له؟

ومتى ألتمست من الإنصاف ما لا تسمح به دخلت في قول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾

[المطففين] ومنشأ التقصير في ستر العورة والمُغْري بكشفها الحقد والحسد.

وأعلم أن من أشد الأسباب لإثارة الحقد والحسد بين الإخوان المماراة،
ولا يبعث عليها إلا إظهار التميّز بزيادة الفضل والعقل وأحقّار المردود عليه،
ومن ماري أخاه، فقد نسبته إلى الجهل والحُمق، أو إلى الغفلة والسهو عن فهم

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣)، وأبو داود [«صحيحه» (٤١٠٩)/

(٤٩١٧)]، والترمذي [«صحيحه» (١٩٨٨/١٦١٩)] عن أبي هريرة. وهو في

«صحيح الجامع» (٢٦٧٩)، و«غاية المرام» (٤١٧).

الشيء على ما هو عليه، وكل ذلك استحقاق، وهو يُوغِرُ الصَّدْرَ ويُوجِبُ المعادة، وهو ضدُّ الأخوة.

الحق الرابع^(١): على اللسان بالنطق، فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكروه، تقتضي النطق بالمحسوب، بل هو أخص بالأخوة، لأن من قنع بالسكوت صَحِبَ أهل القبور، وإنما يراد الإخوان ليُستفاد منهم لا لِيُتَخَلَّصَ منهم، لأن السكوت معناه كَفُ الأذى، فعليه أن يتودد إليه بلسانه، ويتفقَّده في أحواله، ويسأل عما عرض له، ويظهر شغل قلبه بسببه، ويُبدي السرور بما يُسرُّ به.

وفي الصحيح من رواية الترمذي^(٢): «إذا أحب أحدكم أخاه فَلْيُعْلِمْهُ»^(٣). ومن ذلك أن يَدْعُوهُ بأحب أسمائه إليه. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثلاث يُضفين لك وَدَّ أخيك: تُسَلِّمَ عليه إذا لَقِيْتَهُ، وتوسَّعَ له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليك. ومن ذلك أن يُثني عليه بما يعرفه من محاسن أحواله عند من يُؤثر الشئاء عنده، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وأفعاله، حتى في خلقه وعقله وهيئته وخطه وتصنيفه وجميع ما يفرح به من غير إفراط ولا كذب. وكذلك ينبغي أن تُبلِّغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح به، فإن إخفاء ذلك مَخْضُ الحسد.

ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقك، وأن تذب عنه في غَيْبته إذا قَصِدَ بسوء، فحقُّ الأخوة التَّشْمِيرُ في الحماية والنصرة. وفي الحديث الصحيح: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»^(٤).

(١) ليس في الأصول الحق الثالث، ولعله حق المال كما في «الإحياء».
(٢) يريد أن الترمذي أخرجه بسند صحيح. وانظر «صحيحه» (٢٣٩٥/١٩٥٠).
(٣) أبو داود «صحيح سننه» (٥١٢٤/٤٢٧٣) من حديث المقدام بن معدٍ يَكْرِبُ. وهو في «صحيح الجامع» (٢٧٩-٢٨١).
(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤٢) و(٦٩٥١)، ومسلم (٢٥٨٠)، وأبو داود «صحيحه» (٤٨٩٣/٤٠٩١)، والترمذي «صحيحه» (١٤٢٦/١١٥٢) عن ابن عمر.

ومتى أهمل الذَّبَّ عن عرضه يكون قد أسلمه .

ولك في ذلك معياران :

أحدهما : أن تُقَدِّرَ أنَّ الذي قيل فيه ، قد قيل فيك وهو حاضر ، فتقول ما تُحب أن يقوله .

الثاني : أن تُقَدِّرَ أنه حاضر وراء جدار يَتَسَمَّعُ عليك ، فما تحرك في قلبك من نصرته في حضوره ينبغي أن يتحرك في غَيْبته . ومن لم يكن مخلصاً في إخائه ، فهو منافق .

ومن ذلك التعليم والنصيحة ، فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال ، وإذا كنت غنياً بالعلم فَوَاسِيهِ وَأَرْشِدُهُ . وينبغي أن يكون نُضْحُكُ إِيَّاهُ سِرّاً . والفرق بين التوبيخ والنصيحة : الإعلان والإسرار ، كما أن الفرق بين المداراة والمداينة بالغرض الباعث على الإغضاء ، فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى فيه من إصلاح أخيك بالإغضاء ؛ فأنت مُدَارٍ ، وإن أغضيت لِحَظِّ نَفْسِكَ وَأَجْتِلَابِ شَهَوَاتِكَ وسلامة جاهك ؛ فأنت مُدَاهِنٌ .

ومن ذلك العَفْوُ عن الزَّلَّات ، فإن كانت زَلَّتْهُ فِي دِينِهِ ، فَتَلَطَّفْ فِي نُصْحِهِ مَهْمَا أَمَكَنَ ، ولا تترك زَجْرَهُ وَوَعْظَهُ ، فإن أبى فالمصارمة .

الحق الخامس : الدعاء للأخ في حياته وبعد موته بكل ما تدعو به لنفسك .

وفي أفراد مسلم من حديث أبي الدرداء ، أن النبي ﷺ قال : «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل»^(١) .

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يدعو لخلق كثير من إخوانه يسميهم بأسمائهم .

وكان أحمد بن حنبل رحمته الله يدعو في السَّحَرِ لستة نفر .

وأما الدعاء بعد الموت ، فقال عمرو بن حُرَيْثٍ : إذا دعا العبد لأخيه

(١) هو في «صحيح مسلم» (٢٧٣٢) ، و«صحيح سنن أبي داود» (١٣٥٨/١٥٣٤) .

الميت، أتى بها مَلَكٌ قَبْرَهُ، فقال: يا صاحب القبر الغريب، هذه هدية من أخ عليك شفيق.

الحق السادس: الوفاء والإخلاص، ومعنى الوفاء: الثبات على الحب إلى الموت، وبعد موت الأخ مع أولاده وأصدقائه، وقد أكرم النبي ﷺ عجزاً وقال: «إنها كانت تغشانا في أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان»^(١). ومن الوفاء ألا يتغير على أخيه في التواضع وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه.

وأعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الدين، فقد كان الشافعي رحمه الله أخى محمد بن عبد الحكم، وكان يُقَرِّبُهُ ويُقْبَلُ عليه، فلما أَخْضُرَ قيل له: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليؤمى إليه فقال: إلى أبي يعقوب البويطي، فأنكسر لها محمد، ومع أن محمداً كان قد حمل عنه مذهبه، لكن البويطي كان أقرب إلى الزهد والورع، فنصح الشافعي رحمه الله المسلمين وترك المداينة، فأنقلب ابن عبد الحكم عن مذهبه، وصار من أصحاب مالك.

ومن الوفاء ألا يسمع بلاغات الناس على صديقه، ولا يصادق عدو صديقه. الحق السابع: التخفيف وترك [التكلف و]^(٢) التكليف، وذلك ألا يكلف أخاه ما يشق عليه، بل يُرَوِّحُ سِرَّهُ من مهماته وحاجاته، ولا يستمد من جاهه ولا ماله، ولا يكلفه التفقد لأحواله والقيام بحقوقه والتواضع له، بل يكون قصده بمحبة الله وحده، والتبرك بدعائه، والاستئناس بلفظه، والاستعانة على دينه، والتقرب إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه. وتمايم التخفيف طي بساط الاحتشام حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي فيه من نفسه.

وقال جعفر بن محمد: أثقل إخواني علي من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي.

(١) أخرجه الحاكم - وصححه - والبيهقي والقضاعي.

(٢) زيادة من «الإحياء».

وقال بعض الحكماء : من سقطت كُلفتها دامت ألفتها ، ومن تمام هذا الأمر أن ترى الفضل لإخوانك عليك ، لا لنفسك عليهم ، فتُنزل نفسك معهم منزلة الخادم .

فصل

ولنذكر في آخر هذا الباب جملة من آداب المعاشرة للخلق :

[جملة آداب العشرة
والمجالسة مع أصناف
الخلق...]

ذلة ، وأن تلقى الصديق والعدو بوجه الرضا من غير ذل لهم ولا خوف منهم ، وتحفظ في مجالسك من تشييك أصابعك ، وإدخال أصبعك في أنفك ، وكثرة بصاقلك ، والتشاوب .

وأصغ إلى محدثك ، ولا تسأله الإعادة ، ولا تُحدث بإعجابك ، بولدك وجاريتك ، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين ، ولا تتبدل تبدل العبد ، وخوف أهلك في غير عنف ، وإن لهم من غير ضعف ، ولا تُهازل أمتك وعبدك ، فيسقط وقارك ، ولا تكثر الالتفات إلى ورائك .

ولا تجالس السلطان ، فإن فعلت فأحذر الذنوب والغيبة ، وضن سره ، وأحذر المداعبة عنده ، وتحفظ من الجشاء بحضرته والتخلل ، وإن قربك فكن منه على حذر ، وإن أسترسل إليك فلا تأمن أنقلابه عليك ، وأرفق به رفقك بالصبي ، وكلمه بما يشتهي ، ولا تدخل بينه وبين أهله وحشمه .

وإنك وصديق العافية ، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك ، وإذا دخلت مجلساً فأجلس فيما هو أقرب للتواضع ، ولا تجلس على الطريق ، فإن جلست فغض البصر ، وأنصر المظلوم ، وأرشد الضال ، ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك ، ولكن عن يسارك تحت قدمك اليسرى ، وأحذر مجالسة العوام ، فإن فعلت فعليك بالتغافل عما يجري من سوء أخلاقهم وترك الخوض في حديثهم ، وأحذر كثرة المزاح فإن اللبيب يحقد عليك في المزاح ، والسفيه يجترى عليك .

باب في حقوق المسلم والرحم والجوار والملك ونحو ذلك

فمن حقوق المسلم: أن تُسَلِّمَ عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبرّ قسمه، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك، وجميع هذا منقول في الآثار^(١).

ومنها: ألا تؤذي أحداً من المسلمين بقول ولا فعل، وأن تتواضع للمسلمين، فلا تتكبر عليهم، ولا تسمع بلاغات الناس بعضهم في بعض، ولا تبلغ بعضهم ما تسمع من بعض.

ومنها: ألا تزيد في الهجرة على ثلاثة أيام لمن تعرفه، للحديث المشهور في ذلك^(٢).

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يحل لمؤمن أن

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢) من حديث أبي هريرة: «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، وإتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس». وفي رواية لمسلم: «حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته تسلم عليه...» وزاد: «إذا استنصحك فانصح له».

وللترمذي [«ضعيف سننه» (٢٧٣٦/٥١٩)] وابن ماجه [«ضعيف سننه» (١٤٣٣/٣٠١)] من حديث علي: «للمسلم على المسلم ست...» فذكر منها: «ويحب له ما يحب لنفسه» وقال: «وينصح له إذا غاب أو شهد». وهو في «ضعيف الجامع» (٤٧٥١).

ولأحمد (٢٢١٢٨) من حديث معاذ بن أنس: «... وأن تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك...». وهو في «ضعيف الجامع» (١٠٠١).

وفي البخاري (١٢٣٩)، ومسلم (٢٠٦٦) من حديث البراء: (أمرنا رسول الله ﷺ بسبع...) فذكر منها: (إبرار القسم ونصر المظلوم).

(٢) أخرجه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٢٠٢٩) عن ثمانية من الصحابة بعضها متفق عليه.

يهجر مؤمناً فوق ثلاثة أيام، فإذا مرت به ثلاثة أيام فلقيه فليسلم عليه، فإن رد عليه السلام، فقد أشتركا في الأجر، وإن لم يرد عليه فقد برئ المسلم من الهجرة^(١).

وأعلم أن هذه الهجرة إنما هي فيما يتعلق بالدنيا، أما حق الدين، فإن هجران أهل البدع والأهواء والمعاصي ينبغي أن تدوم، ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق.

ومنها: أن يحسن إلى كل من يقدر أن يحسن إليه من المسلمين ما أستطاع، وألا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه، ويستأذن ثلاثاً فإن لم يأذن أنصرف.

ومنها: أن يخالق الناس بخلق حسن، وذلك أن يعامل كلأ منهم بحسب^(٢) طريقته، فإنه متى لقي الجاهل بالعلم، واللاهي^(٣) بالفقه، والغبي بالبيان، أذى وتأذى.

ومنها: أن يوقر المشايخ، ويرحم الصبيان، وأن يكون مع الخلق كافة طلق الوجه رقيقاً، وأن يفي لهم بالوعد، ويُنصف الناس من نفسه، ولا يأتي إليهم إلا ما يحب أن يؤتى إليه.

قال الحسن: أوحى الله إلى آدم ﷺ أربع كلمات: وقال: فيهن جماع الأمر لك ولولدك، واحدة لي، واحدة لك، واحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين الخلق.

فأما التي لي: فتعبدني لا تشرك بي شيئاً.

وأما التي لك: فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه.

وأما التي بيني وبينك: فعليك الدعاء وعليّ الإجابة.

(١) «ضعيف سنن أبي داود» (٤٩١٢/١٠٥١)، و«غاية المرام» (٤٠٥). ويغني عن أصله ما قبله.

(٢) في المطبوع والأصل: «كلا من على حسب»، وفي النسخة الثانية: «كلا على حسب» وما أثبتناه من «الإحياء».

(٣) في الإحياء: «الامي» ونبه الشارح على أنه في نسخة «اللاهي».

وأما التي بينك وبين الناس: فتصحبهم بالذي تحب أن يصحبوك به .
ومنها: زيادة توقير ذوي الهيئات .

ومنها: إصلاح ذات البين، وستر عورات المسلمين .
وأعلم أنه من تأمل ستر الله تعالى على العصاة في الدنيا أقتدى بلطفه، فإنه جعل الشهادة في الزنى أن يشهد أربعة من العدول أنهم شهدوا ذلك كالميل في المَكْحَلَة، ولهذا لا يتفق. ومن هذا أثر كرمه في الدنيا يُرجى منه ذلك في الآخرة .

ومنها: أن يتقي مواضع التهم، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن به، وألستهم عن غيبته .

ومنها: أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة، ويسعى في قضاء حوائجهم .

ومنها: أن يبدأ بالسلام على كل مسلم قبل أن يكلمه، ومن السنة المصافحة، فقد روي عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مسلمين التقيا، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، إلا كان حقاً على الله ﷻ أن يحضر دعاءهما، وألا يفرق بين أيديهما حتى يغفر لهما»^(١) .

وفي حديث آخر: «إذا صافح المؤمن المؤمن نزلت عليهما مئة رحمة، تسعة وتسعون لأبشهما خلقاً»^(٢) .

ولا بأس بتقبيل يد المعظم في الدين تبركاً به، ولا بأس بالمعانقة، وأما الأخذ بالركاب لتوقير العلماء، فقد فعل ذلك ابن عباس رضي الله عنهما، والقيام على سبيل الإكرام لأهل الفضل حسن، وأما الأنحاء فمنهي عنه .

(١) أخرجه أحمد (١٢٤٣٦)، والترمذي [«صحيحه» (٢١٩٧/٢٧٢٧)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٧٠٣/٢٩٨٨)] . وهو في «صحيح الجامع» (٥٧٧٧)، و«الصحيحه» (٥٢٥) .

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» وفيه الحسن بن كثير مجهول، كذا قال العراقي والهيثمي .

ومنها: أن يصون عِرْض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم الغير، ويناضل دونه وينصره .

ومنها: أنه إذا أبتُلِيَ بذي شَرٍّ، فينبغي أن يجامله ويتقيه، لحديث عائشة رضي الله عنها^(١) .

وقال محمد ابن الحَنْفِيَّة: ليس بحكيم من لم يُعَاشِر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بُدًّا، حتى يجعل الله ﷻ له فرجاً .

ومنها: أن يجتنب مخالطة الأغنياء، ويختلط بالمساكين، ويحسن إلى الأيتام .
ومنها: عيادة مرضاهم .

ومن آداب العائد: أن يضع يده على المريض، ويسأله كيف هو، ويخفف الجلوس، ويظهر الرِّقَّة، ويدعو له بالعافية، ويغض البصر عن عورات المكان .
ويستحب للمريض أن يفعل ما أخرجه مسلم في أفرادهِ، من حديث عثمان بن أبي العاص ﷺ أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: (بسم الله) ثلاثاً، وقل سبع مرات: (أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)»^(٢) .

وجملة آداب المريض: حسن الصبر، وقلة الشكوى والتضجر، والفرع إلى الدعاء، والتوكل على الله سبحانه .

ومنها: أن يشيع جنائزهم، ويزور قبورهم .

والمقصود من التشيع: قضاء حق المسلمين، والأعتبار .

قال الأعمش: كنا نحضر الجنائز، فلا ندرى من نعزي لحزن القوم كلهم .

والمقصود من زيارة القبور الدعاء، والأعتبار، وترقيق القلب .

ومن آداب تشيع الجنائز: المشي، ولزوم الخشوع، وترك الحديث، وملاحظة الميت، والتفكير في الموت، والاستعداد له .

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١) .

(٢) مسلم (٢٢٠٢) . وهو في «صحيح الجامع» (٣٨٩٣)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (٧٠)، و«الصحيحة» (١٤١٥) .

وأما حقوق الجار: فأعلم أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام فيستحق ما يستحقه كل مسلم وزيادة، وجاء في الحديث: «إن الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق: فالجار الذي له ثلاثة حقوق: الجار المسلم ذو الرحم، فله حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم.

وأما الذي له حقان: فالجار المسلم، له حق الإسلام، وحق الجوار. وأما الذي له حق واحد: فالجار المشرك»^(١).

وأعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط، بل احتمال الأذى والرُفق، وأبتداء الخير، وأن يبدأ جاره بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويهنئه في الفرح، ويصفح عن زلاته، ولا يطلع إلى داره، ولا يضايقه في وضع الخشب على جداره، ولا في صب الماء في ميزابه، ولا في طرح التراب في فناءه، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستتر ما ينكشف من عوراتها، ولا يتسمع عليه كلامه، ويغض طُرفه عن حرمه، ويلاحظ حوائج أهله إذا غاب.

فصل: في حقوق الأقارب والرحم: وأما حقوق الأقارب والرحم، ففي الحديث الصحيح، من رواية عائشة، أن النبي ﷺ قال: «الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»^(٢).

وفي حديث آخر من أفراد البخاري: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»^(٣).

(١) أخرجه الحسن بن سفيان، والبخاري في «مسنديهما» وأبو الشيخ في كتاب «الثواب» وأبو نعيم في «الحلية» من حديث جابر. وابن عدي من حديث عبدالله بن عمر. وكلاهما ضعيف. قاله العراقي في «تخريج الإحياء».

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٥)، وروى نحوه البخاري (٥٩٨٩). وهو في «صحيح الجامع» (٣٥٢٣)، و«الصحيحة» (٩٢٥).

(٣) هو في البخاري (٥٩٩١)، و«صحيح سنن أبي داود» (١٦٩٧/١٤٨٨)، و«صحيح سنن الترمذي» (١٩٠٨/١٥٨٨) من حديث ابن عمرو.

وفي حديث آخر من أفراد مسلم أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم ويجهلون عليّ. قال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسْفَهُم المَلّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»^(١). والمعنى أنك منصور عليهم، وقد أنقطع احتجاجهم عليه بحق القرابة، كما ينقطع كلام من سَفَّ المَلّ، وهو الرماد الحارّ. والأحاديث في ذلك كثيرة ومشهورة في صلة الرحم، وفي حقوق الوالدين، وفي تأكيد حق الأم.

[حقوق... وأما حقوق الولد، فأعلم أنه لما كانت الطباع تميل إلى الولد لم الولد] يحتج إلى تأكيد الوصية به، إلا أنه قد يغلب هوى الوالد للولد، فيترك تعليمه وتأديبه. وقد قال الله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]. قال المفسرون: معناه: علّموهم وأدّبوهم. وينبغي للوالد أن يحسن أسمَ ابنه، ويعقّ عنه^(٢)، فإذا بلغ سبع سنين أمره بالصلاة وختنه، فإذا بلغ زوجه.

[حقوق... وأما حقوق المملوك: فأن يُطعمه، ويكسوه، ولا يكلفه ما لا يطيق، المملوك] ولا ينظر إليه بعين الأزدراء، وأن يعفو عن زلله، وليتذكر الله عند زلل نفسه، فيعفو رجاء أن يعفو الله تعالى عنه.

باب العزلة

[كتاب: آداب العزلة] أختلف الناس في العزلة والمُخالطة، أيتهما أفضل؟ مع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن فوائد وغوائل، وأكثر الزهاد اختاروا العزلة. وممن ذهب إلى اختيار العزلة: سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، والفُضيل، وبشر الحافي في آخرين.

(١) هو في مسلم (٢٥٥٨) عن أبي هريرة. وهو في «صحيح الجامع» (٥٠٥٦).

(٢) عق عن ولده: إذا ذبح عنه يوم سابعه عقيقة. وأصل العقيقة: الشعر الذي يكون على رأس الصبي حين يولد. وهي: شاتان للذكر، وشاة للأنثى.

وممن ذهب إلى استحباب المخالطة: سعيد بن المسيب، وشريح،
والشَّعْبِيُّ، وابن المبارك في آخرين.

ولكل طائفة فيما ذهبت إليه حجج، ونحن نشير إلى ذلك.

أما حجة الأولين، فقد روي في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد قال:
قيل: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «رجل يجاهد بنفسه وماله، ورجل
في شُغْبٍ من الشُّعَابِ يعبد ربه ويدعُ الناس من شره»^(١).

وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال:
«أَمْلِكْ عليك لسانك، وَلَيْسَعَكَ بيتك، وَأَبْكْ على خطيئتك»^(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خذوا يحفظكم من العزلة.

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لوددت أن بيني وبين الناس باباً من حديد،
لا يكلمني أحد ولا أكلمه حتى ألقى الله سبحانه.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الليل، أحلاس^(٣)
البيوت، جُدَّدُ القلوب^(٤)، خُلُقَان^(٥) الثياب، تُعْرَفُونَ في أهل السماء، وتُخْفَوْنَ
على أهل الأرض.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: نعم صومعة المرء المسلم بيته يكف لسانه وفرجه
وبصره، وإياكم ومجالس الأسواق، فإنها تلهي وتلغي.

وقال داود الطائفي: فر من الناس كما تفر من الأسد.

(١) رواه البخاري (٦٤٩٤)، ومسلم (١٨٨٨) عن أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٢٣١)، والترمذي [«صحيح سننه» (٢٤٠٦/١٩٦١)]. وهو في
«صحيح الجامع» (١٣٩٢)، و«الصحيح» (٨٩٠ و ٨٩١ و ٢٨٦١).

(٣) الأحلاس: جمع حلس، وهو فراش مبتدل، يقال: فلان حلس بيته: إذا كان يقيم
فيه ولا يبرحه.

(٤) جدد القلوب: كناية عن عدم الفترة في العبادة.

(٥) خلُقَان: جمع خلق، يقال: ثوب خلق: إذا كان بالياً.

قال أبو مهلهل: أخذ بيدي سفيان الثوري وأخرجني إلى الجبانة، فاعتزلنا ناحية، فبكى ثم قال: يا أبا مهلهل، إن أستطعت ألا تخالط في زمانك أحداً فافعل، وليكن همك مرّة^(١) جهازك.

[حجج المائلين] وأما حجة من أختار المخالطة، فمن ذلك قول النبي ﷺ: «المؤمن إلى الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا المخالطة...» [يصبر على أذاهم]^(٢)، واحتجوا بأشياء غير ذلك ضعيفة لا تقوم بها حجة على ذلك، منها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران: ١٠٥] وهذا ضعيف، لأن المراد تفرق الآراء والمذاهب في أصل الشريعة، واحتجوا أيضاً بقوله ﷺ: «لا هجرة فوق ثلاث»^(٣) قالوا: والعزلة هجر بالكلية، وهذا ضعيف، لأن المراد به قطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة.

فصل في ذكر فوائد العزلة وغوائلها

وكشف الحق في فضلها

أعلم أن اختلاف الناس في هذا أيضاً هو كاختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة، وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فكَذلك نقول فيما نحن فيه، فلنذكر أولاً فوائد العزلة وهي ست:

الأولى: الفراغ للعبادة، والاستئناس بمناجاة الله سبحانه، فإن ذلك يستدعي فراغاً، ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إلى ذلك خصوصاً في البداية. قيل لبعض الحكماء: إلى أي شيء أفضى بهم الزهد والخلوة؟ قال: إلى الأنس بالله.

(١) الرّم: إصلاح ما فسد، وجمع ما تفرق.

(٢) أخرجه ابن ماجه [«صحيح سننه» (٣٢٥٧/٤٠٣٢)]، وأحمد (٥٠٢٣) عن ابن عمر. وهو في «صحيح الجامع» (٦٦٥١)، و«الصحيحه» (٩٣٩)، و«المشكاة» (٥٠٨٧).

(٣) صحيح، سلف تخريجه صفحة (١٣١) حاشية (٢).

وقال أويس القرني رضي الله عنه : ما كنت أرى أن أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره .
وأعلم أن من تيسر له بدوام الذكر الأنس بالله ، أو بدوام الفكر تحقيق معرفة الله ، فالتجرد لذلك أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة .

الفائدة الثانية : التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض لها الإنسان غالباً بالمخالطة ، وهي أربعة :

أحدها : الغيبة ، فإن عادة الناس التمضمض بالأعراض والتفكك بها ، فإن خالطتهم ووافقهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى ، وإن سكّت كنت شريكاً ، فإن المستمع أحد المغتابين ، وإن أنكرت أبغضوك وأغتابوك فأزدادوا غيبة إلى غيبة ، وربما خرجوا إلى الشتم .

الثانية : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن من خالط الناس لم يخل عن مشاهدة المنكرات ، فإن سكّت عصي الله ، وإن أنكرت تعرض لأنواع من الضرر ، وفي العزلة سلامة من هذا .

الثالثة : الرياء ، وهو ^(١) الداء العضال الذي يعسر الاحتراز منه ، وأول ما في مخالطة الناس إظهار التشوق إليهم ، ولا يخلو ذلك عن الكذب ، إما في الأصل ، وإما في الزيادة ، وقد كان السلف يحترزون في جواب قول القائل : كيف أصبحت ، وكيف أمسيت ؟ كما قال بعضهم وقد قيل له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحنا ضعفاء مذنبين ، نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا .

وأعلم أنه إذا كان سؤال السائل لأخيه : كيف أصبحت ؟ لا يبعثه عليه شفقة ولا محبة ، كان تكلفاً ورياء ، وربما سأل في القلب ضغن وحقد يورث أن يعلم فساد حاله ، وفي العزلة الخلاص عن هذا ، لأنه من لقي الخلق ولم يخالفهم بأخلاقهم ، مقّوه وأستقلّوه وأغتابوه ، ويذهب دينهم فيه ، ويذهب دينه ودنياه في الانتقام منهم .

(١) في النسخة الثانية : «وهي» .

الرابعة: مسارقة الطبع من أخلاقهم الرديئة، وهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، وذلك أنه قل أن يجالس الإنسان فاسقاً مدة، مع كونه مُنكراً عليه في باطنه، إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لوجد فرقاً في النفور عن الفساد، لأن الفساد يصير بكثرة المباشرة هيناً على الطبع، ويسقط وقعه وأستعظامه، ومهما طالت مشاهدة الإنسان الكبائر من غيره، أحتقر الصغائر من نفسه، كما أن الإنسان إذا لاحظ أحوال السلف في الزهد والتعبد، أحتقر نفسه، وأستصغر عبادته، فيكون ذلك داعية إلى الاجتهاد، وبهذه الدقيقة يُعرّف سر قول القائل: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة.

ومما يدل على سقوط وقع الشيء بسبب تكرره ومشاهدته، أن أكثر الناس إذا رأوا مسلماً قد أفطر في رمضان، أستعظموا ذلك، حتى يكاد يفضي إلى اعتقادهم فيه الكفر، وقد يشاهدون من يؤخر الصلاة عن أوقاتها، فلا ينفرون عنه نفورهم عن تأخير الصوم، مع أن ترك صلاة واحدة تُخرج إلى الكفر، ولا سبب لذلك إلا أن الصلاة تتكرر، والتساهل فيها يكثر، وكذلك لو لبس الفقيه ثوباً من حرير، أو خاتماً من ذهب، لأشدد إنكار الناس لذلك، وقد يشاهدونه يغتاب فلا يستعظمون ذلك. والغيبة أشد من لبس الحرير، ولكن لكثرة سماعها، ومشاهدة المغتابين، سقط عن القلوب وقعها. فأفطن لهذه الدقائق وأحذر مجالسة الناس، فإنك لا تكاد ترى منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا، وفي غفلتك عن الآخرة، وتهون عليك المعصية، وتضعف رغبتك في الطاعات، فإن وجدت مجلساً يُذكر الله فيه، فلا تفارقه فإنه غنيمة المؤمن.

الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين عن الخوض فيها، فإنه قلما تخلو البلاد من العصبية والخصومات، والمعتزل عنهم سليم.

وقد روى ابن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ ذكر الفتن، ووصفها وقال: «إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم^(١)، وخَفَّتْ أماناتهم، فكانوا هكذا» وشبك بين

(١) يقال: مرجت عهودهم: إذا اختلطت، ومرج اليهود: اضطرابها، وعدم الوفاء بها.

أصابه، فقلت: ما تأمرني؟ فقال: «ألزم بيتك، وأملِك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودع أمر العامة»^(١).
وقد روي غير ذلك من الأحاديث في معناه.

الفائدة الرابعة: الخلاص من شر الناس، فإنهم يؤذونك؛ مرة بالغيبة، ومرة بالنميمة ومرة بسوء الظن، ومرة بالتهمة، ومرة بالأطماع الكاذبة، ومن خالط الناس لم ينفك من حاسد وعدو، وغير ذلك من أنواع الشر التي يلقاها الإنسان من معارفه، وفي العزلة خلاص من ذلك، كما قال بعضهم:

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصُّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ
وقال عمر رضي الله عنه: في العزلة راحة من خلطاء السوء.

وقال إبراهيم بن أدهم: لا تتعرف إلى من لا تعرف، وأنكر من تعرف.
وقال رجل لأخيه: أصبحك إلى الحج؟ فقال: دَعْنَا نَعِشَ فِي سِتْرِ اللَّهِ، فَإِنَّا نَخَافُ أَنْ يَرَى بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ مَا نَتَمَاقَّتُ عَلَيْهِ. وهذه فائدة أخرى في العزلة، وهي بقاء الستر على الدين والمروءة وسائر العورات.

الفائدة الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك، وطمعك عنهم.
أما طمعهم، فإن رضاهم غاية لا تدرك، فالمنقطع عنهم قاطع لطمعهم في حضور ولأئيمهم وإملاكاتهم^(٢). وغير ذلك.

وقد قيل: من عم الناس بالحرمان رضوا عنه كلهم.
وأما انقطاع طمعك، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا تحرك حرصه، وأنبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر المطاعم فيتأذى.

(١) رواه أحمد (٦٩٨٥)، وأبو داود [«صحيحه» (٣٦٤٩/٤٣٤٣)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣١٩٦/٣٩٥٧)]. وهو في «صحيح الجامع» (٥٧٠)، و«الصحيح» (٢٠٥).

(٢) الملاك والإملاك: التزويج وعقد النكاح.

وفي الحديث: «أنظروا إلى مَنْ دُونَكُمْ، ولا تنظروا إلى مَنْ فوقكم، فإنه أجدَرُ ألا تزددوا نعمة الله عليكم»^(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣١].

الفائدة السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى، ومقاساة أخلاقهم، وإذا تأذى الإنسان بالثقلاء لم يلبث أن يغتابهم، فإن آذوه بالقدح فيه كافأهم، فأنجّر الأمر إلى فساد الدين، وفي العزلة سلامة من ذلك.

فصل في آفات العزلة

أعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد من الاستعانة بالغير، ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة.

ومن فوائد المخالطة: التعلم والتعليم، والنفع والانتفاع، والتأديب والتأدب، والاستئناس والإيناس، ونيل الثواب في القيام بالحقوق، وأعتياد التواضع، وأستفادة التجارب من مشاهدة هذه الأحوال، والأعتبار بها، فهذه فوائد الخلطة، ولنفصلها:

الفائدة الأولى: التعلم والتعليم، وقد ذكرنا فضلهما في كتاب العلم، فأما من تعلّم الفرض ورأى أنه لا يتأتى منه الخوض في العلوم، ورأى الاشتغال بالعبادة، فليعتزل، وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران.

ولهذا قال الربيع بن خثيم: تَفَقَّهْ ثم اُعتزل، والعلم أصل الدين، ولا خير في عزلة العوام.

سئل بعض العلماء: ما تقول في عزلة الجاهل؟ فقال: خبال ووبال، فقيل

(١) متفق عليه، سيأتي تخريجه الصفحة (٢٥٣) الحاشية (١).

له : فالعالم؟ فقال : «ما لك ولها؟ دعها معها حذاؤها وسقاؤها، تَرِدِ الماء، وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها»^(١).

وأما التعليم، ففيه ثواب عظيم إذا صحت النية فيه، ومتى كان القصد إقامة الجاه والاستكثار من الأتباع، فهو هلاك الدين، وقد سبق ذلك في (كتاب: العلم)، والغالب في هذا الزمان سوء القصد من المتعلمين، فيقتضي الدينُ الاعتزال عنهم، فإنَّ صُودِفَ طالبُ الله ومتقَرَّبَ بالتعلم إليه، لم يجز الاعتزال عنه، ولا يحل كتمان العلم، ولا ينبغي أن يغترَّ بقول من قال: تعلمنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا الله، فإنه أشار بهذه إلى علوم القرآن والحديث ومعرفة سير الأنبياء والصحابة، وذلك يتضمن التخويف والتحذير، وهو سبب لإثارة الخوف من الله سبحانه، فإن لم يؤثر في الحال أثر في المآل، فأما علم الكلام وعلم الخلاف، فإنه لا يرد الراغب في الدنيا إلى الله تعالى، بل لا يزال صاحبه متمادياً في حرصه إلى آخر عمره.

الفائدة الثانية: النفع والانتفاع، أما الانتفاع بالناس، فبالكسب والمعاملة، والمحتاج إلى ذلك مضطر إلى ترك العزلة، وأما إن كان معه ما يقنعه، فالعزلة أفضل، إلا أن يقصد التصديق بكسبه، فذلك أفضل من العزلة، إلا أن تكون العزلة مفيدة له معرفة الله تعالى والأنس به، عن كشف وبصيرة، لا عن أوهام وخیالات فاسدة.

وأما النفع: فهو أن ينفع الناس، إما بماله أو ببدنه لقضاء حوائجهم، ومن قدر على ذلك مع القيام بحدود الشرع، فهو أفضل من العزلة إن كان لا يشتغل

(١) شبه عزلة العالم بالإبل التي معها حذاؤها وسقاؤها، يريد أنها تقوى على المشي وقطع الأرض وقصد المياه ووردها ورغبي الشجر والامتناع عن السباع المفترسة، شبهت بمن كان معه في السفر حذاء وسقاء، وهكذا العزلة إذا كانت من العالم، فإنه يكون أميناً على نفسه من الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، وفي نسخة: غذاؤها وسقاؤها. وهو مقتبس من حديث رواه البخاري (٢٣٧٢) وغيره في السؤال عن لقطة الإبل.

في عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية، وإن كان ممن أنفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر، فذاك الذي لا يعدل به ألبتة.

الفائدة الثالثة: التأديب والتأدب، ونعني به الارتياض بمقاساة الناس، والمجاهدة في تحمّل أذاهم، وكسر النفس، وقهر الشهوة، وذلك أفضل من العزلة في حق من لم تهذب أخلاقه.

وينبغي أن يفهم أن الرياضة لا تُرادُ لنفسها، كما لا يراد ذلك من رياضة الدابة، بل المراد منها أن تتخذ مركباً تُقَطَّعُ عليه المراحل، والبدن مَطِيَّة يسلك بها طريق الآخرة، وفيها شهوات إن لم تكسر جمحت براكبها في الطريق، فَمَنْ أَشْتَغَلَ طول عمره بالرياضة، كان كمن أَشْتَغَلَ طول عمره برياضة الدابة ولم يركبها، ولا يستفيد إلا الخلاص من عَضُها ورَفْسِها، وهي لعمرى فائدة، ولكن ليست معظم المقصود. قيل لراهب: يا راهب، فقال: لست براهب، إنما أنا كلب عقور، حبست نفسي حتى لا أعقر الناس. ولهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر، لكن لا ينبغي أن يقتصر عليه.

وأما التأديب: فهو أن يؤدب غيره، ويتطرق إليه من دقائق الآفات ما يتطرق إلى نشر العلم على ما ذكر.

الفائدة الرابعة: الاستئناس والإيناس، وقد يكون مستحجاً كالأستئناس بأهل التقوى وقد يقصد به ترويح القلوب من كرب الوحدة، فينبغي أن يكون الاستئناس في بعض الساعات بمن لا يفسد بقيتها، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين.

الفائدة الخامسة: في نيل الثواب وإنالته.

أما الأول: فبحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وحضور الإملاكات، والدعوات، ففيها ثواب من جهة إدخال السرور على المؤمن.

وأما الثاني: فهو أن يفتح بابه للناس ليعزوه أو يهنئوه أو يعودوه، فإنهم ينالون بذلك ثواباً، وكذلك إن كان من العلماء، فأذن لهم في زيارته.

ولكن ينبغي أن يَرِنَ ثواب هذه المخالطات بأفاتها، فيرجح العزلة أو المخالطة، وقد كان أكثر السلف يُؤثرون العزلة عليها.

الفائدة السادسة: التواضع، ولا يقدر على ذلك في الوحدة، فقد يكون الكِبَرُ سبباً في اختياره العزلة، ويمنعه في المحافل التقصير في إكرامه وتقديمه، وربما ترفع عن مخالطتهم لارتفاع محله عند نفسه، أو نحو ذلك.

وعلامه من هذه صفته أن يحب أن يُزار ولا يحب أن يزور، ويفرح بتقرب السلاطين والعوام إليه وأجتماعهم على بابه، وتقبيل يده، فالعزلة بهذا السبب جهلٌ، لأن التواضع لا يغض من منصب الكبير.

فإذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها، تحققت أن الحكم عليها مطلقاً بالفضل نفيّاً وإثباتاً خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الفائق بسبب مخالطته من الفوائد، ويقاس الفائق بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل.

فقد قال الشافعي رحمه الله: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة للسوء، فكن بين القبض والبسط. ومن ذكر سوى هذا فهو قاصر، وإنما هو إخبار عن حاله، فلا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال.

فإن قيل: فما آداب العزلة؟ =

[آداب

= قلنا: ينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كَفَّ شره عن الناس، ثم طلب العزلة) السلامة من شر الأشرار، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين، ثم تجريد الهمة لعبادة الله تعالى أبداً، فهذه آداب بيّنة.

ثم ليكن في خلواته مواظباً على العلم والعمل، والذكر والفكر، فيجتني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثرُوا غشيانَه وزيارته ليصفوَ وقته، وليكفَّ عن السؤال عن أخبارهم، وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به، فإن جميع ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة، فوقوع

الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض، وليقنع باليسير من المعيشة، وإلا اضطره التوسع إلى مخالطة الناس.

وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الناس، ولا يصغي إلى الثناء عليه بالعزلة، ولا القدح فيه بترك الخلطة، فإن ذلك يؤثر في القلب فيقف عن السير في طريق الآخرة.

وليكن له مجلس صالح يستريح إليه ساعة عند كد المواظبة، ففي ذلك عون على بقية الساعات.

ولا يتم الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا، ولا ينقطع طمعه إلا بقصرِ أمله، فيقدر أنه إذا أصبح لا يمسي، وإذا أمسى لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم.

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر متى ضاق عليه قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به، لم يُطَقِّ وحشة الوحدة بعد الموت، وأن من أنس بذكر الله ومعرفته لم يزل الموت أنسه، لأن الموت لا يهدم محل الأنس والمعرفة، كما قال الله تعالى في حق الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران]. وكل متجرد لله في جهاد نفسه، فهو شهيد، كما ورد عن بعض الصحابة أنه قال: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر^(١).

(١) يروى على أنه حديث نبوي. ولكن لا يصح مطلقاً، وما أظن أنه يروى عن صحابي. والأشد من ذلك أن الكثير من الناس يورده لصرف المؤمنين عن جهاد العدو وعلى الأخص في مثل أيام دخول الأعداء إلى بلاد المسلمين. كما هو حاصل هذه الأيام. نسأل الله السلامة.

١٢ - كِتَابُ آدَابِ السَّفَرِ

السفر وسيلة إلى الخلاص من مهروب عنه، أو الوصول إلى مرغوب إليه .
والسفر سفران: سفر بظاهر البدن عن الوطن، وسفر بسير القلب عن أسفل
سافلين إلى ملكوت السماوات، وهذا أشرف السفرين، فإن الواقف على الحالة
التي نشأ عليها عقيب الولادة، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء، لازم
درجة القصور، قانع برتبة النقص، ومستبدل بمتسع عرضه السماوات والأرض
ظلمة السجن وضيق الحبس .

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كَنَقْصِ القادرين على التمام^(١)
إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه في خطر خطير، أندرت مسالكه .
فأما سفر البدن: فهو أقسام، وله فوائد وآفات عظيمة، فإنه يضاهي النظر في
العزلة والمخالطة، وقد ذكرنا منهاج ذلك .

فالفوائد الباعثة عليه لا تخلو من هرب أو طلب . فالهرب:
إما من أمر له نكايه في الأمور الدنيوية، كالطاعون إذا ظهر ببلد، أو كخوف
فتنة أو خصومة، أو غلاء سعر .

وإما أمر له نكايه في الدين، كمن أبطل في بلده بجاه أو مال أو اتساع
أسباب، فصده عن التجرد لله تعالى، فيؤثر الغربة والخمول، ويجتنب السعة
والجاه، وكمن يدعى إلى بدعة أو إلى ولاية عمل لا تحل مباشرة، فيطلب
الفرار منه .

(١) البيت للمتنبي، من قصيدته التي مطلعها: ملومكما يجلب عن الملام . . . انظر
«العرف الطيب» لليازجي: ٣٦١/٢ .

وأما المطلوب، فهو إما دنيوي كالمال والجاه، أو ديني كالعلم بأمور دينه، أو بأخلاقه في نفسه، أو بآيات الله في أرضه، وَقَلْ مَذْكُورٌ بِالْعِلْمِ مُحْصَلٌ مِنْ زَمَانِ الصَّحَابَةِ عليه السلام إِلَى زَمَانِنَا إِلَّا وَحَصَلَ الْعِلْمُ بِالسَّفَرِ وَسَافِرٍ لِأَجَلِهِ.

وأما علمه بنفسه وأخلاقه، فذلك أيضاً مهم. فإن سلوك الآخرة لا يمكن إلا بتحسين الخلق وتهذيبه، وإنما سمي السفر سفراً، لأنه يُسْفَرُ عن الأخلاق.

وفي الجملة فالنفس في الوطن لا تظهر خبايا أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة، فإذا حملت وعثاء السفر، وصرفت عن مألوفاتها المعتادة، وأمتحت بمشاق الغربة، أُنْكَشِفَتْ غَوَائِلُهَا، وَوَقَعَ الْوُقُوفُ عَلَى عيوبها.

وأما آيات الله في أرضه، ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر:

ففيها ﴿قَطْعٌ مُتَجَوِّزٌ﴾ [الرعد: ٤]، وفيها الجبال والبراري والقفار والبحار، وأنواع الحيوان والنبات، وما من شيء إلا هو شاهد لله بالوحدانية، وَمُسَبِّحٌ بِلِسَانٍ ذَلِيقٍ لَا يَدْرِكُهُ إِلَّا مِنْ ﴿أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق].

وإنما نعني بالسمع: سَمْعَ الْبَاطِنِ، فَبِهِ يَدْرِكُ نَطْقَ لِسَانِ الْحَالِ، وَمَا مِنْ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا وَلَهَا أَنْوَاعٌ شَاهِدَاتٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ.

وقد ذكرنا أن من فوائد السفر الهرب من الولاية والجاه وكثرة العلائق، لأن الدين لا يتم إلا بقلب فارغ عن غير الله، وَلَا يَتَصَوَّرُ فَرَاغَ الْقَلْبِ فِي الدُّنْيَا عَنْ مَهْمَاتِ الدُّنْيَا وَالْحَاجَاتِ الضَّرُورِيَّةِ، وَلَكِنْ يَتَصَوَّرُ تَخْفِيفَهَا وَتَقْلِيلَهَا، وَقَدْ نَجَا الْمُخِفُّونَ وَهَلَكَ الْمُثْقَلُونَ، وَالْمَخْفُ الَّذِي لَيْسَتْ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّهِ.

فصل

ومن أقسام السفر أن يكون مباحاً، كسفر التفرج والتنزه، فأما السياحة في الأرض لا المقصود، ولا إلى مكان معروف، فإنه منهي عنه.

فقد روينا من حديث طاوس أن النبي ﷺ قال: «لا رهبانية، ولا تبثل، ولا سياحة في الإسلام»^(١).

وقال الإمام أحمد بن حنبل: ما السياحة من الإسلام في شيء، ولا من فعل النبين ولا الصالحين.

ولأن السفر يشتت القلب، فلا ينبغي للمريد أن يسافر إلا في طلب العلم أو مشاهدة شيخ يقتدي به في سيرته.

وللسفر آداب معروفة مذكورة في مناسك الحج وغيرها.

من ذلك أن يبدأ برد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، ورَدُّ الودائع.

ومنها: أن يختار رفيقاً صالحاً. ويودَّع الأهل والأصدقاء.

ومنها: أن يصلي صلاة الاستخارة، وأن يكون سفره يوم الخميس بكرة.

ومنها: ألا يمشي منفرداً، وأن يكون أكثر سيره بالليل، ولا يهمل الأذكار والأدعية، إذا وصل منزلاً أو علا نَشْراً أو هبط وادياً.

ومنها: أن يستصحب معه ما فيه مصلحته، كالسواك، والمشط، والمرآة، والمُكْحَلَة، ونحو ذلك^(٢).

(١) لم أره بهذا اللفظ. لكن أخرج الدارمي ١٣٣/٢ عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء بعث إليه رسول الله ﷺ فقال: «يا عثمان! إنني لم أؤمر بالرهبانية..».

وروى الطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة ؓ: «إن لكل أمة سياحة، وإن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله، وإن لكل أمة رهبانية، ورهبانية أمتي الرباط في نحر العدو» وضعفه جداً الألباني في «ضعيف الجامع» (١٩٢٤)، و«الضعيفة» (٢٤٤٢).

(٢) وهذا يتغير بتغير الأزمان والأسفار، فإن لكل سفر حاجة.

فصل في ما لا بد للمسافر منه

ينبغي له أن يتزود للدنيا والآخرة، أما زاد الدنيا، فالمطعم والمشرب وما يحتاج إليه .

ولا ينبغي أن يقول: أخرج متوكلاً فلا أحمل زاداً، فهذا جهلٌ، فإنَّ حَمَلَ الزاد لا يناقض التوكل .

وأما زاد الآخرة، فهو العلم الذي يحتاج إليه في طهارته وصلاته وعبادته، وتعلم رخص السفر، كالقصر والجمع والفطر، ومدة مسح السفر على الخفين والتميم، والتنفل للماشي . وكل ذلك مذكور في كتب الفقه بشروط .

ولا بد للمسافر من معرفة ما يتجدد بسبب السفر، وهو علم القبلة والأوقات، فإن ذلك في السفر أكد من الحضر .

ويستدل على القبلة بالنجوم والشمس والقمر والرياح والمياه والجبال والمجرّة، على ما هو مبين في موضعه، ويعتبر الجبال بأن وجوها جميعها مستقبلة البيت^(١) .

وأما المجرّة، فتكون أول الليل ممتدة على كتف المصلي اليسرى إلى القبلة، ثم يلتوي رأسها حتى تسير في آخر الليل على كتفه اليمنى، وتسمى المجرّة: سُرُج السماء^(٢) .

وأما معرفة أوقات الصلوات، فلا بد منها، ووقت الظهر يدخل بزوال الشمس، فَلْيَنْصِبِ المسافر عوداً مستقيماً، وليعلم علامات على رأس الظل،

(١) هذا مما يخالفه الواقع المشاهد . وهذه جبال بلاد الشام، سلسلة لبنان الشرقية، وسلسلة لبنان الغربية تتجه جميع جبالها وقممها إلى الغرب أو الشرق . ولا ينطبق قوله إلا على جبل قاسيون بدمشق مع انحراف فيه . وقوله: (النجوم، والمياه) فليس على إطلاقه .

(٢) هذا كله بالنسبة لمن كان في بلاد الشام وما والاها، وأما من كان في بلاد اليمن ومصر والمشرق فإن المجرّة تكون على خلاف ما ذكر .

ولينظر، فإن رآه في النقصان علم أنه لم يدخل وقت الظهر، فإذا أخذ في الزيادة علم أنه قد زالت الشمس ودخل الوقت، وهو أول وقت الظهر، وآخره إذا صار ظل كل شيء مثله.

ثم يدخل أول وقت العصر، وآخره إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه.
وعن الإمام أحمد: أن آخره ما لم تصفر الشمس، ثم يذهب وقت الاختيار، ويبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس، وباقى الأوقات معروفة^(١).

(١) وقد ترك العشاء والناس في بلاد الشام يؤخرونه عن وقته كثيراً، كذلك الفجر فإنه يبدأ عند الناس قبل وقته بأكثر من نصف ساعة أكثر أيام السنة.

١٣ - كِتَابُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ

أَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ هُوَ الْقُطْبُ الْأَعْظَمُ فِي الدِّينِ، وَهُوَ الْمَهْمُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ النَّبِيِّينَ، وَلَوْ طَوِيَ بِسَاطِهِ، لَأَضْمَحَلَّتِ الدِّيَانَةُ، وَظَهَرَ الْفُسَادُ، وَخَرِبَتِ الْبِلَادُ.

[وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران] وفي هذه الآية بيان أنه فرض على الكفاية لا فرض عين، لأنه قال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ ولم يقل: كونوا كلكم أمرين بالمعروف، فإذا قام به من يكفي سقط عن الباقيين، وأختص الفلاح بالقائمين المباشرين له. وفي القرآن آيات كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمُداين فيها، مثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استنقوا الماء مروا على من فوقهم فأدّوهم، فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرّقاً فاستقينّا منه ولم نُؤذِ مَنْ فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجّوا جميعاً»^(١).

فصل في مراتب الإنكار وبعض ما ورد فيه

فقد جاء في الحديث المشهور من رواية مسلم، أن النبي ﷺ قال: «من رأى

(١) رواه البخاري (٢٤٩٣)، وأحمد (١٨٣٣١-١٨٣٣٣ و ١٨٣٣٩)، والترمذي [«صحيحه» (٢١٧٣/١٧٦٥)]. وهو في «الصحيحه» (٦٩)، و«صحيح الجامع» (٥٨٣٢).

منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(١).

وفي حديث آخر: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»^(٢).

وفي حديث آخر: «إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: (أنت ظالم) فقد تُودع منهم»^(٣).

وقام أبو بكر رضي الله عنه، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر، فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعذاب»^(٤).

وعنه ﷺ أنه قال: «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيَسْلُطَنَّ اللَّهُ شراركم على خياركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»^(٥).

(١) رواه مسلم (٤٩)، وأحمد (١١٤٤٦)، وأبو داود [«صحيح سننه» (١٠٠٩/١١٤٠) و (٣٦٤٧/٤٣٤٠)]، والترمذي [«صحيح سننه» (١٧٦٤/٢١٧٢)]، والنسائي [«صحيح سننه» (٤٦٣٦)] عن أبي سعيد الخدري. وهو في «صحيح الجامع» (٦٢٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (١١١٢٧)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٣٦٥٠/٤٣٤٤)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٤٠١١/٣٢٤٠ و ٤٠١٢/٣٢٤١)]. وهو في «صحيح الجامع» (١١٠٠)، و«الصحيحه» (٤٩١). وفي رواية: «كلمة عدل».

(٣) أخرجه أحمد (٦٧٨١)، والطبراني والحاكم والبيهقي في «الشعب» عن ابن عمرو. وأخرجه الطبراني في «الأوسط» من حديث جابر. وهو في «ضعيف الجامع» (٥٠١)، و«الضعيفة» (١٢٦٤).

(٤) أخرجه أحمد (١ و ١٦ و ٥٣)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٣٦٤٤/٤٣٣٨)]، والترمذي [«صحيح سننه» (٣٠٥٧/٢٤٤٨)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٣٢٣٦/٤٠٠٥)]. وهو في «الصحيحه» (١٥٦٤)، و«المشكاة» (٥١٤٢).

(٥) أخرجه البزار والطبراني والخطيب عن أبي هريرة. وهو في «ضعيف الجامع الصغير وزيادته» (٤٦٥٠).

فصل في أركانه وشروطه ودرجاته وآدابه ونحو ذلك

أعلم أن أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة :
أحدها : أن يكون المنكر مكلفاً مسلماً قادراً : وهذا شرط لوجوب الإنكار، فإن الصبي المميز، له إنكار المنكر، ويثاب على ذلك، لكن لا يجب عليه .
 وأما عدالة المنكر، فاعتبرها قوم وقالوا : ليس للفاسق أن يحتسب .
 وإنما استدلوا بقوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٤]
 وليس لهم في ذلك حجة .

وأشترط قوم كون المنكر مأذوناً فيه من جهة الإمام أو الوالي، ولم يجيزوا لأحد الرعية الجسبة، وهذا فاسد، لأن الآيات والأخبار عامة تدل على أن كل من رأى منكراً فسكت عنه عصي، فالتخصيص بإذن الإمام تحكّم .

ومن العجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا : لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرج الإمام المعصوم، وهؤلاء أخس رتبة من أن يتكلموا، لكن جوابهم أن يقال لهم : إذا جاؤوا إلى القاضي طالبين حقوقهم : نُصِرْتُمْ أمر بالمعروف، وأستخراج حقوقكم من يد من ظلمكم نهى عن المنكر، ولم يَجِئْ زمان ذلك الإمام، لأنه لم يخرج بعد .

فإن قيل : في الأمر بالمعروف إثبات سُلْطَنَةِ وولاية على المحكوم عليه، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم، مع كونه حقاً، فينبغي ألا يثبت لأحد الرعية إلا بتفويض من السلطان . =

= قلنا : أما الكافر فممنوع من ذلك لما فيه من السلطة والعز، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة .

وأعلم أن الجسبة لها خمس مراتب :
 [مراتب الجسبة] التعريف .

والوعظ بالكلام اللطيف .

الثالثة : السب والتعنيف، ولسنا نعني بالسب الفاحشة، بل نقول له : يا جاهل يا أحمق، ألا تخاف من الله تعالى ! ونحو ذلك .

والرابعة: المنع بالقهر. ككسر الملاهي وإراقة الخمر.

والخامسة: التخويف والتهديد بالضرب، أو مباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه، فهذه المرتبة تحتاج إلى الإمام دون ما قبلها، لأنه ربما جر إلى فتنة.

وأستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض.

فإن قيل: فهل تثبت الحسبة للولد على الوالد، والعبد على السيد، والزوجة على الزوج، والرعية على الوالي؟ =

= قلنا: أصل الولاية ثابت للكل، وقد رتبنا للحسبة خمس مراتب:

فللولد من ذلك: الحسبة بالتعريف، ثم بالوعظ والنصح باللطف.

وله من الرتبة الخامسة: أن يكسر العود، ويريق الخمر، ونحو ذلك، ولهذا الترتيب ينبغي أن يجري في العبد والزوجة.

وأما الرعية مع السلطان، فالأمر فيه أشد من الولد، فليس معه إلا التعريف والنصح.

ويشترط كون المنكر قادراً على الإنكار، فأما العاجز، فليس عليه الإنكار إلا بقلبه. ولا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي، بل يلتحق به خوف مكروه يناله، فذلك في معنى العجز.

وكذلك إذا علم أن إنكاره لا ينفع، فينقسم إلى أربعة أحوال:

[شروط]

أحدها: أن يعلم أن المنكر يزول بقوله أو فعله من غير مكروه يلحقه، الحسبة] فيجب عليه الإنكار.

الحالة الثانية: أن يعلم أن كلامه لا ينفع وأنه إن تكلم ضرب، فيرتفع الوجوب عنه.

الثالثة: أن يعلم أن إنكاره لا يفيد، لكنه لا يخاف مكروهاً، فلا يجب عليه الأمر لعدم الفائدة، لكن يستحب لإظهار شعائر الإسلام والتذكير بالدين.

الرابعة: أن يعلم أنه يصاب بمكروه، ولكن يبطل المنكر بفعله، مثل أن يكسر العود، ويريق الخمر، ويعلم أنه يُضرب عقيب ذلك، فيرتفع الوجوب عنه، ويبقى مستحباً لقوله في الحديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»^(١).

ولا خلاف أنه يجوز للمسلم الواحد أن يهجم على صفوف الكفار ويقاتل، وإن علم أنه يُقتل، لكن إن علم أنه لا نكاية له في الكفار، كالأعمى يطرح نفسه على الصف، حرم ذلك. وكذلك لو رأى فاسقاً وحده وعنده قدح خمر وبيده سيف، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب الخمر لضرب عنقه، لم يجز له الإقدام على ذلك، لأن هذا لا يؤثر في الدين أثراً يفديه بنفسه، وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر، وظهر لفعله فائدة، كمن يحمل في صف الكفار ونحوه.

وإن علم المنكر أنه يضرب معه غيره من أصحابه، لم تجز له الحسبة، لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بإفضائه إلى منكر آخر، وليس ذلك من القدرة في شيء. ولسنا نعني بالعلم في هذه المواضع إلا غلبة الظن، فمن غلب على ظنه أنه يصيبه مكروه، لم يجب عليه الإنكار، وإن غلب على ظنه أنه لا يصيبه وجب، ولا أعتبار بحالة الجبان، ولا بالشجاع المتهور، بل الاعتبار بالمعتدل الطبع، السليم المزاج. ونعني بالمكروه: الضرب أو القتل، وكذلك نهب المال، والإشهار في البلد مع تسويد الوجه، فأما السب والشتم، فليس بعذر في السكوت، لأن الأمر بالمعروف يلقي ذلك في الغالب.

الركن الثاني: أن يكون ما فيه الحسبة منكراً موجوداً في الحال ظاهراً: فمعنى كونه منكراً أن يكون محذور الوقوع في الشرع، والمنكر أعم من المعصية، إذ من رأى صبيّاً أو مجنوناً يشرب الخمر، فعليه أن يريق خمره ويمنعه، وكذلك لو رأى مجنوناً يزني بمجنونة أو بهيمة، فعليه أن يمنعه.

(١) صحيح، سلف تخريجه الصفحة (١٥٣) الحاشية (٢).

وقولنا: (موجوداً في الحال) احترازٌ ممن شرب الخمر وفرغ من شربها، ونحو ذلك، فإن ذلك ليس إلى الأحاد، وفيه أيضاً احتراز عما سيوجد في ثاني الحال، كمن يُعلم بقرينة حاله أنه عازمٌ على الشرب الليلة، فلا حِسبة عليه إلا بالوعظ.

وقولنا: (ظاهراً) احترازٌ ممن تستر بالمعصية في داره وأغلق بابها، فإنه لا يجوز أن يتجسس عليه، إلا أن يظهر ما يعرفه من هو خارج الدار، كأصوات المزامير والعيدان، فلمن سمع ذلك أن يدخل ويكسر الملاهي، فإن فاحت رائحة الخمر فالأظهر جواز الإنكار.

ويشترط في إنكار المنكر أن يكون معلوماً كونه منكراً بغير اجتهد، فكل ما هو في محل الاجتهاد، فلا حِسبة فيه، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله متروك التسمية، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه يَسِيرِ النبيذ الذي ليس بمسكر.

الركن الثالث: في المنكر عليه: ويكفي في صفته أن يكون إنساناً، ولا يشترط كونه مكلفاً كما بيّنا قبله من أنه ينكر على الصبي والمجنون.

الركن الرابع: نفس الاحتساب: وله درجات وآداب:

الدرجة الأولى: أن يعرف المنكر، فلا ينبغي له أن يَسْتَرْقِ السَّمْعَ على دار غيره ليسمع صوت الأوتار، ولا يتعرض للشُّمِّ ليدرك رائحة الخمر، ولا أن يَمَسَّ ما قد ستر بثوب ليعرف شكل المزمар، ولا أن يستخبر جيرانه ليخبروه بما يجري، بل لو أخبره عدلان ابتداءً أن فلاناً يشرب الخمر، فله إذ ذاك أن يدخل وينكر.

الدرجة الثانية: التعريف، فإن الجاهل يُقَدِّمُ على الشيء لا يظنه منكراً، فإذا عرف أقبح عنه، فيجب تعريفه باللطف، فيقال له: إن الإنسان لا يولد عالماً، ولقد كنا جاهلين بأمور الشرع حتى علّمنا العلماء، فلعل قريتك خالية من أهل العلم. فهكذا يُتَلَطَّفُ به ليحصل التعريف من غير إيذاء. ومن اجتنب محذور السكوت عن المنكر، وأستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه، فقد غسل الدم بالبول.

الدرجة الثالثة: النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله، ويورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد، ويحكي له سيرة السلف، ويكون ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، وههنا آفة عظيمة ينبغي أن يتوقاها، وهو أن العالم يرى عند التعريف عز نفسه بالعلم، وذُلَّ غيره، بالجهل.

ومثال ذلك: مثال من يُخلَّص غيره من النار بإحراق نفسه، وهو غاية الجهل، ومذلة عظيمة، وغرور من الشيطان، ولذلك مَحَكُّ ومَعْيَار، فينبغي أن يمتحن به المحتسب نفسه، وهو أن يكون أمتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه، أو باحتساب غيره عليه، أحب إليه من أمتناعه [عنه] بأحتسابه، فإن كانت الحسبة شاقَّةً عليه، ثقيلة على نفسه، وهو يَودُّ أن يُكفَى بغيره، فليحتسب، فإن باعته هو الدين، وإن كان الأمر بالعكس، فهو متَّبِعُ هوى نفسه، متوسِّلٌ إلى إظهار جاهه بواسطة إنكاره، فليتنق الله وليحتسب أولاً على نفسه.

وقيل لداود الطائفي: أرايت رجلاً دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟

قال: أخاف عليه السُّوط.

قيل: هو يقوى على ذلك.

قال: أخاف عليه السيف.

قيل: هو يقوى على ذلك.

قال: أخاف عليه الداء الدفين: العُجْب.

الدرجة الرابعة: السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن، وإنما يعدل إلى هذا عند العجز عن المنع باللطف، وظهور مبادئ الإصرار، والاستهزاء بالوعظ والنصح، ولسنا نعني بالسب: الفحش والكذب، بل نقول له: يا فاسق، يا أحمق، يا جاهل، ألا تخاف الله! قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿أَفِ لَكَؤٌ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء].

الدرجة الخامسة: التغيير باليد، ككسر الملاهي، وإراقة الخمر، وإخراجه من الدار المغصوبة، وفي هذه الدرجة أدبان:

أحدهما: ألا يباشر التغيير ما لم يعجز عن تكليف المنكر عليه ذلك، فإذا أمكنه أن يكلفه الخروج عن الأرض المغصوبة، فلا ينبغي أن يجره ولا يدفعه.

الثاني: أن يكسر الملاهي كسراً يبطل صلاحيتها للفساد، ولا يزيد على ذلك، ويتوقى في إراقة الخمر كسر الأواني إن وجد إليه سبيلاً، وإن لم يقدر إلا بأن يرمي ظروفها بحجر أو نحوه، فله ذلك، وتسقط قيمة الظروف، ولو ستر الخمر ببدنه، فإنه يقصد بدنه بالضرب ليتوصل إلى إراقة الخمر، ولو كانت الخمر في قوارير ضيقة الرؤوس، بحيث إنه إذا أشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق فمنعوه، فله كسرها، لأن هذا عذر، وكذلك إن كان يضيع الزمان في صبتها، وتتعطل أشغاله، فله كسرها ولو لم يحذر من الفساق.

فإن قيل: فهلاً يجوز الكسر زجراً، وكذلك الجبر بالرجل في الإخراج من الدار المغصوبة زجراً؟

قلنا: إنما يجوز مثل ذلك للولاء، ولا يجوز لأحد الرعية، لخفاء وجه الاجتهاد فيه.

الدرجة السادسة: التهديد والتخويف كقوله: دع عنك هذا وإلا فعلت بك كذا وكذا، وينبغي أن يقدم هذا على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه.

والأدب في هذه الرتبة ألا يهدد بوعيد لا يجوز تحقيقه، كقوله: لأتَهَبَنَّ دارك، ولأَسْبِيَنَّ زوجتك، لأنه إن قال ذلك عن عزم، فهو حرام، وإن قاله عن غير عزم، فهو كذب.

الدرجة السابعة: مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه إشهار سلاح، وذلك جائز للأحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة، فإذا أندفع المنكر فينبغي أن يكف.

الدرجة الثامنة: ألا يقدر على الإنكار بنفسه ويحتاج إلى أعوان يشهرون السلاح، فإنه ربما يستمد الفاسق أيضاً بأعوانه ويؤدي إلى القتال، فالصحيح أن ذلك يحتاج إلى إذن الإمام، لأنه يؤدي إلى الفتن وهيجان الفساد.

وقيل: لا يشترط في ذلك إذن الإمام.

فصل: وقد ذكرنا آداب المحتسب مفصلة، وجمعتها ثلاث صفات في
[آداب
المحتسب]

الأول: العلم بمواقع الحسبة وحدودها ومواقعها، ليقصر على حد الشرع.

والثاني: الورع، فإنه قد يعلم شيئاً ولا يعمل به لغرض من الأغراض.

والثالث: حسن الخلق، وهو أصل ليتمكن من الكف، فإن الغضب إذا هاج
لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع خلق حسن.

قال بعض السلف: لا يأمر بالمعروف إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهى
عنه، حليم فيما يأمر به، حليم فيما ينهى عنه، فقيه فيما يأمر به، فقيه فيما
ينهى عنه.

ومن الآداب: تقليل العلائق، وقطع الطمع عن الخلق لتزول المداينة، فقد
حكى عن بعض السلف أنه كان له سنور، وكان يأخذ لسنوره في كل يوم من
قَصَاب في جواره شيئاً من الغُدد، فرأى على القصاب منكرأ، فدخل الدار
فأخرج السنور، ثم جاءه فأنكر على القصاب، فقال: لا أعطيك بعد هذا شيئاً
لسنورك، فقال: ما أنكرت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك.
وهذا صحيح، فإن من لم يقطع الطمع من الناس من شيئين لم يقدر على
الإنكار عليهم:

أحدهما: من لُطِفَ ينالونه به.

والثاني: من رضاهم عنه وثنائهم عليه.

وأما الفرق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمُتَعَيِّن، قال الله تعالى:
﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا﴾ [طه: ٤٤].

وروي أن أبا الدرداء رضي الله عنه مرَّ على رجل أصاب ذنباً والناس يسبون، فقال:
أرأيتم لو وجدتموه في قلب، ألم تكونوا مستخرجيه؟

قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم. فقالوا:
أفلا تبغضه؟ فقال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه، فهو أخي.

ومر فتى يجبر ثوبه، فَهَمَّ أصحابِ صَلَةٍ بنِ أَشِيَمٍ أن يأخذه بالسنتهم أخذاً شديداً، فقال صلة: دعوني أَكْفِكُمْ أمره، ثم قال: يا ابن أخي، إن لي إليك حاجة. قال: ما هي؟

قال: أحب أن ترفع إزارك، قال: نعم ونعمي عين^(١)، فرفع إزاره، فقال صلة لأصحابه: هَذَا كَانَ أَمْثَلُ مما أردتم، فإنكم لو شتمتموه وآذيتموه لستمكم.

ودعي الحسين إلى عرس، فجيء بِجَامٍ من فضة فيه خبيص، فتناوله وقلبه على رغيف، فأصاب منه، فقال رجل: هَذَا نَهَى فِي سَكُوتٍ^(٢).

باب في المنكرات المألوفة في العادات

وفي الإنكار على الأمراء والسلاطين، وأمرهم بالمعروف

ولنذكر في ذلك فصلين:

الفصل الأول: اعلم أن المنكرات المألوفة في العادات لا يمكن حصرها، لكننا نشير إلى جمل يستدل بها على أمثالها، فمن ذلك:

منكرات المساجد^(٣)

مما يشاهد كثيراً في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وكذلك كل ما يقدر في صحة الصلاة، من نجاسة على ثوب المصلي لا يراها، أو أنحراف عن القبلة بسبب عمى أو ظلام.

(١) أي قرّة عين، يعني: أقر عينك بطاعتك واتباع أمرك.

(٢) انظر كتاب «الأمر بالمعروف» تأليف الفاضل الشيخ عبد المعز عبد الستار، طبع المكتب الإسلامي.

(٣) انظر كتاب «إصلاح المساجد» للعلامة جمال الدين القاسمي، وكتاب «الأجوبة النافعة» للمحدث الألباني، وكتاب «تحذير الساجد» للألباني، وكتاب «الموعظة الحسنة» لصديق حسن خان، ففيها الكثير النافع في هذا الموضوع، وكلها طبع المكتب الإسلامي.

ومن ذلك: اللحن في القراءة.
وأشغال المعتكف بإنكار هذه الأشياء وتعريفها أفضل له من نافلة يقتصر عليها.

ومن ذلك: تراسيل^(١) المؤذنين في الأذان وتطويلهم مد كلماته.
ومن ذلك: أن يكون على الخطيب ثوب حرير، أو بيده سيف مذهب.
ومن ذلك: ما يجري من القصاص في المساجد من الكذب، والأشياء المنهي عنها، كالخوض في الكلام الموجب للفتن، ونحو ذلك.
ومن ذلك: أن يكون الرجال مختلطين بالنساء، فينبغي إنكار ذلك عليهم.
ومنها: الجَلْتُ يوم الجمعة لبيع الأدوية، والأطعمة، والتعويذات، وقيام السُّؤال، وإنشادهم الأشعار، ونحو هذا. فهذه منها ما هو حرام، ومنها ما هو مكروه.

منكرات الأسواق

ومن ذلك: الكذب في المراجعة، وإخفاء العيب، فمن قال: أشرت هذه السلعة بعشرة، ورايح فيها درهماً، وكان كاذباً، فهو فاسق.
ويجب على من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه، فإن سكت مراعاة للبايع، كان شريكاً له في الخيانة. وكذلك إذا علم العيب، لزمه أن يبينه للمشتري، وكذلك التفاوت في الميزان والذراع، يجب على كل من عرفه تغييره، إما بنفسه، أو برفعه إلى الوالي حتى يغيره.
ومنها: الشروط الفاسدة، وأستعمال الربا، وبيع الملاهي، والصور المجسمة، ونحو ذلك.

منكرات الشوارع

ومن ذلك بناء دكان متصلة بالأبنية المملوكة، وإخراج الأجنحة، وغرس

(١) أي: إطالة ومطّ.

الأشجار إذا كان ذلك يؤدي إلى تضيق الطريق والإضرار بالمارة. فأما وضع الحطب والطعام في الطريق بمقدار ما ينقل إلى البيوت فجائز، فإن ذلك يشترك الكافة في الحاجة إليه.

ومن المنكرات: ربط الدواب على الطريق بحيث تضيق وتؤذي الناس، فيجب المنع عن ذلك، إلا إذا كان بمقدار الحاجة للنزول والركوب.

ومن ذلك: تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيق، وكذلك طرح الكناسه على جواد الطريق، وتبديد قشور البطيخ، أو رش الماء بحيث يخشى منه الزلق، والماء الذي يجتمع من ميزاب معين. فأما إن كان من المطر، فذلك على الولاة، وليس للأحاد في ذلك إلا الوعظ.

منكرات الحمامات

من ذلك: صور الحيوانات على باب الحمام أو داخله، ويكفي في زوال ذلك أن تشوه وجوه الصور، بحيث يبطل به تصويرها. ومن لم يقدر على الإنكار، لم يجز له الدخول إلا للضرورة، وليعدل إلى حمام آخر.

ومن ذلك: كشف العورات، والنظر إليها، وكشف المدلك عن الفخذ، وما تحت السرة، لتنحية الوسخ أو مس العورة.

ومنها: غمس اليد والأواني النجسة في المياه القليلة، فإن فعل ذلك مالكي، لم ينكر عليه، بل يتلطف به، ويقول له: يمكنك ألا تؤذيني بتفويت الطهارة علي.

منكرات الضيافة

من ذلك: فرش الحرير للرجال، والبخور في مجمرة فضة أو ذهب، والشرب فيهما، وأستعمال ماء الورد منهما، وكذلك تعليق الستور وفيها الصور، وسماع القينات والأوتار، وأطلاع النساء على الشباب الذين تخاف فتنتهم، فكل ذلك منكر يجب تغييره، ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج.

وأما الصور على النمارق والبسط، فليس بمنكر، وكذلك الفرش الحرير، والذهب للنساء، فإنه جائز، ولا رخصة في تثقيب آذان الصبية لأجل تعليق

خلق الذهب، فإن ذلك جرح مؤلم لا يجوز، وفي المخانق والأسورة كفاية عن ذلك، والاستتجار على ذلك غير صحيح، والأجرة المأخوذة عليه حرام.

ومن ذلك أن يكون في الضيافة مبتدع يتكلم في بدعته، فلا يجوز الحضور معه، إلا لمن يقدر على الرد عليه، وإن لم يتكلم المبتدع^(١) جاز الحضور مع إظهار الكراهة له والإعراض عنه، وإن كان هناك مضحك بالفحش والكذب، لم يجز الحضور، وعند الحضور يجب الإنكار، فإن كان ذلك مزحاً لا كذب فيه ولا فحش، أبيح ما يقل من ذلك^(٢)، فأما اتخاذه صناعة وعادة فيمنع منه.

المنكرات العامة

من تيقن أن في السوق منكراً يجري على الدوام، أو في وقت معين وهو قادر على تغييره، لم يجز له أن يسقط ذلك عنه بالعود في بيته، بل يلزمه الخروج، فإن قدر على تغيير البعض لزمه.

وحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه، فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلم ذلك أهله وأقاربه، ثم يتعدى إلى جيرانه وأهل محلته، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى السواد كذلك إلى أقصى العالم، فإن قام بذلك الأقرب، سقط عن الأبعد، وإلا خرج به كل قادر عليه.

الفصل الثاني: في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

وقد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف. والجائز من ذلك مع السلاطين القسمان الأولان وهما: التعريف والوعظ، فأما تخشين القول، نحو: يا ظالم، يا من لا يخاف الله، فإن كان ذلك يحرك فتنة يتعدى شرها إلى الغير، لم يجز، وإن لم يخف إلا على نفسه، فهو جائز عند جمهور العلماء، والذي أراه

(١) كلمة «المبتدع» لم ترد في النسخة الثانية والمطبوع.

(٢) في المطبوع: (ما لم يقل من ذلك) ولا يستقيم بها المعنى.

المنع عن ذلك، لأن المقصود إزالة المنكر، وحمل السلطان بالانبساط عليه على فعل المنكر أكبر من المنكر الذي قصد إزالته، وذلك أن قرب السلاطين التعظيم، فإن سمعوا من آحاد الرعية: يا ظالم، يا فاسق، رأوا غاية الذل، لم يصبروا على ذلك.

قال الإمام أحمد رحمته الله: لا تتعرضن بالسلطان، فإن سيفه مسلول. فأما ما جرى من السلف من التعرض لأمرائهم، فإنهم كانوا يهابون العلماء، فإذا أنبسطوا عليهم احتملوهم في الأغلب.

وقد جمعت مواعظ السلف للخلفاء والأمراء في كتاب «المصباح المضيء» وأنا أنتخب منه ههنا حكايات:

★ قال سعيد بن عامر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني موصيك بكلمات من جوامع الإسلام ومعالمه: إخش الله في الناس، ولا تخشى الناس في الله، ولا يخالف قولك فعلك، فإن خير القول ما صدقه الفعل، وأحب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحب لنفسك وأهل بيتك، وخض الغمرات إلى الحق حيث علمته، ولا تخف في الله لومة لائم. قال: ومن يستطيع ذلك يا أبا سعيد^(١)؟

قال: من ركب في عنقه مثل الذي ركب في عنقك.

★ وقال قتادة: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المسجد ومعه الجارود، فإذا امرأة بَزْرة^(٢) على ظهر الطريق، فسلم عليها، فردت عليه، أو سلمت عليه، فرد عليها، فقالت: هيه يا عمر، عهدتك وأنت تُسمى عميراً في سوق عكاظ تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سُميتَ عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين، فأتق الله في الرعية، وأعلم أنه من خاف الموت خشي القوت، فبكى عمر رضي الله عنه، فقال الجارود: هيه، لقد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته.

(١) كذا الأصول مع إنه في أول الخبر سمي سعيداً، ولم أهتد إلى الترجيح.

(٢) هي المرأة المسنة الكبيرة، ويسمح لها بما لا يجوز للشابة.

فقال عمر: دعها، أما تعرف هذه؟ هي خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من فوق سماواته، فعمر والله أحرى أن يسمع كلامها.

★ ودخل شيخ من الأزد على معاوية رضي الله عنه، فقال: اتق الله يا معاوية، وأعلم أن كل يوم يخرج عنك، وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزدد من الدنيا إلا بُعداً، ومن الآخرة إلا قرباً، وعلى إثرك طالب لا تفوته، وقد نُصِب لك عِلْم لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم، وما أوشك أن يلحقك الطالب، وإنا وما نحن فيه وأنت: زائل، والذي نحن صائرون إليه: باقٍ، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

★ ودخل سليمان بن عبد الملك المدينة، فأقام بها ثلاثاً، فقال: أما ههنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ يحدثنا؟

فقال له: ههنا رجل يقال له: أبو حازم، فبعث إليه، فجاء.

فقال سليمان: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟ فقال له أبو حازم: وأيّ جفاء رأيت مني؟ فقال له: أتاني وجوه المدينة كلهم ولم تأتني؟! فقال: ما جرى بيني وبينك معرفة أتيتك عليها. قال: صدق الشيخ، يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب. قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الله تعالى؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله فرحاً مسروراً، وأما المسيء فكالأبق يقدم على مولاه خائفاً محزوناً.

فبكى سليمان وقال: ليت شعري، ما لنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال أبو حازم: اعرض نفسك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله.

قال: يا أبا حازم، وأني أصيب تلك المعرفة من كتاب الله؟

قال: عند قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الأنفطار].

قال: يا أبا حازم، فأين رحمة الله؟ قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال: يا أبا حازم، من أعقل الناس؟

قال: من تعلم الحكمة وعلمها الناس.

قال: فمن أحقق الناس؟ قال: من حط نفسه في هوى رجل وهو ظالم، فباع آخرته بدنياه غيره.

قال: يا أبا حازم، فما أسمع الدعاء؟ قال: دعاء المُخْبِتِينَ.

قال: فما أزكى الصدقة؟ قال: جهد المُقِلِّ.

قال: يا أبا حازم، ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: اعفني من هذا.

قال سليمان: نصيحة تلقيها. قال أبو حازم: إن ناساً أخذوا هذا الأمر عنوة من غير مشاورة المسلمين، ولا إجماع من رأيهم، فسفكوا فيه الدماء على طلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنها، فليت شعري، ما قالوا؟ وما قيل لهم؟ فقال بعض جلسائه: بش ما قلت يا شيخ، فقال أبو حازم: كذبت، إن الله أخذ ميثاق العلماء لِيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ.

قال سليمان: يا أبا حازم، أصبحنا تصيب منا ونصيب منك. قال: أعوذ بالله من ذلك. قال: ولم؟ قال: أخاف أن أركن إليكم شيئاً قليلاً، فيذيقني ﴿ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥].

قال: فَأَشِيرْ عَلَيَّ. قال: اتق الله أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك. قال: يا أبا حازم، أدع لنا بخير. فقال: اللهم إن كان سليمان وَلِيَّكَ فَيَسِّرْهُ للخير، وإن كان غير ذلك، فخذ إلى الخير بناصيته.

فقال: يا غلام، هات مئة دينار، ثم قال: خذ هذا يا أبا حازم. قال: لا حاجة لي به، لي ولغيري في هذا المال أسوة، فإن واسيت بيننا؛ . . . ، وإلا؛ فلا حاجة لي فيها، إني أخاف أن يكون لما سمعت من كلامي.

فكان سليمان أعجب بأبي حازم، فقال الزُّهري: إنه لجاري منذ ثلاثين سنة، ما كلمته قط، فقال أبو حازم: إنك نسيت الله فنسيتني. قال الزهري: أتشتمني؟ قال سليمان: بل أنت شتمت نفسك، أما علمت أن للجار على الجار حقاً؟

قال أبو حازم: إن بني إسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء، وكانت العلماء تفرُّ بدینها منهم، فلما رأى ذلك قوم من أذلة

الناس تعلموا ذلك العلم، وَأَتَوَّاهُ به الأمراء، وأجتمع القوم على المعصية، فسقطوا وأنتكسوا، ولو كان العلماء يصونون دينهم وعلمهم، لم تزل الأمراء تهابهم.

قال الزهري: كأنك إياي تريد وبني تعرض؟ قال: هو ما تسمع.

★ وحكي أن أعرابياً دخل على سليمان بن عبد الملك رحمته الله، فقال:

يا أمير المؤمنين، إني مكلمك بكلام، فأحتمله، وإن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته.

قال: قل. قال: يا أمير المؤمنين، إنه قد أكتنفك رجالٌ أبتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوه فيك، خربوا الآخرة وعمروا الدنيا، فهم حرب للآخرة، سلّم للدنيا، فلا تأمنهم على ما أئتمنك الله عليه، فإنهم لم يألو الأمانة تضييعاً والأمة خسفاً، وأنت مسؤول عما أجترحوا، وليسوا بمسؤولين عما أجترحت، فلا تُضليخ دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس عُبناً بائع آخرته بدنيا غيره.

فقال سليمان: أما أنت فقد سللت لسانك، وهو أقطع من سيفك.

فقال: أجل يا أمير المؤمنين، لك لا عليك.

قال: فهل من حاجة في ذات نفسك؟ قال: أما خاصّة دون عامة فلا. ثم قام فخرج.

فقال سليمان: لله دَرُهُ ما أشرف أصله، وأجمع قلبه، وأذرب لسانه، وأصدق نيته، وأورع نفسه، هكذا فليكن الشرف والعقل.

★ وقيل: قال عمر بن عبد العزيز رحمته الله لأبي حازم: عظمي.

فقال: اضطجع ثم أجعل الموت عند رأسك، ثم أنظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة، فخذ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن.

★ وقال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق، منها خرج الناس بما يضرهم وما ينفعهم، وكم من قوم

غرم منها مثل الذي أصبحنا فيه، حتى أتاها الموت فاستوعبهم فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عدّة، ولا لما كرهوا منها جنة، وأقتسم ما جمعوا من لم يَحْمِذْهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم، فنحن محقّقون يا أمير المؤمنين أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نغبطهم بها فنخلفهم فيها، وإلى الأعمال التي نتخوف عليهم فيها فنكف عنها، فأتق الله، وأفتح الأبواب، وسهل الحجاب، وأنصر المظلوم، ورد المظالم. ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ﷻ: إذا رضي لم يُدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يُخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

★ ودخل عطاء بن أبي رباح على هشام، فرحب به وقال: ما حاجتك يا أبا محمد؟ وكان عنده أشراف الناس يتحدثون، فسكتوا، فذكره عطاء بأرزاق أهل الحرمين وأعطياتهم. فقال: نعم، يا غلام أكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاء أرزاقهم، ثم قال: يا أبا محمد هل من حاجة غيرها؟ فقال: نعم، فذكره بأهل الحجاز، وأهل نجد، وأهل الثغور، ففعل مثل ذلك، حتى ذكره بأهل الذمة ألا يكلفوا ما لا يطيقون، فأجابه إلى ذلك، ثم قال له في آخر ذلك: هل من حاجة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أتق الله في نفسك، فإنك خلقت وحدك وتموت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك، لا والله ما معك، ممن ترى أحد.

قال: فأكب هشام يبيكي، وقام عطاء. فلما كان عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس ما ندري ما فيه، أدرهم أم دنانير؟ وقال: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بهذا. فقال: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠. هود: ٥١. الشورى ٢٣] ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠]، ثم خرج ولا والله ما شرب عندهم حسوة ماء فما فوقها.

★ وعن محمد بن علي قال: إني لحاضر مجلس المنصور، وفيه ابن أبي ذئب، وكان والي المدينة الحسن بن زيد، فأتى الغفاريون، فشكّوا إلى أبي جعفر المنصور شيئاً من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين، سل عنهم ابن أبي ذئب، قال: فسأله عنهم، فقال: أشهد أنهم أهل الحطم في

أعراض الناس، فقال أبو جعفر: سمعتم؟ فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين، فسله عن الحسن بن زيد. فسأله، فقال: أشهد أنه يحكم بغير الحق. فقال: قد سمعت يا حسن. قال: يا أمير المؤمنين، سله عن نفسك. فقال: ما تقول في؟ قال: أَوْ يُغْفِينِي أمير المؤمنين؟ فقال: والله لَتُخْبِرَنِي. فقال: أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه، وجعلته في غير أهله. فوضع يده في قفا ابن أبي ذئب، وجعل يقول له: أما والله لولا أنا لَأَخَذْتُ أبناء فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك. فقال ابن أبي ذئب: قد ولي أبو بكر وعمر، فأخذوا بالحق وقسما بالسوية، وأخذوا بأقفاء فارس والروم. فخلاه أبو جعفر، وقال: والله لولا أنني أعلم أنك صادق لقتلتك. فقال: والله يا أمير المؤمنين إني أنصح لك من أبلك المهدي.

★ وعن الأوزاعي رحمته الله قال: بعث إلي المنصور وأنا بالساحل فأتيته، فلما وصلت إليه وسلمت عليه، أستجلسني، ثم قال: ما الذي أبطأ بك يا أوزاعي؟ قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقْتباس منكم.

قلت: فأنظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئاً ثم لا تعمل به، فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف، فأنتهره المنصور وقال: هذا مجلس مَثُوبَةٌ لا مجلس عقوبة، فطابت نفسي وأنسَطْتُ في الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عطية بن بُسر قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا وَال مَاتَ غَاشًّا لِرَعِيَّتِهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(١)، يا أمير المؤمنين، كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم، أحمرهم،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مواظب الخلفاء» وأبو نعيم في «الحلية» ١٣٦/٦ وفيه أحمد بن عبيد بن ناصح. قال ابن عدي: يحدث بمناكير، وهو عندي من أهل الصدق. وروى معناه من حديث معقل بن يسار كل من: البخاري (٧١٥٠) و (٧١٥١)، ومسلم (١٤٢)، وهو في «صحيح الجامع» (٢٧١٣)، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٧٥٧).

وأسودهم، ومسلمهم، وكافرهم، وكُلُّ له عليك نصيبٌ من العدل، فكيف بك إذا أنبعث منهم فِئامٌ وراء فِئام^(١)، ليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه، أو ظُلامة سقتها إليه، يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن زياد بن جارية، عن حبيب بن مَسْلَمَة، أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه - في خَدَشٍ خَدَشَه - أعرابياً لم يتعمده، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، إن الله تعالى لم يبعثك جباراً ولا متكبراً، فدعا عليه الصلاة والسلام الأعرابي، فقال: «اقتص مني»^(٢). فقال الأعرابي: قد أخللتك، بأبي أنت وأمي، وما كنت لأفعل ذلك أبداً، ولو أتيت على نفسي، فدعا له بخير. يا أمير المؤمنين، رضُ نفسك لنفسك، وخذ لها الأمانَ من ربك.

يا أمير المؤمنين، إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك، وكذلك لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك.

يا أمير المؤمنين، جاء في تأويل هذه الآية عن جدك^(٣): ﴿مَالِ هَذَا الْكَتَبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. قال: الصغيرة: التبسم. والكبيرة: الضحك، فكيف بما عملته الأيدي، وحصدته الألسن.

يا أمير المؤمنين، بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لو ماتت سَخْلة على شاطئ الفرات ضئيلة، لخشيت أن أسأل عنها، فكيف بمن حُرِمَ عدلك وهو على بساطك؟

يا أمير المؤمنين، جاء في تأويل هذه الآية عن جدك^(٤): ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦]. قال: إذا قعد الخصمان بين يديك، وكان لك أحدهما هوى، فلا تَتَمَنَّيَنَّ في

(١) الفئام: الجماعة الكثيرة من الناس.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «مواظب الخلفاء» وفيه ما في الذي قبله. لكن في «ضعيف سنن أبي داود» (٤٥٣٧/٩٨٠)، و«ضعيف سنن النسائي» (٣٣٠)، وأحمد (١/

٤٨) (٢٨٦) عن عمر أن رسول الله ﷺ اقتص من نفسه.

(٣) و(٤) يقصد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

نفسك أن يكون الحق له فَيَقْلَحَ على صاحبه، فأمحوك من نبوتي، ثم لا تكون خليفتي، يا داود: إنما جعلت رسلي إلى عبادي رعاء كرعاء الإبل لعلمهم بالرعاية، ورفقهم بالسياسة، ليَجْبِرُوا الكسر، ويدلّوا الهزيل على الكلال والماء.

يا أمير المؤمنين، إنك قد بُليت بأمر لو عُرض على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحمله وأشفق منه.

يا أمير المؤمنين: حدثني يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَسْتَعْمَلَ رجلاً من الأنصار على الصدقة، فرآه بعد أيام مقيماً، فقال له: ما منعك من الخروج إلى عملك؟ أما علمت أن لك أجر المجاهدين في سبيل الله؟ قال: لا. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من وال يلي شيئاً من أمور الناس، إلا أتى يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه، يُوقَفُ على جسر جهنم، ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه، ثم يعاد فيحاسب، فإن كان محسناً نجاً بإحسانه، وإن كان مسيئاً أُنْخِرَقَ به ذلك الجسر فهو في النار سبعين خريفاً»^(١). فقال له: ممن سمعت هذا؟ فقال: من أبي ذر وسلمان رضي الله عنهما، فأرسل إليهما عمر فسألهما. فقالا: نعم، سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمر: وَاعْمَرَاهُ من يتولاها^(٢) بما فيها؟ فقال أبو ذر رضي الله عنه: من سَلَّتْ^(٣) الله أنفه، وألصق خده بالأرض. فأخذ المنديل - يعني المنصور - فوضعه على وجهه ثم بكى وأنتحب حتى أبكاني، ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قد سأل جدك العباس رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة على مكة أو الطائف أو اليمن، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:

(١) فيه ما في الذي قبله. لكن معنى الحديث في «مجمع الزوائد» ٥/ ٢٠٥. وينظر

«صحيح الجامع» (٥٦٩٥-٥٦٩٧ و ٥٧١٨).

(٢) أي الإمارة والولاية بسبب ما فيها من الخطر.

(٣) سلت أنفه: أجدعه.

«يا عم، نفس تنجيها خير من إماراة لا تحصيها»^(١) نصيحة منه لعمه وشفقة منه عليه، وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئاً إذ أوحى إليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء]. فقال:

«يا عباس، ويا صفية، ويا فاطمة، إني لست أغني عنكم من الله شيئاً، لي عملي ولكم عملكم»^(٢). وقد قال عمر بن الخطاب: لا يقيم أمر الناس إلا حصيفُ العقل، لا تأخذه في الله لومة لائم، وذكر تمام كلامه للمنصور، ثم قال: فهي نصيحة، والسلام عليك. ثم نهض، فقال: إلى أين؟ فقال: إلى الوطن بإذن أمير المؤمنين. فقال: أذنت لك، وشكرت لك نصيحتك، وقبيلتها بقبولها، والله الموفق للخير، والمعين عليه، وبه أستعين، وعليه أتوكل، وهو حسبي ونعم الوكيل، فلا تُخلني من مطالعتك إياي بمثلها، فإنك المقبول القول غير المتهم في النصيحة.

قلت: أفعَل إن شاء الله. فأمر له بـمال يستعين به على خروجه، فلم يقبله، وقال: أنا في غنى عنه، وما كنت لأبيع نصيحتي بـعَرَضِ الدنيا كلها. وعرف المنصور مذهبه فلم يجذ عليه في ردّه.

★ ولما حج الرشيد قيل له: يا أمير المؤمنين، قد حج شيبان. قال: أطلبوه لي، فأتوه به، فقال: يا شيبان، عِظني، قال: يا أمير المؤمنين، أنا رجل أَلَكُنْ، لا أفصح بالعربية، فجئني بمن يفهم كلامي حتى أكلمه. فأتي برجل يفهم كلامه، فقال له بالنبطية: قل له: يا أمير المؤمنين، إن الذي يخوفك قبل أن تبلغ المأمَن، أنصح لك من الذي يُؤمّنك قبل أن تبلغ الخوف، قال له: أي شيء تفسير هذا؟

(١) فيه ما في الذي قبله وأخرجه هكذا معضلاً بغير إسناد، ورواه البيهقي من مرسل ابن المنكدر.

(٢) أخرجه هكذا معضلاً بغير إسناد، ورواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦)، والترمذي [«صحيحه» (٣١٨٥/٢٥٤٦)]، والنسائي [«صحيحه» (٣٤٠٧) و (٣٤٠٨)] من حديث أبي هريرة متصلاً دون قوله: «لي عملي ولكم عملكم». وهو في «صحيح الجامع» (٧٩٨٢ و ٧٩٨٣).

قال: قل له: الذي يقول لك: اتق الله فإنك رجل مسؤول عن هذه الأمة، أسترعاك الله عليها، وقلدك أمورها، وأنت مسؤول عنها، فأعذل في الرعية، وأقسم بالسوية، وأنفذ في السرية، وأتق الله في نفسك، هذا الذي يخوفك، فإذا بلغت المأمن أمئت، هذا أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم^(١)، وأنتم قرابة نبيكم وفي شفاعته، فلا يزال يؤمنك حتى إذا بلغت الخوف عطبت، قال: فبكى هارون حتى رحمه من حوله، ثم قال: زدني، قال: حسبك.

★ وعن علقمة بن مَرْزَدٍ، قال: لما قدم عمر بن هُبَيْرَةَ العراق، أرسل إلى الحسن وإلى الشَّعْبِيِّ، فأمر لهما ببيت، فكانا فيه نحواً من شهر، ثم دخل عليهما وجلس مُعْظِماً لهما، فقال: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إليّ كتاباً، أعرف أن في إنفاذها الهلكة، فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله، فهل تريان في متابعتي إياه فرجاً؟ فقال الحسن: يا أبا عمرو، أجب الأمير، فتكلم الشعبي، فأنحط في أمر ابن هبيرة، كأنه عذره، فقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ قال: أقول: يا عمر بن هبيرة، يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك. يا عمر بن هبيرة، إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولن يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله تعالى، يا عمر بن هبيرة، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، فيغلق به باب المغفرة دونك، يا عمر بن هبيرة، لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة، كانوا عن الدنيا وهي مقبلة عليهم أشد إداراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة عنكم، يا عمر بن هبيرة، إني أخوفك مقاماً خوفاً الله تعالى فقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [١٤] [إبراهيم]. يا عمر بن هبيرة، إن تك

(١) هذا الفهم لقرابة رسول الله ﷺ لا يوافق الكتاب ولا السنة المطهرة. والله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ﴿وَأَنْ لِّئَلَّا تُؤْخَذَ بِمَا لَأَيْسَرَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [٣٩] والرسول ﷺ يقول: «لا أغني عنكم من الله شيئاً».

مع الله في طاعته، كفاك يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله وكلّك الله إليه، فبكى عمر بن هبيرة وقام بعبرته .
فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما -، وأكثر فيها للحسن، وكان في جائزة الشعبي بعض الإقتار، فخرج الشعبي إلى المسجد، فقال: أيها الناس، من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه، فليفعل، فالذي نفسي بيده، ما علم الحسن شيئاً منه فجهلته، ولكني أردت وجه ابن هبيرة، فأقصاني الله منه .

★ ودخل محمد بن واسع رحمته الله على بلال بن أبي بردة في يوم حارّ وبلال في خيشة^(١)، وعنده الثلج، فقال له: يا أبا عبدالله، كيف ترى بيتنا هذا؟ قال: إن بيتك لطيب، والجنة أطيب منه، وذكّر النار يلهي عنه .
قال: ما تقول في القدر؟

قال: جيرانك أهل القبور، ففكر فيهم، فإن فيهم شغلاً عن القدر . قال: أدع الله لي . قال: وما تصنع بدعائي؟ وعلى بابك كذا وكذا يقولون: إنك ظلمتهم، يرفع دعاؤهم قبل دعائي، لا تظلم، فلا تحتاج لدعائي .



- فهذا مختصر من أخبار من وعظ الأمراء، فمن أراد الزيادة، فلينظر في «المصباح المضيء» .

وهذه كانت سير العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوات السلاطين إيثاراً لإقامة حق الله تعالى على تقاتهم^(٢)، إلا أن السلاطين كانوا يعرفون حق العلم وفضله، فيصبرون على مضض مواظب هؤلاء .
والذي أراه الآن، الهرب من السلاطين، فهو الأولى، فإن قدر لقاء، أقتنع بلطف الموعظة فحسب .

(١) في النسخة الثانية والمطبوع: «جيشه» ولعلها نوع من الخيام أو الدور .

(٢) أي يؤثرون حق الله تعالى بالنصح مع خوف البطش على ما يمكنهم من التقية والسلامة .

ولذلك سبيان :

أحدهما : يتعلق بالواعظ ، وهو سوء قصده وميله إلى الدنيا والرياء ، فلا يخلص له وعظه .

والثاني : يتعلق بالموعوظ ، فإن حب الدنيا قد شغل الأكثرين عن ذكر الآخرة ، وتعظيمهم الدنيا أنساهم تعظيم العلماء ، وليس المؤمن أن يذل نفسه .
آخر كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذكر المصنّف قبل ذلك كتاباً في السَّماعِ والوَجِدِ ، فلنذكر شيئاً منه ههنا مختصراً .

[كتاب : آداب

فصل في حكم السماع

السماع والوجد]

أعلم أن السماع - الذي نعني به الغناء - من أكبر ما تطرق به إبليس إلى فساد القلوب ، وغرّ به خلقاً لا يُحصون من العلماء والزهاد ، فضلاً عن العوام ، حتى أدعوا حضور القلب مع الله عند سماع الأغاني المطربة ، وظنوا أن ما أوجبه السماع من طرب القلوب وأنزعاجها ، وَجَدٌ يتعلق بالآخرة .

وإذا أردت أن تعرف الحق ، فأنظر في القرن الأول ، هل فعل رسول الله ﷺ شيئاً من ذلك أو أصحابه ، ثم أنظر إلى أقوال التابعين وتابعيهم ، وفقهاء الأمة ، كمالك ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، وأحمد رحمهم الله ، فكل القوم ذموا الغناء ، حتى قال مالك : إذا اشتري جارية ، فوجدها مغنية ، كان له ردها ، وسئل عن الغناء ، قال : إنما يفعلها الفُسّاق^(١) .

وسئل الإمام أحمد عن رجل مات وخلف ولداً وجارية مغنية ، فأحتاج الصبي إلى بيعها ، فقال : تباع على أنها ساذجة لا مغنية ، فقليل له : إنها تساوي ثلاثين ألفاً إذا كانت مغنية ، وإذا بيعت ساذجة ربما ساوت عشرين ديناراً . فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة .

(١) بل أشد فسقاً المبتدعة من أدياء الدين الذين زعموا أنهم من أتباع الشيخ أحمد الرفاعي - وهو بريء منهم - فتقام لهم الاحتفالات بكل مناسبة دينية وغير دينية ، ويضرب فيها الدفوف والأوتار ومختلف الأدوات الموسيقية . وإنني أدعو الله لهم بالتوبة والرجوع إلى دين الله .

وقد أطبق الفقهاء على الزجر عن الغناء . ومن المتأخرين أبو الطَّيِّب الطَّبْرِيُّ من كبار أصحاب الشافعي، وصنف كتاباً، وبالغ في النهي عنه .
 وإنما تعلق بإباحته قوم مفتونون، قالوا: قد أجازه قوم من السلف، وقد سمع أحمد بن حنبل قول قَوَّال، فقال: لا بأس بهذا .
 فينبغي أن يتأمل الذي أفتى بجوازه ما هو، وليس إلا الأشعار الزُّهْدية وما يشبهها، من غير ضَرْبٍ بقضييِّ، أو آلة تُطْرَبُ، ولا ضم إلى ذلك تصفيق ولا رقص .

وعلى هذا يحمل حديث عائشة^(١) في الجاريتين المغنيتين لما عَنَّتَا بما تقاولته الأنصار يوم بُعث فإن ذلك لا يطرب .

ومعلوم أنه لم يكن للأوائل ما أحدثه الأواخر من الدف والصَّنَج والشَّبَّابة والشَّعر الرقيق، فإن هذه الأشياء تثير دفائن الهوى الكامنة في النفوس وتزعج، فيحسب الجاهل هذا الانزعاج مُعْلَقاً بالآخرة، وهيهات .

وليتهم قالوا: إن هذا مباح من اللهو فنستريح إليه، وإنما يظنونونه قربة ويسمون الطرب المخرِج عن حد العقل وَجْداً، وربما أوجد الطرب ما لا يحل، من تمزيق الثياب، والتخبط، وكل هذا بِمَغْزِلٍ عن طريق السلف، وغير خافٍ أنه ضلال عن الجادة، فلا ينبغي للإنسان أن يغالط نفسه، وإنما الِوَجْدُ الصحيح وجد القلب عند سماع القرآن والوعظ، فحينئذ يثور من الباطن خوف من الوعيد، وشوق من الوعد، وندم على التفریط، وجميع هذه الحركات الباطنة توجب سكون الظاهر، لا الجَمَزَ والتصفيق، ولم يَصُقْ علينا القرآن والوعظ وأشعار الزهد، حتى نحتاج في إحضار القلوب إلى باب الله تعالى أن نذكر سلمى وسُعدى . ولا ننكر أنه قد يتفق في بعض تلك الأشعار ما يصح أن يوجد إشارة، إلا أن الأغلب منها إمالة القلوب إلى الهوى الدنيوي .

ومثل من أراد أن يأخذ منها للآخرة، كمثّل من قال: أنا أنظر إلى الأمر

(١) رواه البخاري (٩٨٧-٩٨٨)، ومسلم (٨٩٢) . وسيأتي قسم آخر من الحديث في الصفحة (٢١١) حاشية (٥) .

المستحسن لأتعجب من صنعة القادر، فإنه قد أخطأ الطريق، لأن ما تَسْتَلِبُهُ الشهوة والطبع عند النظر يُكَدِّر طريق الفكر ويشغل عنه، فلذلك نمنعه ونقول: انظر إلى ما لا مكدر فيه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّتْهَا وَرَزَّيْنَهَا﴾ [ق: ٦] ومن قال: إنه لا يؤثر عندي ما يؤثر عند غيري من أنجذاب الطبع إلى الهوى، كان مدعياً ما يخالف الجبلة، فلا يُلْتَفَتُ إلى دعواه، وقد بالغت في الكشف عن هذا كله في كتابي المُسَمَّى: بـ «تلبس إبليس» فلم أر التطويل ههنا، والله أعلم.

باب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

أعلم أن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتائج الأخلاق، والآداب رَشْحُ المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتُحَلِّيها.

ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه، ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية، لم يَقْضَ على ظاهره جمال الآداب النبوية.

وقد أسلفنا جملة من الآداب بما يغني عن إعادتها ههنا، لكن نقصر في هذا الباب على شيء من آداب رسول الله ﷺ وأخلاقه لنجمع مع جمع الآداب تأكيد الإيمان بمشاهدة أخلاقه الكريمة التي يشهد آحادها بأنه أكرم الخلق وأعلاهم مرتبة وأجلهم قدراً، فكيف بمجموعها؟

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه^(١)، ولما كمل الله تعالى خُلُقَهُ أثنى عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم] فسبحان من أعطى ثم أثنى. وهذه جملة من محاسن أخلاقه ﷺ، وصفته^(٢):

(١) أخرجه أحمد (٢٤٥٩٢)، وكذا مسلم (٧٤٦). وهو في «صحيح الجامع» (٤٨١١).

(٢) تنظر شمائله ﷺ في «مختصر شمائل الترمذي» للألباني.

كان رسول الله ﷺ أحلم الناس، وأسخى الناس، وأعطف الناس.
 وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله.
 وكان أشد حياء من العذراء في خذرها.
 وكان يجيب دعوة المملوك، ويعود المرضى، ويمشي وحده، ويُزِدِف خلفه، ويقبل الهدية، ويأكلها، ويكافئ عليها، ولا يأكل الصدقة، ولا يجد من الدَّقْل^(١) ما يملأ بطنه، ولم يشع من خبز بُرِّ ثلاثة أيام تباعاً.
 وكان يَغْصِب على بطنه الحجر من الجوع^(٢).
 وكان يأكل ما حضر، وما عاب طعاماً قط.
 وكان لا يأكل متكئاً، ويأكل مما يليه.
 وكان أحب الطعام إليه اللحم، ومن الشاة الكتف، ومن البقول الدُّبَّاء، ومن الصُّبْغ الخَلْ، ومن التمر العجوة.
 وكان يلبس ما وجد، مرة بُرْدَ حَبْرَة، ومرة جبة صوف.
 ويركب تارة بعيراً، وتارة بغلة، وتارة حماراً، ويمشي مرة راجلاً حافياً.
 وكان يحب الطَّيِّب، ويكره الريح الخبيثة.
 ويكرم أهل الفضل، ويتألف أهل الشرف، لا يجفو على أحد، ويقبل معذرة المعتذر إليه، يمزح ولا يقول إلا حقاً، يضحك من غير قهقهة، لا يمضي عليه وقت في غير عمل لله تعالى، أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه.
 وما لعن امرأة ولا خادماً قط، وما ضرب أحداً بيده قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله.
 وما خُيِّر بين شيئين إلا اختار أيسرهما، إلا أن يكون مَأْثِماً أو قطيعة رحم، فيكون أبعد الناس منه.

(١) الدقل: أردأ التمر.

(٢) صحيح، سيأتي تخريجه صفحة (٢٤١) الحاشية (٢).

وقال أنس رضي الله عنه: خدمته عشر سنين، فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟

ومن صفته في التوراة: محمد رسول الله، عبدي المختار، ليس بَقَطُّ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يُخْزِي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

وكان من خُلُقِه أنه يبدأ بالسلام مَنْ لقيه، ومن فارقه بحاجة صابِرَه حتى يكون هو المنصرف، وما أَخَذَ أَحَدٌ يده فأرسل يده حتى يرسلها الآخذ.

وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس مختلطاً بأصحابه كأنه أحدهم، فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل عنه.

وكان طويل السكوت، فإذا تكلم لم يَسْرُدْ كلامه، بل يتثبت به ويكرره لِيُفْهَم.

وكان يعفو مع القدرة، ولا يواجه أحداً بما يكره.

وكان أصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذِمَّةً، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، ومن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، وكان أصحابه إذا تكلموا في أمر الدنيا تحدث معهم، وكانوا يتذكرون أمر الجاهلية فيتضحكون ويتسم.

وكان أشجع الناس. قال بعض الصحابة: كنّا إذا أَخْمَرَتِ الْحَدَقُ، وَأَشْتَدَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير، كان رُبْعَة من القوم.

وكان أزهر اللون ولم يكن بالآدم.

وكان رَجُلَ الشَّعْر، ليس بالسَّنْبُط ولا الجَعْد القَطِيط، وكان شعره إلى شحمة أذنه.

وكان واسع الجبهة، أَرْجَّ الحواجب، أَدْعَج العينين، أهدب الأشفار، أَقْنَى العِزْنين، سهل الخدين، كَثَّ اللحية، كَانَ عُنُقُه جَيِّدُ دُمِيَّة، عريض الصدر، سواء البطن والصدر، رحب الراحة، طويل الزندين، كفه ألين من الحرير ﷺ.

وأما معجزاته ﷺ: فإن من شاهد أحواله، وسمع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وآدابه وبدائع تدبيره لمصالح الخلق ومحاسن إشارته في تفصيل ظاهر الشرع الذي تعجز العقلاء والفصحاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم، لم يبق عنده رَيْبٌ في أن ذلك لم يكن مُكْتَسَباً بِحِيلَةٍ^(١)، وأنه لا يُتَصَوَّرُ ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوي وقوة إلهية، وأن ذلك لا يَصِحُّ لملبس ولا كذاب، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه.

ومن أعظم معجزاته^(٢)، وأوضح دلالاته القرآن العزيز الذي عَجَزَ الخلائق عن الإتيان بمثله، ومُعْجَزُ كل نبيٍّ أنقضى بذهابه، وهذا المعجز باق أبداً.

ومن معجزاته أنشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وإطعامه الخلق الكثير من الطعام اليسير، ورَمْيُهُ بِحَصَيَّاتٍ يسيرة فوصلت إلى أعين الخلق الكثير، وحنين الجذع إليه كما تحنّ العِشَارُ، وإخباره بالغائبات فكانت كما قال، وردَّ عين قتادة بيده فكانت أحسن عينيه، وتفل في عين علي عليه السلام وهو أرمَدُ فَصَحَّ من وقته.

إلى غير ذلك من المعجزات التي شاعت ولم يوجد سبيل إلى كتمانها، نسأل الله أن يوفقنا للاقتداء بأخلاقه وصفاته، إنه كريم مجيب، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام. الصفات: ١٨٢].

(١) في النسخة الثانية والمطبوع «بجيلة» ولها وجه.

(٢) انظر كتاب «المعجزات المحمدية» تأليف وليد الأعظمي - طبع المكتب الإسلامي.

رُبْعُ الْمُهْلِكَاتِ

١٤ - كِتَابُ شَرْحِ بَحَائِبِ الْقُلُوبِ

أَعْلَمُ أَنَّ أَشْرَفَ مَا فِي الْإِنْسَانِ قَلْبُهُ، فَإِنَّهُ الْعَالَمُ بِاللَّهِ، الْعَامِلُ لَهُ، السَّاعِي إِلَيْهِ، الْمُقَرَّبُ الْمَكَاشِفِ بِمَا عِنْدَهُ، وَإِنَّمَا الْجَوَارِحُ أَتْبَاعُ وَخُدَّامُ لَهُ يَسْتَعْمِدُونَهَا أَسْتَعْدَادَ الْمُلُوكِ لِلْعَبِيدِ.

وَمَنْ عَرَفَ قَلْبَهُ عَرَفَ رَبَّهُ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ جَاهِلُونَ بِقُلُوبِهِمْ وَنَفُوسِهِمْ، ﴿وَاللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ بِيتِ الْآمْرِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] وَحِيلُولُهُ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَمِرَاقَبَتِهِ، فَمَعْرِفَةُ الْقَلْبِ وَصِفَاتُهُ أَصْلُ الدِّينِ، وَأَسَاسُ طَرِيقِ السَّالِكِينَ.

فصل

أَعْلَمُ أَنَّ الْقَلْبَ بِأَصْلِ فِطْرَتِهِ قَابِلٌ لِلْهُدَى، وَبِمَا وَضَعَ فِيهِ مِنَ الشَّهْوَةِ وَالْهَوَى، مَائِلٌ عَنْ ذَلِكَ، وَالتَّطَارُدُ فِيهِ بَيْنَ جُنْدِي الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ دَائِمٌ، إِلَى أَنْ يَنْفَتِحَ الْقَلْبُ لِأَحَدِهِمَا، فَيَتِمَّ كُنْ، وَيَسْتَوْتُنْ، وَيَكُونُ أَجْتِيَازُ^(١) الثَّانِي أَخْتِلَاسًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنََّاسِ﴾ [النَّاسِ] وَهُوَ الَّذِي إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ خَنَسَ، وَإِذَا وَقَعَتِ الْعَفْئَةُ أَنْبَسَتْ، وَلَا يَطْرُدُ جُنْدُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْقَلْبِ إِلَّا ذَكَرُ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ لَا قَرَارَ لَهُ مَعَ الذِّكْرِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ مِثْلَ الْقَلْبِ كَمِثْلِ حِصْنٍ، وَالشَّيْطَانُ عَدُوٌّ يُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ الْحِصْنَ، وَيَمْلِكُهُ، وَيَسْتَوْلِي عَلَيْهِ، وَلَا يُمْكِنُ حِفْظُ الْحِصْنِ إِلَّا بِحِرَاسَةِ أَبْوَابِهِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى حِرَاسَةِ أَبْوَابِهِ مَنْ لَا يَعْرِفُهَا، وَلَا يُتَوَصَّلُ إِلَى دَفْعِ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ مَدَاحِلِهِ، وَمَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ وَأَبْوَابِهِ: صِفَاتُ الْعَبْدِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ، إِلَّا أَنَّا نَشِيرُ إِلَى الْأَبْوَابِ الْعَظِيمَةِ الْجَارِيَةِ مَجْرَى الدُّرُوبِ الَّتِي لَا تَضِيقُ عَنْ كَثَرَةِ جُنُودِ الشَّيْطَانِ.

(١) فِي النِّسْخَةِ الثَّانِيَةِ وَالْمَطْبُوعِ: «اخْتِيَارٌ» وَلَهَا وَجْهٌ.

فمن أبوابه العظيمة: الحسد، والحرص، فمتى كان العبد حريصاً على شيء، أغماه حِرْصُه وأَصَمَّهُ، وَغَطَّى نور بصيرته التي يَعْرِف بها مداخلَ الشيطان.

وكذلك إذا كان حسوداً، فيجد الشيطان حينئذٍ الفرصة، فَيُحَسِّنُ عند الحريص كُلَّ ما يُؤْصِلُه إلى شهوته، وإن كان منكراً أو فاحشاً.

ومن أبوابه العظيمة: الغَضَب، والشهوة، والحِدة، فإن الغضب غَوْلُ العقل، وإذا ضَعُفَ جُنْدُ العقل هجم حينئذٍ الشيطانُ فلعب بالإنسان.

وقد روي أن إبليس يقول: إذا كان العبد حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة.

ومن أبوابه: حُبُّ التزيين في المنزل والثياب والأثاث، فلا يزال يدعو إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها، والتزيين بالثياب، والأثاث، فيخسر الإنسان طول عمره في ذلك.

ومن أبوابه: الشَّبَعُ، فإن يُقَوِّي الشهوة، ويشغل عن الطاعة.

ومنها: الطمع في الناس، فإن مَنْ طَمِعَ في شخص، بالغ بالشئ عليه بما ليس فيه، وداهنهُ، ولم يأمره بالمعروف، ولم يَنْهَهُ عن المنكر.

ومن أبوابه: العَجَلَة، وترك التَّثَبُّت.

وقد قال النبي ﷺ: «العَجَلَة من الشيطان، والتَّأَنِّي من الله تعالى»^(١).

ومن أبوابه: حب المال، ومتى تمكن من القلب أفسده، وحمله على طلب المال من غير وجهه، وأخرجه إلى البخل، وخَوَّفَه الفقر، فمَنع الحقوق اللازمة.

ومن أبوابه: حمل العوَام على التعصب في المذاهب، دون العمل بمقتضاها.

(١) أخرجه أبو يعلى والبيهقي بسند حسن عن أنس، كما في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٧٩٥).

ومن أبوابه أيضاً: حمل العوام على التفكر في ذات الله تعالى، وصفاته، وفي أمور لا تبلغها عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين.

ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين، فإن من حَكَم على مسلم بسوء ظنه، أحقره وأطلق فيه لسانه، ورأى نفسه خيراً منه، وإنما يترشح سوء الظن بِخُبثِ الظَّنِّ، لأن المؤمن يطلب المعاذير للمؤمن، والمنافق يبحث عن عيوبه.

وينبغي للإنسان أن يحترز عن مواقف التَّهَمِ، لئلا يساء به الظن.

فهذا طرف من ذكر مداخل الشيطان.

وعلاج هذه الآفات سد المداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة، وسيأتي الكلام على هذه الصفات إن شاء الله تعالى مُفَصَّلاً.

وإذا قُلِعَتْ من القلب أصول هذه الصفات، بقي للشيطان بالقلب خَطَرَاتٍ وأجتييزات من غير استقرار، فيمنعه من ذلك ذكر الله تعالى، وعمارة القلب بالتقوى.

ومثل الشيطان كمثّل كلبٍ جائعٍ يَقْرُبُ منك، فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز، فإنه ينزجر بأن تقول له: أَخْسَأُ، وإن كان بين يديك شيء من ذلك وهو جائع، لم يندفع عنك بمجرد الكلام، فكذلك القلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر.

فأما القلب الذي غلب عليه الهوى، فإنه يرفع الذكر إلى حواشيه، فلا يتمكن الذكر من سويدائه، فيستقر الشيطان في السويداء.

وإذا أردت مضداق ذلك، فتأمل هذا في صلاتك، وأنظر إلى الشيطان كيف يُحَدِّثُ قلبك في مثل ذلك الموطن: بذكر السوق، وحساب المعاملين، وتدبير أمر الدنيا.

وأعلم أنه قد عفي عن حديث النفس، ويدخل في ذلك ما هَمَمْتُ [بيان أنه يعفى به، ومن ترك ذلك خوفاً من الله تعالى كتبت له حسنة، وإن تركه لعائق، رَجَوْنَا له المسامحة، إلا أن يكون عَزْماً، فإن العزم على الخطيئة خطيئة، بدليل قوله ﷺ: «إذا ألتقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل

والمقتول في النار، قيل: ما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه^(١).

وكيف لا تقع المؤاخذة بالعزم، والأعمال بالنية، وهل الكِبَرُ والرياء والعُجْبُ إلا أمورٌ باطنة؟ ولو أن إنساناً رأى على فراشه أجنبية ظنها زوجته لم يَأْثِمَ بوطئها، ولو رأى زوجته وظنها أجنبية أَثِمَ بوطئها، وكل هذا متعلق بِعَقْدِ القلب.

فصل

وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ كان يقول:

[بيان سرعة

«يا مُقْلَبَ (٢) القلوبِ بُثِّتْ قلوبنا على دينك»^(٣).

[تقلب القلب]

«يا مُصْرَفَ القلوبِ أَصْرِفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ»^(٤).

وفي حديث آخر: «مثل القلب كمثل ريشةٍ بأرض فلاة تُقْلِبُها الرياح»^(٥).

وأعلم أن القلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة:

القلب الأول: قلب عُمُرٍ بالتقوى، وزُكُيَ بالرياضة، وطُهِرَ عن خبائث الأخلاق، فتتفرج فيه خواطر الخير من خزائن الغيب، فيمده المَلَكُ بالهدى.

(١) رواه البخاري (٣١/٦٨٧٥)، ومسلم (٢٨٨٨)، والنسائي [«صحيح سننه» (٣٨٤٣)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٣٢٠٣/٣٩٦٤)]. وهو في «صحيح الجامع» (٣٨٧).

(٢) في المخطوطة الثانية والمطبوع: «يا مثبت القلوب».

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٩٢/٣٥٢٢) عن أم سلمة.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) عن ابن عمرو.

(٥) أخرجه ابن ماجه [«صحيح سننه» (٧١-٨٨)]، وأحمد (١٩٦٠٧ و ١٩٧٠٢) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. وهو في «صحيح الجامع» (٥٨٣٣)، و«المشكاة» (١٠٣).

انظر «شرح السنة» للإمام البغوي ١/١٦٤ رقم الحديث (٨٧) - طبع المكتب الإسلامي بتحقيقي والشيخ شعيب الأرناؤوط.

القلب الثاني: قلب مخذول، مشحون بالهوى، مُنْدَسٌ بالخباثت، مُلَوِّثٌ بالأخلاق الذميمة، فيقوى فيه سلطان الشيطان لاتساع مكانه، وَيَضْعُفُ سلطان الإيمان، ويمتلئ القلب بِدُخَانِ الهوى، فيعدم النور، ويصير كالعين الممثلة بالدخان، لا يمكنها النظر، ولا يُؤَثِّرُ عنده زجر ولا وعظ .

والقلب الثالث: قلب يبتدئ فيه خاطر الهوى، فيدعوه إلى الشر، فيلحقه خاطر الإيمان، فيدعوه إلى الخير .

مثاله: أن يحمل الشيطان حملة على العقل، وَيُقَوِّي دَاعِيَ الهوى، ويقول: أما ترى فلاناً وفلاناً كيف يُطْلِقُونَ أنفسهم في هواها، حتى يَعْذُ جماعة من العلماء، فتميل النفس إلى الشيطان، فيحمل المَلَكُ حَمْلَةً على الشيطان، ويقول: هل هلك إلا مَنْ نسي العاقبة؟ فلا تَغْتَرَّ بِغَفْلَةِ الناس عن أنفسهم، أرأيت لو وقفوا في الصيف في الشمس ولك بيت بارد، أَكُنْتَ توافقهم أم تطلب المصلحة؟ أَتُخَالِفُهُمْ في حر الشمس، ولا تخالفهم فيما يؤول إلى النار؟ فتميل النفس إلى قول المَلَكِ، ويقع التردد بين الجُنْدَيْنِ، إلى أن يَغْلِبَ على القلب ما هو أولى به، فَمَنْ خُلِقَ للخير يُسَّرَ له، ومن خلق للشر يسر له: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] .

اللهم وَفَّقْنَا لما تحبه وترضاه .

١٥ - كتابُ رِيَاضَةِ النَّفْسِ وَتَهْذِيبِ الْخُلُقِ وَمَعَالِجَتِ أَمْرَاضِ الْقَلْبِ

وذلك في فصول:

أَعْلَمُ أَنَّ الْخُلُقَ الْحَسَنَ صِفَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصُّدُيقِينَ، وَأَنَّ الْأَخْلَاقَ السَّيِّئَةَ: سَمُومٌ قَاتِلَةٌ تَنْخَرُطُ بِصَاحِبِهَا فِي سَلَكِ الشَّيْطَانِ، وَأَمْرَاضٌ تُفَوِّتُ جَاهَ الْأَبَدِ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَعْرِفَ الْعِلَلَ ثُمَّ التَّشْمِيرَ فِي مَعَالِجَتِهَا، وَنَحْنُ نَشِيرُ إِلَى جَمَلٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ، وَكَيْفِيَةِ مَعَالِجَتِهَا فِي الْجُمْلَةِ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَأْتِي مَبِيناً إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الفصل الأول

في فضيلة حسن الخلق وذم سوء الخلق

وقد ذُكِرَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي آدَابِ الصَّحْبَةِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ تَكَلَّمُوا فِي حَسَنِ الْخُلُقِ مَتَعَرِّضِينَ لثَمَرَتِهِ لَا لِحَقِيقَتِهِ، وَلَمْ يَسْتَوْعِبُوا جَمِيعَ ثَمَرَاتِهِ، بَلْ ذَكَرَ كُلُّ مِنْهُمْ مَا حَضَرَ فِي ذَهْنِهِ.

وَكَشَفُ الْحَقِيقَةِ فِي ذَلِكَ أَنْ يَقَالَ: كَثِيراً مَا يُسْتَعْمَلُ حُسْنُ الْخُلُقِ مَعَ الْخُلُقِ، يَقَالُ: فَلَانَ حَسَنَ الْخُلُقِ وَالْخُلُقِ، أَيْ حَسَنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، فَالْمُرَادُ بِالْخُلُقِ: الصُّورَةُ الظَّاهِرَةُ، وَالْمُرَادُ بِالْخُلُقِ: الصُّورَةُ الْبَاطِنَةُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَرْكَبٌ مِنْ جَسَدٍ وَنَفْسٍ.

فَالْجَسَدُ مُدْرَكٌ بِالْبَصَرِ، وَالنَّفْسُ مُدْرَكَةٌ بِالْبَصِيرَةِ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا هَيْئَةٌ وَصُورَةٌ، إِمَّا جَمِيلَةٌ أَوْ قَبِيحَةٌ، وَالنَّفْسُ الْمُدْرَكَةُ بِالْبَصِيرَةِ أَعْظَمُ قَدْرًا مِنَ الْجَسَدِ الْمُدْرَكِ بِالْبَصَرِ، وَلِذَلِكَ عَظَّمَ اللَّهُ ﷻ أَمْرَهُ فَقَالَ: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۖ﴾ (٦) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴿[ص]﴾، فَنَبِهَ عَلَى أَنَّ الْجَسَدَ مَنْسُوبٌ إِلَى الطِّينِ، وَالرُّوحَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ ﷻ، فَالْخُلُقُ عِبَارَةٌ عَنْ هَيْئَةِ لِلنَّفْسِ رَاسِخَةٌ

تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الأفعال جميلة سميت خُلُقاً حسناً، وإن كانت قبيحة سُمِّيت خلقاً سيئاً.

وقد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فأستثقل الرياضة: أن
[بيان قبول الأخلاق لا يتصور تغييرها، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهر. الأخلاق للتغيير]

والجواب: أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواظ والوصايا معنى، وكيف تُنكر تغيير الأخلاق ونحن نرى الصيد الوحشي يُستأنس، والكلب يُعلَّم ترك الأكل، والفرس تعلم حسن المشي وجودة الانقياد، إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للمصالح، وبعضها مُستصعبة.

وأما خيال من أعتقد أن ما في الجبلة لا يتغير، فأعلم أنه ليس المقصود قنَع هذه الصفات بالكلية، وإنما المطلوب من الرياضة رَدُّ الشهوة إلى الاعتدال، الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط، وأما قنَعُها بالكلية فلا، كيف والشهوة إنما خلقت لفائدة ضرورية في الجبلة؟ ولو أُنقطعت شهوة الطعام لَهَلَكَ الإنسان، أو شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو أُنعدم الغَضَب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه. وقد قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] ولا تَضُدُّ الشَّدَّة إلا عن الغَضَب، ولو بَطَلَ الغَضَب لامتنع جهاد الكفار، وقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ولم يقل: الفاكدين الغيظ.

وكذلك المطلوب في شهوة الطعام: الاعتدال دون الشَّرِّ والتَّقَلُّل. قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

إلا أن الشيخ المُرشِد للمريد إذا رأى له ميلاً إلى الغَضَب والشهوة، حَسَن أن يبالغ في دَمِّهما على الإطلاق لِيَرُدَّهُ إلى التوسط.

ومما يدل على أن المراد من الرياضة الاعتدال: أن السخاء خُلُقٌ مطلوب شرعاً، وهو وسط بين طَرَفَي التقتير والتبذير، وقد أثنى الله عليه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. وأعلم أن هذا الاعتدال، تارة يحصل بكمال الفطرة منحة من

الخالق، فكم من صبيٍّ يُخلَق صادقاً سَخِيّاً حليماً، وتارة يحصل بالاكْتِسَاب، وذلك بالرياضة، وهي حمل النفس على الأعمال الجالبة للخلُق المطلوب، فمن أراد تحصيل خلق الجود، فليتكلف فعل الجواد من البذل ليصير ذلك طبعاً له .

وكذلك من أراد التواضع تكلف أفعال المتواضعين، وكذلك جميع الأخلاق المحمودة، فإن للعادة أثراً في ذلك، كما أن من أراد أن يكون كاتباً تعاطى فعل الكتابة، أو فقيهاً تعاطى فعل الفقهاء من التكرار، حتى ينعطف على قلبه صفة الفقه، إلا أنه لا ينبغي أن يطلب تأثير ذلك في يومين أو ثلاثة، وإنما يؤثر مع الدوام، كما لا يطلب نُمُو القامة^(١) في يومين أو ثلاثة . وللدوام تأثير عظيم . وكما لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعات، فإن دوامها يؤثر، وكذلك لا يستهان بقليل الذنوب .

وكما أن تعاطي أسباب الفضائل يؤثر في النفس ويغير طبعها، فكذلك مُسَاكَنَةُ الكسل أيضاً يصير عادة، فيُحَرِّمُ بسببه كل خير . وقد تُكْتَسَبُ الأخلاق الحسنة بمصاحبة أهل الخير، فإن الطبع لصٌ يسرق الخير والشر .

قلت : ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :
«المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»^(٢) .

الفصل الثاني

في بيان الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة في النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض، فأعلم أن مثال النفس في علاجها كالبدن في علاجه، فكما أن البدن لا يُخلَق كاملاً، وإنما يَكْمُلُ بالتربية بالغذاء، كذلك النفس

(١) أي : الزيادة، وفي النسخة الثانية : كما لا يطلب بالنمو علو القامة .

(٢) حسن، سلف تخريجه في الصفحة (١٢٣) الحاشية (١) .

تُخَلَقُ ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم.

وكما أن البدن إذا كان صحيحاً، فشأن الطبيب العمل على حفظ الصحة، وإن كان مريضاً، فشأنه جلب الصحة إليه، كذلك النفس إذا كانت زكية طاهرة مهذبة الأخلاق، فينبغي أن يسعى بحفظها وجلب مزيد من القوة إليها، وإن كانت عديمة الكمال، فينبغي أن يسعى بجلب ذلك إليه.

وكما أن العلة الموجبة لمرض البدن لا تُعالج إلا بضدها، إن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت من البرودة فبالحرارة، فكذلك الأخلاق الرذيلة التي هي من مرض القلب، علاجها بضدها، فيعالج مرض الجهل بالعلم، ومرض البخل بالسخاء، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتبه.

وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء، وشدة الصبر عن المشتبهات لصالح الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة، والصبر على مداواة مرض القلب، بل أولى، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت، ومرض القلب عذاب يدوم بعد الموت أبداً.

وينبغي للذي يُطَبُّ^(١) نفوس المُريدِين ألا يهجم عليهم بالرياضة في فنٍّ مخصوص، حتى يعرف أخلاقهم وأمراضهم، إذ ليس علاج كل مريض واحداً، فإذا رأى جاهلاً بالشرع علّمه، وإذا رأى متكبراً على ما يُوجب التواضع، أو شديد الغضب ألزمه الحِلْمَ.

وأشدُّ حاجة الرائي لنفسه: قوة العزم، فمتى كان متردداً: بُعدَ فلاحه، ومتى أحسَّ من نفسه ضعفَ العزم: تَصَبَّرَ، فإن نقصت عزيمتها عاقبها لثلا تُعاود، كما قال رجل لنفسه: تتكلمين فيما لا يعينك! لأعاقبتك بصوم سنة.

(١) على هامش المخطوطة الأولى: يطيب، وفي المطبوع: يطلب.

الفصل الثالث

في علامات مرض القلب وعوده إلى الصحة وبيان الطريق إلى معرفة الإنسان عيوب نفسه

أعلم أن كل عضو خُلِقَ لفعل خاص، فعلامة مرضه أن يتعذر منه ذلك الفعل، أو يصدر منه مع نوع من الأضطراب، فمرض اليد تعذر البطش، ومرض العين تعذر الإبصار، ومرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خُلِقَ لأجله، وهو العلم والحكمة والمعرفة، وحب الله تعالى وعبادته، وإيثار ذلك على كل شهوة.

فلو أن الإنسان عرف كل شيء ولم يعرف الله سبحانه، كان كأنه لم يعرف شيئاً.

وعلامة المعرفة: الحب، فمن عرف الله أحبه، وعلامة المحبة ألا يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات، فمن أثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض، كما أن المعدة التي تؤثر أكل الطين على أكل الخبز - وقد سقطت عنها شهوة الخبز - مريضة.

ومرض القلب خفي قد لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، لأن دواءه مخالفة الهوى، وإن وجد الصبر لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء، هم العلماء، والمرضى قد استولوا عليهم، والطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً، وأندرس هذا العلم، وأنكر طب القلوب ومرضها بالكلية، وأقبل الناس على أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات، فهذه علامة أصل المرض.

وأما عافيته وعوده إلى الصحة بعد المعالجة، فهو أن ينظر إلى العلة، فإن كان المرض داء البخل، فعلاجه بذل المال، ولكنه لا يسرف، ويصير إلى حد التبذير، فيحصل داء آخر فيكون كمن يعالج البرودة بالحرارة الغالبة حتى تغلب الحرارة، فيكون داء أيضاً، بل المطلوب الاعتدال.

وإذا أردت أن تعرف الوسط، فأنظر إلى نفسك، فإن كان إمساك المال وجمعه ألدَّ عندك، وأيسر عليك من بذله لمُسْتَحَقِّه، فأعلم أن الغالب عليك خُلُقُ البُخل، فعالج نفسك على البذل، وإن صار البذل للمستحق ألدَّ عندك، وأخف عليك من الإمساك، فقد غلب عليك التبذير، فأرجع إلى المواظبة على الإمساك، ولا تزال تراقب نفسك، وتستدل على خُلُقِكَ بتيسير الأفعال وتيسيرها، حتى تنقطع علاقة قَلْبِكَ عن المال، فلا تميل إلى بذله ولا إمساكه، بل يصير عندك كالماء، فلا تطلب فيه إمساكه لحاجة محتاج، أو بذله لحاجة محتاج، فكل قلب صار كذلك، فقد ﴿آتَى اللَّهُ يَقْلَبِ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء] في هذا المقام.

ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق، حتى لا تكون له علاقة بشيء من الدنيا، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعةً العلائق منها، غير ملتفتة إليها، ولا مُتَشَوِّفة^(١) إلى أسبابها، فحينئذ ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة.

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض، بل هو أدق من الشُّغْز وأحد من السيف، فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا: جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة، ولأجل عُسر الاستقامة أمر العبد أن يقول في كل يوم مرات: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة] ومن لم يقدر على الاستقامة، فليجتهد على القرب من الاستقامة فإن النجاة بالعمل الصالح.

ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة، فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه، وليشتغل بعلاج واحد بعد واحد، وليصبر ذو العزم على مَضَضِ هذا الأمر، فإنه سيحلو كما يحلو الفطام للطفل بعد كراهته له، فلو رُدَّ إلى التَّذْي لَكَرِهَهُ، ومن عرف قِصْرَ العُمُر بالنسبة إلى مدة حياة الآخرة: حَمَلَ مشقة سفر أيام لَتَنَعُمِ الأبد، فعند الصباح يحمد القوم السُّرَى.

(١) في المخطوطة الثانية والمطبوع: «ولا متشوقة».

[بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه] وأعلم أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً بَصَّرَهُ بعيوب نفسه، فمن كَمَلَتْ بصيرته لم تَخَفْ عليه عيوبه، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوبهم، يرى أحدهم القَذَى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه.

فمن أراد الوقوف على عيب نفسه، فله في ذلك أربع طرق:

الطريقة الأولى^(١): أن يجلس بين يَدَيَّ شيخٍ بصيرٍ بعيوب النفس، يُعَرِّفه عيوب نفسه وطرق علاجها، وهذا قد عَزَّ في الزَّمان وجوده، فمن وقع به، فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغي أن يفارقه.

الطريقة الثانية: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، وينصبه رقيباً على نفسه لينبهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله.

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: رحم الله أَمْرًا أَهْدَى إلينا عيوبنا.

وسأل سلمان رضي الله عنه - لما قَدِمَ عليه - عن عيوبه، فقال: سمعت أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وأن لك حُلَّتَيْنِ: حلة بالليل، وحلة بالنهار، فقال: هل بلغك غير هذا؟ قال: لا، قال: أما هُذان فقد كُفِّيتهما.

وكان عمر رضي الله عنه يسأل حذيفة: هل أنا من المنافقين؟ وهذا لأن كل من عَلَتْ مرتبته في اليَقَظَةِ زاد آتِهامه لنفسه، إلا أنه قد عَزَّ في هُذا الزمان وجودُ صديق على هُذه الصفة، لأنه قَلَّ في الأصدقاء من يترك المداينة، فيُخْبِرُ بالعَيْبِ، أو يترك الحسد، فلا يزيد على قدر الواجب.

وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم، ونحن الآن في الغالب أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا.

وهذا دليل على ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة كالعقارب. ولو أن منبهاً نَبَّهَنَا على أن تحت ثوب أحدنا عقرباً لَتَقَلَّدْنَا له مِثَّةً، وأشتغلنا بقتلها، والأخلاق الرديئة أعظم ضرراً من العقرب على ما لا يخفى.

(١) في النسخة المخطوطة الثانية: الطريق الأول.

الطريقة الثالثة: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوىء، ولعل أنتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه، أكثر من أنتفاعه بصديق مُدَاهِنٍ يخفي عنه عيوبه .

الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذموماً فيما بينهم، يجتنبه .

فصل

وقد ذكرنا أن شهوات النفوس لم توضع إلا لفائدة، إذ لولا شهوة المطعم ما حصل تناول الغذاء، ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل، وإنما المذموم فضول الشهوات وطُغيانها، وثُمَّة قوم لم يفهموا هذا القَدْرَ، فأخذوا يتركون كل ما تشتهي النفس، وهذا ظلم لها بإسقاط حقها، فإن لها حقاً بدليل قوله ﷺ: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(١) حتى إن قائلاً منهم يقول: لي كذا، وكذا سنة أشتهي كذا، فلا أتناوله، وهذا انحرافٌ عن الجُلِّ، وخلاف سنة رسول الله ﷺ، فإنه يتناول المشتهى من الحلو والعسل وغيرهما، فلا يُلتفت إلى زاهد قل علمه، فحرَمَ نفسه حَظَّها من المشتهى على الإطلاق، فإنه إلى الظلم أقرب منه إلى العدل، وإنما يُترك المشتهى إذا صعبت الطريق إليه، مثل ألا يحصل إلا بوجهٍ مكروه، أو يخاف من تناوله أنحلال عزمه، فتطمع النفس في استدامته، أو يحذر من ذلك زيادةً شُبَّعَ، فيثقله عن عبادته، فأما تناوله في بعض الأوقات لتقوية النفس، فذلك كالطب للمريض، يُمدح ولا يذم، ولا بأس بالرفق بالنفس لتقوى على السلوك .

بيان علامات حسن الخلق

ربما جاهد المرید نفسه حتى ترك الفواحش والمعاصي، ثم ظن أنه قد هَدَّبَ خُلُقَه، وأستغنى عن المجاهدة، وليس كذلك، فإن حسن الخلق هو مجموع صفات المؤمنين، وقد وصفهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨) وغيره من حديث أبي جحيفة وهب بن عبد الله السوائي رضي الله عنه.

دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴿٧٧﴾

حاله، فَلْيَعْرِضْ نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وَفَقَدْ جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون البعض يدل على البعض دون البعض، فليشتغل بحفظ ما وجده وتحصيل ما فقده.

وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بها إلى محاسن الأخلاق.

ففي «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١).

وفيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عنه ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(٢).

وفي حديث آخر: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً»^(٣).

ومن حسن الخلق: احتمال الأذى، ففي «الصحيحين» أن أعرابياً جَدَبَ رداء النبي ﷺ حتى أثرت حاشيته في عاتقه ﷺ، ثم قال: يا محمد، مُزِلِي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ، ثم ضحك، ثم أمر له بعتاء^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧١)، ومسلم (٤٥) وغيرهما بألفاظ متعددة. وهو في «الصحيحة» (٧٣)، و«صحيح الجامع» (٧٥٨٢).

(٢) رواه البخاري (٦٠١٩ و ٦١٣٨ و ٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٥١٥٤/٤٢٩٣)]، والترمذي [«صحيح سننه» (١٦٠٢/١٩٦٧ و ٢٠٣٠/٢٥٠٠)].

(٣) أخرجه أبو داود [«صحيح سننه» (٤٦٨٢/٣٩١٦)]، والترمذي [«صحيح سننه» (١١٦٢/٩٢٨)] عن أبي هريرة. وهو في «الصحيحة» (٢٨٤).

(٤) أخرجه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧) عن أنس.

وكان إذا آذاه قومه قال : «اللهم أغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(١).

وكان أويس القرني إذا رماه الصبيان بالحجارة يقول : يا إخوتاه، إن كان ولا بُدَّ، فأرموني بالصغار لئلا تُذمُّوا ساقِي فتَمنعوني من الصلاة.

وخرج إبراهيم بن أذهم إلى بعض البراري، فأستقبله جندي فقال : أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فَشَجَّهُ، فلما أُخْبِرَ أنه إبراهيم، جعل يُقَبِّلُ يده ورجله، فقال : إنه لما ضرب رأسي، سألت الله له الجنة، لأنني علمت أنني أوجر بضربه إياي، فلم أحب أن يكون نصيبي منه الخير، ونصيبه مني الشر.

وأجتاز بعضهم في سكة، فطرح عليه رماد من السطح، فجعل أصحابه يتكلمون. فقال : مَنْ أَسْتَحَقَّ النار فصولح على الرماد، ينبغي له ألا يغضب.

فهذه نفوس دُلَّتْ بالرياضة، فأعتدلت أخلاقها، ونُقِيت عن الغش بواطنها، فأثمرت الرضا بالقضاء، ومن لم يجد من نفسه بعض هذه العلامات التي وجدها هؤلاء، فينبغي أن يداوم الرياضة لِيَصِلَ، فإنه بَعْدُ ما وصل.

فصل في رياضة الصبيان أول النشوء

أعلم أن الصبي أمانة عند والديه، وَقَلْبُهُ جوهرة ساذجة، وهي قابلة لكل نقش، فإن عُوْدَ الخير نشأ عليه، وشاركه أبواه ومؤدبه في ثوابه، وإن عُوْدَ الشر نشأ عليه، وكان الوزرُ في عنق وَلِيِّهِ، فينبغي أن يَصُونَهُ ويؤدبه ويهذب، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يُعوْدَهُ التَّعَنُّمَ، ولا يُحَبِّبَ إليه أسباب الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كَبُرَ.

(١) أخرجه ابن حبان والبيهقي عن سهل بن سعد، وفي البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢) عن ابن مسعود أنه ﷺ حكاه عن نبي من الأنبياء ضربه قومه. قاله العراقي. وقال الألباني في «المشكاة» (٥٣١٣): ويروى أنه ﷺ قال مثل ذلك في قومه ولم يصح.

بل ينبغي أن يراقبه من أول عمره، فلا يستعمل في رضاعه وحضائته إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا بدت فيه مخايل التمييز وأولها الحياء، وذلك علامة النجاسة وهي مبشرة بكمال العقل عند البلوغ، فهذا يستعان على تأديبه بحيائه .

وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام، فينبغي أن يُعلم آداب الأكل، ويعوده أكل الخبز وحده في بعض الأوقات لئلا يآلف الإدام فيراه كالختم، ويقبح عنده كثرة الأكل، بأن يشبه الكثير الأكل بالبهائم، ويحبب إليه الثياب البيض دون الملوثة والإبريسم، ويقرر عنده أن ذلك من شأن النساء والمخنثين، ويمنعه من مخالطة الصبيان الذين عودوا التنعم، ثم يشغله في المكتب بتعليم القرآن والحديث وأحاديث الأخيار، ليغرس في قلبه حب الصالحين، ولا يحفظ الأشعار التي فيها ذكر العشق .

ومتى ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يُكرم عليه، ويجازى بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال تُغفل عنه ولا يكشف، فإن عاد عوتب سراً وخُوف من اطلاع الناس عليه ولا يكثر عليه العتاب، لأن ذلك يهون عليه سماع الملامة، وليكن حافظاً هية الكلام معه .

وينبغي للأم أن تخوفه بالأب، وينبغي أن يُمنع النوم نهاراً، فإنه يورث الكسل، ولا يمنع النوم ليلاً، ولكنه يمنع الفرش الوطيئة لتصلب أعضائه، ويتعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم، ويعود المشي والحركة والرياضة لئلا يغلب عليه الكسل. ويُمنع أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه أبواه، أو بمطعمه أو ملبسه، ويعود التواضع والإكرام لمن يعاشره، ويمنع أن يأخذ شيئاً من صبي مثله، ويعلم أن الأخذ دناءة، وأن الرقة في الإعطاء، ويُقبح عنده حب الذهب والفضة .

ويعود ألا يبصق في مجلسه، ولا يتمخط، ولا يتشاءب بحضرة غيره، ولا يضع رجلاً على رجل، ويمنع من كثرة الكلام، ويعود ألا يتكلم إلا جواباً،

وَأَنْ يُخَسِّنَ الاستماع إِذَا تكلم غيره ممن هو أكبر منه، وَأَنْ يقوم لمن هو فوقه ويجلس بين يديه .

وَيُمنع من فُحش الكلام، ومن مخالطة من يفعل ذلك، فَإِنْ أَصْل حفظ الصبيان حفظهم من قرناء السوء .

وَيَحْسُنُ أَنْ يُفسح له بعد خروجه من المكتب في لعب جميل، ليستريح به من تعب التأديب، كما قيل: رَوْحِ القلوب تَعِ الذُّكْرِ .
وينبغي أَنْ يُعلِّم طاعة والديه ومُعلِّمه وتعظيمهم .

وَإِذَا بلغ سبع سنين أُمِرَ بالصلاة، ولم يُسَامَح في ترك الطهارة لِيَتَعَوَّدَ، وَيُخَوَّفَ من الكذب والخيانة، وَإِذَا قارب البلوغ، أُلْقِيَ إِلَيْهِ الأمور .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الأَطعمة أدوية، والمقصود منها تقوية البدن على طاعة الله تعالى، وَأَنَّ الدنيا لا بقاء لها، وَأَنَّ الموت يقطع نعيمها، وهو مُنتَظَر في كل ساعة، وَأَنَّ العاقل مَنْ تَزَوَّدَ لآخرته، فَإِنْ كَانَ نُشُوؤُهُ صالحاً ثبت لهذا في قلبه، كما يثبت النقش في الحجر .

قال سهل بن عبد الله: كنت ابن ثلاث سنين، وأنا أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالي محمد بن سَوَّار، فقال لي خالي يوماً: أَلَا تَذْكُرُ الله الذي خلقك؟ قلت: كيف أذكره؟ قال: قُلْ بقلبك ثلاث مرات من غير أَنْ تحرك لسانك: (الله معي، الله ناظر إليَّ، الله شاهدي)، فقلت ذلك ليالي، ثم أعلمته، فقال: قلها في كل ليلة إحدى عشرة مرة. فقلت ذلك، فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة، قال لي خالي: احفظ ما عَلَّمْتُكَ، ودُمَّ عليه إِلَى أَنْ تدخل قبرك، فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت له حلاوة في سِرِّي . ثم قال لي خالي: يا سهل من كان الله معه، وهو ناظر إليه، وشاهد عليه، هل يعصيه؟ إِيَّاكَ والمعصية . وَمَضَيْتُ إِلَى المكتب، وحفظت القرآن، وأنا ابن ست سنين أو سبع، ثم كنت أصوم الدهر، وقَوَّتِي من خبز الشعير، ثم بعد ذلك كنت أقوم الليل كله .

فصل

وأعلم أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين، أصبح بالضرورة [بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة . . .] مريداً لها، زاهداً في الدنيا، فإن من كان معه خرزة، فرأى جوهرة نفيسة، لم يبق له رغبة في الخرزة، فإذا قيل له: بئها بالجوهرة، أسرع في ذلك.

وأعلم أن من رزقه الله تعالى الانتباه لذلك، فإن عليه لسلوك الرياضة شرطاً لا بد من تقديمه، ومُعْتَصِماً لا بد من التمسك به، وجِصْناً لا بد من التَّحْصُن به.

فأما الشرط، فهو رفع الحجاب بترك الذنوب.
وأما المعتصم، فشيخ يدلّه على الطريق لثلاث تخططه الشياطين في السُّبُل.
وأما الحصن، فالخلوة.

وعليه من الوظائف مخالفة الهوى، وكثرة الذكر والاقتصاد في الأوراد.
ومنتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله أبداً، ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره، ولا يخلو إلا بطول المجاهدة.

فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج، فأما تفصيل الرياضة في كل صفة، فسيأتي إن شاء الله تعالى^(١).

(١) انظر كتاب «تهذيب الأخلاق» للعلامة عبد الحي الحسني الندوي، والد العالم الفاضل أستاذنا الشيخ أبي الحسن علي الندوي.
وكتاب «تعليم المتعلم» للشيخ الزرنوجي تحقيق المربي الدكتور مروان القباني.

وكتاب «مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام» للأستاذ الجليل المربي الشيخ عبد الرحمن الباني. وهي كلها من مطبوعات المكتب الإسلامي.

١٦ - كِتَابُ كَسْرِ الشَّهَوَتَيْنِ :

شَهْوَةُ الْبَطْنِ، وَشَهْوَةُ الْفَرْجِ

شهوة البطن من أعظم المهلكات، وبها أخرج آدم عليه السلام من الجنة، ومن شهوة البطن تَحْدُثُ شهوة الفرج والرغبة في المال، ويتبع ذلك آفات كثيرة، كلها من بَطَرِ الشَّبَعِ.

وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال: «المؤمن يأكل في مِعْيٍ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»^(١).

وفي حديث آخر: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حَسِبُ ابن آدم أَكْلَاتِ يَقْمَنُ ضُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مُحَالَه، فَثَلْثَ لَطْعَامَهُ، وَثَلْثَ لَشْرَابَهُ، وَثَلْثَ لِنَفْسِهِ»^(٢).

وقال عقبة الراسيبي: دخلت على الحسن وهو يتغذى، فقال: هَلَمْ، فقلت: أَكَلْتَ حَتَّى لَا أَسْتَطِيعَ، فقال: سبحان الله! أو يأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل؟!

وقد بالغ جماعة من الزهاد في التقلل من الأكل والصبر على الجوع، وقد بَيَّنَّا غَيْبَ مَا سَلَكُوا فِي غَيْرِ هَذَا الْكِتَابِ، وَمَقَامَ الْعَدْلِ فِي الْأَكْلِ رَفَعَ الْيَدَ مَعَ بَقَاءِ شَيْءٍ مِنَ الشَّهْوَةِ، وَنَهَايَةَ الْمَقَامِ الْحَسَنِ قَوْلُهُ ﷺ: «ثَلْثَ لَطْعَامَهُ، وَثَلْثَ لَشْرَابَهُ، وَثَلْثَ لِنَفْسِهِ»^(٣).

فالأكل في مقام العدل يُصِحُّ الْبَدَنَ وَيُنْفِي الْمَرَضَ، وَذَلِكَ أَلَا يَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ حَتَّى يَشْتَهِيَهُ، ثُمَّ يَرْفَعُ يَدَهُ وَهُوَ يَشْتَهِيهِ، وَالِدَوَامُ عَلَى التَّقَلُّلِ مِنَ الطَّعَامِ يُضْعِفُ

(١) رواه البخاري (٥٣٩٣)، ومسلم (٢٠٦٠ و ٢٠٦٢)، والترمذي [«صحيح سننه» (١٨١٨/١٤٨٤)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٣٥٥٦/٢٦٣٤)] عن أبي هريرة (٣٢٥٨/٢٦٣٦) وعن أبي موسى الأشعري. و(٣٢٥٧/٢٦٣٥) عن ابن عمر باختلاف في التقديم والتأخير بين شطري الحديث.

(٢) و(٣) صحيح، سلف تخريجه في الصفحة (٩١) حاشية (٢).

القُوَى وقد قَلَّ أقوام مطاعمهم حتى قصرُوا عن الفرائض، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة، وليس كذلك، وَمَنْ مَدَحَ الجوع، فإنما أشار إلى الحالة التي ذكرناها.

وطريق الرياضة في كسر شهوة البطن أن من تعود أستدامة الشبع، فينبغي له أن يقلل من مَطْعَمه يسيراً يسيراً مع الزمان، إلى أن يقف على حد التوسط الذي أشرنا إليه، وخير الأمور أوساطها، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات، ويكون سبباً لبقاء القوة، فلا يُحسُّ المتناول بجوع ولا شبع، فحينئذ يصح البدن، وتجتمع الهمة، ويصفو الفكر، ومتى زاد في الأكل أورثه كثرة النوم، وبلادة الذهن، وذلك بتكثير البخار في الدماغ حتى يغطي مكان الفكر، وموضع الذكر، ويجلب أمراضاً أخر.

[بيان طريق
الرياضة في
كسر شهوة
البطن]

ولِيُخَذَرَ مَنْ تَرَكَ شيئاً من الشهوات أن تتطرق إليه آفة الرياء، وقد كان بعضهم يشتري الشهوة ويلحقها في بيته وهو زاهد فيها، يستر بها زهده، وهذا هو (الزهد في الزهد) بإظهار ضده وهو عمل الصديقين، لأنه يُجَرِّع نفسه كأس الصبر مرتين، والثانية أمرٌ.

[بيان آفة الرياء
(فيها)]

وأما شهوة الفرج، فأعلم أن شهوة الوقاع سُلْطَتْ على الآدمي لفائدتين:

[القول في
شهوة الفرج]

إحداهما: بقاء النسل.

والثانية: ليدرك لذة يقيس عليها لذات الآخرة، فإن ما لم يُدْرَك جنسه بالذوق، لا يَغْظُم إليه الشُّوق، إلا أنه إذا لم تُرَدَّ هذه الشهوة إلى الاعتدال، جلبت آفات كثيرة، ومِحنًا، ولولا ذلك ما كان النساء حباثل الشيطان.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «ما تركت في الناس بعدي فتنة أضُرَّ على الرجال من النساء»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠ و ٢٧٤١)، والترمذي «صحيحه» (٢٢٣١/٢٧٨٠) عن أسامة بن زيد. وهو في «صحيح الجامع» (٥٥٩٧).

وقال بعض الصالحين: لو أئتمنتني رجل على بيت مالٍ، لظننتُ أن أؤدي إليه الأمانة، ولو أئتمنتني على زنجية أخلو بها ساعة واحدة، ما أئتمنت نفسي عليها.

وعن النبي ﷺ قال: «لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان»^(١).

وقد ينتهي الإفراط في هذه الشهوة، حتى تُصرف همه الرجل إلى كثرة التمتع بالنساء، فيشغله عن ذكر الآخرة، وربما آل إلى الفواحش، وقد تنتهي بصاحبها إلى العشق، وهو أقبح الشهوات، وأجدرها أن يستخيا منه، وقد يقع عند كثير من الناس عشق المال، والجاه، واللعب بالثرد، والشطرنج، والطُّبور، ونحو ذلك، فتستولي هذه الأشياء على القلوب فلا يصبرون عنها.

ويسهل الاحتراز عن ذلك في بدايات الأمور، فإن آخرها يفتقر إلى علاج شديد، وقد لا يُنجع، ومثاله من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب تريد دخوله، فما أهون منعها بصرف عنانها! ومثال من يعالجه بعد استحكامه، مثال من يتركها حتى تدخل الباب وتجاوزته، ثم يأخذ بذنبها يجرها إلى وراء، وما أعظم التفاوت بين الأمرين!!

(١) أخرجه أحمد (١٧٧) عن عمر. وهو في «صحيح الترمذي» (١١٧١/٩٣٤).

١٧ - كِتَابُ آفَاتِ اللِّسَانِ

وآفاته كثيرة متنوعة، ولها في القلب حلاوة، ولها بواعث من الطبع، ولا نجاة من خطرهما إلا بالصمت، فلنذكر أولاً فضيلة الصمت، ثم نُتبعه بذكر الآفات مفصلة إن شاء الله تعالى.

أعلم أن الصمت يجمع الهمة ويُفَرِّغ الفكر.

وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لَحْيَيْهِ، وما بين رجليه أضمن له الجنة»^(١).

وفي حديث آخر: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه»^(٢).

وفي حديث معاذ في آخره: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «فَكَلِّمْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ» - أو قال: «على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم»^(٣).

وفي حديث آخر: «مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ»^(٤).

وقال ابن مسعود: ما شيء أحوج إلى طول سجن من لساني.

وقال أبو الدرداء: أَنْصِفْ أذُنَيْكَ مِنْ فَيْكِ، فَإِنَّمَا جَعَلْتَ لَكَ أَذْنَانِ وَفَمَ وَاحِدَ، لِتَسْمَعَ أَكْثَرَ مِمَّا تَتَكَلَّمُ بِهِ.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٤) عن سهل بن سعد.

(٢) رواه أحمد (١٣٠٣٢)، وابن أبي الدنيا، والخرائطي، والبيهقي، وضعفه العراقي.

(٣) أخرجه الترمذي [«صحيح سننه» (٢٦١٦)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٣٢٠٩/٣٩٧٣)]. وصححه الألباني في «الإرواء» (٤١٣).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا وغيره من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

انظر «ضعيف الجامع الصغير» رقم ٥٨٢٤ بلفظ «غضبه».

وقال مَخْلَدُ بن الحسين: ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريدُ أن أَعْتَذَرَ منها.

ذكر آفات الكلام

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعني .

وأعلم أن من عرف قدر زمانه، وأنه رأس ماله، لم يُنْفِقْه إلا في فائدة، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني، لأنه من ترك ذكر الله تعالى وأشتغل فيما لا يعني، كان كمن قدر على أخذ جوهرة، فأخذ عَوْضَهَا مَدْرَةً، وهذا خسران العمر.

وفي الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ قال: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(١).

وقيل للقمان الحكيم: ما بلغ من حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كُفِّيتُهُ، ولا أتكلم بما لا يعنيني . =

= وقد روي أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد دِرْعاً، فجعل يتعجب مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك، فمَنَعَتْهُ حِكْمَتُهُ فَأَمْسَكَ، فلما فرغ داود عليه السلام، قام ولبس الدرع ثم قال: نِعْمَ الدَّرْعُ لِلْحَرْبِ. فقال لقمان: الصَّمْتُ حُكْمٌ وَقَلِيلٌ فَاغْلُهُ^(٢).

الآفة الثانية: الخوض في الباطل، وهو الكلام في المعاصي، كذكر مجالس الخمر، ومقامات الفُسَّاق .

وأنواع الباطل كثيرة .

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»^(٣).

(١) هو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣١٧/١٨٨٦)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٩٧٦/٣٢١١) عن أبي هريرة.

(٢) معنى المثل: أَسْتَعْمَالُ الصَّمْتِ حِكْمَةٌ، وَلَكِنْ قَلٌّ مِنْ يَسْتَعْمَلُهَا. والمثل في «مجمع الأمثال» للميداني: ٤٠٢/١ بتحقيق عبد الحميد.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨). وهو في «صحيح الجامع» (١٦٧٨)، و«الصحيحة» (٥٤٠).

وقريب من ذلك الجدال والمراء وهو كثرة الملاحاة^(١) للشخص لبيان غلطه وإفحامه، والباعث على ذلك: الترفع.

فينبغي للإنسان أن يُنكر المنكر من القول، ويبين الصواب، فإن قبل منه؛ . . . ، وإلا؛ ترك المماراة، هذا إذا كان الأمر مُعَلَّقاً بالدين، فأما إذا كان في أمور الدنيا، فلا وجه للمجادلة فيه، وعلاج هذه الآفة بكسر الكبير الباعث على إظهار الفضل، وأعظم من المراء الخصومة، فإنها أمر زائد على المراء.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(٢).

وهذه الخصومة نعني بها الخصومة بالباطل أو بغير علم، فأما من له حق فالأولى أن يصدف^(٣) عن الخصومة مهما أمكن، لأنها تُؤْغِرُ الصدر، وتُهَيِّج الغضب، وتُورِث الحقد، وتُخرج إلى تناول العِرض.

الآفة الثالثة: التقعر في الكلام، وذلك يكون بالتشديق^(٤)، وتكلف السجع.

وعن أبي نُعْلَبَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة مساويكم أخلاقاً: الثرثارون المُتَشَدِّقُونَ المُتَفَيِّهُونَ»^(٥).

ولا يدخل في كراهة السجع والتصنع ألفاظ الخطيب، والتذكير من غير

(١) يقال: لاحتته ملاحاة ولحاء: إذا نازعته، وفي المثل: (من لاحاك فقد عاداك)، وقولهم: لحاه الله، أي: قبحه ولعنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٨٨)، ومسلم (٢٦٦٨)، والترمذي [«صحيحه» (٢٣٧٧)/ (٢٩٧٦)]، والنسائي [«صحيحه» (٥٠١٣)] عن عائشة. وهو في «صحيح الجامع» (٣٩).

(٣) يصدف: يعرض.

(٤) وهو أن يلوي شذقه للتفصيح.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠١٨). وهو في «صحيح الجامع» (٢٢٠١)، و«الصحيح» (٧٩١).

و(المتفهيقون): المتكبرون. و(الثرثار): كثير الكلام. و(المتشديق): الذي يتناول على الناس في الكلام ويبذو عليهم.

إفراط، ولا إغراب، لأن المقصود من ذلك تحريك القلوب، وتشويقها، ورشاقة اللفظ ونحو ذلك .

الآفة الرابعة: الفُحش والسبّ والبذاء^(١)، ونحو ذلك فإنه مذموم منهى عنه، ومصدره الخبث واللؤم .

وفي الحديث: «إياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»^(٢) .
«الجنة حرام على كل فاحش»^(٣) .

وفي حديث آخر: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»^(٤) .

وأعلم أن الفحش والبذاء هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ما يكون ذلك في ألفاظ الجَماع وما يتعلق به، فإن أهل الخير يتحاشون عن تلك العبارات ويكونونها .

ومن الآفات: الغناء، وقد سبق فيه كلام في غير هذا الموضع .

الآفة الخامسة: المزاح، أما اليسير منه، فلا يُنهى عنه إذا كان صدقاً .

فإن النبي ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقاً^(٥)، فإنه قال لرجل: «يا ذا

(١) البذاء، بالمد: الفحش، يقال: فلان بذيء اللسان من قوم أبذاء، والمرأة بذیئة .

(٢) أخرجه أحمد (٦٤٨٤ و ٦٧٨٩ و ٦٨٣٤) عن ابن عمرو . وبنحوه عن أبي هريرة عنده (٩٥٤٨) . وكلاهما في «الصحيحة» (٨٥٨) . وشطره الثاني في مسلم (٢١٦٥) عن عائشة .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا عن ابن عمرو . وهو في «ضعيف الجامع» (٢٦٦٧) . والصحيح أنه من قول ابن عمرو .

(٤) أخرجه أحمد (٣٨٣٧)، والترمذي [«صحيح سننه» (١٩٧٧/١٦١٠)] عن ابن مسعود . ورواه البيهقي والحاكم والطبراني في «الكبير» والبخاري في «الأدب المفرد» عن ابن عباس . والحديث في «صحيح الجامع» (٥٣٨١)، و«الصحيحة» (٣٢٠) .

(٥) سلفت جملة من أخلاقه ﷺ في الصفحة ١٧٩ . وانظر «ضعيف الجامع الصغير» (٢٦٦٧) .

الأذنين»^(١).

وقال لآخر: «إِنَّا حَامِلُوكَ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ»^(٢)، وقال للعجوز: «إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ» ثم قرأ: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً ۖ فَعَمَلْنَهُنَّ أَفْكَارًا ۖ﴾ [الواقعة]»^(٣)، وقال لأخرى: «زَوْجَكَ الَّذِي فِي عَيْنِهِ بَيَاضٌ؟»^(٤).

فَقَدْ اتَّفَقَ فِي مَزَاحِهِ ﷺ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: كَوْنُهُ حَقًّا.

والثاني: كونه مع النساء والصبيان، ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال.

والثالث: كونه نادراً، فلا ينبغي أن يَحْتَجَّ به من يريد الدوام عليه، فإن حكم النادر ليس كحكم الدائم، ولو أن إنساناً دار مع الْحَبَشَةِ لَيْلاً وَنَهَاراً يَنْظُرُ إِلَى لَعِبِهِمْ وَأَحْتِجَ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَفَ لِعَائِشَةَ وَأَذَنَ لَهَا أَنْ تَنْظُرَ إِلَى الْحَبَشَةِ^(٥)، لَكَانَ غَالِطاً، لِتُدَوِّرُ ذَلِكَ، فَالْإِفْرَاطُ فِي الْمَزَاحِ وَالْمَدَاوِمَةُ عَلَيْهِ مِنْهُيَ عَنْهُ، لِأَنَّهُ يَسْقُطُ الْوَقَارُ، وَيُوجِبُ الضَّغَائِنَ وَالْأَحْقَادَ، وَأَمَّا الْيَسِيرُ كَمَا تَقْدَمُ، مِنْ نَحْوِ نَوْعِ مَزَاحِ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ فِيهِ أَنْبَاطاً وَطِيبَ نَفْسٍ.

الآفة السادسة: السخرية والاستهزاء: ومعنى السخرية: الاحتقار والاستهانة، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يُضْحِكُ مِنْهُ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ بِالْمُحَاكَاةِ فِي الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْإِشَارَةِ وَالْإِيمَاءِ، وَكُلُّهُ مَمْنُوعٌ مِنْهُ فِي الشَّرْعِ، وَرَدَّ النَّهْيُ عَنْهُ فِي الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ.

(١) أخرجه أحمد (١٢١٤٨ و ١٢٢٧٠ و ١٣٥٢٨ و ١٣٧٢٣)، وأبو داود [صحيح سننه] (٤١٨٢/٥٠٠٢)، والترمذي [صحيح سننه] (١٦٢٢/١٩٩٢ و ٣٠٠٩/٣٨٢٨) عن أنس، وهو في «صحيح الجامع» (٧٩٠٩) و«المشكاة» (٤٨٨٧).
(٢) رواه أحمد (١٣٨٠١) عن أنس. وهو في «صحيح سنن الترمذي» (١٦٢٣/١٩٩٢).

(٣) هو في «الصحيح» (٢٩٨٧).

(٤) أخرجه الزبير بن بكار في «الفكاهة والمزاح»، وابن أبي الدنيا. قاله العراقي.

(٥) صحيح، سلف تخريجه في الصفحة (١٧٧) حاشية (١).

الآفة السابعة: إفشاء السرِّ وإخلاف الوعد، والكذب في القول واليمين، وكل ذلك منهى عنه، إلا ما رخص فيه من الكذب لزوجته، وفي الحرب، فإن ذلك يباح.

وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب، فهو فيه مباح إن كان ذلك المقصود مباحاً، وإن كان المقصود واجباً، فهو واجب، فينبغي أن يحترز عن الكذب مهما أمكن.

وتباح المعاريض^(١)، لقوله ﷺ: «إن في المعاريض مندوحة عن الكذب»^(٢)، وإنما تصلح المعاريض عند الحاجة إليها، فأما مع غير الحاجة، فمكروهة لأنها تُشبه الكذب.

فمن المعاريض ما روينا عن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه أنه أصاب جارية له، فعلمت أمرته، فأخذت شفرة، ثم أتت فوافقتة قد قام عنها، فقالت: أفعلتها؟ فقال: ما فعلت شيئاً، قالت: لتقرأن القرآن أو لأبعثنك بها، فقال رضي الله عنه:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا أنشئ معروف من الفجر ساطع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استقلت بالكافرين المضاجع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

قالت: آمنت بالله وكذبت بصري.

وكان التَّخَعِّي إذا طُلِبَ قال للجارية: قولي لهم: اطلبوه في المسجد.

الآفة الثامنة: الغيبة، وقد ورد الكتاب العزيز بالنهي عنها، وشبه صاحبها بأكِل الميتة.

(١) المعاريض: التورية بشيء عن شيء آخر، وهو خلاف التصريح.

(٢) رواه ابن الجوزي في «منهاج القاصدين» - الذي هو أصل هذا الكتاب - من طريق ابن أبي الدنيا، ورواه غيره أيضاً عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ، وهو ضعيف. وقد صح من قول عمران بن حصين نفسه، وكذا عمر بن الخطاب رواهما عنهما البخاري في «الأدب المفرد» (٨٥٧ و ٨٨٤). قاله الألباني في «الضعيفة» (١٠٩٤).

وفي الحديث : «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»^(١).

وعن أبي بَرزَةَ الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : «يا معشر مَنْ آمَنَ بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه : لا تَغْتَابُوا المسلمين ، ولا تَتَّبِعُوا عوراتهم ، فإنه مَنْ اتَّبَعَ عوراتهم تَتَّبِعَ الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يَفْضُخْهُ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»^(٢).

وفي حديث آخر : «إياكم والغَيْبَةَ ، فإن الغيبة أشدُّ من الزنى ، إن الرجل قد يزني ويشرب ، ثم يتوب ويتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه»^(٣).

وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما : إياك والغيبة ، فإنها إدامُ كلابِ الناس .

والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة مشهورة .

ومعنى الغيبة : أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بَلَغَهُ ، سواء كان نقصاً في بدنه : كالعَمَشِ ، والعَوَرِ ، والحَوْلِ ، والقَرَعِ ، والطول ، والقِصَرِ ، ونحو ذلك .

أو في نَسَبِهِ ، كقولك : أبوه نَبْطِيّ ، أو هندي ، أو فاسق ، أو خسيس ، ونحو ذلك .

أو في خُلُقِهِ كقولك : هو سَيِّئُ الخلق بخيل مُتَكَبِّرٍ ونحو ذلك .

أو في ثوبه ، كقولك : هو طويل الدَّيْلِ ، واسع الكُمِّ ، وَسِخَ الثَّيَابِ .

والدليل على ذلك ، أن النبي ﷺ سئل عن الغيبة قال : «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا

(١) أخرجه البخاري (١٧٣٩) عن ابن عباس ، و(٧٠٧٨) عن أبي بكر .

(٢) أخرجه أحمد (١٩٧٢١ و ١٩٧٤٦) ، وأبو داود [«صحيح سننه» (٤٠٨٣/ ٤٨٨٠)] . وهو في «صحيح الجامع» (٧٩٨٤) ، و«المشكاة» (٥٠٤٤) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» ، وابن حبان في «الضعفاء» ، وابن مردويه في «التفسير» عن جابر ، وأبي سعيد . وهو في «ضعيف الجامع» (٢٢٠٤) ، و«الضعيفة» (١٨٤٦) .

يكره». قال: أرايت إن كان في أخي ما أقول يا رسول الله؟ قال: «إن كان في أخيك ما تقول فَقَدْ أَغْتَبْتَهُ، وإن لم يكن فيه ما تقول فَقَدْ بَهْتَهُ»^(١).

وأعلم أن كل ما يُفهم منه مقصود الذم، فهو داخل في الغيبة، سواء كان بكلام أو بغيره، كالغمز، والإشارة، والكتابة بالقلم، فإن القلم أحد اللسّانين.

وأقبح أنواع الغيبة: غيبة المُتَرَهِّدين المُرائين، مثل أن يُذكر عندهم إنسان فيقولون: الحمد لله الذي لم يَبْتَلِنَا بالدخول على السلطان، والتبذُّل في طلب الحُطام، أو يقولون: نعوذ بالله من قلة الحياء، أو نسأل الله العافية، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم.

وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان: ذاك المسكين قد بُلِيَ بِآفة عظيمة، تاب الله علينا وعليه، فهو يُظهر الدعاء ويُخفي قُصده.

وأعلم أن المستمع للغيبة شريك فيها، ولا يتخلَّص من إثم سماعها إلا أن يُنكر بلسانه، فإن خاف، فبقَلْبِه، وإن قدر على القيام، أو قطع الكلام بكلام آخر، لزمه ذلك.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من أُذِلَّ عنده مؤمن وهو يقدر أن ينصُرَه أَذَلَهُ الله ﷻ على رؤوس الخلائق»^(٢).

وقال ﷺ: «مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مَنَافِقِ يَعييه، بعث الله مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ»^(٣).

ورأى عمرو بن عُتبة مولاة مع رَجُل وهو يقع في آخر، فقال له: ويلك نَزَّة سمعتك عَنِ اسْتِمَاعِ الْخَنَاءِ، كما تُنَزِّه نفسك عن القول به، فالمستمع شريك

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٤٠٧٩/٤٨٧٤)]، والترمذي [«صحيح سننه» (١٥٧٨/١٩٣٤)] عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (١٥٩٦٥) عن سهل بن حنيف. وهو في «ضعيف الجامع» (٥٣٨٠)، و«الضعيفة» (٢٤٠٢).

(٣) رواه أحمد (١٥٦٢٧) عن معاذ بن أنس. وهو في «صحيح أبي داود» (٤٠٨٦/٤٨٨٣)، و«المشكاة» (٤٩٨٦).

القائل، وإنما نظر إلى شر ما في وعائه فأفرغه في وعائك، ولو رُدَّت كلمة سفيه في فيه لَسَعَدَ بها رادُّها كما شقي بها قائلها .
وقد وردت أحاديث في حقَّ المسلم على المسلم، تقدمت في (كتاب: الصحبة).

فصل في بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها: أما الأسباب التي تبعث على الغيبة فكثيرة:

منها: تشقّي الغيظ، بأن يجري من إنسان في حق آخر سبب يوجب غيظه، فكلما هاج غضبه تشقّى بغيبة صاحبه .

السبب الثاني: من البواعث على الغيبة: موافقة الأقران ومجاملة الرُفقاء ومُساعدتهم، فإنهم إذا كانوا يَتَفَكَّهُون في الأعراض، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قَطَعَ كلامَهُمْ أَسْتَقْلَوْه ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حُسن المعاشرة .
الثالث: إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول: فلان جاهل، وفَهْمه ركيك، ونحو ذلك، وغَرَضُه أن يُثَبِّت في ضَمْنِ ذلك فَضْلَ نفسه، ويُريهم أنه أعلم منه .

وكذلك الحسد في ثناء الناس على شخص وحبُّهم له وإكرامهم، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك .

الرابع: اللعب والهزل، فيذكر غيره بما يُضْحِكُ الناس به على سبيل المحاكاة، حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا .

وأما علاج الغيبة، فَلْيَعْلَمْ المغتاب أنه بالغيبة متعرّض لسخط الله تعالى ومَقْتَه، وأن حسناته تُنْقَلُ إلى المغتاب إليه، وإن لم يكن له حسنات نُقِلَ إليه من سيئات خَصَمه، فمن أَسْتَحْضَرَ ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة .

وينبغي إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر في عيوب نفسه، ويشغل بإصلاحها، ويستحيي أن يعيب وهو معيب، كما قال بعضهم:

فإن عِبتَ قومًا بالذي فيك مثله فكيف يعيب الناس من هو أغورُ
وإن عِبتَ قومًا بالذي ليس فيهم فذلك عند الله والناس أكبرُ

وإن ظن أنه سليم من العيوب، فليتشاغل بالشكر على نِعَم الله عليه، ولا يُلَوِّث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة، وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له، فينبغي ألا يرضاهما لغيره من نفسه.

فليُنظر في السبب الباعث على الغيبة، فيجتهد على قطعه، فإن علاج العلة يكون بقطع سببها. وقد ذكرنا بعض أسبابها، فيعالج الغَضَب بما سيأتي في (كتاب: الغَضَب)، ويعالج موافقة الجلّاس بأن يعلم أن الله تعالى يغضب على من طلب رضا المخلوقين بسخطه، بل ينبغي أن يغضب على رُفَقائه، وعلى نحو هذا معالجة البواقي.

فصل: وقد تَحْصُلُ الغيبة بالقلب، وذلك سوء الظن بالمسلمين. والظن ما تَرَكُنَ إليه النفس ويميل إليه القلب، فليس لك أن تَظُنَّ بالمسلم شراً، إلا إذا أنكشف أمر لا يحتمل التأويل، فإن أخبرك بذلك عدل، فمال قلبك إلى تصديقه، كنتَ معذوراً، لأنك لو كذبتَه كنت قد أسأت الظن بالمُخْبِر، فلا ينبغي أن تُحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر، بل ينبغي أن تبحث، هل بينهما عداوة وحسد؟ فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك، ومتى خطر لك خاطرُ سوءٍ على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يَغِيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يُلقِي إليك خاطرَ السوء خيفةً من اشتغالك بالدعاء والمراعاة.

وإذا تحققت هفوة مسلم: فأنصحه في السر. وأعلم أن من ثمرات سوء الظن التجسُّس، فإن القلب لا يقنع بالظن، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس، وذلك منهى عنه، لأنه يوصل إلى هتاكِ سِرِّ المسلم، ولو لم ينكشف لك، كان قلبك أسلم للمسلم.

بيان الأعداء المرخصة في الغيبة وكفارة الغيبة: أعلم أن المرخص في ذكر مساوئ الغير، وهو غرض صحيح في الشرع، لا يمكن التوصل إليه إلا به، وذلك يدفع إثم الغيبة، وهو أمور:

أحدها: التظلم، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى من يستوفي حَقَّه.

الثاني : الاستعانة على تغيير المنكر، وردّ الظالم إلى منهاج الصلاح .
 الثالث : الاستفتاء، مثل أن يقول للمفتي : ظلمني فلان، أو أخذ حقي،
 فكيف طريقي في الخلاص؟ فالتعيين مباح، والأولى التعريض، وهو أن يقول :
 ما تقول في رجل ظلمه أبوه أو أخوه ونحو ذلك؟
 والدليل على إباحة التعيين حديث هند^(١) حين قالت : إن أبا سفيان رجل
 شحيح ولم ينكر عليها النبي صلى الله عليه وسلم .
 الأمر الرابع : تحذير المسلمين، مثل أن ترى متفقهاً يتردد إلى مُبتدِع أو
 فاسق، وتخاف أن يتعدى إليه ذلك، فلك أن تكشف له الحال .
 وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة أو الفسق، فتذكر ذلك للمشتري .
 وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة، له أن يذكر ما يعرفه على قُصد
 النُصح للمستشير، لا على قصد الوقعة، إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح .
 الخامس : أن يكون معروفاً بلقب كالأعرج، والأعمش، فلا إثم على من
 يذكره به، وإن وجد عن ذلك معدلاً كان أولى .
 السادس : أن يكون مجاهراً بالفسق . ولا يستنكف أن يُذكر به .
 وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : «مَنْ أَلْقَى جُلُبَابَ الْحَيَاءِ فَلَا غِيْبَةَ لَهُ»^(٢) .
 وقيل للحسن : الفاجر المُغلين بفجوره، ذكري له بما فيه غيبة؟ قال : لا،
 ولا كرامة .
 وأما كفارة الغيبة، فأعلم أن المُعتاب قد جنى جنايتين :
 إحداهما : على حق الله تعالى، إذ فعل ما نهاه عنه، فكفارة ذلك : التوبة
 والندم .

(١) أخرجه البخاري (٥٣٨٤ و ٧١٨٠)، ومسلم (١٧١٤) عن عائشة . وهو في
 «صحيح الجامع» (٣٢٢١)، و«الإرواء» (٢١٥٨) .
 (٢) أخرجه البيهقي عن أنس، وهو في «ضعيف الجامع الصغير» (٥٤٨٣)، و«سلسلة
 الأحاديث الضعيفة» (٥٨٥) .

والجناية الثانية: على عِرض المخلوق، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل، جاء إليه وأستحلّه، وأظهر له الندم على فعله.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه، من مال أو عرض، فليأت به فليستحلّها منه قبل أن يؤخّذ وليس عنده درهم ولا دينار، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطىها هذا، وإلا أخذ من سيئات هذا فالقي عليه»^(١).

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل، جعل مكان أستحلاله الاستغفار له، لئلا يُخبره بما لا يعلمه، فيؤغّر صدره.

وقد ورد في الحديث: «كفارة من أغتبت أن تستغفر له»^(٢).

وقال مجاهد: كفارة أكلك لحم أخيك أن تُثني عليه وتدعو له بخير، وكذلك إن كان قد مات.

الآفة التاسعة: من آفات اللسان: النميمة، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قَتَاتٌ»^(٣) - وهو التّمَام.

وأعلم أن النميمة تُطلق في الغالب على نقل قول إنسان، مثل أن يقول: قال فيك فلان كذا وكذا، وليست مخصوصة بهذا، بل حدّها كشف ما يُكره كشفه، سواء كان من الأقوال أو الأعمال، حتى لو رآه يَدفن مالاً لنفسه، فدّكره، فهو نميمة، وكل من نُقلت إليه النميمة - مثل أن يقال له: (قال فيك فلان كذا وكذا، أو فعَل في حقك كذا) ونحو ذلك - فعليه ستة أشياء.

الأول: ألا يصدق الناقل، لأن التّمَام فاسق مردود الشهادة.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٤)، وأحمد (٩٥٩٥) عن أبي هريرة.

(٢) حديث موضوع. رواه ابن أبي الدنيا. وهو في «ضعيف الجامع» (٤١٩٠)، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١٥١٩).

(٣) رواه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٤٠٧٦/٤٨٧١)]، والترمذي [«صحيح سننه» (٢٠٢٦/١٦٤٩)] عن حذيفة. وهو في «صحيح الجامع» (٧٦٧٢)، و«الصحيحة» (١٠٣٤).

الثاني: أن ينهأ عن ذلك وَيَنْصَحَهُ .

الثالث: أن يُنْعِضَهُ في الله ، فإنه بغيض عند الله .

الرابع: ألا يَظُنَّ بأخيه الغائبِ سوءً .

الخامس: ألا يَحْمِلَهُ ما حُكِيَ له على التجسس والبحث ، لقوله تعالى: ﴿وَلَا

يَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢] .

السادس: ألا يرضى لنفسه ما نهى التَّمَام عنه ، فلا يَحْكِي نَمِيمَةً .

ويُروى أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل: بلغني أنك وقعت فيّ ، وقلت

كذا وكذا . فقال الرجل: ما فعلتُ ، فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق ،

فقال الرجل: لا يكون التَّمَامُ صادقاً ، فقال سليمان: صدقت ، اذهب بسلام .

وقال يحيى بن أبي كثير^(١): يُفْسِدُ التَّمَامُ في ساعةٍ ما لا يفسد الساحرُ في

شهر .

وقد حكى أن رجلاً ساوَمَ بعبد ، فقال مولاه: إني أبرأ إليك من النَمِيمَةِ

والكذب ، فقال: نعم ، أنت بريء منهما ، فأشتراه . فجعل يقول لمولاه: إن

أمرأتك تبغي وتفعل ، وإنها تريد أن تقتلك ، ويقول للمرأة: إن زوجك يريد أن

يتزوج عليك ويتسرّى ، فإن أردت أن أُعْطِفَهُ عليك . فلا يتزوج ولا يتسرّى ،

فخذي الموصى وأحليقي شجرة من حلقه إذا نام ، وقال للزوج: إنها تريد أن

تقتلك إذا نمت . قال: فذهب فتناوم لها ، فجاءت بموصى لتحلق شعرة من

حلقه ، فأخذ بيدها فقتلها ، فجاء أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه .

الآفة العاشرة: كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين ، وينقل كلام

كل واحد إلى الآخر ، ويكلم كل واحد بكلام يوافقه ، أو يعده أنه ينصره ، أو

يشني على الواحد في وجهه ويذمه عند الآخر .

وفي الحديث: «إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء

بوجه»^(٢) .

(١) في المطبوع: «يحيى بن كثير» وهو خطأ .

(٢) رواه البخاري (٧١٧٩) ، ومسلم (٢٥٢٦) عن أبي هريرة .

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا فِي مَنْ لَمْ يَضْطُرَّ إِلَى ذَلِكَ ، فَأَمَّا إِذَا اضْطُرَّ إِلَى مَدَارَاةِ الْأَمْرَاءِ جاز .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إنا لَنَكْثِرُ^(١) في وجوه أقوام ، وإن قلوبنا لَتَلْعَنُهُمْ . ومتى قدر ألا يظهر موافقتهم لم يجز له .

الآفة الحادية عشر : المدح ، وله آفات : منها ما يتعلق بالمدح ، ومنها ما يتعلق بالمدح .

فأما آفات المدح ، فقد يقول ما لا يتحققه ، ولا سبيل للاطلاع عليه ، مثل أن يقول : إنه ورع وزاهد ، وقد يُفْرط في المدح فينتهي إلى الكذب ، وقد يمدح من ينبغي أن يُذَمَّ .

وقد روي في حديث : «إن الله يغضب إذا مُدح الفاسق»^(٢) .

وقال الحسن : من دعا لظالم بالبقاء ، فقد أحب أن يعصى الله .

وأما الممدوح ، فإنه يُخَدِّثُ فيه كِبَرًا أو إعجابًا ، وهما مُهْلِكَانِ .

ولهذا قال النبي ﷺ لما سمع رجلاً يمدح رجلاً : «ويلك ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ . . . » الحديث^(٣) ، وهو مشهور .

وقد روي عن الحسن قال : كان عمر رضي الله عنه قاعداً ومعه الدُّرَّةُ والناس حوله ، إذ أقبل الجارود ، فقال رجل : هذا سَيِّدُ رَبِيعَةَ ، فسمعها عمر رضي الله عنه وَمَنْ حوله ، وسمعها الجارود ، فلما دنا منه خَفَقَهُ^(٤) بالدُّرَّةِ ، فقال : ما لي ولك يا أمير

(١) في النسخة الثانية والمطبوع . «لنشكر» وهو تحريف ، والكثرة : التيسر ، والخبر علقه البخاري في «صحيحه» عن أبي الدرداء .

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» عن أنس . وهو في «ضعيف الجامع» (١٧٤٦) ، و«الضعيف» (٥٩٥ و ١٣٩٩) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٦٢) ، ومسلم (٣٠٠٠) ، وأبو داود [«صحيح سننه» (٤٠٢٠) / ٤٨٠٥] عن أبي بكر .

(٤) خفقه يخفقه ، بضم الفاء وكسرهما : ضربه .

المؤمنين؟ قال: ما لي ولك! أما سمعتها؟ قال: سمعتها، فَمَه؟ قال: خشيت أن يُخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطئ^(١) منك .

ولأن الإنسان إذا أثني عليه رضي عن نفسه، وظن أنه قد بلغ المقصود، فيفتر عن العمل، ولهذا قال: «قطعت عنق صاحبك...»^(٢).

فأما إذا سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس، فقد أثني النبي ﷺ على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة^(٣) رضي الله عنهم .

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر والعجب والفُتور عن العمل . ولا ينجو من هذه الآفات إلا أن يعرف نفسه، ويتفكر في أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه .

وقد روي أن رجلاً من الصالحين أثني عليه، فقال: اللهم إن هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني .

الآفة الثانية عشرة: الخطأ في فحوى الكلام فيما يرتبط في أمور الدين، لا سيما فيما يتعلق بالله تعالى، ولا يقدر على تقويم اللفظ بذلك إلا العلماء الفُصحاء، فمن قَصُر في علم أو فصاحة، لم يخلُ كلامه عن الزلل، لكن يعفو الله عنه لجهله .

مثال ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَقُل أحدكم: (ما شاء الله وشئت)، ولكن ليقل: (ما شاء الله ثم شئت)»^(٤)، وذلك لأن في العطف المُطلق تشريكاً وتسويةً .

(١) أي أخفض، حتى لا يصيبك الغرور .

(٢) راجع الحديث المخرج قبله .

(٣) فيه الكثير، ومنه ما في «السنة» لابن أبي عاصم .

(٤) أخرجه أبو داود [«صحيح سننه» (٤١٦٦/٤٩٨٠)]، وأحمد (٢٣٢٥٧) عن حذيفة، وهو في «الصحيحة» (١٣٧) .

وقريبٌ من ذلك إنكاره على الخطيب قوله: (من يعصهما فقد غوى)، وقال: «قل: (ومن يعص الله ورسوله)»^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يَقُلْ أحدكم: (عبيدي وأمتي) كلكم عبيدُ الله، وكلّ نسائكم إماء الله، ولكن ليقُل: (غلامي وجاريتي)»^(٢).

وقال النَّخَعِيُّ: إذا قال الرجل للرجل: (يا حمار، يا خنزير)، قيل له يوم القيامة: (أرأيتني خلقتك حماراً، أو أرأيتني خلقتك خنزيراً).

فهذا وأمثاله: مما يدخل في الكلام، ولا يمكن حصره، ومن تأمل ما أوردناه في آفات اللسان، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم، وعند ذلك يعرف سيرُّ قوله ﷺ: «من صَمَتَ نجاً»^(٣)، لأن هذه الآفات مهالكٌ وهي على طريق المتكلم، فإن سكت سَلِمَ.

فصل

ومن آفات العوام سؤالهم عن صفات الله سبحانه وتعالى وكلامه.

[الآفة الثالثة]

عِلم أن الشيطان يُخَيِّلُ إلى العامِّي أنك بِخَوْضِكَ في العلم تكون من العلماء وأهل الفضل، فلا يزال يُحَبِّبُ إليه ذلك حتى يتكلم بما هو كُفْرٌ وهو لا يدري.

قال النبي ﷺ: «يوشك الناس أن يسألوا، حتى يقولوا: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟»^(٤).

(١) أخرجه مسلم (٨٧٠) عن عَدِيٍّ بْنِ حَاتِمٍ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٩). وأخرج بعضه البخاري (٢٥٥٢) عن أبي هريرة. وهو في «الصحيح» (٨٠٣).

(٣) أخرجه أحمد (٦٤٧٨ و٦٦٥١)، والترمذي «صحيح سننه» (٢٥٠١/٢٠٣١) عن ابن عَمْرٍو. وهو في «الصحيح» (٥٣٦).

(٤) أخرجه مسلم (١٣٥)، وأبو داود «صحيح سننه» (٤٧٢١/٣٩٥١) عن أبي هريرة. وهو في «الصحيح» (١١٦ و١١٧).

فسؤال العوام عن غوامض العلم أعظم الآفات ، وبخثهم عن معاني الصفات مما يفسدهم لا مما يصلحهم ، إذ الواجب عليهم التسليم ، فالأولى بالعامي : الإيمان بما ورد به القرآن ، ثم التسليم بما جاء به الرسول من غير بحث ، وأشتغالهم بالعبادات ، فإن أشتغالهم بالبحث عن أسرار العلم ، كبحث سائمة الدواب عن أسرار الملك .

١٨ - كِتَابُ ذَمِّ الْغَضَبِ وَالْحَقْدِ وَالْحَسَدِ

أَعْلَمُ أَنَّ الْغَضَبَ شُعْلَةٌ مِنَ النَّارِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْزِعُ فِيهِ عِنْدَ الْغَضَبِ عَرَقٌ إِلَى الشَّيْطَانِ اللَّعِينِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ص: ٧٦] فَإِنَّ شَأْنَ الطِّينِ السَّكُونُ وَالْوَقَارُ، وَشَأْنَ النَّارِ التَّلْطُّيُّ وَالِاشْتِعَالُ، وَالْحَرَكَةُ وَالِاضْطِرَابُ.

وَمِنْ نَتَائِجِ الْغَضَبِ: الْحَقْدُ وَالْحَسَدُ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَمِّ الْغَضَبِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ لِلرَّجُلِ الَّذِي قَالَ لَهُ: أَوْصِنِي. قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»، فَرَدَّدَ عَلَيْهِ مَرَاراً، فَقَالَ: «لَا تَغْضَبْ»^(١).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ ابْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، مَاذَا يَبْعِدُنِي مِنَ غَضَبِ اللَّهِ ﷻ؟ قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»^(٢).

وَفِي الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^(٣).

وَعَنْ عِكْرِمَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] قَالَ: السَّيِّدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ وَلَا يَغْلِبُهُ غَضَبُهُ.

وَرَوَيْنَا أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ لَقِيَ مَلَكاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ: عَلَّمَنِي عِلْماً أَزْدَادُ بِهِ إِيمَاناً وَيَقِيناً قَالَ: لَا تَغْضَبْ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ أَقْدَرُ مَا يَكُونُ عَلَى ابْنِ آدَمَ حِينَ يَغْضَبُ، فَرُدَّ الْغَضَبُ بِالْكَظْمِ، وَسَكُنْهُ بِالتَّوَدَّةِ، وَإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ، فَإِنَّكَ إِذَا عَجَلْتَ أَخْطَأْتَ حَقْلَكَ، وَكَنْ سَهْلاً لَيْناً لِلْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَلَا تَكُنْ جَبَّاراً عَنِيداً.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦١١٦)، وَالتِّرْمِذِيُّ [«صَحِيحُهُ» (١٦٤٤/٢٠٢٠)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٧٥/٢) (٦٦٣٢).

(٣) الْبُخَارِيُّ (٦١١٤)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٠٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

ورويانا أن إبليس لعنه الله بدا لموسى عليه السلام ، فقال : يا موسى إياك والحِدة ،
فإني ألعِبُ بالرجل الحديد^(١) كما يلعب الصبيان بالكرة ، وإياك والنساء ، فإني
لم أنصب فحاً قط أثبت في نفسي من فح أنصبه بامرأة ، وإياك والشح ، فإني
أفسدُ على الشحيح الدنيا والآخرة .

وكان يقال : أتقوا الغضب ، فإنه يفسد الإيمان كما يُفسد الصبر العسل ،
والغضبُ عدوُّ العقل .

وحقيقة الغضب : غليان دم القلب لطلب الانتقام ، فمتى غضب
الإنسان ثارت نار الغضب ثوراناً يغلي به دم القلب ، وينتشر في العروق ،
ويرتفع إلى أعالي البدن ، كما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر ، ولذلك
يحمّر الوجه والعين والبشرة ، وكل ذلك يحكي لون ما وراءه من حُمرة الدم ،
كما تحكي الزُجاجة لون ما فيها ، وإنما ينبسط الدم إذا غضب على مَنْ دونه
وأستشعر القدرة عليه .

فإن كان الغضب صدرَ ممّن فوقه ، وكان معه بأس من الانتقام ، تَوَلَّدَ منه
أنقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب ، فصار حزناً ، ولذلك يصفرُّ
اللون ، وإن كان الغضب على نظير يشكُّ فيه ، تردّد الدم بين أنقباض وأنبساط ،
فيحمّر ويصفر ويضطرب ، فالانتقام هو قوتُ لقوة الغضب .

والناس في قوة الغضب على درجات ثلاث : إفراط ، وتفريط ، واعتدال .

فلا يُحمد الإفراط فيها ، لأنه يخرج العقل والدين عن سياستهما ، فلا يبقى
للإنسان مع ذلك نظر ولا فكر ولا اختيار .

والتفريط في هذه القوة أيضاً مذموم ، لأنه يبقى لا حمية له ولا غيرة ، ومن
فقد الغضب بالكُلّية ، عجز عن رياضة نفسه ، إذ الرياضة إنما تتم بتسلّط
الغضب على الشهوة ، فيغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة ،
ففقد الغضب مذموم ، فينبغي أن يطلب الوسط بين الطرفين .

(١) أي : الذي فيه حِدّة .

وأعلم أنه متى قويت نار الغضب وألتهبت، أعمت صاحبها، وأصمته عن كل موعظة، لأن الغضب يرتفع إلى الدماغ، فيُغطّي على معادن الفكر، وربما تعدى إلى معادن الحس، فتُظلم عينه حتى لا يرى بعينه، وتسود الدنيا في وجهه، ويكون دماغه على مثال كهف أضمرت فيه نار، فأسود جوه، وحَمِيَ مُستقرّه، وأمتلأ بالدخان، وكان فيه سراج ضعيف فأنطفأ، فلا يثبت فيه قدم، ولا تُسمع فيه كلمة، ولا ترى فيه صورة، ولا يقدر على إطفاء النار، فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ، وربما زاد الغضب فقتل صاحبه .

ومن آثار الغضب في الظاهر، تغير اللون، وشدة الرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن الترتيب، وأستحالة الخِلقَة وتعاطي فعل المجانين، ولو رأى الغُضبان صورته في حال غضبه وقُبْحها، لأنف نفسه من تلك الحال، ومعلوم أن قُبْح الباطن أعظم .

فصل في بيان الأسباب

المُهَيْجَة للغضب وذكر علاج الغضب

قد عرفت أن علاج كل علة بحسَم مادتها وإزالة أسبابها . فمن أسبابه: العُجب، والمزاح، والمماراة، والمُضَاذَة، والغدر، وشدة الجِرْص على فُضول المال والجاه، وهذه أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، فينبغي أن يقابل كل واحد من هذه بما يضاده، فيجتهد على حَسَم مواد الغضب وقطع أسبابه .

وأما إذا هاج الغضب فيعالج بأمور:

أحدها: أن يتفكر في الأخبار الواردة في فضل كَظْم الغيظ، والعفو، والحلم، والاحتمال، كما جاء في البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً استأذن على عمر رضي الله عنه، فأذن له، فقال له: (يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل^(١))، ولا تحكم بيننا بالعدل) فغضب عمر رضي الله عنه، حتى هَمَّ

(١) أي: الكثير من العطية، يقال: عطاء جزل وجزيل .

أَنْ يُوقَعَ بِهِ^(١) . فَقَالَ الْحُرُّ بْنُ قَيْسٍ : (يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ خُذِ الْقَمْعَ وَأُمِّرْ بِالْعَرَفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِيلِ ﴾ [الأعراف] وَإِنْ هَذَا مِنْ الْجَاهِلِينَ)^(٢) فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عَمْرٌ ﷺ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ وَكَانَ وَقَافاً عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

الثاني : أَنْ يُخَوِّفَ نَفْسَهُ عِقَابَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ : (قُدْرَةُ اللَّهِ عَلَيَّ أَعْظَمُ مِنْ قُدْرَتِي عَلَى هَذَا الْإِنْسَانِ ، فَلَوْ أَمْضَيْتَ فِيهِ غَضَبِي لَمْ أَمِنْ أَنْ يَمْضِيَ اللَّهُ ﷻ غَضَبَهُ عَلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَأَنَا أَخْوَجُ مَا أَكُونُ إِلَى الْعَفْوِ) .

وقد قال الله تعالى في بعض الكتب : يَا أَبْنَى آدَمَ أَذْكُرْنِي عِنْدَ الْغَضَبِ ، أَذْكُرْكَ حِينَ أَغْضِبُ ، وَلَا أَمْحَقْكَ فِي مَنْ أَمْحَقُ^(٣) .

والثالث : أَنْ يُحَذِّرَ نَفْسَهُ عَاقِبَةَ الْعِدَاوَةِ ، وَالْإِنْتِقَامِ ، وَتَشْمِيرِ الْعَدُوِّ فِي هَدْمِ أَعْرَاضِهِ وَالشَّمَاتَةِ بِمَصَائِبِهِ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَخْلُو عَنْ الْمَصَائِبِ ، فَيَخَوِّفُ نَفْسَهُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا إِنْ لَمْ يَخَفْ مِنَ الْآخِرَةِ . وَهَذَا هُوَ تَسْلِيْطُ شَهْوَةِ عَلَى غَضَبِ ، وَلَا ثَوَابَ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ تَقْدِيمُ لِبَعْضِ الْحِظْوِظِ عَلَى بَعْضِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْذُورُهُ أَنْ يَتَغَيَّرَ عَلَيْهِ أَمْرٌ يَعْنِيهِ عَلَى الْآخِرَةِ ، فَيُثَابَ عَلَى ذَلِكَ .

الرابع : أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي قُبْحِ صَوْرَتِهِ عِنْدَ الْغَضَبِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، وَأَنَّهُ يُشَبِّهُ حِينَئِذٍ الْكَلْبَ الضَّارِي ، وَالسَّبُعَ الْعَادِي ، وَأَنَّهُ يَكُونُ مُجَانِباً لِأَخْلَاقِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ فِي عَادَاتِهِمْ ، لِيَتَمِيلَ نَفْسَهُ إِلَى الْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ .

الخامس : أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي السَّبَبِ الَّذِي يَدْعُوهُ إِلَى الْإِنْتِقَامِ ، مِثْلَ أَنْ يَكُونَ سَبَبُ غَضَبِهِ أَنْ يَقُولَ لَهُ الشَّيْطَانُ : (إِنَّ هَذَا يُحْمَلُ مِنْكَ الْعَجْزُ ، وَالذُّلَّةُ وَالْمَهَانَةُ ، وَصِغَرُ النَّفْسِ ، وَتَصْيِيرُ حَقِيرٍ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ) . فَلْيَقِلْ لِنَفْسِهِ : (تَأْتَفِينِ مِنَ الْإِحْتِمَالِ الْآنَ ، وَلَا تَأْتَفِينِ مِنْ خِزْيِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْإِفْتِضَاحِ إِذَا أَخَذَ هَذَا

(١) أَي يُنْزَلُ بِهِ مَا يَسُوؤُهُ .

(٢) هُوَ فِي الْبُخَارِيِّ (٤٦٤٢ وَ ٧٢٨٦) .

(٣) فَذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِنْدَ الْغَضَبِ ، يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ الْغَضْبَانَ مُحْتَرَساً مِنَ الْوُقُوعِ فِيهِ لَا يَرْضَى اللَّهُ .

بيدك وأنتقم منك، وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله تعالى وعند الملائكة والنبين).

وينبغي أن يكظم غيظه، فذلك يُعظمه عند الله تعالى، فماله وللناس؟ أفلا يجب أن يكون هو القائم يوم القيامة إذا نودي: (ليقم من ﴿وَقَعَ أَجْرُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠])، فلا يقوم إلا من عفا^(١)، فهذا وأمثاله ينبغي أن يُقرره على قلبه.

السادس: أن يعلم أن غضبه إنما كان من شيء جرى على وفق مراد الله تعالى، لا على وفق مراده، فكيف يقدم مراده على مراد الله تعالى؟ هذا ما يتعلق بالقلب.

وأما العمل، فينبغي له: السكون^(٢)، والتعود^(٣)، وتغيير الحال^(٤)، فإن كان قائماً جلس، وإن كان جالساً اضطجع، وقد أمرنا بالوضوء أيضاً عند الغضب^(٥)، فهذه الأمور وردت في الأحاديث.

أما الحكمة في الوضوء عند الغضب، فقد بينها في الحديث كما روى أبو وائل قال: كنا عند عروة بن محمد، فكلّمه رجل بكلام، فغضب غضباً

(١) إسناده واه، سيأتي في الصفحة (٢٣٢) الحاشية (٢).

(٢) وفيه ما أخرجه أحمد وغيره عن ابن عباس مرفوعاً: «إذا غضبت فاسكت». وهو في «صحيح الجامع» (٦٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠) من حديث سليمان بن صرد. ولقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠، فصلت: ٣٦].

(٤) أخرجه كاملاً من فعله ﷺ ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف عن أبي هريرة. وهو بلفظ: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب؛ ... وإلا؛ فليضطجع». في «صحيح الجامع» (٦٩٤) عن أبي ذر.

(٥) أخرجه أحمد (١٧٩٥٠)، وأبو داود [ضعيف سننه] (١٠٢٥/٤٧٨٤). وهو في «ضعيف الجامع» (١٥١٠)، و«الضعيفة» (٥٨٢).

شديداً، فقام وتوضأ، ثم جاء فقال: حدثني أبي عن جدي عطية - وكانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تُطْفَأُ النارُ بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»^(١).

وأما الجلوس والأضطجاع، فيمكن أن يكون إنما أمر بذلك ليقرب من الأرض التي منها خلق، فيذكر أصله فيذلّ، ويمكن أن يكون ليتواضع بذلّه، لأن الغضب ينشأ من الكبر؛ بدليل ما روى أبو سعيد، عن النبي ﷺ أنه ذكر الغضب وقال: «من وجد شيئاً من ذلك، فليلصق خدّه بالأرض»^(٢).

وقيل: غضب المهدي على رجل، فدعا بالسيّاط، فلما رأى شبيب شدة غَضَبِهِ، وإطراق الناس، فلم يتكلموا بشيء، قال: يا أمير المؤمنين، لا تُغَضِبَنَّ الله بأشدّ مما غضب لنفسه، فقال: خَلُّوا سبيله.

فصل في كظم الغيظ

قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فذكر ذلك في معرض المدح.

وعن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء»^(٣).

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: من اتقى الله لم يَشْفِ غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه أحمد (١١١٢٧ و ١١٥٧٣)، وهو في «ضعيف سنن الترمذي» (٣٨٥/ ٢١٩٢) بلفظ: «فليلصق بالأرض».

(٣) أخرجه أحمد (١٥٦١٥)، وأبو داود [«صحيحه» (٣٩٩٧/ ٤٧٧٧)]، والترمذي [«صحيحه» (١٦٤٥/ ٢٠٢١ و ٢٤٩٣/ ٢٠٢٦)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٧٥/ ٤١٨٦)] عن معاذ بن أنس. وهو في «صحيح الجامع» (٦٥١٨).

فصل في الحلم

روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالحلم»^(١).

«أطلبوا العلم، وأطلبوا مع العلم السكينة والحلم، لينوا لمن تعلمون ولمن تعلمون منه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء، فيغلب جهلهم عليكم»^(٢). وقال ﷺ لأشج^(٣) عبد قيس:

«إن فيك خُلُقَيْنِ يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»^(٤)

وشتم رجلَ ابنِ عباس رضي الله عنه، فلما قضى مقالته، فقال: يا عِكرِمةُ، انظر هل للرجل حاجة فنقضها؟ فنكس الرجل رأسه وأستحيا.

وأسمع رجلَ معاوية رضي الله عنه كلاماً شديداً، فقليل له: لو عاقبته؟ فقال: إني لأستحي أن يضيق حلمي عن ذنبِ أحدٍ من رعيَّتِي.

وقسم معاوية نطعاً^(٥)، فبعث منها إلى شيخ من أهل دمشق فلم يعجبه، فجعل عليه يميناً أن يضرب رأس معاوية، فأتى معاوية فأخبره، فقال له معاوية: أوفِ ببنِّدرك وأرفق بالشيخ.

وجاء غلام لأبي ذرٍّ وقد كسر رجلَ شاةٍ له، فقال له: من كسر رجل هذه؟ قال: أنا فعلته عمداً لأغيظك، فتضربني، فتأثم. فقال: (لاغيظن من حرّضك على غيظي) فأعتقه.

(١) هو في «الصحيحة» (٣٤٢)، و«صحيح الجامع» (٢٣٢٨).

(٢) رواه ابن السني في «رياضة المتعلمين» بسند ضعيف.

(٣) هذا لقبه، واسمه: المنذر بن عائد بن الحارث العَصْرِي - بمهملتين مفتوحتين - نزل البصرة ومات بها.

(٤) أخرجه مسلم (١٧)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٢٠١١/١٦٣٦)]، والترمذي [«صحيح سننه» (٤١٨٨/٣٣٧٦)] عن ابن عباس.

(٥) جاء في «القاموس»: النطع بالكسر وبالفتح وبالتحريك: بساط من الأديم، أي: من الجلد. وما أظن هذه القصة إلا مكذوبة على معاوية رضي الله عنه.

وشتم رجل عدي بن حاتم وهو ساكت، فلما فرغ من مقالته قال: إن كان بقي عندك شيء، فقل قبل أن يأتي شباب الحي، فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا.

ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلة في الظلمة، فمر برجل نائم فعثر به، فرفع رأسه وقال: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا، فهتم به الحرس، فقال عمر: (مه، إنما سألتني أمجنون؟ فقلت: لا).

ولقي رجل علي بن الحسين رضي الله عنهما، فسبه، فثارت إليه العبيد، فقال: مهلاً، ثم أقبل على الرجل فقال: ما ستر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة تُعينك عليها؟ فاستحى الرجل، فألقى عليه خميصة^(١) كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الرسول.

وقال رجل لوهب بن مُنَبِّه: إن فلاناً شتمك، فقال: ما وجد الشيطان بريداً غيرك؟!

فصل في العفو والرفق

أعلم أن معنى العفو أن تستحق حقاً فتُسْقِطه، وتؤدي عنه من قصاص أو غرامة، وهو غير الجلم والكظم. قال الله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وفي الحديث أن النبي ﷺ، قال: «ما نَقَصَتْ صدقةٌ من مالٍ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»^(٢).

وعن عُقْبَةَ بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عقبة، ألا أخبرك بأفضل

(١) الخميصة: كساء أسود مربع له علمان، فإن لم يكن معلماً فليس بخميصة.

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي [«صحيحه» (٢٠٢٩/١٦٥٢)] عن أبي هريرة. وهو في «صحيح الجامع» (٥٨٠٩)، و«الصحيح» (٢٣٢٨)، و«الإرواء» (٢٢٠٠).

أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ، وتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وتَغْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ»^(١).

وروي أن منادياً ينادي يوم القيامة: لِيَقُمْ مَنْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، فلا يقوم إلا من عفا عمن ظلمه^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعَنْفِ»^(٣).

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»^(٤).

وفي حديث آخر: «مَنْ يُحْرِمِ الرَّفْقَ يُحْرِمِ الْخَيْرَ»^(٥).

باب في الحقد والحسد

أَعْلَمُ أَنَّ الْغَيْظَ إِذَا كُظِمَ لَعَجَزَ عَنِ التَّشْفِي فِي الْحَالِ رَجَعَ إِلَى الْبَاطِنِ، فَاحْتَقَنَ فِيهِ فَصَارَ حِقْدًا.

وعلامته دوام بُغْضِ الشَّخْصِ وَأَسْتِثْقَالُهُ وَالنَّفُورُ مِنْهُ، فَالْحَقْدُ ثَمَرَةُ الْغَضَبِ، وَالْحَسَدُ مِنْ نَتَائِجِ الْحَقْدِ.

وعن الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأَمِّمْ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ»^(٦).

(١) رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني، والبيهقي بإسناد ضعيف. ورواه أحمد (١٧٤٢٠) بنحوه دون جملة: «أَلَا أُخْبِرُكَ».

(٢) أخرجه الطبراني في «مكارم الأخلاق» من حديث أنس بإسناد واهٍ.

(٣) رواه الطبراني والبخاري. وهو في «صحيح الجامع» (١٧٧١).

(٤) رواه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٦٠٢٤). وهو في «صحيح الجامع» (١٧٧١).

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٩٢)، وأحمد (١٩١٥٧ و ١٩٢٠١)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٤٨٠٩/٤٠٢٤)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٣٦٨٧/٢٩٧٣)] عن جرير بن عبد الله البجلي.

وهو في «صحيح الجامع» (٦٦٠٦).

(٦) أخرجه أحمد (١٤١١ و ١٤٢٩ و ١٤٣٠). وهو في «صحيح الترمذي» (٢٠٣٨/٢٥١٠).

(٢٥١٠)، «إرواء الغليل» (٧٧٧)، و«صحيح الجامع» (٣٣٦١/١).

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ قال: «لا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(١).

وفي حديث آخر عنه ﷺ أنه قال: «إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»^(٢).

وفي حديث آخر أنه قال: «يَطْلُعُ عليكم من هذا الفَجِّ^(٣) رجل من أهل الجنة، فطلع رجل، فسئل عن عمله، فقال: إني لا أجد لأحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه»^(٤).

وروي أن الله تبارك وتعالى يقول: (الحاسد عدو نعمتي، مُتَسَخِّطٌ لقضائي، غير راضٍ بقسمتي بين عبادي).

وقال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى النار.

وقال إبليس لنوح عليه السلام: إياك والحسد، إنه صَيَّرَنِي إلى هذه الحال. وأعلم أن الله تعالى إذا أنعم على أخيك نعمة، فلك فيها حالتان: إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، فهذا هو الحسد.

-
- (١) أخرجه البخاري (٦٠٦٥ و ٦٠٧٦)، ومسلم (٢٥٦٣)، وأبو داود [«صحيح سننه» (٤١٠٣/٤٩١٠)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٣٨٤٩/٣١٠٤)] عن أنس. وهو في «صحيح الجامع» (٧١٩٩ و ٧٢٠٠)، و«غاية المرام» (٤٠٤).
 (٢) أخرجه أبو داود [«ضعيف سننه» (٤٩٠٤/١٠٤٨)]، وابن ماجه [«ضعيف سننه» (٤٢٢/٩٢٢)] عن أبي هريرة. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٧٨١)، و«الضعيفة» (١٩٠٢ و ١٩٠١).

- (٣) الفج بالفتح: الطريق الواسع بين الجبلين، والجمع فجاج.
 (٤) أخرجه أحمد (١٢٦٨١) عن أنس وباختلاف في اللفظ. وظاهر إسناده أنه صحيح على شرط الشيخين، إلا أن حمزة الكناني قال: لم يسمعه الزهري من أنس، رواه عن رجل عن أنس . . . وهو الصواب. انظر «تحفة الأشراف» ١/ (١٥٥٠).

والحالة الثانية: ألا تكره وجودها ولا تحب زوالها، ولكنك تشتبه لنفسك مثلها، فهذا يُسمى غِبْطَة.

قال المصنف رحمه الله:

قلت: وأعلم أنني ما رأيت أحداً حَقَّقَ الكلام في هذا كما ينبغي، ولا بد لي من كَشْفِهِ فأقول:

أعلم أن النفس قد جُبِلَتْ على حب الرِّفْعَة، فهي لا تحب أن يعلَوْها جنسها فإذا علا عليها، شَقَّ عليها وكرهته، وأَحَبَّتْ زوال ذلك ليقع التساوي، وهذا أمر مركوز في الطَّبَاع.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث لا ينجو منهن أحد: الظن، والطَّيْرَة، والحسد، وسأحدثكم ما المخرج من ذلك، إذا ظننت فلا تُحَقِّقْ، وإذا طَئِرْتَ فأمْضِ، وإذا حسدت فلا تَبْغِ»^(١).

وعلاج الحسد، تارة بالرضا بالقضاء، وتارة بالزهد في الدنيا، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلَّى بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلاً، ولا ينطق، فإذا فعل ذلك لم يَضُرْه ما وُضِعَ في جِبِلَّتِهِ.

فأما من يحسد نبياً على بُبُوَّتِهِ، فيحب ألا يكون نبياً؛ أو عالماً على علمه، فيؤثر ألا يُرْزَقَ ذلك أو يزول عنه، فهذا لا عذر له، ولا تُجِبَلُ عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة، فأما إن أحب أن يسبق أقرانه، ويَطْلُعَ على ما لم يدركوه، فإنه لا يأثم بذلك، فإنه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم، بل أحب الارتفاع عنهم ليزيد حظه عند ربه، كما لو استبقَ عبدان إلى خدمة مولاها، فأحب أحدهما أن يستبق. وقد قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (٢٦) [المطففين].

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الحسد» من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٥٢٦ و ٢٥٢٧)، و«غاية المرام» (٣٠٢) نحوه.

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر^(١) رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله ﷻ القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه في الحق آناء الليل وآناء النهار»^(٢).
والحسد له أسباب:

أحدها: العداوة، والتكبر، والعجب، وحب الرياسة، وخبث النفس، وبخلها.

وأشدها: العداوة والبغضاء، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب، وخالفه في غرضه، أبغضه قلبه، ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك، وظنه مكافأة من الله تعالى له، ومهما أصابته نقمة ساءه ذلك، فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقى ألا يبغى، وأن يكره ذلك من نفسه، فأما أن يبغض إنساناً فيستوي عنده مسرته ومساءته، فهذا غير ممكن.

وأما الكبر، فهو أن يُصيب بعض نظرائه مالا أو ولاية، فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره، أو يكون من أصاب ذلك دونه، فلا يحتمل ترفعه عليه أو مساواته. وكان حسد الكفار لرسول الله ﷺ قريبا من ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٢١] وقال في حق المؤمنين: ﴿أَهْتُولَاءَ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] وقال في آية أخرى: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] وقال: ﴿وَلَكِن أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَافِرُونَ﴾ [٢٤]. [المؤمنون] فعجبوا وأنفوا من أن يفوز برتبة الرسالة بشر مثلهم فحسدوهم.

وأما حب الرياسة والجاه، فمثاله: أن الرجل الذي يريد أن يكون عديم النظر في فن من الفنون، إذا غلب عليه حب الثناء، وأستفزّه الفرح بما يُمدح

(١) في المطبوع: من حديث عمر، ولا يعرف من حديثه، بل من حديث ابنه.

(٢) رواه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٥)، والترمذي «صحيحه» (١٩٣٦/١٥٨٠).

به، من أنه أوحّد العصر، وفريد الدهر في فنه، إذا سمع بنظير له في أقصى العالم، ساءه ذلك، وأحبّ موته، أو زوال النعمة التي بها يشاركه في علم، أو شجاعة، أو عبادة، أو صناعة، أو ثروة، أو غير ذلك، وليس ذلك إلا لِمَخْضِ الرياسة بدعوى الانفراد.

وقد كان علماء اليهود يُنْكِرُونَ معرفة النبي ﷺ، ولا يؤمنون خوفاً من بطلان رئاستهم.

وأما خُبْثُ النفس وشُحُّها على عباد الله، فإنك تجد من الناس من لا يشتغل برئاسة ولا تكبر، وإذا وُصِفَ عنده حُسْنُ حالٍ عبدٍ من عباد الله تعالى فيما أنعم عليه به، شقّ عليه ذلك، وإذا وُصِفَ له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وتنغيص عيشتهم، فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من مُلكه وخزائنه.

وقد قال بعض العلماء: البخيل من يبخل بمال نفسه، والشحيح الذي يبخل بمال غيره، فهذا يبخل بنعمة الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة، ولهذا ليس له سبب إلا خُبْثُ النفس ورداءة الطبع، وهذا معالجته شديدة، لأنه ليس له سبب عارض، فيعمل على إزالته، بل سببه خُبْثُ الجِبِلَّةِ، فيعسر إزالته، فهذه أسباب الحسد.

فصل

وأعلم أنما يكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التي [بيان السبب في
ذكرناها، ويقع ذلك غالباً بين الأقران، والأمثال، والإخوة، وبني
كثرة الحسد بين
العمّ، لأن سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل
الأمثال والأقران
و...]. التناقض فيها، فيثور التنافر والتباغض.

ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، والإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البرّاز إلا أن يكون سبب آخر، لأن مقصد كل واحد من هؤلاء غير مقصد الآخر.

فأصل العداوة التزاحمُ على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين، إذ لا رابطة بين شخصين في بلدين، ولا يكون بينهما محاسدة إلا من أشتد حرصه على الجاه، فإنه يحسد كل من في العالم ممن يساهمه في الخصلة التي يفاخر بها.

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين، وأما الآخرة، فلا ضيق فيها، فإن من أحب معرفة الله تعالى، وملائكته، وأنبيائه ومَلَكَوتِ أرضه وسماؤه، لم يحسد غيره إذا عَرَفَ ذلك، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين، بل المعلوم الواحد يعرفه أَلْفُ أَلْفِ عَالِمٍ، ويفرح بمعرفته غيره، فلذلك لا يكون بين علماء الدين مُحاسدة، لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه، وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله، ولا ضيق فيما عند الله، لأن أجل ما عند الله من النعيم لذة لقائه، وليس فيه ممانعة ولا مزاحمة، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض، بل يزيد الأُنس بكثرتهم، إلا أنه إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا.

والفرق بين العلم والمال، أن المال لا يَجِلُّ في يد ما لم يرتحل عن يد أخرى، والعلم مُسْتَقَرٌّ في قلب العالم، ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه، ولا نهاية له، فمن عوّد نفسه الفكر في جلال الله وعَظَمَتِهِ ومُلْكِهِ، صار ذلك عنده أَلَدُّ من كل نعيم، لأنه لم يكن ممنوعاً عنه ولا مُزاحماً فيه، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق، لأن غيره لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته.

فقد عرفت أنه لا حسد إلا في المتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل، ولهذا لا ترى الناس يتزاحمون على النظر إلى زينة السماء، لأنها واسعة الأقطار، وافية بجميع الأبصار، فعليك إن كنت شقيقاً على نفسك أن تطلب نعيماً لا زحمة فيه، ولذة لا تتكدر، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله تعالى وعجائب مَلَكَوتِهِ، ولا ينال ذلك في المعرفة أيضاً، فإن كنت لا تشاق إلى معرفة الله سبحانه، ولم تجد لذتها، وضَعُفَتْ فيها رغبتك، فليست برجل، إنما هذا شأن الرجال، لأن الشوق بعد الذوق، ومن لم يَذُقْ لم

يعرف، ومن لم يعرف لم يَشْتَقْ، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يُدْرِكْ، ومن لم يدرك بَقِيَ من المحرومين.

[[دواء الحسد]] القلوب إلا بالعلم، والعمل:

والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف حقيقة أن الحسد ضَرَّرَ عليك في الدين والدنيا، وأنه لا يَضُرُّ المحسودَ في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع به، والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك، ولو لم تكن تؤمن بالبعث لكان مُقتضى الفِطْنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد، لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع، فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب في الآخرة.

وبيان قولنا: (إن المحسود لا ضرر عليه في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع بحسدك في الدين والدنيا) لأن ما قَدَّرَه الله له من نعمة لا بد أن تدوم إلى أجله الذي قَدَّرَه، ولا ضرر عليه في الآخرة، لأنه لا يَأْثُم هو بذلك، بل يَنْتَفِع به، لأنه مظلوم من جِهَتِكَ، لا سيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل. وأما منفعته في الدنيا، فهو أن من أهُمَّ أغراض الخلق غَمُّ الأعداء، ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحسد.

فإذا تأملت ما ذكرنا، علمت أنك عدو لنفسك، وهو صديق لعدوك، فما مثلك إلا كمثل من يرمي حجراً إلى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه، ويرجع الحجر على حَدِّقته اليمنى فيَقْلَعها، فيَزِيد غضبه، فيعود ويرميه بحجر أشد من الأول، فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيَعْمِيها، فيزداد غَيْظَه، فيرميه الثالثة، فيعود الحجر على رأسه فيَنشِدُخه، وعدوه سالمٌ يضحك منه، فهذه الأدوية العلمية، فإذا تَفَكَّر الإنسان فيها، أُخْمِدَتْ نارُ الحسد من قلبه.

وأما العمل النافع فيه، فهو أن يتكلف نَقِيض ما يأمره به الحسد، فإذا بعثه على الحقد والقَدْح في المحسود، كَلَّف نفسه المدح له، والثناء عليه، وإن حمّله على الكِبَر، ألْزَم نفسه التواضع له، وإن بعثه على كَفِّ الإنعام عنه، ألْزَم نفسه زيادةً في الإنعام. وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصاً أَعْتَابهم، أَهْدَوْا إليه هدية.

فهذه أدوية نافعة للحسد جداً، إلا أنها مُرَّة، وربما يُسهَّلُ شُرْبُهَا أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ
إذا كان لا يكون كُلُّ ما تريد، فَأَرِذْ ما يكون. وهذا هو الدواء الكلبي، والله
أعلم.
[كتاب: ذم
الدنيا]

باب في ذم الدنيا

الآيات الواردة في القرآن العزيز بِعَيْبِ الدنيا، والتزهيد فيها، وضرب الأمثال
لها كثيرة، كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾^(١) إلى قوله: ﴿ذَلِكَ
مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدُ حُسْنِ الْمَتَابِ﴾^(٢) قُلْ أُوْنِتَكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ
ذَلِكَ﴿ الآية، وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾^(٣) [آل عمران.
الحديد: ٢٠]، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية^(٤)،
وقوله: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقوله: ﴿وَإِنْ
كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٥) [الزخرف]،
وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٦) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنْ
الْعِلْمِ﴿ [النجم].

وأما الأحاديث، ففي «الصحيحين» من رواية المُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في
اليم، فليُنْظَرِ بِمَ يَرْجِعُ؟»^(٣).

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤ وتامها: ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنْطَرِ الْمُقَنْطَرَةِ
مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدُ حُسْنِ الْمَتَابِ﴾^(١٤).
(٢) سورة يونس، الآية ٢٤ وتامها: ﴿فَأَخْلَقَ فِيهَا نَاسًا يَكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى
إِنَّا أَنْزَلْنَا الْأَرْضَ زُخْرُفًا وَأَزَيْنَتْ وَطَرًا أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدْ زُورَتْ عَلَيْهِمْ أَنْهَذَا أُمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا
فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمِينِ كَذَلِكَ نَقْصِلُ الْآبَتَيْنِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢٤).
(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨)، والترمذي [«صحيحه» (١٨٩٢/٢٣٢٣)]، وابن ماجه
[«صحيح سننه» (٤١٠٨/٣٣١٦)]. ولم أره في البخاري.

وفي حديث آخر: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(١) رواه مسلم .

وفي حديث آخر: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»^(٢) . رواه الترمذي وصححه .

وفي حديث آخر: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها»^(٣) .

وروى أبو موسى، عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب دنياه، أضُرَّ بآخرته، ومن أحب آخرته، أضُرَّ بدنيته، فأثروا ما يبقى على ما يفنى»^(٤) .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتاباً طويلاً فيه :

أما بعد: فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام، وإنما أنزل إليها آدم عقوبةً، فأحذرهما يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، تذلُّ مَنْ أعزَّها، وتُفقر من جمَعها، كالسُّم يأكله من لا يعرفه وهو حَتْفُه، فأحذر هذه الدار الغرارة الختالة الخداعة، وكن أسراً ما تكون فيها: أخذَر ما تكون لها، سرورها مشوب بالحزن، وصفوها مشوب بالكدر، فلو كان الخالق لم يُخبر

(١) هو في مسلم (٢٩٥٦)، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٣٢٤/١٨٩٣)، و«صحيح الجامع الصغير» (٢٤١٢).

(٢) هو في «صحيح الترمذي» (٢٣٢٠/١٨٨٩) عن سهل بن سعد. وفي «الصحيحة» (٩٤٣)، و«صحيح الجامع» (٥٢٩٢).

(٣) روى الترمذي [«صحيحه» (٢٣٢٢/١٨٩١)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٢٠/٤١١٢)] عن أبي هريرة نحوه. وهو في «صحيح الجامع» (٣٤١٤)، و«المشكاة» (٥١٧٦).

وعن جابر واللفظ له، وقال عنه الشيخ الألباني: ضعيف، انظر «ضعيف الجامع الصغير» (٣٠١٩).

(٤) رواه أحمد (١٩٦٤٣)، والحاكم ٣٠٨/٤ عن أبي موسى الأشعري. وفيه انقطاع. وقال عنه الشيخ الألباني: ضعيف، انظر «مشكاة المصابيح» (٥١٧٩)، و«ضعيف الجامع الصغير وزيادته: الفتح الكبير» للألباني طبع المكتب الإسلامي رقم ٥٣٤٠.

عنها خَبَرًا، ولم يضرب لها مثلاً، لكانت قد أيقظتِ النَّائم، وتَبَهَّتِ الغافل، فكيف وقد جاء من الله ﷻ عنها زاجرٌ، وفيها واعظٌ، فما لها عند الله سبحانه قَدْرٌ ولا وَزَنٌ، ما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عُرِضَتْ على نبيِّنا محمد ﷺ مفاتيحُها وخزائنها^(١)، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، وكرِه أن يُحِبَّ ما أبغض خالقُه، أو يرفع ما وَّضَعَ مَلِكُه، زواها الله عن الصالحين اختياراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، أَفَيَظُنُّ المغرور بها الْمُقْتَدِرُ عليها أنه أَكْرَمُ بها؟ ونسي ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شَدَّ على بطنه الحَجَرَ^(٢)، والله ما أَحَد من الناس بُسِطَ له في الدنيا، فلم يَخَفْ أن يكون قد مُكِرَ به، إلا كان قد نقص عقله، وعجز رأيه، وما أَمْسَكَ عن عَبْدٍ، فلم يَظُنْ أنه قد خُيِّرَ له فيها، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه.

وقال مالك بن دينار: اتقوا السَّخَّارَةَ، فإنها تسحر قلوب العلماء، يعني الدنيا. ومن أمثلة الدنيا: قال يونس بن عُبيد: شبهت الدنيا كرجل نائم، فرأى في منامه ما يكرهه وما يحب، فبينما هو كذلك أَتَبَه.

ومثل هذا قولهم: (الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا). والمعنى أنهم يَنْتَبِهون بالموت وليس في أيديهم شيء مما رَكَنُوا إليه وفرحوا به.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا، ورواه أحمد والطبراني متصلًا من حديث أبي مويبة في أثناء حديث فيه: «إني قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة...» الحديث؛ وسنده صحيح. وللترمذي من حديث أبي أمامة: «عرض علي ربي ليَجْعَلَ لي بطحاء مكة ذهباً...» الحديث.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا. وللبخاري (٤١٠١) من حديث جابر: قام ويطنه معصوب بحجر.

وللترمذي من حديث أنس: رفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله ﷺ حجرين، وقال: حديث غريب. وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٢٣٧١/٤١٣). ولمسلم (٢٠٤٠) قبل الأخير عن أنس أيضاً: (وقد عصب بطنه بعصاة على حجر).

قيل: إن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتماء^(١) عليها من كل زينة. فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم. قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتل. فقال عيسى عليه السلام: بُؤساً لأزواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين، كيف تُهلكينهم واحداً بعد واحد، ولا يكونون منك على حذر.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: يُؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء^(٢) زرقاء، أنيابها بادية، مُشوّة خَلَقها، فَتُشْرِف على الخلق، فيقال: هل تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه. فيقال: هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها، وبها تقاطعتُم الأرحام، وبها تحاسدتُم وتباغضتُم وأغتررتُم، ثم تُقَذَّف في جهنم، فتقول: يا رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول: أَلْحَقُوا بِهَا أَتباعها وأشياعها.

وعن أبي العلاء: قال: رأيتُ في النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة، والناس عُكوف عليها مُتَعَجِّبون، ينظرون إليها، فقلت: مَنْ أَنْتِ وَبِئْسَ مَا لَكَ؟ قالت: أما تعرفني؟ قلت: لا. قالت: أنا الدنيا. فقلت: أعوذ بالله مِنْ شَرِّكَ. قالت: إن أُحِبِّتْ أَنْ تُعَاذَ مِنْ شَرِّي فَأَبْغُضِ الدَّهْرَ.

وقال بعضهم: رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوهة الخَلْقَة حَذباء.

مثال آخر: واعلم أن أحوالك ثلاثة:

حال لم تكن فيها شيئاً، وهي قبل أن تُوجَد.

وحال أخرى، وهي مِنْ سَاعَةِ مَوْتِكَ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ فِي الْبَقَاءِ السَّرْمَدِيِّ، فَإِنْ لِنَفْسِكَ وَجُوداً بَعْدَ خُرُوجِهَا مِنْ بَدَنِكَ، إِمَّا فِي الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ، وَهُوَ الْخُلُود الدائم.

(١) ليس لها أسنان، وفي نسختنا الثانية: صماء، وهي الداهية.

(٢) الشمط في الشعر: اختلافه بلونين من سواد وبياض.

وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة، وهي أيام حياتك في الدنيا، فأنظر إلى مقدار ذلك، وأنسبه إلى الحالتين، تعلم أنه أقل من طرفة عين في مقدار عمر الدنيا.

ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها، ولم يبال كيف أنقضت أيامه بها في: ضرر وضيق، أو سعة ورفاهية، ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لَبَنَةً على لبنة، ولا قصبة على قصبة^(١). وقال: «ما لي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب قال^(٢) تحت شجرة ثم راح وتركها»^(٣).

وقال عيسى عليه السلام: الدنيا قنطرة، فأعبروها ولا تعمروها.

هذا مثل واضح، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة، واللخد هو الركن الثاني على آخر القنطرة. ومن الناس من قطع نصف القنطرة، ومن الناس من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيفما كان فلا بد من العبور، فمن وقف يبني على القنطرة ويؤزنها وهو يستحث للعبور عليها، فهو في غاية الجهل والحمق.

وقيل: مثل طالب الدنيا، مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً، ازداد عطشاً حتى يقتله.

وكان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مذبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.

(١) أخرجه ابن حبان في «الثقات». وللطبراني في «الأوسط» من حديث عائشة بسند ضعيف: «من سأل عني، أو سره أن ينظر إلي، فلينظر إلى شعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة...» الحديث.

(٢) من القيلولة، وهي النوم في الظهيرة.

(٣) رواه الترمذي [«صحيحه» (٢٣٧٧/١٩٣٦)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣١٧/

٤١٠٩)] عن ابن مسعود. وهو في «صحيح الجامع» (٥٦٦٨)، و«الصحيح»

(٤٣٩، ٤٤٠).

مثال آخر: روي عن الحسن قال: بلغني عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مَفَازَةَ غَبْرَاءَ، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي، أنفذوا الزاد وخسروا الظَّهْرَ، وبَقُوا بين ظَهْرَانِي المَفَازَةِ، لا زاد ولا حَمُولَةَ، فأيقنوا بالهَلَكَةِ، فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رجل في حُلَّةٍ يَقْطُرُ رأسه، فقالوا: إن هذا قريبٌ عهدٍ بريفٍ، وما جاء هذا إلا من قريب، فلما أنتهى إليهم، قال: يا هؤلاء، عَلَامَ أنتم؟ قالوا: على ما ترى. قال: أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ هَدَيْتُكُمْ إِلَى مَاءٍ رَوَاءِ، ورياضٍ خُضِرَ ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك شيئاً. قال: عهدكم وموآثيقكم بالله. قال: فأعطوه عهدهم وموآثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً. قال: فأوردهم ماءً. ورياضاً خُضِرَ، فَمَكَثَ فيهم ما شاء الله، ثم قال: يا هؤلاء، الرِّحِيلُ. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم، وإلى رياض ليست كرياضكم. فقال أكثر القوم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده، وما نَصْنَعُ بعيش خيرٍ من هذا؟ وقالت طائفة قليلة: أَلَمْ تُعْطُوا هذا الرجل عهدكم وموآثيقكم بالله لا تَعْصُونَهُ؟ وقد صَدَقَكُمْ في أول حديثه، فوالله لَيُضْدَقَنَّكُمْ في آخره. قال: فراح في مَنْ أَتْبَعَهُ، وَتَخَلَّفَ بِقِيَّتِهِمْ، فنزل عدوٌّ، فأصبحوا بين أسير وقتيل»^(١).

وفي «الصحيحين» من حديث أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وأنا النذير الغزيان، فالنِّجَاءُ، فأطاعه طائفة من قومه، فأذبلجوا وأنطلقوا على مهلهم، فَتَجَّوْا، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصَبَّحَهُمُ الجيش في مكانهم، فأهلكهم وأجتاحتهم، فذلك مثل من أطاعني وآتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق»^(٢).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلًا بطوله. ولأحمد والبخاري والطبراني من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان... الحديث، وفيه: فقال - أي أحد الملكين -: إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سَفَرٍ انتهوا إلى مَفَازَةٍ. فذكر نحوه أخصر منه، وإسناده صحيح.

(٢) هو عند البخاري (٧٢٨٣)، ومسلم (٢٢٨٣).

فصل في بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود

وقد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقاً، فأعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التي خُلِقَتْ للمنافع، فأعرضوا عما يُضِلُّهم من المَطَّاعِم والمشارب. وقد وضع الله في الطباع تَوَقَّان النفس إلى ما يُضِلُّها، فكلما تَأَقَّتْ مَنَعُوهَا، ظَنًّا منهم أن هذا هو الزهد المُراد، وجَهْلًا بحقوق النفس، وعلى هذا أكثر المتزهدين، وإنما فعلوا ذلك لِقَلَّةِ العلم، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول:

أعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان، فيها حَظٌّ، وهي الأرض وما عليها، فإن الأرض مسكن الآدميِّ، وما عليها مَلْبَس ومَطْعَم ومَشْرَب وَمَنَكْح، وكل ذلك عَلَفٌ لراحلة بدنه السائر إلى الله ﷻ، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يُضِلُّها، فمن تناول منها ما يُضِلُّه على الوجه المأمور به مُدِح، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنفه الشَّرُّ وقع في الذمِّ، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى، ويشغل عن طلب الأخرى فيفوت المقصود، ويصير بمثابة مَنْ أَقْبَلَ يَغْلِفُ الناقة، ويرد لها الماء، ويغير عليها ألوان الثياب، وينسى أن الرُّفَّة قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسة للِسْبَاع هو وناقته.

ولا وجه أيضاً للتقصير في تناول الحاجة، لأن الناقة لا تَقْوَى على السير إلا بتناول ما يُضِلُّها، فالطريق السليم هي الوسطى، وهي أن يؤخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك، وإن كان مُشْتَهَى، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عَوْنٌ لها وقضاء لِحَقِّهَا.

وقد كان سفيان الثوريُّ يأكل في أوقات من طَيِّب الطعام، ويَحْمِلُ معه في السفر الفالودج.

وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من الطَّيِّبات في بعض الأوقات، ويقول: إذا وجدنا أَكَلْنَا أَكَلُ الرِّجَالِ، وإذا فقدنا صبرنا صَبْر الرِّجَالِ.

ولينظر في سيرة رسول الله ﷺ وصحابته، فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا، ولا تفريط في حقوق النفس.

وينبغي أن يتلمح حظ النفس في المُشتهى، فإن كان في حفظها حفظها وما يُقيمها ويُصلحها ويُشيطها للخير، فلا يَمنعها منه، وإن كان حفظها مُجرّد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة، فذلك حَظّ مذموم، والزهد فيه يكون.

[كتاب: ذم البخل]

[وذم حب المال]

باب في ذم البخل والحرص والطمع

وذم المال ومدحه

ومدح القناعة والسخاء، ونحو ذلك

إعلم أن المال لا يُدَمّ لذاته بل يقع الذم لمعنى من الآدمي، وذلك المعنى إما شِدّة جِرْصِه أو تناوله من غير حِلّه، أو حبسه عن حقه، أو إخراجه في غير وجهه، أو المفاخرة به، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨، التغابن: ١٥].

وفي «سنن الترمذي» عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ذُئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف: لدينه»^(١). وقد كان السلف يخافون من فتنة المال.

وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى الفتوح يبكي ويقول: ما حبس الله هذا عن نبيه ﷺ وعن أبي بكر لشرّ أَرادَه الله بهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له. وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عَقْرَبٌ، فإن لم تُحسِن رُقِيَّتَه فلا تَأْخُذْه، فإنه إِنْ لَدَغَكَ قَتَلَكَ سُمُّه. قيل: ما رُقِيَّتَه؟ قال: أَخْذَه مِنْ حِلِّهِ وَوَضْعُهُ فِي حَقِّهِ. وقال: مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما، قيل: ما هما؟ قال: يُوْخِذُ مِنْهُ كُلُّهُ، وَيُسْأَلُ عَنْهُ كُلُّهُ.

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٦٥ و ١٥٧٧٥)، والترمذي [«صحيحه» (٢٣٧٦/١٩٣٥)]،

والدارمي ٢٠٤/٢ عن كعب بن مالك. وهو في «صحيح الجامع» (٥٦٢٠).

بيان مدح المال

قد بيّنا أن المال لا يُذمّ لذاته، بل ينبغي أن يُمدح، لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا، وقد سمّاه الله تعالى خيراً، وهو قوام آدمي. قال الله تعالى في أول سورة النساء: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ^(١) أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥].

وقال سعيد بن المسيب: لا خير في من لا يريد جمع المال من حله، يكفّ به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي منه حقه.
وقال أبو إسحاق السبيعي: كانوا يرون السعة عوناً على الدين.
وقال سفيان: المال في زماننا هذا سلاح المؤمنين.
وحاصل الأمر: أن المال مثل حية فيها سم وتزيق، فترياقه: فوائده، وغوائله: سُمّه، فمن عرف فوائده وغوائله، أمكنه أن يختار من شره ويستدرّ من خيره.

أما فوائده، فتتقسم إلى دنيوية ودينية.

أما الدنيوية، فالخلق يعرفونها، ولذلك تهالكوا في طلبها.

وأما الدينية، فتتضمن في ثلاثة أنواع:

[فوائد المال

الدينية]

أحدها: أن يُنفقه على نفسه، إما في عبادة، كالحج والجهاد، وإما في الاستعانة على العبادة، كالمطعم والملبس والمسكن وغيرها من ضرورات المعيشة، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر، لم يتفرغ القلب للدين والعبادة، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به، فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية، ولا يدخل في هذا التمتع والزيادة على الحاجة، فإن ذلك من حظوظ الدنيا.

النوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام:

أحدها: الصدقة، وفضائلها كثيرة مشهورة.

(١) السفه: ضد الحلم، وأصله الخفة والحركة، والسفيه: الجاهل، والمراد هنا: الجاهل بموضع النفقة من الرجال والنساء والصبيان.

القسم الثاني: المروءة، ونعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة ونحو ذلك، ولهذا من الفوائد الدينية، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء.

القسم الثالث: وقاية العرض نحو بذل المال لدفع هَجْو الشعراء، وتُلَبِّ^(١) السفهاء، وقطع ألسنتهم، وكف شبرهم، فهو من الفوائد الدينية، فإن النبي ﷺ قال: «ما وقى الرجل به عرضه فهو صدقة»^(٢). ولهذا لأنه يمنع المُغْتَاب من معصية الغيبة، ويحرز مما يثير كلامه من العداوة التي تحمل في الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة.

القسم الرابع: ما يعطيه أجراً على الاستخدام، فإن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابها كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتعذر عليه سلوك الآخرة بالفكر والذكر للذين هما أعلى مقامات السالك، ومن لا مال له يفتقر إلى أن يتولى خدمة نفسه بنفسه، فكل ما يتصور أن يقوم به غيرك، ويحصل بذلك غرضك، فإن تشاغلك به غبن، لأن أحتياجك إلى التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم والعمل والذكر والفكر أشد.

النوع الثالث: ما لا يصرفه الإنسان إلى معين، لكن يُحصَل به خيراً عاماً، كبناء المساجد والقناطر، والوقوف المؤبدة.

فهذه جملة فوائد المال في الدين، سوى ما يتعلق بالحفظ العاجلة، من الخلاص من ذل السؤال، وحقارة الفقر، والعز بين الخلق، والكرامة في القلوب، والوقار.

وأما غوائل المال وآفاته، فتنقسم أيضاً إلى دينية ودنيوية:

أما الدينية فثلاث فئات:

(١) يقال: ثلبه: يثله بكسر اللام ثلَباً: إذا لاهه وعابه وصرح بالعيب، وقال فيه وتنقصه.

(٢) رواه الحاكم وأبو يعلى والدارقطني عن جابر. وفي إسناده ضعف.

الأولى: أنه يجر إلى المعاصي غالباً، لأن من أستشعر القدرة على المعصية، أنبعثت داعيته إليها. والمال نوع من القدرة يحرك داعيته إلى [آفات المال المعاصي، ومتى يش الإنسان من المعصية، لم تتحرك داعيته إليها. ومن الدينية] المعصية أن لا تجد، فصاحب القدرة إن أقتحم ما يشتهي هلك، وإن صبر لقي شدة في معاناة الصبر مع القدرة، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أنه يحرك إلى التمتع في المباحات، حتى تصير له عادة وإلفاً، فلا يصبر عنها، وربما لم يقدر على أستدامتها إلا بكسب فيه شبهة، فيقتحم الشبهات، ويترقى إلى آفات من المداينة والنفاق، لأن من كثر ماله خالط الناس، وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغيبة، وكل ذلك من الحاجة إلى إصلاح المال.

الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد، وهو أن يُلْهِيه ماله عن ذكر الله تعالى، ولهذا هو الداء العضال، فإن أصل العبادات ذكرُ الله تعالى، والتفكير في جلاله وعظمته، وذلك يستدعي قلباً فارغاً.

وصاحب الضئيلة يُمنّي ويصبح مُتفكراً في خصومة الفلاحين ومحاسبتهم وخيانتهم، ويتفكر في منازعة شركائه في الحدود والماء، وأعوان السلطان في الخراج والأجراء على التقصير في العمارة ونحو ذلك.

وصاحب التجارة يمسّي ويصبح متفكراً في خيانة شريكه، وتقصيره في العمل، وتضييعه المال.

وكذا سائر أصناف المال، حتى صاحب المال المجموع المكنوز يفكر في كيفية حفظه، وفي الخوف عليه.

ومن له قوتٌ يومٍ بيوم، فهو في سلامة من جميع ذلك.

وهذا سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا، من الخوف والحزن والهم والغم والتعب. [آفات المال الدنيوية]

فإذا تریاق المال أخذُ القوت منه، وصرف الباقي إلى الخيرات، وما عدا ذلك سمومٌ وآفات.

بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس

وأعلم أن الفقر محمودٌ، ولكن ينبغي للفقير أن يكون قانعاً، منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريص على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس.

وقد روي في «صحيح مسلم» عن [عبد الله بن] عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»^(١). وقال سليمان بن داود عليه السلام: قد جربنا العيش كله، لئنه من شديده، فوجدناه يكفي منه أدناه.

وفي حديث عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «القناعة مال لا ينفد»^(٢). وقال أبو حازم: ثلاث من كن فيه كمل عقله: من عرف نفسه، وحفظ لسانه، وقنع بما رزقه الله عز وجل.

وقرأ بعض الحكماء: أنت أخو العز ما ألتحفت بالقناعة.

وأما الحرص، فقد نهى عنه رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس، أجملوا في الطلب، فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له»^(٣).

ونهى عن الطمع فقال: «وأجمع اليأس مما في أيدي الناس»^(٤).

(١) أخرجه مسلم (١٠٥٤)، والترمذي [«صحيحه» (٢٣٤٨/١٩١٤)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٤١٣٨/٣٣٣٨)]. وهو في «الصحيحه» (١٢٩)، و«صحيح الجامع» (٤٣٦٨).

و(الكفاف): هو الذي لا يفضل عن الشيء، ويكون بقدر الحاجة إليه، وهو نصب على الحال.

(٢) ضعيف جداً، رواه القضاعي عن أنس. وهو في «ضعيف الجامع» (٤١٤٠).

(٣) أخرجه الحاكم والبيهقي وأبو نعيم عن جابر. وهو في «صحيح الجامع» (٢٧٤٢)، و«المشكاة» (٥٣٠٠).

(٤) رواه أحمد (٢٣٤٨٨)، وابن ماجه [«صحيحه» (٤١٧١/٣٣٦٣)] عن أبي أيوب. وهو في «الصحيحه» (٤٠١). وسيأتي نحوه في الصفحة (٣٣١) حاشية (١).

وقال بعضهم: لو قيل للطمع: من أبوك؟ قال: الشك في المقدور، ولو قيل له: ما جزفتك؟ قال: اكتساب الذلّ، ولو قيل له: ما غايتك؟ قال: الجزمان. وقيل: الطمع يُذِلّ الأمير واليأس يُعزّز الفقير.

بيان علاج الحرص والطمع

والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة

أعلم أن هذا الدواء مُركب من ثلاثة أركان: الصبر، والعلم، والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:

الأول: الاقتصاد في المعيشة، والرفق في الإنفاق، فمن أراد القناعة فينبغي أن يَسَدَّ عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه، ويردّ نفسه إلى ما لا بدّ له منه، فيقنع بأي طعام كان، وقليل من الإدام، وثوب واحد، ويوطن نفسه على ذلك، وإن كان له عيال، فيردّ كل واحد إلى هذا القدر.

قال النبي صَلَّى الله عليه وسلّم: «ما عال مَنْ أَقْتَصَدَ»^(١).

وفي حديث آخر: «التدبير نصف العيش»^(٢).

وفي حديث آخر: «ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية، والقُصْدُ في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب»^(٣).

الثاني: إذا تيسر له في الحال ما يكفيه، فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ويُعينه على ذلك قِصْرُ الأمل، واليقين بأن رِزْقَه لا بدّ أن يأتيه، وليعلم أن الشيطان يَعِدُّه الفقر^(٤).

(١) رواه أحمد (٤٢٧٠) عن ابن مسعود. وهو في «ضعيف الجامع» (٥١٠٠) و(٥١٠١)، و«الضعيفة» (٦١١).

(٢) رواه الديلمي والطبراني في «الصغير» من حديث أنس. والقضاعي من حديث علي. وهما في «الضعيفة» (١٥٦٠) و«ضعيف الجامع الصغير» (٢٥٠٦).

(٣) هو في «صحيح الجامع» (٣٠٤٥)، و«الصحيح» (١٨٠٢). وذكر في أوله: «ثلاث مهلكات: شح مطاع...».

(٤) قال تعالى: ﴿الْشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي، أنه ليس من نفس تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله ﷻ، فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته»^(١).

وإذا انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه، فإن في الحديث:

«أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾» [الطلاق: ٣]^(٢).

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وما في الطمع والحرص من الذل. وليس في القناعة إلا الصبر عن المشتبهات والفضول، مع ما يحصل له من ثواب الآخرة، ومن لم يؤثر عز نفسه عن شهوته، فهو ركيك العقل، ناقص الإيمان.

الرابع: أن يُكثر تفكره في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى منهم، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين، ويسمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم، ويُخَيِّرَ عقله بين مشابهة أراذل العالمين، أو صفوة الخلق عند الله تعالى، حتى يهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير، وأنه إن تنعم بالأكل فالبهيمة أكثر أكلاً منه، وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سيفاداً^(٣) منه.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر، كما ذكرنا في (: آفات المال)، وينظر إلى ثواب الفقر، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى مَنْ دونه في

(١) هو في «صحيح الجامع (٢٠٨٥)، و«تخريج مشكاة الفقر» (١٥)، و«الصحيحة» (٢٨٦٦).

(٢) رواه الديلمي عن أبي هريرة. وفي الباب عن غيره. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٨)، و«الضعيفة» (١٤٩٠). ومعناه صحيح؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ ﴿١﴾ وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» [الطلاق].

(٣) أي: نزواً.

الدنيا، وإلى من فوقه في الدين، كما جاء في الحديث من رواية مسلم أن رسول الله ﷺ قال:

«أنظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»^(١).

عماد الأمر: الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل لتمعن دائم، فيكون كالمرضى الذي يصبر على مرارة الدواء لِمَا يرجو من الشفاء.

فصل

ينبغي لمن فَقَدَ المال أن يستعمل القناعة كما ذكرنا، ولمن وجده أن يستعمل السخاء والإيثار وأصطناع المعروف، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء، وهو أصل من أصول النجاة.

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «قال جبريل: قال الله ﷻ: الإسلام دينٌ ارتَضَيْتُهُ لنفسِي، ولن يُضِلِّحَهُ إلا السخاء وحسن الخلق، فأكرموا بهما ما صَحِبْتُمُوهُ»^(٢).

وفي حديث آخر: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «تجافوا عن ذنوب السَّخِيِّ، فإن الله أَخَذَ بيده كلما عَثَرَ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣)، والترمذي [«صحيحه» (٢٠٤٠/٢٥١٣)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٤١٤٢/٣٣٤١)] عن أبي هريرة. وهو في «صحيح الجامع» (٨٠٨). وستأتي بعض ألفاظه في الصفحة (٣٦٠).

(٢) رواه الدارقطني في «المستجد» دون قوله: «وحسن الخلق» بسند ضعيف. ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات». وذكره بهذه الزيادة ابن عدي من رواية بقية عن يوسف بن السفر، عن الأوزاعي، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة. ويوسف ضعيف.

(٣) رواه الطبراني وأبو نعيم والبيهقي عن ابن مسعود. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٣٩٠)، و«الصحيحه» (٦٣٨).

وفي حديث آخر: «الجنة دار الأسخياء، وما جُبِلَ وَلِيَّيَّ الله إلا على السخاء»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بُدِّلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بعبادة ولا بصيام، ولكن دخلوها بسخاء النفس، وسلامة الصدر، والنصح للمسلمين»^(٢).

وفي حديث آخر: «عليكم بأصطناع المعروف، فإنه يمنع مصارع السوء»^(٣). وقال ابن السَّمَّاك: عجبت ممن يشتري الممالك بماله، ولا يشتري الأحرار بمعروفه؟!

ومن حكايات الأسخياء

قد صح عن النبي ﷺ أنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة^(٤). وأنه ما سئل شيئاً قط فقال: لا^(٥).

وأن رجلاً سأله، فأعطاه غنماً بين جبلين، فأتى الرجل قومه، فقال: يا قوم، أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاءً من لا يخشى الفقر^(٦).
★ وقيل: كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم،

(١) أخرجه ابن عدي، والقضاعى، والدارقطنى، عن عائشة. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٦٦٨)، و«الضعيفة» (٣٤٧٧).

(٢) أخرجه الدارقطنى وفيه من هو منكر الحديث. ورواه الخرائطى عن صالح المري وهو متكلم فيه.

وانظر «ضعيف الجامع» (١٣٥٦) عن أبي سعيد.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» عن ابن عباس. وهو في «الصحيححة» (١٩٠٨).

(٤) رواه البخاري (١٩٠٢ و ٤٩٩٧)، ومسلم (٢٣٠٨) عن ابن عباس. وهو في «الإرواء» (٨٨٨).

(٥) رواه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١) عن جابر.

(٦) رواه مسلم (٢٣١٢) عن أنس.

فخرج إلى المسجد، فقال له طلحة: قد تَهَيَّأَ مَالُكَ فَأَقْبِضْهُ، فقال: هو لك يا أبا محمد مَعُونَةٌ عَلَى مَرَوَاتِكَ .

★ وجاء أعرابي إلى أبي طلحة، فسأله، وَتَعَرَّفَ إِلَيْهِ بِرَجْمٍ، فقال: إن هذه الرحم، ما سألني بها أَحَدٌ قَبْلَكَ، فأعطاه ثلاثمئة ألف درهم .

★ وقال عروة: رأيت عائشة رضي الله عنها تقسم سبعين ألفاً، وهي ترقع دِرْعَهَا .

وروي أنها قسمت في يوم ثمانين ومئة ألف بين الناس، فلما أُمِسَتْ قالت: يا جارية: عَلَيَّ فَطُورِي، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أُمُ دُرَّة: أَمَا أَسْتَطَعْتُ فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نُفْطِرُ عَلَيْهِ؟ فقالت: لو ذَكَّرْتَنِي لَفَعَلْتُ .

★ وأَشْتَرَى عَبْدُ اللَّهِ بن عامر من خالد بن عقبة دَارَهُ الَّتِي فِي السُّوقِ بِتِسْعِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ، فلما كان الليل، سمع بُكَاءَ أَهْلِ خَالِدٍ . فقال لأهله: مَا لَهُؤُلَاءِ؟ قَالُوا: يَبْكُونَ عَلَى دَارِهِمْ . قال: يَا غَلَامُ: أَتَيْتَهُمْ، فَأَعْلِمَهُمْ أَنَّ الدَّارَ وَالْمَالَ لَهُمْ جَمِيعاً .

وَبَعَثَ رَجُلٌ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَدْ وُصِفَ لِي لَبَنٌ بِقَرٍ، فَأَبْعَثْ لِي بِقَرَةٍ أَشْرَبَ مِنْ لَبْنِهَا، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِسَبْعِمِئَةِ بَقَرَةٍ وَرُعَاتِهَا، وقال: الْقَرْيَةُ الَّتِي كَانَتْ تَرَعَى فِيهَا لَكَ .

★ وَدَخَلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فِي مَرَضِهِ، فَجَعَلَ يَبْكِي: فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: عَلَيَّ ذَيْنٌ . قال: كَمْ هُوَ؟ قَالَ خَمْسَةُ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ، أَوْ بَضْعَةُ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ . قال: فَهِيَ عَلَيَّ .

★ وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى مَعْنٍ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: (يَا غَلَامُ، نَاقَتِي الْفُلَانِيَّةُ وَأَلْفُ دِينَارٍ)، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ .

وَبَلَّغْنَا عَنْ مَعْنٍ أَنَّ شَاعِراً أَقَامَ مُدَّةً فَلَمْ يَتَّهَيْأَ لَهُ لِقَاؤُهُ، فَقَالَ لِبَعْضِ خَدَمِهِ: إِذَا دَخَلَ الْأَمِيرُ الْبِسْتَانَ فَعَرِّفْنِي، قال: فلما دخل عَرَفَهُ، فَكَتَبَ الشَّاعِرُ بَيْتاً عَلَى خَشْبَةٍ، وَأَلْقَاهَا فِي الْمَاءِ الَّذِي يَدْخُلُ الْبِسْتَانَ، فَلَمَّا بَصُرَ مَعْنُ الْخَشْبَةَ، أَخَذَهَا، فَإِذَا فِيهَا مَكْتُوبٌ:

أيا جودَ مَغْنٍ نَاجٍ مَغْنًا بِحَاجَتِي فَمَا لِي إِلَى مَغْنٍ سِوَاكَ شَفِيعُ
فقال: مَنْ صَاحِبُ هَذِهِ؟ فدعا الرجلَ، فقال له: كَيْفَ قُلْتَ؟ فقال له، فأمر له بعشرِ بِدْرٍ^(١)، فأخذها ووضع الأميرُ الخشبةَ تحتِ بساطه، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحتِ البساط، وقرأ ما فيها، ودعا الرجلَ، فدفع إليه مئة ألف درهمٍ أُخرى، فلما أخذها الرجلُ، خاف أن يعود فيستعيدها منه، فخرج، فلما كان اليوم الثالث، قرأ ما فيها، فدعا الرجلَ فطُلِبَ فلم يوجد. فقال مَغْنٌ: حَقٌّ عَلَيَّ أَنْ أُعْطِيَهُ حَتَّى لَا يَبْقَى فِي بَيْتِ مَالِي دَرَاهِمٌ وَلَا دِينَارٌ.

★ ومرض قيس بن سعد بن عبادة، فاستبطن إخوانه، فقليل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي: مَنْ كَانَ عَلَيْهِ لِقَيْسٍ حَقٌّ، فهو منه في جُلٍّ، قال: فأنكسرت درجته بالعشي لكثرته من عادة.

★ وقام رجل إلى سعيد بن العاص يسأله، فأمر له بمئة ألف درهم، فبكى، فقال سعيد: ما يبكيك؟ قال: أبكي على الأرض أن تأكل مثلك، فأمر له بمئة ألف أخرى.

فصل في البخل وذمه

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق»^(٢).

وقال ﷺ: «لا يجتمع الشُّحُّ والإيمان في قلب عبد أبداً»^(٣).

(١) البدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم.

(٢) رواه الترمذي [«ضعيف سننه» (٢٠٤٥/٣٣٥)]. وهو في «ضعيف الجامع» (٢٨٣٣)، و«الضعيفة» (١١١٩).

(٣) هو في «صحيح سنن النسائي» (٢٩١٧ و ٢٩١٨) - باختلاف في اللفظ - عن أبي هريرة.

وفي أفراد مسلم، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجُبْنِ والبخل»^(١).

وروى جابر رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ لبني سلمة: «من سيدكم؟» قالوا: جَدُّ بن قيس على أننا نبخله. قال: «وأي داء أدوا من البخل؟ بل سيدكم بشر ابن البراء بن معرور»^(٢). وهي أصح من ذكر عمرو بن الجموح. وغلط بعض الرواة، فقال: البراء بن معرور، والبراء مات قبل الهجرة.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث مُهْلِكَات: شُحُّ مُطَاع، وهوى مُتَّبَع، وإعجاب المرء بنفسه»^(٣).

قال الخطَّابي: الشح في المنع: أبلغ من البخل. وقال سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ: إذا مات السخي، قالت الأرض والحَفْظَةُ: رَبُّ تَجَاوَزَ عن عبدك في الدنيا بسخائه، وإذا مات البخيل قالت: اللَّهُمَّ أَحْجِبْ هَذَا الْعَبْدَ عن الجنة، كما حجب عبادك عما جعلت في يديه من الدنيا. وقال بعض الْحُكَمَاء: من كان بخيلاً وَرِثَ ماله عدوه. ووصف أعرابي رجلاً فقال: لَقَدْ صَغُرَ في عيني لِعِظَمِ الدُّنْيَا في عينه. وَذَمَّ أعرابي قوماً فقال: يصومون عن المعروف وَيُفْطِرُونَ على الفواحش.

من حكايات البخلاء

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الحاجب رجلاً من أَجَلِّ العرب، وكان بخيلاً، وكان لا يُوقَدُ ناراً بلبيل كراهة أن يراها راءٍ فَيَنْتَفِعَ بضوئها، فإذا احتاج إلى إيقادها فأوقد ثم بَصُرَ بِمُسْتَضِيءٍ بها أطفأها.

(١) أخرجه البخاري (٦٣٦٩ و ٦٣٧٠ و ٦٣٦٥)، ومسلم (٢٧٠٦)، والترمذي [«صحيحه» (٣٥٦٧/٢٨٢٥)]، والنسائي [«صحيحه» (٥٠٣٣-٥٠٣٩) و (٥٠٤٣-٥٠٤٥)].

(٢) أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح على شرط مسلم. والرواية الثانية أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٦) من حديث جابر.

(٣) حسن، سلف تخريجه في الصفحة (٢٥١) الحاشية (٣).

وقيل : كان مروان بن أبي حفصة من أبخل الناس ، فخرج يريد المهدي ، فقالت له امرأته : مالي عليك إن رجعت بالجائزة؟ قال : إن أُعْطِيتُ مئة ألف درهم ، أُعْطِيتُكَ درهماً ، فأعطي ستين ألف درهم ، فأعطاها أربعة دنانق^(١) .

وقيل : كان بعض البخلاء مُوسِراً كثيراً الأموال ، وكان ينظر في دقائق الأشياء ، فأشترى شيئاً من الحوائج ، ودعا حَمَلاً وقال : بِكُمْ تحمل هذه الحوائج؟ قال : بِحَبَّةٍ^(٢) . قال : أبخس . قال : ما أَقْلُ مِنْ حَبَّةٍ^(٣)؟! لا أدري ما أقول . قال : نشترى بالحبة^(٤) جزراً ، فنجلس جميعاً فنأكله .

فصل في فضل الإيثار وبيانهِ

أعلم أن السخاء والبخل درجات :

فأرفع درجات السخاء الإيثار ، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه .

وأشدُّ درجات البخل ، أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة ، فَكَمْ مِنْ بخيل يُمسك المال ، ويمرض فلا يتدواى ، ويشتهي الشهوة فيمنعه منها البخل .

فكم بين من يبخل على نفسه مع الحاجة ، وبين من يُؤثر على نفسه مع الحاجة ، فالأخلاق عطايا يضعها الله ﷻ حيث يشاء .

وليس بعد الإيثار درجة في السخاء . وقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله ﷺ بالإيثار ، فقال : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾^(٥) [الحشر: ٩] وكان سبب نزول هذه الآية قصة أبي طلحة ، لما أثر ذلك الرجل الجود بقوته وقوت صبيانه ، وحكايته مشهورة^(٦) .

(١) والدانق : سدس الدرهم!

(٢) و(٣) و(٤) الحبة : ربع قيراط ، أو ٤٨/١ من الدرهم الشرعي = ٠,٥٠١١٥٠ غرام فضة .

(٥) والخصاصة هي الحاجة إلى المال .

(٦) أخرجه البخاري (٣٧٨٩) ، ومسلم (٢٠٥٤) من حديث أبي هريرة .

وَأَسْتَشْهَد بِالْيَرْمُوكِ عَكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ، وَسُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، وَالْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ، وَجَمَاعَةً مِنْ بَنِي الْمُغِيرَةِ، فَأَتَوْا بِمَاءٍ وَهُمْ صَرَعَى، فَتَدَافَعُوهُ حَتَّى مَاتُوا وَلَمْ يَذُوقُوهُ. أَتَى عَكْرَمَةَ بِالْمَاءِ، فَنَظَرَ إِلَى سُهَيْلَ بْنِ عَمْرٍو يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ابْدَأْ بِهَذَا، وَنَظَرَ سُهَيْلُ إِلَى الْحَارِثِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ: فَقَالَ: ابْدَأْ بِهَذَا، وَكُلَّ مِنْهُمْ يُؤْثِرُ الْآخَرَ عَلَى نَفْسِهِ بِالشَّرْبَةِ، فَمَاتُوا كُلُّهُمْ قَبْلَ أَنْ يَشْرَبُوا، فَمَرَّ بِهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَقَالَ: بِنَفْسِي أَنْتُمْ.

وَأَهْدَى إِلَى رَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنه رَأْسَ شَاةٍ، فَقَالَ: إِنْ أَخِي أَخُوجَ إِلَيْهِ مِنِّي، فَبِعْتُ بِهِ إِلَى رَجُلٍ، فَبِعْتُ بِهِ ذَلِكَ إِلَى آخَرَ، حَتَّى تَدَاوَلَتْهُ سَبْعَةُ أَبْيَاتٍ، فَرَجَعَ إِلَى الْأَوَّلِ.

خَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ، فَنَزَلَ عَلَى نَخْلٍ لِقَوْمٍ فِيهَا غُلَامٌ أَسْوَدُ يَعْمَلُ فِيهَا، إِذْ أَتَى الْغُلَامَ بِقُوَّتِهِ، فَدَخَلَ الْحَائِطَ كَلْبٌ، فَدَنَا مِنَ الْغُلَامِ فَرَمَى إِلَيْهِ قُرْصاً فَأَكَلَهُ، ثُمَّ رَمَى إِلَيْهِ قُرْصاً آخَرَ فَأَكَلَهُ، ثُمَّ رَمَى إِلَيْهِ الثَّالِثَ فَأَكَلَهُ، وَعَبْدُ اللَّهِ يَنْظُرُ فَقَالَ: يَا غُلَامُ! كَمْ قُوَّتُكَ كُلَّ يَوْمٍ؟ قَالَ: مَا رَأَيْتَ. قَالَ: فَلِمَ آثَرْتُ بِهِ هَذَا الْكَلْبَ؟ قَالَ: مَا هِيَ بِأَرْضِ كِلَابٍ، جَاءَ مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ جَائِعاً فَكَرِهْتُ رَدَّهُ. قَالَ: فَمَا أَنْتَ صَانِعٌ؟ قَالَ: أَطْوِي يَوْمِي هَذَا. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ: أَلَا أَمُّ عَلَى السَّخَاءِ وَهَذَا أَسْخَى مِنِّي! فَأَشْتَرَيْتُ الْحَائِطَ وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَلَاتِ، وَأَشْتَرَيْتُ الْغُلَامَ وَأَعْتَقَهُ وَوَهَبَهُ لَهُ.

وَأَجْتَمَعَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفُقَرَاءِ فِي مَوْضِعٍ لَهُمْ، وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَرْغِفَةٌ مَعْدُودَةٌ لَا تَكْفِيهِمْ، فَكَسَرُوا الرُّغْفَانَ، وَأَطْفَوْا السَّرَاجَ، وَجَلَسُوا لِلْأَكْلِ، فَلَمَّا رُفِعَ الطَّعَامُ إِذَا هُوَ بِحَالِهِ، لَمْ يَأْكُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئاً إِلَّاثَرًا لِأَصْحَابِهِ.

فصل

وقد تكلم الناس في حَدِّ البخل والسخاء، فذهب قوم إلى أن حد البخل مَنع الواجب، وأن من أدَّى ما يجب عليه، فليس ببخل، وهذا غير كافٍ، فإن من لم يُسَلِّمْ إلى عياله إلا القدر الذي يفرضه الحاكم، ثم يضايقهم في زيادة لقمة أو ثمرة فإنه معدود من البخلاء، فالصحيح

[بيان حد
السخاء والبخل
وحقيقتهما]

أن البراءة من البخل تحصل بفعل الواجب بالشرع ، واللازم بطريق المروءة مع طيب القلب بالبذل .

فأما الواجب بالشرع ، فهو الزكاة ، ونفقة العيال .

وأما اللازم بطريق المروءة فهو ترك المضايقة ، والاستقصاء عن المُحَقَّرَات ، فإن ذلك يُستقبح ، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص ، فقد يُستقبح من الغني ما لا يستقبح من الفقير ، ويُستقبح من الرجل المضايقة لأهله وأقاربه وجيرانه ما لا يستقبح من الأجانب ، فالبخيل : الذي يمنع ما لا ينبغي أن يمنع ، إما بحكم الشرع أو لازم المروءة . ومن قام بواجب الشرع ، ولازم المروءة ، فقد تَبَرَّأ من البخل ، لكن لا يَتَّصَف بصفة الجود ما لم يبذل زيادة على ذلك .

قال بعضهم : الجَوَاد : هو الذي يعطي بلا مَن . وقيل : هو الذي يفرح بالإعطاء .

فأما علاج البخل ، فأعلم أن سبب البخل حب المال .

ولحب المال سببان :

[علاج البخل]

أحدهما : حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل ، وإن كان قصير الأمل وله ولد ، فإنه يقوم مقام طول الأمل .

الثاني : أن يُحِبَّ عين المال ، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره لو اقتصر على ما جرت عادته به ، ويفضل معه آلاف ، ويكون شيخاً لا ولد له ، ثم لا تسمح نفسه بإخراج الواجب عليه ، ولا بصدقة تنفعه ، ويعلم أنه إذا مات أخذه أعداؤه ، أو ضاع إن كان مدفوناً ، وهذا مرض لا يُرجى علاجه .

ومثال ذلك : رجل أحب شخصاً ، فلما جاء رسوله ، أحب الرسول ونسي محبوبه وأشتغل بالرسول ، فإن الدنانير رسولٌ مُبْلَغُ إلى الحاجات ، فيحب الدنانير لذاتها ، وينسى الحاجات ، وهذا غاية الضلال .

وأعلم أن علاج كلِّ علة بمُضَادَّةِ سببها :

فيعالج حب الشهوات : بالقناعة والصبر ، وطول الأمل : بكثرة ذكر الموت .

ويعالج ألتفات القلب إلى الولد، بأن مَنْ خَلَقَهُ خَلَقَ مَعَهُ رِزْقَهُ، وَكَمْ مِمَّنْ لَمْ يَرِثْ شَيْئاً أَحْسَنَ حَالاً مِمَّنْ وَرِثَ . فليحذر أن يترك لولده الخير، وَيَقْدَمَ عَلَى اللَّهِ بِشَرٍّ، فَإِنْ وَلَدَهُ إِنْ كَانَ صَالِحاً فَاللَّهُ يَتَوَلَّاهُ، وَإِنْ كَانَ فَاسِقاً فَلَا يَتْرُكْ لَهُ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الْمَعَاصِي، وَلْيُرَدِّدْ عَلَى سَمْعِهِ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي ذَمِّ الْبَخْلِ وَمَدْحِ السَّخَاءِ .

وَأَعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَثُرَتِ الْمَحَبُوبَاتُ فِي الدُّنْيَا، كَثُرَتِ الْمَصَائِبُ بِفَقْدِهَا، فَمَنْ عَرَفَ آفَةَ الْمَالِ لَمْ يَأْنَسْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْهُ إِلَّا قَدْرَ حَاجَتِهِ، وَأَمْسَكَ ذَلِكَ لِحَاجَتِهِ فَلَيْسَ بَبْخِيلٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

١٩ - كِتَابُ ذَمِّ الْجَاهِ وَالرِّيَاءِ وَعِلَاجَهُمَا وَفَضِيلَةُ الْخُمُولِ وَنَحْوِ ذَلِكَ

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

«إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَى أُمَّتِي: الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ»^(١).

وهذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء، فضلاً عن عامة العباد، وإنما يُبتلى بها العلماء والعباد المُشْمُرُونَ عن ساق الجدل لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم لما قهروا نفوسهم وفطموها عن الشهوات، وحملوها بالقهر على أسباب العبادات، لم تطمع في المعاصي الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فأستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل، ووجدت مُخْلِصاً من شدة المجاهدة في لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم، فأصابَت النفس في ذلك لذة عظيمة، فأحتقرت فيها ترك المعاصي، فأحدهم يظن أنه مُخْلِص لله ﷻ، وقد أُثبت في ديوان المنافقين، وهذه مَكيدة عظيمة لا يسلم منها إلا المُقَرَّبُونَ.

ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصُّدِّيقين حب الرياسة، وإذا كان ذلك هو الداء الدفين، الذي هو أعظم شبكة للشياطين، وَجَبَ شرح القول في سببه، وحقيقته، وأقسامه.

إِعلم أن أصل الجاه هو حب أنتشار الصِّيت والاشتهار، وذلك [بيان ذم الشهرة
انتشار الصيت
وفضيلة الخمول] خطر عظيم. والسلامة في الخُمُول. وأهل الخير لم يقصدوا الشهرة، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها، فإن وقعت من قبل الله تعالى، فَرُّوا عنها، وكانوا يُؤثرون الخُمُول، كما روى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه

(١) أخرجه ابن ماجه [«ضعيفه» (٤٢٠٥/٩٢١)] عن شداد بن أوس. وهو في «ضعيف الجامع» (١٣٧٨)، و«الصحيحه» (٩٥١).

خرج من منزله، فتبعه جماعة، فالتفت إليهم وقال: عَلَامَ تتبعوني؟ فوالله لو عَلِمْتُمْ ما أُغْلِقُ عليه بابي ما أتبعني منكم رجلان. وفي لفظ آخر أنه قال: ارجعوا، فإنه ذلة للتابع وفنتة للمتبوع.

وكان أبو العالية رضي الله عنه إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام.

وكان خالد بن معدان رضي الله عنه إذا عظمت حلقته، قام وأنصرف كراهة الشهرة. وقال الزُّهري رضي الله عنه: ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياسة، نرى الرجل يذهب في المَطْعَم والمشْرَب والمال، فإذا نُوزِعَ الرياسة، حامى عليها وعادى.

قال رجل لبِشْرِ الحافي: أوصني، فقال: أَخْبِلْ ذِكْرَكَ، وطِيبْ مطعمك. وقال: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب في الدنيا أن يعرفه الناس.

وقد روي في «صحيح مسلم» أن عمر بن سعد أنطلق إلى أبيه سعد وهو في غنم له خارجاً عن المدينة، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما أتاه قال: يا أبت أتريد أن تكون أعرابياً في غنمك، والناس يتنازعون في المُلْك بالمدينة؟ فضرب سعد صدره وقال: اسكت، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إن الله يحب العبد التَّقِيَّ الغَنِيِّ الخَفِيَّ»^(١).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذِ، ذو حَظٍّ من الصلاة، أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يُشار إليه بالأصابع،

(١) هو في مسلم (٢٩٦٥).

والمراد بـ «الغني» غني النفس، لهذا هو الغني المحبوب؛ لقوله ﷺ: «ولكن الغنى غنى النفس». وأما «الخفي»: معناه الخامل المنقطع إلى العبادة والأشتغال بأمور نفسه، وفي الحديث حجة لمن يقول: الاعتزال أفضل من الاختلاط.

وعمر بن سعد كان في الكوفة أيام خروج سيدنا الحسين بن علي إلى الطف (أي: كربلاء). وكان ممن قاتله عمر بن سعد هذا.

وكان رزقه كفافاً، فصبر على ذلك» ثم نقر بيده، فقال: «عَجَلَتْ مَنِيَّتُهُ، قَلْتُ بواكيه، قلْ ترائه»^(١) حديث حسن.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يوصي أصحابه، فيقول: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أخلاص البيوت، سُرج الليل، جُدد القلوب، خلقان الشيا، تُعرفون في السماء، وتُخفون على أهل الأرض.

فإن قيل: هذا فيه فضيلة الخمول، وذم الشهرة، وأي شهرة أكثر من شهرة الأنبياء، وأئمة العلماء. =

= قلنا: المذموم طلب الإنسان الشهرة، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن وجودها فتنة على الضعفاء، فإن مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعة في السباحة، إذا تعلق به أحد غرق وغرقه، فأما السابح النحرير، فإن تعلق الغرقى به سبب لنجاتهم وخلصهم.

فصل

وأعلم أن الجاه والمال هما رُكنا الدنيا. ومعنى المال: مُلك الأعيان [بيان معنى الجاه وحقيقته] المُتَنَفِّع بها. ومعنى الجاه: ملك القلوب المطلوب تعظيمها، وطاعتها، والتصرف فيها.

فالجاه هو قيام المنزلة في قلوب الناس، وهو اعتقاد القلوب نعتاً من نعوت الكمال في هذا الشخص، إما من علم أو عبادة، أو نسب أو قوة، أو حُسن صورة، أو غير ذلك مما يعتقده الناس كمالاً فيقدر ما يعتقدون له من ذلك، تُدْعِن قلوبهم لطاعته، ومدحه، وخدمته، وتوقيره.

فهذا يبين أن الجاه محبوب بالطبع، وأنه أبلغ من حب المال، لأن المال لا

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٩٣)، والترمذي [«ضعيف سننه» (٢٣٤٧/٤٠٧)]، وابن ماجه [«ضعيف سننه» (٨٩٧/٤١١٧)]. وهو في «ضعيف الجامع» (١٣٩٧)، و«المشكاة» (٥١٨٩).

يتعلق لغرض بعينه، بل لكونه وسيلة إلى المحبوبات، فأشترك الجاه والمال في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة، والجاه في ذلك أزجج من المال.

وأعلم أن من الجاه ما يحمد وما يذم، لأن من المعلوم أنه لا بد [بيان ما يحمد للإنسان من مال لضرورة المطعم والملبس ونحوهما. فكذلك لا بد له من حب الجاه من جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، لأن الإنسان لا يخلو من الحاجة وما يذم] إلى سلطان يحرسه، ورفيق يُعينه، وخدام يخدمه، فحبه ذلك ليس بمذموم، لأن الجاه وسيلة إلى الأغراض، كالمال.

والتحقيق في هذه ألا يكون المال والجاه محبوبين لأعيانهما، ومتى طلب الإنسان قيام جاهه لأجل صفة مُتَّصِف بها لغرض صحيح، كقول يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف] أو قصد إخفاء عيب من عيوبه لثلاث نزول منزلته، كان ذلك مباحاً، فإن طلب المنزلة باعتقادهم فيه صفة ليست فيه، كالعلم، والورع، والنسب، فذلك محظور. وكذلك لو حسن الصلاة بين أيديهم ليعتقدوا فيه الخشوع، فإنه يكون مُرائياً بذلك، فلا يجوز تملك القلوب بتزوير، ولا تملك المال بتليبس.

بيان علاج حب الجاه

أعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه، صار مقصورَ الهم على مراعاة الخلق، مشغولاً بالتردد إليهم، والمراعاة لهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يُعظم منزلته عندهم، وذلك بذور النفاق، وأصل الفساد، لأن كل من طلب المنزلة في قلوب الناس أضطر أن يناقهم بإظهار ما هو خال عنه، ويجر ذلك إلى المراعاة بالعبادات واقتحام المحظورات، والتوصل إلى اقتناص القلوب.

ولذلك شبه الرسول ﷺ حب المال والشرف وإفسادهما للدين بذئبين ضاريتين «أرسلا في غنم»^(١).

(١) صحيح، سلف تخريجه في الصفحة (٢٤٦) حاشية (١).

فحب الجاه إذاً من المهلكات، فيجب علاجه، وعلاجه مركّب من علم وعمل، أما الأول، فهو أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه، هو كمال القدرة على أشخاص الناس وقلوبهم، وذلك إذا صفا وسَلِمَ يكون في آخره الموت، فينبغي أن يتفكر في نفسه في الأخطار والآفات اللاحقة لأصحاب الجاه في الدنيا، من تطرّق الحسد إليهم، وقصدهم بالإيذاء، فتراهم خائفين على الدوام من زوال جاههم، محترزين من تغيير منزلتهم في القلوب.

والقلوب أشدّ تغيراً من القدر في غليانها، فلاشتغال بمراعاة ذلك غمومٌ عاجلة، مكدّرة لحفظ الجاه، فلا يفي مرجو الدنيا بمخوفها، فضلاً عما يفوت في الآخرة، فهذا من حيث العلم.

وأما العلاج من حيث العمل، فهو إسقاط الجاه من قلوب الخلق بأفعال توجب ذلك، كما روي أن بعض الملوك قصد زيارة رجل زاهد، فلما قرب منه، استدعى طعاماً وبَقْلاً ولَبْناً، وجعل يأكل بِشْرِهِ، ويعظّم اللقمة، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه.

ولما أريد إبراهيم النَّخَعِيُّ على القضاء، لبس قميصاً أحمر^(١)، وقعد في السوق.

وأعلم أن أنقطاع الزاهد عن الناس يوجب جاهاً له عندهم، فإذا خاف من تلك الفتنة، فليخالفهم على وجه السلامة، وليمَشِ في الأسواق، وليشترِ حاجته ويحملها، وليقطع طَمَعه من دنياهم، وقد تَمَّ مراده.

وقد كان بِشْرُ الحافني يجلس إلى عَطَّار، وما كانوا يُراعون نوااميس^(٢) المتزهدين اليوم.

(١) كان العلماء والقضاة في أيام الدولة العباسية يلبسون الثياب السوداء، ولما لبس الأحمر تخلص من تولية القضاء.

(٢) عادات التظاهر بالزهد.

فصل

وأعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا خوف مَذَمَّة الناس، وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضا الناس، رجاء المدح، وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات، فوجبت معالجته .
[بيان وجه العلاج
لحب المدح وكراهة الذم]
وطريق ذلك أن ننظر إلى الصفة التي مُدِّحَتْ بها، إن كانت موجودة فيك فلا يخلو: إما أن يكون مما يُفْرَحُ به كالعلم والورع، أو مما لا يصلح أن يفرح به، كالجاه والمال .

أما الأول، فينبغي أن يحذر من الخاتمة، فإن الخوف منها شغل عن الفرح بالمدح، ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى، لا بمدح الناس .

وأما القسم الثاني: وهو المدح بسبب الجاه والمال، فالفرح بذلك، كالفرح بِنَبَاتِ الأرض الذي يصير عن قريب هشيماً، ولا يَفْرَحُ بذلك إلا من قلَّ عقله، وإن كنت خالياً عن الصفة التي مدحت بها، ففرحك بالمدح غاية الجنون .

وقد ذكرنا آفات المدح فيما تقدم في (كتاب: آفات اللسان)، فلا ينبغي أن تفرح به، بل تكرهه، كما كان السلف يكرهونه، ويغضبون على فاعله .

وعلاج كراهية الذم يفهم من علاج حب المدح، فإنه ضده، والقول
الوجيه فيه :

[بيان علاج

كراهة الذم]

إِنْ مَنْ ذَمَّكَ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ صَادِقاً فِيمَا قَالَ، قَاصِداً لِلنَّصِيحِ لَكَ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَتَّقَلَذَّ مِثَّتَهُ، وَلَا تَغْضَبْ، فَإِنَّهُ قَدْ أَهْدَى إِلَيْكَ عَيْبَكَ .

وإن لم يقصد بذلك النصيح، فإنه يكون قد جنى هو على دينه، وأنتفعت بقوله، لأنه عرَّفَكَ ما لم تكن تعرف، وذَكَرَكَ من خطاياك ما نسيت .

وإن أفتَرَى عليك بما أنت منه بريء، فينبغي أن تتفكر في ثلاثة أشياء :

أحدها: أنك إِنْ خَلَوْتَ مِنْ ذَلِكَ الْعَيْبِ لَمْ تَخُلْ مِنْ أَمْثَالِهِ، فَمَا سَتَرَ اللَّهُ لَكَ

عليك من عيوبك أكثر، فأشكره إذ لم يُطلعه على عيوبك، ودفعه عنك، فذكر ما أنت عنه بريء.

الثاني: أن ذلك كفارات لذنوبك.

الثالث: أنه جنى على دينه، وتعرض لغضب الله عليه، فينبغي أن تسأل الله العفو عنه، كما روي أن رجلاً شجَّ إبراهيم بن أدهم، فدعا له بالمغفرة وقال: صرْتُ مأجوراً بسببه، فلا أجعله مُعاقباً بسببي. وقد تقدمت هذه الحكاية في: (فضل الحلم).

القسم الثاني من الكتاب

في بيان الرياء وحقيقته وأقسامه وذمه ونحو ذلك

وقد ورد ذم الرياء في الكتاب والسنة، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [الذين هم عن صلاتهم ساهون] ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون] وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف].

وأما الأحاديث، فقد روي عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «من عمل عملاً أشرك فيه غيري، فهو للذي أشرك، وأنا منه بريء»^(١).

وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: يا رسول الله! وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء». يقول الله ﷻ لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، هل تجدون عندهم خيراً»^(٢).

(١) روى مسلم نحوه (٢٩٨٥). وبلغظه في «صحيح ابن ماجه» (٣٣٨٧/٤٢٠٢) كلاهما عن أبي هريرة.
(٢) أخرجه أحمد (٢٣٦٢٥). وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (١٥٥٥)، و«الصحيحة» (٩٥١).

وقال بِشْرُ الحافِي: لَأَنَّ أَطْلَبَ الدُّنْيَا بِمِزْمَارٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَطْلُبَهَا بِالْدِّينِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الرِّيَاءَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرُّؤْيَةِ، وَالسَّمْعَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ السَّمَاعِ،
فَالْمُرَائِي يُرِي النَّاسَ مَا يَطْلُبُ بِهِ الْحِظْوَةَ عِنْدَهُمْ، وَذَلِكَ أَقْسَامُ: [بيان حقيقة الرياء
وما يراعى به] ^(١)
الأول ^(٢): الرياء في الدين، وهو أنواع:

أحدها: أَنْ يَكُونَ مِنْ جِهَةِ الْبَدَنِ، بِإِظْهَارِ النُّحُولِ وَالصَّفَارِ، لِئُرِيَهُمْ بِذَلِكَ
شِدَّةَ الْجَهْدِ، وَغَلْبَةَ خَوْفِ الْآخِرَةِ، وَكَذَلِكَ يَرَائِي بِتَشَعُّثِ الشَّعْرِ، لِیُظْهِرَ أَنَّهُ
مُسْتَغْرَقٌ فِي هَمِّ الدِّينِ، لَا يَتَفَرَّغُ لِتَسْرِيعِ شَعْرِهِ.

وَيَقْرُبُ مِنْ هَذَا خَفْضُ الصَّوْتِ، وَإِغَارَةُ الْعَيْنَيْنِ، وَذُبُولُ الشَّفَتَيْنِ، لِيَدُلَّ
بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مُوَظَّبٌ عَلَى الصَّوْمِ.

ولهذا قال عيسى ابن مريم عليه السلام: (إِذَا صَامَ أَحَدُكُمْ فَلْيِدْهِنْ رَأْسَهُ، وَيُرْجِلْ
شَعْرَهُ). وَذَلِكَ لِمَا يَخَافُ عَلَى الصَّائِمِ مِنْ آفَاتِ الرِّيَاءِ، فَهَذَا الرِّيَاءُ مِنْ جِهَةِ
الْبَدَنِ لِأَهْلِ الدِّينِ.

وَأَمَّا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَيَرَاوُنَ بِإِظْهَارِ السُّمَنِ، وَصَفَاءِ اللَّوْنِ، وَأَعْتِدَالِ الْقَامَةِ،
وَحَسَنِ الْوَجْهِ، وَنِظَافَةِ الْبَدَنِ.

النوع الثاني: الرياء من جهة الزَّيِّ، كَالْإِطْرَاقِ حَالَةَ الْمَشْيِ، وَإِبْقَاءِ أَثَرِ
السَّجُودِ عَلَى الْوَجْهِ، وَغُلْظِ الثِّيَابِ، وَلِبْسِ الصَّوْفِ، وَتَشْمِيرِ الثِّيَابِ كَثِيرًا،
وَتَقْصِيرِ الْأَكْمَامِ، وَتَرْكِ الثَّوبِ مُخَرَّقًا غَيْرَ نَظِيفٍ.

وَمِنْ ذَلِكَ لِبْسُ الْمُرَقَّعةِ، وَالثِّيَابِ الزُّزْقِ، تَشْبُهًا بِالصُّوفِيَّةِ، مَعَ الْإِفْلَاسِ مِنْ
صِفَاتِهِمْ فِي الْبَاطِنِ.

وَمِنْهُ التَّقَنُّعُ فَوْقَ الْعِمَامَةِ، لِتَنْصَرِفَ إِلَيْهِ الْأَعْيُنُ بِالتَّمْيِيزِ بِتِلْكَ الْعَادَةِ.

(١) إِنْ مَا يَذْكُرُهُ مِنْ صِفَاتِ الْمُرَائِينَ، يَخْتَلِفُ مِنْ زَمَنِ إِلَى زَمَنِ وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى آخَرٍ.
و«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى». نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ.

(٢) لَمْ يَذْكُرِ الْمُؤَلِّفُ الْقِسْمَ الثَّانِي صِرَاحَةً، وَهُوَ رِيَاءُ أَهْلِ الدُّنْيَا كَمَا فِي «الْإِحْيَاءِ».
وَقَدْ أَدْرَجَ الْقَسْمَيْنِ فِي كُلِّ نَوْعٍ كَأَصْلِهِ.

وهؤلاء طبقات، منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح، بإظهار التزهد بلبس الثياب المُخَرَّقة الوَسِخة الغليظة، ليرائي بذلك، ولو كُلف هذا أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً مما كان السلف يلبسونه، لكان عنده بمنزلة الذَّنَج، لِخَوْفه أن يقول الناس: قد بدا له من الزهد، وقد رجع عن تلك الطريقة.

وطبقة أخرى: يطلبون القبول عند أهل الصلاح، وعند أهل الدنيا من الملوك والأمراء والتجار، فلو لبسوا الثياب الفاخرة لم تقبلهم القراء أهل الصلاح، ولو لبسوا المخرقة الدنيئة لآذرتهم الملوك والأغنياء، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فيطلبون الأثواب الرقيقة، والأكسية الرقيقة، والقوط الرفيعة فيلبسونها، وأقل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب الغني، ولونه وهيئته لون ثياب الصُّلحاء، فيلتمسون القبول عند الفريقين.

وهؤلاء لو كُلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ، لكان عندهم كالذبح، خوفاً من السقوط في أعين الملوك والأغنياء، ولو كلفوا لبس الرقيق ورفيع الكتان الأبيض ونحو ذلك، لَعَظَمَ ذلك عليهم، خوفاً من أن تنحط منزلتهم عند أهل الصلاح، وكل مُراءٍ بِزِيٍّ مخصوصٍ ثَقُلَ عليه الانتقال إلى ما دونه أو فوقه خوفاً من المذمة.

وأما أهل الدنيا، فَمُراءاتهم بالثياب النفيسة، والمراكب الحسنة، وأنواع التجمل في الملبس والمسكن وأثاث البيت، وهم في بيوتهم يلبسون الثياب الخشنة، ويشتد عليهم أن يُروا بتلك المنزلة.

النوع الثالث: الرياء بالقول، ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير وحفظ الأخبار والآثار، لأجل المحاوراة، وإظهار غزارة العلم والدلالة على شدة العناية بأحوال السلف، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، وإظهار الغضب للمُنكرات بين الناس، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف والحزن ونحو ذلك.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بحفظ الأشعار والأمثال والتفاحص في الكلام ونحو ذلك.

النوع الرابع: الرياء بالعمل، كمُراعاة المصلي بطول القيام، وتطويل الركوع والسجود، وإظهار الخشوع، ونحو ذلك. وكذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة ونحو ذلك.

وأما أهل الدنيا فمُراءاتهم، بالتَّبَخُّثِ، والاختيال، وتحريك اليدين، وتقريب الخطأ، والأخذ بأطراف الذيل، وإمالة العُطْفَيْن ليدلوا بذلك على الحِشْمَةِ.

النوع الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين، كالذين يتكلف أن يَسْتزِيرَ عالماً أو عابداً، ليقال: إن فلاناً قد زار فلاناً، وإن أهل الدين يترددون إليه، ويتبركون به.

وكذلك من يراني بكثرة الشيوخ، ليقال: لقي شيوخاً كثيرة، وأستفاد منهم، فيباهي بذلك.

فهذه مجامع ما يراني به المراءون، يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد.

ومنهم من يطلب مجرد الجاه، وكم من عابدٍ أَعْتَزَلَ في جبل، وراهبٍ أَنزَوَى إلى دير، مع قطع طَمَعِهِم من مال الناس، لكنه يحب مجرد الجاه.

ومنهم من يكون قصده المال.

ومنهم من قصده الثناء وانتشار الصِّيت.

فإن قيل: هل الرياء حرام، أم مكروه، أم مباح؟ =

= فالجواب: أن فيه تفصيلاً، وهو إما أن يكون بالعبادات، أو بغيرها، فإن كان الرياء بالعبادات، فهو حرام، فإن المرائي بصلاته وصدقته وحجته، ونحو ذلك، عاصِ آثم، لأنه يقصد بذلك غير الله تعالى المُسْتَحَقُّ للعبادة وحده، فالمرائي بذلك في سخط الله.

وأما إن كان بغير العبادات، فهو كطلب المال على ما تقدم، لا يحرم من حيث إنه طَلَبُ منزلة في قلوب العباد، ولكن كما يمكن كسب المال بتلييسات وأسباب محظورة، فكذلك الجاه، وكما أن كسب قليل من المال وهو ما

يحتاج إليه الإنسان محمودٌ، فكذلك الجاه، وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام في قوله: ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلَيْهِ﴾ (٥٥) [يوسف].

ولا نقول بتحريم الجاه وإن كثر، إلا إذا حمل صاحبه على ما لا يجوز، على نحو ما ذكرنا في المال.

وأما سعة الجاه من غير حرص على طلبه، ومن غير اغتمام بزواله وإن زال، فلا ضرر فيه، إذ لا جاه أوسع من جاه الرسول ﷺ وعلماء الدين بعده، ولكن أنصراف الهمم إلى طلب الجاه نقصان في الدين، ولا يوصف بالتحريم.

وتحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس، إنما هو ليراه الناس، وكذلك كل تجمل لأجلهم لا يقال: إنه منهي عنه.

وقد تختلف المقاصد بذلك، فإن أكثر الناس يحبون ألا يروا بعين نقص في حال.

وفي أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(١).

ومن الناس من يؤثر إظهار نعمة الله عليه، وقد أمر رسول الله ﷺ بذلك^(٢).

فصل

[بيان درجات أعلم أن بعض أبواب الرياء أشد من بعض، لأنه درجات: الرياء] أشدها وأغلظها: ألا يكون مراده بالعبادة الثواب أصلاً، كالذي يصلي بين الناس، ولو أنفرد لم يصل.

(١) أخرجه مسلم (٩١)، وأبو داود [«صحيحه» (٣٤٤٧/٤٠٩١)]، والترمذي [«صحيحه» (١٦٢٦/١٩٩٨ و ١٩٩٩)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٥٠/٥٩)]. وهو في «الصحيحه» (١٦٢٦).

(٢) يشير إلى ما رواه ابن عدي - وقال: حديث منكر - من فعله ﷺ. قاله الحافظ العراقي ١٣٧/١ و ٣٠٠/٣.

الدرجة الثانية: أن يقصد الثواب مع الرياء قصداً ضعيفاً بحيث لو كان خالياً لم يفعله، فهو قريب من القسم الأول في كونهما مَمَّقَوَّتَيْنِ عند الله تعالى .
الثالثة: أن يكون قَصْدُ الرياء، وقصد الثواب متساويين، بحيث لو انفرد كل واحد منهما عن الآخر لم يبعثه على العمل، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح، ولا يسلم من الإثم .

الرابعة: أن يكون أطلاع الناس عليه مُقَوِّياً لنشاطه، ولو لم يَطَّلِع عليه أحد لم يترك العباداة، فهذا يُثَاب على قصده الصحيح، ويعاقب على قصده الفاسد .
 وقريب من ذلك: الرياء بأوصاف العباداة لا بأضليها، كالذي يصلي وغرضه تخفيف الركوع والسجود ولا يطيل القراءة، فإذا رآه الناس أحسن ذلك، فهو أيضاً من الرياء المحذور، لأنه يتضمن تعظيم الخلق، ولكنه دون الرياء بأصول العبادات .

بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل

أعلم أن الرياء جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ .

فالجلي: هو الذي يبعث على العمل وَيَحْمِلُ عليه .

وأخفى منه قليلاً رياء لا يبعث على العمل بِمُجَرَّدِهِ، لكن يَخَفِّفُ العمل الذي أريد به وجه الله تعالى، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف نَشَطَ له وسَهَّلَ عليه .

وأخفى من ذلك ما لا يُؤَثِّرُ في العمل ولا في التسهيل، لكنه مع ذلك مستبطن في القلب، ومتى لم يؤثر الدعاء في العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات، وأجلّ علاماته أنه يُسَرَّ بأطلاع الناس على طاعته، فَرُبَّ عبيد مُخْلِصٍ يُخْلِصُ العمل، ولا يقصد الرياء بل يكرهه، ويتم العمل على ذلك، لكن إذا أطلع الناس عليه سَرَّه ذلك وأرتاح له، وَرَوَّحَ ذلك عن قلبه شِدَّةَ العباداة، فهذا السرور يَدُلُّ على رياء خَفِيٍّ منه يرشح السرور، ولولا ألتفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند أطلاع الناس، فيعلم أن الرياء كان

مُسْتَكْتَنًا فِي الْقَلْبِ اسْتِكْنَانُ النَّارِ فِي الْحَجَرِ، فَأَظْهَرَ مِنْهُ أَطْلَاعُ النَّاسِ أَثَرَ الْفَرْحِ وَالسُّرُورِ، ثُمَّ إِذَا اسْتَشْعَرَ تِلْكَ اللَّذَّةَ بِالْإِطْلَاعِ لَمْ يَقَابِلْ ذَلِكَ بِكَرَاهَةٍ، بَلْ قَدْ يَتَحَرَّكُ حَرَكَةً خَفِيفَةً، وَيَتَكَلَّفُ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ بِالتَّعْرِيزِ لَا بِالتَّصْرِيحِ.

وَقَدْ يَخْفَى، فَلَا يَدْعُو إِلَى الْإِظْهَارِ بِالنُّطْقِ تَعْرِيزًا وَلَا تَصْرِيحًا، وَلَكِنْ بِالشَّمَائِلِ كإِظْهَارِ النُّحُولِ، وَالصَّفَارِ، وَخَفْضِ الصَّوْتِ، وَيُبْسِ الشَّفَتَيْنِ، وَأَثَارِ الدَّمُوعِ، وَغَلْبَةِ النَّعَاسِ الدَّالَّةِ عَلَى طَوْلِ التَّهَجُّدِ.

وَأَخْفَى مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَخْتَفِيَ بِحَيْثُ لَا يَرِيدُ الْإِطْلَاعَ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ إِذَا رَأَى النَّاسَ أَحَبَّ أَنْ يَبْدُوهُ بِالسَّلَامِ، وَأَنْ يَقَابِلُوهُ بِالْبِشَاشَةِ وَالتَّوْقِيرِ، وَيَنْشُطُوا فِي قِضَاءِ حَوَائِجِهِ، وَيَسَامَحُوهُ فِي الْمُعَامَلَةِ، وَيُوسِعُوا لَهُ الْمَكَانَ، فَإِنْ قَصَرَ فِي ذَلِكَ مُقَصِّرٌ، ثَقُلَ ذَلِكَ عَلَى قَلْبِهِ، كَأَنْ نَفْسَهُ تَتَقَاضَى الْإِحْتِرَامَ عَلَى الطَّاعَةِ الَّتِي أَخْفَاهَا.

وَمَتَى لَمْ يَكُنْ وَجُودُ الْعِبَادَةِ كَعَدَمِهَا فِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْخَلْقِ، لَمْ يَكُنْ خَالِيًا عَنْ شَوْبِ خَفِيٍّ مِنَ الرِّيَاءِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يُوشِكُ أَنْ يُنْقِصَ الْأَجْرَ، وَلَا يَسْلَمَ مِنْهُ إِلَّا الصُّدِّيقُونَ.

وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْعِبَادِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنَّا قَدْ فَارَقْنَا الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ مَخَافَةَ الطُّغْيَانِ، وَإِنَّا نَخَافُ أَنْ يَكُونَ قَدْ دَخَلَ عَلَيْنَا فِي أَمْرِنَا مِنْ هَذَا الطُّغْيَانِ أَكْثَرُ مِمَّا دَخَلَ عَلَى أَهْلِ الْأَمْوَالِ فِي أَمْوَالِهِمْ، إِنَّ أَحَدَنَا إِذَا لُقِيَ أَحَبَّ أَنْ يُعَظَّمَ لِمَكَانِ دِينِهِ، وَإِنْ كَانَ لَهُ حَاجَةٌ أَحَبَّ أَنْ تُقْضَى لِمَكَانِ دِينِهِ، وَإِنْ اشْتَرَى شَيْئًا أَحَبَّ أَنْ يُرَخَّصَ لَهُ لِمَكَانِ دِينِهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مَلِكَهُمْ، فَرَكِبَ فِي مَوَكِبِهِ، فَإِذَا السَّهْلُ وَالْجَبَلُ قَدْ أَمْتَلَا مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ الْعَابِدُ: مَا هَذَا؟ قِيلَ: هَذَا الْمَلِكُ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ: أَتَنْتَنِي بِطَعَامٍ، فَأَتَاهُ بِثِقَلٍ وَزَيْبٍ وَقُلُوبِ الشَّجَرِ، فَجَعَلَ يَحْشُو شِدْقَيْهِ وَيَأْكُلُ أَكْلًا عَنيفًا، فَقَالَ الْمَلِكُ: أَيْنَ صَاحِبُكُمْ؟ فَقَالُوا: هَذَا. فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ قَالَ: كَالنَّاسِ. فَقَالَ الْمَلِكُ: مَا عِنْدَ هَذَا خَيْرٍ، وَأَنْصَرِفْ عَنْهُ. فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَرَفَهُ عَنِّي وَهُوَ لِي لِائِمٌّ.

وَلَمْ يَزَلِ الْمَخْلُصُونَ خَائِفِينَ مِنَ الرِّيَاءِ الْخَفِيِّ، يَجْتَهِدُونَ فِي مُخَادَعَةِ النَّاسِ

عن أعمالِهِمُ الصالحة، ويحرصون على إخفائها أعظمَ ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيَهُم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم.

وشوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومتى أدرك الإنسان من نفسه تفرقة بين أن يُطَّلَعَ على عبادته أو لا يطلع، ففيه شعبة من الرياء، ولكن ليس كل شوب مُحِبِّطاً للأجر ومفسداً للعمل، بل فيه تفصيل.

فإن قيل: فما ترى أحداً يَنفُكُ عن السرور إذا عُرِفَتْ طاعته، فهل جميع ذلك مذموم؟ =

= فالجواب: أن السرور ينقسم إلى محمود ومذموم:

فالمحمود: أن يكون قُضِده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما أطلع عليه الخلق علم أن الله تعالى أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله، فَيُسَرُّ بحسن صُنْع الله ونظره له ولطفه به، حيث كان يَستُر الطاعة والمعصية، فأظهر الله سبحانه عليه الطاعة، وستر عليه المعصية، ولا لطف أعظم من ستر القبيح، وإظهار الجميل، فيكون فرحه بذلك، لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، أو يستدل بإظهار الله الجميل، وستر القبيح عليه في الدنيا، أنه كذلك يفعل به في الآخرة، فإنه قد جاء معنى ذلك في الحديث^(١).

فأما إن كان فرحه بأطلاع الناس عليه لقيام منزلته عندهم، حتى يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه، فهذا مكروه مذموم.

فإن قيل: فما وجه حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيسرّه، فإذا أُطِّلِعَ عليه أعجبه. فقال: «له أجران: أجر السر، وأجر العلانية»^(٢).

(١) للحديث الذي رواه مسلم (٢٥٩٠) عن أبي هريرة مرفوعاً:

«ما ستر الله على عبد ذنباً في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة».

(٢) رواه الترمذي [«ضعيف» (٢٣٨٥/٤١٦)]، وابن ماجه [«ضعيف» (٤٢٢٦/٩٢٧)].

وهو في «ضعيف الجامع الصغير وزيادته» (٤٧٨٧).

فالجواب: أن هذا الحديث ضعيف، وقد رواه الترمذي، وفسره بعض أهل العلم بأن معناه: أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير، لقوله ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض»^(١).

وقد روي في أفراد مسلم، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»^(٢).

فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرموه عليه، فهذا رياء.

فصل في بيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط

إذا ورد على العبد وارء الرياء، فلا يخلو:

إما أن يكون ورد بعد فراغه من العبادة أو قبله، فإن ورد عليه بعد الفراغ سرور بالظهور من غير إظهار منه، فهذا لا يحبط العمل، لأنه قد تم على نعت الإخلاص فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به، فأما إن تحدث به بعد تمامه وأظهره، فهذا مخوف، والغالب عليه أنه كان في قلبه وقت مباشرة العمل نوع رياء، فإن سلم من الرياء نقض أجره، فإن بين عمل السر والعلانية سبعين درجة.

وأما إذا ورد الرياء قبل الفراغ من العبادة، كالصلاة التي عقدها على الإخلاص، فإن كان مجرد سرور، لم يؤثر في العمل، وإن كان رياء باعثاً على العمل، مثل أن يطيل الصلاة ليرى مكانه، فهذا يحبط الأجر.

وأما ما يقارن العبادة، مثل أن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء، فإن أتمها على ذلك لم يعتد بها، وإن ندم فيها على فعله فالذي ينبغي له أن يبتدئها، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩)، وابن ماجه [«صحيحه» (١٢١١/١٤٩١]

(١٢١٢/١٤٩٢)]، والنسائي [«صحيحه» (١٨٢٤ و ١٨٢٥)] عن أنس.

(٢) هو في مسلم (٢٦٤٢).

باب في دواء الرياء وطريقة معالجة القلب فيه

قد عرفت أن الرياء مُخْبِطٌ للأعمال، وسببٌ لِمَقْتِ اللهِ تعالى، وأنه من المهلكات، ومَنْ هَذَا حاله، فجدِّدْ بالتشمير عن ساق الجِدِّ في إزالته .
وفي معالجته مقامان: أحدهما: في قلع عروقه وأصوله التي منها أنشعابه .
والثاني: في دفع ما يخطر منه في الحال .

المقام الأول: أعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة، وإذا فُضِّلَ، رجع إلى ثلاثة أصول، وهي: حب لذة الحمد، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس .

ويشهد لذلك ما في «الصحيحين» من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرايت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، فأَيُّ ذَلِكَ في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»^(١) .

فمعنى قوله: يقاتل شجاعة، أي: لِيُذَكَّرَ ويحمد، ومعنى قوله: يقاتل حمية، أي: يأنف أن يُقهر أو يُذم، ومعنى: يقاتل رياء: أي: لِيُرَى مكانه، وهذا هو لذة الجاه والمنزلة في القلوب .

وقد لا يشتهي الإنسان الحمد، ولكنه يحذر من الذم، كالجبان بين الشجعان، فإنه يثبت ولا يفر لثلا يذم . وقد يفتي الإنسان بغير علم حَذْراً من الذم بالجهل .

فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك إلى الرياء .

(١) أخرجه البخاري (١٢٣) و٢٨١٠ و٧٤٥٨، ومسلم (١٩٠٤)، وأبو داود [«صحيحه» (٢٥١٧/٢١٩٧)]، والترمذي [«صحيحه» (١٦٤٦/١٣٤٣)]، والنسائي [«صحيحه» (٢٩٣٩)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٢٧٨٣/٢٢٤٣)] .

وعلاجه: أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه إذا ظن أنه خير له ونافع، إما في الحال أو المآل، فإن علم أنه لذيق في الحال ضار في المآل، سهّل عليه أجتنابه وقطع عنه الرغبة، كمن يعلم أن العسل لذيق، ولكن إذا بان له أن فيه سُمّاً، أعرض عنه، فكذلك طريق هذه الرغبة أن تعلم ما فيها من المضرة، فإن الإنسان متى عرف مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه، ومن المنزلة في الآخرة، وما يتعرض له من العذاب والمقت والخزي، لهذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإن رضا الناس غاية لا تدرك، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق، ومن طلب رضاهم في سخط الله، سخط الله عليه وأسخطهم عليه، ثم أي عرض له في مدحهم وإيثار ذم الله له لأجل مدحهم؟ ولا يزيد مدحهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته، وكذلك ذمهم لم يحذر منه؟ ولا يضره ذمهم شيئاً، ولا يعجل أجله، ولا يؤخر رزقه، فإن العباد كلهم عَجَزَةٌ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾ [الفرقان] فإذا قرر هذا في نفسه، فترت رغبته في الرياء، وأقبل على الله تعالى بقلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يضره ويقل نفعه.

وأما الطمع فيما في أيدي الناس، فيزيله بأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأنه لا رازق سواه، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد، لم يخل من المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب وهم فاسد.

ومن الدواء النافع أن يعود نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونها، كما تُغلق الأبواب دون الفواحش، فإنه لا دواء في الرياء مثل إخفاء الأعمال، وذلك يشق في بداية المجاهدة، فإذا صبر عليه مدة بالتكلف، سقط عنه ثقله، وأمد الله بالعون، فعلى العبد المجاهدة، ومن الله التوفيق.

المقام الثاني: في دفع العارض من الرياء في أثناء العبادة، وذلك لا بد من تعلمه أيضاً، فإن من جاهد نفسه، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وإسقاط

نفسه من أعين الناس، وأحتقار مدحهم وذمهم، فإن الشيطان لا يتركه في أثناء العبادة، بل يعارضه بخطر الرياء، فإذا خطر له معرفة الخلق بعبادته وأطلاعهم عليها، دفع ذلك بأن يقول: مَالِكَ وللخلق علموا أو لم يعلموا، والله عالم بحالك، فأَي فائدة في علم غيره؟

فإن هاجت الرغبة إلى آفة الحمد، ذكَّرها آفات الرياء والتعرض للمَقْتِ، فيقابل تلك الرغبة بكراهة المقت، فإن معرفة أطلاع الناس تثير شهوة، ومعرفة آفة الرياء تثير كراهة.

فصل في بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

وبيان الرخصة في كتمان الذنوب،

وكراهة اطلاع الناس على الذنب وذمهم له

أما الأول: فأعلم أن في أسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الاقتداء، وترغيب الناس في الخير.

ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج والجهاد.

والمُظْهِر للعمل ينبغي أن يُراقب قلبه، حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفي، بل ينوي الاقتداء به، ولا ينبغي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك، فإن مثال الضعيف مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم، وأقبل عليهم حتى تشبثوا به، فهلكوا وهلك معهم.

فأما من قَوِيَ وتم إخلاصه، وصغر الناس في عينه، واستوى عنده مدحهم وذمهم، فلا بأس بالإظهار له، لأن الترغيب في الخير خير.

وقد روي ذلك عن جماعة من السلف أنهم كانوا يُظْهِرون شيئاً من أحوالهم الشريفة ليقتدى بهم، كما قال بعضهم لأهله حين أختَصِر: لا تُبْكُوا عَلَيَّ، فإني ما لفظت بخطيئة منذ أسلمت.

وقال أبو بكر ابن عَيَّاش رحمته الله لابنه: إياك أن تعصي الله تعالى في هذه الغرفة، فإني ختمت فيها اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ألف ختمة.

ونحو ذلك كثير من كلامهم، والله أعلم.

[بيان الرخصة في وأما الرخصة في كتمان الذنوب، فربما ظنَّ ظانُّ أن كتمان كتمان الذنوب وكراهة الخطايا رياء، وليس كذلك، فإن الصادق الذي لا يُرائي إذا أطلع الناس عليها وقعت منه معصية، كان له سَتْرُها، لأن الله يكره ظهور المعاصي وكراهة ذمهم لها] ويحب سَتْرُها .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَرْتَكَبَ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ، فَلْيَسْتَرْ بِسِتْرِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلٍّ»^(١).

فهذا وإن عصى بالذنوب، لم يَخْلُ قلبه عن محبة ما أحبه الله ﷻ، وهذا ينشأ عن قوة الإيمان.

وينبغي أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً، فهذا أثر الصدق فيه .
ومن ذلك أن يكره ذم الناس له، من حيث إن ذلك يشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى، فإن الطبع يَتَأَذَّى بالذم، وبهذه العلة أيضاً ينبغي أن يكره المدح إذا كان يشغله عن الله تعالى، ويستغرق قلبه، ويصرفه عن الذكر، فإن هذا أيضاً من قوة الإيمان .

فصل

[بيان ترك الطاعات فأما تَرْك الطاعات خوفاً من الرياء، فإن كان الباعث له على خوفاً من الرياء الطاعة غير الدين، فهذا ينبغي أن يترك، لأنه معصية لا طاعة فيه . ودخول الآفات] وإن كان الباعث على ذلك الدين، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصاً، فلا ينبغي أن يترك العمل، لأن الباعث الدين .

وكذلك إذا ترك العمل خوفاً من أن يقال: إنه مُرَاءٍ، فلا ينبغي ذلك، لأنه من مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ .

قال إبراهيم النَّخَعِيُّ: إذا أتاكَ الشَّيْطَانُ وأنت في صلاة فقال: إنك مُرَاءٍ، فَرِّدْهَا طَوْلًا .

(١) رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عمر . وهو في «صحيح الجامع» (١٤٩)، و«الصحيحة» (٦٦٣) .

وأما ما روي عن بعض السلف أنه ترك العبادة خوفاً من الرياء كما روي عن إبراهيم النَّخَعِيِّ أن إنساناً دخل عليه وهو يقرأ في المصحف، فأطبق المصحف وترك القراءة وقال: لا يراني هذا أني أقرأ كل ساعة فيُحْمَلُ هذا عليّ أنهم أحسّوا من نفوسهم بنوع تزَيّن ففقطعوا.

فصل في بيان ما يصح من نشاط العبد

بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

قد بيت الرجل مع الْمُتَهَجِّدِينَ، فَيُصَلُّونَ أكثر الليل، وعادته قيام ساعة، فيوافقهم، أو يصومون فيصوم، ولولا هم ما أتبعث هذا النشاط. فربما ظن ظاناً أن هذا رياء، وليس كذلك على الإطلاق. بل فيه تفصيل:

وهو أن كل مؤمن يرغب في عبادة الله تعالى، ولكن تعوقه العوائق، وتستهويه الغفلة، فربما كانت مشاهدة الغير سبباً لزوال الغفلة وأندفاع العوائق، فإن الإنسان إذا كان في منزله تَمَكَّنَ من النوم على فراش وطيء وتمتع بزوجته، فإذا بات في مكان غريب، أندفعت هذه الشواغل، وحصلت له أسباب تبعث على الخير، منها مشاهدة العابدين. وقد يعسر عليه الصوم في منزله لكثرة المطاعم، بخلاف غيره، ففي مثل هذه الأحوال ينتدب الشيطان للصد عن الطاعة، ويقول: إذا عملت غير عادتك كنت مرئياً، فلا ينبغي أن يلتفت إليه، وإنما ينبغي أن ينظر إلى قصده الباطن، ولا يلتفت إلى وسواس الشيطان.

ويختبر أمره بأن يمثل القوم في مكان يراهم ولا يرونه، فإن رأى نفسه تسخو بالتعبد فهو لله، وإن لم تَسْخَ كان سخاؤها عندهم رياء، وقس على هذا.

فهذه جملة آفات الرياء، فكن بَحَاثاً عنها، وتفقد نيتك، فإن الرياء أخفى من ديب النمل.

وينبغي للمريد أن يُلْزِمَ قلبه القناعة بِعِلْمِ الله في جميع طاعته.

[بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه]

وإنما يقنع بذلك من خاف الله ورجاه، ولا ينبغي أن يؤيس نفسه من الإخلاص بأن يقول: إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء، وأنا من المخلطين، فيترك المجاهدة في تحصيل الإخلاص، لأن المخلط إلى ذلك أخرج.

قال إبراهيم بن أدهم: تعلمت المعرفة من راهب يقال له: سَمْعَان، دخلت على صومعته فقلت له: منذ كم أنت في صومعتك هذه؟ قال: منذ سبعين سنة. قلت: ما طعامك؟ قال: كل ليلة حِمْصَة، قلت: فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة؟ قال: ترى الدَّيْرَ الذي بِحِذَائِكَ؟ قلت: نعم. قال: إنهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً فيزيئون صَوْمَعَتِي ويطوفون حولها يُعْظَمُونَنِي بِذَلِكَ، فكلما ثاقلت نفسي عن العبادة، ذَكَّرْتُهَا عِزَّ تِلْكَ السَّاعَةِ، فَأَنَا أَجْتَهِدُ سَنَةً لِعِزِّ سَاعَةٍ، فَأَحْتَمِلُ يَا حَنِيفِي^(١) جُهْدَ سَاعَةٍ لِعِزِّ الْأَبَدِ.

فوقَّر في قلبي المعرفة. فقال: أزيدك؟ قلت: نعم. قال: إنزل عن الصومعة، فنزلت، فأدلى إليَّ رَكْوَةً فيها عشرين حِمْصَةً، ثم قال لي: ادخل الدَّيْرَ، فقد رأوا ما أدليتُ إليك، فلما دخلت الدَّيْرَ، اجتمعَتِ النصارى فقالوا: يا حَنِيفِي، ما الذي أدلى إليك الراهب؟ قلت: شيئاً من قُوَّتِهِ. قالوا: وما تصنع به؟ نحن أحق به، ساوِم به. قلت: عشرون ديناراً، فأعطوني عشرين ديناراً، فرجعتُ إلى الراهب، فقال: أخطأت، لو ساوَمْتَهُمْ عشرين ألفاً لأعطوك، هذا عِزٌّ من لا يعبد، فأنظر كيف يكون عِزٌّ من يعبد، يا حَنِيفِي أَقْبِلْ على عبادة رَبِّكَ.

فقد بَانَ بهذا أن استشعار النفوس عِزَّ الْعَظَمَةِ في القلوب يكون باعثاً إلى الْخُلُوةِ، فهذه آفة عظيمة، وعلامة سلامته منها أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة، ويكون عمله عمل مَنْ ليس على الأرض غيره، فإذا خطرت خطرات ضعيفة رَدَّهَا، والله أعلم.

٢٠ - كِتَابُ ذَمِّ الْكِبَرِ وَالْعُجْبِ

وهما فصلان:

الفصل الأول: قال الله تعالى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] ﴿إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ [النحل].

[بيان ذم
الكبر]

وفي الحديث الصحيح من أفراد مسلم، أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبَر»^(١).

وفي «الصحيحين» عنه ﷺ قال: «قالت النار: أوثرت بالمتكبرين»^(٢).

وعنه ﷺ أنه قال: «يُخْشَرُ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ الذَّرِّ، يَطْوُهُمُ النَّاسُ لِهَوَانِهِمْ عَلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ»^(٣).

وقال سفيان بن عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: من كانت معصيته في شهوة، فَأَزْجُ لَهُ التَّوْبَةُ، فَإِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَصَى مُشْتَهِيًا فَغُفِرَ لَهُ، فَإِذَا كَانَتْ مَعْصِيَتُهُ مِنْ كِبَرٍ، فَأَخْشَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ، فَإِنْ إِبْلِيسَ عَصَى مُسْتَكْبِرًا فَلَعِنَ.

وفي «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فقال أبو بكر: يا رسول الله! إِنَّ أَحَدَ شِقَائِي إِزَارِي لَيْسْتَرَخِي، إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَسْتُ مِمَّنْ يَصْنَعُهُ خُيَلَاءَ»^(٤).

(١) سلف تخريجه في الصفحة (٢٧٢) حاشية (١).

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)، والترمذي [«صحيحه» (٢٠٧٦)/ (٢٥٦١)] عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه البزار هكذا مختصراً دون قوله: «الجبارون» وإسناده حسن.

(٤) رواه البخاري (٣٦٦٥)، ومسلم (٢٠٨٥)، وأبو داود [«صحيحه» (٣٤٤٣)/ (٤٠٩٣)] عن ابن عمر، طبع مكتب التربية العربي، توزيع المكتب الإسلامي.

وأعلم أن الكبر خُلِقَ باطن تَضُدُّ عنه أعمال هي ثمرته، فيُظهر على الجوارح، وذلك الخُلُق هو رؤية النفس على المُتَكَبِّرِ عليه، يعني يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً. [بيان حقيقة الكبر وآفته]

وبهذا يفصل عَنِ العُجب، فإن العجب لا يستدعي غير المُعجب، حتى لو قُدِّرَ أن يُخلَقَ الإنسان وحده تُصَوَّرُ أن يكون مُعْجَباً، ولا يُتَصَوَّرُ أن يكون مُتَكَبِّراً، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه، فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام، حَقَّرَ مَنْ دونه وأزْدَرَاه. وصفة هذا المتكبر: أن ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير أَسْتَجْهالاً وأَسْتَحْقاراً.

وآفة الكبر عظيمة، وفيه يهلك الخواص، وَقَلَّما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء.

وكيف لا تَعْظُم آفته، وقد أخبر النبي ﷺ أنه:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(١).

وإنما صار حِجاباً دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين، لأن صاحبه لا يقدر أن يُحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر على التواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم الغيظ وقبول النصيحة، ولا يسلم مِنَ الازدراء بالناس وأغتيابهم. فما مِنْ خُلُقٍ ذميم إلا وهو مضطر إليه.

ومن شَرِّ أنواع الكبر ما يمنع مِنَ أَسْتِفَادَةِ العلم، وقبول الحق، والانقياد له. وقد تَحْصُلُ المعرفة للمتكبر، ولكن لا تُطَاوَعُهُ نفسه على الانقياد للحق، كما قال تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَفِيقْنَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا﴾ [النمل: ١٤] ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] وآيات كثيرة نحو هذا. وهذا تكبر على الله وعلى رسوله.

(١) أخرجه مسلم، وسلف تخريجه في الصفحة (٢٧٢) حاشية (١).

وقد تقدم أن التكبر على العباد هو احتقارهم وأستعظام نفسه عليهم، وذلك أيضاً يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى، كما حَمَلَ إبليس كِبْرَهُ على آدم ﷺ أن أمتنع من أمثال أمر ربه في السجود .

وقد شرح رسول الله ﷺ الكبر فقال :

«الكبر: بطر الحق وغمط الناس»^(١) . ومعنى غمط الناس: الازدراء بهم، وأستحقارهم . ويروى: غمص الناس بمعنى غمط الناس .

فصل

وأعلم أن العلماء والعُباد في آفة الكبر على ثلاث درجات :

[درجات

الأولى: أن يكون الكبر مستقراً في قلب الإنسان منهم، فهو يرى العلماء والعباد نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة [في آفة الكبر] الكبر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها .

الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من: الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يُقَصِّر في حقه، فترى العالم يُصَعِّر^(٢) خذه للناس، كأنه مُغْرِض عنهم، والعابد يَغْبِس وجهه^(٣) كأنه مُسْتَقْذِر لهم، وهذان قد جهلا ما أَدَب الله به نبيّه ﷺ، حين قال: ﴿وَلَخِفَضَ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء].

الدرجة الثالثة: أن يُظْهِر الكِبَر بلسانه، كالدعاوي والمفاخر، وتركية النفس، وحكايات الأحوال في مَغْرِض المفاخرة لغيره .

(١) أخرجه مسلم، وسلف تخريجه في الصفحة (٢٧٢) حاشية (١) .

(٢) صعر خذه وصاعره: أي أماله من الكبر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] وقول المثلّمس:

وكنّا إذا الجبار صعر خذه أقمنا له من خذه فتقوما

(٣) في الأصول: (يعيش وجهه)، والإصلاح من «الإحياء»!

[بيان ما به التكبر (من الأمور الدنيوية)] وكذلك التكبر بالنسب، فالذي له نسب شريف يستحق من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً. قال ابن عباس: يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ [الحجرات: ١٣].

وكذلك التكبر بالمال. والجمال، والقوة، وكثرة الأتباع، ونحو ذلك. فالكبر بالمال أكثر ما يجري بين الملوك والتجار ونحوهم. والتكبر بالجمال أكثر ما يجري بين النساء، ويدعوهم إلى التنقص والغيبة وذكر العيوب.

وأما التكبر بالأتباع والأنصار، فيجري بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين.

وفي الجملة فكل ما يمكن أن يُعْتَقَدَ كمالاً فإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبر به، حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمر والفجور، لظنه أن ذلك كمال.

[بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر] وأعلم أن التكبر يظهر في: شمائل الإنسان، كصغر وجهه، ونظيره شراً، وإطراق رأسه، وجلوسه متربعاً ومُتَكِناً. وفي أقواله، حتى في صوته ونغمته، وصيغة إirاده الكلام. ويظهر ذلك أيضاً في مشيه وتبخره، وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته. ومن خصال المتكبر، أن يحب قيام الناس له.

والقيام على ضربين:

قيام على رأسه وهو قاعد، فهذا منهى عنه، قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار»^(١). وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين.

(١) أخرجه أحمد (١٦٨٠٧)، وأبو داود [«صحيحه» (٥٢٢٩/٤٣٥٧)] عن معاوية رضي الله عنه. وهو في «صحيح الجامع» (٥٩٥٧).

الثاني : قيام عند مجيء الإنسان ، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك .
قال أنس : لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك^(١) .

وقد قال العلماء : يُستحب القيام للوالدين والإمام العادل ، وفضلاء الناس .
وقد صار لهذا الشعار بين الأفاضل ، فإذا تركه الإنسان في حق من يصلح أن يفعل في حقه ، لم يأمن أن ينسبَ إلى إهانته ، والتقصير في حقه ، فيوجب ذلك حقداً .

وأستجاب لهذا في حق القائم لا يمنع الذي يقام له أن يكره ذلك ، ويرى أنه ليس بأهل لذلك .

ومن خصال المتكبر : ألا يمشي إلا ومعه أحد يمشي خلفه .

ومنها : ألا يزور أحداً ؛ تكبراً على الناس .

ومنها : أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه .

وقد روى أنس رضي الله عنه قال : كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ ، فتطلق به في حاجتها^(٢) .

وقال ابن وهب : جلستُ إلى عبد العزيز بن أبي رَوَاد^(٣) ، وإن فخذني لَتَمَسُّ فخذَه فَتَنَحَّيْتُ نفسي عنه ، فأخذ ثيابي فَجَرَّنِي إليه وقال : لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة ، وإني لا أعرف منكم رجلاً شراً مني !

ومنها : ألا يتعاطى بيده شغلاً في بيته ، ولهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤) .

(١) هو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٢١١/٢٧٥٥) .

(٢) هو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٦٧/٤١٧٧) .

(٣) في المطبوعة الأولى : عبد الله ابن أبي داود وهو خطأ .

(٤) سلف في الصفحة (١٧٩-١٨٠) .

ومنها: ألا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته، وقد اشترى رسول الله ﷺ شيئاً وحمله^(١).

وكان أبو بكر ﷺ يحمل الثياب إلى السوق يتجر فيها.

وأشترى عمر ﷺ لحماً فعلقه بيده وحمله إلى بيته.

وأشترى علي ﷺ تمرأً فحمله في ملحفة، فقال له قائل: أخجلُ عنك؟ قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

وأقبل أبو هريرة ﷺ يوماً من السوق، وقد حمل حزمة حطب، وهو يومئذ خليفة مزوان، فقال لرجل: أوسع الطريق للأمير^(٢).

ومن أراد أن ينفي الكبر، ويستعمل التواضع، فعليه بسيرة رسول الله ﷺ، وقد سبقت الإشارة إليها في (كتاب: آداب المعيشة).

بيان معالجة الكبر واكتساب التواضع

إعلم أن الكبر من المهلكات، ومداواته فَرَضُ عَيْنٍ، ولك في معالجاته مقامان:

الأول: في استئصال أصله وقطع شجرته، وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة، عليم أنه أذلُّ من كل ذليل، ويكفيه أن ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب، ثم من نطفة خرجت من مخرج البول، ثم من علقّة، ثم من مُضْغَةٍ، فقد صار شيئاً مذكوراً، بعد أن كان جَمَاداً لا يسمع ولا يبصر، ولا يحس ولا يتحرك، فقد ابتدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوّته، وبفقره قبل غناه.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: ﴿مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقْنَاهُ فَقَدَرُوا (١٩) ثُمَّ أَمْتَنَّا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَلْسَيْلَ يَسْرُرُ (٢٠)﴾ [عبس]، وبقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ

(١) أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة في شرائه للسراويل وحمله.

(٢) وهذا من مزاح أبي هريرة رضي الله عنه.

سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ [الإنسان] فأحياه بعد الموت، وأحسن تصويره، وأخرجه إلى الدنيا، فأشبعه وأزواه، وكساه وهّده وقوّاه .
فَمَنْ هَذَا بدايته، فأَي وجه لكبره وفخره؟

على أنه لو دام له الوجود على اختياره، لكان لَطُغْيانه طَرِيق، بل قد سلط عليه الأخلاط المُتَضَادَّة، والأمراض الهائلة، بينما بُنِيانه قد تَمَّ، إذ هو قد وَهَى وتهَدَّم، لا يملك الشيء لنفسه ضرراً ولا نفعاً، بينما هو يذكر الشيء فينساه، وَيَسْتَلْدُ الشيء فَيُرديه، ويروم الشيء فلا يناله، ثم لا يأمن أن يُسلب حياته بَغْتَةً .

هَذَا أوسط حاله، وذاك أول أمره .

وأما آخر أمره، فالموت الذي يعيده جماداً كما كان، ثم يُلْقَى في التراب فيصير جِيفَةً مُتْنِنَةً، وتَبْلَى أَعْضَاؤُهُ، وتنخر عظامه، ويأكل الدودُ أَجْزَاءَهُ، ويعود تراباً يُعْمَل منه الكيزان، وَيُغْمَر منه البنيان، ثم بعد طول البلى تُجْمَع أَجْزَاؤُهُ المتفرقة، ويحضر عَرْصَةُ الْقِيَامَةِ، فيرى أرضاً مُبَدَّلَةً، وَجِبَالاً مُسَيَّرَةً، وَسَمَاءَ مُنْشَقَّةً، وَنَجُوماً مُنْكَدِرَةً، وَشَمْساً مَكْوَرَةً، وَأَحْوَالاً مَظْلَمَةً، وَجَحِيماً تَزْفِرُ، وَصَحَائِفَ تُنْشَرُ، ويقال له: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ نِفْسِكَ الْيَوْمَ هَسِيحًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء] فيقول: وما كتابي؟ فيقال: كان قد وُكِّلَ بِكَ - في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها - مَلَكَانِ يُحْصِيَانِ مَا تَنْطِقُ بِهِ وتعمل، من قليل وكثير، وقيام وقعود، وأكل وشرب، وقد نسيت ذلك، وأحصاه الله تعالى، فَهَلُمَّ إِلَى الْحِسَابِ عَلَيْهِ، وَأَعِدَّ جَوَاباً لَهُ، وَإِلَّا فَأَنْتَ تُسَاقُ إِلَى النَّارِ، فَمَا لِمَنْ هُذِهِ حاله التكبر. فَإِنْ صَارَ إِلَى النَّارِ، فالبهائم أحسن حالاً منه، لأنها تعود إلى التراب، ومن هَذَا حاله وهو على شَكٍّ من العفو عن أخطائه، كيف يتكبر؟ ومن الذي يسلم من ذنب يَسْتَحِقُّ بِهِ الْعُقُوبَةَ، وما مثله إلا كمثل رجل جنى على مَلِكٍ جناية أَسْتَحِقُّ أَنْ يُضْرَبَ لِأَجْلِهَا أَلْفَ سَوْطٍ، فَحُسِّسَ فِي السَّجْنِ ليُخْرَجَ فَيُعَاقَبَ، وهو منتظر أن يُدْعَى بِهِ لِذَلِكَ. أَفَتَرَاهُ يتكبر على أَهْلِ السَّجْنِ؟ وَهَلِ الدُّنْيَا إِلَّا سِجْنٌ، وَهَلِ الْمَعَاصِي إِلَّا مُوجِبَةٌ لِلْعِقَابِ؟

وأما معرفة ربه ، فيكفيه أن ينظر في آثار قدرته وعجائب صنّعته ، فتلوح له العظّمة ، وتظهر له المعرفة ، فهذا هو العلاج القالع لأضلّ الكبير .

ومن العلاج العمليّ : التواضع بالفعل لله تعالى ولعباده ، وذلك بالمواظبة على استعمال خُلق المتواضعين ، وقد تقدّمت الإشارة إلى طريقة رسول الله ﷺ ، وما كان عليه من التواضع والأخلاق الجميلة .

المقام الثاني : فيما يعرض من التكبر بالأسباب^(١) :

فَمَنْ اغْتَرَاهُ الْكِبَرُ مِنْ جِهَةِ النَّسَبِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ هَذَا تَعَزُّزٌ بِكَمَالٍ غَيْرِهِ ، ثُمَّ يَعْلَمُ أَبَاهُ وَجَدَّهُ ، فَإِنْ أَبَاهُ الْقَرِيبَ نَظْفَةً قَذِرَةً ، وَأَبَاهُ الْبَعِيدَ تَرَابًا .

وَمَنْ اغْتَرَاهُ الْكِبَرُ بِالْجَمَالِ ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى بَاطِنِهِ نَظَرَ الْعُقَلَاءِ ، وَلَا يَنْظُرْ إِلَى ظَاهِرِهِ نَظَرَ الْبَهَائِمِ .

وَمَنْ اغْتَرَاهُ مِنْ جِهَةِ الْقُوَّةِ ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ أَلَمَهُ عِزٌّ ، عَادَ أَعْجَزُ مِنْ كُلِّ عَاجِزٍ ، وَأَنَّ حُمَيَّ يَوْمَ تُحْلَلُ مِنْ قُوَّتِهِ مَا لَا يَعُودُ فِي مُدَّةٍ ، وَأَنَّ شَوْكَةً لَوْ دَخَلَتْ فِي رِجْلِهِ لَأَعْجَزَتْهُ ، وَبَقَّةٌ لَوْ دَخَلَتْ فِي أُذُنِهِ لَأَقْلَقَتْهُ .

وَمَنْ تَكَبَّرَ بِسَبَبِ الْغِنَى ، فَإِذَا تَأَمَّلَ خَلْقًا مِنَ الْيَهُودِ ، وَجَدَهُمْ أَغْنَى مِنْهُ ، فَأُفٍّ لَشَرِّهِ تَسْبِقُ بِهِ الْيَهُودُ ، وَيَسْتَلْبِهُ السَّارِقُ فِي لَحْظَةٍ ، فَيَعُودُ صَاحِبَهُ ذَلِيلًا .

وَمَنْ تَكَبَّرَ بِسَبَبِ الْعِلْمِ ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ حِجَّةَ اللَّهِ عَلَى الْعَالَمِ آكَدُ مِنَ الْجَاهِلِ ، وَلْيَتَفَكَّرْ فِي الْخَطَرِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ بِصَدَدِهِ ، فَإِنْ خَطَرُهُ أَعْظَمُ مِنْ خَطَرِ غَيْرِهِ ، كَمَا أَنَّ قَدْرَهُ أَعْظَمُ مِنْ قَدْرِ غَيْرِهِ .

وليعلم أيضاً أن الكبر لا يليق إلا بالله سبحانه ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله تعالى بغضاً عنده . وقد أحبّ الله منه أن يتواضع . وكذلك كل سبب يعالجه بتقيضه ويستعمل التواضع .

(١) في الأصول : (بالأنساب) ، والإصلاح من «الإحياء» .

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْخُلُقَ كَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ لَهُ طَرَفَانِ وَوَسْطٌ :
 فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يُسمى تكبراً .
 وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً^(١)، ومَذَلَّةٌ .

[بيان غاية
 الرياضة في
 خلق التواضع]

والوسط يُسمى تواضعاً، وهو المحمود، وهو أن يتواضع من غير مَذَلَّةٍ،
 ف(خير الأمور أوسطها)^(٢)، فمن تقدم على أقرانه فهو متكبر، ومن تأخر
 عنهم، فهو متواضع، لأنه قد وضع شيئاً من قدره، فأما إذا أُدْخِلَ عَلَى الْعَالَمِ
 إِسْكَافٌ أَوْ نَحْوُهُ، فَتَنَحَّى لَهُ عَنِ مَجْلِسِهِ وَأَجْلَسَهُ فِيهِ، ثُمَّ قَدَّمَ لَهُ نَعْلَهُ وَمَشَى
 مَعَهُ إِلَى الْبَابِ، قَدْ تَخَاسَسَ^(٣) وَتَذَلَّلَ، فَذَلِكَ غَيْرُ مَحْمُودٍ، بَلِ الْمَحْمُودُ
 الْعَدْلُ، وَهُوَ أَنْ يُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ، لَكِنْ تَوَاضَعَهُ لِلسُّوقِيِّ بِالرَّفْقِ فِي
 السُّؤَالِ وَاللِّينِ فِي الْكَلَامِ، وَإِجَابَةِ الدَّعْوَةِ، وَالسَّعْيِ فِي الْحَاجَةِ، وَلَا يَحْقِرُهُ،
 وَلَا يَسْتَصْغِرُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل الثاني في العجب

روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «بينما رجل يَتَبَخَّرُ في بُرْدَيْنِ
 وَقَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ، خَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ^(٣) فِيهَا إِلَى يَوْمِ
 الْقِيَامَةِ»^(٤) .

وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء
 بنفسه»^(٥) .

وروي عن ابن مسعود ؓ أنه قال: (الهلاك في شيئين: العجب،

(١) كذا في الأصول و«الإحياء»، والجادة أن يقال: (تَخَاسَّأَ) و (تَخَاسَّأَ) .

(٢) مثل يضرب في التمسك بالاقتصاد . «مجمع الأمثال» ١/ (١٢٩٤) .

(٣) أي: يغوص في الأرض حين يخسف به، و(الجلجلة): الحركة مع الصوت .

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨) .

(٥) حسن، سلف تخريجه في الصفحة (٢٥١) الحاشية (٣) .

والقنوط). وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تُنال إلا بالطلب والتشمير،
والقنوط لا يطلب، والمُعجَب يظن أنه قد ظفر بمراذه فلا يسعى .
قال مُطَرِّفٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَأَنْ أُبَيِّتَ نَائِمًا وَأَصْبَحَ نَادِمًا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبَيِّتَ
قَائِمًا وَأَصْبَحَ مُعْجَبًا .

وأعلم أن العجب يدعو إلى الكبر، لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب
الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، وهذا مع الخلق. [بيان آفة
العجب]
فأما مع الخالق، فإن العجب بالطاعات: نتيجة استعظامها، فكأنه يَمُنُّ
على الله تعالى بفعلها، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها، ويعمى عن آفاتها
المُفسدة لها.

وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف رَدَّها دون من رَضِيها وأعجب بها .
والعجب إنما يكون بوصف كمالٍ من علم أو عمل، فإن أنضافَ
إلى ذلك أن يرى حقًا عند الله إذلالًا، فالعجب يحصل باستعظام ما
عُجب به، والإذلال يوجب توقُّع الجزاء، مثل أن يتوقع إجابة دعائه
وينكر رَدَّه. [بيان حقيقة
العجب والإذلال
وحدهما]

فصل في علاج العجب

أعلم أن الله سبحانه هو المُنعم عليك بإيجادك، وإيجاد أعمالك، فلا معنى
لِعُجب عامل بعمله، ولا عالم بعلمه، ولا جميل بجماله، ولا غنيٌّ بغناه، إذ
كل ذلك من فضل الله تعالى، وإنما الآدميُّ محلٌّ لفيض النعم عليه، وكونه
مَحَلًّا له نعمة أخرى .

فإن قلت: إن العلم حصل بقُدْرَتِكَ، ولا يُتَصَوَّرُ العلم إلا بوجودك ووجود
عملك وإرادتك وقُدْرَتِكَ .

فمِنْ أَيْنَ قُدْرَتِكَ؟ وكل ذلك من الله تعالى لا منك، فإن كان العمل بالقدرة
فالقدرة مفتاحه، وهذا المفتاح بيد الله تعالى، وما لم تُغَطَّ المفتاح لا يُمكنك
العمل، كما لو قعدت عند خزانة مُغلقة لم تقدر على ما فيها إلا أن تُعطى
مفتاحها .

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يُدْخِلَ أحداً منكم عَمَلُهُ الْجَنَّةَ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»^(١).

وأعلم أن العجب يكون بالأسباب التي يقع به الكبر، وقد سبق [بيان أقسام ما به ذكرها وعلاجها].
العجب وتفصيل

ومن ذلك العجب بالنسب، كما يتخيل الشريف أنه ينجو بشرف علاجه آبائه، وعلاجه أن يعلم أنه متى خالف آباءه، وظن أنه مُلْحَقَ بِهِمْ، فقد جَهِلَ، وإن أَقْتَدَى بِهِمْ، فإنه لم يكن الْعُجْبُ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ، بل الخوف والازدراء على النفس.

وإنما شَرُفُوا بالطاعة والصفات المحمودة، لا بنفس النسب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَدَّرُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال النبي ﷺ: «يا فاطمة، لا أغني عنك من الله شيئاً»^(٢).

فإن قلت: إنما يرجو الشريف أن يشفع فيه ذوو قرابته. =

= فالجواب: أن كل المسلمين يَرْجُونَ الشَّفَاعَةَ، وقد يُشْفَعُ فِي الشَّخْصِ بَعْدَ إِحْرَاقِهِ بِالنَّارِ وَقَدْ يَقْوَى الذَّنْبُ فَلَا تُنْجِي الشَّفَاعَةُ.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال:

«لَا أَلْفِينِ»^(٣) أَحَدُكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رِغَاءٌ، فيقول: يا

رسول الله، أغثنِي. فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتكَ»^(٤).

ومثل الْمُتَهَمِ فِي الذُّنُوبِ اعْتِمَاداً عَلَى رَجَاءِ الشَّفَاعَةِ، كمثَل المَريضِ

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦). وسيمر شبهه في الصفحة (٣٧٣) حاشية (٣).

(٢) متفق عليه، سلف تخريجه في الصفحة (١٧٣) حاشية (٢).

(٣) أي، لا أجد، يقال: ألفت الشيء: إذا وجدته.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١). وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٧١٧٣).

المنهمك في الشهوات، اعتماداً على طبيبه الحاذق المُشْفِقِ، وذلك جهل، فإن اجتهد الطبيب ينفع بعض الأمراض لا كلها.

ويوضح هذا أن سادات الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يخافون من الآخرة، فكيف يَتَكَلَّمُ مَنْ ليس في مثل مراتبهم؟

ومن ذلك العجب بالرأي الخطأ، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]. وعلاج هذا أشد من علاج غيره، فإن هذا متى كان مُعْجَباً برأيه لم يُصْغِ إلى نصيح ناصح، وكيف يترك ما يعتقده نجاة؟ وإنما علاجه في الجملة أن يكون مُتَّهِماً لرأيه أبداً، لا يَغْتَرُّ به، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب، أو سنة أو دليل عَقْلِيٍّ جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة.

والأولى لمن لم يتفرغ لاستغراق العمر في العلم ألا يخوض في المذاهب، ولكن يقف عند اعتقاد الجُمْل، وأن الله سبحانه واحد لا شريك له، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى] وأن رسوله صادق فيما جاء به، ويؤمن بما جاء به القرآن من غير بحث ولا تنقير، ويصرف زمنه في التقوى، وأداء الطاعات، فمتى خاض في المذاهب وَرَّامَ ما لا يحصل إلى معرفته، هَلَكَ.

٢١ - كِتَابُ الْغُرُورِ وَأَقْسَامُهُ وَدَرَجَاتُهُ

من الناس مَنْ غَرَّتْهُ الدنيا، فقال: النَّقْدُ خير من النسيئة، والدنيا نقد، والآخرة نسيئة، وهذا مَحَلُّ التلبيس، فإن النقد لا يكون خيراً من النسيئة، إلا إذا كان مثل النسيئة. ومعلوم أن عمر الإنسان بالإضافة إلى مدة الآخرة ليس بجزء من ألف ألف جزء إلى أن ينقطع النَّفْسُ، وإنما أراد من قال: النقد خير من النسيئة، إذا كانت النسيئة مثل النقد، وهذا غرور الكفار.

فأما مُلَابِسُو المعاصي مع سلامة عقائدهم، فإنهم قد شاركوا الكفار في هذا الغرور، لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة، إلا أن أمرهم أسهل من أمر الكفار، من جهة أن أصل الإيمان يمنعهم من عقاب الأبد.

ومن العُصاة مَنْ يَغْتَرُّ، فيقول: إن الله كريم، وإنما نَتَكَلَّفُ على عَفْوِهِ، وربما أَغْتَرُوا بِصَلَاحِ آبَائِهِمْ.

وقد قال العلماء: مَنْ رَجَا شيئاً طَلَبَهُ، ومن خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا الغفران مع الإصرار، فهو مغرور.

وليعلم أن الله تعالى مع سعة رحمته شديد العقاب، وقد قضى بتخليد الكفار في النار، مع أنه لا يضره كفرهم، وقد سلط الأمراض والمِخَنَ على خلق من عباده في الدنيا، وهو سبحانه قادر على إزالتها، ثم خَوَّفْنَا من عقابه، فكيف لا نَخَافُ؟!

فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل، وما لا يبعث على العمل فهو غرور. يوضح هذا أن رجاء أكثر الخلق يَحْمِلُهُمْ على البطالة، وإيثار المعاصي.

وَالْعَجَبُ أن القرن الأول عَمِلُوا وخافوا، ثم أهل هذا الزمان آمَنُوا مع التقصير وأطمأنوا، أَتَرَاهُمْ عَرَفُوا من كرم الله تعالى ما لم يعرف الأنبياء والصالحون؟!

ولو كان هذا الأمر يدرك بالمُنَى، فَلِمَ تعب أولئك وكَثُر بُكاؤهم؟! وهل ذَمَّ أهل الكتاب بقوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩] إلا لمثل هذه الحال؟!

وأما مَنْ أَغْتَرَّ بصلاح آبائه، فهلا يذكر قصة نوح عليه السلام مع ابنه ^(١)، وإبراهيم عليه السلام مع أبيه، ومحمد مع أمه عليها السلام ^(٢)، وعلى سائر النبيين .

وَيَقْرُبُ من هذا الغرور، غرور أقوام لهم طاعات ومعاصي، إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يظنون أن حسناتهم تَرَجِّح، فترى الواحد منهم يتصدق بدرهم ويكون قد تناول من الغضب أضعاف ذلك، ولعل الذي تصدق به من المغصوب، وَيَتَّكِلُ على تلك الصدقة وما هو إلا كمن وضع درهماً في كفه وألفاً في أخرى، ثم رجا أن يرجح الدرهم بألف .

ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه . وسبب ذلك أنه يحفظ عدد حسناته، ولا يحاسب نفسه على سيئاته، ولا يتفقد ذنوبه، كالذي يستغفر الله ويسبحه مئة مرة في اليوم، ثم يَظَلُّ طول نهاره يَغْتَابُ المسلمين، ويتكلم بما لا يُرضي الله، فهو ينظر في فضائل التسبيح والاستغفار، ولا ينظر في عقوبة الغيبة والكلام المنهي عنه .

فصل

[بيان أصناف المغترين
وأقسام فرق كل صنف] ويقع الاغترار في الأغلب في حق أربعة أصناف: العلماء، والعباد، والمُتَصَوِّفَة، والأغنياء .

فأما أهل العلم، فالمُغْتَرُّون منهم فِرَق: [(صنف أهل العلم)]

منهم فرق: أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقُّد الجوارح وحفظها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، وأغترتوا بعلمهم، وظنوا أنهم من الله بمكان، ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة، علموا أن علم المعاملة لا

(١) حيث قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِن أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦] .

(٢) ونصه: «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي» أخرجه مسلم (٩٧١) عن أبي هريرة .

يراد به إلا العمل ، ولولا العمل لم يكن له قدر ، قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ [الشمس] ولم يقل : قد أفلح من تعلم كيف يزكها ، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم ، فليذكر ما ورد في العالم الفاجر ، كقوله تعالى : ﴿ فَثَلَّمُوا كَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثْ ﴾ [الأعراف: ١٧٦] و ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥] .

ومنهم فرقة أخرى : أحكموا العلم والعمل الظاهر ، ولم يتفقدوا قلوبهم لِيَمْنَحُوا الصفات المذمومة منها ، كالكبر والحسد والرياء ، وطلب العُلُو ، وطلب الشهرة ، فهؤلاء زَيَّنُوا ظاهرهم ، وأهملوا بواطنهم ، وَسَّوْا قوله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١) .

فتعاهدوا الأعمال ، ولم يتعاهدوا القلوب ، والقلب هو الأصل ، إذ لا ينجو ﴿ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء] .

ومثال هؤلاء كمثل رجل زرع زرعاً ، فنبت ونبت معه حشيش يُفْسِدُهُ ، فأمر بقلعه ، فأخذ يَجْزُ رؤوسه وأطرافه ويترك أصوله ، فلم تَزَلْ أصوله تَقْوَى .

وفرقة أخرى : عَلِمُوا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة ، إلا أنهم بعُجْبِهِمْ بأنفسهم يظنون أنهم مُنْفَكُونَ عنها ، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك ، وإنما يبتلي بذلك العوامَ دون من بلغ ﴿ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [النجم: ٣٠] . فإذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة ، قال أحدهم : (ما هذا بكبر ، وإنما هو طلب عز الدين ، وإظهار شرف العلم ، وإرغام المبتدعين ، فإني لو لَبِسْتُ الدُّونَ من الثياب ، وجلست في الدون من المجالس ، شِمَتَتْ بي أعداء الدين ، وفرحوا بذلي ، وفي ذلي ذل الإسلام) ، وَيَنْسَى الغُرور ، وإن إبليس هو الذي سَوَّلَ له هذا بدليل أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يتواضعون ويؤثرون الفقر والمسكنة .

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) ، وأحمد (٧٨١٠ و ١٠٩٤٢) ، وابن ماجه [«صحيحه» (٤١٤٣/٣٣٤٢)] عن أبي هريرة . وهو في «صحيح الجامع» (١٨٦٢) ، و«غاية المرام» (٤١٥) ، و«الصحيحه» (٢٦٥٦) ، و«رياض الصالحين» (٨) .

وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما قدم الشام عَرَضَتْ له مَخَاضَةٌ، فنزل عن بعيره، ونزع خُفَّيه وأمسكهما، وخاض الماء، ومعه بعيره. فقال له أبو عُبَيْدَةَ: (لقد صَنَعْتَ اليوم صنْعاً عظيماً عند أهل الأرض)، فَصَكَّ في صدره وقال: (أَوْه لو غَيْرَكَ يقول هَذَا يا أبا عبيدة! إنكم كنتم أَذِلَّ وأحقَرُ الناس، فَأَعَزَّكُمْ الله برسوله، فمهما تطلبوا العز بغيره يُذِلَّكُمْ الله)^(١).

وفي رواية عنه: لما قدم الشام، استقبله الناس وهو على بعيره. فقيل له: لو رَكِبْتَ بِرْذَوْنًا تَلَقَى به عظماء الناس ووجوههم؟ فقال عمر رضي الله عنه: (لا أراكم ههنا، إنما الأمر من ههنا - وأشار بيده إلى السماء - خُلُوا سبيل جملي).

ثم الْعَجَب من مغرور يطلب عز الدنيا بالثياب الرفيعة، والخيول الفارهة ونحو ذلك، وإذا خطر له خاطر الرياء قال: إنما عَرَضِي بهذا إظهار العلم والعمل، لاقتداء الناس بي ليهتدوا إلى الدين، ولو كان هذا قصده لفرح بأقتداء الناس بغيره كما يفرح بأقتدائهم به، لأن من كان قصده صلاح الْخَلْق يفرح بصلاحهم على يد من كان، وكذلك من يدخل منهم على سلطان، ويتوَدَّد إليه، ويُنْتِنِي عليه، ويتواضع له ويقول: (إنما غرضي بهذا أن أشفع في مسلم أو أدفع عنه الضرر) والله يعلم أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند السلطان لثَقُلَ عليه ذلك.

وقد ينتهي غرور بعضهم إلى أنه يأخذ من مالهم الحرام ويقول: (هذا مال لا مالِكَ له، وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام من أئمتهم) فيَغْتَر بهذا التلبيس من جهة نظره إلى نفسه، وربما كان دَجَالاً من الدَّجَالين من جهة قوله: (هذا مال لا مالك له) وغاية الأمر وقوع الاختلاط في الأموال، وذلك لا يَمْنَع كونها حراماً، وقد يكون عالماً بمن أخذ منه المال.

وفرقه أخرى: أَحْكَمُوا العلم، وطَهَّرُوا جوارحهم وزَيَّنُوا بالطاعات، وتفقدوا قلوبهم بتصفيتها من الرياء والحسد والكبر ونحو ذلك، ولكن بَقِيَتْ في زوايا القلب خفايا من مَكَايد الشيطان وخُدَع النفس لم يَفْطَنُوا لها وأهملوها،

(١) «حلية الأولياء» ٤٧/١، و«أخبار عمر» ٣١٧.

فترى أحدهم يُشهر ليله ويُنصب^(١) نهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها، ويرى أن باعته على ذلك الحرص على إظهار دين الله تعالى، وربما كان الباعث لذلك طلب الذكر وانتشار الصيت، ولعله لا يخلو في تصنيفه من الثناء على النفس، إما صريحاً بالدعوى الطويلة العريضة، وإما ضمناً بالطعن في غيره ليُبَيِّن في طعنه في غيره أنه أفضل من ذلك الغير، وأعظم منه علماً. فهذا وأمثاله من خفايا العيوب التي لا يفتن لها إلا الأكياس ولا يَنَزُّه منه إلا الأقوياء، ولا مَطْمَع فيه لأمثالنا من الضُعفاء، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه، ويحرص على صلاحها.

ومن سرته حسنته وساءته سيئته، فهو مَرْجُوُّ أمره بخلاف من يُزكي نفسه ويظن أنه من خيار الخلق.

فهذا غرور الذين حَصَلُوا العلوم المهمة.

فكيف بالذين قَنَعُوا من العلوم بما لا يُهِمُّهم وتركوا المهم:

فمنهم مَنْ أَقْتَصَرَ على علم الفتاوي في الحكومات والخصومات، وتفصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لصلاح المعاش، وربما ضَيَّعُوا الأعمال الظاهرة وأرتكبوا بعض المعاصي من الغيبة والنظر إلى ما لا يَحِلُّ، والمشي إلى ما لا يَجُوز، ولم يَحْرَسُوا قُلُوبَهُمْ عن الكبر والحسد والرياء وجميع المهلكات، فهؤلاء مغرورون من وجهين: أحدهما من حيث العمل، والآخر من حيث العلم.

ومثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه، لا بل مثلهم مثل من به عِلَّةُ الْبِزْسَام وهو مُشْرِف على الهلاك، فأشتغل بتعلم دواء الاستحاضة، وجعل يُكرِّر ذلك، وذلك غاية الغرور.

وسبب غروره ما سمع في النقل من تعظيم الفقه، ولم يَدْرِ أن الفقه هو الفقه عن الله تعالى، ومعرفة صفاته الْمُخَوِّفَةِ وَالْمَرْجُوَّةِ، ليستشعر القلبُ الخوفَ ويلازم التقوى.

(١) أي: يتعب.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ الآية^(١) والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم، فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال، بشروط المعاملات، وحفظ الأبدان بالأموال، وبدفع القتل والجراحات.

والمال في طريق الله تعالى آلة، والبدن مركب.

وإنما العلم المهم معرفة سلوك الطريق، وقطع عقبات القلب التي هي من الصفات المذمومة، فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى.

ومثال من اقتصر على ذلك، كمثّل من اقتصر في سلوك طريق الحج على علم خَزَزِ الراوية والخُفِّ، ولا شك أنه لا بد من ذلك، ولكن ليس من الحج في شيء.

- ومن هؤلاء من اقتصر على علم الخلاف، ولا يهتم إلا طريق المُجادلة، والإلزام والإفحام، ودفع الحق لأجل الغلبة، فهو أسوأ حالاً ممن ذكر قبلهم. وجميع دقائق الجدَل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف. وأما أدلة الأحكام، فيشتمل عليها علم المذهب، وهي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفهم معانيهما. وأما جِيلُ الجدَل من الكُسر، والقلب، وفساد الوضع والتركيب، والتعدي فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام.

وفرقه أخرى: اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء، والرد على المخالفين.

ثم هؤلاء طائفتان: ضالة، ومُحِقَّة، فالضالة التي تدعو إلى غير السنة، والمحقة التي تدعو إلى السنة، والغرور شامل لجميعهم.

أما الضالة، فأغترارها ظاهر، وأما المحقة فأغترارها من حيث إنها ظنت أن الجدال أهم الأمور، وأفضل القربات في دين الله تعالى، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث، وأن من صدّق الله ورسوله من غير تحرير دليل،

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٢ وتامها: ﴿وَلْيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

فليس بكامل الإيمان، فلهذا الظن الفاسد قطعوا أعمارهم في تعلّم الجدل والبحث عن المقالات، وعميت بصائرهم، فلم يلتفتوا إلى القرن الأول، وأن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق^(١)، وأنهم قد أدركوا كثيراً من البدع والهوى، فلم يجعلوا أعمارهم ودينهم عرضاً للخصومات والمجادلات، ولم يشتغلوا بذلك عن تفقّد قلوبهم وجوارحهم، بل لم يتكلموا فيه إلا لضرورة ردّ الضلال، فإن رآوه مُصِراً على بدعته هجره من غير مُماراة ولا جدل.

وقد روي في الحديث: «ما ضل قوم قط بعد هُدى إلا أوتوا الجدل»^(٢).

وفرقة أخرى: أشتغلوا بالوعظ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص، وهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات وهم مُتفكّون عنها أنهم من أهلها، فهؤلاء يَدْعُونَ إلى الله وهم هاربون منه، فهم أعظم الناس غرّة.

ومن هؤلاء من يعدل عن المنهاج الواجب في الوعظ إلى الشطح وتلفيق كلام خارج عن قانون الشرع والعقل طلباً للإغراب.

ومنهم من يستشهد بأشعار الوصال والفراق، وعَرَضَهم أن يكثر الصياح في مجالسهم والتّواجد، ولو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الإنس.

ومنهم فرقة: أَسْتَغْرَقُوا أوقاتهم في سماع الحديث، وجَمَعَ رواياته، وأسانيده الغريبة والعالية، فَهَمُّ أَحَدِهِم أن يدور البلاد، وَيَرَى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان، وَلَقِيتُ فلاناً، ولي من الإسناد ما ليس لغيري.

ومنهم فرقة: أشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر، وزعموا أنهم علماء الأمة، وأذهبوا أعمارهم في دقائق النحو واللغة، لو عقلوا لَعَلِمُوا أن مُضِيعَ عُمْرِهِ في

(١) بقوله ﷺ: «خير الناس قرني». وهو في «صحيح الجامع الصغير» (٣٢٨٨) و٣٢٩٣-٣٢٩٥ و٣٣٠١ و٣٣١٧.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢١٦٠ و٢٢٢٠٠)، والترمذي [«صحيحه» (٣٢٤٨/٢٥٩٣)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٤٨/٤٥)] عن أبي أمامة. وهو في «صحيح الجامع» (٥٦٣٣)، و«المشكاة» (١٨٠).

معرفة لغة العرب كالمُضَيِّعِ عُمُرَه في معرفة لغة الترك، وإنما فارقَتْها لغة العرب لأجل وُرُود الشريعة بها.

فيكفي من اللغة علم الغريبيين: غريب القرآن، والحديث، ومن النحو ما يُقَوِّم به اللسان. فأما التعمق إلى درجات لا تنهاى، فذلك يُشْغِل عما هو أجود منه وألزم.

ومثال التعمق في ذلك، مثال من ضَيِّع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن، مقتصراً على ذلك، وذلك غرور، لأن المقصود من الحروف: المعاني، وإنما الحروف ظروف وأدوات، ومن احتاج إلى شرب السَّكَنَجَبِينَ لإزالة الصفراء، فضَيِّع عمره في تحسين القَدَح الذي يشرب فيه، فهو مغرور.

والسعيد من أخذ من كل شيء من هذا: حاجته المهمة لا غير، وتجاوز إلى العمل، وأجتهده فيه وفي تَصْفِيته من الشوائب، فهذا هو المقصود.

وفرقة أخرى: عَظُم غرورهم، فوضعوا الحِجْل في دَفْع الحقوق، وظنوا أن ذلك ينفعهم، بل ذلك غرور، فإن الإنسان إذا ألجأ زوجته إلى أن تُبَرِّئَه من حقها لم يبرأ فيما بينه وبين الله تعالى.

وكذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحَوْلِ لزوجته، وأتاهبه مالها حيلة لإسقاط الزكاة، ونحو ذلك من أنواع الحيل.

الصنف الثاني: أرباب التعبد والعمل.

وهم فرق:

فرقة أهملوا الفرائض وأشتغلوا بالنوافل والفضائل، وربما تعمقوا في [صنف أرباب
التعبد والعمل] استعمال الماء حتى خرجوا إلى الوسوسة في الوضوء، فترى أحدهم لا يَرْضَى بالماء المحكوم له بالطهارة شرعاً، بل يُقَدِّر له الاحتمالات البعيدة في التنجس، ولا يُقَدِّر ذلك في مطعمه، فلو أُنْقَلَب هذا الاحتياط من الماء إلى المطعم، لكان أشبه بِسَيْرِ السلف، فإن عمر رضي الله عنه توضأ من جَرَّة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة، وكان مع هذا يدع أنواعاً من الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام.

وقد صحَّ أن النبي ﷺ توضأ من مَزَادَة مُشْرِكَة^(١) .
ثم منهم من يَخْرُجُ إلى الإسراف في الماء ، وَيَطُولُ به الأمر حتى تُضَيِّع الصلاة ويخرج وقتها .
ومنهم من غلبت عليه الوسوسة في تكبيرة الإحرام في الصلاة ، حتى ربما فاتته ركعة مع الإمام .

ومنهم من يتوسوس في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها ، فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء فوق الحاجة ، ونحو ذلك ، بحيث يهتم بذلك حتى لا يَتَفَكَّرَ فيما سواه ، ويذهل عن معنى القرآن والاتعاظ به ، وهذا من أقبح أنواع الغرور ، فإن الخلق لم يَتَكَلَّفُوا من تحقيق مخارج الحروف في تلاوة القرآن إلا ما جَرَتْ به العادة في الكلام .

ومثال هؤلاء : مثال مَنْ حَمَلَ رسالة إلى سلطان ، فأخذ يؤدي الرسالة بالتأنيق في مخارج الحروف وتكراره ، وهو غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس ، فما أخراه بالطرد والتأديب .

وفرقة أخرى أغتروا بقراءة القرآن ، فَهُمْ يَهْدُونَهُ هَذَا ، وربما ختموا في اليوم مرتين ، فلسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأمانى ، ولا يتفكر في معاني القرآن ، ولا يَتَعَطَّ بمواعظه ، ولا يقف عند أوامره ونواهيه ، فهذا مغرور يظن أن المقصود من القرآن التلاوة فقط .

ومثال هذا : مثال عَبْدٍ كتب إليه مَوْلَاهُ كتاباً يأمره فيه وينهاه ، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ، بَلْ أَقْتَصَرَ على حفظه وتكراره ، ظاناً أن ذلك هو المراد منه ، مع مخالفته أمر مَوْلَاهُ ونَهْيِهِ .

ومنهم من يَلْتَنِّذُ بصوته بالقرآن ، مُعْرِضاً عن معانيه ، فينبغي أن يَتَفَقَّدَ قلبه فيعرف هل أَلْتَذَاذُهُ بِالنَّظْمِ ، أو بالصوت ، أو بالمعاني .

(١) لعله يعني حديث عمران الطويل الذي أخرجه البخاري (٣٤٤) وغيره ؛ لكن قال الألباني في «الإرواء» (٣٦) : ليس في الحديث توضؤه من مزادة مشركة ، ولكن فيه استعماله لمزادة المشركة .

وفرقه أخرى أغتروا بالصوم وأكثروا منه، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة والفُضول، ولا بُطونهم من الحرام عند الإفطار، ولا خواطرهم عن الرياء .

ومنهم مَن أغتر بالحج، فيخرج إليه من غير خروج عن المظالم، وقضاء الديون، وأسترضاء الوالدين، وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط فرض الحج ويُضَيِّعون في الطريق العبادة والفرائض، ويَعْجِزون عن طهارة الثوب والبدن، ولا يحترزون من الرَّفَثِ والخصام، وهم مع ذلك يظنون أنهم على خير وهم مغرورون .

وفرقه أخرى: أخذوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونَسُوا أنفسهم .

ومنهم من يُوْمُّ في مسجد، ولو تقدم عليه أروع منه وأعلم، ثَقُلَ عليه .
ومنهم من يُؤْذَن ويظن أن ذلك لله، ولو أذَّن غيره في غَيْبَتِهِ، أَشَدَّ عليه ذلك وقال: قد زاحمني في مَرَّتَبَتِي .

ومنهم من يجاور بمكة أو بالمدينة وقلبه متعلق بـ(بلاده، وقول الناس: فلان مجاور بمكة أو المدينة)، ثم إنه يُجاور ويطمع في أوساخ الناس، وقد يَجْمَع ذلك وَيَشْخُ به ويجتمع له جُمْلَةٌ من المهلكات .

وما من عمل إلا وفيه آفات، فمن لم يعرفها وقع فيها، ومَن أراد أن يعرفها، فليُنظر في كتابنا هذا، فينظر في آفات الرياء الحاصل في العبادات من الصوم والصلاة وفي جميع القربات في الأبواب المرتبة في هذا الكتاب، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق .

وفرقه أخرى: زَهَدَتْ في المال، وقنعت بالدُّون من اللباس والطعام، وقنعت من المسكن بالمساجد، فظَنَّتْ أنها أدركت رتبة الزهاد، وهم مع هذا شديِدو الرغبة في الرياسة والجاه، فقد تركوا أهون الأمرين وباؤوا بأعظم المَهْلِكَيْنِ .

وفرقه أخرى: حرصت على النوافل، ولم تَعْتَنِ بالفرائض، فترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل، ولا يجد للفريضة لَذَّةً، ولا يحرص على

المبادرة إليها في أول الوقت، وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «ما تقرب المتقربون إليّ بمثل أداء ما افترضت عليهم»^(١).

الصنف الثالث: المتصوفة

[صنف

المتصوفة]

والمغرورون منهم فرق:

فرقة منهمُ أغتروا بالزِّي والنطق والهيئة فتشبهوا بالصادقين من الصوفية بالظاهر، ولم يُتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة، ثم هم يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويمزق بعضهم أعراض بعض إذا اختلفوا في غرض، وهؤلاء غرورهم ظاهر.

ومثالهم مثال عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين تُثَبَّتُ أسماءهم في الديوان، ويُقطع كل واحد منهم قُطراً من أقطار البلاد، فأشتاقت نفسها إلى ذلك، فلبست دِزْعاً ووضعت على رأسها مِغْفَراً، وتعلّمت من رجز الأبطال أبياتاً، وتعلّمت زِيَّهم وجميع شمائلهم، ثم توجهت إلى العسكر، فكتبَ أسمها في ديوان الشجعان، فلما حضرت في ديوان العَرَض، أمرت بتجريد المِغْفَر والدرع لينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة، فلما جرّدت إذا هي عجوزٌ ضعيفةٌ زَمِينَةٌ^(٢)، ف قيل لها: جئت تستهزئين بالملك وأهل حضرته، خذوها وألقوها بين أيدي الفيل، فألقيت إليه.

فهكذا يكون حال المُدَّعين التصوف في القيامة إذا كُشف عنهم الغطاء، وعُرضوا على الحاكم الأكبر الذي ينظر إلى القلب لا إلى المِرْقَعات والزِّي.

وفرقة أخرى أدعت علم المعرفة، ومشاهدة الحق، ومجاورة المقامات والأحوال، والوصول إلى القُرب، ولا يعرفون من تلك الأمور إلا الأسماء، فترى أحدهم يرددّها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء، فضلاً عن العوام، حتى

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة بلفظ: «ما تقرب إليّ عبدي...».

وهو في «الصحيحة» (١٦٤٠). وستأتي قطعة أخرى منه في الصفحة (٤٣٥).

(٢) الزَمْن: المرض الذي لا يرجى له شفاء.

إن بعض العامة يلازمهم الأيام الكثيرة، وَيَتَلَقَّفُ مِنْهُمْ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ الْمُزَيِّفَةِ، وَيُرَدِّدُهَا كَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَنِ الْوَحْيِ، وَيَحْتَقِرُ فِي ذَلِكَ جَمِيعَ الْعُلَمَاءِ وَالْعِبَادِ، وَيَقُولُ: (إِنَّهُمْ مُحَجُّوبُونَ عَنِ اللَّهِ، وَإِنَّهُ هُوَ الْوَاصِلُ إِلَى الْحَقِّ، وَإِنَّهُ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ) وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْفَجَّارِ الْمُنَافِقِينَ، وَعِنْدَ أَرْيَابِ الْقُلُوبِ مِنَ الْحَقِّقِيِّ الْجَاهِلِينَ، لَمْ يُخَيِّكُمُ عِلْمًا وَلَمْ يُهَذِّبْ خُلُقًا، وَلَمْ يَرَأِبْ قَلْبًا سِوَى أَتْبَاعِ الْهَوَى وَحَفِظَ الْهَذْيَانَ.

وفرقة منهم طَوَّوْا بِسَاطَ الشَّرْعِ، وَرَفَضُوا الْأَحْكَامَ، وَسَوَّوْا بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ مُسْتَعْنٍ عَنْ عَمَلِي، فَلِمَ أُتَعِبُ نَفْسِي؟ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: لَا قَدْرَ لِلْأَعْمَالِ بِالْجَوَارِحِ، وَإِنَّمَا النَّظَرُ إِلَى الْقُلُوبِ، وَقُلُوبُنَا وَالْهَيَّةُ بِحَبِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَوَاصِلَةٌ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، وَإِنَّمَا نَخُوضُ فِي الدُّنْيَا بِأَبْدَانِنَا، وَقُلُوبُنَا عَاكِفَةٌ فِي الْحَضْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، فَنَحْنُ مَعَ الشَّهَوَاتِ بِالظُّوَاهِرِ لَا بِالْقُلُوبِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ قَدْ تَرَقَّوْا عَنْ رَتَبَةِ الْعَوَامِ، وَأَسْتَعْنَوْا عَنْ تَهْذِيبِ النَّفْسِ بِالْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ، وَأَنَّ الشَّهَوَاتِ لَا تَصُدُّهُمْ عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ تَعَالَى لِقُوَّتِهِمْ فِيهَا، وَيَرْفَعُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنْ دَرَجَةِ الْأَنْبِيَاءِ^(١)، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ ﷺ كَانُوا يَبْكُونَ عَلَى خَطِيئَةٍ وَاحِدَةٍ سَنِينَ.

وأصناف غرورٍ أَهْلُ الْإِبَاحَةِ لَا تُحْصَى، وَكُلُّ ذَلِكَ أَغَالِيطٌ وَوَسَاوِسٌ، خَدَعَهُمُ الشَّيْطَانُ بِهَا، لِاسْتِغَالِهِمُ بِالْمَجَاهِدَةِ قَبْلَ إِحْكَامِ الْعِلْمِ، مِنْ غَيْرِ اقْتِدَاءِ بِشَيْخٍ صَاحِبِ عِلْمٍ وَدِينٍ صَالِحٍ لِلْاِقْتِدَاءِ بِهِ.

ومنهم فرقة أخرى جاوزوا هَذِهِ الطَّرِيقَ، وَأَشْتَغَلُوا بِالْمَجَاهِدَةِ، وَأَبْتَدَوْا بِسُلُوكِ الطَّرِيقِ وَأَنْفَتَحَ لَهُمْ بَابُ الْمَعْرِفَةِ، فَلَمَّا اسْتَنْشَقُوا مَبَادِيءَ رِيحِ الْمَعْرِفَةِ، تَعَجَّبُوا مِنْهَا، وَفَرَحُوا بِهَا وَأَعْجَبَهُمْ غَرِيبُهَا، تَقَيَّدَتْ قُلُوبُهُمْ بِالْاِلْتِفَاتِ إِلَيْهَا وَالتَّفَكُّرِ فِيهَا، وَكَيْفِيَّةِ أَنْفِتَاحِ بَابِهَا عَلَيْهِمْ وَأَنْسَدَادِهِ عَنْ غَيْرِهِمْ، وَكُلُّ ذَلِكَ غُرُورٌ، لِأَنَّ عَجَائِبَ طَرِيقِ اللَّهِ ﷻ لَيْسَ لَهَا نِهَايَةٌ، وَلَوْ وَقَفَ مَعَ كُلِّ أَعْجَابَةٍ

(١) وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَقُولُهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْمَعْرُوفُ بِ: ابْنِ عَرَبِيٍّ، الْمَعْظَمِ عِنْدَ أَهْلِ وَحْدَةِ الوجود مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ وَغَيْرِهِمْ مِثْلَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ، وَالْقَادِيَانِيَّةِ:

مَقَامُ النَّبُوَّةِ فِي بَرَزَخٍ فَوْقَ الرُّسُولِ وَدُونِ الْوَلِيِّ

وَتَقَيَّدَ بِهَا قَصْرَتْ حُطَاهُ وَحُرِّمَ مِنَ الْوَصُولِ إِلَى الْقَصْدِ، وَكَانَ مِثَالُهُ مِثَالُ مَنْ قَصَدَ مَلَكًا، فَرَأَى عَلَى بَابِهِ رَوْضَةً فِيهَا أَزْهَارٌ لَمْ يَكُنْ رَأَى مِثْلَهَا، فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا حَتَّى فَاتَهُ الْوَقْتُ الَّذِي يُمَكِّنُ فِيهِ لِقَاءَ الْمَلِكِ.

الصف الرابع: أرباب الأموال

وهم فرق:

[(الأموال)]

ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلَّد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم، ولو كُلف أحدهم أن ينفق ديناراً ولا يُكتب اسمه في الموضع الذي أنفق عليه لَشَقَّ عليه، ولولا أنه يريد وجه الناس لا وجه الله، لما شق عليه ذلك، فإن الله يَظْلَعُ عليه، سواء كتب اسمه أو لم يكتبه.

وبعضهم يَصْرِفُ الْمَالَ فِي زَخْرَفَةِ الْمَسْجِدِ، وَتَزْيِينِهِ بِالنَّقُوشِ الَّتِي هِيَ مِنْهُمْ عَنْهَا وَشَاغِلَةٌ لِلْمُصَلِّينَ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الصَّلَاةِ الْخُشُوعَ وَحُضُورَ الْقَلْبِ، وَذَلِكَ يُفْسِدُ قُلُوبَ الْمُصَلِّينَ. فَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمَالَ الَّذِي صَرَفَهُ فِي ذَلِكَ حَرَامًا، كَانَ أَشَدَّ فِي الْغُرُورِ.

قال مالك بن دينار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَتَى رَجُلٌ مَسْجِدًا، فَوَقَفَ عَلَى الْبَابِ وَقَالَ: مِثْلِي لَا يَدْخُلُ بَيْتَ اللَّهِ، فَكُتِبَ فِي مَكَانِهِ صِدْقًا.

فبهذا ينبغي أن تُعْظَمَ الْمَسَاجِدُ، وَهُوَ أَنْ يَرَى تَلْوِيثَ الْمَسْجِدِ بِدُخُولِهِ فِيهِ بِنَفْسِهِ جِنَايَةً عَلَى الْمَسْجِدِ، لَا أَنْ يَرَى تَلْوِيثَ الْمَسْجِدِ بِالْحَرَامِ، أَوْ بِزُخْرَفِ الدُّنْيَا مَتَّةً عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَغُرُورٌ هَذَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَرَى الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا.

وفرقة أخرى يحفظون الأموال ويمسكونها بخلاً، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا تحتاج إلى نفقة المال، كالصيام والصلاة وختم القرآن، وهم مغرورون، لأن البخل مُهْلِكٌ، وقد استولت على قلوبهم، فهم محتاجون إلى قَمْعِهِ بِإِخْرَاجِ الْمَالِ، فَقَدْ أَشْتَغَلُوا عَنْهُ بِفَضَائِلَ لَا تَجِبُ عَلَيْهِمْ.

ومثالهم مثال من دخلت في ثوبه حية، فأشتغل عنها بطبخ السكَنَجَبِينَ لِتَسْكُنَ بِهِ الصُّفْرَاءُ.

ومنهم من لا تسمح نفسه إلا بأداء الزكاة فقط، فيخرج الرديء من المال،

أو يُعطي من الفقراء من يخدمه، ويتردد في حاجاته، أو من يحتاج إليه في المستقبل أو من له فيه غرض .

ومنهم من يسلم ذلك إلى بعض الأكابر لِيُفَرِّقَهُ، لينال بذلك عنده منزلة ويقوم بحوائجه، وكل ذلك مُفْسِدٌ لِلنِّيةِ وصاحبه مغرور، لأنه يطلب بعبادة الله تعالى عَوْضاً عن غيره .

وفرقه أخرى من أرباب الأموال وغيرهم، آغثوا بحضور مجالس الذكر، وظنوا أن نفس الحضور يُغْنِيهِم عن العمل والاعتاظ وليس كذلك، لأن مجلس الذكر إنما فَضِّلَ لكونه مُرَغَّباً في الخير، وكل ما يُرَادُ لغيره إذا لم يُوصِلْ إلى ذلك الغير فلا وَقَعَ له، وربما سمع أحدهم التخويف، فلا يزيد على قوله: يا سلام سَلِّم، أو أعوذ بالله، ويظن أنه قد أتى المقصود .

ومثال هذا كمثّل مريض يحضر عند الأطباء فيسمع ما يجري، أو الجائع يحضر عند من يصف له الأطعمة اللذيذة، ثم ينصرف فلا يغني ذلك عنه . فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها، فكل وعظ لم يغيّر منك صفة تتغير بها أفعالك، فهو حجة عليك .

فإن قيل: فما ذَكَرْتَهُ من مداخل الغرور أمر لا يكاد يُخْلَص منه = فالجواب: أن مدار الآخرة على معنى واحد، وهو تقويم القلب، ولا يعجز عن ذلك إلا من لم تَصْدُقْ نِيَّتُهُ، فإن الإنسان لو أهتم بأمر الآخرة كما يهتم بأمر الدنيا لَنَالَهَا . وقد فعل ذلك السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان .

وَيُسْتَعَانُ عَلَى التَّخْلُصِ مِنَ الْغُرُورِ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ :

العقل: وهو النور الأصلي الذي يدرك به الإنسان حقائق الأشياء .

والمعرفة: التي يعرف بها الإنسان نفسه وربّه ودنياء وآخرته .

وفي (كتاب: المحبة)، و(شرح عجائب القلب)، و(التفكير)، و(كتاب:

الشكر) إشارات إلى وصف النفس، ووصف جلال الله سبحانه .

ويستعين على معرفة الدنيا والآخرة بما ذكر في (كتاب: ذم الدنيا) و(كتاب:

ذكر الموت) .

فإذا حصلت هذه المعارف، ثار من القلب بمعرفة الله تعالى حبُّ الله،

وبمعرفة الآخرة حبٌ شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا شدة الرغبة عنها، فيصير أهم أموره إليه ما يُؤصله إلى الله تعالى، وينفعه في الآخرة، وإذا غلبت الدنيا هذه الإرادة على قلب، صَحَّحت نيته في الأمور كلها، وأندفع عنه كل غرور. فإذا غلب حب الله تعالى على قلبه لمعرفته به وبنفسه: أحتاج^(١) إلى الأمر الثالث وهو:

العلم: ونعني به العلم بكيفية سلوك الطريق إلى الله تعالى وآفاتها، والعلم بما يُقرِّبه منه ويهديه، وجميع ذلك في كتابنا هذا.

فيعرف من (ربع: العبادات) و(العادات) ما هو محتاج إليه، وما هو مُستَغْنٍ عنه، ويتأدب بأدب الشرع.

ويعرف من (رُبع: المُهلِكَات) جميع العقبات المانعة من طريق الله تعالى، وهي الصفات المذمومة في الخلق.

ويعرف من (ربع: المنجيات): الصفات المحمودة التي لا بد أن توضع خَلْفاً من المذمومة بعد مَحْوِها.

فإذا أحاط بجميع ذلك، أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، والله أعلم.

وإذا فعل جميع ذلك ينبغي أن يكون خائفاً أن يَخْذعه الشيطان، ويدعوه إلى الرياسة، ويخاف عليه أيضاً من الأمن من مكر الله تعالى^(٢).

ولذلك قيل: والمُخْلِصون على خَطر عظيم.

وقال الإمام أحمد رحمته الله للشيطان حين قال له عند الموت: فُتِنِي. فقال: لا! بعد! فلا ينبغي أن يُفارق الخوف قلوب الأولياء أبداً.

نسأل الله تعالى السلامة من الغرور، وحُسن الخاتمة، إنه ﴿قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ ﴿٦١﴾ [هود].

آخر الغرور وبه تمَّ (ربع: المهلكات)، ونشرع الآن في (ربع: المنجيات).

(١) في الأصول: (واحتاج).

(٢) ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ [الأعراف].

رُبْعُ الْمُنْجِيَّاتِ

٢٢ - كِتَابُ التَّوْبَةِ وَذِكْرُ شُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا وَمَا يَنْعَلِقُ بِذَلِكَ

أَعْلَمُ أَنَّ الذُّنُوبَ حِجَابٌ عَنِ الْمَحْبُوبِ، وَالْإِنْصِرَافُ عَمَّا يُبْعَدُ عَنِ الْمَحْبُوبِ وَاجِبٌ.

وإنَّما يَتِمُّ ذَلِكَ بِالْعِلْمِ وَالنَّدَمِ وَالْعَزْمِ، فَإِنَّهُ مَتَى لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الذُّنُوبَ أَسْبَابُ الْبَعْدِ عَنِ الْمَحْبُوبِ، لَمْ يَنْدَمْ عَلَى الذُّنُوبِ، وَلَمْ يَتَوَجَّعْ بِسَبَبِ سُلُوكِهِ طَرِيقَ الْبَعْدِ، وَإِذَا لَمْ يَتَوَجَّعْ لَمْ يَرْجِعْ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّوْبَةِ فَقَالَ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التَّحْرِيمُ: ٨]. وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [البقرة].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ مِثَّةَ مَرَّةٍ»^(١).

وَفِي «الصَّحِيحِينَ» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لِلَّهِ أَشَدُّ فَرْحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ»^(٢) مَهْلِكَةٌ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشِرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامَ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشِرَابُهُ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرْحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ»^(٣).

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠٢)، وَأَحْمَدُ (١٨٢٥٤)، وَأَبُو دَاوُدَ [«صَحِيحُ سُنَنِ» (١٣٤١/١٥١٥)] عَنِ الْأَعْزَمِيِّ.

(٢) الدَّوْ وَالِدَوِيَّةُ: الْفَلَاةُ الْمَسْتَوِيَّةُ الْوَاسِعَةُ، الْبَعِيدَةُ الْأَطْرَافِ، وَرَبَّمَا قَالُوا: دَاوِيَّةٌ.

(٣) هُوَ فِي مُسْلِمٍ (٢٧٤٤)، وَ«صَحِيحُ التِّرْمِذِيِّ» (٢٨٠٢/٢٤٩٨)، وَبَنَحُوهُ فِي الْبُخَارِيِّ (٦٣٠٨). وَهُوَ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٥٠٣٣).

والأحاديث في هذا كثيرة، والإجماع منعقد على وجوب التوبة، لأن الذنوب مُهْلِكَات مَبْعَدَات عن الله تعالى، فيجب الهرب منها على الفور.

والتوبة واجبة على الدوام، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، ولو
[بيان وجوب
التوبة وفضلها]
خلا عن معصية بالجوارح لم يَخُلْ عن الهَمِّ بالذنب بقلبه، وإن خلا
عن ذلك، لم يَخُلْ عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة
المذهلة عن ذكر الله تعالى، ولو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم
بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، ولا يَسْلَمُ أحد من هذا النقص،
وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، وأما أصل ذلك، فلا بد منه.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«إِنَّهُ لَيَغْنَى عَنِّي قَلْبِي، فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(١).

ولذلك أكرمه الله تعالى بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾
[الفتح: ٢] فأما غيره فكيف يكون حاله؟ ومتى اجتمعت شروط التوبة كانت
صحيحة مقبولة، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ
يَغْرُغْ»^(٢). والأحاديث في ذلك كثيرة.

فصل في بيان أقسام الذنوب

أعلم أن للإنسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة، لكن تنحصر ماثرات الذنوب في
أربع صفات:

- (١) أخرجه مسلم، وهو السالف في الصفحة (٣١٣) الحاشية (١) إلا أنه عنده: «في
اليوم مئة مرة». وللبخاري (٦٣٠٧) عن أبي هريرة: «إني لأستغفر الله في اليوم
أكثر من سبعين مرة» وليس عند البيهقي في «الشعب» كلمة: «أكثر».
- (٢) أخرجه أحمد (٦١٥٤)، والترمذي [صحيحه] (٣٥٣٧/٢٨٠٢)، وابن ماجه
[صحيحه] (٤٢٥٣/٣٤٣٠) عن ابن عمر. وهو في «صحيح الجامع الصغير
وزيادته» (١٩٠٣)، و«المشكاة» (٢٣٤٣).

أحدها: صفات رُبوبية، ومنها يحدث الكِبَر والفخر، وحبُّ المدح والثناء، والعز وطلب الاستعلاء، ونحو ذلك، وهذه ذنوب مهلكات، وبعض الناس يغفل عنها، فلا يَعُدُّها ذنوباً.

الثانية: صفات شيطانية، ومنها يتشعب الحسد، والبغي والحيل، والخداع والمكر، والغش والنفاق والأمر بالفساد ونحو ذلك.

الثالثة: الصفات البهيمية، ومنها يَتَشَعَّبُ الشَّرُّ والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، فيتشعب من ذلك الزنى واللواط والسرقه، وأخذ الحُطام لأجل الشهوات.

الرابعة: الصفات السَّبْعِيَّة، ومنها يتشعب الغضب والحقد، والتهجُّم على الناس بالقتل والضرب، وأخذ الأموال.

وهذه الصفات لها تدرُّج في الفطرة:

فالصفة البهيمية هي التي تَغْلِبُ أولاً، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً، فإذا اجتمعت هاتان، اسْتَعْمَلْنَا الْعَقْلَ في الصفات الشيطانية، من المكر والخداع والحيل، ثم تَغْلِبُ الصفات الربوبية.

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع إلى الجوارح، فبعضها في القلب، كالكفر، والبدعة، والنفاق، وإضمار سوء، وبعضها في العين، وبعضها في السمع، وبعضها في اللسان، وبعضها في البطن والفرج، وبعضها في اليدين والرجلين، وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى تفاصيل ذلك، فإنه واضح.

ثم الذنوب تنقسم إلى: ما يتعلق بحقوق الآدميين، وإلى ما بين العبد وبين ربه. فَمَا يَتَعَلَقُ بِحُقُوقِ الْعِبَادِ، فالأمر فيه أغلظ، والذي بين العبد وبين ربه، فالعفو فيه أرجى وأقرب، إلا أن يكون شركاً والعياذ بالله، فذلك الذي لا يغفر.

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«الدَّوَاوِينُ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ ثَلَاثَةٌ: دِيْوَانٌ لَا يَعْْبَأُ اللَّهُ بِهِ شَيْئاً، وَدِيْوَانٌ لَا يَتْرَكَ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئاً، وَدِيْوَانٌ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ.

فأما الديوان الذي لا يغفره الله تعالى، فالشرك . قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢].

وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد فيما بينه وبين الله ﷻ، يغفر ذلك، ويتجاوز إن شاء .

وأما الديوان الذي لا يترك منه شيئاً، فظلم العباد بعضهم بعضاً، فالقصاص لا محالة^(١).

قسمة أخرى: اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر الاختلاف فيها، وأختلفت الأحاديث في عدد الكبائر .

والأحاديث الصّحاح في ذكرها خمسة :

الأول: حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال :

«اجتنبوا السبع الموبقات» . قالوا: يا رسول الله: وما هن؟ قال :

«الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتّولي يوم الزحف، وقذف المّحصنات المؤمنات الغافلات»^(٢).

الثاني: حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، سئل أيّ الذنب أكبر؟ قال :

«أن تجعل لله نداً وهو خلقك» . قال: ثم أيّ؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» . قال: ثم أيّ؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(٣).

(١) أخرجه أحمد (٢٦٠٢٠) عن عائشة . وهو في «ضعيف الجامع» (٣٠٢٢)، وفيه (٣٠٥٣) عن أبي هريرة . لكن صح نحوه - بلفظ: «الظلم ثلاثة...» دون تسميته ديواناً، وهو عن أنس - في «صحيح الجامع» (٣٩٦١) . وله شاهد من حديث سلمان عند الطبراني . وتنظر «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٦٦ و ٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩)، وأبو داود «صحيحه» (٢٤٩٨/ ٢٨٧٤)، والنسائي «صحيحه» (٣٤٣٢) . وهو في «الإرواء» (١٣٣٥ و ٢٣٦٥).

(٣) هو عند البخاري (٤٧٦١ و ٦٠٠١ و ٦٨١١ و ٧٥٢٠)، ومسلم (٨٦)، وأبي داود «صحيحه» (٢٠٢٥/ ٢٣١٠)، والترمذي «صحيحه» (٢٥٤٣/ ٣١٨٢ و ٢٥٤٤/ ٣١٨٣)، والنسائي «صحيحه» (٣٧٤٧-٣٧٤٩) . وهو في «الإرواء» (٢٣٣٧).

الثالث: حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»^(١).

الرابع: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: قول الزور» - أو قال - «شهادة الزور»^(٢).
الخامس: حديث أبي بكر أن النبي ﷺ ذكرت عنده الكبائر قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس، فقال: «ألا وقول الزور، وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت^(٣).

وَقَدْ اختلف العلماء فيها على أقوال كثيرة، والأحاديث في الكبائر لا تدل على حصرها فيها، ولعل الشارع قصد الإبهام ليكون الناس على وجل من الذنوب، لكن يعرف من الأحاديث أجناس الكبائر، ويعرف أيضاً أكبر الكبائر. فأمّا أصغر الصغائر، فلا سبيل إلى معرفته، وقد تكلم العلماء في عدد الكبائر، فروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: هي أربع.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: هي سبع.
وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا بلغه قول ابن عمر: (إنها سبع) قال: هي إلى سبعين أقرب منها إلى سبع.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: هي ما أوجب الحد في الدنيا.
وعن ابن مسعود أن الكبائر في فاتحة النساء إلى قوله: ﴿إِنْ تَجَتَبَوْا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [سورة النساء: ٣١].

وقال سعيد بن جبير وغيره: هي كل ذنب أوعده الله عليه النار.
وقال أبو طالب المكي: الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار: أربعة في القلب: الشرك، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله تعالى.

(١) رواه البخاري (٦٨٧٠ و ٦٦٧٥)، والترمذي [صحيحه] (٣٠٢١/٢٤١٦).

(٢) رواه البخاري (٥٩٧٧)، ومسلم (٨٨) عن أنس.

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

وأربعة في اللسان : شهادة الزور ، وقذف المحصنات ، واليمين الغموس ، والسحر .
 وثلاثة في البطن : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، وأكل الربا .
 وأثنان في الفرج : الزنى ، واللواط .
 وأثنان في اليدين : القتل ، والسرقه .
 وواحدة في الرجلين : الفرار من الزحف .
 وواحدة في جميع البدن : وهي عقوق الوالدين .
 وهذا يمكن أن يزداد عليه ، ويُنقص منه ، فإن ضرب اليتيم وتعذيبه أكبر من
 أكل ماله ، والله أعلم .

فصل في كيفية توزع الدرجات

في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا

أعلم أن الناس يتفاوتون في الآخرة ، كما يتفاوتون في الدنيا ، وينقسمون إلى
 أربعة أقسام : هالكين ، ومُعَذِّبين ، وناجين ، وفائزين .
 ومثال ذلك أن يستولي ملك من الملوك على إقليم ، فيقتل بعض أهله ،
 ويعذب بعضهم ولا يقتلهم ، ويُخَلِّي بعضهم ، فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم
 وَهُمْ الْفَائِزُونَ . وإذا كان الملك عادلاً ، فلا يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، ولا
 يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك ، معانداً له في أصل الولاية ، ولا يعذب إلا
 من قَصَرَ في خدمته مع الاعتراف له بالملك ، ولا يُخَلِّي إلا معترفاً له بالملك ،
 ولم يقصر ، ولا يخلع إلا على مَنْ أبلَى عمره في الخدمة والنصرة .
 وكل واحد من هذه الأقسام يتفاوتون في النعيم والتعذيب على حَسَبِ
 أحوالهم . ويشهد لذلك ما ورد في الحديث أن من الناس من يمر على الصراط
 «كالبرق»^(١) الخاطف ، ومنهم مَنْ يَبْقَى في النار «سبعة آلاف سنة»^(٢) ، وبين
 اللحظة وسبعة آلاف سنة تفاوتٌ كثير .

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩) ، ومسلم (٣٠٢) عن أبي سعيد الخدري .

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في كتابه «نوادير الأصول» من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

وأما اختلاف العذاب بالشدة، فلا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب، ثم يعفو، وقد يضرب بالسياط أو يعذب بغيرها من أنواع العذاب.

وتفاوت منازل أهل السعادة على نحو ذلك في النعيم، فهذه الأمور الكلية معلومة بالنقل ونور المعرفة.

فأما من جهة التفصيل، فنقول: كل من أحكم أصل الإيمان، وأجتنب جميع الكبائر، وأحسن جميع الفرائض، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لا يُصِرُّ عليها، فيشبه أن يُغْفَى عنه، فقد نص القرآن على أن أجتناب الكبائر مكفر للصغائر.

ولهذا إما أن يلتحق بالمُقَرَّبِينَ، أو بأصحاب اليمين، وذلك بحسب إيمانه وبقينه، فإن قلَّ أو ضعف، دنت منزلته، وإن كثر وقوي، علَّتْ منزلته.

ثم إن المقربين يتفاوتون بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى، ودرجات العارفين في المعرفة لا تنحصر، لأن بحر المعرفة لا ساحل له، وإنما يغوص فيه العَوَاصِمون بقدر قواهم، فأعلى درجات أصحاب اليمين: أدنى درجات المقربين، لهذا حال من أجتنب الكبائر وأدَّى الفرائض.

فأما من ارتكب كبيرة، أو أهمل أركان الإسلام، فإنه إن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل، ألتحق بمن لم يرتكب، لأن «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(١)، والثوب المغسول كالذي لم يَتَسَخَّ أصلاً.

فأما إن مات قبل التوبة، فأمره خطر، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه، فيختم له بسوء الخاتمة، لا سيما إذا كان إيمانه تقليداً، فإنه قابل للانحلال بأدنى شك وخيال، والعارف الموقن أبعد من أن يُخَاف عليه سوء

(١) «صحيح الجامع الصغير» (٣٠٠٨) طبع المكتب الإسلامي.

الخاتمة . ثم إن عذاب الميت عن غير توبة يكون بحسب قبح الكبائر ومدة الإصرار، ثم ينزل البُلهُ المُقلِّدون الجنة، وينزل العارفون المستبصرون أعلى عليين، وما ذكرناه من مراتب العباد في المعاد حُكم ظاهر الأسباب، يضاهي حُكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة، ولا يقبل إصلاح العلاج، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف، وعلاجه هين، فإن ذلك ظن يصيب غالباً، وقد تثوب إلى المُشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يُساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه، وذلك لأسرار الله تعالى الخفية، وفي أرواح الأحياء غموض للأسباب التي ربَّها المسبب، وليس في قوة البشر الوقوف على كنهها، وكذلك الفوز والهلاك في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، وكذلك يجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة، فإن الاعتماد على التقوى، والتقوى في القلب، وأحوال القلب قد تخفى على صاحبه، فكيف على غيره؟!!

وأما الناجون، ونعني بالنجاة: السلامة فقط دون السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم، ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين، وأولاد الكفار، والذين لم تبلغهم الدعوة، فلم يكن لهم معرفة، ولا جحود، ولا طاعة، ولا معصية، ويصلح أن يكونوا على الأعراف.

وأما الفائزون، فهم العارفون، وهم المقربون والسابقون، وهؤلاء الذين لا ﴿تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. وليس حرصهم على الجنة، بل على لقاء الله ﷻ والنظر إليه .

ومثالهم مثال المحب، فإنه في تلك الحال غافل عن نفسه، لا يحس بما يصيبه في بدنه، ولا همَّ له سوى محبوبه، فهؤلاء الواصلون إلى قرَّة أعين، لا تخطر على قلب بشر، فهذا القدر كافٍ في بيان توزيع الدرجات على الحسنات .

فصل في بيان ما تعظم به الصفائر من الذنوب

أعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب: منها الإصرار والمواظبة .

وفي الحديث من رواية ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع الاستغفار»^(١).

وأعلم أن العفو عن كبيرة قد أنقضت ولم يتبعها مثلها، أرجئ من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد.

ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على حجر متواليات، فإنها تؤثر فيه، ولو جمعت تلك القطرات في مرة وصبّت عليه لم تؤثر، ولهذا قال ﷺ: «أحبُّ العمل إلى الله أدومُهُ وإن قلَّ»^(٢).

ومن الأسباب التي تعظم بها الصغائر أن يستصغر الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد، صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره العبد، كبر عند الله تعالى، فإن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا. أخرجه في «الصحيحين».

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالى، فإذا نظر إلى عظمة من عصي، رأى الصغيرة كبيرة.

وفي البخاري من حديث أنس رضي الله عنه: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشعر إن كنا لتعدّها على عهد رسول الله ﷺ من المؤبقات»^(٣). وقال بلال بن سعد رضي الله عنه: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن أنظر إلى عظمة من عصيت.

ومن الأسباب أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها، كما يقول: أما رأيتني كيف مزقت عِرض فلان، وذكرت مساويه حتى خجلته، أو يقول التاجر: أما رأيت كيف روجت عليه الزائف، وكيف خدعته وغبّته، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر.

(١) في «مسند الفردوس» عن ابن عباس (٧٩١٤). وهو ضعيف انظر «ضعيف الجامع الصغير» (٦٣٠٨).

(٢) متفق عليه، سلف تخريجه في الصفحة (٨٢) حاشية (١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٩٢).

ومنها أن يتهاون بستر الله تعالى وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري أن ذلك قد يكون مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً .

ومنها أن يأتي بالذنب ثم يذكره بمحضر من غيره، وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «كل أمتي مُعافى إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره الله عليه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»^(١) .

ومنها أن يكون المذنب عالماً يقتدئ به، فإذا علم منه الذنب، كبر ذنبه، كلبسه الحرير، ودخوله على الظلّة مع ترك الإنكار عليه، وإطلاق اللسان في الأعراض، وأشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه، كعلم الجدّل، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها، فيموت ويبقى شره مُستطيراً في العالم، فطوبى لمن إذا مات مات معه ذنوبه .

وفي الحديث: «من سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(٢) .

فعلى العالم وظيفتان:

إحدهما: ترك الذنب، والثانية: إخفاؤه إذا أتاه .

وكما تتضاعف أوزار العلماء إذا أتبعوا على الذنوب، كذلك تتضاعف حسناتهم إذا أتبعوا على الخير .

وينبغي للعالم أن يتوسط في ملبسه ونفقته، وليكن إلى التقلّل أميل، فإن الناس ينظرون إليه .

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠) . وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٤٥١٢) .

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٥١ و ١٩١٥٣)، والنسائي [«صحيح سننه» (٢٣٩٤)]، وابن ماجه [«صحيح سننه» (٢٠٣/١٦٨)] عن جرير .

وينبغي له الاحتراز مما يُقتدى به فيه، فإنه متى ترخص في الدخول على السلاطين وجمع الحطام، فأقتدى به غيره، كان الإثم عليه، وربما سلم هو في دخوله، ولم يفهموا كيفية سلامته .

وقد روينا أن ملكاً كان يُكره الناس على أكل لحم الخنزير، فجاءه رجل عالم، فقال له حاجب الملك: قد ذبحت لك جذياً فكل منه، فلما دخل قُرب إليه فلم يأكل، فأمر بقتله، فقال له الحاجب: ألم أقل لك: إنه جذِيّ، فقال: ومن أين يعلم حالي من يقتدي بي .

فصل في شروط التوبة

وأعلم أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصي حائلاً بين الإنسان وبين محبوبه .

والندم هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب، وعلامته طول الحزن والبكاء، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعز عليه، طال بكأؤه، وأشدت مصيبته، وأي عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي مُخبر أصدق من رسول الله؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه أشتد في الحال حزنه، وليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض أدل على الموت من المعاصي على سخط الله، والتعرض بها للنار .

وينبغي للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة، أو بغير شرطها، مثل أن يكون صلاتها في ثوب نجس أو بنية غير صحيحة، لجهله بذلك، فيقضيها كلها .

وكذلك إن كان عليه صوم، أو زكاة، أو حج، أو غير ذلك من الواجبات، يقضيها كلها، ويفتش على ذلك ويتداركه .

وأما المعاصي، فينبغي أن يفتش من أول بلوغه عن كل معصية صدرت

منه، وينظر فيها، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله تعالى، فالتوبة منه «الندم والاستغفار»^(١).

ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه، فيطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ﴾ [هود: ١١٤]. وقال النبي ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»^(٢).

مثال ما ذكرنا: أن يكفر سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذكر، ويكفر مس المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه، وإن أمكنه أن يكتب مصحفاً ويَقْفَه فليفعل، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال. وعلى هذا فأسلك سبيل المضادة، فإن الأمراض تُعالج بضدها، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى.

وأما مظالم العباد، ففيها أيضاً معصية الله تعالى، لأنه نهى عن ظلم العباد، فالظالم لهم قد ارتكب نهيَه تعالى، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك في المستقبل، والإتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم كما تقدم في القسم الأول، فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب الأموال بالتصدق بماله الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالشاء على أهل الدين، ويكفر قتل النفوس بالعتق.

هذا فيما يتعلق بحق الله تعالى، فإذا فعل ذلك، لم يكفِ حتى يخرج من مظالم العباد. ومظالمهم إما في النفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو إيذاء القلوب:

أما الأول: فإنه إذا قتل خطأ أوصل الدية إلى مستحقها، إما منه أو من عاقلته، وإن قتل عمداً، وجب عليه القصاص بشروطه، فعليه أن يبذل نفسه لوليِّ الدِّم، إن شاء قتله، وإن شاء عفا عنه، ولا يجوز له إخفاء أمره، بخلاف

(١) هو في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٢٠٨ و ٢٥٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي [«صحيحه» (١٦١٨/١٩٨٧)] عن أبي ذر، وأحمد (٢٢٠٥٤) عن معاذ. وهو في «صحيح الجامع» (٩٧)، و«المشكاة» (٥٠٨٣).

ما لو زنى، أو سرق، أو شرب الخمر، أو باشر ما يجب فيه حدُّ الله تعالى، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه، بل عليه أن يستر نفسه، فإن رفع أمره إلى الوليِّ حتى أقام عليه الحد، وقع ذلك موقعه، وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل قصة ماعِزٍ والغامِديَّة^(١).

وكذلك حد القذف، لا بد فيه من تحكيم المستحق فيه.

الثاني: المظالم المتعلقة بالأموال، نحو الغصب، والخيانة، والتلبيس في المعاملات، فيجب عليه ردُّ ذلك إلى أصحابه والخروج منه.

وليكتب إلى أصحاب المظالم، وليؤدِّ إليهم حقوقهم، ويستحلهم، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك، ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات، لتؤخذ منه في الاقتصاص يوم القيامة فتوضع في موازين أرباب المظالم، فإنها إن لم تَفِ بذلك أخذ من سيئاتهم، فتوضع فوق سيئاته.

هذا حكم المظالم الثابتة في الذمة والأموال الحاضرة، فإن كان عنده مال من شيء من ذلك لم يعرف مالكة ولا ورثته، تصدق به عنه، وإن اختلط الحلال بالحرام، عرف قدر الحرام بالاجتهاد، وتصدق بمقداره.

الثالث: الجناية على الأعراض، وإيذاء القلوب، فعليه أن يطلب كل واحد منهم، وليستجله، وليُعرفه قدر الجناية، فإن الاستحلال المبهم لا يكفي، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى، كنسبته إلى عيب من خفايا عيوبه، أو كزنى بجاريته، فليجتهد في اللطف به والإحسان إليه، ثم ليستحله مبهماً، ولا بد أن يبقى في مثل ذلك مظلمة تُجبرُ بالحسنات يوم القيامة، وكذلك من مات من هؤلاء، فإنه يفوت أمره، ولا يُتدارك إلا بتكثير الحسنات، لتؤخذ منه عوضاً يوم القيامة، ولا خلاص إلا برُجحان الحسنات.

(١) مسلم (١٦٩٥) عن بريدة. في الرواية الأولى توبة ماعز، وفي الرواية الثانية توبة الغامدية.

فصل: ومن شرط التوبة الصحيحة العزم على ألا يعود في المستقبل إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها، ويعزم على ذلك عزمًا مؤكدًا.

مثال ذلك المريض الذي يعلم أن الفاكهة تضره في مرضه، فيعزم عزمًا جزمًا ألا يتناول شيئاً من الفاكهة ما دام في مرضه ذلك، فإن هذا العزم يتأكد في الحال، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة، والصمت، وقلة الأكل والنوم، وإحراز قوتٍ حلالٍ، ويترك الشبهات والشهوات من المأكولات والملبوسات.

قال بعضهم: مَنْ صَدَقَ في ترك الشهوة، وجاهد نفسه فيها سبع مرات، لم يُبْتَلَ بها. وقال: من تاب من ذنب وأستقام سبع سنين، لم يُعَذِّبْ إليه أبداً.

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

الناس في التوبة أربع طبقات:

الطبقة الأولى: تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره، ويتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه، إلا الزلات التي لا ينفك عنها البشر في العادات، فهذه هي الاستقامة في التوبة، وصاحبها هو السابق بالخيرات.

وتُسَمَّى هذه التوبة: **النُّصُوحُ**، وتُسَمَّى هذه النَّفْسُ: **المُطْمَئِنَّةُ**، وهؤلاء يختلفون، منهم مَنْ سَكَنَتْ شهوته تحت قهر المعرفة فَفَتَرَ نزاعها، ومنهم من تنازعه نفسه وهو مليء بمجاهدتها.

الطبقة الثانية: تائب قد سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد، ولكنه يُبْتَلَى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها، وكلما أتى شيئاً منها لام نفسه، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها، فهذه هي النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة، فهذه رتبة عالية أيضاً، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال التائبين، لأن الشر

مَعْجُونٌ بِطِينَةِ الْآدَمِيِّ، فقلما ينفك عنه، وإنما غاية سَعْيِهِ أَنْ يَغْلِبَ خَيْرُهُ شَرَّهُ، حتى يثقل ميزانه، فترجع حسناته، فأما أَنْ تَخْلُوَ كِفَّةَ السَّيِّئَاتِ، فبعيد.

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه، إِذْ قَالَ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْأَثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]. وإلى هذه الرتبة الإشارة بقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُقْتَنَّ التَّوَّابَ»^(١).

الطبقة الثالثة: أَنْ يَتُوبَ وَيَسْتَمِرَّ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ مُدَّةً، ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب، فَيُقَدِّمَ عَلَيْهَا لِعِجْزِهِ عَنْ قَهْرِ الشَّهْوَةِ، إِلَّا أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ مُوََازِبٌ عَلَى الطَّاعَاتِ، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان، وهو يَوَدُّ لو أَقْدَرَهُ اللَّهُ عَلَى قَمْعِهَا، وكفاه شرها، فإذا أَتَتْهُ نَدَمٌ، لَكِنَّهُ يَعِدُّ نَفْسَهُ بِالتَّوْبَةِ عَنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ، فهذه النفس تُسَمَّى الْمَسْئُولَةَ، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا آخِرُونَ أَغْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَمَا آخَرَ سَيِّئًا﴾ فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مَرْجُوُّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [النجم: ١٠٢]. وعاقبته مُخْطِرة من حيث تأخيرهِ وتسويغهِ، فربما يُخْطِطُ قَبْلَ التَّوْبَةِ، فَإِنْ الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ، فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة، وكل نفس يمكن أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ الْمَوْتُ، فتكون الخاتمة، فليراقبِ الْأَنْفَاسَ، وَلْيَحْذَرْ وَقُوعَ الْمَحْذُورِ.

الطبقة الرابعة: أَنْ يَتُوبَ وَيَجْرِيَ مَدَّةً عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ، ثم يعود إلى الذنوب منهمكاً من غير أَنْ يُحَدِّثَ نَفْسَهُ بِالتَّوْبَةِ، ومن غير أَنْ يَتَأَسَّفَ عَلَى فَعْلِهِ، فهذا من الْمُصِرِّينَ، وهذه النفس هي الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، وَيُخَافُ عَلَى هَذَا سُوءَ الْخَاتِمَةِ.

(١) موضوع . رواه عبد الله بن أحمد ٨٠/١ (٦٠٥) و١٠٣/١ (٨١٠) عن علي بن أبي طالب . وهو في «ضعيف الجامع» (١٧٠٥)، و«الضعيفة» (٩٦).

فإن مات هذا على التوحيد، فإنه يُرجى له الخلاص من النار، ولو بَعْدَ حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسببِ خَفِيِّ لا يُطلع عليه، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح، فإن من قال: إن الله تعالى كريم، وخزائنه واسعة، ومعصيتي لا تضره، ثم تراه يركب البحار في طلب دينار. فلو قيل له: فإذا كان الحق كريماً، فأَجْلِسْ في بيتك لعله يرزقك، أَسْتَجهل قائل هذا، وقال: إنما الأرزاق بالكسب، فيقال له: هكذا النجاة بالتقوى.

فصل

[بيان ما ينبغي] وقد ذكرنا أن التائب ينبغي له أن يأتي بحسنات تُضاد ما عمل من أن يبادر إليه السيئات، لِتَمْحُوهَا وتُكَفِّرَهَا، والحسنات المُكْفِرة تكون بالقلب والتائب [واللسان والجوارح، على حَسَبِ السيئات، فما كان بالقلب، فنحو التَضَرُّع والتذلل، وأما اللسان، فالاعتراف بالظلم والاستغفار، مثل أن يقول: رَبِّ ظَلَمْتُ نفسي فأغفر لي.

وروي في الحديث، أن النبي ﷺ قال: «ما من رجل يذنب ذنباً، فيتوضأ ويُحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين، ويستغفر الله ﷻ، إلا غفر له»^(١). وأما الجوارح فبالطاعات، والصدقات، وأنواع العبادات.

فصل في دواء التوبة وطريق علاج حل عقد الإصرار

أعلم أنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء، ولا يبطل الشيء إلا بضده، وسبب الإصرار الغفلة والشهوة، ولا تُضاد الغفلة إلا بالعلم، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة.

والغفلة رأس الخطايا، فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجونٌ يُعجن من حلاوة العلم

(١) أخرجه أحمد (٢)، والترمذي [«صحيحه» (٣٣٣/٤٠٦ و ٢٤٠٤/٣٠٠٦)]، وابن ماجه [«صحيحه» (١١٤٤/١٣٩٥)] عن أبي بكر. وهو في «صحيح الجامع» (٥٧٣٨)، و«المشكاة» (١٣٢٤).

ومرارة الصبر، كما يجمع في السَّكَنَجِينِ حلاوة السكر وحموضة الخل، فيحصل بمجموعهما قَمْعُ الصفراء .

والأطباء لهذا المرض هُمُ العلماء، إنه مرض القلوب، ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان، وإنما صار مرضها أكثر لأمر:

أحدها: أن المريض لا يدري أنه مريض .

الثاني: أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم، بخلاف مرض الأبدان، فإن عاقبته موتٌ مُشَاهَدٌ يَنْفَرُ الطبع عنه، وما بعد الموت غير مشاهد، فقلَّتِ النفرة عن الذنوب وإنْ عَلِمَهَا مرتكبها، فلذلك تراه يَتَّكِلُ على فضل الله في مرض القلب، ويجتهد في علاج البدن من غير اتكال .

الأمر الثالث، وهو الداء العضال: فَقَدْ الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مَرَضُوا في هذه الأعصار، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا، وقد غلب هذا الداء على الأطباء، فلم يقدروا على تحذير الخلق أَسْتِنْكَافاً من أن يقال لهم: فما لكم تأمرون بالعلاج ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾؟ [البقرة: ٤٤] . فبهذا السبب عَمَّ الداء وأنقطع الدواء .

فإن قيل: فما الذي ينبغي للواعظ سلوكه من الخلق؟ =

= فالجواب: أن ذلك يطول، لكننا نشير إلى الأعمال النافعة في ذلك، وهي أربعة أنواع:

الأول: أن يذكر ما في القرآن العزيز من الآيات المَحْوُفَةِ للمُذْنِبِينَ، وما ورد في الأخبار والآثار من ذلك، وَيَمْزُجُ ذلك بمدح التائبين .

النوع الثاني: حكايات الأنبياء ﷺ، والسلف الصالح، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب، كحالِ آدم عليه السلام، وما لقي في عصيانه من الإخراج من الجنة، وما جرى لداود وسليمان ويوسف عليه السلام، ولم يُورد القرآن هذه الأشياء إلا للاعتبار .

وكان من سعادتهم معاجلتهم بذلك، والأشقياء يُمَهِّلُونَ ﴿لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾

[آل عمران: ١٧٨]، ولأن عذاب ﴿الْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ [طه: ١٢٧] فينبغي أن يكثّر من هذا على أسماع المُصِيرين، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

النوع الثالث: أن يقرر عندهم، أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب، فهو سبب جناياته، فزُبَّ عَبْدٌ يتساهل في أمر الآخرة يخاف عقوبة الدنيا أكثر لِفَرْطِ جهله. والذنوب قد يتعجل في الدنيا شؤمها، كما قال النبي ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»^(١).

وقال الفضيل بن عياض: إني لأعصي الله، فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي.

وقال أبو سليمان الداراني: الاحتلام عقوبة، ولا تفوت أحداً صلاة إلا بذنب يذنبه.

وعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع وأستغفر، صقل قلبه، فإن زاد زادت حتى تملو قلبه، وذلك الرأى الذي ذكر الله ﷻ في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]^(٢). قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقال الحسن رحمه الله: الحسنة نور في القلب، وقوة في البدن، والسيئة ظلمة في القلب، ووهن في البدن.

النوع الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات في آحاد الذنوب، كشرب الخمر، والزنى، والقتل، والكبر، والحسد، والغيبة.

وينبغي أن يكون طبيباً يعلم الداء، ويدري كيف يصنع الدواء، فإن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: أوصني، قال: «لا تَغْضَبْ»^(٣).

(١) أخرجه أحمد (٢٢٤٠٩ و ٢٢٤٣٤)، وابن ماجه [«ضعيف سنه» (٨٧٢/٤٠٢٢)] عن ثوبان. وهو في «ضعيف الجامع الصغير» (١٤٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٣٤). وهو في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٢٢/٤٢٤٤).

(٣) أخرجه البخاري، وسلف تخريجه في الصفحة (٢٢٤) حاشية (١).

وقال آخر : أوصني ؛ فقال : «عليك باليأس مما في أيدي الناس»^(١) .

فكأنه تخايل في الأول مخايل الغضب ، وفي الثاني مخايل الطمع .

وهذا الذي ذكرنا هو علاج العُقلة ، فيبقى علاج الشهوة ، وطريق علاجها يُؤخذ ممّا ذكرناه في (كتاب : رياضة النفس) ، ولا بد من الصبر ، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناول ما يضره ، وإنما يحمله على ذلك شدة شهوته ، أو غفلته عن مَضَرَّته ، فلا بد من مرارة الصبر ، وكذلك يعالج الشهوة في المعاصي ، كالشباب مثلاً إذا غلبته الشهوة ، فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه في السعي وراء الشهوة ، فينبغي أن يستحضر المُخَوِّفات التي جاءت في كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، فإذا أشد خوفه تباعد عن الأسباب المُهَيِّجة للشهوة .

والذي يهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المُشتهى ، والنظر إليه ، وعلاجه : الجوع والصوم الدائم ، وكل ذلك لا يتم إلا بالصبر ، ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة ، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، والاستماع بقلب مجرد عن الشواغل ، ثم التفكير فيما قيل ، فينبعث الخوف ، ويسهل الصبر ، وتيسر الدواعي لطلب العلاج ، وتوفيق الحق سبحانه من وراء ذلك كله .

فإن قيل : ما بال الإنسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه ؟ =

= فعن ذلك أجوبة :

منها : أن العقاب الموعود ليس بحاضر .

ومنها : أن المؤمن إذا أذنب لا بد أن يَغْزِمَ على التوبة ، وقد وُعِدَ أن التوبة تَجْبِرُ ما فعل ، وطول الأمل غالب على الطباع ، فلا يزال يُسَوِّفُ بالتوبة ، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب .

ومنها : أنه يرجو عفو الله عنه .

(١) أخرجه الحاكم عن سعد . وهو في «الصحيحة» (١٩١٤) . ومضى له شاهد في الصفحة (٢٥٠) حاشية (٤) .

وعلاج هذه الأسباب أن يفكر في نفسه أن كل ما هو آتٍ قريب، وأنه لا يأمن هجوم الموت . ويعالج التسويف بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، والمُسَوِّفُ يبني الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقي فربما لم يقدر على الترك غداً كما يقدر عليه اليوم، وهل عجز عن الحال إلا لغلبة الشهوة وهي غير مفارقة له غداً؟ بل يتأكد بالاعتیاد، ومن هذا هلك المسوفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، وما مثال المسوف إلا مثال مَن أحتاج إلى قلع شجرة، فرأها قوية لا تنقلع إلا بِمَشَقَّةٍ شديدة، فقال: أَوْخَرَهَا سَنَةً ثُمَّ أَعُودَ إِلَيْهَا، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيتِ أزداد رسوخها، وهو كلما طال عمره أزداد ضعفه .

فَالْعَجَبُ مِنْ عَجْزِهِ مَعَ قُوَّتِهِ عَنْ مَقَاوِمَتِهَا فِي حَالِ ضَعْفِهَا، كَيْفَ يَنْتَظِرُ الْغَلْبَةَ إِذَا ضَعُفَ وَقَوِيَثُ .

وَأَمَّا أَنْتَظِرَ عَفُوَ اللَّهِ تَعَالَى، فَعَفُوَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ مُمَكِّنٌ، إِلَّا أَنْ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي لَهُ الْأَخْذُ بِالْحَزْمِ .

وما مثال ذلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها، وترك نفسه وعباله فقراء ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كَنْزٍ فِي خِزْيَةٍ، وهذا ممكن، إلا أن صاحبه مُلْقَبٌ بِالْأَحْمَقِ . وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

٢٣ - كِتَابُ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ

وهو شطران: الأول في:

فضل الصبر وحقيقته وأقسامه ونحو ذلك:

[بيان فضيلة

الصبر]

وقد ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعاً، وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له، فقال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْتَدُونَ يَا تَرْتَابًا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤِثِّرُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر].

فما من قُرْبَةٍ إِلَّا وَأَجْرُهَا بِتَقْدِيرٍ وَحِسَابٍ إِلَّا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر «قال الله تعالى: والصوم لي وأنا أجزي به»^(١). وقد وعد الله الصابرين بأنه معهم^(٢)، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ﴾ [البقرة]. والآيات في هذا كثيرة.

وأما الأحاديث، ففي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»^(٣).

(١) متفق عليه، سلف في الصفحة (٥٤) حاشية (١).

(٢) ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩، والأنفال: ٤٦، ٦٦].

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (٢٠٥٣)، وأبو داود «صحيحه» (١٤٤٧)/

(١٦٤٤)، والترمذي «صحيحه» (١٦٤٧/٢٠٢٤)، والنسائي «صحيحه»

(٢٤٢٥) عن أبي سعيد الخدري.

وفي حديث آخر: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد»^(١).
وقال الحسن: الصبر كثر من^(٢) كنوز الخير، لا يعطيه الله ﷻ إلا لعبد كريم عنده.

كان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة فيطالعها، وفيها:
﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

[بيان حقيقة
الصبر ومعناه] وأعلم أن الصبر من خاصية الإنسان، ولا يُتَصَوَّرُ في البهائم
لِنُقْصَانِهَا، وغلبة الشهوات عليها من غير شيء يقابلها، ولا يتصور
الصبر أيضاً في الملائكة لِكَمَالِهَا، فإن الملائكة جَرَدُوا للشوق إلى حضرة
الرَّبُّوبِيَّةِ، ولم تُسَلِّطْ عليهم شهوة صارفة عنها حتى يُحْتَاجَ إلى مصادمة ما
يُضَدُّهَا عن حضرة الجلال.

وأما الإنسان فإنه يُخْلَقُ في أبتداء الصُّبَا ناقصاً مثل البهيمة، لم يخلق فيه إلا
شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة
النكاح، وليس له قوة الصبر، فإذا تحرك العقل وقوي، ظهرت مبادئ إشراق
نور الهداية عند سِنِ التمييز، وينمو على التدرُّج إلى سن البلوغ، كما يبدو نور
الصباح إلى أن يطلع قرص الشمس، ولكنها هداية قاصرة لا مُرْشِدَ لها إلى
مَصَالِحِ الآخرة، فإذا عقد بمعرفة الشرع تلمح ما يتعلق بالآخرة وكثر سلاحه،
إلا أن الطبع يقتضي ما يحب، وباعث الشرع والعقل يَمْنَعُ، والحرب بينهما
قائمة، ومعركة هذا القتال قلب العبد، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في
مقابلة باعث الشهوات، فإن ثَبَّتَ حتى قهر الشهوة: أَلْتَحَقَ بالصابرين، وإن
ضعف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها: أَلْتَحَقَ بأتباع الشياطين، وإذا

(١) أخرجه الديلمي عن أنس مرفوعاً، والبيهقي في «الشعب» عن علي موقوفاً. وهو
ضعيف جداً مرفوعاً، وضعيف موقوفاً. كذا في «ضعيف الجامع الصغير وزيادته»
(٣٥٣٥).

(٢) لفظ (كثر من) لم ترد في المطبوع.

ثبت أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة الهوى، فهذه المقاومة من خاصّة الأدميين.

فصل

أعلم أن الصبر على ضربين :

[بيان الأسامي
أحدهما: بدني، كتحمل المشاقّ بالبدن، وكتعاطي الأعمال الشاقة التي تتجدد
من العبادات أو من غيرها. للصبر بالإضافة

الضرب الآخر: هو الصبر النفساني عن مُشْتَهَات الطبع ومُقْتَضَيَات إلى ما عنه الصبر] الهوى، ولهذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج، سُمِّيَ عِفَّةً، وإن كان الصبر في قتال، سمي شجاعة، وإن كان في كظم غيظ، سمي جِلْماً، وإن كان في نائبة مُضْجِرَّة، سمي سَعَةً صَدْرٍ، وإن كان في إخفاء أمر، سمي كتمان سِرٍّ، وإن كان في فُضُولِ عَيْشٍ، سمي زُهْداً، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحفظ، سمي قناعة.

وأما المصيبة، فإنه يُقْتَصَر فيها على أسم الصبر، فقد بَانَ بما ذكرنا أن أكثر أخلاق الإيمان داخلية في الصبر، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المُتعلّقات.

ثم أعلم أن العبد لا يَسْتَغْنِي عن الصبر في كل حال من الأحوال، وذلك أن جميع ما يلقي العبد في الدنيا لا يخلو من نوعين:

[بيان مظان الحاجة إلى
الصبر، وأن العبد لا يستغني عنه في حال
النوع الأول: ما يوافق هواه: من الصحة، والسلامة من الأحوال] والمال، والجاه، وكثرة العشيرة والأتباع، وجميع مَلَأَد الدنيا، فالعبد محتاج إلى الصبر في جميع هذه الأمور، فلا يَرْكُن إليها، ولا ينهمك في التلذُّذ بها ويراعي حق الله تعالى في ماله بالإنفاق، وفي بدنه بالمعونة للحق.

ومتى لم يضبط نفسه عن الانهماك في المَلَأَد والركون إليها، أخرجه ذلك إلى البَطَرِ والطُّغيان. حتى قال بعض العارفين: المؤمن يصبر على البلاء، ولا يصبر على العافية إلا صِدِّيق.

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ابْتُلِينَا بِالضَّرَاءِ فَصَبِرْنَا، وَابْتُلِينَا بِالسَّرَّاءِ، فَلَمْ نَصْبِرْ، وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]. وقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

فَالرَّجُلُ كُلُّ الرَّجُلِ مَنْ يَصْبِرُ عَلَى الْعَافِيَةِ، وَهَذَا الصَّبْرُ مُتَّصِلٌ بِالشُّكْرِ، فَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْقِيَامِ بِحَقِّ الشُّكْرِ، وَإِنَّمَا كَانَ الصَّبْرُ عَلَى السَّرَّاءِ شَدِيداً، لِأَنَّهُ مَقْرُونٌ بِالْقُدْرَةِ، وَالْجَائِعُ عِنْدَ غَيْبَةِ الطَّعَامِ أَقْدَرُ عَلَى الصَّبْرِ مِنْهُ عِنْدَ حُضُورِ الطَّعَامِ اللَّذِيذِ.

النوع الثاني: المخالف للهوى، وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: الطاعات، فيحتاج العبد إلى الصبر عليها، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية.

ثم من العبادات ما يُكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً، كالحج، والجهاد.

ويحتاج المريد إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال:

حال قبل العبادة، وهي تصحيح النية، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء.

وحال في نفس العبادة، وهي ألا يغفل عن الله تعالى في أثناء العبادة، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ من العمل.

الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل: وهي الصبر عن إفشائه، والتظاهر به لأجل الرياء والسمعة، وعن كل ما يبطل عمله، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المَنِّ والأذى أبطلها^(١).

(١) قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُطْلَوْنَ صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

القسم الثاني: الصبر عن المعاصي، وما أحوج العبد إلى ذلك!

ثم إن كان الفعل مما تيسر فعله، كمعاصي اللسان من الغيبة، والكذب والمراء ونحوه، كان الصبر عليه أثقل. فترى الإنسان إذا لبس حريراً، أستنكر ذلك، ويغتاب أكثر نهاره، فلا يستنكر ذلك، ومن لم يملك لسانه في المحاورات، ولم يقدر على الصبر، لم يُنَجِّه إلا العزلة.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت الاختبار، كالمصائب، مثل موت الأحبة، وهلاك الأموال، وعمى العين، وزوال الصحة، وسائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى المقامات، لأن سنده اليقين.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُصِيبْ مِنْهُ»^(١).

وقريب من هذا القسم، الصبر على أذى الناس، كالذي يؤذى بقول أو فعل أو جناية على نفسه أو ماله، والصبر على ذلك يكون بترك المكافآت.

والصبر على أذى الناس من أعلى المراتب، قال الله تعالى: ﴿وَلِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران]. وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر]، وقال: ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الصبر ثلاثة: صبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر على المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يَرُدَّهَا بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمئة درجة، ما بين الدرجة إلى الأخرى كما بين السماء والأرض، ومن صبر على الطاعة كتبت له ستمئة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تُخُومِ الأرض إلى منتهى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٥)، وأحمد (٧٢٣١) عن أبي هريرة. وهو في «صحيح الجامع الصغير» (٦١١٠)، و«مشكاة المصابيح» (١٥٣٦).

الله له تسعمئة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش مرتين»^(١).

والأحاديث في فضائل الصبر كثيرة، منها ما أخرجه في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها»^(٢).

وفي حديث آخر: «ما يصيب المسلم من وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله له من خطاياها»^(٣). أخرجه في «الصحيحين».

وفي حديث آخر: «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة، في جسده وفي ماله وفي ولده، حتى يلقي الله وما عليه خطيئة»^(٤).

وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشدَّ بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زُند في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة»^(٥). قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «فضل الصبر»، وأبو الشيخ في «الثواب» عن علي. وهو في «ضعيف الجامع الصغير» (٣٥٣٢).

من قوله: «ومن صبر . . .» إلى قوله: «مرتين» لم يرد في المطبوع، وإنما هو من نسختنا الثانية فقط.

(٢) رواه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢). وهو في «صحيح الجامع» (٥٧٨٣).

(٣) رواه البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (٤٥٧٣) وهو في «صحيح الجامع» (٥٨١٨)، و«المشكاة» (١٥٣٧).

(٤) أخرجه أحمد (٩٧٩٢)، والترمذي [«صحيحه» (٢٣٩٩/١٩٥٧)] عن أبي هريرة. وهو في «صحيح الجامع» (٥٨١٥)، و«الصحيح» (٢٢٨٠).

(٥) أخرجه أحمد (١٦٠٦)، والترمذي [«صحيحه» (٢٣٩٨/١٩٥٦)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٤٠٢٣/٣٢٤٩)]، والدارمي ٢/٣٢٠. وهو في «المشكاة» (١٥٦٢)، و«الصحيح» (١٤٣).

وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «قال الله تعالى: (إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ، ثُمَّ أَسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ، أَسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ مِيزَانًا، أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوانًا»^(١).

فصل

ومن آداب الصبر استعماله في أول صدمة، لقوله ﷺ:

[[آداب

الصبر]]

«إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(٢). حديث صحيح.

ومن الآداب الاسترجاع عند المصيبة، لحديث أم سلمة رضي الله عنها، وهو من رواية مسلم^(٣).

ومن الآداب سكون الجوارح واللسان، فأما البكاء فجائز، قال بعض الحكماء: الجزع لا يرد الفات، ولكن يسر الشامت.

ومن حسن الصبر ألا يظهر أثر المصيبة على المصاب، كما فعلت أم سليم امرأة أبي طلحة لما مات ابنها.

وحديثها مشهور في «صحيح مسلم»^(٤).

وقال ثابت البناني: مات عبدالله بن مطرف، فخرج مطرف على قومه في ثياب حسنة وَقَدْ أَدَّهَنَ، فغضبوا وقالوا: يموت عبدالله، ثم تخرج في ثياب من هذه مُدَّهِنًا؟ قال: أَفَأَسْتَكِينُ لَهَا، وقد وعدني ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إلي من الدنيا وما فيها: قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ

(١) أخرجه ابن عدي من حديث أنس، وسنده ضعيف، كما قال الحافظ العراقي.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٢)، ومسلم (٩٢٦) عن أنس.

(٣) أخرجه مسلم (٩١٨)، وأبو داود «صحيح سننه» (٣١١٩/٢٦٧٦)، والترمذي «صحيح سننه» (٣٥١١/٢٧٨٨).

(٤) أخرجه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤) بعد (٢٤٥٧) من حديث ابنها أنس بن مالك.

وَرَحِمَهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ [البقرة]. وقال مُطَرِّفٌ: ما شيء أعطي به في الآخرة قَدَرٌ كُوزٍ من ماء، إلا وَدِدْتُ أَنَّهُ أَخَذَ مِنِّي فِي الدُّنْيَا.

وكان صِلَةُ بْنُ أَشْيَمٍ فِي مَغْزَى لَهُ وَمَعَهُ ابْنُهُ، فَقَالَ: (أَيُّ بُنَيٍّ؟) تَقْدِمُ فَقَاتِلْ حَتَّى (أَخْتَسِبُكَ)، فَحَمَلَ فَقَاتَلَ حَتَّى قَتَلَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقَتَلَ، فَاجْتَمَعَ النِّسَاءُ عِنْدَ أُمِّهِ مُعَاذَةَ الْعَدَوِيَّةِ، فَقَالَتْ: مَرْحَباً إِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ تَهْنِئَتِنِي، وَإِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ لغير ذلك فَارْجِعْنَ.

وَإِذَا كَانَتِ الْمَصِيبَةُ مِمَّا يُمْكِنُ كِتْمَانُهَا، فَكِتْمَانُهَا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ ﷻ الْخَفِيَّةِ.

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

«إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكَينَ، فيقول: أَنْظِرُوا مَا يَقُولُهُ لِغُوَادِهِ، فَإِنْ حَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ، رَفَعْنَا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ أَعْلَمُ. فيقول: لِعَبْدِي إِنْ أَنَا تَوَفَّيْتُهُ أَنْ أَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ أَنَا شَفِيتُهُ أَنْ أُبَدِّلَهُ لَحْماً خَيْراً مِنْ لَحْمِهِ، وَدَمًا خَيْراً مِنْ دَمِهِ، وَأَنْ أَكْفُرَ عَنْهُ خَطَايَاهُ»^(١).

وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ: أَلَّا تَشْكُوَ وَجَعَكَ، وَلَا تَذْكُرَ مَصِيبَتَكَ.

وَقَالَ الْأَخْنَفُ: لَقَدْ ذَهَبَتْ عَيْنِي مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، مَا ذَكَرْتُهَا لِأَحَدٍ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ: كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: بِخَيْرٍ، فِي عَافِيَةٍ. فَقَالَ لَهُ: حُمِمْتَ الْبَارِحَةَ؟ قَالَ: إِذَا قُلْتُ لَكَ: (أَنَا فِي عَافِيَةٍ) فَحَسْبُكَ، لَا تَخْرِجْنِي إِلَى مَا أَكْرَهُ.

وَقَالَ شَقِيقُ الْبَلْخِيِّ: مِنْ شُكَا مَصِيبَةٍ بِهِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، لَمْ يَجِدْ فِي قَلْبِهِ لَطَاعَةَ اللَّهِ حُلَاوَةً أَبَداً.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مِنْ كُنُوزِ الْبِرِّ كِتْمَانُ الْمَصَائِبِ، وَقَدْ كَانُوا يَفْرَحُونَ بِالْمَصَائِبِ نَظَرًا إِلَى ثَوَابِهَا.

(١) هو من مراسيل عطاء عند مالك: ٩٤٠/٢ وتفرد برفعه - من مسند أبي هريرة - علي بن محمد الزياباذي - وفيه لين، فرواه عن معن عن مالك، أخرجه عنه الدارقطني في «الغرائب» وابن صخر في «عوالي مالك».

وحكاياتهم مشهورة في ذلك :

منها: ما روي أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لما مات دفنه عمر، وسَوَّى عليه، ثم أَسَوَّى قائماً، فأحاط به الناس، فقال: رحمك الله يا بني؟ قد كنت بَرّاً بأبيك، والله ما زلت منذ وهبك الله لي مسروراً بك، ولا والله ما كنت قط أشدَّ بك سروراً، ولا أزجى بحَظِّي من الله تعالى فيك منذ وضعتك في هذا المنزل الذي صيرك الله إليه.

فإن قيل: إن كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب، فلا قدرة للآدمي على ذلك، وإن كان الفرح بوجودها كما حَكَيْتُمْ، فهو أبعد. =

= والجواب: أن الصبر لا يكون إلا عن محبوب أو على مكروه، ولا يُنهى عما لا يدخل تحت الكسب، وهو أنزعاج الباطن، وإنما يُنهى عن المُكْتَسَبِ. كَشَقِّ الجيوب، ولطم الخدود، والقول باللسان، فأما ما ذكرنا من فرح بعضهم، فذلك فرح شرعي لا طَبِيعِي، إذ الطَّبْعُ لا بد له من كراهة المصائب.

ومثال هذا: مثال رجل مريض وُصِفَتْ له شَرِبَةٌ لِمَرَضِهِ، فسعى في طلب حوائجها، وأنفق عليها مالا، فلما تَمَّتْ، فرح بتمامها، وتناولها لما يرجو لها من العافية، فأما طَبْعُهُ، فما زالت عنه كراهة التناول أصلاً. ولو أن مَلِكاً قال لرجل فقير: كلما ضَرَبْتُكَ بهذا العود اللطيف ضربة أعطيتك ألف دينار، لأَحَبُّ كثرة الضرب، لا لأنه لا يُؤْلَم، ولكن لما يرجو من عاقبته، وإن أنكاه الضرب، فكذلك السلف تَلَمَّحُوا الثواب، فهان عليهم البلاء.

فصل في بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

أَعْلَمُ أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد بالشفاء^(١)، فالصبر وإن كان شاقاً فتحصيله مُمَكِّنٌ بِمَعْجُونِ العلم والعمل، فمنهما تُرْكَبُ الأدوية لأُمراض القلوب

(١) ففي الحديث: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء». «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٥٥٥٩).

كلها، فيحتاج كل مرض إلى علم وعمل يليق به، فإن العلل إذا اختلفت اختلفت العلاج، إذ معنى العلاج: مُضَادَّةُ الْعِلَّةِ.

ونضرب لك مثلاً، فنقول: إذا افتقر الإنسان إلى الصبر عن شهوة الجماع، وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فَرْجَهُ ولا عَيْنَهُ ولا قَلْبَهُ، فعلاج ذلك بثلاثة أشياء:

أحدها: مواظبة الصوم، والاقْتِصَارُ عند الإفطار على قليل من الطعام.

الثاني: قطع أسبابه الْمُهِيجَةِ، فإنه إنما يُهَيِّجُ بالنظر، والنظر يُحَرِّكُ القلب، والقلب يحرك الشهوة، ودواء هذا: الْعَزْلَةُ، والاحتراز عن مَظَانِّ وقوع البصر على الصُّورِ الْمُشْتَهَاةِ، فإن النظرَ سَهَمٌ مسموم من سهام إبليس، ولا يمنع عنه إلا غمض الجفن أو الهرب.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من جنس المُشْتَهَى، وذلك بالنكاح، وكل ما يشتهي الطبع من الحرام: ففي المباحات عُثْيَةٌ عنه، وهذا هو العلاج الأرفع في حق أكثر الناس، لأن قطع الغذاء يُضْعِفُ، ولا يقمع الشهوة بخلاف هذا.

وينبغي للإنسان أن يعود نفسه المجاهدة، فإن من عوّد نفسه مخالفة الهوى، غلبها متى أراد.

وأعلم أن أشد أنواع الصبر والمجاهدة، كَفُّ الباطن من حديث النفس، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ واعتزل، فإن الوسواس لا تزال تُجاذبه، ولا علاج لهذا إلا قطع العلائق، وجعل الهمَّ هَمًّا واحداً، وصرف الفكر إلى ملكوت السماوات والأرض وعجائب صنْعِ الله تعالى، وجميع أبواب معرفة الله تعالى، حتى إذا استولى ذلك على قلبه، دَفَعَ أَشْتَغَالَهُ مجاذبة الشيطان ووسواسه، وإن لم يكن له سير الباطن فلا يُنْجِيهِ إلا الأوراد المتواصلة، من القراءة، والأذكار، والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور، فإن الفكر الباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة، فهذا الذي يمكن أن يُنال بالاكْتِسَابِ والجهد.

فأما مقادير ما ينكشف، ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى من الأحوال والأعمال، فذلك يجري مجرى الصيد، وهو بحسب الرزق، فقد يقل الجهد، ويكثر الصيد، وقد يطول الجهد ويقل الصيد، والمُعَوَّل وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن ﷻ، فإنها تُوازي أعمال الثقلين، وليس ذلك إلى اختيار العبد، بل اختياره أن يتعرض لتلك الجذبة، بأن يقلع عن قلبه جواذب الدنيا، فإن المجذوب إلى ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين]، لا يُجذب إلى أعلى ﴿عَلِيِّينَ﴾ [المطففين] وكل منهموم بالدنيا هو مُنجذب إليها، فقطع العلائق الجاذبة، هو المراد بقوله ﷺ: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات^(١)، ألا فتعرضوا لها»^(٢).

فالذي علينا: تفرُّغ المَحَلِّ، والانتظار لنزول الرحمة، كالذي يُولِّح الأرض ويُنقيها من الحشيش، ويضع فيها البَذَر، وكل ذلك لا ينفع إلا بمطر، ولا يدري متى يُقدِّر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى أنه لا يُخلي سنة عن مطر، وكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات.

فينبغي أن يكون العبد قد طَهَّر القلب من حشيش الشهوات، وبذر فيه بَذَر الإرادة والإخلاص، وعَرَّضه لَمَهَاب ريح الرحمة، وكما يقوَّى أُنْتَظَارُ الأمطار في أوقات الربيع عند ظهور الغيم، كذلك أُنْتَظَار تلك النفحات في الأوقات الشريفة، وعند اجتماع الهم ونشاط القلوب، كيوم عرفة، ويوم الجمعة، وفي رمضان. والهمم والأنفاس أسباب لا سِتْدَار رحمة الله تعالى بحكمته وتقديره.

(١) نفح الريح: هبوبها. ونفح الطيب: إذا فاح.

(٢) رواه الطبراني عن محمد بن مسلمة. وهو في «ضعيف الجامع الصغير وزيادته» (١٩١٧).

الشرط الثاني من الكتاب في:

الشكر وفضله وذكر النعم واقسامها ونحو ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٥) [آل عمران] وقال الله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبا]، وقطع بالمزيد مع الشكر فقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، مع كونه وقف أشياء كثيرة غيره: على المشيئة كقوله: ﴿فَسَوْفَ يُعْطِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقوله: ﴿فَيَكْشِفَ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وقوله: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢١٢]، آل عمران: ٣٧. النور: ٣٨. الشورى: ١٩ وقوله: ﴿وَنَقْفَرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: ١٥].

ولما عرف إبليس قَدَرَ الشكر قال في الطعن على بني آدم: ﴿وَلَا تَحِدْ أَكْثَرَهُمْ شَكْرِينَ﴾ (١٧) [الأعراف].

وروي أن النبي ﷺ قام حتى تَفَطَّرَتْ^(١) قَدَمَاهُ، فقالت له عائشة رضي الله عنها: أَتَضَنُّعُ هَذَا وقد غفر الله لك ﴿مَا تَقَدَّمُ مِنْ ذِيكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؟ [الفتح: ٢] قال: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا» (٢) [الإسراء: ٢].

وعن معاذ ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَحْبَبْتُ فَقْلَ: اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحَسَنَ عِبَادَتِكَ»^(٣).

(١) أي: تشققت.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨٢٠).

(٣) «صحيح سنن أبي داود» (١٣٤٧/١٥٢٢)، و«صحيح سنن النسائي» (١٢٣٦). وانظر «مشكاة المصابيح» (٩٤٩)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (٣٣٥). وهذا الدعاء مقيد في روايات الحديث في أدبار الصلوات.

فصل

والشكر يكون بالقلب، واللسان، والجوارح :
أما بالقلب، فهو أن يقصد الخير، ويُضمّره للخلق كافة .
وأما باللسان، فهو إظهار الشكر لله بالتحميد .

وأما بالجوارح، فهو استعمال نعم الله في طاعته، والتَّوَقُّي مِنْ الاستعانة بها على معصيته، فَمِنْ شُكْرِ الْعَيْنَيْنِ أَنْ تَسْتَرِ كُلَّ غَيْبٍ تَرَاهُ لِمُسْلِمٍ، وَمِنْ سِتْرِ الْأَذْنَيْنِ أَنْ تَسْتَرِ كُلَّ عَيْبٍ تَسْمَعُهُ، فَهَذَا يَدْخُلُ فِي جَمَلَةِ شُكْرِ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ .

و الشكر باللسان: إظهار الرضا عن الله تعالى، وهو مأمور به . قال رسول الله ﷺ: «التَّحَدُّثُ بِالنِّعَمِ: شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا: كُفْرٌ»^(١) .

وروي أن رجلين من الأنصار أَلْتَقَيَا، فقال أحدهما لصاحبه: كيف أصبحت؟ فقال: الحمد لله . فقال النبي ﷺ: «قولوا هكذا»^(٢) .

وروي أن رجلاً سَلَّمَ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فَرَدَّ عليه، ثم قال له عمر: كيف أصبحت؟ قال: أحمَدُ الله .

فقال عمر: ذاك الذي أردتُ .

وقد كان السلف يتساءلون، ومرادهم أستخراج الشكر لله، فيكون الشاكر مطيعاً، والمُسْتَنْطِقُ مُطِيعاً .

وقال أبو عبد الرحمن الجُبَلِيُّ: إن الرجل إذا سَلَّمَ على الرجل، وسأله كيف أصبحت؟ فقال له الآخر: أحمَدُ الله إليك، قال: يقول المَلَكُ الذي عن يساره للذي عن يمينه: كيف تكتبها؟ قال: أَكْتُبُهُ مِنَ الْحَامِدِينَ . فكان أبو عبد الرحمن إذا سئل كيف أصبحت؟ يقول: أحمَدُ الله إليك، وإلى جميع خلقه .

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على «المسند» (١٨٤٠٨ و ١٨٤٠٩ و ١٩٢٩٨ و ١٩٢٩٩) عن النعمان بن بشير بلفظ: «التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ...» وليس هو من رواية الإمام أحمد كما في المطبوع . وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٣٠١٤) .

(٢) لم أره .

فصل

[بيان تمييز ما
يجبه الله تعالى] أعلم أن فعل الشكر وترك الكُفران، لا يتم إلا بمعرفة ما يجبه الله
عما يكرهه] ذلك، إما بترك الاستعمال، أو أستعماله فيما يكره.

ولتمييز ما يجبه الله فيما يكرهه مذكران:
أحدهما: السمع، ومُسْتَدُّهُ الآيات.

والثاني: بصيرة القلب، وهو النظر بعين الاعتبار، ولهذا الأخير عسير عزيز،
ولذلك أرسل الله تعالى الرسل، وسَهَّلَ بِهِمُ الطُّرُقَ عَلَى الْخَلْقِ، ومعرفة ذلك
تُبنى على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لا يَطَّلِعُ عَلَى حُكْمِ
الشرع في جميع أفعاله، لم يُمكنه القيام بحق الشكر أصلاً.

وأما الثاني: وهو النظر بعين الاعتبار، فهو إدراك حِكْمَةِ اللَّهِ تعالى في كل
موجود خَلَقَهُ، إذ ما خلق الله تعالى شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة، وتحت
الحكمة مقصود، وذلك المقصود هو المحبوب.

وتلك الحكمة منقسمة إلى جليّة وخفيّة:

أما الجليّة: فكالعالم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل الليل والنهار،
فيكون ﴿الْهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا] والليل سباتاً فتتيسر الحركة عند الإبصار،
والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حكم الشمس، لا كُلَّ الحكمة فيها،
وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار.

وأما الحكمة في خلق الكواكب، فخفيّة لا يَطَّلِعُ عليها كل الخلق، وقد
يَطَّلِعُونَ عَلَى بَعْضِ مَا فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ، نحو كونها زينة للسماء^(١)، وجميع

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنًا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ﴾ [الصافات]. ﴿وَزَيْنًا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا
بِمَصْنُوعٍ﴾ [فصلت: ١٢. الملك: ٥]. ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيْنًا لِّلنَّظِيرِ
﴿[الحجر]، ﴿أَنَّا نَنظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَوَهِهُ كَيْفَ بَيْنَهَا وَزَيْنَهَا﴾ [ق: ٦].

وقال الراغب الأصفهاني في «مفردات القرآن» مادة (كب): (والكواكب:
النجوم البادية، ولا يقال لها كواكب إلا إذا بدت). اهـ. فالتفريق بين النجم
والكوكب إنما هو من اصطلاحات الفلكيين المتأخرين.

أجزاء العالم لا تخلو منه ذرة عن حكمة، وكذلك أعضاء الحيوان، منها ما تبين حكمته بياناً ظاهراً، كالعلم بأن العين للإبصار، واليد للبطش، والرجل للمشي.

فأما الأعضاء الباطنة، كالمرارة والكلى والكبد، وآحاد العروق، والأعصاب وما فيها من التجايف والرقة والغلظة، فلا يعرف الحكمة فيها كل الناس، والذين يعرفونها إنما يعرفون منها قدراً يسيراً بالنسبة إلى علم الله تعالى، فكل من أستعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ذلك الشيء على غير الوجه الذي أريد به، فقد كفر بنعمة الله تعالى فيه، فمن ضرب غيره بيده بغير حق، فقد كفر بنعمة الله تعالى في اليد، لأنها خلقت ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه، ويتناول ما ينفعه، لا ليؤذي بها غيره، وكذلك العين إذا نظر بها إلى مُحَرَّم، فقد كفر نعمتها، ونعمة الشمس أيضاً، إذ الإبصار يتم بها، فالعين والشمس خُلِقَتَا لِيُبْصِرَ بهما ما ينفعه في دينه ودنياه، ويتقي بهما ما يضره فيهما.

وأعلم أن المراد من خَلَقَ الخلق وخلق الدنيا وأسبابها، أن يستعين بها الخَلْقُ على الوصول إلى الله تعالى، ولا وصول إليه إلا بمحبته، والأنس به في الدنيا، والتجافي عن غرور الدنيا، ولا أنس إلا بدوام الذكر، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق جميع الأعضاء الباطنة والظاهرة، وكل ذلك لأجل البدن، والبدن مطية النفس، والراجع إلى الله هي ﴿النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٢٧﴾ [الفجر] بطول العبادة والمعرفة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥١﴾ [الذاريات] فكل من أستعمل شيئاً في غير طاعة الله، فقد كفر بنعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك المعصية.

ولنذكر مثلاً واحداً للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء، حتى يعتبر بها، ويعلم طريق الشكر والكفران على النعم، فنقول:

مِنْ نَعَمِ اللَّهِ تَعَالَى خَلَقَ الدَّرَاهِمَ وَالْدَنَانِيرَ اللَّذَيْنِ بِهِمَا قَوَامُ الدُّنْيَا، وَهُمَا حَجَرَانِ لَا مَنْفَعَةَ فِي أَعْيَانِهِمَا، وَلَكِنْ يَضْطَرُّ الْخَلْقُ إِلَيْهِمَا، مِنْ حَيْثُ إِنْ كُلُّ إِنْسَانٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَعْيَانٍ كَثِيرَةٍ، فِي مَطْعَمِهِ، وَمَشْرَبِهِ، وَمَلْبَسِهِ، وَمَرْكَبِهِ، وَسَائِرِ حَاجَاتِهِ، وَقَدْ يَعْجُزُ عَمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَيَمْلِكُ مَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ، كَمَنْ يَمْلِكُ قَدْرًا مِنَ الزُّعْفَرَانِ مِثْلًا، وَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى جَمَلٍ يَرْكَبُهُ، وَآخِرُ يَمْلِكُ الْجَمَلَ، وَرَبِمَا أَسْتَغْنَى عَنْهُ، وَيَحْتَاجُ إِلَى الزُّعْفَرَانِ، فَلَا بَدَ بَيْنَهُمَا مِنْ مُعَاوَضَةٍ، وَلَا بَدَ فِي مِقْدَارِ الْعَوَاضِ مِنْ تَقْدِيرٍ، إِذْ لَا يَبْذُلُ صَاحِبُ الْجَمَلِ جَمْلَهُ بِكُلِّ مِقْدَارٍ مِنَ الزُّعْفَرَانِ، وَلَا مَنَاسِبَةَ بَيْنَ الزُّعْفَرَانِ وَالْجَمَلِ، حَتَّى يُعْطَى مِثْلُهُ فِي الْوِزْنِ وَالصُّورَةِ.

وَكَذَا مِنْ يَشْتَرِي دَارًا بِثِيَابٍ، أَوْ عَبْدًا بِخُفٍّ، أَوْ دَقِيقًا بِحِمَارٍ، فَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ لَا تَنَاسِبُ بَيْنَهُمَا، فَخَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الدَّرَاهِمَ وَالْدَنَانِيرَ، حَاكِمَيْنِ وَمُتَوَسِّطَيْنِ بَيْنَ سَائِرِ الْأَمْوَالِ، حَتَّى تُقَدَّرَ بِهِمَا، فَيَقَالُ: هَذَا الْجَمَلُ يَسَاوِي مِثَّةً، وَهَذَا الْقَدْرُ مِنَ الزُّعْفَرَانِ يُسَاوِي مِثَّةً، فَحَصَلَ التَّسَاوِي بَيْنَهُمَا حِينَئِذٍ، وَإِنَّمَا أُمِكنَ التَّعْدِيلُ بَيْنَهُمَا بِالْثَّقْدَيْنِ، إِذْ لَا غَرَضَ فِي أَعْيَانِهِمَا، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ فِي أَعْيَانِهِمَا غَرَضٌ لَمْ يَنْتَظِمِ الْأَمْرُ، فَخَلَقَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِتَدَاوُلِهِمَا الْأَيْدِي، وَيَكُونَا حَاكِمَيْنِ بَيْنَ الْأَمْوَالِ بِالْعَدْلِ، وَجَعَلَهُمَا عَزِيزَيْنِ فِي أَنْفُسِهِمَا، وَنَسَبْتَهُمَا إِلَى سَائِرِ الْأَمْوَالِ نِسْبَةً وَاحِدَةً، فَمَنْ مَلَكَهُمَا، فَكَأَنَّهُ مَلَكَ كُلَّ شَيْءٍ.

إِذَا عَرَفْتَ حِكْمَتَهُمَا، فَكُلُّ مَنْ عَمِلَ فِيهِمَا عَمَلًا يَخَالِفُ الْمَقْصُودَ مِنْهُمَا، وَلَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِمَا، فَقَدْ كَفَرَ نِعْمَةَ اللَّهِ فِيهِمَا، فَمَنْ كَثَّرَهُمَا فَقَدْ أَبْطَلَهُمَا وَأَبْطَلَ الْحِكْمَةَ فِيهِمَا، وَكَانَ كَمَنْ حَبَسَ الْحَاكِمَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي سَجْنٍ يَمْتَنَعُ مِنَ الْحُكْمِ بِسَبَبِهِ، لِأَنَّهُ ضَيَّعَهُمَا وَمَنَعَ الْأَيْدِي مِنْ تَدَاوُلِهِمَا. وَلَمَّا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ عَاجِزِينَ عَنْ قِرَاءَةِ الْأَسْطَرِ الْإِلَهِيَةِ الْمَكْتُوبَةِ عَلَى صَفْحَاتِ الْمَوْجُودَاتِ بِخَطِ إِلَهِيٍّ لَا يُدْرِكُ بَعِينَ الْبَصَرِ، بَلْ بَعِينَ الْبَصِيرَةِ، أَخْبَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَلَامٍ سَمِعُوهُ بِوَسْاطَةِ رَسُولِهِ ﷺ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٤) [التوبة].

وكل مَن آتخذ الدراهم والدنانير آثِيَّةً، فقد كفر الله فيهما، لأنه أسوأ حالاً ممن كَنَزَهما. ومثال ذلك مَن أَسْتَعْمَلَ حاكمَ البلد في الجِياكَة والكَنَسِ والأعمال التي يقوم بها أخسُّ الناس. وذلك أن الحديد والنحاس والخزف وغيرها يقوم مقام الذهب والفضة في حفظ المائعات ولا تكفي تلك الأعيان عنهما، ولا يقوم مقامهما فيما أريد بهما من كونهما قِيَمَ الأشياء، فمن لم تنكشف له هذه الحكمة بالرحمة الإلهية قيل له: «من شرب في إناء ذهب وفضة، فإنما يُجَرِّجُ في بطنه نار جهنم»^(١). وكذلك كل من عامل بالربا في الدراهم والدنانير، فقد أخرجهما عن مقصودهما، فهذا مثال لحكمة خفية من حكم النقادين.

فينبغي أن تعتبر شكر النعمة وكفرها بهذا المثال في غيره من جميع أمورك، في: حركتك، وسكونك، ونطقك، وسكوتك في كل فصل صادر منك، إما شكراً أو عكسه، وهو الكفر، وبعض ذلك تَصِفُهُ بالكراهة، وبعضه بِالْحَظَرِ.

ومن ذلك أن الله تعالى خلق لك يَدَيْنِ، وجعل إحداهما أقوى من الأخرى، فَأَسْتَحَقَّتْ بمزيد القوة رُجْحَاناً وَشَرَفاً على الأخرى، وقد أَخَوَجَكَ مَن أعطاك اليدين إلى أعمال، بعضها شريفة، كأخذِ الْمُصْحَفِ، وبعضها خَسِيسَة، كإزالة النجاسة، فإذا أخذت المصحف باليسار، وَأَزَلَّتِ النجاسة باليمين، فقد عكست المقصود، وخَصَصْتَ الشريف بما هو خسيس، فَظَلَمْتَهُ.

وكذلك في الرُّجْلَيْنِ، إذا أَبْتَدَأْتَ باليسرى في لبس الخُفِّ، فقد ظلمت اليمين، لأن الخُفَّ وقاية الرُّجْلِ، وقِسْ على ذلك.

وكذلك نقول: من كَسَرَ غُضْناً من شجرة لغير حاجة مهمة وغرض صحيح، فقد خالف الحكمة في خَلْقِ الأشجار، لأنها خُلِقَتْ للمنفعة بها، فإن كان كسره لغرض صحيح، فلا بأس، وإن فعل ذلك في ملك غيره، فهو ظالم وإن كان محتاجاً إلا أن يأذن صاحبه.

(١) رواه مسلم ١٦٣٥/٣ (٢٠٦٥). وانظر «الإرواء» (٣٣).

فصل في بيان النعم وحقيقتها وأقسامها

أعلم أن كل مطلوب يُسمَّى نعمة، ولكن النعمة في الحقيقة هي السعادة الأخرى، وتسمية ما عداها نعمة تَجَوُّزٌ، والأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم أربعة أقسام:

أحدها: ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً، كالعلم، وحُسن الخلق، وهو النعمة الحقيقية.

الثاني: ما هو ضارٌّ فيهما جميعاً، وهو البلاء حقيقة.

القسم الثالث: ما ينفع في الحال، ويضر في المال، كالتلذُّذ، وأتباع الشَّهَوَات، فهو بلاء عند ذوي الأبصار، والجاهل يظنه نعمة.

ومثاله: الجائع إذا وجد عسلاً فيه سُمٌّ، فإنه يَعُدُّه نعمة إن كان جاهلاً، فإذا علم ذلك عَدَّه بلاء.

القسم الرابع: الضارُّ في الحال، النافع في المال، وهو نعمة عند ذوي الألباب، بلاء عند الجُهَال.

ومثاله: الدواء الشنيع مَذَاقُه في الحال، الشافي في المال من الأسقام، فالصَّبِيُّ الجاهل، إذا كُلفَ شُرْبُه ظنه بلاء، والعاقل يَعُدُّه نعمة، وكذلك إذا احتاج الصبي إلى الحِجامة، فإن الأب يدعوه إليها ويأمره بها، لما يلحظ في عاقبتها من الشفاء، والآن تمنعه من ذلك لِقَرِّطِ حبها وشَفَقَتِها، لكونها جاهلة بالمصلحة في ذلك، فالصبي يتقلد مَنَّةَ أُمِّه بجهله، ويأنس إليها دون أبيه، ويقدر أباه عدوًّا، ولو عقل لعلم أن الأم هي العدو الباطن في صورة صديق، لأن مَنَعَهَا إياه من الحِجامة يسوقه إلى أمراض أَلْمُها أشدَّ من أَلَمِ الحِجامة، فالصديق الجاهل شرٌّ من العدو العاقل، وكل إنسان صديقٌ نَفْسِه، ولكن النَّفْسَ صديقٌ جاهل، فلذلك تعمل به ما لا يعمل العدو.

فصل في بيان كثرة نعم الله تعالى

وتسلسلها وخروجها عن الحَضر والإحصاء

أعلم أن النعم تنقسم إلى ما هو غاية مطلوبة لذاتها، وإلى ما هو مطلوب لأجل الغاية.

أما الغاية، فهي سعادة الآخرة، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور: بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لا جهل معه، وغنى لا فقر بعده، وهي السعادة الحقيقية.

وأما القسم الثاني، فهو الوسائل إلى السعادة المذكورة، وهي أربعة أقسام: أعلاها: فضائل النفس، كالإيمان، وحسن الخلق.

الثاني: فضائل البدن، من القوة والصحة ونحوهما.

الثالث: النعم المُطيفة بالبدن، من المال والجاه والأهل.

الرابع: الأسباب التي جمع بينها وبين ما يناسب الفضائل، من الهداية والإرشاد، والتسديد، والتأييد، وكل هذه نعم عظيمة.

فإن قيل: ما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة في المال والجاه ونحوهما؟ =

= قلنا: هذه الأشياء جارية مجرى الجناح المباح، والآلة المستعملة للمقصود.

أما المال، فإن طالب العلم إذا لم تكن معه كفاية، كان كَسَاع إلى الهَيْجَاء بغير سلاح، ولأنه يبقى مستغرق الأوقات في طلب القُوَّة، فيشغله عن تحصيل العلم، وعن الذكر، والفكر، ونحو ذلك.

وأما الجاه، فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضئيم، ولا يَنْفَكُ عن عدو يؤذيه، وظالم يَهْوَسُ عليه، فيشغل قلبه، وقلبه رأس ماله. وإنما تدفع هذه الشواغل بالعز والجاه.

وأما الصحة والقوة وطول العمر ونحوها فهي نعم، إذ لا يَتِمُّ علم ولا عمل إلا بذلك.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ»^(١).

(١) أخرجه البخاري، وسيأتي في الصفحة (٤٨٦) حاشية (١).

ولمّا سئل: مَنْ خَيْرُ الناس؟ قال: «من طال عمره وحَسُنَ عمله»^(١).

وأما المال والجاه، وإن كانا نعمتين، فقد ذكرنا ما فيهما من الآفات فيما تقدم، وأنهما ليسا بمَثْمُومَيْنِ على الإطلاق.

وأما الهداية والرُّشْدُ والتسديد والتأييد، فلا خَفَاء في كونها من أعظم النعم فلا يَسْتغني أحد عن الحاجة إلى التوفيق، ولذلك قيل:

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله لِلْفَتَى فَأَكْثَرُ ما يَجْنِي عليه أَجْتِهَادُهُ

فصل

وأعلم أنّا قد ذكرنا جملة من النعم، وجعلنا صحة البدن نعمة [بيان وجه النموذج] واحدة من النعم الواقعة في الرتبة الثانية، فلو أردنا أن نستقصي في كثرة نعم الله تعالى الأسباب التي بها تَمَّتْ هذه النعمة، لم نقدر عليها، ولكن الأكل وتسلسلها وخروجها [عن الحصر والإحصاء] أحد أسباب الصحة، فلنذكر شيئاً من جُمْلَةِ الأسباب التي يتم بها الأكل على سبيل التلويح، لا على سبيل الاستقصاء، فنقول:

من جُمْلَةِ نعم الله عليك أنْ خَلَقَ لك آلة الإحساس، وآلة [نعم الله تعالى في خلق] الحركة في طلب الغذاء، فأنظرْ إلى ترتيب حكمة الله تعالى في أسباب الإدراك الحواس الخمس، التي هي آلة للإدراك.

فأولها: حاسة اللمس، وهو أول حس يخلق للحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه، فإن الإحساس بما يبعد منه أتمّ لا محالة، فأفتقرت إلى حس تدرك به ما بَعْدَ عنك، فخلق لك الشم تدرك به الرائحة من بُعْدٍ، ولكن لا تدري من أي ناحية جاءت الرائحة، فتحتاج أن تطوف كثيراً حتى تعثر على الذي شممته رائحته، وربما لم تعثر، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك، وتدرك جهته فتقصدها بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٦٦)، والترمذي [«صحيحه» (٢٣٢٩/١٨٩٨)] عن عبد الله بن بسر، وأحمد أيضاً (٢٠٣٦٢)، والترمذي [«صحيحه» (٢٣٣٠/١٨٩٩)] عن أبي بكرة. وهو في «الصحيحه» (١٨٣٦)، و«المشكاة» (٥٢٨٥).

لكنك ناقصاً، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب، فربما قصدك عدو بينك وبينه حجاب، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب، فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الحجرات عند جريان الحركات، ولا يكفي ذلك، لو لم يكن لك حسّ الذوق، إذ به تعلم ما يوافقك وما يضرّك، بخلاف الشجرة، فإنه يُصَبّ في أصلها كل مائع، ولا ذوق لها فتجذبه، وربما يكون ذلك سبب جفافها، ثم أكرمك الله تعالى بصفة أخرى، هي أشرف من الكل، وهو العقل، فبه تدرك الأطعمة ومنفعتاتها، وما يضر في المأكّل، وبه تدرك طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع به في الأكل الذي هو سبب صحتك، وهو أدنى فوائد العقل، والحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى، وما ذكرنا من الحواس الخمس الظاهرة، فهي بعض الإدراكات. ولا تَظُنُّ أننا أَسْتَوْفَيْنَا شيئاً من ذلك، فإن البصر واحد من الحواس، والعين آلة له، وقد رُكِبَتِ العينُ من عَشْر طبقات مختلفة، بعضها رطوبات، وبعضها أغشية مختلفة، لكل واحدة من الطبقات العشر صفة، وصورة، وشكل، وهيئة، وتدبير، وتركيب، لو أَخْتَلَّتْ طبقة واحدة منها أو صفة واحدة، لَأَخْتَلَّ البصر، وعجز عنه الأطباء كلهم، فهذا في حسّ واحد، وقِسْ حاسة السمع وسائر الحواس، ولا يمكن أن يُسْتَوْفَى ذلك في مجلدات، فكيف ظنك بجميع البدن؟!

ثم أنظر بعد ذلك في خَلْق الإرادة والقدرة، وآلات الحركة من أصناف النعم، وذلك أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الطعام، ولم [في أصناف يخلق لك في الطبع شوق إليه وشهوة تستحثك على الحركة، كان النعم في خلق البصر مُعْطَلاً، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له، ولا الإرادات] يقدر على تناوله لسقوط شهوته، فخلق لك الله شهوة الطعام وسلطها عليك، كالمتقاضي الذي يضطرك إلى تناول الغذاء.

ثم هذه الشهوة لو لم تَسْكُنْ عند أخذ مقدار الحاجة من الطعام، لأسرَفَتْ وأهلكَتْ نفسك، فخلق لك الكراهة عند الشيع لِشَرِك الأكل بها، وكذلك القول في شهوة الوقاع لحكمة بقاء النسل.

[في نعم الله تعالى] ثم خلق لك الأعضاء التي هي آلات الحركة في تناول الغذاء في خلق القدرة وغيره، منها اليدان، وهما مشتملتان على مفاصل كثيرة لتحرك في وآلات الحركة] الجهات وتمتد وتنثني، ولا تكون كخشبة منصوبة .

ثم جعل رأس اليد عريضاً، وهو الكف، وقسمه خمسة أقسام، وهي: الأصابع، وجعلها مختلفة في الطول والقصر، ووضعها في صفين، بحيث يكون الإبهام في جانب، ويدور على الأصابع البواقي، ولو كانت مجمعة متراكمة، لم يحصل تمام الغرض، ثم خلق لها أظافر، وأسند إليها رؤوس الأصابع لتقوى بها، ولتلتقط بها بعض الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع، ثم هب أنك أخذت الطعام باليد، فلا يكفيك حتى يصل إلى باطنك، فجعل لك الفم واللّخين، خلقهما من عظمين، وركب فيهما الأسنان، وقسمها بحسب ما يحتاج إليه الطعام، فبعضها قواطع كالرّباعيّات، وبعضها يصلح للكسر كالأنياب، وبعضها طواحن كالأضراس، وجعل اللّخي الأسفل متحركاً حركة دورية، واللّخي الأعلى ثابتاً لا يتحرك، فأنظر إلى عجيب صنع الله تعالى، وإن كل رَحَى صنعها الخلق يُثَبَّتُ منها الحجر الأسفل ويدور الأعلى، إلا هذه الرّحى التي هي صنع الله ﷻ، فإنه يدور منها الأسفل على الأعلى، إذ لو دار الأعلى خُوِطِرَ بالأعضاء الشريفة التي يحتوي عليها.

ثم أنظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان، فإنه يطوف في جوانب الفم، ويردّ الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة، كالمِجْرَفَةِ التي تردّ الطعام إلى الرّحى، لهذا مع ما فيه من عجائب قوة النطق.

ثم هب أنك قطعت الطعام وعجنته وهو يابس، فما تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزل إلى الحلق بنوع رطوبية .

فأنظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عيناً يفيض منها اللّعاب، ويُنْصَبُ بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام .

ثم هذا الطعام المطحون المعجون من يوصله إلى المعدة وهو في الفم، فإنه

لا يُمكنُ إيصاله باليد؟ فهَيَّا اللهُ تعالى المَريءَ^(١) والْحَنَجْرَةَ، وجعل رأسها طبقات يفتح لأخذ الطعام، ثم ينطبق وينضغط حتى يقلب الطعام، فيهوي في دهليز المريء إلى المعدة، فإذا ورد الطعام إلى المعدة وهو خبز وفاكهة مُقَطَّعةً، فلا يصلح أن يصير لحماً وعظماً ودماً على هذه الهيئة حتى يُطَبَّخَ طبخاً تاماً، فجعل الله المعدة على هيئة قَدْرِ يقع فيها الطعام، فتحتوي عليه وتغلق عليه الأبواب، وينضج بالحرارة التي تتعدى إليها من الأعضاء الأربعة، وهي الكبد من جانبها الأيمن، والطحال من جانبها الأيسر، والثَّرب^(٢) من أمامها، ولحم الصُّلب من خلفها، فيَنضِجُ الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق، ثم يَنصَبُ الطعام من العروق إلى الكبد، فيستقر فيها، ريثما يصلح له نُضِجٌ آخَرُ.

ثم يتفرق في الأعضاء، ويبقى منه نُفْلٌ ثم يندفع^(٣).
ولو أستوفينا الكلام في ذلك لطال.

وفي الآدمي من العضلات والعروق ما لا يُحصى، مُخْتَلِفٌ بالصُّغَر والكبر والدَقَّة والغِلْظ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة، وكل ذلك من الله سبحانه، ولو سكن من جملتها عِزْق متحرك، أو تحرك عرق ساكن، لَهَلَكْتَ يا مسكين.

فأنظر إلى نعم الله تعالى عليك، لتَقْوَى على الشكر، فإنك لا تعرف من نعمة الله تعالى إلا نعمة الأكل، وهي أَحْسُها، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل، والبهيمة أيضاً تعرف أنها تجوع وتأكل، وتتعب فتنام، وتستهي فتجامع، وإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار، فكيف تقوم بشكر الله تعالى؟! وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر من نعم الله تعالى، فِقِسْ على ذلك.

وجملة ما عرفنا وعرفه الخلق كلهم من نعم الله تعالى بالإضافة إلى ما لم

(١) والمَريء: مجرى الطعام والشراب، وهو رأس المعدة اللاصق بالحلقوم.

(٢) الثرب: شحم رقيق يلف الكرش والأمعاء والكبد.

(٣) والنفل: البقية التي لا خير فيها.

يعرفوه، أَقَلَّ من قطرة في بحر . قال الله تعالى: ﴿وَلِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤. النحل: ١٨].

فصل

وأعلم أن الأطعمة كثيرة مختلفة، والله تعالى في خلقها عجائب
[في نعم الله تعالى لا تُحصى .
في الأصول التي يحصل منها
الأطعمة...]

وهي تنقسم إلى أغذية وأدوية وفواكه وغيرها:
فنتكلم عن بعض الأغذية، فنقول: إذا كان عندك شيء من
الحنطة، فلو أَكَلْتَهَا لَفَنِيَتْ وَبَقِيَتْ جائعاً، فما أحوجك إلى عمل يُثْمِي به حب
الحنطة ويتضاعف، حتى يفي بتمام حاجتك، وهو زرعها، وهو أن تجعلها في
أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً، ثم لا يكفي الماء والتراب،
إذ لو تركت في الأرض نَدِيَّةً صُلْبَةً، لم تنبت، لفقد الهواء، فيحتاج إلى تركها
في أرض مُتَخَلِّخَةً يتغلغل الهواء فيها، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه، فيحتاج
إلى ريح تحرك الهواء، وتصرفه بقهر على الأرض، حتى ينفذ فيها، ثم كل
ذلك لا يغني، فيحتاج إلى حرارة الربيع والصيف، فإنه لو كان في البرد
المفرط لم ينبت.

ثم أنظر إلى الماء الذي تحتاج إليه هذه الزراعة كيف خلقه الله تعالى؟ فَجَرَّ
العيون وأجرى منها الأنهار، وَلَمَّا كان بعض الأرض مرتفعاً لا يَنَالُهُ الماء،
أرسل إليها الغيوم، وسلط عليها الرياح لتسوقها بإذنه إلى أقطار العالم، وهي
سُحْبٌ يُقَال، ثم يرسله على الأرض مِذْرَاراً في وقت الحاجة.

وأنظر كيف خلق الله الجبال حافظة للماء، تتفجر منها العيون تدريجاً، فلو
خرجت دفعة واحدة لغرقت البلاد وهلك الزرع وغيره.

وأنظر كيف سخر الشمس وخلقها، مع بُعْدِهَا عن الأرض، مُسَخَّنَةً لها في
وقتٍ دون وقت، ليحصل البرد عند الحاجة إليه، والحرُّ عند الحاجة إليه.

وخلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب، كما جعل من خاصية الشمس
التسخين فهو يُنْضِجُ الفواكه بتقدير الحكيم الخبير وكل كوكب خلق في السماء،

فهو مُسَخَّرٌ لنوع فائدة، كما سخرت الشمس والقمر، ولا يخلو كل واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها، وكذلك الشمس والقمر، فيهما حكم آخر غير ما ذكرنا لا تُحصى.

ولما كانت كل الأطعمة لا توجد في كل مكان، سخر الله تعالى الثُّجَارَ، وسلط عليهم الحرص على جمع المال، مع أنه لا يُغنيهم في غالب الأمر شيء، بل يجمعون الأموال، فإما أن تغرق بها السفن أو تنتهبها قُطَاعُ الطرق، أو يموتون في بعض البلاد، فتأخذها السلاطين، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم، وهم أشد أعدائهم لو عرفوا.

فأنظر كيف سلط الله عليهم الأمل والغفلة، حتى يقاسوا الشدائد في طلب الريح في ركوب البحار، وركوب الأخطار، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك.

وأعلم أن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة إلا للجهل والغفلة، فإنهم منعوا بذلك عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول أحدهم بلسانه: الحمد لله، والشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن تستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعة الله تعالى.

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب:

أحدها: أن الناس لجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على جملة مما ذكرناه من النعم، لأنها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى واحد منهم اختصاصاً به، فلا يعبده نعمة، فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أخذ بمَخَقِّهم لحظة حتى أنقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حبسوا في حَمَامٍ أو بئر ماتوا غَمّاً، فإن أبتلي أحدهم بشيء من ذلك ثم نجا، قدّر ذلك نعمة يشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل، إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة، ثم تردّ إليهم في بعض الأحوال، فالنعم في جميع الأحوال أولى بالشكر، فلا ترى البصير يشكر

[بيان السبب
الصارف للخلق
عن الشكر]

صحة البصر إلا أن يعمى، فإذا أعيد بصره أحسَّ بالنعمة وشكرها حينئذ وعَدَّها نعمة، وهو مثل عبد السوء يُضْرَب دائماً، فإذا ترك ضربه ساعة، شكر وتقلد ذلك مئة، وإن ترك ضربه أصلاً، غلبه البَطَر وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا على المآل الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم.

كما روي أن بعضهم شكوا فقره إلى بعض أرباب البصيرة، وأظهر شدة اغتمامه بذلك، فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا. قال: أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا. قال: أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً؟ قال: لا. قال: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف؟ قال: لا. قال: أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً.

وحكي عن بعض الفقراء أنه اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً. فرأى في المنام كأن قائلاً يقول له: أَتَوَدُّ أَنَا أَنْسِيَنَّكَ سورة الأنعام ولك ألف دينار؟ قال: لا. قال: فسورة هود؟ قال: لا. قال: فسورة يوسف؟ قال: لا. قال: فمعك قيمة مئة ألف دينار وأنت تشكو؟! فأصبح وقد سُرِّي عنه.

ودخل أبْن السَّمَاك على الرشيد في عِظَّة، فبكى ثم دعا بماء في قَدَح فقال: يا أمير المؤمنين! لو مُنِعَتْ هَذِهِ الشَّرْبَةُ إِلَّا بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتُ تُفْذِيهَا بِهَا؟ قال: نعم. قال: فَأَشْرَبُ رِيّاً، بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ. فلما شرب. قال له: يا أمير المؤمنين: أَرَأَيْتَ لَوْ مُنِعَتْ إِخْرَاجُ هَذِهِ الشَّرْبَةِ مِنْكَ إِلَّا بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتُ تَفْذِي ذَلِكَ؟ قال: نعم. قال: فما تصنع بشيء، شربة ماءٍ خير منه!

وهذا يبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها، ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم.

وهذه إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة:

أعلم أنه ما من عبدٍ إلا إذا أمعن النظر رأى عليه من نعم الله نعماً كثيرة لا

يشاركه فيها عموم الناس، بل قد يشاركه في ذلك كثير منهم، من ذلك العقل، فما من عبد إلا وهو راضٍ عن الله سبحانه في عقله، يعتقد أنه أعقل الناس، وقلما يسأل الله العقل، وإذا كان ذلك اعتقاده، فيجب عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك.

ومن ذلك الخلق، فإنه ما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها، وأخلاقاً يذمها، ويرى نفسه بريئاً منها، فينبغي أن يشكر الله تعالى على ذلك، حيث أحسن خلقه وأبتلى غيره.

ومن ذلك أنه ما من أحد إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أركانها ما هو منفرد به، ولو كُشِفَ الغطاء عنه حتى أطلع عليه أحد من الخلق لافتحض، فكيف لو أطلع الناس كافة؟ فلم لا يشكر الله بستر الجميل على مساويه، حيث أظهر الجميل وستر القبيح.

ولننزل إلى طبقة أعم من هذا القبيل، فنقول: ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته، أو أخلاقه، أو صفاته، أو أهله، أو ولده، أو مسكنه، أو بلده، أو رفيقه، أو أقاربه، أو سائر محابه أموراً، لو سلب ذلك وأعطي ما خصص به من ذلك غيره، لكان لا يرضى به، وذلك مثل أن جعله مؤمناً لا كافراً، وحيّاً لا جماداً، وإنساناً لا بهيمة، وذكراً لا أنثى، وصحيحاً لا مريضاً، وسليماً لا معيماً، فإن كل هذه خصائص.

فإن كان لا يرى أن يبدل حاله بحال غيره، مثل ألا يعرف شخصاً يرتضي لنفسه حاله بدلاً عن حال نفسه، إما على الجملة، أو في أمر خاص، فإن الله عليه نعماً ليست له على أحد من عباده سواه، وإن كان يرى أنه يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون بعض، فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده، فإنه يراهم عنده لا محالة أقل من غيرهم، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير ممن فوقه، فما باله ينظر إلى من فوقه ولا ينظر إلى من دونه؟!

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن

فضل عليه^(١) . وقد رواه الترمذي بلفظ آخر : «انظروا إلى من هم أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم ، فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»^(٢) .

فإن من اعتبر حال نفسه ، وفتش على ما خُصَّ به ، وجد لله تعالى عليه نِعْماً كثيرة ، لا سيما من خُصَّ بالإيمان ، والقرآن ، والعلم ، والسنة ، ثم الفراغ ، والصحة والأمن ، وغير ذلك .

وقد روي في بعض الأحاديث : «من قرأ القرآن فهو غني» وفي لفظ : «القرآن غني لا فقر بعده ، ولا غنى دونه»^(٣) .

وفي حديث آخر : «من أصبح آمناً في سربه مُعافى في بدنه ، وعنده قوت يومه ، فكأنما حيزت الدنيا له بِحَذَافِيرِهَا»^(٤) .

وقال بعضهم شعراً :

إذا ما القوتُ يأتي لك والصحة والأمن^(٥)
وأصبحت أخا حزنٍ فلا فارقك الحزن

فإن قيل : فما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله تعالى؟ =

= فالجواب : أما القلوب المبصرة ، فتأمل ما رمز إليه من أصناف نعم الله ﷻ ، وأما القلوب البليدة التي لا تَعُدُّ النعمة نعمة ، إلا إذا نزل بها البلاء ، فسييل صاحبها أن ينظر أبداً إلى من دونه ، ويفعل ما كان يفعله بعض القدماء ،

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٠) ومسلم (٢٩٦٣) .

(٢) متفق عليه ، سلف تخريجه في الصفحة (٢٥٣) حاشية (١) .

(٣) رواه أبو يعلى وابن نصر عن أنس . وهو في «ضعيف الجامع» (٤١٣٤) ، و«الضعيفة» (١٥٥٨) .

(٤) رواه ابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٤٠/٤١٤١)] ، والترمذي [«صحيحه» (١٩١٣/٢٣٤٧)] عن عبيد الله بن محصن الأنصاري . وهو في «صحيح الجامع» (٦٠٤٢) .

(٥) البيتان لأبي العتاهية كما في ديوانه الصفحة ٤٢٥ وقد اختلفت روايتهما في كل النسخ المخطوطة وفي إحدى المخطوطات جاء البيت الأول كما يلي :

إذا ما القوت يأتيك كذاك الصبح والأمن
في الثانية : في الصحة والأمن !

فإنه كان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع البلاء عليهم، ثم يتأمل صحته وسلامته، ويشاهد الجناة الذين يقتلون، وتقطع أيديهم وأرجلهم ويعذبون، فيشكر الله على سلامته من تلك العقوبات، ويحضر المقابر، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يُردّوا إلى الدنيا، ليتدارك مَنْ عصا: عصيانه، وليزيد في الطاعة: من أطاع، فإن يوم القيامة ﴿يَوْمُ النَّفَاثَةِ﴾ [التغابن: ٩] فإذا شاهد المقابر، وعلم أحب الأشياء إليهم، فليصرف بقية عمره في طاعة الله تعالى وشكره في الإمهال، بأن يصرف العمر إلى ما خلق لأجله، وهو التزود للآخرة.

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن يعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت.

كان الفضيل رحمته الله يقول: عليكم بمداومة الشكر على النعم، فَقَلَّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم.

فصل في بيان اجتماع الصبر

والشكر على وجه واحد

لعلك تقول: قد ذكرت أن الله تعالى في كل موجود نعمة، ولهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً، فما معنى الصبر، وإن كان البلاء موجوداً، فما معنى الشكر على البلاء؟ وكيف يجتمع الصبر والشكر؟! فإن الصبر يستدعي ألماً، والشكر يستدعي فرحاً، وهما مُتَضَادَّان، فأعلم أن البلاء موجود، كما أن النعمة موجودة، وأنه ليس كل بلاء يُؤْمَرُ بالصبر عليه، مثل الكفر، فإنه بلاء، ولا معنى للصبر عليه، وكذا المعاصي، إلا أن الكافر لا يعلم أن كفره بلاء، فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بها بسبب غشيته، والعاصي يعرف عصيانه، فعليه ترك المعصية، وكل بلاء يقدر الإنسان على دفعه لا يؤمر بالصبر عليه، فلو ترك شرب الماء مع العطش حتى عظم ألمه، لم يؤمر على ذلك، بل يؤمر بإزالة الألم، وإنما يكون الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته، فإذا يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق بل يجوز أن يكون نعمة من وجه،

فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الشكر ووظيفة الصبر، فإن الغنى مثلاً يجوز أن يصير سبب هلاك الإنسان، حتى يقصد قتله بسبب ماله، والصحة أيضاً كذلك، فما من نعمة من نعم الدنيا إلا ويجوز أن تصير بلاء. وقد يكون على العبد في بعض الأمور بلاء وفيه نعمة.

مثال ذلك: جهل الإنسان بأجله، فإنه نعمة عليه، إذ لو عرفه تنغص عليه العيش، وطال بذلك غمه، وكذلك جهله بما يُضْمِرُهُ بعض الناس له، إذ لو أطلع عليه لَطَالَ أَلَمُه وحقده وحسده وأشتغاله بالانتقام، وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره، إذ لو عَرَفَ منه ذلك، أبغضه وآذاه، فكان ذلك وبِالْأَعْيُنِ عليه. ومن ذلك إيهام القيامة، وليلة القدر، وساعة الجمعة، وكل ذلك نعمة، لأن الجهل يوفر الدواعي على الطلب والاجتهاد، فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل، فكيف في العلم؟!

وقد قلنا: إن الله سبحانه في كل موجود نعمة، حتى إن الآلام قد تكون نعمة في حق المتألم، وقد تكون نعمة في حق غيره، كآلم الكفار في النار في الآخرة، فإنه نعمة في حق أهل الجنة، إذ لو لم يعذب قوم، ما عرف المتنعمون قدر نعيمهم، وإنما يتضاعف فرح أهل الجنة إذا ذكروا ألم أهل النار، ألا ترى أن أهل الدنيا لا يَشْتَدُّ فرحهم بنور الشمس، مع شدة حاجتهم إليها من جهة أنها عامة مبذولة، ولا بالنظر إلى زينة السماء، وهي أحسن من كل نبت، لأنها عامة، فلذلك لم يشعروا بها، ولم يفرحوا بسببها، فإذا صح قولنا: إن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ونعمة، إما على جميع العباد، أو على بعضهم، ففي خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً، إما على المُبْتَلَى، أو على غيره، فيجتمع على العبد وظيفة الشكر والصبر في كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق، ولا نعمة مطلقة، فإن الإنسان قد يفرح بالشيء الواحد من وجه، ويغتم به من وجه، فيكون الصبر من حيث الأغتمام، والشكر من حيث الفرح.

وأعلم أن في كل فقر، ومرض وخوف، وبلاء في الدنيا، خمسة أشياء ينبغي أن يفرح العاقل بها، ويشكر عليها:

أحدها: أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون عليه أكثر منها، لأن مقدرات الله تعالى لا تنأى، فلو أضعفها الله ﷻ على العبد، فما كان يمنعه؟ فليشكر إذ لم يكن أعظم.

الثاني: أن المصيبة لم تكن في الدين.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما أبتليت ببلاء إلا كان الله تعالى عليّ فيه أربع نعم. إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه.

قال رجل لسهل بن عبد الله: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي، فقال: اشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك، ماذا كنت تصنع؟ ومن استحق أن يضربك مئة سوط فاقصر على عشرة، فهو مستحق للشكر.

الثالث: أن ما من عقوبة إلا كان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة، ومصائب الدنيا يتسلى عنها فتخف، ومصيبة الآخرة دائمة، وإن لم تدم، فلا سبيل إلى تخفيفها، ومن عجلت عقوبته في الدنيا لم يعاقب ثانياً، كذا ورد في الحديث^(١) عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي «صحيح مسلم» أن «كل ما يصاب به المسلم يكون كفارة» له، «حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها»^(٢).

الرابع: أن هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب، ولم يكن بد من وصولها إليه، فقد وصلت وأستراح منها، فهي نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها، فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة، كما يكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي، فإنه لو خلى واللعب، لكان يمنعه ذلك من العلم والأدب، فكان يخسر طول عمره، وكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء، قد تكون سبباً لهلاكه، فالملاحدون غداً يتمنون

(١) نحوه في «صحيح سنن النسائي» (٣٩٢٦)، والدارمي ٢/ ٢٢٠، وفي «الصحيحين»

شبهه، كلهم عن عبادة بن الصامت.

(٢) هو في مسلم (٢٥٧٤).

أن لو كانوا مجانين وصبياناً، ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد، إلا ويتصور أن يكون له في ذلك خيرة دينية، فعليه أن يحسن الظن بالله ﷻ، ويقدر الخيرة فيما أصابه ويشكر الله تعالى عليه، فإن حكمة الله تعالى واسعة، وهو أعلم بمصالح العباد منهم، وغداً يشكره العباد على البلاء إذا رأوا ثوابه، كما يشكر الصبي بعد البلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه، إذا رأى ثمرة ما أستفاد من التأديب. والبلاء تأديب من الله تعالى، ولطفه بعباده أتم وأوفى من عناية الآباء بالأولاد.

وفي الحديث: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له»^(١).

وأيضاً، فأعلم أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عنها، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تُورث طمأنينة القلب إلى الدنيا والأنس بها، فإذا كثرت المصائب أنزعج القلب عن الدنيا ولم يركن إليها، فصارت سجناً له، فكانت نجاته منها غاية المراد كخلاص المسجون من السجن.

وأما التألم فهو ضروريٌ وذلك يضاهي فرحك بمن يحجمك أو يسقيك دواءً نافعاً بلا أجر، فإنك تتألم وتفرح، فتصبر على الألم، وتشكر على سبب الفرح، فمن عرف هذا، تصور منه أن يشكر على البلاء، ومن لا يؤمن أن ثواب المصيبة أكثر منها لم يتصور منه الشكر على المصيبة.

وقد روي أن أعرابياً عَزَى ابن عباس ﷺ بأبيه فقال:

أَصْبِرْ نَكُنْ بِكَ صَابِرِينَ فَإِنَّمَا صَبْرُ الرَّعِيَّةِ عِنْدَ صَبْرِ الرَّأْسِ
خَيْرٌ مِنَ الْعَبَّاسِ صَبْرُكَ بَعْدَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ لِلْعَبَّاسِ

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عَزَانِي أَحَدٌ أَحْسَنَ مِنْ تَعَزِيَّتِهِ.

وقد سبق ذكر أنواع البلاء، وثواب الصبر عليها.

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٢١٤٣) بنحوه عن أنس. وأخرج معناه مسلم (٢٩٩٩) عن صهيب.

إن قال قائل : الأخبار الواردة في فضل الصبر تدل على أن البلاء في الدنيا خير من النعيم ، فهل لنا أن نسأل الله ﷻ البلاء ؟ = [بيان فضل النعمة على

= فالجواب : أنه لا وجه لذلك ، فإن في الحديث من رواية أنس ، أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين صار مثل الفرخ ، فقال له رسول الله ﷺ : «هل كنت تدعو بشيء ، أو تسأله؟» . قال : نعم . كنت أقول : اللهم ما كنت مُعاقبي به في الآخرة ، فعَجَلْهُ لي في الدنيا ، فقال رسول الله ﷺ : «سبحان الله ! لا تُطيقه ولا تستطيعه ، فهَلَّا قلت : اللهم ﴿إِنكَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَاكَ الْغَنَاءُ﴾ [البقرة]»^(١) .

ومن حديث أنس رضي الله عنه أيضاً ، أن رجلاً قال : يا نبي الله : أي الدعاء أفضل؟ قال : «سَلِ الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة» ثم أتاه الغد . فقال : يا رسول الله : أي الدعاء أفضل؟ قال : «سَلِ الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة» ، ثم أتاه اليوم الثالث : فقال : «سَلِ الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، فإن أعطيت العفو والعافية في الدنيا والآخرة فقد أفلحت»^(٢) .

وفي «الصحيحين» أنه ﷺ قال : «تعوذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء»^(٣) .

وقال مُطَرِّف : لأن أعافى فأشكر ، أحب إلي من أن أبتلى فأصبر .

فصل في بيان أيهما أفضل الصبر أم الشكر

واختلف الناس ، هل الصبر أفضل من الشكر ، أو بالعكس؟ وفي ذلك كلام طويل ، ذكره المصنف رحمه الله .

وتلخيص القول فيه : أن لكل واحد من الصبر والشكر درجات :

- (١) رواه مسلم (٢٦٨٨) ، والترمذي [«صحيحه» (٣٤٨٧/٢٧٧٣)] .
- (٢) هو في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٣٨٤٨/٨٣٩) .
- (٣) رواه البخاري (٦٦١٦) من قوله ، ومسلم (٢٧٠٧) من فعله ﷺ ، عن أبي هريرة . وهو في «صحيح الجامع» (٢٩٦٨) ، و«الصحيحه» (١٥٤١) .

فأقل درجات الصبر، ترك الشكوى مع الكراهة، ووراءها الرضا، وهو مقام وراء الصبر، ووراء ذلك الشكر على البلاء وهو وراء الرضا.

ودرجات الشكر كثيرة، فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه: شكر، ومعرفته بتقصيره عن الشكر: شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وستره: شكر، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله بغير استحقاق: شكر، والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله: شكر، وحسن التواضع في النعم والتذلل فيها: شكر، وشكر الوسائط: شكر، لقوله ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»^(١) وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المُنعم: شكر، وتلقي النعم بحسن القبول وأستعظام صغيرها: شكر. فما يندرج من الأعمال والأقوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر، وهي درجات مختلفة، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر؟

لكن نقول: إذا أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف المال إلى الطاعة فالشكر أفضل، لأنه تضمن الصبر أيضاً، وفيه فرح بنعمة الله ﷻ، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء، وترك صرفه إلى التمتع المباح، فهو أفضل من الصبر بهذا الاعتبار.

وأما إذا كان شكر المال ألا يستعين به على معصية، بل يصرفه إلى التمتع المباح، فالصبر هنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من المُمسِكِ ماله الصارِف له في المباحات، لأن الفقير قد جاهد نفسه وأحسن الصبر على بلاء الله تعالى.

وجميع ما ورد من تفضيل أجزاء الصبر على الشكر، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص، لأن السابق إلى أفهام الناس من نعمة الأموال، والغنى بها، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان: الحمد لله.

فإذاً الصبر الذي يعتمد عليه العامة أفضل من هذا الشكر الذي يفهمونه.

(١) صحيح، سلف تخريجه في الصفحة (٥٠) حاشية (١).

ومتى لحظت المعنى الذي ذكرناه، علمت بأن لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال، فَرُبَّ فقير صابر أفضل من غني شاكِر كما ذكر، وَرُبَّ غني شاكِر أفضل من فقير صابر، وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير الذي لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة، ويصرف الباقي في الخيرات، أو يمسكه على اعتقاده أنه خازن للمحتاجين، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها، وإذا صرفه لم يصرفه لطلب جاه ولا تقليد مِثَّة، فهذا أفضل من الفقير الصابر.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

٢٤ - كِتَابُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ

أَعْلَمُ أَنَّ الرَّجَاءَ وَالْخَوْفَ جَنَاحَانِ، بِهِمَا يَطِيرُ الْمُقَرَّبُونَ إِلَى كُلِّ مَقَامٍ مَحْمُودٍ، وَمَطِيئَتَانِ بِهِمَا يَقْطَعُ مِنْ طَرِيقِ الْآخِرَةِ كُلَّ عَقْبَةٍ كَوُودٍ، وَلَا بَدَّ مِنْ بَيَانِ حَقِيقَتِهِمَا وَفَضِيلَتِهِمَا وَسَبَبِهِمَا، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ. وَنَحْنُ نَذْكُرُهُمَا فِي شَطْرَيْنِ:

الأول: فِي الرَّجَاءِ. والثاني: فِي الْخَوْفِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الرَّجَاءَ مِنْ جَمَلَةِ مَقَامَاتِ السَّالِكِينَ وَأَحْوَالِ الطَّالِبِينَ، وَإِنَّمَا [بيان حقيقة الرجاء] يُسَمَّى الْوَصْفَ مَقَاماً إِذَا ثَبَتَ وَأَقَامَ، فَإِنْ كَانَ عَارِضاً سَرِيعَ الزَّوَالِ سُمِّيَ حَالاً، كَمَا أَنَّ الصَّفْرَةَ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَابِتَةٍ، كَصَفْرَةِ الذَّهَبِ، وَإِلَى سَرِيعَةٍ، كَصَفْرَةِ الْوَجَلِ، وَإِلَى مَا بَيْنَهُمَا، كَصَفْرَةِ الْمَرَضِ، وَكَذَلِكَ صِفَاتُ الْقَلْبِ تَنْقَسِمُ إِلَى هَذِهِ الْأَقْسَامِ، وَإِنَّمَا سَمِيَ غَيْرُ الثَّابِتِ حَالاً، لِأَنَّهُ يَحُولُ عَنِ الْقَلْبِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا يَلَاقِيكَ مِنْ مَحْبُوبٍ أَوْ مَكْرُوهٍ يَنْقَسِمُ إِلَى مَوْجُودٍ فِي الْحَالِ، وَإِلَى مَوْجُودٍ فِيْمَا مَضَى. فَالْأَوَّلُ: يُسَمَّى وَجْداً وَذَوْقاً وَإِدْرَاكاً. والثاني: يُسَمَّى ذِكْراً.

وَإِنْ كَانَ قَدْ خَطَرَ بِبَالِكَ شَيْءٌ فِي الْاسْتِقْبَالِ، وَغَلَبَ عَلَى قَلْبِكَ، سُمِّيَ أَنْتِظَاراً، وَتَوَقُّعاً، فَإِنْ كَانَ الْمُنْتَظَرُ مَحْبُوباً، سُمِّيَ رَجَاءً، وَإِنْ كَانَ مَكْرُوهاً، سَمِيَ خَوْفاً.

فَالرَّجَاءُ: هُوَ أَرْتِيَاخٌ لِأَنْتِظَارِ مَا هُوَ مَحْبُوبٌ عِنْدَهُ، وَلَكِنْ ذَلِكَ الْمَتَوَقَّعُ لَا بَدَّ لَهُ مِنْ سَبَبٍ حَاصِلٍ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ السَّبَبُ مَعْلُومَ الْوُجُودِ وَلَا مَعْلُومَ الْإِنْتِفَاءِ، سَمِيَ تَمَنِّيًّا، لِأَنَّهُ أَنْتِظَارٌ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ. وَلَا يَطْلُقُ اسْمُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ إِلَّا عَلَى مَا يُتَرَدَّدُ فِيهِ، فَأَمَّا مَا يُقْطَعُ بِهِ فَلَا، إِذْ لَا يَقَالُ: أَرْجُو طُلُوعَ الشَّمْسِ وَأَخَافُ غُرُوبَهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ مَقْطُوعٌ بِهِ عِنْدَ طُلُوعِهَا وَغُرُوبِهَا، وَلَكِنْ يَقَالُ: أَرْجُو نَزُولَ الْمَطَرِ وَأَخَافُ أَنْقِطَاعَهُ.

وقد علم أرباب القلوب :

أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالْبَذَرِ فيه، والطاعات جارية مَجْرَى تنقية الأرض وتطهيرها، وَمَجْرَى حفر الأنهار ومساقى الماء إليها .

وأن القلب المستغرق بالدنيا، كالأرض السَّبخة التي لا ينمو فيها البَذَرُ .
ويوم القيامة هو يوم الحَصَاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بَذَرَ الإيمان، وَقُلْ أن ينفع إيمانٌ مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو البَذَرُ في الأرض السَّبخة .

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيبة، وألقى فيها بَذْراً جيداً غير مُسْوَس ولا عَفِنٍ، ثم ساق إليها الماء في أوقات الحاجة، ونَقَّى الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع، ثم جلس ينتظر من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، فهذا يُسَمَّى أُنْتَظَرَهُ رجاء .

فأما إن بذر في أرض سَبْخة ضُلْبة مرتفعة لا يَصِلُ إليها الماء ولم يتعاهدها أصلاً، ثم أُنْتَظَر الحصاد، فهذا يُسَمَّى أُنْتَظَرَهُ حمقاً وغروراً، لا رجاء .
وإن بَثَّ البذر في أرض طيبة، ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار، سمي أُنْتَظَرَهُ تمنياً لا رجاء .

فإِذَا: أَسْم الرجاء إنما يصدق على أُنْتَظَر محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس إلى اختياره، وهو فضل الله سبحانه، بصرف الموانع المفسدات، فالعبد إذا بَثَّ بَذْر الإيمان، وسقاه ماء الطاعات، وطَهَّر القلب من شوك الأخلاق الرديئة، وأُنْتَظَر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المُفضية إلى المغفرة، كان أُنْتَظَرَهُ لذلك رجاء محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات، والقيام بمُقْتَضَى الإيمان إلى الموت، وإن قَطَعَ بَذْر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وأنهمك في طلب لذات الدنيا، ثم أُنْتَظَر المغفرة، كان ذلك حمقاً وغروراً . قال الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ

عَرَضَ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴿[الأعراف: ١٦٩]. وذم القائل: ﴿وَلَكِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿٣٦﴾ [الكهف].
 وروى شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْكَيْسُ ^(١) مَنْ دَانَ ^(٢) نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ ^(٣) نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي» ^(٤).

وقال مَغْرُوفُ الْكَزْخِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رجاؤك لرحمة مَنْ لَا تَطِيعُهُ خِذْلَانٌ وَحُمُقٌ. وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]. المعنى: أولئك الذين يستحقون أن يرجوا، ولم يُرَدَّ به تخصيص وجود الرجاء، لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ذلك. وأعلم أن الرجاء محمود، لأنه باعث على العمل، واليأس مذموم، لأنه صارف عن العلم، إذ من عرف أن الأرض سَبْخَةٌ، وأن الماء مُعْوَرٌ، وأن البَذْر لا ينبت، ترك تفقد الأرض، ولم يتعب في تعاهدها. وأما الخوف، فليس بضد الرجاء، بل رفيق له، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وحال الرجاء يورث طريق المجاهدة بالأعمال، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله ﷻ، والتنعم بمناجاته، والتلطف في التملق له، فإن هذه الأحوال لا بد أن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك، أو شخصاً من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله ﷻ؟ فمتى لم يظهر أَسْتَدِلَّ به على جِزْمَانِ مقام الرجاء، فمن رجا أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور.

(١) أي: العاقل.

(٢) أي: أذلها وأستعبدها، وقيل: حاسبها.

(٣) أي: جعل نفسه تابعة للهوى تأتمر بأمرها.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٠٩٤)، والترمذي [«ضعيفه» (٢٤٥٩/٤٣٦)]، وابن ماجه

[«ضعيفه» (٤٢٦٠/٩٣٠)]. وهو في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥)، و«المشكاة»

(٥٢٨٩).

فصل في فضيلة الرجاء

روي في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «قال الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي» وفي رواية أخرى: «فليظن ظان ما شاء»^(١).

وفي حديث آخر من رواية مسلم: أن النبي ﷺ قال: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»^(٢).

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: أَجِبْنِي، وَأَجِبْ من يحبني، وحبيني إلى خلقي. قال: يا رب: كيف أحبيك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، وأذكر آلائي وإحساني.

وعن مجاهد رضي الله عنه قال: يُؤْمَرُ بالعبد يوم القيامة إلى النار، فيقول: ما كان هذا ظني. فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أن تغفر لي، فيقول: خَلُّوا سبيله.

فصل في دواء الرجاء والسبب الذي يحصل به

أعلم أن دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان:

إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة.

وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضُرَّ بنفسه وأهله.

فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة، فلا ينبغي أن يُستعمل في حقه إلا أدوية الخوف، فإن أدوية الرجاء تُقَلِّبُ في حقه سموماً، كما أن العسل شفاء لمن غلبت عليه البرودة، مضرٌ لمن غلبت عليه الحرارة.

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، والترمذي [«صحيحه» (٢٨٤٩) / (٣٦٠٦)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٨٢٢/٣٠٨٠)]. وهو في «الصحيحه» (٢٢٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٧)، وأحمد (١٤١٠٨ و ١٤٤٦٥ و ١٤٥١٦ و ١٤٥٦٤ و ١٥١٧٨)، وأبو داود [«صحيحه» (٣١١٣/٢٦٧٠)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٦٠/٤١٦٧)] عن جابر. وهو في «صحيح الجامع» (٧٧٩٩).

ولهذا يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً، ناظراً إلى موضع العلل، معالِجاً كل علة بما يليق بها، وهذا الزمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في التخويف، وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استِمالة القلوب إليه، لإصلاح المَرْضَى.

وقد قال عليٌّ عليه السلام: إنما العالم الذي لا يُقْنِطُ الناسَ من رحمة الله، ولا يُؤْمِنُهُمْ مَكْرُ الله.

إذا عرفت هذا، فأعلم أن من أسباب الرجاء، ما هو من طريق الاعتبار، ومنها ما هو من طريق الأخبار:

أما الاعتبار، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه من أصناف النعم في (كتاب: الشكر)، فإذا علم (لطائف الله تعالى بعباده في الدنيا، وعجائب حكيمته التي راعاها في فطرة الإنسان، وأن لطفه الإلهي: لم يَقْصُرْ عن عباده في دقائق مصالحهم في الدنيا، ولم يَرْضَ أن تفوتَهُمُ الزيادات في الرتبة): فكيف يَرْضَى سياقتهم إلى الهلاك المؤبد؟! فإن من لطف في الدنيا يلطف في الآخرة، لأن مُدَبِّرَ الدارين واحدٌ.

وأما استقراء الآيات والأخبار، فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَكَةُ يُسْحِنُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤].

وأخبر تعالى أنه أعدَّ النار لأعدائه، وإنما خَوَّفَ بها أوليائه، فقال: ﴿هَلُمَّ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣]. وقال: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [١٤] لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) [الليل]. وقال تعالى: ﴿وَلِإِنَّ رَيْكَ لَدُوْ مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

ومن الأخبار: ما روى أبو سعيد الخُدْرِيُّ رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «إن إبليس قال لربه عز وجل: بعزتك وجلالك، لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم. فقال الله ﷻ: فبعزتي وجلالي، لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني»^(١).

وعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«والذي نفسي بيده، لو لم تذنّبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم»^(٢). رواه مسلم.

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «سدّدوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يَدْخُلَ أحدًا الجنة عمله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتَغَمَّدَنِي اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَتِهِ»^(٣).

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ ؓ، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم! قم فأبعث بعث النار، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، يا رب! وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تِسْعُمِئَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، فحينئذ يشيب المولود، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج] فشق ذلك على الناس، حتى تغيرت وجوههم. وقالوا: يا رسول الله! وأين ذلك الواحد: فقال ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تِسْعُمِئَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، ومنكم واحد» فقال الناس: الله أكبر. فقال النبي ﷺ: «والله إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، والله إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، والله إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة». فكبر الناس، فقال:

(١) أخرجه أحمد (١١٢٣٠ و ١١٣٥٣).

(٢) هو في مسلم (٢٧٤٩)، وأحمد (٨٠٦٣)، والترمذي [«صحيحه» (٢٥٢٦/٢٠٥٠)].

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨)، وأحمد (٢٤٩٣٢). وفي الباب عن

أبي هريرة - وقد مر في الصفحة (٢٩٣) حاشية (١) - وجابر. وهو في «صحيح

الجامع الصغير وزيادته» (٣٦٢٨).

«ما أنتم يومئذ في الناس إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض»^(١).

فأنظر كيف جاء بالتخويف، فلما أزعج جاء باللفظ، ومتى أطمأنت القلوب إلى الهوى فينبغي أن تزعج، فإذا أشد قلقها، ينبغي أن تسكن ليعتدل الأمر. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ليغفرن الله ﷻ يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر.

وروي أن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فلم يضيفه وقال: (إن أسلمت، أضفتك)، فأوحى الله تعالى إليه: (يا إبراهيم منذ تسعين سنة أطعمه على كفرة).

فسعى إبراهيم عليه السلام خلفه، فردّه وأخبره في الحال، فتعجب من لطف الله تعالى، فأسلم.

فهذه الأسباب التي تجتلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين واليائسين. فأما الحمقى المغرورون، فلا ينبغي أن يسمّعوا شيئاً من ذلك، بل يسمعون ما سُورده في أسباب الخوف، فإن أكثر الناس لا يصلحون إلا على ذلك، كعبد السوء الذي لا يستقيم إلا بالعصا.

الشرط الثاني من الكتاب في الخوف

وحقيقته وبيان درجاته وغير ذلك

أعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب وأحتراقه بسبب توقع مكروه في [بيان حقيقة الخوف] الاستقبال.

مثال ذلك: من جنى على ملك جنابة، ثم وقع في يده، فهو يخاف القتل، ويجوز العفو، ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢٢).

المفضية إلى قتله، وتفاحش جنايته، وتأثيرها عند الملك، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف. وقد يكون الخوف لا عن سببٍ جنائية، بل عن صفة المُخَوِّف وعظمته وجلاله، إذ قد علم أن الله سبحانه، لو أهلك العالمين لم يبال، ولم يمنعه مانع، فبحسب معرفة الإنسان (بعبوب نفسه، وبجلال الله تعالى وأستغنائها، وأنه ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢١] يكون خوفه.

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قال النبي ﷺ: «أَنَا أَعْرِفُكُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً»^(١). وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وإذا كَمِلَتِ المعرفة، أَثَرَتِ الخوف، ففاض أثره على القلب، ثم ظهر على الجوارح والصفات بالنحول والأصفرار والبكاء والعُشْيِ، وقد يفضي إلى الموت، وقد يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل.

وأما ظهور أثره على الجوارح، فَبَكَّفَهَا عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، تلافياً لما فرط، واستعداداً للمستقبل.

قال بعضهم: «من خاف أَدْلَجَ»^(٢).

وقال آخر: ليس الخائف مَن بَكَى، إنما الخائف من ترك ما يَقْدِرُ عليه.

ومن ثمرات الخوف، أنه يقمع الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيهِ إذا علم أن فيه سُماً، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقْد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة، والمحاسبة، والمجاهدة، والضئنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذه النفس في الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال من وقع في مخالف سبع

(١) أخرجه البخاري (٧٣٠١)، وينحوه عند مسلم (٢٣٥٦). وهو في «صحيح الجامع» (٥٥٧٣)، و«الصحيحة» (٣٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي [«صحيحه» (٢٤٥٠/١٩٩٣)] عن أبي هريرة.

ضار لا يدري أيغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلكه، ولا شغل له إلا ما وقع فيه، فْقُوَّةُ المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال، أن يمنع المحظورات، فإن مَنَعَ ما يتطرق إليه إمكان التحريم، سمي وَرَعاً، وإنْ أُنْضَمَ إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش، فهو الصدق.

فصل

أعلم أن الخوف سَوَظُ الله تعالى، يسوق به عباده إلى المواظبة [بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف] على العلم والعمل، لينالوا بها رتبة القُرْبِ من الله تعالى. والخوف: له إفراط، وله اعتدال، وله قصور:

والمحمود من ذلك: الاعتدال، وهو بمنزلة السوط للبهيمة، فإن الأصلح للبهيمة ألا تخلو عن سوط، وليس المبالغة في الضرب محمودة، ولا المتقاصر عن الخوف أيضاً محموداً، وهو كالذي يخطر بالبال عند سماع آية، أو سبب هائل، فيورث البكاء، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس، رجع القلب إلى الغفلة، فهو خوف قاصر قليل الجدوى، ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف الذي يضرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألماً مُبْرِحاً، فلا يسوقها إلى المَقْصِد، ولا يصلح لرياضتها، وهذا هو الغالب على الناس كلهم، إلا العارفين والعلماء، أعني العلماء بالله وبآياته، وقد عز وجودهم. وأما المرتسمون برسوم العلم، فإنهم أبعد الناس عن الخوف.

وأما القسم الأول، وهو الخوف المُفْرِط، فهو كالذي يَقْوَى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، فهو أيضاً مذموم، لأنه يمنع من العمل، وقد يخرج إلى المرض والوَلَه والموت، وليس ذلك محموداً، وكل ما يراد لأمر، فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو

يجاوزه، فهو مذموم، وفائدة الخوف: الحذر، والورع، والتقوى، والمجاهدة والفكر، والذكر، والتعبد وسائر الأسباب التي توصل إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة، مع صحة البدن وسلامة العقل، فإذا قدح في ذلك شيء، كان مذموماً.

فإن قيل: فما تقول في من مات من الخوف؟

فالجواب: أنه ينال لموته على تلك الحال مرتبة لا ينالها لو مات من غير خوف. إلا أنه لو عاش وترقى إلى درجات المعارف والمعاملة، كان أفضل، فإن أفضل السعادة طول العمر في طاعة الله تعالى، فكل ما أبطل العمر والعقل والصحة فهو نقصان وخُسران.

بيان أقسام الخوف

أعلم أن مقامات الخائفين تختلف، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعيم، أو خوف الميل عن الاستقامة، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة، وأعلى من هذا خوف السابقة، لأن الخاتمة فرع السابقة، والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة، ويضع من يشاء من غير وسيلة، ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقد قال: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي»^(١).

ومن أقسام الخائفين، من يخاف سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر.

ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدي الله تعالى، والخوف من المناقشة، والعبور على الصراط، والخوف من النار وأهوالها، أو حرمان الجنة، أو الحجاب عن الله ﷻ، وكل هذه الأسباب مكروهة في أنفسها، مخوفة.

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفين، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدین.

(١) قطعة من حديث أخرجه الإمام أحمد في «المسند» ٢٣٩/٥ (٢٢٠٧١) عن معاذ.

فصل في فضيلة الخوف والرجاء

وما ينبغي أن يكون الغالب منهما

فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة . وهي لقاء الله تعالى ،
والقرب منه ، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة . قال الله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ شَاقَّ
مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ ﴾ [الرحمن] . وقال تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ
لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة] .

وفي الحديث ، عن النبي ﷺ أنه قال :

«إِذَا أَقْسَعَرَ جِلْدُ الْعَبْدِ مِنْ خِيفَةِ اللَّهِ ﷻ تَحَاثَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ ، كَمَا يَتَحَاثُّ عَنْ
الشَّجَرَةِ الْيَابِسَةِ وَرَقُهَا»^(١) .

وفي حديث آخر : «لَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ كَانَ فِيهِ خِيفَةٌ»^(٢) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «قال الله عز وجل :

(وَعَزَّيْتُ وَجَلَالِي ، لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفِينَ ، وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ ، إِنْ أَمِنَنِي
فِي الدُّنْيَا ، أَخَفَّتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنْ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا ، أَمَّتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)»^(٣) .

وعن ابن عباس ؓ عن النبي ﷺ أنه قال : «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ أَبَدًا :
عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٤) .

وأعلم أن قول القائل : (أيما أفضل : الخوف ، أو الرجاء؟)

كقوله : أيما أفضل الخبز أو الماء؟

الرجاء أو اعتدالهما] ^{[بيان أن الأفضل هو} وجوابه : أن يقال : الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان

(١) رواه الطبراني عن العباس . وهو في «ضعيف الجامع الصغير وزيادته» (٣٩١) ،
و«الضعيفة» (٢٣٤٢) .

(٢) لم أره في المراجع التي بين يدي .

(٣) رواه ابن حبان عن أبي هريرة ، وأبو نعيم عن شداد بن أوس . وهو في «صحيح
الجامع» (٤٣٣٢) .

(٤) انظر «صحيح الترمذي» (١٦٣٩/١٣٣٨) طبع مكتب التربية العربي بإشرافي . وهو
في «صحيح الجامع» (٤١١١-٤١١٣) .

أفضل، فإن اجتمع، نظر إلى الأغلب، فإن استويا، فهما متساويان، والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله، فالخوف أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط، فالرجاء أفضل، ويجوز أن يقال مطلقاً: الخوف أفضل، كما يقال: الخبز أفضل من السكنجبين، لأن الخبز يعالج به مرض الجوع، والسكنجبين يعالج به مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثر، فالحاجة إلى الخبز أكثر، فهو أفضل بهذا الاعتبار، لأن المعاصي والأغترار من الخلق: أغلب.

وإن نظرنا إلى موضع الخوف والرجاء، فالرجاء أفضل، لأن الرجاء يستقي من بحر الرحمة، والخوف يستقي من بحر الغضب. وأما المتقي، فالأفضل عنده اعتدال الخوف والرجاء، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه، لأعتدلا.

قال بعض السلف: لو نودي: ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل. ولو نودي: ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل.

وهذا ينبغي أن يكون مختصاً بالمؤمن المتقي.

فإن قيل: كيف اعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن، وهو على قدم التقوى، فينبغي أن يكون رجاءه أقوى؟ =

= فالجواب: أن المؤمن غير متيقن صحة عمله، فمثلُه مثل من بذر بذراً - ولم يجرب جنسه - في أرض غريبة، والبذر: الإيمان، وشروط صحته دقيقة، والأرض: القلب وخفايا خبئه وصفاته من النفاق، وخبايا الأخلاق غامضة، والصواعق: أهوال سكرات الموت، وهناك تضطرب العقائد، وكل هذا يوجب الخوف عليه، وكيف لا يخاف المؤمن وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل حذيفة رضي الله عنه: هل أنا من المنافقين؟ وإنما خاف أن تلبس حاله عليه، ويستتر عينه عنه؟ فالخوف المحمود هو الذي يبعث على العمل، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا.

وأما عند نزول الموت، فالأصلح للإنسان الرجاء، لأن الخوف كالسَّوْطِ الباعث على العمل، وليس ثَمَّةَ عمل، فلا يستفيد الخائف حينئذٍ إلا تقطيع نياط^(١) قلبه، والرجاء في هذه الحال يُقوي قلبه، ويحبب إليه ربه، فلا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا إلا مُحِبًّا لله تعالى، محبًّا للقائه، حسن الظن به^(٢).
وقد قال سليمان التيمي عند الموت لمن حضره: حَدَّثَنِي بِالرُّخْصِ، لَعَلِّي أَلْقَى الله وأنا أَحْسِنُ الظَّنَّ به.

فصل في بيان الدواء الذي يستجلب به الخوف

وذلك يَخْصُلُ بطريقتين:

أحدهما: أعلى من الآخر. مثاله: أن الصبي إذا كان في بيت، فدخل عليه سَنَبَعٌ، أو حية، ربما لم يخف منه، وربما مد يده إلى الحية ليأخذها يلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها، هرب الصبي، وخاف موافقة لأبيه، فخوف الأب: عن معرفة، وخوف الولد: من غير معرفة، بل هو تقليد لأبيه.

فإذا عرفت هذا، فأعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه، وهذا خوف عامة الخلق، وهو حاصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان أو قوة الغفلة.

وزوال الغفلة يحصل بالتذكُّر، والتفكُّر في عذاب الآخرة، ويزيد بالنظر إلى الخائفين، ومجالستهم، أو سماع أخبارهم.

المقام الثاني: الخوف من الله تعالى، وهو خوف العلماء العارفين. قال الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمُ﴾ [آل عمران: ٢٨، ٣٠].

(١) على هامش النسخة الثانية والمطبوع «نشاط» والتصحيح من النسختين الأولى والثالثة. والنياط: عرق علق به القلب من الوتين.

(٢) فقد قال ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»، وسلف في الصفحة (٣٧١) حاشية (٢).

وصفاته سبحانه تقتضي الهيبة والخوف، فهم يخافون البُعْدَ والحِجَابَ .
قال ذو النُّونِ: خوف النار عند خوف الفراق، كقطرة في بحر، ولعامة
الناس حظ من هذا الخوف، ولكن بمجرد التقليد، فهو يضاهي خوف الصبي
من الحية، تقليداً لأبيه، فلذلك يَضْعُفُ، فإن العقائد التقليدية ضعيفة في
الغالب، إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المولدة لها على الدوام، والمواظبة على
مقتضاها في تكثير الطاعات، وأجتناب المعاصي، فإذا ارتقى العبد إلى معرفة
الله تعالى، خافه بالضرورة، ولا يحتاج إلى علاج يجلب الخوف إلى قلبه، بل
يخاف بالضرورة.

ومن قَصَرَ، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال
الخائفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين،
فلا يَتمارى في أن الاقتداء بهم أولى، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء.

وفي «صحيح مسلم» من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: دُعِيَ رسول
الله ﷺ إلى جَنَازَةِ غلام من الأنصار. فقلت: يا رسول الله! طُوبَى لهذا،
عصفور من عصافير الجنة، لم يدرك الشر ولم يعملْ. قال: «أَوْ غير ذلك يا
عائشة؟ إن الله ﷻ خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاّب آبائهم، وخلق
لنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاّب آبائهم»^(١)

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف، قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ
لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (٨٦ طه). فإنه علق المغفرة على أربعة
شروط، يبعد تصحيحها.

ومن المخوفات قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٢﴾﴾
[العصر] ثم ذكر بعدها أربع شروط، بها يقع الخلاص من الخسران. وقال
تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسَانِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣ السجدة).

(١) هو عند مسلم (٢٦٦٢)، وفي «صحيح أبي داود» (٤٧١٣/٣٩٤٤)، و«صحيح
النسائي» (١٨٣٩)، و«صحيح ابن ماجه» (٨٢/٦٧).

ومعلوم أنه لو كان الأمر مستأنفاً لامتدت الأطماع في التحيل، فأما ما حُوِّ في القدم، فلا يمكن تداركه، فليس إلا التسليم، لولا أن الله تعالى لطف بعارفيه، وروَّح قلوبهم بالرجاء، لأحترقت من نار الخوف.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ما أحد آمن على إيمانه أن يُسلَبه عند الموت إلا سُلِبَه.

ولما حضرت سُفيانَ الثَّورِيَّ الوفاةَ، جعل يبكي، فقال له رجل: يا أبا عبدالله! أراك كثير الذنوب، فرفع شيئاً من الأرض وقال:

والله لذنوبي أهونُ عندي من هذا، ولكن أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت.

وكان سهل رضي الله عنه يقول: المرید يخاف أن يُبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يُبتلى بالكفر.

ويُروى أن نبياً من الأنبياء، شكا إلى الله الجوع والعُزْيَ، فأوحى الله تعالى إليه: عبدي! أما رضيت إن عصمتُ قلبك أن يكفرني حتى تسألني الدنيا؟! فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال: بلى قد رضيت فأعصمني من الكفر.

فإذا كان هذا خوفُ العارفين من سوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم، فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء؟!

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت، مثل: البدعة، والنفاق، والكبر، ونحو ذلك من الصفات المذمومة، ولذلك أشتدَّ خوف السلف من النفاق.

قال بعضهم: لو أعلم أنني بريء من النفاق، كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس.

ولم يريدوا بذلك نفاق العقائد، إنما أرادوا نفاق الأعمال، كما ورد في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أئتمن خان»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٣٣ و ٦٠٩٤)، ومسلم (٥٩)، والترمذي [«صحيحه» (٢١٢١)/ (٢٦٣١)]، والنسائي [«صحيحه» (٢٦٤٨)]. وهو في «صحيح الجامع» (١٦) عن أبي هريرة.

وسوء الخاتمة على رُتبتين :

إحداهما أعظم ، وهي : أن يغلب على القلب - والعياذ بالله - شكٌ أو [بيان معنى
سوء الخاتمة] جُحود عند سَكَرات الموت وأهواله ، فيقتضي ذلك العذاب الدائم .

الثانية دونها ، وهي : أن يسخط الأقدار ، ويتكلم بالأعراض ، أو يَجور في وصيته ، أو يموت مُصِراً على ذنب من الذنوب .

وقد روي أن الشيطان لا يكون في حال أشد على ابن آدم من حال الموت ، يقول لأعوانه : دونكم هذا ، فإنه إن فاتكم اليوم لم تَلحقوه .

وقد روي عن النبي ﷺ ، أنه كان يدعو : «اللهم إني أعوذ بك أن يتَخَبَّطَنِي الشيطانُ عند الموت»^(١) .

قال الخطابي : وذلك أن يستولي على الإنسان حينئذ ، فيُضِلُّه ويحول بينه وبين التوبة أو يمنعه الخروج عن مظلمة أو يؤيسه من رحمة الله ويكره إليه الموت فلا يرضى بقضاء الله عز وجل .

والأسباب التي تفضي إلى سوء الخاتمة لا يمكن أنحصارها على التفصيل ، لكن يمكن الإشارة إلى مجامع ذلك . أما الختم على الشك والجحود ، فسببه البدعة ، ومعناها أن يعتقد في ذات الله تعالى ، أو صفاته ، أو أفعاله خلاف الحق ، إما تقليداً ، أو برأيه الفاسد ، فإذا أنكشف الغطاء عند الموت ، بان له بطلان ما اعتقده ، فيظن أن جميع ما اعتقده هُكذا لا أصل له .

ومن أعتقد في الله سبحانه وصفاته أعتقاداً مجملاً على طريقة السلف ، من غير بحث ولا تنقير ، فهو بمعزل عن هذا الخطر إن شاء الله تعالى^(٢) .

(١) رواه أحمد (١٥٥٠٢) ، وأبو داود [«صحيح سننه» (١٣٧٣/١٥٥٢ و ١٣٧٤/١٥٥٣)] ، والنسائي [«صحيحه» (٥١٠٦)] عن أبي اليسر . وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (١٢٨٢) ، و«المشكاة» (٢٤٧٣) .

(٢) لأن الله سبحانه وتعالى لم يتعبدنا إلا بما أنزل على رسوله ، وأما ركوب الصعب والذلول ، والتمحل والتأويل والتعطيل ، فإنه طريق الضلال والضياع . وهذا كلام الإمام الغزالي يؤكد عقيدة السلف . وهي خلاف ما يدعيه ضلال هذا الزمن من غلاة المؤولة .

وأما الختم على المعاصي، فسببه ضعف الإيمان في الأصل، وذلك يورث الأنهماك في المعاصي، والمعاصي مطفئة لنور الإيمان، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى، فإذا جاءت سكرات الموت، ازداد ذلك ضعفاً، لاستشعاره فراق الدنيا، فإن السبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة، هو حب الدنيا، والركون إليها، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله، فمن وجد في قلبه حب الله تعالى أغلب من حب الدنيا، فهو أبعد من هذا الخطر، وكل من مات على محبة الله تعالى، قدم به قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم، فضلاً على ما يستحقه من الإكرام.

ومن فارقه الروح في حال، خطر بباله فيها الإنكار على الله سبحانه في فعله أو كان مصرّاً على مخالفته، قدم على الله قدوم من قدم به قهراً، فلا يخفى ما يستحقه من النكال.

فمن أراد طريق السلامة، ترحّج عن أسباب الهلاك، على أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال، يقلقل قلوب الخائفين.

وقد ورد في «الصحيحين» من حديث سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، وإنه لمن أهل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه لمن أهل النار»^(١).

وروي: أن العبد إذا عرج بروحه إلى السماء، قالت الملائكة: سبحان الله! نجا هذا العبد من الشيطان: يا ويحه! كيف نجا؟!

وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة، فأحذر أسبابها، وأعدّ ما يصلح لها، وإياك والتسويق بالاستعداد، فإن العمر قصير، وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك، لأنه يمكن أن تُخطفَ فيه روحك، والإنسان يموت على ما عاش عليه، ويُحشر على ما مات عليه.

(١) رواه البخاري (٤٢٠٢ و ٤٢٠٧)، ومسلم (١١٢). ونحوه في «صحيح الجامع» (١٦٢٣ و ١٦٢٤).

وأعلم أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح، إلا أن تَفَنَعَ بما يُقيمك،
وترَفُضَ طلب الفضول.

وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة من
قلبك، فإنك متحقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعقل منك، فتفكر في اشتداد
خوفهم، لعلك تستعدُّ لنفسك.

ذكر خوف الملائكة عليهم السلام

قال الله تعالى في صفتهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل].

وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
«إن لله ملائكة ترعدُّ فرائضهم من مخافته»^(١). وذكر الحديث.
وبلغنا أن من حملة العرش من تسيل عيناه مثل الأنهار، فإذا رفع رأسه قال:
سبحانك ما تُخشِي حق خشيتك، فيقول الله: «لكن الذين يحلفون بأسمي
كاذبين لا يعلمون ذلك».

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«لما كان ليلة أُسري بي، رأيت جبريل عليه السلام كالشَّنِّ البالي من خشية الله
تعالى»^(٢).

وبلغنا أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فقال له:
«ما يبكيك؟ قال: ما جَفْتُ لي عين منذ خلق الله جهنم، مخافة أن أعصيه،
فيلقيني فيها»^(٣).

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩١٤) عن رجل يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
(٢) هو في «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٥٦) بلفظ: «كالجلس اللاطي»، وضعفه الشيخ
الألباني، وأحال على «الضعيفة» (٥٤٤٤).
(٣) أخرجه العراقي؛ لكن صحح الألباني قصة شبيهة لها عن ميكائيل، وهي في
«الصحيحة» (٢٥١١).

وعن يزيد الرقاشي قال: إن الله تعالى ملائكة حول العرش تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة، يمدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالى، فيقول لهم الرب ﷻ: يا ملائكتي ما الذي يخيفكم وأنتم عندي؟ فيقولون: يا رب! لو أن أهل الأرض أطلعوا من عزتك وعظمتك على ما أطلعنا عليه، ما أساغوا طعاماً ولا شرباً ولا أنبسطوا في فرشهم، ولخرجوا إلى الصحاري يخورون كما تخور البقر.

وقال محمد بن المكندر: لما خلقت النار، طارت أفئدة الملائكة من أماكنها، فلما خلق آدم عادت.

وروي أنه لما ظهر من إبليس ما ظهر، طَفِقَ جبريل وميكائيل يبكيان، فأوحى الله تعالى إليهما: ما هذا البكاء؟ قالوا: يا رب! ما نأمن من مكرك. فقال: تعالى: هكذا فكونا.

ذكر خوف الأنبياء عليهم السلام

قال وهب: بكى آدم ﷺ على الجنة ثلاثمئة عام، وما رفع رأسه إلى السماء بعد ما أصاب الخطيئة.

وقال وهيب بن الرُّزْد: لما عاتب الله تعالى نوحاً ﷺ في ابنه فقال: ﴿إِنَّ أَعْظَمَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود] بكى ثلاثمئة عام حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء.

وقال أبو الدرداء ؓ: كان يُسَمَّع لصدر إبراهيم ﷺ إذا قام إلى الصلاة أزيز من بُغْدٍ خوفاً من الله عز وجل.

وقال مجاهد: لما أصاب داود ﷺ الخطيئة، خر لله ساجداً أربعين يوماً حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه، ثم نادى: يا رب! قَرِّحْ الجبين، وَجَمَدَتِ العينُ، وداود لم يرجع إليه في خطيئته شيء. فنودي: أجاجع أنت فتطعم؟ أم مريض فتشفى، أم مظلوم فتنصر، فَتَحَبَّ نحيباً هاج كل شيء نبت، فعند ذلك غفر له.

وقيل: كان داود عليه السلام يعود الناس يظنون أنه مريض، وما به إلا شدة الفرق من الله عز وجل.
وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت يقطر جلدته دماً.
ويكى يحيى بن زكريا عليه السلام حتى بدت أضراسه، فأتخذت أمه قطعتين من لبود^(١) فالصقتهما بخديه.

ذكر خوف نبينا صلى الله عليه وسلم

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ قط مستجمعاً ضاحكاً، حتى أرى لهوآته^(٢) إنما كان يتسم وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله! الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت الكراهة في وجهك؟ فقال: «يا عائشة: ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب» ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] أخرجه في «الصحيحين»^(٣).
وكان ﷺ يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل^(٤) من البكاء^(٥).

- (١) جمع (البُئدة)، وهو: كل شعر أو صوف مُتَلَبِّد - أي متداخل ولازق بعضه في بعض -. والمقصود أن أمه اتخذت هاتين القطعتين لتواري به أضراسه عن الناظرين بسبب تخريق دموعه للحم خديه، وكانت تعصرهما وهو في الصلاة لكثرة دموعه. كذا في «الإحياء». وهذه غرائب لا أصل لها صحيح، كان الأجدر بالمؤلف - رحمه الله - الابتعاد عنها، والله أعلم.
- (٢) اللهاة: اللحم المشرفة على الحلق، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم، جمعها: لهوات، ولهيات.
- (٣) أخرجه البخاري (٣٢١٧)، ومسلم (٨٩٩). وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٧٩٣٠).
- (٤) (المرجل): القدر من الطين المطبوخ أو النحاس. وأزیزه: صوته من شدة غليانه. والمقصود أنه شبه شدة بكائه بذلك.
- (٥) أخرجه أحمد (١٦٣٠٥). وهو في «صحيح أبي داود» (٧٩٩/٩٠٤)، و«صحيح النسائي» (١١٥٦) عن عبد الله بن السخير.

ذكر خوف أصحابه رضي الله عنهم

روينا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يُمنسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وقال: يا ليتني كنت شجرة تُغصّد^(١) ثم تؤكل. وكذلك قال طلحة، وأبو الدرداء، وأبو ذر رضي الله عنهم.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع آية فيمرض فيعاد أياماً. وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال: يا ليتني كنت هذه التبنة، يا ليتني لم أكُ ﴿شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان] يا ليت أُمِّي لم تلدني. وكان في وجهه خَطَان أسودان من البكاء.

وقال عثمان رضي الله عنه: وَدِدْتُ أَنِي إِذَا مِتُّ لَا أُبْعَثَ.

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: وَدِدْتُ أَنِي كُنْتُ كَبِشًا فَذَبَحَنِي أَهْلِي، فَأَكَلُوا لَحْمِي، وَحَسَوُا^(٢) مَرْقِي.

وقال عمران بن حصين:

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ رَمَادًا ﴿نَذْرُهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال حذيفة رضي الله عنه: وَدِدْتُ أَنْ لِي إِنْسَانًا يَكُونُ فِي مَالِي، ثُمَّ أَغْلِقَ عَلَيَّ بَابِي، فَلَا يَدْخُلَ عَلَيَّ أَحَدٌ حَتَّى الْحَقَّ بِاللَّهِ ﷻ.

وكان مَجْرَى الدموع فِي حَدِّ أَبْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه كَالشَّرَاكِ^(٣) الْبَالِي.

وقالت عائشة رضي الله عنها:

يَا لَيْتَنِي ﴿كُنْتُ نَسِيًا مَّنْسِيًا﴾ [مريم].

وقال علي رضي الله عنه: وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَا أَرَى الْيَوْمَ شَيْئًا يُشَبِّهِهُمْ. لَقَدْ كَانُوا يَصْبَحُونَ شُغْنًا غُبْرًا^(٤)، بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ أَمْثَالُ رُكْبِ الْمَغْزَى،

(١) أي: تُقَطَّع.

(٢) أي: شربوه.

(٣) أي: قطعة الجلد المستطيلة - التي على ظاهر القدم - والتي يُشدُّ بها النعل.

(٤) أي: مُتَسَخِّي الجسد ومُتَلَبِّدي الشعر لعدم تعهده، ويعلوهم الغبار.

قد باتوا لله ﴿سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ [الفرقان]، يتلون كتاب الله تعالى، يراوحن بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله ﷻ، مادوا^(١) كما يُميد الشَّجَر في يوم الريح، وهَمَلَتْ^(٢) أعينهم حتى تَبَلَّ ثيابهم، والله لكان القوم باتوا غافلين.

ذكر خوف التابعين ومن بعدهم

قال هَرْمُ بن حَيَّان: وددت والله أني شجرة أكلتني ناقةً، ثم قَذَفْتَنِي بَغْرًا، ولم أَكَابِدِ^(٣) الحساب يوم القيامة، إني أخاف الداهية الكبرى.

وكان علي بن الحسين إذا توضأ أَصْفَرَّ وتغير، فيقال: مَالِكَ؟ فيقول: أتدرون بين يدي مَنْ أريد أن أقوم؟

وكان محمد بن واسع يبكي عامة الليل لا يكاد يَفْتَرُ.

وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت أَنتَفَضَ أَنتَفَاضَ الطير، ويبكي حتى تجري دموعه على لحيته. وبكى ليلة فبكى أهل الدار، فلما تجلت عنهم العَبْرَةُ^(٤) قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مِمَّ بكيَتْ؟ قال: ذكرت مُنْصَرَفَ القوم من بين يدي الله تعالى ﴿وَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَوَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى] ثم صرخ وُعْشي عليه.

ولما أراد المنصور بيت المقدس، نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز فقال: أخبرني بأعجب ما رأيت من عمر. فقال: بات ليلة على سطح غرفتي هذه وهو من رُخام، فإذا أنا بماء يَقْطُر من الميزاب، فصعدت فإذا هو ساجد، وإذا دموع عينيه تنحدر من الميزاب.

(١) أي: تمايلوا.

(٢) أي: فاضت وسالت.

(٣) أي: أقاسي شدته.

(٤) أي: الدمعة.

وقد روينا عن عمر بن عبد العزيز وَفَتَحَ الْمُؤَصِّلِي أَنَّهُمَا بَكِيَا الدَّمَّ .
وقال إبراهيم بن عيسى اليَشْكُرِيُّ: دخلت على رجل بالبحرين قَدْ أَعْتَزَلَ
الناس وتفرَّغ لنفسه، فذاكَرْتُهُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَذَكَرَ الْمَوْتَ . قال: فجعل
يشهق حتَّى خرجت نفسه .

وقال مِسْمَعٌ: شهدتُ عبد الواحد بن زيد وهو يعظ، فمات يومئذ في ذلك
المجلس أربعة أنفس .

وكان يزيد بن مَرثَدٍ يبكي كثيراً ويقول: والله لو تواعدني ربي أن يسجنني في
الحمام، لكان حقي ألا أَفْتَرَّ مِنَ الْبُكَاءِ، فكيف وقد تواعدني أن يسجنني في
النار إن أنا عصيته؟

وقال السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ: إني لأنظر كل يوم إلى أنفي مخافة أن يكون قَدْ أَسْوَدَ
وجهي .

فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعُباد والأولياء، ونحن أجدر بالخوف
منهم، ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ولكن بصفاء القلوب وكمال المعرفة،
وإنما أَمِنَّا لَعَلَّةَ جَهْلِنَا وقوة قساوتنا، فالقلب الصافي تُحْرِكُهُ أدنى مخافة،
والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ .

قال بعض السلف: قلت لراهب: أَوْصِنِي، فقال: إِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ
بِمَنْزِلَةِ رَجُلٍ قَدْ أَخْتَوَشَتَهُ ^(١) السُّبَاعُ وَالْهُوَامُ ^(٢) فهو خائف حَذِرٌ يخاف أن يغفل
فَيَقْتَرِسَنَّهُ، أو يسهو فَيَنْهَشَنَّهُ، فهو مذعور فأفعل . قلت: زِدْنِي . فقال: الظَّمَانُ
يُجْزئُهُ مِنَ الْمَاءِ أَيْسَرُهُ .

وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخصٍ أَخْتَوَشَتَهُ ^(١) السُّبَاعُ وَالْهُوَامُ ^(٢)، فهو
حقيقة في حق المؤمن، فإن من نظر إلى باطنه بنور بصيرته، رآه مشحوناً

(١) أي: أحاطت به .

(٢) أي: الحيوانات، وليس يقصد به الحشرات، كما يفهم منه الآن .

بالسباع والهوام، كالغضب والحقد، والحسد، والكبر، والعجب، والرياء، وغير ذلك، وكلهن ينهشنه ويفترسنه إن سها عنهن، إلا أنه محجوب عن مشاهدتها، فإذا أنكشف الغطاء ووضِع في القبر، عاينها مُتمثلة حَيَاتٍ، وعقارب يلدغنه، وإنما هي صفاته الحاضرة الآن، فمن أراد أن يفهرها قبل الموت ويقتلها فليفعل، وإلا فليؤطن نفسه على لدغها لصميم قلبه، فضلاً عن ظاهر بشرته والسلام.

آخر كتاب الخوف

٢٥ - كتاب الزهد والفقر

أَعْلَمُ أَنَّ حُبَّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ^(١)، وَبُغْضُهَا أَسَاسُ كُلِّ طَاعَةٍ، وَقَدْ سَبَقَ ذَمُّ الدُّنْيَا فِي (رَبْعِ: الْمَهْلَكَاتِ)، وَنَحْنُ نَذْكُرُ الْآنَ فَضْلَ الْبُغْضِ لَهَا وَالزَّهْدِ فِيهَا، فَإِنَّهُ رَأْسُ الْمُنْجِيَّاتِ. وَمَقَاطِعُهَا إِمَّا أَنْ تَكُونَ بِأَنْزَوَائِهَا عَنِ الْعَبْدِ وَيُسَمَّى ذَلِكَ فَقْرًا، وَإِمَّا بِأَنْزَوَاءِ الْعَبْدِ عَنْهَا، وَيُسَمَّى ذَلِكَ زَهْدًا، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: دَرَجَةٌ فِي نَيْلِ السَّعَادَاتِ، وَحَظٌّ فِي الْإِعَانَةِ عَلَى الْفَوْزِ وَالنَّجَاةِ. وَنَحْنُ نَذْكُرُ الْفَقْرَ، وَالزَّهْدَ، وَدَرَجَاتِهِمَا، وَأَقْسَامَهُمَا، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا فِي شَطْرَيْنِ.

الشرط الأول من الكتاب في الفقر

[بيان حقيقة الفقر أَعْلَمُ أَنَّ الْفَقِيرَ إِلَى الشَّيْءِ هُوَ الْمَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَكُلُّ مَوْجُودٍ سَوَى
وَإِخْتِلَافِ أَحْوَالِ اللَّهُ تَعَالَى فَهُوَ فَقِيرٌ، لِأَنَّهُ مَحْتَاجٌ إِلَى دَوَامِ الْوُجُودِ، وَذَلِكَ مُسْتَفَادٌ
الْفَقِيرِ وَأَسَامِيهِ] مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَأَمَّا فَقْرُ الْعَبْدِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَصْنَافِ حَاجَاتِهِ، فَلَا يُخَصَّرُ، وَمِنْ جُمْلَةِ حَاجَاتِهِ مَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالْمَالِ، ثُمَّ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَمْسَةُ أَحْوَالٍ عِنْدَ فَقْرِهِ:

الْأُولَى: أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ لَوْ أَتَاهُ الْمَالُ لَكَرِهَهُ وَتَأَذَّى بِهِ، وَهَرَبَ مِنْ أَخْذِهِ بُغْضًا لَهُ، وَأَحْتَرَاظًا مِنْ شَرِّهِ وَشُغْلِهِ، وَصَاحِبُ هَذِهِ الْحَالَةِ يُسَمَّى زَاهِدًا.

الْحَالَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ لَا يَرِغِبُ فِيهِ رَغْبَةً؛ يَفْرَحُ بِحَصُولِهِ، وَلَا يَكْرَهُهُ كِرَاهَةً؛ يَتَأَذَّى بِهَا، وَصَاحِبُ هَذِهِ الْحَالَةِ يُسَمَّى رَاضِيًا.

(١) هَذَا الْقَوْلُ مَعْرُوفٌ مِنْ كَلَامِ الصَّحَابِيِّ جَنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ، أَوْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، أَوْ التَّابِعِيِّ سَعْدِ بْنِ مَسْعُودٍ الصَّرْفِيِّ، وَنَسَبَ إِلَى عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَلَا أَصْلَ لَهُ مِنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الشَّعْبِ». اهـ. وَانْظُرْ «الضَّعِيفَةَ» (١٢٢٦).

الثالثة: أن يكون وجودُ المال أَحَبَّ إليه من عدمه لرغبة له فيه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه عفواً أو صفواً أخذه وفرح به، وإن أفتقر إلى تَعَبٍ في طلبه لم يشتغل به. وصاحب هذه الحالة يُسَمَّى قانعاً.

الرابعة: أن يكون تَرْكُهُ للطلب: لِعَجْزه، وإلا فهو راغب فيه، لو وجد سبيلاً إلى طلبه بالتعب لَطَلَبَهُ، وصاحب هذه الحالة يُسَمَّى الحريص.

الخامسة: أن يكون مُضْطَرّاً إلى ما قَصَدَه من المال، كالجائع، والعارى الفاقِد للمأْكول والملبوس. ويُسَمَّى صاحب هذه الحالة مضطراً، كيفما كانت رغبته في الطلب ضعيفةً أو قويةً.

وأعلى هذه الخمسة: الحالة الأولى، وهي الزهد، ووراءها حالة أخرى أعلى منها، وهي أن يستوي عنده وجود المال وعدمه، فإن وجده لم يفرح به، ولم يَتَأَذَّ إن فَقَدَه، كما روينا عن عائشة رضي الله عنها أنها جاءها مال في غرارتين^(١)، ففرقت في يومها، فقالت لها جاريتها: أَمَا أَسْتَطَعْتُ أن تشتري لنا مما قسمتَ لحماً بدرهم تُفْطِر عليه؟ فقالت: لو ذَكَرْتَنِي لفعلت.

فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بِحَذَافِيرِها في يده لم تَضُرَّهُ، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى، لا في يد نفسه.

وينبغي أن يُسَمَّى صاحب هذه الحالة: المُسْتَغْنِي، لأنه غنيٌّ عن فَقْدِ المال ووجوده جميعاً. ومتى كان الزاهد في الدنيا لا يَرِغب في وجودها، ولا عدمها، فهو في غاية الكمال.

قال أحمد بن أبي الحَوَارِيِّ لأبي سليمان الداراني: قال مالك بن دينارٍ للمُغِيرَةِ: اذهب إلى البيت فَخُذِ الزكاةَ التي أهديتها لي، فإن الشيطان يوسوس لي أن اللص قد أخذها، فقال أبو سليمان: هذا مِنْ ضَعْفِ الزهد، هو قد زَهَدَ

(١) (الغَرارة): وعاء من الخيش ونحوه، يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجوالق، جمعها غرائر.

في الدنيا، ما عليه مِنْ أَخْذِهَا. فالهرب من المال والزهد فيه في حق الضعفاء كمال، فأما في حق الأنبياء الأقوياء، فسواء عليهم وجوده وعدمه. وقد يُظهِرُ القويُّ النَّفَارَ من المال لِيَقْتَدِيَ به الضعفاء في التَّرك، والله أعلم.

فصل في فضيلة الفقر وتفضيل الفقر على الغنى

أما الآيات فقد قال الله تعالى في معرض المدح في حق الفقراء: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية (١). وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ الآية (٢).

وأما الأخبار فكثيرة، منها: قوله ﷺ: «قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء، إلا أن أصحاب الجُدِّ محبوسون» (٣) وذكر تمام الحديث. وهو في «الصحيحين».

وفيهما حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «اللهم اجعل رِزْقَ آل محمد قوتاً» (٤).

وفيهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البرِّ ثلاث ليال تباعاً حتى قبض (٥).

(١) سورة البقرة، الآية ٢٧٣ وتامامها: ﴿لَا يَسْأَلُونَ ضَرْكًا فِي الْأَنْزِبِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْعَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٧٣).

(٢) سورة الحشر، الآية ٨ وتامامها: ﴿وَأَمْوَالُهُمْ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَبْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨).

(٣) هو في البخاري (٥١٩٦)، ومسلم (٢٧٣٦). وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٤٤١١).

(٤) هو في البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥) - واللفظ له -، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٣٦١/١٩٢٤)، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٤١٣٩/٣٣٣٩).

(٥) أخرجه البخاري (٥٤١٦)، ومسلم (٢٩٧٠).

وفي أفراد مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد دَقْلاً يملأ بطنه^(١).

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمئة عام»^(٢) وقال الترمذي: حديث صحيح.

وقال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «إياك ومجالسة الأغنياء»^(٣).

وقال: «يؤتَى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله ﷻ إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا؛ فيقول: (وعِزَّتِي وجلالي ما زَوَيْتُ^(٤) الدنيا عنك لِهَوَانِكَ عليّ، ولكن لما أعددتُ لك من الكرامة. أخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف، فَمَنْ أطعمك أو كساك يريد ذلك وجهي، فَخُذْ بيده فهو لك»^(٥).

وقيل لموسى عليه السلام: إذا رأيتَ الفقر مُقْبِلاً، فقل: مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيتَ الغنى مُقْبِلاً، فقل: ذَنْبٌ عَجَلْتُ عقوبته.

وقال أبو الدرداء: حساب ذي الدرهمين أشدَّ حساباً من ذي الدرهم.

وكان الفقراء يتقدمون في مجلس الثوري على الأغنياء.

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها، وقال: تريد أن تمحو أسمى من ديوان الفقراء؟! لا أفعل.

(١) هو في مسلم (٢٩٧٨). و(الدقل): رديء التمر.

(٢) أخرجه الترمذي [صحيحه] (٢٣٥٤/١٩١٨) عن أبي هريرة، و(٢٣٥٥/١٩١٩) عن جابر، وابن ماجه [صحيحه] (٤١٢٢/٣٣٢٦ و ٤١٢٣/٣٣٢٧). وهو في «صحيح الجامع» (٣٣٢٦ و ٣٣٢٧).

(٣) ضعيف جداً، انظر «ضعيف سنن الترمذي» (١٧٨٠/٢٩٨). وهو في «ضعيف الجامع» (١٢٨٨)، و«الضعيفة» (١٢٩٤)، و«المشكاة» (٢٣٤٤).

(٤) أي: صرفتها ونَحَيْتُهَا عنك.

(٥) أخرجه أبو الشيخ في «الثواب» بنحوه من حديث أنس بإسناد ضعيف دون آخره.

وقال النبي ﷺ: «طوبى لمن هُدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً، وقنع بما آتاه الله ﷻ»^(١).

وقد ذكرنا في (: القناعة وذم الحرص والطمع) في (كتاب : ذم المال) ما يغني عن الإعادة، ولا يقدر على ذلك إلا بعد قوة الصبر.

وأما التفضيل بين الغني والفقير، فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير، ولكن لا بد من تفصيل، فنقول: إنما يُتَصَوَّر الشك [التفضيل بين الغني والفقير] والخلاف في فقير صابر ليس بحريص؛ بالإضافة إلى غني شاكِر، ينفق ماله في الخيرات، أو فقير حريص مع غني حريص، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص المُمسِك، وأن الغني المنفق ماله في الخير أفضل من الفقير الحريص، فإن كان الغني مُتَمَتِّعاً بالمال في المباحات، فالفقير القنوع أفضل منه.

وكشف الغطاء في هذا أن ما يُرادُ لغيره، ولا يراد لعينه، ينبغي أن يُضاف إلى مقصوده، إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها، بل لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى، والفقر ليس مطلوباً لعينه ولكن لأن فيه فَقْدَ العائق عن الله تعالى، وعدم التشاغل عنه.

وكم من غني لا يَشْغَلُهُ الغنى عن الله تعالى، كسليمان عليه السلام، وكذلك عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما.

وكم من فقير شغله فقره عن المقصود، وصرفه عن حب الله تعالى والأنس به، وإنما الشاغل له حُبُّ الدنيا، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى، فإن المحب للشيء مشغول به، سواء كان في فراقه، أو في وصاله، بل قد يكون شغله في الفراق أكثر.

والدنيا معشوقة الغافلين، فالمحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها.

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩٣٦)، والترمذي [«صحيحه» (٢٣٤٩/١٩١٥)] عن فضالة بن عبيد . وهو في «الصحيحه» (١٥٠٦).

وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر، فالفقير: عن الخطر أبعد، لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، ومن العصمة ألا تجد، ولما كان ذلك طبع الآدميين إلا القليل منهم، جاء الشرع بدم الغنى وفضل الفقر. وقد تقدم ما يدل على فضله.

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «التقى مؤمنان على باب الجنة: مؤمن غني، ومؤمن فقير، كانا في الدنيا. فأدخل الفقير الجنة، وحبس الغني ما شاء الله تعالى أن يخبس، ثم أدخل الجنة، فلقبه الفقير، فقال: أي أخي! ماذا حبسك؟ والله لقد أخبست حتى خفت عليك، فقال: أي أخي! حبست بعدك محبساً قظيماً كريهاً، وما وصلت إليك حتى سأل مني من العرق ما لو وردّه ألف بعير، كلها أكله حمض^(١)، لصدرت عنه رواء^(٢)»^(٣).

وأعلم أن فراق المحبوب شديد، فإذا أحببت الدنيا، كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه، وكل من فارق محبوباً كان أذاه في فراقه بقدر حبه له وأنسه به، فينبغي أن تحب من لا يفارقك، وهو الله تعالى، ولا تحب الدنيا التي تفارك.

فصل في آداب الفقير في فقره

ينبغي له ألا يكون كارهاً لما ابتلاه الله به من الفقر.

وأرفع من هذا أن يكون راضياً قريحاً، ويكون متوكلاً على الله سبحانه، واثقاً به، ومتى عكس الحال - وكان يشكو إلى الخلق، ولا يشكو إلى الله تعالى - كان الفقر عقوبة في حقه، فلا ينبغي له إظهار الشكوى، بل يظهر التعفف والتجمل. قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

(١) (الحَمْضُ): كل نبت حامض، أو مالح يقوم على ساق ولا أصل له. وهو للماشية كالفاكهة للإنسان، ولذلك كان يسمى كل حديث يتفكه به (إحماضاً).

(٢) أي: مُزْتَوِيَات من عرقه.

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٧٠).

وينبغي للفقير ألا يتواضع لغني لأجل غناه، ولا يرغب في مجالسته.
وينبغي له أيضاً ألا يفتر عن العبادة بسبب فقره، ولا يمنع بذل ما فضل
عنه، فإن ذلك جهد المُقِلّ.
روى أبو ذر رضي الله عنه قال: يا رسول الله! أي الصدقة أفضل؟ قال: «جُهدٌ من
مُقِلٍّ إلى فقير في السر»^(١).

بيان آدابه في قبول العطاء

إذا جاءه بغير سؤال ينبغي أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال،
وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.
أما في نفس المال: فينبغي أن يكون خالياً عن الشبهات كلها، فإن كان فيه
شبهة، فليحترز عن أخذه.
وقد تقدم في (كتاب: الحلال والحرام) درجات الشبهة، وما يجب اجتنابه،
وما يُستحب.
وأما غرض المعطي: فلا يخلو، إما:

أن يكون طلباً للمحبة، وهو الهدية، فلا بأس بقبولها إذا لم تكن رشوة ولم
يكن فيها منة.

الثاني: أن يكون غرض المعطي الثواب. وهو الزكاة والصدقة، فعليه أن
ينظر في صفات نفسه، هل هو مُستَحِقٌّ أم لا؟ فإن أشتبه عليه فهو محلّ شبهة،
وإن كان صدقة - فكان المعطي إنما يعطيه لدينه - فليُنظر إلى باطنه، فإن كان
مُقارِناً لمعصية في السر، يعلم أن المعطي لو علم بذلك، لَتَفَرَّ طبعه وَلَمَّا تقرب
إلى الله بالصدقة عليه، لم يأخذه كما لو أعطاه لِظَنِّه أنه عالم فلم يَكُنْ.

الثالث: أن يكون غرض المعطي الشهرة والرياء والسمعة، فينبغي أن يرد
عليه قصده الفاسد، ولا يأخذه لأنه إذا قبله يكون معيناً له على قصده الفاسد.

(١) ضعيف جداً؛ أخرجه عن أبي ذر. وهو مخرج في «الإرواء» (٨٩٧).

وأما غرضه في الأخذ: فليُنظر أهو محتاج إليه أو مستغن عنه؟ فإن كان مستغنياً عنه لم يأخذه، وإن كان محتاجاً إليه، وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها، فالأفضل له الأخذ، لما روي عن عمر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ما جاءك من هذا المال وأنت غير مُشْرِفٍ^(١) ولا سائل، فخذْه، وما لا تُشِيعُه^(٢) نفسك» أخرجاه في «الصحيحين».

وفي حديث آخر: «من جاءه من أخيه معروف من غير إشرافٍ ولا مسألة، فليقبلْه ولا يرُدْه، فإنما هو رزق ساقه الله إليه»^(٣).

فصل في بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر في السؤال

اعلم أنه قد ورد في السؤال أحاديث في التَّهْيِ عنه، وفي الترخيص فيه. أما الترخيص، فكقوله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على قَرْسٍ»^(٤). وفي بعض الأحاديث: «ردوا السائل ولو بظِّلْفٍ»^(٥) «مُخْرَقٍ»^(٦). ولو كان السؤال حراماً، لَمَا جاز إعانة المعتدي على عدوانه، والإعطاء إعانة.

-
- (١) أي: غير متطلِّع إليه ولا طامع فيه.
 - (٢) رواه البخاري (١٤٧٣)، ومسلم (١٠٤٥).
 - (٣) أخرجه أحمد (١٧٩٠١) بنحوه عن خالد بن عدي الجهني.
 - (٤) أخرجه أحمد (١٧٢٩)، وأبو داود [«ضعيفه» (٣٦٤/١٦٦٥)] عن الحسين بن علي. وهو في «ضعيف الجامع» (٤٧٤٦)، و«الضعيفة» (١٣٧٨).
 - (٥) الظلف للبقر والغنم، كالحافر للفرس والبغل، وكالْخُفِّ للبعير. ومعنى (ردوا): أعطوه ولو الشيء اليسير ولم يُرَدَّ الحرام والمنع.
 - (٦) أخرجه أحمد (٢٧٤٣٩) عن أم بجيد، وفيه عن غيرها باختلاف في اللفظ. والنسائي [«صحيحه» (٢٤٠٥)] عن حواء بنت السكن. وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٣٥٠٢).

وأما أحاديث النَّهْيِ عن السؤال، فروى أبْنُ عُمَرَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله ﷻ وليس في وجهه مُزعة»^(١) لحم»^(٢) أخرجاه في «الصحيحين».

وفيهما أيضاً: أنه ﷺ ذكر التعفف عن المسألة فقال: «اليد العليا خير من اليد السفلى»^(٣). واليد العليا المعطية، والسفلى السائلة.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أنه ﷺ قال: «مَنْ سأل وله ما يُغْنِيه، جاءت مسألته يوم القيامة خُدوشاً أو كُدُوحاً»^(٤) في وجهه»^(٥) إلى آخره. وهو حديث حسن.

وفي المعني أحاديث كثيرة.

وكُشِفَ الغطاء في هذا أن نقول: السؤال في الأصل حرام، لأنه لا يَنْفَكُ عن ثلاثة أمور:

أحدها: الشكوى.

والثاني: إذلال نفسه، وما «ينبغي للمؤمن أن يذِلَّ نَفْسَه»^(٦).

والثالث: إيذاء المسؤول غالباً.

وإنما يباح السؤال في حال الضرورة والحاجة المهمة القريبة من الضرورة: أما المضطر، فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً، وكسؤال العاري الذي ليس له ما يُوَارِيهِ.

(١) أي: قطعة يسيرة منه.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣) عن ابن عمر.

(٤) كل أثر من خَذَش أو غَضَّ فهو: كَذَح. وجمعه كُدُوح.

(٥) «صحيح أبي داود» (١٤٣٢/١٦٢٦)، و«صحيح الترمذي» (٥٢٦/٦٥٠)،

و«صحيح النسائي» (٢٤٢٩)، و«صحيح ابن ماجه» (١٤٩٠/١٨٤٠)، والدارمي

٣٨٧/١. وسياقي قسم آخر منه في الصفحة (٤٠٢).

(٦) جزء من حديث في «الصحيحة» (٦١٣)، و«صحيح الجامع» (٧٧٩٧). وفسره ﷺ

بقوله: «يتعرض من البلاء ما لا يطيق».

وأما المحتاج حاجةً مُهمّةً، فهو كَمَنَ له جُبّةٌ ولا قميصٌ تحتها في الشتاء، فهو يتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهي إلى حد الضرورة، فكذلك من يقدر على المشي لكن بمشقة، يجوز له أن يسأل أجرّةً يكتري^(١) بها للركوب، وتزكّه أولى.

ومن وجد الخبز وهو محتاج إلى الأذم^(٢)، فله أن يسأل، مع الكراهة، وكذلك إذا سأل المَحْمِل^(٣) من هو قادر على الرحلة.

وينبغي في مثل هذه المسألة أن يُظهر الشكر لله تعالى، ولا يسأل سؤال محتاج، بل يقول: أنا مُستَغْنٍ بما أملكه، وإنما النفس تطلبني، فيخرج بهذا عن حد الشكوى لله تعالى.

وينبغي أن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي لا ينقص بذلك في عينه، أو السَّخِيّ الذي أعدّ ماله للمكارم، فيخرج بذلك من الدّل.

وإن أخذ مَن يعلم أنه إنما أعطاه حياءً، لم يَجُزْ له الأخذ، ويجب رَدُّه إلى صاحبه.

ولا يجوز للفقير أن يسأل إلا مقدار ما يحتاج إليه، من: بيت يسكنه، وثوب يستره، وطعام يُقيمه.

ويراعي في هذه الدنيا الأشياء ما يدفع الزمان من غير تَنَوُّقٍ^(٤) في شيء من ذلك، فإن كان يعلم أنه يجد من يسأله كل يوم، لم يَجُزْ أن يسأل أكثر من قُوَّتِ يومه وليلته، وإن خاف ألا يجد من يعطيه، أو خاف أن يعجز عن السؤال، أبيح له السؤال أكثر من ذلك.

ولا يجوز له في الجملة أن يسأل فوق ما يكفيه لِسَنَتِهِ، وعلى هذا يتنزل

(١) أي: يستأجر.

(٢) أي: الطعام الذي يؤكل مع الخبز.

(٣) أي: الهودج الذي يوضع على ظهر الراحلة.

(٤) التَّنَوُّقُ في الأمر: التأني فيه.

الحديث المَرْوِيُّ في تقدير الغنى بخمسين درهماً^(١)، فإنها تكفي المنفرد الْمُقْتَصِدَ لِسَنَّتِهِ، فأما ذو العائلة فلا .

بيان أحوال السائلين

كان يَشْرُ الحَافِي يقول: الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل، وإن أعطي لا يأخذ، فهذا من الروحانيين .

وفقير لا يسأل، وإن أعطي أخذ، فذاك من أهل حظيرة القدس .
وفقير إذا احتاج سأل، فكفارة مسألته صِدْقُهُ في السؤال .

قال الشيخ جمال الدين رحمته الله : قلت : وفصل الخطاب أنه متى قَدَّرَ الفقير على دفع الزمان من غير سؤال، لم يَجْزُ له أن يسأل، فإن كان يندفع على مَضْضٍ^(٢)، نَظَرْتُ، فإن كان مثله لا يُحْتَمَلُ، ولا يُخَافُ منه التَّلَفُ، فالسؤال مباح وتزكّه فضيلة، وإن كان مثله لا يحتمل، وجب عليه أن يسأل .
قال سفيان الثوري رحمته الله : من جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار .

الشرط الثاني من الكتاب وفيه:

بيان حقيقة الزهد وفضيلته وذكر درجاته وأقسامه ونحو ذلك

أعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، والزهد [بيان حقيقة
الزهد] عبارة عن أنصراف الرّغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عن شيء ليس مرغوباً فيه ولا مطلوباً في نفسه، لم يُسمَّ زاهداً، كمن ترك التراب لا يُسمَّى زاهداً .

وقد جَرَبَتِ العادة بتخصيص أسم الزاهد بمن ترك الدنيا، ومن زهد في كل

(١) صحيح، سلف في الصفحة (٤٠٠) الحاشية (٥) .

(٢) يقال: فعلت هذا على مضض؛ أي: كارهاً متألماً .

شيء سوى الله تعالى، فهو الزاهد الكامل، ومن زهد في الدنيا مع رغبته في الجنة ونعيمها، فهو أيضاً زاهد، ولكنه دون الأول.

وأعلم أنه ليس من الزهد ترك المال، وبذله على سبيل السخاء والقوة، وأسئمة القلوب، وإنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة.

ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب، والآخرة كالدرّ يبقى، قوِّث رغبته في بيع هذه بهذه. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧]. وقوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

ومن فضيلة الزهد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

[بيان فضيلة الزهد]

وقال النبي ﷺ: «من أصبح وهمه الدنيا، شتت الله عليه أمره، وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة، جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(١) (٢).

وقال الحسن: يُحْشَرُ النَّاسُ عُرَاةً مَا خَلَا أَهْلَ الزَّهْدِ.

وقال: إن أقواماً أَكْرَمُوا الدُّنْيَا فَصَلَبَتْهُمْ عَلَى الْخَشْبِ، فَأَهْيَنُوهَا، فَأَهْتُمُوهَا. تكون إذا أهتُمُوهَا.

وقال الفضيل: جُعِلَ الشَّرُّ كُلُّهُ فِي بَيْتٍ، وَجُعِلَ مِفْتَاحُهُ حُبُّ الدُّنْيَا، وَجُعِلَ الْخَيْرُ فِي بَيْتٍ، وَجُعِلَ مِفْتَاحُهُ الزَّهْدُ فِي الدُّنْيَا.

(١) يقال: أرغم الله أنفه؛ أي: ألصقه بالرغام، وهو التراب. هذا هو الأصل، ثم استعمل في الذل؛ والعجز عن الانتصاف، والانتقياد على كثره.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٥٧٩)، وابن ماجه «صحيحه» (٣٣١٣/٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت نحوه. وهو في «الصحيحه» (٩٥٠).

وكان بعض السلف يقول: الزهد في الدنيا يُريح القلب والبدن، والرغبة فيها تُكثِّرُ الهمَّ والحزن.

فصل في درجات الزهد وأقسامه

من الناس من يزهد في الدنيا وهو لها مُشْتَهٍ، لكنه يجاهد نفسه، وهذا يُسمَّى: المتزهد، وهو مَبْدَأُ الزهد.

الدرجة الثانية: أن يزهد فيها طوعاً لا يكلف نفسه ذلك، لكنه يرى زهده ويلتفت إليه، فيكاد يُعْجَب بنفسه، ويرى أنه قد ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه، كما يترك درهماً لأخذ درهمين، وهذا أيضاً نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا: أن يزهد طوعاً، ويزهد في زهده، فلا يرى أنه ترك شيئاً، لأنه عرف أن الدنيا ليست بشيء، فيكون كمن ترك خِرْقَةً، وأخذ جوهرة، فلا يرى ذلك مُعاوضة، فإن الدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة: أَحْسَنُ من خِرْقَةٍ بالإضافة إلى جوهرة. فهذا هو الكمال في الزهد.

وأعلم أن مثل من ترك الدنيا، مثل مَنْ مَنَعَهُ عن باب المَلِكِ كَلْبٌ على بابه، فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل، فَقَرُبَ من الملك. أَفْتَرَاهُ يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة ألقاها إلى كلبه في مُقَابَلَةٍ ما قد ناله؟

فالشیطان كلب في باب الله ﷻ، يمنع الناس من الدخول، مع أن الباب مفتوح، والحجاب مرفوع، والدنيا كَلْقَمَةٌ، فمن تركها لينال عِزَّ الملك، فكيف يلتفت إليها؟ ثم إِنَّ نِسْبَتَهَا - أعني ما سَلِمَ لكل شخص منها ولو عُمَرَ ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] بالإضافة إلى نعيم الآخرة: أَقَلُّ مِنْ لُقْمَةٍ بالإضافة إلى ملك الدنيا، لأن الفاني لا نسبة له إلى الباقي، كيف ومُدَّةُ العمر قصيرة ولذات الدنيا مُكَدَّرَةٌ.

وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه، فعلى ثلاث درجات: أحدها: الزهد للنجاة من العذاب، والحساب، والأهوال التي بين يَدَيِ الآدمي، وهذا زهد الخائفين.

الدرجة الثانية: الزهد للرغبة في الثواب، والنعيم الموعود به، وهذا زهد الراجين، فإن هؤلاء تركوا نعيماً لنعيم.

الدرجة الثالثة: وهي العليا: وهو ألا يزهد في الدنيا للتخلص من الآلام، ولا للرغبة في نيل اللذات، بل لطلب لقاء الله تعالى، وهذا زهد المُحسنين العارفين، فإن لذة النظر إلى الله ﷻ بالإضافة إلى لذات الجنة، كَلَذَة ملك الدنيا، والاستيلاء عليها، بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عُصفور واللعب به.

فصل في بيان تفصيل الزهد

فيما هو من ضروريات الحياة

والضروريات المِهْمَات سبعة أشياء: المَطْعَم، والملبس، والمسكن وأثاثه، والمَنْكَح، والمال، والجاه.

فأما الأول: وهو المطعم: فأعلم أن هِمة الزاهد منه ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ.

وفي الحديث: «إن عباد الله ليسوا بالْمُتَنَعِّمين»^(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها لعروة: كان يَمُرُّ بنا هلال، وهلال، وهلال، ما يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار. قال: قلت: يا خالة! فعلى أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: الماء، والتمر^(٢).

والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة.

وقد كان جمهور من الزُّهاد يُخَشِّنون المَطْعَم، وكان فيهم من لا يُطيق ذلك. فكان الثَّورِيُّ حَسَنَ المَطْعَم، وربما حمل في سُفْرته^(٣) اللحم المَشْوِيَّ والفالودَج^(٤).

(١) رواه أحمد (٢٢١٠١) عن معاذ. وهو في «صحيح الجامع» (٢٦٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢)، وأحمد (٢٤٤١٢).

(٣) السُّفْرة: هو ما يُحمل فيه طعام المسافر، ويطلق أيضاً على طعام المسافر ذاته.

(٤) هي: حلواء هلامية رجرجاة تعمل من الدقيق والماء والعسل ومواد أخرى، وتصنع الآن من النشاء والماء والسكر والرز ومواد أخرى.

وفي الجملة، فالزاهد يقصد ما يُضْلِح به بدنه، ولا يزيد في التَّعْم، إلا أن الأبدان تختلف، فمنها ما لا يحمل التخشن.

وقد يدخر بعض الناس الزاد الحلال يَتَّقُوْهُ، فلا يُخْرِجُهُ ذَلِكَ من الزهد، فقد كان السُّبُتِي يعمل من السبت إلى السبت وَيَتَّقُوْهُ.

وورث داود الطائي عشرين ديناراً، فأنفقها في عشرين سنة.

الثاني: الملبس: فالزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرد، ويستر العورة، ولا بأس أن يكون فيه نوع تَجَمُّل، لئلا يُخْرِجَهُ التَّقَشُّفُ إلى الشهرة. وكان أكثر لباس السلف حَشِيناً، فصار لُبْسُ الحَشِينِ شهرةً.

وقد روي عن أبي بردة قال: أخرجت إلينا عائشة رضي الله عنها كساء مُلَبَّدًا^(١)، وإزاراً^(٢) غليظاً، وقالت: قُبِضَ رسول الله ﷺ في هذين^(٣). أخرجاه في «الصحيحين».

وعن الحسن قال: خطب عمر رضي الله عنه وهو خليفة، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة.

الثالث: المسكن: فللزاهد فيه ثلاث درجات:

أعلاها: ألا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه، بل يقنع بزوايا المساجد، كأصحاب الصُّقَّة^(٤).

(١) أي ثخن وسطه وصفق حتى صار يشبه اللبدة - وهي الخرقَة التي يرقع بها صدر القميص - ويقال: المراد هنا المُرْقَع.

(٢) هو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٠٨)، ومسلم (٢٠٨٠). وهو في «صحيح أبي داود» (٤٠٣٦/٣٤٠٥)، و«صحيح سنن الترمذي» (١٧٣٣/١٤١٧).

(٤) هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه، فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه.

وأوسطها: أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه، مثل كوخ^(١) من سَعَفٍ^(٢)، أو حُصٍّ^(٣) وما أشبه ذلك.

وأدناها: أن يطلب حُجْرةً مبنية.

ومتى طلب السعة وعلو السقف، فقد جاوز حد الزهد في المسكن. وقد توفي رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة^(٤).

قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ، نلتُ السقف^(٥). وفي الحديث:

إن الرجل يؤجر في نفقته كلها إلا في التراب^(٦).

وقال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللهُ: إذا كان البنيان كفافاً، فلا أجر ولا وِزْرَ.

وفي الجملة: إن كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يُجاوز حد الزهد.

الرابع، أثاث البيت: فينبغي للزاهد أن يقتصر فيه على الخزف، ويستعمل الإناء الواحد في مقاصده، فيأكل في القُضعة، ويشرب فيها، ومن خرج إلى كثرة العَدَد في الآلة، أو في نفاسة الجنس، خرج عن الزهد.

ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ. ففي «صحيح مسلم»، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، وإذا

(١) بيت مُسَخَّم بلا كُوة يدخل منها الهواء والضوء.

(٢) أي: جريد النخل وورقه.

(٣) بيت يعمل من الخشب والقصب.

(٤) سلف تخريجه صفحة (٢٤٣) حاشية (١).

(٥) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (٤٩٧).

(٦) رواه البخاري (٥٦٧٢) من قول خباب بن الأرت، وليس من قول النبي ﷺ كما يوهمه صنيع المؤلف. وهو في «المشكاة» (٥٦٨٢).

الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير، نحو الصاع^(١). وفي رواية البخاري: فوالله ما رأيت شيئاً يرُدُّ البصر^(٢). والحديث مشهور في «صحيح مسلم».

وقال عليٌّ عليه السلام: تزوجتُ فاطمة وما لي ولها فراشٌ إلا جلدُ كَبْشٍ. كنا ننام عليه بالليل، ونَغْلِفُ عليه الناصِخ^(٣) بالنهار، وما لي خادمٌ غيرها، ولقد كانت تَغْجِنُ، وإن قُصَّتْها^(٤) لَتَضْرِبُ حَزَفَ الْجَفَّةِ^(٥) من الجهد الذي بها.

ودخل رجل على أبي ذر عليه السلام، فجعل يُقَلِّبُ بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر! ما أرى في بيتك متاعاً، ولا أثاثاً. فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا. فقال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت ههنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدْعُنَا فيه.

الخامس، المنكح: لا معنى للزهد في أصل النكاح، ولا في كثرته.

قال سهل بن عبدالله: حبيب إلى رسول الله ﷺ النساء^(٦).

وكان عليٌّ عليه السلام من أزهد الصحابة، وكان له أربع نسوة، وبِضْعَ عَشْرَةَ سُرِّيَّةً^(٧).

وكان أبو سليمان الداراني يقول: كُلُّ ما شغلك عن الله، من: أهل، ومال، وولد، فهو مشؤوم.

وكشف الغطاء عن ذلك أن نقول: من غلبت عليه شهوته وخاف على

(١) هو مكيال أربعة أمداد يقدر تقريباً بـ ٢,٧٥ لitraً.

(٢) رواه مسلم (١٤٧٩)، وكذا البخاري (٢٤٦٨) كلاهما روى اللفظين.

(٣) هو الجمل الذي يستقى عليه.

(٤) القصة بالضم: الناصية، وهي شعر مقدم الرأس.

(٥) أي القصعة؛ وهي: وعاء يؤكل فيه ويترد، وكان يتخذ من الخشب غالباً.

(٦) رواه النسائي [«صحيحه» (٣٦٨٠)]، وأحمد (١٢٢٧٩) و١٣٠٤١ و١٤٠٢١ عن أنس.

أنس. وهو في «صحيح الجامع» (٣١٢٤)، و«المشكاة» (٥٢٦١).

(٧) هي الجارية المملوكة، أي: العَبْدَة.

نفسه، تَعَيَّن عليه النكاح. فأما من لا يخاف، فَهَلِ النكاح في حقه أفضل أو التعبد؟ فيه اختلاف بين العلماء. والناس مختلفون فيه، منهم من يقصد النكاح لطلب النسل ويمكنه الكسب الحلال للعائلة، فلا يقدح ذلك في دينه، ولا يتشتت قلبه، بل يجمع النكاح هَمَّهُ، وَيَكْفُ بَصَرَهُ، وَيَرُدُّ فِكْرَهُ، فهذا غاية في الفضيلة، وعليه يُخْمَلُ حالُ رسول الله ﷺ، وحالُ عليٍّ ؓ، ومن جرى مَجْراهما، ولا ألتفات إلى قول من يرى الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح، فإن ذلك يقع ضِمْنًا وَتَبَعًا للمقصود.

وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدُّون على الجميلة، وذلك محمول على أن تلك تكون إلى الدين أَمِيلًا، والنفقة عليها أقل، والأهتمام بأمرها يسير، بخلاف المستحسنة، فإنها تشتت القلب، وتشغله، وتريد زيادة في النفقة، وربما لم يكن.

وقد قال مالك بن دينار: يعمد أحدهم فيتزوج ديباجة الحي فتقول: أريد مِرْطًا^(١) فتمرط دينه.

السادس، المال: وهو ضروري في المعيشة، فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت، وكان في الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف.

وكان حَمَاد بن سَلَمَةَ إذا فتح حانوته وَكَسِبَ حَبَّتَيْنِ، قام.

وكان سعيد بن المُسَيَّبِ يَتَجَرُّ في الزيت، وَخَلَّفَ أربعمئة دينار، وقال: إنما تَرَكْتُهَا لأَصُونَ بها عِرْضِي وديني.

(١) المرط، بكسر الميم واحد المروط، وهي أكسية من صوف، أو خَزْ - أي: حرير - كان يؤتزر بها، وقوله: تمرط دينه. أي: تذهب به. من قولهم: مرط الشعر: إذا نشفه وأزاله.

السابع، الجاه: ولا بد للإنسان من جاءه حتى في قلب خادمه، وأشتغال الزاهد بالزهد يُمهّد له الجاه في القلوب، فينبغي أن يتحرز من شر ذلك. وفي الجملة فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا، وكان كثير من السلف يعرض لهم بالمال الحلال، فيقولون: لا نأخذه، نخاف أن يُفسد علينا ديننا.

فصل في بيان علامات الزهد

قد تظن أن تارك المال زاهد، وليس كذلك، فإن ترك المال، وإظهار التخشّن، سهّل على من أحب المدح بالزهد، فكّم من راهب قد لازم الدّير، وقَلّل المَطْعَم، وقوّاه على ذلك حب المَحْمَدة، كما سبق ذكره في (كتاب: الرياء).

ولا بد من الزهد في فضول الأموال والجاه جميعاً، حتى يكمل الزهد في حظوظ النفس، فأول معرفة الزهد مُشْكِلٌ.

وقد قال أبن المبارك: أفضل الزهد إخفاء الزهد.

وينبغي أن يعوّل في هذا على ثلاث علامات:

الأولى: ألا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. وهذا علامة الزهد في المال.

الثاني: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، وهذه علامة الزهد في الجاه.

الثالث: أن يكون أنسه بالله، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة.

فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى، فهما في القلب كالماء والهواء في القدح، إذا دخل الماء خرج الهواء، فلا يجتمعان.

قيل لبعضهم: إلام أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى الأئس بالله.

قال يحيى بن معاذ: الدنيا كالعروس، وَمَنْ يَطْلُبُهَا: مَاشِطُهَا^(١)، والزاهد يُسَخِّمُ^(٢) وجهها، وَيَنْتِفُ شعرها، ويخرق ثوبها، والعارف مشغول بالله تعالى عنها.

فهذا ما أردنا ذكره من حقيقة الزهد وأحكامه.
وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل.
فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.

(١) التي تتخذ المشاطة حرفه، وهي من الحرف المردولة، وأكثر ما تحتاجها القبيحة.
(٢) يقال: سخم الله وجهه، أي: سوده من السخمة وهي السوداء، ويريد هنا أن الزاهد يكره فيها ويظهر عيوبها.

٢٦ - كِتَابُ التَّوَكُّلِ وَالتَّوَكُّلِ

بيان فضيلة التوكل

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠، المائدة: ١١، التوبة: ٥١، إبراهيم: ١١، المجادلة: ١٠، التغابن: ١٣] وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وفي الحديث: أن النبي ﷺ ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفاً لا حساب عليهم، ثم قال: «هم الذين لا يَحْتَوُونَ»^(١)، ولا يَسْتَرْقُونَ»^(٢)، ولا يَتَطَيَّرُونَ»^(٣)، وعلى ربهم يَتَوَكَّلُونَ»^(٤) أخرجاه في «الصحيحين».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً»^(٥).

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك التوفيق لِمَحَابَّتِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَصِدْقِ التَّوَكُّلِ عَلَيْكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ»^(٦).

(١) الكَيُّ: إحراق الجلد بحديدة مُحَمَّاة ونحوها، وهو من العلاج المعروف في كثير من الأمراض.

(٢) أي: لا يطلبون الرقية، وهي العوذة والكلام المثلَّو على المريض وغيره لشفائه من الآفات.

(٣) أي: لا يتشاءمون.

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٤١ و ٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).

(٥) أي: تغدو بُكْرَةً وهي جياح، وتروح عِشَاءً وهي ممتلئة الأجواف. والحديث صحيح، سلف في الصفحة (١٠٥) حاشية (٢).

(٦) رواه أبو نعيم عن الأوزاعي مرسلًا، والحكيم عن أبي هريرة. وهو في «ضعيف الجامع» (١١٨٩)، و«الضعيفة» (٢٩١٠).

والتوكل يبتنى على التوحيد، والتوحيد طبقات:

منها: أن يُصَدَّقَ القلبُ بالوحدانية المُتَرَجِّم عنها قولك: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الصفات: ٣٥. محمد: ١٩] وحده ﴿لَا شَرِيكَ لَّهُ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١] أصل التوكل].
فَيُصَدَّقُ بهذا اللفظ، لكن من غير معرفة دليل! فهو اعتقاد العامة.

الثانية: أن يرى الأشياء المختلفة، فيراها صادرة عن الواحد، وهذا مقام المُقَرَّبِينَ.

الثالثة: أن الإنسان إذا أنكشف عن بصيرته أن لا فاعل سوى الله، لم ينظر إلى غيره، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل، لأنه في الحقيقة هو الفاعل وحده، فسبحانه! والكُلُّ مُسَخَّرُونَ له، فلا يَعْتَمِدُ على المطر في خروج الزرع، ولا على الغيم في نزول المطر، ولا على الريح في سير السفينة، فإن الاعتماد على ذلك جهل بحقائق الأمور. ومن أنكشف له الحقائق، علم أن الريح لا تتحرك بنفسها، ولا بد لها من محرك، فالتفت العبد في النجاة إلى الريح يُضَاهِي التفتات مَنْ أُخِذَ لَتُضْرَبَ عنقه، فوقع له المَلِكُ بالعفو عنه، فأخذ يشتغل بِذِكْرِ الجَبْرِ والكَاغِدِ^(١) والقلم الذي كتب به التوقيع ويقول: لولا هذا القلم ما تَخَلَّصْتُ، فيرى نجاته من القلم لا من مُحَرِّكِ القلم، وهذا غاية الجهل. ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه، شَكَرَ الكاتبَ دون القلم، وكل المخلوقات في قهر تسخير الخالق: أبلغ من القلم في يد الكاتب، فسبحان مُسَبِّبِ الأسبابِ ﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٦].

(١) كلمة مُعَرَّبَةٌ الأصل، تعني: الصحيفة يكتب فيها.

فصل في بيان أحوال التوكل وأعماله وحده ونحو ذلك

أَعْلَمُ أَنَّ التَّوَكُّلَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْوَكَالَةِ ، يُقَالُ : وَكَلَ فُلَانٌ أَمْرَهُ إِلَى فُلَانٍ ، أَيْ قَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَيْهِ ، وَأَعْتَمَدَ فِيهِ عَلَيْهِ .

فَالْتَّوَكُّلُ عِبَارَةٌ عَنْ اعْتِمَادِ الْقَلْبِ عَلَى الْمُوَكَّلِ ، وَلَا يَتَّوَكَّلُ الْإِنْسَانُ عَلَى غَيْرِهِ إِلَّا إِذَا أَعْتَقَدَ فِيهِ أَشْيَاءَ : الشَّفَقَةَ ، وَالْقُوَّةَ ، وَالْهِدَايَةَ .

فَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا ، فَقَسِّمْ عَلَيْهِ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ .

وَإِذَا ثَبِتَ فِي نَفْسِكَ أَنَّهُ لَا فَاعِلَ سِوَاهُ ، وَأَعْتَقَدْتَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ تَأَمُّ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالرَّحْمَةِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ قُدْرَتِهِ قُدْرَةٌ ، وَلَا وَرَاءَ عِلْمِهِ عِلْمٌ ، وَلَا وَرَاءَ رَحْمَتِهِ رَحْمَةٌ ، اتَّكَلَّ قَلْبُكَ عَلَيْهِ وَحْدَهُ لَا مَحَالَةَ ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى غَيْرِهِ بَوَاجِهِ ، فَإِنْ كُنْتَ لَا تَجِدُ هَذِهِ الْحَالَةَ مِنْ نَفْسِكَ ، فَسَبِّهْ أَحَدَ أَمْرَيْنِ :
إِمَّا ضَعْفَ الْيَقِينِ بِأَحَدِ هَذِهِ الْخِصَالِ .

وَإِمَّا ضَعْفَ الْقَلْبِ بِأَسْتِيْلَاءِ الْجُبْنِ عَلَيْهِ ، وَأَنْزَعَا جِهَ بِسَبَبِ الْأَوْهَامِ الْغَالِبَةِ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْقَلْبَ قَدْ يَنْزَعُجُ بِبَقَاءِ الْوَهْمِ وَطَاعَتِهِ لَهُ مِنْ غَيْرِ نَقْصَانٍ فِي الْيَقِينِ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَنَاوَلُ عَسَلًا فَشَبَهَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْعَذِيرَةِ^(١) ، رُبَّمَا نَفَرَ طَبْعُهُ مِنْهُ ، وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ تَنَاوُلُهُ .

وَلَوْ كُفِّلَ الْعَاقِلُ أَنَّ يَبِيتَ مَعَ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِ أَوْ فَرَّاشٍ أَوْ بَيْتٍ ، نَفَرَ طَبْعُهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ مُتَيَقِّنًا كَوْنَهُ مَيِّتًا جَمَادًا فِي الْحَالِ ، وَلَا يَنْفِرُ طَبْعُهُ عَنْ سَائِرِ الْجَمَادَاتِ ، وَذَلِكَ جُبْنٌ فِي الْقَلْبِ ، وَهُوَ نَوْعٌ ضَعْفٌ قَلَمَا يَخْلُو الْإِنْسَانُ مِنْهُ ، وَقَدْ يَقْوَى حَتَّى يَصِيرَ مَرَضًا ، حَتَّى يَخَافُ أَنْ يَبِيتَ فِي الْبَيْتِ وَحْدَهُ مَعَ غُلُقِ الْبَابِ وَإِحْكَامِهِ .

فَإِذَا لَا يَتِمُّ التَّوَكُّلُ إِلَّا بِقُوَّةِ الْقَلْبِ ، وَقُوَّةِ الْيَقِينِ جَمِيعًا ، فَإِذَا أَنْكَشَفَ لَكَ مَعْنَى التَّوَكُّلِ ، وَعَلِمْتَ الْحَالَةَ الَّتِي تُسَمَّى تَوَكُّلًا ، فَأَعْلَمُ أَنَّ تِلْكَ الْحَالَةَ لَهَا فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ :

(١) أي : الغائط .

الأولى، ما ذكرناه، وهو: أن يكون حاله في حق الله تعالى الثقة بكفالاته وعنايته، كحاله في الثقة بالوكيل.

الدرجة الثانية، وهي أقوى: أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سواها، ولا يعتمد إلا إياها، وإن نابه أمر كان أول خاطر يخطر على قلبه، وأول سابق إلى لسانه: يا أماه. فمن كان تألهه^(١) إلى الله، ونظره إليه، وأعماده عليه، كَلِفَ^(٢) به كما يَكْلِفُ الصبيُّ بأمه، فيكون متوكلاً حقاً.

والفرق بين هذا وبين الأول، أن هذا متوكِّلٌ قد فَنِيَ في توكله عن توكله، إذ لا يلتفت إلى غير المتوكِّل عليه، ولا مجال في قلبه لغيره. وأما الأول، فهو متوكِّل بالتكليف والكسب، وليس فانياً عن توكله، بل له ألتفات إليه، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكِّل عليه وحده.

الدرجة الثالثة، وهي أعلى منهما: أن يكون بين يَدَيِ الله تعالى مثل الميت بين يدي الغاسل، لا يفارقه، إلا أنه لا يرى نفسه ميتاً، وهذا يفارق حال الصبي مع أمه فإنه يفزع إلى أمه، ويصيح ويتعلق بذيلها. وهذه الأحوال توجد في الخلق، إلا أن الدوام يبعد، ولا سيما المقام الثالث.

فصل في بعض أعمال المتوكلين

قد يظن بعض الناس أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض، كالخزقة، وكَلَحِمَ على وَضَمٍ^(٣)، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع.

(١) أي: تَنَسَّكه وتعبَّده، وتطلق أيضاً على من أدعى الألوهية، فهما معنيان متغايران.

(٢) أي: أحبه وأولع به.

(٣) الوضم كل شيء يجعل عليه اللحم من خشب أو غيره، يوقى به من الأرض.

والشرع قد أثنى على المتوكلين، وإنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه إلى مقاصده. وسعي العبد إما أن يكون لجلب نفع مفقود كالكسب، أو لحفظ موجود كالادّخار، وإما لدفع ضرر لم ينزل، كدفع الصائل^(١)، أو لإزالة ضرر قد نزل، كالتداوي من المرض، فحركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة.

١ - الفن الأول، في جلب المنافع، فنقول: الأسباب التي بها تُجلب المنافع على ثلاث درجات:

أحدها: سبب مقطوع به كالأسباب التي أرتبطت بها المُسببات بتقدير الله تعالى ومشيته أرتباطاً مُطرداً لا يختلف، مثاله: أن يكون الطعام بين يديك وأنت جائع، فلا تَمُدُّ يدك إليه وتقول: أنا متوكل، وشرط التوكل ترك السعي. ومُدُّ اليد إلى الطعام سعي، وكذلك مَضْغُهُ وأَبْتَلَاعُهُ، فهذا جنونٌ مَحْضٌ، ليس من التوكل في شيء، فإنك إذا أنتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون أكل الطعام، أو يخلق في الطعام حركة إليك، أو يُسَخِّرَ ملكاً ليمضغه ويوصله إلى معدتك، فقد جهلت سنة الله.

وكذلك لو لم تزرع، وطمعت أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذرٍ، أو تَلِدَ الزوجة من غير وقاع، فكل ذلك جنون، وليس التوكل في هذا المقام ترك العمل، بل التوكل فيه بالعلم والحال.

أما العلم: فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام، واليد، والأسباب، وقوة الحركة وأنه الذي يُطْعِمُكَ وَيَسْقِيكَ.

وأما الحال: فهو أن يكون قلبك وأَعْتِمَادُكَ على فضل الله تعالى، لا على اليد والطعام، لأنه ربما جَفَّتْ يدك، وبطلت حركتك، وربما سلط الله عليك من يغلبك على الطعام، فَمُدُّ اليد إلى الطعام لا ينافي التوكل.

الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست مُتَيَقَّنَةً، لكن الغالب أن المسببات لا

(١) هو المعتدي القاهر للناس.

تَحْصِلُ دُونَهَا . مثاله من يفارق الأمصار ، ويخرج مسافراً إلى البوادي التي لا يَطْرُقُهَا ^(١) الناس إلا نادراً ، ولا يستصحب معه شيئاً من الزاد ، فهذا كالمجرب على الله تعالى ، وفعله مَنْهِيٌّ عنه وَحَمْلُهُ للزاد مأمورٌ به ؛ فإن رسول الله ﷺ لما سافر تَزَوَّدَ واستأجر دليلاً إلى المدينة ^(٢) .

الدرجة الثالثة : مُلَابَسَةُ الأسباب التي يُتَوَكَّلُ بِهَا إلى المُسَبِّبَاتِ من غير ثقة ظاهرة ، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه ، فمتى كان قصده صحيحاً وفعله لا يخرج عن الشرع ، لم يخرج عن التوكل ، لكنه ربما دخل في أهل الحرص إذا طلب فضول العيش . وترك التَكَسُّبَ ليس من التوكل في شيء ، إنما هو من فِعْلِ البطَّالين ^(٣) الذين آثروا الراحة ، وتعللوا بالتوكل .

قال عمر رضي الله عنه : المتوكل الذي يُلقِي حَبَّةً في الأرض ويتوكل على الله .

٢ - الفن الثاني ، في التعرض للأسباب بالأدخار : ومن وجد قوتاً حلالاً يشغله كسب مثله عن جمع هَمِّهِ ، فأدخاره إياه لا يُخرجه عن التوكل ، خصوصاً إذا كان له عائلة .

وفي «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ كان يبيع نخل بني النضير ، ويحبس لأهله قُوتَ سَنَتِهِمْ ^(٤) .

فإن قيل : فقد نهى رسول الله ﷺ بلالاً أن يَدَّخِرَ ^(٥)

فالجواب : أن الفقراء كانوا عنده كالضيف ، فما كان ينبغي أن يَدَّخِرَ فيجوعون ، بل الجواب : أن حال بلال وأمثاله من أهل الصُّفَّةِ كان مقتضاها

(١) أي : لا يَسْلُكُهَا .

(٢) البخاري (٣٩٠٥) عن عائشة لکن ، وقع فيه أنها قالت :

فجهزناهما أحثَّ الجهاز ، ووضعنا لهما سُفْرَةَ في جِراب .

(٣) هم العاطلون عن العمل .

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٥٧) ، ومسلم (١٧٥٧) .

(٥) هو في «المشكاة» (١٨٨٥) ، و«صحيح الترغيب» (٩٠٨ و ٩٠٩) .

عدم الأذخار، فإن خالفوا كان التوبيخ على الكذب في دعوى الحال على الأذخار الحلال.

٣ - الفن الثالث، مباشرة الأسباب الدافعة للضرر؛ ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر، فلا يجوز النوم في الأرض المَسْبُوعَة^(١)، أو مَجْرَى السيل، أو تحت الجدار الخراب، فكل ذلك مَنهِيٌّ عنه.

وكذلك لا ينقض التوكل بُس الدُّرْع، وإغلاق الباب، وشد البعير بالعِقال. قال الله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أَعْقِلُهَا^(٢) وأتوكل، أو أُطْلِقُهَا وأتوكل؟ قال: «اعْقِلُهَا وتوكل»^(٣).

ويتوكل في ذلك كله على المُسَبِّب لا على السبب، ويكون راضياً بكل ما يقضي الله عليه، ومتى عَرَضَ له إذا سُرِقَ متاعه أنه لو احترز لم يُسرق، أو أخذ يشكو ما جرى عليه، فقد بَانَ بُعْدُهُ عَنِ التَّوَكُّلِ.

وليعلم أن القَدَرَ له كالطبيب، فإن قُدِّمَ إليه الطعام فَرِحَ، وقال: لولا أنه عَلِمَ أن الغذاء ينفعني ما قَدِّمَهُ، وإن مُنِعَهُ فَرِحَ. وقال: لولا أنه علم أن الغذاء يُؤْذِينِي لَمَا مَنَعَنِي.

وأعلم أن كل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقد المريض في الطبيب الحاذق الشفيق، لم يَصِحَّ توكله، فإن سُرِقَ متاعه رضي بالقضاء، وأَحَلَّ^(٤) الآخِذَ، شَفَقَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

(١) أي: أرض كثيرة السباع.

(٢) عَقْلُ البعير: ضم رُسْغ يده إلى عَضْدِهِ، وربطهما معاً بالعقال (أي: الحبل) ليقبض بآركاً.

(٣) أخرجه الترمذي [«صحيحه» (٢٥١٧/٢٠٤٤)] عن أنس. وهو في «صحيح الجامع» (١٠٦٨)، و«تخريج مشكاة الفقير» (٢٢).

(٤) أي: أباحه له، وعفا عنه.

فقد شكّا بعض الناس إلى بعض العلماء أنه قُطِعَ عليه الطريق، وأخذ ماله فقال: إن لم يكن غمُّك، كيف صار في المسلمين من يفعل هذا أكثر من غمِّك بمالك فما نصحت المسلمين.

٤ - الفن الرابع، السعي في إزالة الضرر، كمداداة المريض ونحو ذلك:

أعلم أن الأسباب المزيلّة للضرر تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

إلى مقطوع به، كالماء المزيل لضرر العطش، والخبز المزيل لضرر الجوع، فهذا القسم ليس تركه من التوكل في شيء.

القسم الثاني: أن يكون مظنوناً، ك: الفصد، والحجامة، وشرب المُسهّل، ونحو ذلك، فهذا لا يناقض التوكل، فإن رسول الله ﷺ قد تداوى^(١) وأمر بالتداوى^(٢).

وقد تداوى خلق كثير من المسلمين، وأمتنع عنه أقوام توكلّوا.

كما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قيل له: ألا ندعو لك طبيباً؟ فقال: رأيي الطبيب. قيل: فما قال لك؟ قال: إني ﴿فَعَالٌ لَمَّا﴾ أريد.

قال المصنف رحمه الله: والذي نصره أن التداوي أفضل، ونحمل حال أبي بكر رضي الله عنه أنه قد تداوى ثم أمسك بعد انتفاعه بالدواء، أو يكون عِلْمُ قُرْبِ أَجَلِهِ بآمارات^(٣).

وأعلم أن الأدوية أسباب مُسَخَّرَةٌ بإذن الله تعالى.

القسم الثالث: أن يكون السبب مَوْهُوماً، كالكَيِّ، فيخرج عن التوكل، لأن النبي ﷺ وصف المتوكلين بأنهم «لا يكتون»^(٤).

(١) ينظر في العراقي ٢٨٤/٤-٢٨٥، والزبيدي ٥١٨/٩-٥١٩.

(٢) منها ما أخرجه أصحاب السنن عن أسامة بن شريك. وهو في «صحيح الجامع» (٢٩٣٠).

(٣) أي: علامات.

(٤) متفق عليه، سلف تخريجه في الصفحة (٤١٢) حاشية (٤).

وقد حمل بعض العلماء الكي المذكور في قوله: «لا يكتون» على ما كانوا يفعلونه في الجاهلية، فإنهم كانوا يكتون ويسترقون في زمن العافية لئلا يمرضوا، فإن النبي ﷺ كان يرقى الرقية بعد نزول المرض^(١)، وقد كوى أسعد ابن زرارة رضي الله عنه^(٢).

وأما شكوى المريض، فهي مخرجة عن التوكل، وقد كانوا يكرهون أنين المريض لأنه يُترجم عن الشكوى.

فكان الفضيل يقول: أشتهي مرضاً بلا عواد.

وقال رجل للإمام أحمد: كيف أنت؟ قال: بخير. قال: حُممت البارحة؟ قال: إذا قلت لك: (أنا بخير)، فلا تخرجني إلى ما أكره.

فأما إذا وصف المريض للطبيب ما يجده، فإنه لا يضره. وقد كان بعض السلف يفعل ذلك، ويقول: إنما أصف قدرة الله فيّ، ويتصور أن يصف ذلك لتلميذ يُقويه على الضراء، ويرى ذلك نعمة، فيصف ذلك كما يصف النعمة شكراً لها، ولا يكون ذلك شكوى.

وقد روينا أن النبي ﷺ قال:

«إني أُوَعِّك^(٣) كما يُوعِّك رجلان منكم»^(٤).

آخر التوكل

(١) الرقية والإرقاء هو في «صحيح مسلم» (٢١٩١-٢١٩٧)، وأحمد (٢٣١٩٩). و«الصحيحة» (٥٤٨).

(٢) ورد نحوه في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٩٣/٢٨١٤) أنه كوى سغد بن زرارة.

(٣) الوعك: الحُمى، وقيل: أَلْمَهَا.

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧١) عن ابن مسعود. وهو في «صحيح الجامع» (٢٤٥٥).

٢٧ - كِتَابُ الْمَحَبَّةِ وَالشُّوقِ وَالْأَنْسِ وَالرِّضَى

إَعْلَمُ أَنَّ الْمَحَبَّةَ لِلَّهِ هِيَ الْغَايَةُ الْقَصْوَى مِنَ الْمَقَامَاتِ، فَمَا بَعْدَ إِدْرَاكِ الْمَحَبَّةِ مَقَامٍ إِلَّا وَهُوَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَارِهَا، وَتَابِعٌ مِنْ تَوَابِعِهَا، كَالشُّوقِ، وَالْأَنْسِ، وَالرِّضَا، وَلَا قَبْلَ الْمَحَبَّةِ مَقَامٍ إِلَّا وَهُوَ مُقَدِّمَتُهَا، كَالتَّوْبَةِ، وَالصَّبْرِ، وَالزَّهْدِ وَغَيْرِهَا.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ مُجْمِعةٌ عَلَى أَنَّ الْحُبَّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ فَرَضٌ، وَمِنْ شَوَاهِدِ الْمَحَبَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى إِبْثَاتِ الْحُبِّ لِلَّهِ، وَإِبْثَاتِ التَّفَاوُتِ فِيهِ.

[بيان شواهد
الشرع في حب
العبد لله تعالى]

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ السَّاعَةِ فَقَالَ: «مَا أَعْدَدْتُ لَهَا؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثْرَةِ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ، إِلَّا أَنِّي أَحَبُّ إِلَيْكَ وَرَسُولِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ، وَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»^(١). فَمَا فَرَحَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحَهُمْ بِهَا.

وَرَوَى أَنَّ مَلِكَ الْمَوْتِ جَاءَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، فَقَالَ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ خَلِيلًا يَمُوتُ خَلِيلَهُ؟ فَأَوْحَى إِلَيْهِ: هَلْ رَأَيْتَ حَبِيبًا يَكْرَهُ لِقَاءَ حَبِيبِهِ؟ فَقَالَ: يَا مَلِكَ الْمَوْتِ أَقْبِضْ.

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ أَحَبَّهُ، وَمَنْ أَحَبَّ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى - لَا مِنْ حَيْثُ نَسَبَتُهُ إِلَى اللَّهِ - فَذَلِكَ لَجْهَلِهِ وَقُصُورِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، فَأَمَّا حُبُّ الرُّسُولِ ﷺ فَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَذَلِكَ حُبُّ الْعُلَمَاءِ وَالْأَتَقِيَاءِ، لِأَنَّ مُحِبَّ الْمُحِبِّينَ مُحِبٌّ، بَلْ إِنْ مَا يَفْعَلُ الْمُحِبُّونَ مُحِبُّونَ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧١٥٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٣٩) عَنْ أَنَسٍ، دُونَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

ورسول المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حُب الأصل، ولا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى، ولا مُستحق للمحبة سواه. وإيضاح ذلك يرجع إلى أسباب:

[بيان أن أحدها: أن الإنسان يحب نفسه، وبقائه، وكماله، ودوام وجوده، المستحق للمحبة ويكره ضد ذلك من الهلاك والعَدَم والنقصان، وهذا جِبِلَّةٌ^(١) كُلُّ هو الله وحده] حَيٍّ، لا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَنفَكَّ عنها. وهذا يقتضي غاية المحبة لله ﷻ،

فإن الإنسان إذا عَرَفَ به، عَرَفَ قطعاً أن وجوده ودوامه وكماله من الله، وأنه المُخْتَرَعُ له، المُوَجَّدُ لِذَاتِهِ بعد أن كان عَدَمًا مَخْضاً لولا فضلُ الله عليه بإيجاده، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل. ولذلك قال الحسن البصري: من عرف ربه أحبه، ومن عَرَفَ الدنيا، زَهَدَ فيها. وكيف يُتَصَوَّرُ أَنْ يُحِبَّ الإنسان نفسه، ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه.

السبب الثاني: أن الإنسان بالطبع يُحِبُّ من أحسن إليه ولاطفه ووَاساه، وأنتدب لِنَصْرَتِهِ وقَمَعَ أعدائه، وأعانته على جميع أغراضه، فإنه محبوبٌ عنده لا مَحَالَةٌ. وإذا عرف الإنسان حَقَّ المعرفة علم أن المُحْسِنَ إليه هو الله سبحانه وتعالى فقط. وأنواع إحسانه لا يحيط به حصر، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

وقد أشرنا إلى طرف من ذلك في (كتاب: الشكر)، ولكننا نبين أن الإحسان من الناس غير مُتَصَوِّرٍ إلا بِالْمَجَازِ، وأن المحسن في الحقيقة هو الله تعالى:

بيان ذلك أن نفرض أن شخصاً أنعم عليك بجميع خزائنه وما يملك، ومَكَّنَكَ فيها لتتصرف كيف شئت، فإنك تظن أن لهذا الإحسان منه، وهو غلط، فإنه إنما تم إحسانه بماله، وبقدرته على المال، وبداعيته الباعثة له على صرف المال. فمن الذي أنعم بِخَلْقِهِ وَخَلَقَ ماله وخلق إرادته وداعيته؟ ومن الذي حببك إليه، وصَرَفَ وجهه إليك، وألقى في نفسه أن صلاح دينه ودنياه في الإحسان إليك، ولولا ذلك ما أعطاك، فكأنه صار مقهوراً في التسليم لا

(١) أي خِلْفَةٌ وطَبْعٌ.

يستطيع مخالفته . فالمحسن هو الذي أضطره وسخره لك ، فهو جارٍ مجرى خازن أمير أمره أن يسلم إلى الإنسان خِلعة^(١) خلعتها عليه الأمير ، فإن الخازن لا يرى مُحسناً بتسليم خِلعة الأمير ، لأنه مضطر إلى طاعته ، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك . وكذلك كل محسن ، لو خلاه الله ونفسه ، لم يبذل حبة من ماله حتى يسلط الله عليه الدواعي ، ويلقي في نفسه أن حظه في بذل ذلك ، فينذله . فينبغي للعارف ألا يحب إلا الله ، إذ الإحسان من غيره مُحال .

السبب الثالث : أن المحسن في نفسه - وإن لم يصل إليك إحسانه - محبوب في الطباع ، فإنه إذا بلغك عن ملك من الملوك أنه عالم عادل عابد رفيق بالناس ، متلطّف بهم وهو في قطر بعيد ، فإنك تحبه ، وتجد في نفسك ميلاً كثيراً إليه ، فهذا حب المحسن من حيث إنه محسنٌ ، فضلاً عن أن يكون محسناً إليك . وهذا ما يقتضي حب الله تعالى ، بل يقتضي ألا يحب غيره . إلا بحيث أن يتعلّق منه بسبب ، فإنه سبحانه هو المحسن إلى الكل كافة ، بإيجادهم وتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وترفيهم ، إلى غير ذلك من النعم التي لا تحصى ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ ﴾ [إبراهيم : ٣٤ . النحل : ١٨] فكيف يكون غيره محسناً؟ وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ، فمن عرف هذا لم يُحبّ إلا الله تعالى .

وكذلك نقول : كل من كان مُتّصفاً بالعلم ، أو القدرة أو كان متنزهاً عن الصفات الرذيلة ، فإن ذلك يوجب له المحبة . فصفات الصّديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ، ترجع إلى علمهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه ، وإلى قدرتهم على إصلاح نفوسهم وإلى تنزيهم عن الرذائل والخباثات . ولمثل هذه الصفات تحبّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإذا نسبت هذه الصفات إلى صفات الله ﷻ وجدتْها مُضمّجة بالنسبة إلى صفاته سبحانه وتعالى .

(١) هي ما يعطيه الإنسان غيره من الثياب منحة ، وأصلها أن يخلع المعطي الثوب ويعطيه لغيره .

أما العلم: فإن علم الأولين والآخرين: من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل، حتى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ٣]. وقد خاطب الخلق كلهم فقال: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) [الإسراء].

ولو اجتمع أهل الأرض والسموات على أن ﴿يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩] وحكمته في تفصيل خلق نملة، أو بعوضة، لم يطلعوا على عُشْرِ عُشْرِ ذلك، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والقدر اليسير الذي عليمه الخلق كلهم، بتعليمه علموه. ففضل علم الله سبحانه على علم الخلاق كلهم خارج عن النهاية، ومعلوماته لا نهاية لها.

وأما صفة القدرة: فهي أيضاً صفة كمال، فإذا نسبت قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى، وجدت أعظم الأشخاص قوة، وأوسعهم ملكاً، وأقواهم بطشاً، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره، غاية قدرته أن يقدر على بعض صفات نفسه، وعلى بعض امتحان الإنس في بعض الأمور، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه ﴿صَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا﴾ يملك ﴿مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُورًا﴾ (٢) [الفرقان]، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى، ولا على حفظ لسانه من الخرس، ولا آذانه من الصمم، ولا بدنه من المرض، ولا يقدر على ذرة من ذرات المخلوقات. وما هو قادر عليه من نفسه وغيره، فليست قدرته من نفسه، بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك. ولو سَلَطَ بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص لأهلكته، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه.

قال الله تعالى في حق أعظم ملوك الأرض؛ ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٤] فلم يكن جميع ملكه وسلطانه إلا بتمكين الله تعالى، فنواصي الخلق جميعهم في قبضته وقدرته؛ إن أهلكتهم لم ينقص من ملكه وسلطانه ذرة، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعبأ بخلقه، فلا قادر إلا هو، فله الكمال والعظمة والبهاء والكبرياء والقهر والاستيلاء. فإن تُصَوِّرَ أن تحب قادراً؛ لكمال قدرته وعظمته وعلمه، فلا يستحق ذلك سواه، ولا يتصور كمال

التقديس والتنزيه إلا له سبحانه، فهو الواحد الذي لا ند له، الفرد الذي لا ضد له، الصمد، الذي لا منازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: الحج: ١٨]. و﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، العالم الذي ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبا: ٣] ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١].

وكمال معرفة العارفين: الاعتراف بالعجز عن معرفته، وهو المستحق لكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً.

فصل في بيان أن أجل اللذات واعلاها معرفة الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم وانه لا يتصور أن يؤثر على ذلك لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

أعلم أن اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامعٌ لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة وغريزة لذة. ولم تُخلق هذه الغرائز عبثاً، بل لأمر من الأمور، وهو مقتضاها بالطبع:

فغريزة شهوة الطعام خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام.

ولذة البصر والسمع في الإبصار والإسماع.

وكذلك في القلب غريزة تُسمى التور الإلهي، وقد تُسمى العقل، وتُسمى البصيرة الباطنة، وتُسمى نور الإيمان واليقين، وهذه الغريزة خلقت ليُعَلِّمَ بها حقائق الأمور كلها بطبيعتها، فمقتضى طبيعتها العلم والمعرفة، وذلك لذتها.

وليس يخفى أن العلم والمعرفة، ولو في شيء خسيس: يُفَرِّحُ به، وأن من ينسب إلى الجهل ولو في شيء خسيس: يَغْتَمُّ به، وكل ذلك لفرط لذة العلم، وما يستشعره من كمال ذاته. فإن العلم من أحسن الصفات ومُنْتَهَى الكمال، ولذلك يرتاح الإنسان بطبعه إذا أُثني عليه بالذكاء، وغزارة العلم، ثم ليس لذة العلم بالجرأة والخياطة كَلَّذَة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق، ولا لذة العلم بالشعر والنحو، كلذة العلم بالله تعالى وملائكته وملوكوت السموات

والأرض، بل لذة العلم بِقَدْرِ شَرَفِ العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، فبهذا أستبان أنه أَلَدُّ المعارف أشرفها، وشرفها بِحَسَبِ شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم، فالعلم به أَلَدُّ العلوم لا محالة وأشرفها.

وليت شعري، هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومُكَمِّلِها ومُزَيِّنِها ومُبَدِّئِها ومُعِيدِها ومُدَبِّرِها ومُرَبِّئِها؟ وهل يُتَصَوَّرُ أن يكون حَضْرَةُ في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بجلالها وكمالها وعجائب أمورها وَصْفُ الواصفين؟

فينبغي أن تعرف أن لَذَّةَ المعرفة أقوى من جميع اللذات المُدْرَكَة بالحواس الخمس، فإن المعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة، فلو خُيِّرَ الرجل بين لَذَّةِ أكل الدجاج السمين واللوزينج^(١)، وبين لَذَّةِ الرياسة، وقهر الأعداء، ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المُخَيَّرُ خسيسَ الهمة مَيَّتَ القلب شديد الشهوة البهيمية أختار اللحم والحلواء، وإن كان عليَّ الهمة كامل العقل، فإنه يختار الرياسة، ويَهْوَنُ عليه الجوع والصبر على ضرورة القوت أياماً. فأختاره للرياسة دليل على أنه أَلَدُّ عنده من المطاعم الطيبة.

وكما أن لَذَّةَ الرياسة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الناقص الهمة، فلذَّةَ معرفة الله ﷻ والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية أَلَدُّ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق، وهذا لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً، فإنه لا محالة يُؤَثِّرُ التَبَتُّلَ والتفرد والفكر والذكر، وينغمس في بحار المعرفة، ويترك الرياسة، ويحتقر الخلق، لِعِلْمِهِ بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته، وكون ذلك مشوباً بالكدر، مقطوعاً بالموت. وتعظم عنده معرفة الله ﷻ، ومطالعة صفاته وأفعاله، ونظام مملكته، فإنها خالية عن المزاجمات والمكدرات، مُتَّسِعَةٌ للمُتَوَارِدِينَ عليها، لا تَضِيقُ عنه، فلا يزال العارف

(١) هو: شبه القطائف، يؤدم: بدهن اللوز، والسكر، والعسل.

بمطالعتها في ﴿ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] يرتع^(١) في رياضها، وَيَقْطِف من ثمارها، وَيَكْرَع^(٢) من حياضها، وهو آمِنٌ من أنقطاعها، إذ هي أَبَدِيَّةٌ سَرْمَدِيَّةٌ^(٣)، لا يقطعها الموت، لأن الموت لا يَهْدِم مَحَلَّ معرفة الله تعالى، إذ محلها الروح، وإنما الموت يُغَيِّر أحوالها، أما أن يُغْدِمَهَا فلا .

والعارفون درجات عند الله تعالى؛ يتفاوتون، لا يدخل تفاوتُ درجاتهم تحت الحُضْر، وهذه الأمور لا تُدْرِك إلا بالذوق، والحكاية فيها قليلة الجدوى. فهذا القَدْر يُبْهِك على أن معرفة الله تعالى أَلَدَّ الأشياء، وأنه لا لَذَّة فوقها .

ولهذا قال أبو سليمان الداراني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إن لله عبداً ليس يشغلهم عن الله فَكَلَّ خوفُ النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله تعالى؟

وقال بعض أصحاب معروف^(٤): قلت له: أي شيء أهاجك^(٥) على العبادة؟ فسكت. فقلت: ذكر الموت؟ فقال: وأي شيء الموت؟ قلت: ذكر القبر. وقال: وأي شيء القبر؟ قلت: خوف النار ورجاء الجنة. فقال: وأي شيء هذا؟ إن مَلِكاً^(٦) هذا كله بيده، إن أَحَبَبْتَهُ أَنْسَاكَ جميع ذلك، إن كانت بينك وبينه معرفةٌ كَفَاكَ جميع ذلك .

وقال أحمد بن الفتح: رأيت بشر بن الحارث في منامي، فقلت له: ما فعل معروف الكرخي؟ فحرك رأسه ثم قال: هيهات! حالت بيننا وبينه الحجب، إن معروفاً لم يعبد الله شوقاً إلى جنته، ولا خوفاً من ناره، وإنما عبده شوقاً إليه، فرفعه الله إلى الرفيق الأعلى، ورفع الحُجْب بينه وبينه .

(١) أي: ينعم بما فيها من اللذات .

(٢) الكَرَع: هو تناول الشراب من موضعه بفمه، من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء .

(٣) السرمَد: الدائم الذي لا ينقطع .

(٤) هو معروف الكرخي: عابد مشهور، دفن بالجانب الغربي من بغداد .

(٥) أي: أثاركَ وحَثَّكَ .

(٦) في المطبوع: «فإن ملك» .

فمتى حصلت محبة الله تعالى لشخص، صار قلبه مستغرقاً بها، ولا يلتفت إلى الجنة، ولا يخاف من نار^(١)، فإنه قد بلغ النعيم الذي ليس فوقه نعيم. قال بعضهم:

وَهَجَرَهُ أَعْظَمُ مِنْ نَارِهِ وَوَضَلَهُ أَطْيَبُ مِنْ جَنَّتِهِ
وإنما أراد بهذا لذة القلب في معرفة الله تعالى، وأنها مفضلة على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإن الجنة مَعْدِنٌ تَمْتَعُ الحواس، وأما القلب فلذته في لقاء الله تعالى فقط.

وأعلم أن لذة النظر في الآخرة تزيد على المعرفة في الدنيا، وقد أقتضت سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن، ومقتضى الشهوات، وما يغلب عليها من الصفات البشرية: لا تنتهي إلى المشاهدة، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة، كحجاب الأجفان عن رؤية الإبصار.

والقول في سبب كونه حجاباً يطول. فإذا أرتفع الحجاب بالموت، بقيت النفس وفيها نوع تلوث بالدنيا، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وقد صُفُوا من الأكدار، تجلّى لهم الحق ﷻ على قدر معرفتهم في الدنيا.

فكل من لا يعرف الله تعالى في الدنيا، لا يراه في الآخرة. وما يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا يموت المرء إلا على ما عاش عليه، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء، فتضاعف اللذة، والعيش عيش الآخرة. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وعيش الآخرة بقدر المعرفة، ولهذا جاء في الحديث:
«خير الناس من طال عمره وحسن عمله»^(٢) وذلك لأن المعرفة إنما تكمل

(١) إن هذا من التكلف الذي لا دليل له من الشرع، والله سبحانه قد رغبنا بجنته ونعيمها، وأخافنا من ناره وعذابها، وأستعاذ منها رسول الله ﷺ في الكثير من الأحاديث الصحيحة.

(٢) صحيح، سلف تخريجه في الصفحة (٣٥٢) حاشية (١).

وَتَكْثُرُ وَتَتَّسِعُ فِي الْعُمُرِ الطَّوِيلِ بِمُدَاوِمَةِ الْفِكْرِ وَالذِّكْرِ، وَالْمُواظَبَةِ عَلَى الْمُجَاهِدَةِ، وَالْإِنْقِطَاعِ عَنْ عِلَاقِ الدُّنْيَا، وَالتَّجَرُّدِ لِلطَّلَبِ، فَقَدْ عَرَفْتَ بِمَا ذَكَرْنَا: مَعْنَى الْمَحَبَّةِ، وَمَعْنَى لَذَّةِ الْمَعْرِفَةِ، وَمَعْنَى الرُّؤْيَةِ وَلَذَّتِهَا، وَمَعْنَى كَوْنِهَا أَلَذَّ مِنْ سَائِرِ اللَّذَاتِ عِنْدَ أَهْلِ الْكَمَالِ.

فصل في بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى وتفاوت الناس في الحب وبيان السبب في قصور افهام الخلق عن معرفة الله تعالى

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَسْعَدَ النَّاسِ وَأَحْسَنَهُمْ حَالًا فِي الْآخِرَةِ أَقْوَاهُمْ حُبًّا لِلَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ الْآخِرَةَ مَعْنَاهَا الْقُدُومُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَدَرَكَ سَعَادَةِ لِقَائِهِ. وَمَا أَعْظَمَ نَعِيمَ الْمَحَبِّ إِذَا قَدِمَ عَلَى مَحْبُوبِهِ بَعْدَ طَوْلِ شَوْقِهِ، وَتَمَكَّنَ مِنْ مَشَاهِدَتِهِ مِنْ غَيْرِ مُنْغَصٍ وَلَا مُكْدَّرٍ، إِلَّا أَنَّ هَذَا النِّعِيمَ عَلَى قَدَرِ الْمَحَبَّةِ، فَكُلَّمَا أَزْدَادَ الْحَبَّ أَزْدَادَتِ اللَّذَّةُ.

وَأَصْلُ الْحَبِّ لَا يَنْفَكُ عَنْهُ مُؤْمِنٌ، لِأَنَّهُ لَا يَنْفَكُ عَنْ أَصْلِ الْمَعْرِفَةِ، وَأَمَّا قُوَّةُ الْحَبِّ وَأَسْتِيلَاؤُهُ، فَذَلِكَ يَنْفَكُ عَنْهُ الْأَكْثَرُونَ. وَإِنَّمَا يَحْصُلُ ذَلِكَ بِشَيْئَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: قَطْعُ عِلَاقِ الدُّنْيَا، وَإِخْرَاجُ حُبِّ غَيْرِ اللَّهِ مِنَ الْقَلْبِ، فَأَحَدُ أَسْبَابِ ضَعْفِ حَبِّهِ، قُوَّةُ حُبِّ الدُّنْيَا، وَيَقْدِرُ مَا يَأْنِسُ الْقَلْبَ بِالدُّنْيَا يَنْقُصُ أَنْسَهُ بِاللَّهِ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ضَرَّتَانِ^(١)، وَسَبِيلُ قَطْعِ الدُّنْيَا عَنِ الْقَلْبِ: سُلُوكُ طَرِيقِ الزَّهْدِ، وَمُلَازِمَةُ الصَّبْرِ، وَالْإِنْقِيَادُ إِلَيْهِمَا بِزِمَامِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْمَقَامَاتِ كَ (: التَّوْبَةِ) وَ (: الصَّبْرِ) وَ (: الشُّكْرِ) وَ (: الزَّهْدِ) وَ (: الْخَوْفِ) وَغَيْرِ ذَلِكَ.

السَّبَبُ الثَّانِي، لِقُوَّةِ الْمَحَبَّةِ: قُوَّةُ مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا حَصَلَتِ الْمَعْرِفَةُ تَبِعَتْهَا الْمَحَبَّةُ، وَلَا يُوصِلُ إِلَى هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ بَعْدَ انْقِطَاعِ شَوَاعِلِ الدُّنْيَا مِنَ الْقَلْبِ

(١) الضَّرَّةُ: إِحْدَى زَوْجَاتِ الرَّجُلِ.

إلا الفِكْرُ الصافي، والذكر الدائم، والتشمير في الطَّلَب، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه. وأقلُّ أفعاله: الأرض وما عليها، بالإضافة إلى الملائكة ومَلَكَوت السماوات.

والشمس - على ما يُرى من صِغَرِ حجمها - مثلُ الأرض مئةً ونِيفاً وستين مرة، فأنظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها، ثم أنظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فَلَكِها الذي هي مَرْكَوزة فيه وهي في السماء الرابعة^(١)، والسماء الرابعة صغيرة بالنسبة إلى ما فوقها من السماوات، ثم (السماوات السبع في الكرسي كَحَلَقَةٍ ملقاة في فلاة، والكرسي في العرش كذلك)^(٢).

ثم أنظر إلى الآدمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض، وإلى سائر الحيوانات، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض، وأصغر ما تعرفه من الحيوانات البعوض^(٣)، فأنظر فيه بعقل حاضر، كيف خلقه الله ﷻ على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات، وزاده الجناحين، وأنظر كيف شق سمعه وبصره، وخلق في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته، ودَبَّرَه في سائر أحواله، من القُوَى الجاذبة والدافعة والهاضمة، وأنظر كيف خلق له الطيران يطير إذا طلب، وجعل له خرطوماً مُحدَّداً^(٤) يَمُصُّ به الدَّم.

(١) ليس في هذا خبر تصح نسبته إلى النبي ﷺ، وإنما هو ضرب من الاجتهاد الإنساني الذي يخضع للمقاييس العلمية الدقيقة، ويحكم عليها بموجبها من صواب أو خطأ، والقسم الأخير وهو قوله: «السماوات السبع في الكرسي كحلقة . . .» إلخ فإنه صحيح.

وأنظر «شرح العقيدة الطحاوية» للعلامة ابن أبي العز، تخريج الألباني، وتقديمي، صفحة ٢٧٩ الطبعة التاسعة في المكتب الإسلامي.

(٢) معنى حديث في «الصحيحة» (١٠٩).

(٣) عبارة «الإحياء» ٣١٨/٤: (فأصغر ما نعرفه من الحيوانات: البعوض والنحل وما يجري مجراه). وعلى كُلِّ فليست هذه الحيوانات هي أصغرها، وليس الفيل هو أكبرها.

(٤) أي: مشحوداً قاطعاً.

وأنظر إلى النحل في تناولها الأزهار من الأنوار^(١)، وأحترازها عن الأقدار، وطاعتها إلى كبيرها، حتى إنه يقتل كل ما وُرد عليه وقد أكل مُستقذراً، وإلى اختيارها الشكل المُسدّس، فلا تبني بيتاً مربعاً، ولا مستديراً، ولا مُخمّساً، بل مُسدّساً، لخاصيّته في الشكل المُسدّس، فإن أوسع الأشكال وأحواها المستدير وما يقرُب منه، فإن المُربّع تخرج منه الزوايا ضائعة، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فُرَجٌ ضائعة، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصّة، فلا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير، ثم تتراصّ الجملة منه، بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا^(٢) المسدس، فأنظر كيف ألهمه الله تعالى ذلك على صِغَرِ حجمه وضعفه، فأعتبر بهذه اللُمة^(٣) اليسيرة من مُحَقَّرات^(٤) الحيوانات، فبالنظر^(٥) في هذا وأشباهه تزداد المعرفة به، فتزداد المحبة.

وأما السبب في تفاوت الناس في الحب:

[بيان السبب في تفاوت الناس في
تفاوت المعرفة، فكثير من الناس ليس لهم من معرفة الله تعالى إلا
الصفات والأسماء التي قرعت أسماعهم، والعالم البصير يطالع تفصيل صنع الله تعالى حتى يرى ما يَبْهَرُ عَقْلَهُ، فتزداد عَظْمَةُ الله في قلبه، فيزداد حُبّاً له، وتجرح هذه المعرفة التي هي معرفة عجائب صنع الله تعالى إلى بَحْرِ لا ساحل له.]

وأما السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى:

[بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة
الله سبحانه] فاعلم أن كل من صنع شيئاً دل المصنوع على وجود صانعه، وعلى علمه وحياته وقدرته دلالة جلية ظاهرة، وإن كانت هذه

(١) عبارة «الإحياء»: (والأنوار) وهو الصواب، لأن الأنوار جمع نُور وهو الزهر نفسه.

(٢) أصلحت من «الإحياء» عن (إلى).

(٣) يُقصد بها هنا القطعة اليسيرة من الشيء.

(٤) أي: الصغائر.

(٥) أصلحت من «الإحياء» عن (فالنظر).

الصفات لا تُدرك بشيء من الحواس الخمس. فوجود الله سبحانه وتعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهد من حَجَرٍ وشجر ومَدَرٍ^(١) ونبات وحيوان وأرض وسماء وكوكب وبرٍّ وبحر، بل أول شاهد علينا أنفسنا وأجسامنا، وتقلب أحوالنا، وتغير قلوبنا، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا.

وجميع ما في العالم شواهد ناطقة، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومُدبِّرها ومصرِّفها^(٢) ومُحرِّكها، ودالة على علمه وقدرته وحياته ولطفه وجِكمته وعظَّمته وجلاله، إذ كل ذرة تنادي بلسان حالها: أنه ليس وجودها بنفسها، وأنها تحتاج إلى مُوجد لها، لكن عقولنا بالنسبة إلى إدراك الحضرة الإلهية، كالخُفَّاش بالنسبة إلى النهار، فإنه لضعف بصره يُبصر بالليل، ولا يبصر بالنهار، وليس عَدَمُ إِبصاره بالنهار لخفائه، بل لشدة ظهوره وأستنارته وضعف أعين الخُفَّاش، فكذلك عقولنا ضعيفة عن إدراك الحضرة الإلهية. فسبحان من احتجب بإشراق نوره، وأخفى به عن البصائر والأبصار، فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله سبحانه وتعالى.

وأنضم إلى ذلك أيضاً أن المُدركات الشاهدة لله تعالى، إنما يُدركها الإنسان في حال الصُّبا قبل حضور العقل عنده، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً، وهو مُستغرقُ الهمِّ، مشغول به، وقد أنس بمُدركاته وألفها، فسقط وقُوعها عن قلبه بطول الأُنس.

وكذلك إذا رأى فجأة حيواناً غريباً، أو نباتاً، أو فعلاً من أفعال الله تعالى عجباً خارقاً للعادة، أنطلق لسانه بالتعجب، فقال: سبحان الله! سبحان الله! وهو يرى طول النهار نفسه، وجميع أعضائه، وجميع الحيوانات المألوفة، وكلها شواهد قاطعة، فلا يُحسّ بشهادتها لطول الأُنس بها.

(١) هو: الطين اللزج المتماسك.

(٢) أي: مُدبِّرها ومُوجِّهها.

ولو فرض أن أعمى^(١) بلغ عاقلاً، ثم انقشعت غشاوة عينه، فامتدّ بصره إلى السماء، والأرض، والأشجار، والنبات، والحيوان دفعة واحدة، لَخِيفَ على عقله أن يَنْبَهَرَ، لِعِظَمِ تعجّبه من مشاهدة هذه العجائب، وشهادتها لخالقها، فهذا وأمثاله من الأسبابِ مع الأنهماك في الشهوات هو الذي سَدَّ على الخَلْقِ سبيل^(٢) الاستضاءة بنور المعرفة، والسُّباحة في بحارها الواسعة، والله أعلم وأحكم.

فصل في بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

قد تقدم الكلام في المحبة وإثباتها بالأدلة، وأن الشوق ثمرة من ثمارها، فإن من أحب شيئاً أشتاق إليه.

وَأَعْلَمُ أن الشوق لا يُتَصَوَّرُ إلا لشيء أَدْرِكُ من وجهه ولم يُدْرِكْ من وجهه. فأما ما لا يُدْرِكُ أصلاً، فلا يُشْتاقُ إليه، وكمال الإدراك بالرؤية، وإنما يكون ذلك في الآخرة.

وَأَعْلَمُ أن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما يُكْشَفُ لكل عبد من العباد بعضها، ويبقى أمور لا نهاية لها، والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى، ويعلم أن ما غاب عن عِلْمِهِ من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال العبد متشوقاً إلى أن يَخْصُلَ له أصل المعرفة، وينتهي الشوق الأول في الدار الآخرة بالمعنى الذي يُسمَّى رؤية ولقاء ومشاهدة، ولا يُتَصَوَّرُ أن يسكن قلب المشتاق في الدنيا.

وكان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين، فقال يوماً: يا رب! إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني، فقد أضرب بي القلق. قال: فرأيتك ﷺ في النوم، فقال: يا إبراهيم! أما أَسْتَحْيِيْتُ مني؟ تسألني

(١) في «الإحياء» ٣٢٢/٤ بدلها: (أَكْمَه) وهو أجود، لأن معناه الذي وُلِدَ أعمى.

(٢) أصلحت من «الإحياء» عن (إلى سبيل).

أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي، وهل يسكن قلب المشتاق قبل لقاء حبيبه؟ فقلت: يا رب! تَهْتُ في حبك فلم أذِرْ ما أقول.

فهذا الشوق يَسْكُنُ في الآخرة. وأما غير ذلك - مما هو معلوم لله - فلا نهاية له، فلا يَتَضَحُّ للعبد ولا يحيط به، فهو مشغول بلذّة ما ظهر له، ولا يزال النعيم واللذّة مُتَزَايِدِينَ حتّى يشتغل عن الإحساس بالشوق إلى ما وراء ذلك، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشِفٌ لحقائق الشوق ومعانيه.

ومن شواهد الأخبار، ما روي أن رسول الله ﷺ علّم رجلاً دعاء، وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم، فذكر فيه:

«أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَبِرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَشَوْقاً إِلَى لِقَائِكَ»^(١).

وفي التوراة: يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشدّ شوقاً.

وفي بعض ما أوحى الله ﷻ إلى بعض عباده: إن لي عباداً من عبادي، يحبوني وأحبهم، وأشتاق إليهم ويشتاقون إليّ، ويذكروني وأذكرهم، فإن حَدَوْتُ طريقهم أَحَبَبْتُكَ، وإن عدلت عنهم مَقْتُكَ. قال: يا رب! وما علامتهم؟ قال: يُرَاعُونَ^(٢) الظلال بالنهار، كما يُرَاعِي^(٣) الرّاعي الشفيق غنمه، وَيَجِئُونَ إلى غروب الشمس كما تَجِئُ الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا جَنَّتْ^(٤) الليل، وأختلط الظلام، وفُرِشَتِ الفُرُشُ، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا أقدامهم، وأفترشوا وجوههم، وناجوني بكلامي، وَتَمَلَّقُونِي^(٥) بإنعامي،

(١) جزء من حديث طويل لزيد بن ثابت أخرجه أحمد والطبراني والحاكم. وهو في «صحيح الترغيب» (٦٥٧).

(٢) و(٣) أصلحتا من «الإحياء» عن: (يرعون . . . يرعى).

(٤) أي: سترهم.

(٥) التملق هو: الزيادة في التودد والدعاء بالكلام اللطيف والتضرع، فوق ما ينبغي، هذا بالنسبة للناس، وأما بالنسبة لله فليس فيه فوق ما ينبغي.

فَبَيَّنَ صَارِخٌ وَبَاكِ، وَبَيْنَ مَتَاوُهُ وَشَاكِ، وَبَيْنَ قَائِمٍ وَقَاعِدٍ، وَبَيْنَ رَاكِعٍ وَسَاجِدٍ، بَعِينِي مَا يَتَحَمَّلُونَ مِنْ أَجْلِي، وَبِسْمِعِي مَا يَشْكُونَ مِنْ حَبِي.

فصل في بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها

وبيان علامات محبة العبد لله تعالى

وأما محبة الله تعالى للعبد، فأعلم أن شواهد القرآن مُتَظَاهِرَةٌ عَلَى ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا﴾ [آية (١)]. وَبِهِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَعَذِّبُ مَنْ يَحِبُّهُ، لِأَنَّهُ رَدَّ عَلَى مَنْ أَدْعَى أَنَّهُ حَبِيبُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨]. وَشَرَطَ لِلْمَحَبَةِ غُفْرَانَ الذُّنُوبِ فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وفي الحديث الصحيح، من رواية أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ» (٢)، إِلَى آخِرِهِ. وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ.

وَمِنْ عِلَامَةِ حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ، قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنْ أَحَبَّ اللَّهُ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا أَبْتَلَاهُ» (٣).

وَمِنْ أَقْوَى الْعِلَامَاتِ، حَسَنُ التَّدْبِيرِ لَهُ، يُرَبِّيهِ مِنَ الطُّفُولَةِ عَلَى أَحْسَنِ نِظَامٍ، وَيَكْتُبُ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ، وَيُنَوِّرُ لَهُ عَقْلَهُ، فَيَتَّبِعُ كُلَّ مَا يُقَرِّبُهُ، وَيَنْفِرُ عَنْ كُلِّ مَا يُبْعِدُهُ عَنْهُ، ثُمَّ يَتَوَلَّاهُ بِتَيْسِيرِ أُمُورِهِ، مِنْ غَيْرِ دُلٍّ لِلخَلْقِ، وَيُسَدِّدُ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ، وَيَجْعَلُ هَمَّهُ هَمًّا وَاحِدًا، فَإِذَا زَادَتِ الْمَحَبَّةُ، شَغَلَهُ بِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ.

(١) سورة الصف، الآية ٤ وتامامها ﴿كَأَنَّهُمْ بُتْنٌ مَرْصُومٌ﴾.

(٢) أخرجه البخاري، وسلف تخريجه في الصفحة (٣٠٥) حاشية (١).

(٣) أخرج نحوه الترمذي [«صحيحه» (٢٣٩٦/١٩٥٤)]، وابن ماجه [«صحيحه»

(٤٠٣١/٣٢٥٦)] من حديث أنس. وهو في «الصحيحه» (١٤٦)، و«المشكاة»

(١٥٦٦).

وأما محبة العبد لله تعالى، فأعلم أن المحبة يدعيها كل أحد، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى! فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان، وخداع النفس - إذا أدعت محبة الله تعالى - ما لم يمتحنها بالعلامات، ويطلبها بالبراهين، فمن العلامات حُب لقاء الله تعالى في الجنة، فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته، وهذا لا ينافي كراهة الموت، فإن المؤمن يكره الموت، ولقاء الله بعد الموت.

ومن السلف من أحب الموت، ومنهم من كرهه، إما لضعف محبته، أو لكونها مشوبة بحب شيء من الدنيا أو لأنه يرى ذنوبه فيحب أن يبقى ليتوب.

ومنهم من يرى نفسه في ابتداء مقام المحبة، فيكره عجلة الموت قبل أن يستعد للقاء الله تعالى، ولهذا كمحب يصله الخبر بقدم حبيبه عليه، فيحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيئ له داره، ويُعد^(١) له أسبابه، فيلقاه كما يهواه، فأرغ القلب عن الشواغل، خفيف الظهر عن العوائق، فالكرهية بهذا السبب لا تُنافي كمال المحبة، وعلامة هذا: الدؤوب في العمل، وأستغراق الهم في الاستعداد.

ومنها أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيجتنب اتباع الهوى، ويُعرض عن دعة^(٢) الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله تعالى مُتقرباً إليه بالنوافل.

ومن أحب الله فلا يعصيه، إلا أن العصيان لا ينافي أصل المحبة، إنما يضاد كمالها، فكم من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره، وسببه أن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب، فيعجز عن القيام بحق المحبة، ويدل على ذلك حديث نُعَيْمَان أنه كان يؤتى به إلى رسول الله ﷺ فيَحْدَه^(٣) إلى أن أتى به يوماً، فحدّه، فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) أصلحت من «الإحياء» ٤ / ٣٣١ عن: (يعدل له أسبابه).

(٢) أي: السكون والخلود إليه.

(٣) أي: يقيم عليه الحد.

«لا تلعبه، فإنه يحب الله ورسوله»^(١) فَلَمْ تُخْرِجْهُ المعصية عن المحبة، وإنما تخرجه عن كمال المحبة .

ومن العلامات أن يكون مُسْتَهْتَرًا^(٢) بذكر الله تعالى، لا يَفْتُرُ عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فإن من أحب شيئاً أكثرَ مِنْ ذِكْرِهِ بالضرورة، ومن ذَكَرَ ما يتعلق به، فعلامه حب الله: حُبُّ ذِكْرِهِ، وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم .

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] .

وقال بعض السلف: كنت قد وجدت حلاوة المناجاة، فكنت أذمن^(٣) قراءة القرآن، ثم لَحِقْتَنِي قُتْرَةٌ^(٤)، فَأَنْقَطَعْتُ، فرأيت في المنام قائلاً يقول:

إِنْ كُنْتَ تَزْعَمُ حَبِي فَلِمَ هَجَرْتَ كِتَابِي
أَمَا تَدْبِرْتَ مَا فِيهِ مِنْ لَطِيفِ عِتَابِي

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة، ومناجاة الله تعالى، وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، وَيَغْتَنِمُ هدوء الليل وصفاء الوقت بأنقطاع العوائق، فإن أقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب، والتنعم بمناجاته .

روي أن عابداً عَبَدَ الله في غَيْضَةٍ^(٥) دهرًا، فنظر إلى طائر قد عَشَّشَ في شجرة يأوي إليها، وَيَصْفِرُ عندها . فقال: لو حَوَّلْتُ مسجدي إلى تلك الشجرة

(١) إنما أخرج البخاري (٦٧٨٠) عن عمر أن المضروب هو عبد الله الحمار . لكن ادعى بعضهم أنه التَّعِيْمَانُ، أو ابن النعيمان - مع أنها قصة أخرى أخرجها البخاري (٢٣١٦) عن عقبة - وقد ذكر الخلاف في ذلك في «الفتح» عند الحديث رقم (٦٧٨٠) .

(٢) اسْتَهْتَرَ بالشيء أي فُتِنَ به ولزمه غير مبالٍ بنقد ولا موعظة . اهـ . فهو على خلاف ما يستعمله الناس اليوم .

(٣) أي: أواظب عليها .

(٤) أي: سكون وتقليل من العبادات .

(٥) هي: الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتف، وتكون كثيرة الماء .

كنت آنسُ بصوت هذا الطائر، ففعل فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل لفلان العابد: أستاذنتُ بمخلوق، لأخطئك^(١) درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً.

فإذاً: علامة المحبة: كمال الأنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعم بالخلوة، وكمال الاستيحاش من كل ما ينقص عليه الخلوة.

ومتى غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحب والأنس قلبه، حتى لا يفهم أمور الدنيا، ما لم تتكرر على سمعه مراراً، مثل العاشق الولهان^(٢).

ومنها أن يتأسف على ما يفوته من ذكر الله تعالى، ويتنعم بالطاعة لا يستثقلها، ويسقط عنه تعبها.

قال ثابت البناني رحمته الله: كابدت^(٣) الصلاة عشرين سنة، وتنعمتُ بها عشرين سنة.

وقال الجنيد: علامة المحبة دوام النشاط، والدؤوب بشهوة تُفتر^(٤) بدنه ولا تُفتر قلبه.

وكل هذا موجود المثل في المشاهدات، فإن المحب لا يستثقل السعي في مراد محبوبه، ويستلذ خدمته بقلبه، وإن كان شاقاً على بدنه، وكل حب قاهر لا محالة، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل: ترك الكسل في خدمته، وإن كان أحب إليه من المال، ترك المال في حبه.

ومنها أن يكون شقيقاً على جميع عباد الله، رحيماً بهم، شديداً على أعدائه، كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب له صارف.

(١) معناه: لأنزلتك منزلة أنقص مما كنت عليها.

(٢) أي: المتحير من شدة عشقه.

(٣) أي: قاسيتُ شدتها عشرين سنة، ثم بعد ذلك أصبحت عشرين أخرى نعيماً لي بعد أن زالت شدتها.

(٤) أي: تضعف الشهوة بدنه. وقد أبدلت من «الإحياء» عن: (يُفتر) لأنها أصح.

فهذه علامات المحبة . فَمَنْ أَجْتَمَعَتْ فِيهِ فَقَدْ تَمَّتْ مُحَبَّتُهُ ، وَصَفَا فِي الْآخِرَةِ شِرَابُهُ ، وَمَنْ أَمْتَزَجَ بِحَبِّهِ حُبَ غَيْرِ اللَّهِ ، تَنَعَّمَ فِي الْآخِرَةِ بِقَدَرِ حَبِّهِ ، فَيُمَزَجُ شِرَابُهُ بِشَيْءٍ مِنْ شِرَابِ الْمُقَرَّبِينَ ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (١) إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ (٢٥) خِتَمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتَافٍ لِّلْمُنْتَفِسِينَ ﴾ (٢٦) وَمِرَاجُهم مِّن تَسْنِيمٍ ﴾ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٢٨) فِقُوبِلِ الْخَالِصِ بِالضَّرْفِ (٢) ، وَالْمَشُوبِ بِالْمَشُوبِ . ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٨) [الزلزلة] .

ومنها أن يكون في حبه خائفاً بين (٣) الهَيْبَةِ والتَعْظِيمِ ، فَإِنَّ الْخَوْفَ لَا يُضَادُّ الْمَحَبَّةَ ، وَلِخُصُوصِ الْمُحِبِّينَ مَخَافٍ فِي مَقَامِ الْمَحَبَّةِ لَيْسَتْ لِغَيْرِهِمْ ، وَبَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ ، فَأُولَئِهَا خَوْفُ الْإِعْرَاضِ ، وَأَشَدُّ مِنْهُ خَوْفُ الْحِجَابِ ، وَأَشَدُّ مِنْهُ خَوْفُ الْإِبْعَادِ .

ومنها كَيْثَمَانُ الْحُبِّ ، وَاجْتِنَابُ الدَّعْوَى ، وَالتَّوَقُّيُّ مِنْ إِظْهَارِ الْوَجْدِ وَالْمَحَبَّةِ ، تَعْظِيماً لِلْمُحَبُّوبِ ، وَإِجْلَالاً لَهُ ، وَهَيْبَةً وَغَيْرَةً عَلَى سِرِّهِ ، فَإِنَّ الْحُبَّ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ الْحَبِيبِ . وَقَدْ يَقَعُ الْمُحِبُّ فِي دَهْشٍ وَسُكْرٍ (٤) ، فَيُظْهِرُ عَلَيْهِ الْحُبَّ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ ، فَهُوَ فِي ذَلِكَ مُعْذُورٌ ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ :

وَمَنْ قَلْبُهُ مَعْ غَيْرِهِ كَيْفَ حَالُهُ وَمَنْ سِرُّهُ فِي جَفْنِهِ كَيْفَ يَكْتُمُ

(١) سورة المطففين ، وَتَمَامُ الْآيَةِ ﴿ عَلَى الْأَرْكَانِ يُنْظَرُونَ ﴾ (٢٢) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ (٢٤) .

(٢) أي : قُوبِلَ الْمَشُوبُ بِغَيْرِ الْمَشُوبِ .

(٣) إن كتاب «العبودية» لشيخ الإسلام ابن تيمية من أحسن ما أُلِفَ في بيان ذلك . وَقَدْ قَدَّمَ لَطَبْعَةَ الْمَكْتَبِ الْإِسْلَامِيِّ ، الْعَالِمُ الْجَلِيلُ الْأُسْتَاذُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبَانِي بَبَحْثِ ضَافٍ نَفِيسٍ .

(٤) هو : غَيْبُوبَةُ الْعَقْلِ وَأَخْتِلَاطُهُ مِنَ الشَّرَابِ الْمُسْكِرِ ، وَقَدْ يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ مِنَ الْغَضَبِ أَوْ الْعَشَقِ أَوْ الْقُوَّةِ أَوْ الظَّفَرِ .

فصل في بيان معنى الأنس بالله والرضا بقضاء الله ﷻ

أعلم أن من غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الأنفراد والخلوة، لأن الأنس بالله يلزمه التوحش من غيره، ويكون أثقل الأشياء على القلب كل ما يعوق عن الخلوة.

قال عبد الواحد بن زيد: قلت لراهب: لقد أعجبتك الخلوة، فقال: لو دُقت حلاوة الخلوة لأستوحشت إليها من نفسك. قلت: متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟ قال: إذا صفا الودّ، خَلَصَتِ المعاملة. قلت: متى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع الهمّ، فصار همّاً واحداً في الطاعة.

فإن قيل: ما علامة الأنس؟ قيل: علامته الخاصة: ضيق الصدر عن معاشره الخلق، والتبرّم بهم، وإن خالط، فهو كمنفردٍ غائبٍ؛ مُخَالِطٍ بالبدن، مُنفَرِدٍ بالقلب.

[بيان معنى الانبساط وأعلم أن الأنس إذا دام وغلب وأستحكم، قد يُثمر نوعاً من الإِدلال الذي يثمره الانبساط والإِدلال^(١)، وقد يكون ذلك منكراً في الصورة، لما فيه غلبة الأنس.] من الجراءة وقلة الهيبة، وإن كان مُحْتَمَلاً ممن أقيم مقام الأنس، وأما إذا صدر ممن لا يفهم ذلك المقام، أشرف به صاحبه على الكفر، وذلك كما:

يُروى عن أبي حفص أنه كان يمشي يوماً، فاستقبله رجل مدهوش^(٢)، فقال: ما لك؟ قال: ضَلَّ جِمَارِي، ولا أَمْلِكُ غيره، فوقف أبو حفص وقال: وَعِزَّتِكَ لا أخطو خطوة ما لم تَرُدَّ عليه حماره، فظهر الحمار.

وروي عن بَرِّخ العابد أنه خرج يستسقي فقال: يا رب! أنت بالبخل لا تُرمي، أَنْفِذْ ما عندك، أَسْقِنَا الساعة.

(١) هو: الطلب من المحبوب مع الترفق، فوق ما ينبغي من أمثاله؛ وشوقاً منه بذلك المحبوب.

(٢) أي: متحير، من دهش الرجل يدهش: إذا تحير.

ولا يُستبعد أن يحتمل من شخص ما لم يحتمل من غيره .

وأما الرضا بقضاء الله تعالى، فهو من أعلى مقامات المقربين، وهو من ثمار المحبة . وحقيقته غامضة، ولا ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله تعالى .
[القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته]

ومن فضائل الرضا ما ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً أَرْضَاهُ بما قسم له»^(١) .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود! إنك لن تَلْقَانِي بعمل هو أرضى لي عنك، ولا أَحْطَ^(٢) لِيُوزَرَكَ: من الرضا بقضائي .

ونظر علي بن أبي طالب عليه السلام إلى عدي بن حاتم كثيباً، فقال: يا عدي! مالي أراك كثيباً حزيناً؟ فقال: وما يمنعني؟! فقد قُتِلَ أبنائي، وفُقِئت عيني . فقال: يا عدي! من رضي بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يَرْضَ بقضاء الله جرى عليه وَحِبَطَ^(٣) عمله .

ودخل أبو الدرداء عليه السلام على رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالى، فقال أبو الدرداء: أَصَبْتَ، إن الله ﷻ إذا قضى قضاء أَحَبَّ أن يُرضى به .

وقال ابن مسعود عليه السلام: إن الله تعالى يَقْسِطُهُ^(٤) وَعِلْمُهُ جَعَلَ الرُّوحَ^(٥) والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط .

وقال عَلْقَمَةُ في قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] قال: هي المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فَيَسْلَمَ لها ويرضى .

(١) الديلمي عن أبي هريرة، كذا في «الكنز» (٧١١٧)، «الفردوس» (٩٤٦) عن يزيد بن عبد الله .

(٢) أي: أكثر إسقاطاً للوزر؛ أي: الذنب .

(٣) أي: فسَدَ وسقط ثوابه .

(٤) أي: عَذَلَهُ .

(٥) أي: الفرح والسرور .

وقال أبو معاوية الأسود في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] قال: الرضا والقناعة.

وفي الأخبار: أن نبياً من الأنبياء شكاً إلى ربه ﷻ الجوع والفقر عشر سنين، فما أجيب إلى ما أراد، ثم أوحى الله إليه: كم تشكو؟ هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض، وهكذا سبق لك مني، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد أن أبدل ما قَدَرْتُ لك فيكون ما تُحِبُّ فوق ما أُحِبُّ، ويكون ما تريد فوق ما أريد؟ وعزتي وجلالي، لئن تَلَجَّجَ^(١) هذا في صدرك مرة أخرى لأَمْحُوَنَّكَ من ديوان النبوة.

وفي «زبور داود» ﷺ: هل تدري مَنْ أسرع الناس مَرّاً على الصراط؟ الذين يَرْضَوْنَ بِحُكْمِي وَأَلْسِنَتُهُمْ رَطْبَةٌ من ذكرى.

وقال داود ﷺ: يا رب! أي عبادك أبغض إليك؟ قال: عبدٌ أَسْتَخَارَنِي في أمرٍ، فَخَزْتُ له، فَلَمْ يَرْضَ.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما بقي لي سرور إلا في مواقع القَدَرِ.

وقيل له: ما تشتهي؟ قال: ما يقضي الله عز وجل.

وقال الحسن: من رضي بما قُسمَ له، وَسِعَهُ، وبارك الله له فيه، ومن لم يرض لم يَسَعَهُ، ولم يبارك له فيه.

وقال عبد الواحد بن زيد: الرضا بابُ الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومُسْتَرَاخُ^(٢) العابدين.

وقال بعضهم: لن يَرِدَ الآخرةَ أرفعُ درجاتٍ من الراضين عن الله تعالى على كل حال، فمن وَهَبَ له الرضا، فقد بلغ أفضل الدرجات.

(١) أي: تردّد في صدرك.

(٢) أي: مكان الراحة.

وأصبح أعرابيٌّ وقد مات له أباعر^(١) كثيرة، فقال:

لا والذي أنا عَبْدٌ في عبادته لولا شِماتُهُ أعداءُ ذوي إْحَنِ^(٢)
ما سَرَّني أن إبلي في مباركها وأن شيئاً قضاه الله لم يَكُنْ

فصل

وَيُتَصَوَّرُ الرضا فيما يخالف الهوى . وبيان ذلك إذا جرى على
[بيان حقيقة
الرضا وتصوره
فيما يخالف
الهوى]
الإنسان الألم، فتارة يُحَسَّ به ويُذَرَك أَلَمُه، ولكنه يكون راضياً به،
راغباً في زيادته بعقله، وإن كان كارهاً له بطبعه؛ لما يُوصِلُه من
الثواب. مثاله: أن يلتمس من الحَجَّامِ الحِجامة^(٣) والفَصْد^(٤)، فإنه
يدرك أَلَمَ ذلك، إلا أنه راضٍ به، وراغب فيه ومُتَقَلِّدٌ^(٥) مِثَّةِ الحِجَامِ.

وكذلك كل من يسافر في طلب الرِّيح، فإنه يدرك مَشَقَّةَ السفر، لكن حُبَّه
لثمره سفره طَيَّبَ عنده تلك المشقة، وجعله راضياً بها، وكل من أصابه بليَّة من
الله تعالى وكان له يقين، فإنه يَتَوَقَّع الأجر فوق ما فاته، فيرضى بما أصابه،
ويشكر الله تعالى عليه، ويجوز أن يغلبه الحب، بحيث يكون حَظُّ المحب في
مراد محبوبه، ويبطل الإحساس بالألم لِغَرَضِ الحب، وليس ذلك بعجيب، فإن
الرجل المُحَارِبَ في حال غضبه أو خوفه، تصيبه الجراحات ولا يُحَسُّ بها،
ولا يشعر بها في تلك الحال، وذلك لأن قلبه مستغرق، وإذا كان القلب
مستغرقاً بأمر من الأمور لم يُذَرِك ما عداه، وذلك موجود في المشاهدات.

قال الجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللهُ: سألت سَرِيّاً: هل يجد المُحِبُّ أَلَمَ البلاءِ؟ قال: لا. وقد

(١) جمع البعير. وهو ما صلح للركوب والحمل من الإبل - ذكوراً وإناثاً - وذلك إذا
أستكمل أربع سنوات.

(٢) جمع إحنة وهي: الحقد والضغْن.

(٣) هي: أمتصاص الدم بأداة الحجم ويجمع الدم في قارورة خاصة.

(٤) هو: إخراج مقدار من دم الوريد بشقّه.

(٥) أي: محتمل.

روينا عن خلق كثير من أهل البلاء، أنهم كانوا يقولون: لو قطعنا إرباً^(١) إزباً، ما أرددنا له إلا حباً.

وقد تقدم أن فَرْط الحب يُزيل إحساس الألم، وهو مُتَّصِرٌ في حب الخلق، كما حكى بعضهم؛ قال: كان في جيراننا رجل له جارية يحبها، فأغْتَلَّتْ^(٢)، فجلس يُضْلِحُ لها حَسَاءً^(٣)، فبينما هو يُحَرِّك القِدْرَ، قالت: أَوْه^(٤)، فذهش وسقطت المِلْعَقَةُ من يده، وجعل يُحَرِّك القِدْرَ بيده حتى تساقطت أصابعه وهو لا يعلم.

ويؤيد هذا قصة النسوة حين شاهَدْنَ يوسف عليه السلام، فإنهن قَطَعْنَ الأيدي، وما أَحَسَّنَ بألم. فقد بَانَ بما ذكرنا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً، وإذا كان ذلك مُمَكِّناً في حق الخلق وحظوظهم، كان ممكناً في حق الله سبحانه، وحظوظ الآخرة بطريق الأولى. وإمكان ذلك في ثلاثة أوجه: أحدها: عِلْمُ الْمُؤْمِنِ بِأَن تَدْبِيرَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ مِنْ تَدْبِيرِهِ.

وقد قال النبي ﷺ: «ما قضى الله لمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له»^(٥).

وعن مَكْحُولٍ قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنه يقول: إن الرجل يستخير الله فيختار له، فيسخط، فلا يلبث أن ينظر في العاقبة، فإذا هو قد خَيْرَ^(٦) له.

وعن مسروق قال: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظ للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل خبَاءَهُمْ^(٧)، والكلب يحرسهم. فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا، فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم

(١) الإزب: العضو الكامل. والمعنى: قطعته عضواً عضواً.

(٢) أي: مرضت.

(٣) بالفتح والمد: طعام من دقيق وماء ودهن، وقد يُحْلَى بسكر أو غيره ويكون رقيقاً يُحْسَى. يشبه الحريرة.

(٤) كلمة تقال عند الشكاية والتوجع. ومن اللغات فيها أيضاً: آه، أوه، أو، أوه.

(٥) سلف تخريجه في الصفحة (٣٦٤) حاشية (١).

(٦) أي جعل له فيه الخير.

(٧) هو بيت من وبر أو شعر أو صوف يكون ارتفاعه على عمود واحد أو أكثر.

جاء ذئب فَخَرَقَ بَطْنَ الحمار، فحزنوا، فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم أصيب الكلب، فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً، ثم أصبحوا ذات يوم، فنظروا فإذا سُبِّي مَنْ حولهم وَبَقُوا هم، وإنما أخذ أولئك بما كان عندهم من الصوت والجَلْبَة^(١)، ولم يكن عند أولئك شيء يَجْلُبُ^(٢)؛ قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم.

وعن سعيد بن المُسَيَّب قال: قال لُقْمَانُ لابنه: يا بُنَيَّ لا يَنْزَلَنَّ بك أمر رَضِيَّتِهِ أو كَرِهَتِهِ، إلا جعلت في الضمير أن ذلك خير لك. قال: أمّا هذه فلا أَقْدِر أن أُعْطِيَكُهَا دون أن أعلم ما قلت؛ أنه كما قلت. قال: يا بُنَيَّ! فإن الله قد بعث نبياً، هلم حتى نأتيه، فعنده بيان ما قلت لك. قال: اذهب بنا إليه، فخرج على حمار، وابنه على حمار، وتزودا ما يصلحهما، ثم سارا أياماً وليالي، حتى تَلَقَّيْتُمَا مَفَازَةً^(٣)، فأخذا أَهْبَتَهُمَا^(٤) ودخلاها، فسارا ما شاء الله أن يسيرا، حتى تعالى النهار واشتد الحر وَنَفَذَ الماء والزاد، فاستبطأ حماريهما، فنزلا يمشيان، فبينما هما كذلك، إذ نظر لقمان أمامه، فإذا هو بسَوَادٍ ودُخَانٍ، فقال في نفسه: السواد شجر، والدخان عُمرانٌ وناس، فبينما هما كذلك يشهدان، إذ وَطِئَ أبْنُ لُقْمَانَ عَلَى عَظْمٍ عَلَى الطريق، فدخل في باطن قدمه حتى ظهر مِنْ أَعْلَاهَا، فَخَرَّ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ، فحائث من لقمان أَلْتِفَاتَةً، فإذا هو بأَبْنِهِ صَرِيح، فوثب إليه فَضَمَّهُ إِلَى صدره، وأستخرج العَظْمَ بِأَسْنَانِهِ، وَشَقَّ عِمَامَةً كانت عليه فَعَصَبَ رِجْلَهُ، ثم نظر إلى وجه أبنه فَذَرَقَتْ عَيْنَاهُ، فَقَطَرَتْ دَمْعَةً من دموعه على خَدِّ الْغُلَامِ فَانْتَبَهَ لَهَا، فنظر إلى أبيه يبكي، فقال: يا أبت! أنت تبكي وأنت تقول: هذا خير لي، فكيف ذلك وأنت تبكي؟ وقد نَفَذَ الطعام والماء، وَبَقِيْتُ أَنَا وَأَنْتَ فِي هَذَا الْمَكَانِ. قال: أمّا بكائي يا بُنَيَّ، فَوَدَدْتُ أَنِّي أَفْتَدِيْتُكَ بِجَمِيعِ حَظِّي مِنَ الدُّنْيَا، وَلَكِنِّي وَالِدٌ وَمَنِي رِقَّةُ الْوَالِدِ. وَأَمَّا قَوْلُكَ: كيف يكون هذا خيراً لي؟ فلعل ما صرف عنك أعظم مما أَتَلَيْتَ بِهِ، ولعل ما

(١) و(٢) هي: الصياح والصخب، ويجلب، أي: يُخْدِثُ جَلْبَةً.

(٣) أي: اعترضتهما الصحراء.

(٤) أي: العُدَّة.

أبتليت به أيسر مما صرف عنك . فبينما هو يحاوره ، إذ نظر لقمان أمامه ، فلم يَرِ الدخانَ والسواد . فقال في نفسه : لم أَرِ شيئاً ، ثم قال : قد رأيت ، ولكن لعله أن يكون قد أخذت ربي بما رأيته شيئاً ، فبينما هو يتفكر في ذلك ، إذ نظر فإذا هو بشخص قد أقبل على فَرَسٍ أَلْبَقٍ^(١) ، عليه ثياب بيض ، يمسح الهواء مسحاً ، فلم يَزَلْ يَزُمُّقه بعينيه حتى كان منه قريباً ، فتوارى عنه ثم صاح به فقال : أنت لقمان ؟ قال : نعم . قال : ما قال لك أبوك هذا السفية ؟ قال : يا عبد الله ! من أنت ؛ أسمع كلامك ولا أرى وجهك ؟ قال : أنا جبريل ، لا يراني إلا مَلَكٌ مقرب ، أو نبي مرسل ، لولا ذلك لرأيتني ، فما قال لك أبوك هذا ، السفية ؟ قال : أما علمت ذلك ؟ فقال جبريل : ما لي بشيء من أمركما عِلْمٌ ، إلا أَنَّ حَفَظْتَكُمَا^(٢) أَتَوْنِي - وقد أمرني ربي تعالى بخسف هذه المدينة وما فيها ومن يليها - فأخبروني أنكما تريدان هذه المدينة^(٣) ، فدعوت ربي أن يحبسكما عني بما شاء ، فَحَبَسَكُمَا عني بما أبتلي به ابنك ، ولولا ذلك لَخُسِفَ بكما مع من خسف به ، ثم مسح جبريل عليه السلام بيده على قدم الغلام ، فأستوى قائماً ، ومسح يده على الذي كان فيه الطعام فأمثلاً طعاماً ، ومسح على الذي كان فيه ماء فأمثلاً ماء ، ثم حملهما وحماريهما فرحل بهما كما يَزَحَلُ الطيرُ ، فإذا هما في الدار التي خرجا منها بعد أيام وليالي .

الوجه الثاني : الرضا بالألم ، لِمَا يتوقَّع من الثواب المُدْخِر ، كما تقدم من الرضا بالفضد والحجامة وشرب الأدوية أنتظاراً للشفاء .

الوجه الثالث : الرضا به لا لِحَظٍّ وراءه ، بل لكونه مُرَادَ المحبوب ، فيكون أَلَدَّ الأشياء عنده ما فيه رضا محبوبه ، ولو كان في ذلك هلاك نفسه ، كما قال بعضهم : فما لجرح إذا أرضاكم ألم .

(١) أي : الذي فيه سواد وبياض .

(٢) الحَفَظَةُ ، هم : الملائكة الذين يحفظون بدن الإنسان ، وكذا الذين يحفظون عمله ويُخْصُونَهُ .

(٣) الجملة من قوله : (وما فيها) إلى قوله : (هذه المدينة) لم ترد في المطبوع وإنما هي من النسخة المخطوطة الثالثة .

وقد سبق أن الحب يستولي بحيث يُذهش عن إدراك الألم، ولا ينبغي أن يُنكر ذلك مَنْ فَقَدَهُ مِنْ نفسه، لأنه إنما فقدته لِفَقْدِ سببه، وهو قُرْطُ حبه، وَمَنْ لم يَذُقْ طَعْمَ الحبِّ لم يعرف عجائبه. وَلَعَمْرِي إِنَّ مَنْ فَقَدَ السَّمْعَ أَنْكَرَ لَذَّةَ الأَلحانِ والتَّعْيماتِ، فَمَنْ فقد القلبَ، فلا بد أن يُنكرَ هُذه اللذات التي لا مَظِلَّةَ لها سوى القلب.

فصل

وأعلم أن الدعاء لا يُناقضُ الرضا، وكذلك كراهة المعاصي
[بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا]

أما الدعاء، فقد تَعَبَّدْنَا الله تعالى به، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله: ﴿وَيَدْعُونَا رَعَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. ودعاء رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين معلوم.

وأما إنكار المعاصي وعدم الرضا بها، فقد تَعَبَّدْنَا الله تعالى به، وذم الراضي به، وكذلك بُغِضَ الكفارِ والفُجَّارِ، والإنكار عليهم، وشواهد ذلك في القرآن والأخبار كثيرة جداً.

فإن قيل: فقد وردت الأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى، فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى، فهو مُحال، وإن كانت بقضائه، فكراهتها كراهة لقضائه، فكيف الجمع بين هذين الحالين. =

= فأعلم أن هذا مما يَلْتَبِسُ عَلَى القاصرين عَلَى الوقوف عَلَى أسرار العلم، حتَّى أَلْتَبِسَ عَلَى قوم، قَرَأُوا السكوتَ عن الإنكار مقاماً من مقامات الرضا، وَسَمَّوْهُ حُسْنَ الخُلُقِ، وهو جَهْلٌ مَنْخُصٌ، بل نقول: الرضا والكراهة يتضادان، إذا تواردا على شيء واحد، من جهة واحدة، على وجه واحد. فأما إذا رَضِيتَ بشيء من وجه، وَكَرِهْتَهُ من وجه آخر، فليس ذلك بِمُتَضَادٍّ، نحو أن يموت عدوك الذي هو أيضاً عدوٌ لبعض أعدائك، وساع في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدوٌ عدوك، وترضاه من حيث إنه عدوك، وكذلك للمعصية وجهان: وجه إلى الله تعالى من حيث إنها أختياره وإرادته، فترضى بها من هذا

الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك، ووجه إلى العبد من حيث إنه كَسْبُهُ ووصفه وعلامة لكونه ممقوتاً عند الله تعالى وبغيضاً عنده، حيث سَلَطَ عليه أسباب البُغْدِ والمَقْتِ، فهو من هذا الوجه مُنْكَرٌ ومذموم. ولا ينكشف هذا إلا بمثال. فلنفرض محبوباً من الخلق قال بين يَدَيَّ مُحِبَّةٌ: إني أريد أن أُمِيزَ بين مَنْ يُحِبُّنِي وَيُبْغِضُنِي، وأنصب لذلك معياراً صادقاً، وهو أني أَقْصِدُ إلى فلان، فأضربه ضرباً شديداً يضطره ذلك إلى الشتم لي، حتى إذا شتمني أَبْغَضْتُهُ وَاتَّخَذْتُهُ عَدُوًّا، فكل من أحبه، عَلِمْتُ أنه أيضاً عَدُوٌّ لي، وكل من أَبْغَضْتُهُ علمت أنه محبي وصديقي، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض، وحصل البغض الذي هو سبب العداوة، فَحَقَّ عَلَى كل من هو صادق في المحبة أن يقول: أَمَا تَدْبِيرُكَ فِي ضَرْبِ هَذَا الشَّخْصِ وَأَذَاهُ، فَأَنَا مُحِبٌّ لَهُ، فَإِنَّهُ رَأَيْكَ وَتَدْبِيرُكَ وَفِعْلُكَ، وَأَمَا شَتْمُهُ إِيَّاكَ مِنْ حَيْثُ نَسَبْتَهُ إِلَى هَذَا الشَّخْصِ، فَإِنَّهُ عَدُوَانُ مِنْهُ وَتَهْجَمُ عَلَيْكَ، فَأَنَا كَارِهِ لَهُ مِنْ حَيْثُ نَسَبْتَهُ إِلَيْهِ إِذْ كَانَ حَقُّهُ أَنْ يَضْرِبَ وَلَا يَشْتُمَ، فَكَذَلِكَ تَسْلِيْطُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى دَوَاعِي الشَّهْوَةِ وَالْمَعَاصِي عَلَى الْعَبْدِ، وَبُغْضُهُ عَلَى عَصِيَانِهِ.

فواجبٌ عَلَى كل عبد محبٍّ لله أَنْ يُبْغِضَ مَنْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ ﷻ، وَيُعَادِيَ مَنْ عَادَاهُ وَأَبْعَدَهُ عَنْ حَضْرَتِهِ، وَإِنْ أَضْطَرَّهُ بِقَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ إِلَى مَعَادَاتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ، فَإِنَّهُ بَعِيدٌ مَطْرُودٌ، وَالْمُبْعَدُ عَنْ دَرَجَاتِ الْقُرْبِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَغِيضاً إِلَى جَمِيعِ الْمُحِبِّينَ، مُوَافَقَةً لِمَحْبُوبِهِمْ، بِإِظْهَارِ الْغَضَبِ عَلَى مَنْ أَظْهَرَ الْمَحْبُوبُ الْغَضَبَ عَلَيْهِ بِإِبْعَادِهِ.

وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله، والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم، والمبالغة في مَقْتِهِمْ، مع الرضا بقضاء الله تعالى، من حيث إنه قضاؤه. وهذا كله يُسْتَمَدُّ مِنْ سِرِّ الْقَدَرِ الَّذِي لَا رُخْصَةَ فِي إِفْشَائِهِ، وَهُوَ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كِلَاهُمَا دَاخِلَانِ فِي الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ، وَلَكِنْ الشَّرُّ مُرَادٌ مَكْرُوهٌ، وَالْخَيْرُ مُرَادٌ مَرْضِيٌّ بِهِ.

والأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع، والوقوف مع ما تعبد به الخلق، من الجَمْعِ بَيْنِ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَقْتِ الْمَعَاصِي، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ومما يتعلق بالمحبة :

[خاتمة الكتاب]

١ - قيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لو يعلم المُذْبِرُونَ بكلمات متفرقة عني كيف أنتظاري لهم، ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لَمَاتُوا شَوْقاً إِلَيَّ، وَتَقَطَّعَتْ أوصالهم ^(١) من محبتي .

يا داود! هذه إرادتي في المُذْبِرِينَ عني، فكيف إرادتي في المُقْبِلِينَ عليَّ؟ يا داود! أحوَج ما يكون العبد إليَّ إذا أَسْتَغْنَى عني، وأَجَل ما يكون عندي إذا رجع إليَّ .

٢ - وكانت امرأة مُتَعَبِّدة تقول : والله لقد سئمت الحياة، حتى لو وَجَدْتُ الموت يُباع لأشتريته شَوْقاً إلى الله تعالى، وحباً للقاءه . ف قيل لها : فعلى ثقة أنت من عملك؟ قالت : لا، ولكن ^(٢) لِحُبِّي إياه وحُسن ظني به، أَفْتَرَاهُ يُعَذِّبُنِي وأنا أحبه؟

باب في النية والإخلاص والصدق

أعلم أنه قَدْ أُنْكَشِفَ لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أنه لا وُصُول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة .

فالناس كلهم هَلَكَى، إلا العالمون، والعالمون كلهم هَلَكَى إلا العاملون، والعالمون كلهم هَلَكَى إلا المُخْلِصُونَ، والمُخْلِصُونَ على خطر عظيم .

فالعمل بغير نية عَنَاءٌ، والنية بغير إخلاص رِيَاءٌ، والإخلاص من غير تحقيق هَبَاءٌ ^(٣) . قال الله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ [الفرقان] . وليت شعري، كيف تَصْلُح نية من لا يعرف حقيقة النية؟ أو

(١) جمع وذل، وهو: المَفْصِلُ أو مجتمع العظام .

(٢) أبدلت من «الإحياء» عن : (ولكني) .

(٣) هو: التراب الذي تطيره الريح ويلزق بالأشياء، أو ينبث في الهواء، فلا يبدو إلا في ضوء الشمس .

كيف يُخْلِص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟! وكيف يُطالب المُخْلِصُ نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟

فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى، أن يعلم النية أولاً، لِتَخْصُلَ له المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فَهْم حقيقة الصدق والإخلاص اللَّذَيْنِ هما وسيلتان للعبد إلى النجاة. ونحن نذكر ذلك في ثلاثة فصول.

الفصل الأول

في النية وحقيقتها وفضلها وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَقَةِ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]. والمراد بالإرادة: النية.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١).

= وعن أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أرأيت الرجل يُقاتل شجاعةً، ويُقاتل حَمِيَّةً، ويُقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢). = أخرجاهما في «الصحيحين».

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ خَلَقْتُمْ^(٣) بِالْمَدِينَةِ رَجَالًا، مَا

(١) أخرجه البخاري (٦٦٨٩)، ومسلم (١٩٠٧)، والترمذي [«صحيحه» (١٣٤٤)/

(١٦٤٧)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٤٢٢٧/٣٤٠٥)]. وهو في «الإرواء» (٢٢).

(٢) سلف تخريجه في الصفحة (٢٧٧).

(٣) أي: تركتم وراءكم رجالاً فلم يذهبوا معكم إلى الغزو لمرضهم.

قَطَعْتُمْ وادباً، ولا سَلَكْتُمْ طريقاً، إلا شَرِكُوكُمْ^(١) في الأجر، حَبَسَهُم المرضُ^(٢) أخرجه مسلم، وأخرجه البخاري من حديث أنس.

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «من هم بحسنة فلم يعملها كُتِبَتْ له حسنة»^(٣).

وعن أبي كَبْشَةَ الأَنماري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ مِثْلُ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ:

رجل آتاه الله مالاً وعِلْماً، فهو يعمل به في ماله ينفقه في حقه.
ورجل آتاه الله علماً ولم يُؤْتِهِ مالاً، وهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملتُ فيه مثل الذي يعمل». قال رسول الله ﷺ: «فهما في الأجر سواء».

ورجل آتاه الله مالاً ولم يُؤْتِهِ علماً، فهو يَخْبِطُ^(٤) فيه، ينفقه في غير حقه.
ورجل لم يُؤْتِهِ مالاً ولا علماً، فيقول: لو كان لي مثل هذا عملتُ فيه مثل الذي يعمل». قال رسول الله ﷺ: «فهما في الوزرِ سواء»^(٥).

وعن أبي عَمْران الجَوْنِي قال: تصعد الملائكة بالأعمال، فينادي المَلِكُ: أَلْقِ تِلْكَ الصَّحِيفَةَ، قال: فتقول الملائكة: ربنا! قال خيراً وَحَفِظْنَاهُ عَلَيْهِ. فيقول تبارك وتعالى: إنه لم يُرِذْ به وجهي. قال: وينادي المَلِكُ: اكْتُبْ لِفُلان كَذَا وَكَذَا، مَرَّتَيْنِ. فيقول: يا رب! إنه لم يعملهُ، فيقول ﷻ: إنه قد نَوَاهُ.

وقال عمر بن الخطاب ؓ: أَفْضَلُ الأَعْمَالِ أَدَاءُ مَا أَفْتَرَضَ اللهُ تَعَالَى، وَالْوَرَعُ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى، وَصَدَقَ النِّيَّةُ فِيمَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى.

(١) أي: صاروا شركاءكم في الأجر.

(٢) هما في مسلم (١٩١١)، والبخاري (٢٨٣٩) على التوالي.

(٣) رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١). وهو في «صحيح الجامع» (٤٣٠٦) وسيأتي بأنهم منه في الصفحة (٥١٧) حاشية (١).

(٤) أي ينفقه من غير هدًى وتبصّر.

(٥) رواه أحمد (١٧٩٨٩) وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٢٢٨).

وكان بعضهم يقول: دُلُونِي عَلَى عَمَلٍ لَا أَزَالُ بِهِ عَامِلًا لِلَّهِ تَعَالَى . فَقِيلَ لَهُ :
إِنِ الْخَيْرُ ، فَإِنَّكَ لَا تَزَالُ عَامِلًا وَإِنْ لَمْ تَعْمَلْ ، فَالْنِيَّةُ تَعْمَلُ وَإِنْ عَدِمَ الْعَمَلُ ،
فَإِنَّهُ مِنْ نَوَى أَنْ يُصَلِّيَ بِاللَّيْلِ فَنَامَ ، كُتِبَ لَهُ ثَوَابُ مَا نَوَى أَنْ يَفْعَلَهُ .

وقد جاء في الحديث : « ما من رجل يكون له ساعة من الليل يقومها ، فينام
عنها إلا كُتِبَ لَهُ أَجْرُ صَلَاتِهِ ، وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً تُصَدَّقُ بِهَا عَلَيْهِ » ^(١) .

وقد جاء في الحديث : « نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ » ^(٢) .

والنية ، والإرادة ، والقصد ، عبارات مُتَوَارِدَةٌ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَعْمَالَ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ :

[بيان تفصيل

الأعمال القسم الأول ، المعاصي : فلا تتغير عن موضعها بالنية ، مثل من
المتعلقة بالنية] يبني مسجداً بمال حرام يقصد بذلك الخير ، فإن النية لا تُؤَثِّرُ فِيهِ ، فَإِنَّ
قَصْدَ الْخَيْرِ بِالشَّرِّ شَرٌّ آخَرٌ ، فَإِنَّ الْخَيْرَاتِ إِنَّمَا تَعْرِفُ كَوْنَهَا خَيْرَاتٍ بِالْشَّرِّ ،
فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الشَّرُّ خَيْرًا ، هِيَاهُ !

وَأَعْلَمُ أَنَّ مَنْ تَقَرَّبَ مِنَ السَّلَاطِينِ بِنَاءَ الْمَسَاجِدِ وَالْمَدَارِسِ بِالْمَالِ الْحَرَامِ ،
كَانَ كَتَقَرَّبَ عِلْمَاءُ السُّوءِ بِتَعْلِيمِ الْعِلْمِ لِلْسَفَهَاءِ وَالْأَشْرَارِ الْمَشْغُولِينَ بِالْفِسْقِ ،
فَإِنْ هَؤُلَاءِ إِذَا تَعَلَّمُوا كَانُوا قُطَاعَ طَرِيقِ اللَّهِ تَعَالَى ، يَتَكَلَّبُونَ ^(٣) عَلَى الدُّنْيَا ،
وَيَتَّبِعُونَ الْهَوَىَّ وَوَبَالَ ^(٤) ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى مُعَلِّمِهِمْ ، إِذَا عَلِمَ فساد نياتهم
ومقاصدهم .

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ تَعَلَّمَ الْقُضَاةُ الْقَضَاةَ ، فَإِنْ مَقَاصِدُ أَكْثَرِهِمْ مَعْرُوفَةٌ ،

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٤٣٣٣) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ . وَهُوَ فِي «صَحِيحِ سَنَنِ ابْنِ مَاجَه»
(١٣٤٤/١١٠٥) بِنَحْوِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ .

(٢) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ وَالطَّبْرَانِيُّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ . وَهُوَ فِي «ضَعِيفِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ»
وَزِيَادَتِهِ «٥٩٧٦ وَ ٥٩٧٧» .

(٣) أَيُ : يَخْرِصُونَ عَلَيْهَا .

(٤) أَيُ : سُوءُ الْعَاقِبَةِ .

وَقَضَدَهُمْ أَجْتِلَابٌ^(١) الدُّنْيَا، وَأَخَذَ الْأَمْوَالَ كَيْفَ أَتَفَقَ، فَتَعْلِيمُهُمْ إِعَانَةٌ عَلَى الْفَسَادِ.

فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الطَّاعَةَ تَنْقَلِبُ مَعْصِيَةً بِالْقَصْدِ. وَأَمَّا الْمَعْصِيَةُ، فَلَا تَنْقَلِبُ طَاعَةً بِالْقَصْدِ أَصْلًا بَلْ إِذَا أَنْضَفَ إِلَيْهَا قَصْدٌ خَبِيثٌ تَضَاعَفَ وَزَرُهَا وَعَظُمَ وَبَالُهَا.

الْقِسْمُ الثَّانِي، الطَّاعَاتُ: وَهِيَ مُرْتَبِطَةٌ بِالنِّيَّاتِ فِي أَصْلِ صَحَّتِهَا، وَفِي تَضَاعُفِ فَضْلِهَا:

أَمَّا الْأَصْلُ، فَهُوَ أَنْ يَنْوِيَ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى لَا غَيْرَ، فَإِنْ نَوَى الرِّيَاءَ صَارَتْ مَعْصِيَةً.

وَأَمَّا تَضَاعُفُ الْفَضْلِ، فَبِكثْرَةِ النِّيَّاتِ الْحَسَنَةِ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ الْوَاحِدَةَ يُمْكِنُ أَنْ يَنْوِيَ بِهَا خَيْرَاتٍ كَثِيرَةً، فَيَكُونُ لَهُ بِكُلِّ نِيَّةٍ ثَوَابٌ. إِذْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا حَسَنَةٌ، ثُمَّ تَضَاعَفَ كُلُّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا.

مِثَالُ ذَلِكَ الْقُعودُ فِي الْمَسْجِدِ، فَإِنَّهُ طَاعَةٌ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَنْوِيَ بِهَا نِيَّاتٍ كَثِيرَةً: مِنْهَا أَنْ يَنْوِيَ بِدُخُولِهِ أَنْتَظَارَ الصَّلَاةِ، وَمِنْهَا الْإِعْتِكَافُ وَكُفُّ الْجَوَارِحِ، فَإِنَّ الْإِعْتِكَافَ كُفٌّ، وَمِنْهَا دَفْعُ الشَّوَاعِلِ الصَّارِفَةِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِنْقِطَاعِ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَإِلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَهَذَا طَرِيقُ تَكْثِيرِ النِّيَّاتِ، فَيُقَسَّمُ عَلَى ذَلِكَ سَائِرُ الطَّاعَاتِ، إِذْ مَا مِنْ طَاعَةٍ إِلَّا وَتَحْتَمِلُ نِيَّاتٍ كَثِيرَةً.

الْقِسْمُ الثَّالِثُ، الْمُبَاحَاتُ: فَمَا مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْمُبَاحَاتِ إِلَّا وَيَحْتَمِلُ نِيَّةً أَوْ نِيَّاتٍ، تَصِيرُ بِهَا قُرْبَاتٍ^(٢)، وَيُنَالُ بِهَا مَعَالِي الدَّرَجَاتِ، فَمَا أَعْظَمَ خُسْرَانٍ مَنْ يَغْفُلُ عَنْهَا وَيَتَعَاطَاها تَعَاطِيَّ الْبَهَائِمِ الْمُهْمَلَةِ!

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْتَقِرَ الْعَبْدُ الْخَطَرَاتِ^(٣) وَالْخُطُوتِ وَاللَّحَظَاتِ^(٤)، فَكُلُّ ذَلِكَ يُسْأَلُ عَنْهُ فِي الْقِيَامَةِ، لِمَ فَعَلَهُ؟ وَمَا الَّذِي قَصَدَ بِهِ؟

(١) أَي: كَسَبَ الدُّنْيَا.

(٢) جَمْعُ قُرْبَةٍ، وَهِيَ: مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالطَّاعَةِ.

(٣) الْخَطَرَةُ: مَا يَخْطُرُ فِي الْقَلْبِ.

(٤) هِيَ: لَحْظُ الْعَيْنِ.

مثال ما ينوي به القرْبة من المباحات أن يَتَطَيَّبَ، وَيُنَوِّيَ بِالطَّيْبِ أَتْبَاعَ السُّنَّةِ،
وَأَحْتَرَامَ الْمَسْجِدِ، وَدَفَعَ الرِّوَاثِ الْكَرِيهَةِ الَّتِي تُؤْذِي مُخَالِطِيهِ.
وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: من طاب ريحه زاد عَقْلُهُ.

وكذلك معالجة رأسه تَزِيدُ فِطْنَتَهُ وَذِكَاةَهُ، فَيَسْهُلُ عَلَيْهِ إِدْرَاكُ مُهِمَّاتِ دِينِهِ.

وقال بعض السلف: إني لَأَسْتَحِبُّ أن يكون لي في كل شيء نِيَّةٌ، حتَّى في
أَكْلِي وَشُرْبِي وَنَوْمِي وَدُخُولِي الْخِلَاءِ. وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به
التقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب: من
مهمات الدين، فمن قصد من الأكل التقوِّيَ عَلَى الْعِبَادَةِ، ومن النكاح تحصيلَ
دينه، وَتَطْيِيبَ قَلْبِ أَهْلِهِ، وَالتَّوَصُّلَ إِلَى وَلَدٍ يَعْبُدُ اللَّهَ بَعْدَهُ، أُثِيبَ عَلَى ذَلِكَ
كله. وَلَا تَخْتَفِرْ شَيْئاً مِنْ حَرَكَاتِكَ وَكَلِمَاتِكَ، وَحَاسِبْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبَ،
وَصَحِّحْ قَبْلَ أَنْ تَفْعَلَ مَا تَفْعَلُهُ، وَأَنْظِرْ فِي نِيَّتِكَ فِيمَا تتركه أَيْضاً.

[بيان أن النية وأعلم أن النية هي أنبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها أنه مصلحة
غير داخلية تحت لها، إما في الحال أو المآل. وربما سمع بعض الجهال ما أوصينا به
الاختيار] من تحسين النية، فقال عند أكله: نويت أن أكل الله، أو عند قراءته:
نويت أن أقرأ الله، وظن أن ذلك نية، وليس كذلك، وإنما النية أنبعاث القلب.
وتجري مجرى الفتوح من الله تعالى، وليست النية داخلية تحت الاختيار، فقد
تتيسر في بعض الأوقات، وقد تتعذر، وإنما تتيسر في الغالب لمن قَلْبُهُ يميل
إلى الدين دون الدنيا.

والناس في النيات على أقسام:

منهم من يكون عَمَلُهُ لِلطَّاعَةِ إجابةً لباعث الخوف.

ومنهم من يكون عمله إجابةً لباعث الرجاء.

وَتَمَّةٌ^(١) مَقَامٌ أَرْفَعُ مِنْ هَٰذَيْنِ، وَهُوَ أَنْ يَعْمَلَ الطَّاعَةَ عَلَى نِيَّةِ جَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى
لَا سِتْحَاقَهُ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَهَٰذِهِ لَا تَتَيَسَّرُ لِرَاغِبٍ فِي الدُّنْيَا، وَهِيَ أَعَزُّ النَّيَّاتِ

(١) أي: هناك.

وأعلاها، وقليل مَنْ يفهمها، فضلاً عن أن يتعاطاها، وصاحب هذا المقام لا يُجاوِز ذكر الله تعالى والفكر في جلاله حباً له.

وقد حكى أحمد بن خَضْرَوَيْهِ أنه رأى رَبَّ العِزَّة في منامه، فقال له: كل الناس يطلبون مني، وأبو يزيدَ يَطلبُني.

وغرضنا من هذه النيات متفاوتة في الدرجات وَمَنْ غلب على قلبه واحدة منها، فربما لم يتيسر له العدول إلى غيرها، وَمَنْ حضرَتْ له نية في المباح، ولم تحضر في فضيلة، فالمباح أولى. وانتقلت الفضيلة إليه.

مثال ذلك أن تحضره نية في الأكل والنوم لِيَتَقَوَّى بذلك على العبادة وَيُريحَ بَدَنَهُ ولم تنبعث نيته في الحال إلى الصلاة والصوم. فالأكل والنوم أَفْضَلُ، بل لو ملَّ العبادة لكثرة مواظبتها عليها، وَعَلِمَ أنه لو تَرَفَّه ساعة بِمُبَاحٍ عاد نشاطه، فذلك أَفْضَلُ من التعبد حِينَئِذٍ.

قال عليٌّ عليه السلام: رَوِّحُوا القلوب، وَأَطْلُبُوا لها طُرْفَ الحِكْمَةِ، فإنها تَمَلُّ كما تملُّ الأبدان.

وقال بعضهم: رَوِّحُوا القلوب تَعِي (١) الذكر.

وهذه دقائق لا تُذَكِّرُها إلا بممارسة العلماء، فإن الحاذق في الطَّبِّ قد يعالج المَخْرور باللحم مع حرارته، ويستبعد ذلك القاصِرُ في الطَّبِّ، وإنما يبتغي به أن تَعُودَ قُوَّتُهُ ليحتمل المعالجة، وكذلك الخبير بالقتال، قد يَفِرُّ من بين يَدَيْ قرينه حيلة منه، لِيَسْتَجِرَّهُ إلى مضيق. فسلوك طريق الله تعالى كله حرب مع الشيطان، ومعالجة للقلب، والمُبْصِرُ المَوْفَّق يقف في تلك الطريق على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء، فلا ينبغي لَهُمْ أَسْتِعَاد ما خَفِيَ عليهم، بل يُسَلِّمُونَ لأصحاب الأحوال، إلى أن ينكشف لهم أسرار ذلك، أو ينالوا ذلك المقام.

(١) مضارع وَعَى، أي: لتفهم الذكر.

الفصل الثاني

في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته^(١)

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وقال: ﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]. وغير ذلك من الآيات.

وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل ؓ: «أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ»^(٢).

وفي حديث أنس ؓ أنه قال: إذا كان يوم القيامة جاءت الملائكة بصُحُفٍ مُحْتَمَةٍ. فيقول الله ﷻ: أَلْفُوا هَذَا، وَأَقْبِلُوا هَذَا. فتقول الملائكة: وَعِزَّتِكَ مَا كَتَبْنَا إِلَّا مَا كَانَ. فيقول: إِنْ هَذَا كَانَ لِعَيْرِي، وَلَا أَقْبَلُ الْيَوْمَ إِلَّا مَا كَانَ لِي. وعن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَرْفَعُونَ عَمَلِ الْعَبْدِ فَيُكْتَرُونَ»^(٣) وَيُزَكُّونَهُ^(٤)، فيُوحِي اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ: أَنْتُمْ حَفَظْتُمْ عَلَى عَمَلِي عَبْدِي، وَأَنَا رَقِيبٌ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ، إِنْ عَبْدِي لَمْ يُخْلِصْ فِي عَمَلِهِ! فَأَجْعَلُوهُ فِي سَجِينٍ^(٥)، وَيَضَعُدُونَ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يَسْتَقِيلُونَهُ^(٦)، فيُوحِي إِلَيْهِمْ: أَنْتُمْ حَفَظْتُمْ عَلَى عَمَلِي عَبْدِي، وَأَنَا رَقِيبٌ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ فَضَاعَفُوهُ وَأَجْعَلُوهُ فِي عِلْيَيْنٍ^(٧)»^(٨).

(١) انظر رسالة الإمام أبْنِ رَجَب «شرح كلمة الإخلاص» بتحقيقي، وتخرِيج أستاذنا الألباني فَإِنْ فِيهَا عِلْمًا نَافِعًا.

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «الإخلاص». وَهُوَ فِي «الضعيف الجامع» (٢٤٠)، وَ«الضعيفة» (٢١٦٠).

(٣) أَيْ: يَجْعَلُونَهُ كَثِيرًا.

(٤) أَيْ: يُنَمُّونَهُ.

(٥) هُوَ: فَعِيلٌ مِنَ السَّجْنِ وَهُوَ الضِّيقُ، وَقَدْ قَالَ قَائِلُونَ: هِيَ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةُ، فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ كَمَا فِي «صحيح الجامع» (١٦٧٦): «أَكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى».

(٦) أَيْ: يَزَوِّنُهُ قَلِيلًا.

(٧) جَمَعَ عَلَيٌّ: مَاخُذٌ مِنَ الْعُلُوِّ وَهُوَ عَلَى الرَّأْيِ الْمَشْهُورِ أَنَّهُ الْجَنَّةُ.

(٨) أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ حَمْزَةَ بْنِ حَبِيبٍ مَرْسَلًا.

وَيُرَوَّى عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : كَانَتْ شَجَرَةٌ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَجَاءَ إِلَيْهَا رَجُلٌ فَقَالَ : لَأَقْطَعَنَّ هَذِهِ الشَّجَرَةَ ، فَجَاءَ إِلَيْهَا لِيَقْطَعَهَا غَضَبًا لِلَّهِ ، فَلَقِيَ الشَّيْطَانَ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ فَقَالَ : مَا تَرِيدُ؟ قَالَ : أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ الشَّجَرَةَ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ . قَالَ : إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْبُدْهَا ، فَمَا يَضُرُّكَ مَنْ عَبَدَهَا؟ قَالَ : لَأَقْطَعَنَّهَا . فَقَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ : هَلْ لَكَ فِيهَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ ذَلِكَ ، لَا تَقْطَعُهَا وَلَكِ دِينَارَانِ إِذَا أَصْبَحْتَ عِنْدَ وِسَادَتِكَ . قَالَ : فَمَنْ لِي بِذَلِكَ؟ قَالَ : أَنَا لَكَ . فَرَجَعَ فَأَصْبَحَ فَوَجَدَ عِنْدَ وِسَادَتِهِ دِينَارَيْنِ ، ثُمَّ أَصْبَحَ فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا ، فَقَامَ غَضَبًا لِيَقْطَعَهَا ، فَتَمَثَّلَ لَهُ الشَّيْطَانُ فِي صُورَتِهِ ، فَقَالَ : مَا تَرِيدُ؟ قَالَ : أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ الشَّجَرَةَ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ . قَالَ : كَذَبْتَ ، مَا لَكَ إِلَيَّ قَطْعِهَا سَبِيلٌ . فَذَهَبَ لِيَقْطَعَهَا ، فَضْرَبَ بِهِ الْأَرْضَ ، وَخَنَقَهُ حَتَّى كَادَ يَقْتُلُهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَنْتَ لِي عَلِيكَ أَنَا؟ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ الشَّيْطَانُ! وَقَالَ : جِئْتَ أَوَّلَ مَرَّةٍ غَضَبًا لِلَّهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِي عَلَيْكَ سَبِيلٌ ، فَخَذَعْتُكَ بِالْدِينَارَيْنِ فَتَرَكْتَهَا ، فَلَمَّا فَقَدْتَهُمَا جِئْتَ غَضَبًا لِلدِينَارَيْنِ ، فَسَلَّطْتُ عَلَيْكَ .

وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول : يا نفس أخلصي وتخلصي .

وقال أبو سليمان : طوبى لمن صحَّح له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى .

وحكي أن رجلاً كان يخرج في زِيِّ النساء ، فيحضر حيث يخضرن من عُرْسٍ ، أو مَأْتَمٍ ، فاتفق أنه حضر يوماً مَوْضِعاً فِيهِ مَجْمَعُ النِّسَاءِ ، فَسُرِقَتْ دُرَّةٌ ، فَصَاحُوا : أَغْلِقُوا الْبَابَ حَتَّى نُفْتَشَ ، فَفَتَشُوا وَاحِدَةً وَاحِدَةً حَتَّى بَلَغَتِ النَّوْبَةُ إِلَى الرَّجُلِ وَإِلَى أَمْرَةِ مَعَهُ ، فَدَعَا اللَّهَ بِالْإِخْلَاصِ وَقَالَ : إِنْ نَجَوْتُ مِنْ هَذِهِ الْفَضِيحَةِ لَا أَعُودُ إِلَى مِثْلِ هَذَا ، فَوُجِدَتِ الدَّرَّةُ مَعَ تِلْكَ الْمَرْأَةِ فَصَاحُوا : أَطْلِقُوا الْحُرَّةَ ، فَقَدْ وَجَدْنَا الدَّرَّةَ .

بيان حقيقة الإخلاص

أعلم أن كل شيء يُتَصَوَّرُ أَنْ يَشُوبَهُ غَيْرُهُ ، فَإِذَا صَفَا عَنْ شَوْبِهِ وَخَلَصَ عَنْهُ ، سُمِّيَ إِخْلَاصًا .

والإخلاص يُضَادُّه الإشراك . فَمَنْ لَيْسَ مُخْلِصًا ، فَهُوَ مُشْرِكٌ ، إِلَّا أَنْ الشُّرْكَ
درجات .

فَالِإِخْلَاصُ فِي التَّوْحِيدِ يُضَادُّهُ الشُّرْكَ فِي الْإِلَهِيَّةِ .

وَالشُّرْكَ مِنْهُ جَلِيٌّ ، وَمِنْهُ خَفِيٌّ ، وَكَذَلِكَ الْإِخْلَاصُ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا دَرَجَاتِ
الرِّيَاءِ فِيمَا تَقَدَّمَ فِي بَابِهِ ، وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ الْآنَ فِي مَنْ أَنْبَعَثَ لِقَضْدِ التَّقَرُّبِ ، وَلَكِنْ
أَمْتَرُجُ بِهَذَا الْبَاعِثِ بَاعِثٌ آخَرَ ، إِمَّا مِنَ الرِّيَاءِ ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ حِظْوِظِ النَّفْسِ .

وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنْ يَصُومَ لِيَنْتَفِعَ بِالْحِمْنِيَّةِ الْحَاصِلَةِ بِالصَّوْمِ مَعَ قَضْدِ التَّقَرُّبِ ، أَوْ
يُغْتَنِقَ عَبْدًا لِيَتَخَلَّصَ مِنْ مَوْثِقَتِهِ وَسُوءِ خُلُقِهِ ، أَوْ يَحْجِجَ لِيَصِخَّ مِزَاجَهُ بِحَرَكَةِ
السَّفَرِ ، أَوْ لِلتَّخْلِصِ مِنْ شَرٍّ يَغْرِضُ لَهُ ، أَوْ يَغْزُو لِيُمَارِسَ الْحَرْبَ وَيَتَعَلَّمَ
أَسْبَابَهَا ، أَوْ يَصْلِي بِاللَّيْلِ وَلَهُ غَرَضٌ فِي دَفْعِ النَّعَاسِ عَنْ نَفْسِهِ لِيُرَاقِبَ رَحْلَهُ أَوْ
أَهْلَهُ ، أَوْ يَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيَسْهَلَ عَلَيْهِ طَلَبُ مَا يَكْفِيهِ مِنَ الْمَالِ ، أَوْ يَشْتَغِلَ
بِالتَّدْرِيسِ لِيَفْرَحَ بِلَذَّةِ الْكَلَامِ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ . فَمَتَى كَانَ بَاعِثُهُ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ
تَعَالَى ، وَلَكِنْ أَنْصَافٌ إِلَيْهِ خَاطِرٌ مِنْ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ ، حَتَّى صَارَ الْعَمَلُ أَخْفَ
عَلَيْهِ بِسَبَبِ هَذِهِ الْأُمُورِ : فَقَدْ خَرَجَ عَمَلُهُ عَنْ حَدِّ الْإِخْلَاصِ .

وَالْإِنْسَانُ قَلَمًا يَنْفَكُ فِعْلًا مِنْ أَعْمَالِهِ ، وَعِبَادَةٌ مِنْ عِبَادَاتِهِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ
الْأُمُورِ ، فَلِذَلِكَ قِيلَ : مَنْ سَلِمَ لَهُ فِي عُمُرِهِ لِحِظَةٍ وَاحِدَةٍ خَالِصَةٌ لَوَجْهِ اللَّهِ
تَعَالَى : نَجَا . وَذَلِكَ لِعِزَّةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعُسْرِ تَنْقِيَةِ الْقَلْبِ مِنْ هَذِهِ الشَّوَابِغِ ،
لَأَنَّ الْخَالِصَ هُوَ الَّذِي لَا بَاعِثَ عَلَيْهِ إِلَّا طَلَبَ التَّقَرُّبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى .

قِيلَ لِسَهْلٍ : أَيُّ شَيْءٍ أَشَدَّ عَلَى النَّفْسِ ؟ قَالَ : الْإِخْلَاصُ ، إِذْ لَيْسَ لَهَا فِيهِ
نَصِيبٌ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الشَّوَابِغَ الْمُكَدَّرَةَ لِلِإِخْلَاصِ مُتَفَاوِتَةٌ ، بَعْضُهَا جَلِيٌّ ،
وَبَعْضُهَا خَفِيٌّ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا دَرَجَاتِ الرِّيَاءِ فِي بَابِهِ .

[الشَّوَابِغُ
المُكَدَّرَةُ

وَمِنَ الرِّيَاءِ مَا هُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ ، فَلْيُطَلَّبْ هُنَاكَ . وَحَاصِلُهُ
لِلِإِخْلَاصِ] أَنْ مَا دَامَ الْعَامِلُ يُفَرِّقُ بَيْنَ مُشَاهَدَةِ الْإِنْسَانِ وَالْبَهِيمَةِ فِي حَالَةٍ مِنْ

العمل، فهو خارج عن صَفْوِ الإخلاص، ولا يَسْلَم من الشيطان إلا مَنْ دَقَّ نَظْرُهُ وسَعِدَ بِعِصْمَةِ الله تعالى وتوفيقه.

وقد قيل: ركعتان من عالم أَفْضَلُ من سبعين ركعة من جاهلٍ، وأريد به العالمُ بدقائق آفات الأعمال حتى يَخْلُصَ عنها، والجاهل ينظر إلى ظاهر العبادة، وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقدُ خيرٌ من دينار يرتضيه الغرُّ^(١) الغبيّ.

فصل في حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

أما العمل الذي لا يُريد به إلا الرياء، فهو على صاحبه لا له، وهو سبب للعقاب، كما أن العمل الخالص لوجه الله تعالى سبب للثواب. ولا إشكال في هذين القسمين، وإنما النظر في العمل المشوب المُمتَزَج بِشَوْبِ الرياء وحُظوظ النفس.

وقد اختلف الناس في ذلك، هل يقتضي ثواباً أو عقاباً، أو لا يقتضي شيئاً أصلاً؟ وليس تخلو الأخبار عن تعارض في ذلك.

والذي يتضح لنا فيه - والعلم عند الله تعالى - أن نُنظر إلى قَدْرِ قُوَّةِ البواعث، فإن كان الباعث الدينيّ مُساوياً للباعث النفسانيّ تقاوماً وتساقطاً، وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أقوى، ضرٌّ وأوجب العقاب، لكن عقابه دون عقاب مَنْ تَجَرَّدَ للرياء، وإن كان الباعث الدينيّ أقوى من الآخر، فله ثوابٌ بِقَدْرِ ما فَضَّلَ مِنْ قُوَّتِهِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠].

ويشهد لما ذكرنا إجماعُ الأمة على أن مَنْ خرج حاجاً ومعه تجارة، صَحَّ حَجُّه وأُثِّب عليه، وقد أمتَزَج به حَظٌّ من حظوظ النفس، إلا أنه متى كان الحجُّ هو المُحرِّك الأصليّ: لم ينفك السفر عن ثواب. وكذلك الغازي إذا

(١) هو: الذي ينخدع إذا خُدِع، وقد لا يكون غيباً.

قَصَدَ الْعَزْوَ والغنيمة ويكون قصد الغنيمة على سبيل التَّبَعِ: حَصَلَ له الثواب، ولكنه لا يساوي ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلاً. والله تعالى أعلم.

الفصل الثالث

في الصدق وحقيقته وفضله

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»^(١) رواه البخاري ومسلم.

وقال بشر الحافي: مَنْ عَامَلَ الله بالصدق، اسْتَوْحَشَ من الناس.

وأعلم أن لفظ الصدق قد يُسْتَعْمَلُ في معان:

أحدها: الصدق في القول، فَحَقُّ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَحْفَظَ أَلْفَاظَهُ، وَلَا يَتَكَلَّمَ إِلَّا بِالصِّدْقِ، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها. وينبغي أن يَحْتَرِزَ عن المعارض، فإنها تُجَانِسُ الكَذِبَ إِلَّا أَنْ تَمَسَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا، وتقتضيها المصلحة في بعض الأحوال. وقد كان النبي ﷺ إذا أراد غزوة وَرَى بغيرها لثلاً ينتهي الخبر إلى الأعداء فيتهيؤوا لقتاله^(٢). وقال النبي ﷺ: «ليس بكاذبٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا، أَوْ نَمَى خَيْرًا»^(٣).

وينبغي أن يُرَاعِيَ معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه، كقوله: ﴿وَجَهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. فَإِنْ كَانَ قَلْبُهُ مُنْصَرِفًا عَنْ اللَّهِ مُشْغُولًا بِالدُّنْيَا: فَهُوَ كَاذِبٌ.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)، والترمذي [«صحيحه» (١٦٠٦)/ (١٩٧١)]. وهو في «صحيح الجامع» (٤٠٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٤٨)، ومسلم (٢٧٦٩)، وأحمد (١٥٧٦٣)، وأبو داود [«صحيحه» (٢٦٣٧/٢٢٩٥)] عن كعب بن مالك.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥) عن أم كلثوم بنت عقبة. وهو في «صحيح الجامع» (٥٣٧٩)، و«الصحيحه» (٥٤٥).

الثاني: الصدق في النية والإرادة، وذلك يرجع إلى الإخلاص، فإن مازَجَ عَمَلُهُ شَوْبَ من حُطُوظِ النفس، بَطَلَ صِدْقُ النية، وصاحِبُهُ يجوز أن يكون كاذباً كما في حديث الثلاثة^(١): العالم، والقارئ، والمجاهد. لما قال القارئ: قرأتُ القرآن إلى آخره، إنما كَذَّبَهُ في إرادته ونيته، لا في نفس القراءة، وكذلك صاحِبَاهُ.

الثالث: الصدق في العزم والوفاء به.

أما الأول: فنحو أن يقول: إن آتاني الله مالاً تصدقتُ بجميعه، فهذه العزيمة قد تكون صادقة وقد يكون فيها تَرُدُّد.

وأما الثاني: فنحو أن يصدق في العزم، وتسخو النفس بالوعد، لأنه لا مَشَقَّةَ فيه إذا تحققت الحقائق، وأنجلت العزيمة، وغلبت الشهوة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَنْ أَلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. وقال في آية أخرى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَيْتَ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾^(٢) إلى قوله: ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧) [التوبة].

الرابع: الصدق في الأعمال، وهو أن تستوي سريره وعلايته حتى لا تَذُلَّ أعماله الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمرٍ في باطنه، ويكون الباطن بخلاف ذلك.

قال مُطَرِّفٌ: إذا أَسْتَوَتْ سريرة العبد وعلايته قال الله ﷻ: هذا عبدي حقاً.

الخامس: الصدق في مقامات الدين، وهو أعلى الدرجات، كالصدق في الخوف والرجاء، والزهد والرضا والحب والتوكل، فإن هذه الأمور لها مبادئ ينطلق عليها الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، فالصادق المُحَقِّق من نال

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والترمذي [«صحيحه» (٢٣٨٢/١٩٤٢)]، والنسائي [«صحيحه» (٢٩٤٠)] عن أبي هريرة.

(٢) سورة التوبة، وتام الآيات: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ يَجْلُؤُوا بِهِمْ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾.

حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتَمَّتْ حقيقته سُمِّي صادقاً. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(١) إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة].
وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾^(٢) إلى قوله:
﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٣).

ونُضَرِبُ للخوف مثلاً، فنقول: ما مِنْ عَبْدٍ يُوْمن بالله إلا وهو خائف من
الله خوفاً ينطلق عليه الاسم وهو غيرُ بالغ إلى درجة الحقيقة. ألا تراه إذا خاف
سلطاناً كيف يَضْفَرُ وَيَزْعِدُ خوفاً من وقوع المَحْذُور، ثم إنه يخاف النار ولا
يظهر عليه شيء من ذلك عند فعل المعصية. ولذلك قال عامر بن عبد قيس:
عَجِبْتُ لِلْجَنَّةِ نَامِ طَالِبُهَا، وَعَجِبْتُ لِلنَّارِ نَامِ هَارِبُهَا.

والتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً، فلا غاية لهذه المقامات حتى يُنال
تمامها، ولكن لكلَّ حَظٍّ بِحَسَبِ حاله، إما ضعيف وإما قوي، فإذا قَوِيَ سُمِّي
صادقاً. وإذا علم الله مِنْ عَبْدٍ صدقاً صغاله، والصادق في جميع هذه
المقامات عزيز، وقد يكون للعبد صدقٌ في بعضها دون بعض. ومن علامات
الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً، وكراهة اطلاع الخلق على ذلك.

[كتاب: المراقبة

والمحاسبة]

باب في المحاسبة والمراقبة

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَعْدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرَةً﴾^(٣) إلى قوله:

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٧ وتمامها: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّنَ وَآلِ الْمَالِ عَلَى حُبِّهِ
ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى
الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا﴾.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٥ وتمامها: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٣).

(٣) سورة آل عمران، الآية ٣٠ وتمامها: ﴿وَمَا عَمِلْتَ مِنْ شَيْءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ
أَمَدًا بَعِيدًا وَنَعَزُوكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ . وقال : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ ^(١) إلى قوله : ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبٍ﴾ ^(٤٧) . وقال : ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ ^(٢) إلى قوله : ﴿وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ^(٤٨) . وقال : ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾ ^(٦) [الزلزلة] . إلى آخرها .

فأقتضت هذه الآيات وما أشبهها خَطرَ الحسابِ في الآخرة . وَتَحَقَّقَ أرباب البصائر أنهم لا يُنْجِيهِمْ من هذه الأخطار إلا لزومُ المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة . فَمَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ في الدنيا ، خَفَّ في القيامة حسابُه ، وَحَسُنَ مُنْقَلَبُهُ . وَمَنْ أَهْمَلَ المحاسبة دامت خَسَرَاتُه . فلما عَلِمُوا أنهم لا يُنْجِيهِمْ إلا الطاعة وقد أمرهم الله تعالى بالصبر والمُرابطة فقال : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصِيدُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران : ٢٠٠] . فَرَابَطُوا أَنْفُسَهُمْ أولاً بِالْمُشَارَطَةِ ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاقبة . فكانت لهم في المرابطة سِتُّ مقامات ، وَأَضْلَاهَا المحاسبة ، وَلَكِنْ كُلُّ حِسَابٍ يكون بعد مشاركة ومراقبة ، ويتبعه عند الخسران المعاقبة والمعاقبة ، ولا بد مِنْ شَرْحِ ذَلِكَ الْمَقَامِ .

المقام الأول: المشاركة

أَعْلَمُ أَنَّ التاجر كما يستعين بشريكه في التجارة طَلَبًا لِلرَّيْحِ ، وَيُشَارِطُهُ وَيُحَاسِبُهُ ، كَذَلِكَ الْعَقْلُ يَحْتَاجُ إِلَى مِشَارَكَةِ النَّفْسِ ، وَيُوظَّفُ عَلَيْهَا الْوُضَائِفُ ، وَيُشَرِّطُ عَلَيْهِ الشُّرُوطُ ، وَيُرْشِدُهَا إِلَى طَرِيقِ الْفَلَاحِ ، ثُمَّ لَا يَغْفُلُ عَنْ مِرَاقِبَتِهَا ، فَإِنَّهُ لَا يَأْمَنُ خِيَانَتَهَا وَتَضْيِيعَهَا رَأْسَ الْمَالِ ، ثُمَّ بَعْدَ الْفِرَاقِ يَنْبَغِي أَنْ يَحَاسِبَهَا وَيَطَالِبَهَا بِالْوَفَاءِ بِمَا شَرَّطَ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ هَذِهِ التَّجَارَةَ رِبْحُهَا الْفِرْزَدُوسُ الْأَعْلَى .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٤٧ وتمامها : ﴿يَوْمَئِذٍ الْفَيْصَمَةُ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مُنْكَالَ حَبْكَةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبٍ﴾ ^(٤٧) .

(٢) سورة الكهف ، الآية ٤٩ وتمامها : ﴿مِمَّا فِيهِ يَقُولُونَ يَوَلَّيْنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ^(٤٩) .

فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير من أرباح الدنيا . فَحَثَّم عَلَى كُلِّ ذِي حَزْمٍ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَلَّا يَغْفُلَ عَنْ مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهَا فِي حَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا وَخَطَرَاتِهَا ، فَإِنَّ كُلَّ نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِ الْعَمْرِ جَوْهَرَةٌ نَفِيسَةٌ لَا عَوَظَ لَهَا .

فإذا فرغ العبد من فريضة الصُّبْحِ ، ينبغي أن يُفَرِّغَ قَلْبَهُ سَاعَةً لمشاركة نفسه فيقول للنفس : مالي بضاعة إلا العمر ، فإذا قَنِيَ رَأْسَ الْمَالِ وَقَعَ الْيَأْسُ مِنَ التَّجَارَةِ ، وَطَلَبَ الرِّبْحَ ، وَهَذَا الْيَوْمَ الْجَدِيدُ قَدْ أَمْهَلَنِي اللَّهُ فِيهِ ، وَأَخَّرَ أَجْلِي ، وَأَنْعَمَ عَلَيَّ بِهِ ، وَلَوْ تَوَقَّانِي لَكُنْتُ أَتَمَّنِي أَنْ يُرْجِعَنِي إِلَى الدُّنْيَا حَتَّى أَعْمَلَ فِيهِ صَالِحًا ، فَأَخْشِي يَا نَفْسُ أَنَّكَ قَدْ تُوفِّيتِ ثُمَّ رُدِّدْتِ ، فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تُضَيِّعِي هَذَا الْيَوْمَ ، وَأَعْلَمِي أَنَّ الْيَوْمَ وَاللَّيْلَةَ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ سَاعَةً ، وَأَنَّ الْعَبْدَ يُنْشَرُ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ خِزَانَةً مَصْفُوفَةً ، فَيُفْتَحُ لَهُ مِنْهَا خِزَانَةٌ ، فَيَرَاهَا مَمْلُوءَةً نُورًا مِنْ حَسَنَاتِهِ الَّتِي عَمِلَهَا فِي تِلْكَ السَّاعَةِ ، فَيَحْضُلُ لَهُ مِنَ السُّرُورِ بِمُشَاهَدَةِ تِلْكَ الْأَنْوَارِ مَا لَوْ وُزِعَ عَلَى أَهْلِ النَّارِ لَأَذْهَشَتْهُمْ عَنِ الْإِحْسَاسِ بِأَلَمِ النَّارِ ، وَيُفْتَحُ لَهُ خِزَانَةٌ أُخْرَى سُودَاءٌ مُظْلِمَةٌ يَفُوحُ رِيحُهَا وَيَغْشَاهُ ظَلَامُهَا ، وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي عَصَى اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا ، فَيَحْضُلُ لَهُ مِنَ الْفَرْعِ وَالْخِزْيِ مَا لَوْ قُسِمَ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ لَنُغْصَ عَلَيْهِمْ نَعِيمُهُمْ ، وَيُفْتَحُ لَهُ خِزَانَةٌ أُخْرَى فَارِغَةٌ لَيْسَ فِيهَا مَا يَسُوُّهُ وَلَا يَسْرُهُ ، وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي نَامَ فِيهَا أَوْ غَفَلَ أَوْ اشْتَغَلَ بِشَيْءٍ مِنَ الْمُبَاحِ ، وَيَتَحَسَّرُ عَلَى خُلُوقِهَا ، وَيُنَالُهُ مَا نَالَ الْقَادِرَ عَلَى الرِّبْحِ الْكَثِيرِ إِذَا أَهْمَلَهُ حَتَّى فَاتَهُ .

وعلى هذا تُعَرَّضُ عَلَيْهِ خِزَانَتَانِ أَوْقَاتُهُ طَوِيلُ عَمْرِهِ فيقول لنفسه : اجتهد في اليوم في أن تَغْمُرِي خِزَانَتَكَ ، وَلَا تَدَعِيهَا فَارِغَةً ، وَلَا تَمِيلِي إِلَى الْكَسَلِ وَالِدَّعَةِ وَالِاسْتِرَاحَةِ ، فَيَقُولُكَ مِنْ دَرَجَاتٍ عَلِيَّينَ مَا يُدْرِكُهُ غَيْرُكَ .

قال بعضهم : هَبْ^(١) أَنْ الْمَسِيءَ قَدْ غُفِيَ عَنْهُ ، أَلَيْسَ قَدْ فَاتَهُ ثَوَابُ الْمُحْسِنِينَ ؟ فَهَذِهِ وَصِيَّتُهُ فِي نَفْسِهِ فِي أَوْقَاتِهِ .

(١) أي : اخسب وأغدد .

ثم يَسْتَأْنَفُ لها وصيةً أخرى في أعضائه السبعة ، وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ، وتسليمُها إلى النفس ، فإنها رعايا خادمةٌ لها في هذه التجارة المُخلّدة ، بها يَتِمُّ أعمالُها ، ويُعَلِّمُها أن أبواب جهنم سبعة على عدد هذه الأعضاء . فتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء ، فيُوصيها بحفظها عن معاصيها :

أما العين فيحفظها عن النظر إلى ما لا يَحِلُّ النظر إليه ، أو إلى مسلم بعين الاحتقار وعن كل فُضُول مستغنى عنه ، وَيَشْغَلُها بما فيه تجارتها وربحها ، وهو النظر إلى ما خُلِقَتْ له من عجائب صنع الله تعالى بعين الاعتبار ، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء ، والنظر في كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، ومطالعة كتب الحِكَم للاتعاظ والاستفادة .

وهكذا ينبغي أن يتقدم إلى كل عضو بالوصية بما يليق به ، ولا سيما اللسان والبطن ، وقد ذكرنا آفات اللسان فيما تقدم ، فَيَشْغَلُها بما خُلِقَ له ، من الذكر والتذكير ، وتكرار العلم والتعليم ، وإرشاد عباد الله تعالى إلى طريق الله ، وإصلاح ذات البين^(١) ، إلى غير ذلك من الخير .

وأما البطن ، فَيُكَلِّفُه تَرْكُ الشَّرِّه ، وأجتناب الشُّبُهَات والشَّهَوَات ، وَيَقْتَصِرُ على قَدْرِ الضرورة ، وَيَشْتَرِطُ على نَفْسِه إنْ خَالَفتْ شيئاً من ذلك أن يُعَاقِبَها بالمنع من شهوات البطن ، لِيُفَوِّتَهَا أكثر مما نالت بشهوتها .

وهكذا في جميع الأعضاء . وأستقصاء ذلك يطول ، وكذا ما تُخْفِي طاعات الأعضاء ومعاصيها .

ثم يَسْتَأْنَفُ وصيَّتها في وظائف العبادات التي تتكرر في اليوم واللييلة ، في النوافل التي يَقْدِرُ عليها ، وعلى الاستكثار منها .

وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم إلى أن تَعَوَّدَ النفس ذلك ، فَيَسْتَغْنِي عن المشاركة ، ولكن لا يخلو كل يوم من حادثة لها حُكْم جديد لله تعالى عليه في ذلك حق . وَيَكْثُرُ هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا ، من ولاية أو

(١) (ذات البين): ما بين القوم من القرابة والصلة والمودة ، أو العداوة والبغضاء .

تجارة أو نحو ذلك، إذ قَلَّ أن يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها. فعليه أن يَشْرطَ على نفسه الاستقامة فيها، والالتقياد للحق. وعن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْكَيْسُ مِنْ دَانَ نَفْسِهِ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»^(١)!

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا، وَزِنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَهَيَّؤُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ﴿١٧﴾

[الحاقة].

المقام الثاني: المراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه، وشرط عليها ما ذكرناه، لم يَبْقَ إلا المراقبة لها وملاحظتها. وفي الحديث الصحيح في تفسير الإحسان، لما سئل رسول الله ﷺ قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٢)، أراد بذلك استحضار عظمة الله ومراقبته في حال العبادة.

قيل: دخل الشُّبْلِيُّ على أبي الحسين الثوري^(٣) وهو قاعد ساكن، لا يتحرك من ظاهره شيء. فقال له: ممن أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: مِنْ سِنُورٍ^(٤) كانت لنا إذا أرادَتِ الصيْدَ رابطت رأس الجُحْر^(٥) حتى لا يتحرك لها شعرة.

وينبغي أن يُراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل، هل حَرَّكَه عليه

(١) ضعيف، سلف تخريجه في الصفحة (٣٧٠) حاشية (٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٢٠)، ومسلم (٩) عن أبي هريرة. و(٨) عن عمر بن الخطاب.

(٣) في النسخة الأولى: الثوري. وهو سبق قلم من الناسخ، وفي المخطوطة الثانية والثالثة على الصحيح.

(٤) هو: القِطُّ.

(٥) هو: حفرة تأوي إليها الهوام وصغار الحيوانات. والمعنى أنها لزمَت الجحر لتصيد الفأر وما أشبهه.

هوئى النفس أو المحرك له هو الله تعالى خاصة؟ فإن كان الله تعالى، أمضاه، وإلا تَرَكه، وهذا هو الإخلاص.

قال الحسن: رَجِمَ الله عبداً وقف عند هَمِّه، فإن كان لله مَضَى، وإن كان لغيره تَأَخَّر.

فهذه مراقبة العبد في الطاعة وهو أن يكون مُخلصاً فيها، ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والتندم والإقلاع، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب، والشكر على النعم. فإنه لا يخلو من نعمة لا بد له من الشكر عليها، ولا يخلو من بَلِيَّةٍ، لا بد له من الصبر عليها، وكل ذلك من المراقبة.

وقال وَهْبُ بن مُنْبَهٍ: في حكمة آل داود: حَقَّ عَلَى الْعَاقِلِ أَلَّا يُشْغَلَ عَنْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يُحَاسِبُ فيها نفسه، وساعة يُقْضِي^(١) فيها إِلَى إِخْوَانِهِ الَّذِينَ يُخْبِرُونَهُ بَعْيُوبِهِ، وَيَصْذُقُونَهُ عَنْ نَفْسِهِ، وساعة يُخْلِي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَاتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَلَا يَحْرَمُ.

فإن هذه الساعة عَوْنٌ عَلَى هَذِهِ السَّاعَاتِ، وإِجْمَامٌ^(٢) لِلْقُوَّةِ. وهذه الساعة التي هو مشغول فيها بالمطعم والمشرب، لا ينبغي أن تَخْلُو عَنْ عَمَلٍ هُوَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، وهو الذِّكْرُ والفِكرُ، فإن الطعام الذي يتناوله، فيه من العجائب ما لو تَفَكَّرَ فِيهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ.

المقام الثالث: المحاسبة بعد العمل

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]. وهذه إشارة إِلَى المحاسبة بعد مضي العمل.

ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا.

وقال الحسن: الْمُؤْمِنُ قَوَّامٌ^(٣) عَلَى نَفْسِهِ، يُحَاسِبُ نَفْسَهُ. وقال: إن

(١) أي: يُغْلِمُهُمْ بِأَحْوَالِهِ.

(٢) أي: إِرَاحَةً لِقُوَّتِهِ.

(٣) أي: الْمُتَوَلَّى لَهَا.

المؤمن يَفْجُوهُ الشيءُ يُعْجِبُهُ . فيقول : والله إنني لأَشْتَهيك وإنك لَمِنْ حاجتي ، ولكن والله ما من حيلة إليك ، هيهات ! حَيْلَ بيني وبينك . وَيَقْرُطُ^(١) منه الشيءَ فَيَرْجِعُ إلى نفسه فيقول : ما أَرَدْتُ إلى هَذَا ، ما لي ولِهَذَا؟ والله لا أَعُودُ إلى هَذَا أبداً إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أَوْثَقَهُمُ^(٢) القرآن ، وحال بينهم وبين هَلَكَتِهِمْ ، إن المؤمن أَسِيرٌ في الدنيا ، يَسْعَى في فَكَاكِ رَقَبَتِهِ ، لا يَأْمَنُ شيئاً حتى يَلْقَى الله ﷻ ، يعلم أنه مأخوذٌ عليه في سَمْعِهِ ، وفي بصره ، وفي لسانه ، وفي جوارحه ، مأخوذٌ عليه في ذلك كله .

وأعلم أن العبد كما ينبغي أن يكون له وقت في أول النهار يُشَارِطُ فيه نفسه ، كذلك ينبغي أن يكون له ساعة يُطالِبُ فيها نفسه في آخر النهار ، ويُحاسبُها على جميع ما كان منها ، كما يفعل الثُّجَّارُ في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم .

ومعنى المُحَاسَبَةِ أن ينظر في رأس المال ، وفي الربح ، وفي الخُسران ، لِتَتَبَيَّنَ له الزيادة من النقصان ، فرأس المال في دينه الفرائضُ ، وِرْبُحُهُ النوافلُ والفضائلُ ، وخُسرانه المعاصي ، وليُحاسبها أولاً على الفرائض ، وإن أَرْتَكَبَ معصيةً أَشْتَغَلَ بعقابها ومعاقبتها ليستوفي منها ما قَرُطَ .

قيل : كان توبة بن الصُّمَّةِ بالرَّقَّةِ ، وكان مُحاسباً لنفسه ، فَحَسَبَ يوماً فإذا هو ابن سِتِّينَ سنة ، فَحَسَبَ أيامها فإذا هي أَحَدٌ وعشرون ألف يوم وخمسمئة يوم ، فصرخ وقال : يا ويلتي أَلْقَى الْمَلِكُ بِأَحَدٍ وعشرين ألف ذَنْبٍ وخمسمئة ذَنْبٍ؟ كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذَنْبٍ ! ثم خَرَّ مَغْشِيّاً عليه فإذا هو ميت ، فسمعوا قائلاً يقول : يا لها ، رَكُضَةٌ إلى الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى !

فهكذا ينبغي للعبد أن يُحاسبَ نفسه على الأنفاس وعلى معصية القلب والجوارح في كل ساعة ، فإن الإنسان لو رَمَى بكل معصية يفعلها حَجَراً في

(١) أي : يسبق منه بغير رَوِيَّةِ .

(٢) المقصود : أنه قَيَّدَهُمُ بأحكامه ، فَحَجَزَ بينهم وبين ما يُهْلِكُهُم .

داره لامتلاأت داره في مدة يسيرة، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي وهي مُثَبِّتَةٌ ﴿أَخَصَّنْهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

المقام الرابع: معاقبة النفس على تقصيرها

أَعْلَمُ أَنَّ الْمَرِيدَ إِذَا حَاسَبَ نَفْسَهُ فَرَأَى مِنْهَا تَقْصِيرًا، أَوْ فَعَلَتْ شَيْئًا مِنَ الْمَعَاصِي فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُهْمِلَهَا، فَإِنَّهُ يَسْهُلُ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ مُقَارَفَةُ^(١) الذُّنُوبِ، وَيَغْسُرُ عَلَيْهِ فِطَامُهَا^(٢)، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُعَاقِبَهَا عَقُوبَةً مُبَاحَةً كَمَا يُعَاقِبُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ.

وَكَمَا رَوَى عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى حَائِطٍ^(٣) لَهُ، ثُمَّ رَجَعَ وَقَدْ صَلَّى النَّاسُ الْعَصْرَ. فَقَالَ: إِنَّمَا خَرَجْتُ إِلَى حَائِطِي، وَرَجَعْتُ وَقَدْ صَلَّى النَّاسُ الْعَصْرَ! حَائِطِي صَدَقَةٌ عَلَى الْمَسَاكِينِ. قَالَ اللَّيْثُ: إِنَّمَا فَاتَتْهُ الْجَمَاعَةُ. وَرَوَيْنَا عَنْهُ أَنَّهُ شَغِلَهُ أَمْرٌ عَنِ الْمَغْرَبِ حَتَّى طَلَعَ نَجْمَانِ، فَلَمَّا صَلَاهَا أَعْتَقَ رَقَبَتَيْنِ.

وَحَكَى أَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَامَ لَيْلَةً لَمْ يَقُمْ يَتَهَجَّدُ فِيهَا حَتَّى أَصْبَحَ، فَقَامَ سَنَةً لَمْ يَنْمَ فِيهَا عَقُوبَةً لِلَّذِي صَنَعَ. وَمَرَّ حَسَانُ بْنُ سِنَانٍ بِغُرْفَةٍ^(٤) فَقَالَ: مَتَى بُنِيتَ هَذِهِ؟ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: تَسْأَلِينَ عَمَّا لَا يَعْنِيكَ! لِأَعَاقِبُكَ بِصَوْمِ سَنَةٍ، فَصَامَهَا. فَأَمَّا الْعُقُوبَاتُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَجِلُّ، فَيَحْرُمُ عَلَيْهِ فِعْلُهُ. مِثَالُ ذَلِكَ: مَا حَكَى أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَضَعَ يَدَهُ عَلَى فَخْذِ امْرَأَةٍ، فَوَضَعَهَا فِي النَّارِ حَتَّى شَلَّتْ^(٥).

(١) أَي: مُلَاصَقَتِهَا وَالْقُرْبَ مِنْهَا.

(٢) هُوَ فِي الْأَصْلِ قَطْعُ الْوَلَدِ عَنِ الرِّضَاعِ. وَالْمَقْصُودُ هُنَا إِبْعَادُهَا عَنِ الذُّنُوبِ.

(٣) هُوَ هُنَا: الْبُسْتَانُ.

(٤) هِيَ: الْحُجْرَةُ فِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الدَّارِ وَمَا فَوْقَهَا. عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ الْمَتَعَارَفُ عَلَيْهِ الْآنَ.

(٥) أَي: أُصِيبَتْ يَدُهُ بِالشَّلَلِ.

وَأَنْ آخَرَ حَوْلَ رِجْلِهِ لِيَنْزِلَ إِلَى أَمْرَأَةٍ، فَفَكَّرَ وَقَالَ: مَاذَا أُرِدْتُ أَنْ أَصْنَعَ؟ فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُعِيدَ رِجْلَهُ، قَالَ: هَيْهَاتَ! رِجْلُ خَرَجْتُ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ لَا تَرْجِعْ مَعِيَ. فَتَرَكَهَا حَتَّى تَقْطَعَتْ بِالْمَطَرِ وَالرِّيحِ.

وَأَنْ آخَرَ نَظَرَ إِلَى أَمْرَأَةٍ فَقَلَعَ عَيْنَيْهِ.

فَهَذَا كُلُّهُ مُحَرَّمٌ، وَإِنَّمَا كَانَ جَائِزاً فِي شَرِيعَتِهِمْ. وَقَدْ سَلَكَ نَحْوَ ذَلِكَ خَلَقٌ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِنَا، حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْجَهْلُ بِالْعِلْمِ:

كَمَا حَكِيَ عَنْ غَزْوَانَ الزَّاهِدِ: أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى أَمْرَأَةٍ، فَلَطَمَ عَيْنَهُ حَتَّى نَفَرَتْ^(١). وَرَوَيْنَا عَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّهُ أَصَابَتْهُ جَنَابَةٌ وَكَانَ الْبَرْدُ شَدِيداً، وَأَنَّهُ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ تَوَقُّفاً عَنِ الْغُسْلِ، فَآلَى^(٢) أَلَّا يَغْتَسِلَ إِلَّا فِي مُرَقَّعَتِهِ^(٣)؛ أَلَّا يَنْزِعَهَا وَلَا يَغْصِرَهَا، فَكَانَتْ شَدِيدَةً الْكَثَافَةُ تَزِيدُ عَلَى عَشْرِينَ رَطَلاً. وَهَذَا مِنَ الْجَهْلِ بِالْعِلْمِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي نَفْسِهِ بِمِثْلِ هَذَا. وَقَدْ ذَكَرْتُ كَثِيراً مِنْ هَذَا الْفَنِّ الصَّادِرِ عَنِ الْمُتَعَبِّدِينَ عَلَى الْجَهْلِ فِي كِتَابِي الْمُسَمَّى بِـ «تَلْبِيسِ إِبْلِيسَ».

المقام الخامس: المجاهدة

وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا حَاسِبَ نَفْسَهُ، فَيَنْبَغِي إِذَا رَأَاهَا قَارَفَتْ مَعْصِيَةً، أَنْ يُعَاقِبَهَا كَمَا سَبَقَ، فَإِنْ رَأَاهَا تَتَوَانَى - بِحُكْمِ الْكَسَلِ - فِي شَيْءٍ مِنَ الْفَضَائِلِ، أَوْ وَزِدَ مِنَ الْأَوْرَادِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُؤَدِّبَهَا بِثَقِيلِ الْأَوْرَادِ عَلَيْهَا، كَمَا وَرَدَ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو^(٤) أَنَّهُ فَاتَتْهُ صَلَاةٌ فِي جَمَاعَةٍ، فَأَحْيَا اللَّيْلَ كُلَّهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ.

وَإِذَا لَمْ تُطَاوِرْهُ نَفْسُهُ عَلَى الْأَوْرَادِ، فَإِنَّهُ يُجَاهِدُهَا وَيُكْرِهُهَا مَا اسْتَطَاعَ.

(١) أَي: وَرِمَتْ.

(٢) أَي: أَقْسَمَ وَحَلَفَ.

(٣) هُوَ: مِنْ لِبَاسِ الصُّوفِيَّةِ سَمِيَتْ بِذَلِكَ لِمَا فِيهَا مِنَ الرُّقْعِ، وَغَالِباً مَا لَا تَكُونُ لِحَاجَةً، وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ التَّظَاهَرِ بِالْفَقْرِ الْكَاذِبِ مِنْهُمْ.

وقال أبْنُ الْمُبَارَكِ : إِنْ الصَّالِحِينَ كَانَتْ أَنْفُسُهُمْ تُؤَاتِيهِمْ عَلَى الْخَيْرِ عَفْوَاً^(١) ،
وإِنْ أَنْفُسُنَا لَا تُؤَاتِينَا إِلَّا كُرْهًا .

ومِمَّا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَيْهَا أَنْ يُسْمِعَهَا أَخْبَارَ الْمُجْتَهِدِينَ ، وَمَا وَرَدَ فِي فَضْلِهِمْ
وَيَصْحَبُ مِنْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْهُمْ ، فَيَقْتَدِي بِأَفْعَالِهِ .

قَالَ بَعْضُهُمْ : كُنْتُ إِذَا اعْتَرَتْنِي فِتْنَةٌ^(٢) فِي الْعِبَادَةِ نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِ مُحَمَّدٍ بِنِ
وَاسِعٍ وَإِلَى أَجْتِهَادِهِ فَعَمِلْتُ عَلَى ذَلِكَ أَسْبُوعًا .

وَقَدْ كَانَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ يَصْلِي كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ رَكْعَةٍ .

وَكَانَ الْأَسْوَدُ بْنُ يَزِيدٍ يَصُومُ حَتَّى يَخْضَرَّ وَيَضْفَرَّ .

وَحُجٌّ مَسْرُوقٌ فَمَا نَامَ إِلَّا سَاجِدًا .

وَكَانَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ يَشْرَبُ الْفَتِيَّتَ مَكَانَ الْخُبْزِ ، وَيَقْرَأُ بَيْنَهُمَا خَمْسِينَ آيَةً .

وَكَانَ كُرْزُ بْنُ وَبَرَةَ يَخْتِمُ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَ خَتَمَاتٍ .

وَكَانَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَفَتَحَ الْمُؤَصِّلِيَّ يَبْكِيَانِ الدَّمَ .

وَصَلَّى أَرْبَعُونَ نَفْسًا مِنَ الْقُدَمَاءِ الْفَجَرَ بَوْضُوءِ الْعَتَمَةِ^(٣) .

وَجَاوَرَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْجَرِيرِيُّ بِمَكَّةَ سَنَةً فَلَمْ يَنْمَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ ، وَلَمْ يَسْتَنْدِ إِلَى

حَائِطٍ ، وَلَمْ يَمُدَّ رِجْلَهُ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْكَتَّانِيُّ : بِمِ قَدَرْتِ عَلَى هَذَا؟ قَالَ : عَلِمَ
صِدْقَ بَاطِنِي فَأَعَانَنِي عَلَى ظَاهِرِي .

وَدَخَلُوا عَلَى رَحْلةِ الْعَابِدَةِ ، فَكَلَّمُوهَا بِالرُّفْقِ فِي نَفْسِهَا ، فَقَالَتْ : إِنَّمَا هِيَ

أَيَّامُ مُبَادَرَةٍ^(٤) ، فَمِنْ فَاتِهِ الْيَوْمُ شَيْءٌ لَمْ يُذِرْكَهُ غَدًا ، وَاللَّهُ يَا إِخْوَتَاهُ! لِأَصْلَيْنِ لِلَّهِ

مَا أَقْلَنْتَنِي^(٥) جَوَارِحِي ، وَلِأَصُومَنَّ لَهُ فِي أَيَّامِ حَيَاتِي ، وَلِأَبْكِيَنَّ مَا حَمَلَتِ الْمَاءُ

عَيْنَايَ .

(١) أَي : تَطَاوَعَهُمْ بِلا كُلْفَةٍ أَوْ مَشَقَّةٍ .

(٢) أَي : أَلْتَمَّ بِهِ وَأَصَابَهُ ضَعْفٌ .

(٣) هِيَ : ظِلَامُ أَوَّلِ اللَّيْلِ بَعْدَ زَوَالِ نُورِ الشَّقَقِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا وَضُوءُ صَلَاةِ الْعِشَاءِ !!

(٤) أَي : أَيَّامُ إِسْرَاعٍ وَفُرْصَةٍ لَا تُذَرَّكَ بَعْدَ ذَلِكَ .

(٥) بِمَعْنَى : مَدَّةُ أَحْتِمَالِ جَوَارِحِي لِي .

ومن أراد أن ينظر في سِيرِ القوم، وَيَتَفَرَّجَ في بساتين مُجاهداتهم، فَلْيَنْظُرْ في كتابي المسمّى بـ «صِفَةِ الصَّفْوَةِ» فإنه يرى من أخبار القوم ما يُعَدُّ نَفْسَهُ بالإضافة إليهم من الموتى، بل من أخبار المُتَعَبِّدَات من النسوة ما يَحْتَقِرُ نفسه عند سماعه .

المقام السادس: في معاتبة النفس وتوبيخها

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

مَنْ مَقَّتْ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ، أَمَنَهُ اللَّهُ مِنْ مَقْتِهِ .

وقال أنس رضي الله عنه : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد دخل حائطاً فسمعتة يقول وبينني وبينه جدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، بخٍ بخٍ^(١)، والله لَتَقَيَّنَ الله يا ابن الخطاب أو لَيُعَذَّبَنَّكَ .

وقال البَخْتَرِيُّ بن حارثة: دخلت على عابد فإذا بين يديه نار قد أَجْجَها وهو يُعَاتِبُ نفسه، فلم يزل يُعَاتِبُها حتى مات .

وكان بعضهم يقول: إذا ذكر الصالحون، ف(أف)^(٢) لي و(تُف)^(٣) .

وأعلم أن أعدى عدو لك: نفسك التي بين جنبيك، وقد خُلقت أَمارة بالسوء، مَيَّالَة إلى الشرِّ، وقد أُمِرت بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردِها، وأن تُقَوِّدَها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها، فإن أَهْمَلْتَهَا جَمَحَتْ^(٤) وَشَرَدَتْ^(٥)، ولم تَظْفَرْ بها بعد ذلك، وإن لَزِمْتَهَا بالتوبيخ رَجَوْنَا أن تصير مطمئنة، فلا تَغْفُلَنَّ عن تذكيرها . وسييلُك أن تُقْبِلَ عليها، فتَقَرَّرَ عندها جَهِلُها وغَباوتها وتقول: يا نفس! ما أَعْظَمَ جَهِلُكَ! تَدْعِينِ الذكاءَ والفِطنةَ وأنتِ أَشَدُّ

(١) كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء أو المدح أو الفخر .

(٢) كلمة تضجر وتكره .

(٣) كلمة تقال عند الشيء الذي يُسْتَقْدَرُ أو يُتَأَدَّى منه .

(٤) في المخطوطة الثانية: حجمت وفي المطبوع: «طمحت» . والمثبت في «الإحياء»

أيضاً، ومعناه: أنها عَتَتْ عن أمره حتى غلبته .

(٥) أي نَفَرَتْ وأَسْتَعَصَتْ .

الناس غباوة وحُمْقاً، أما تَعْلَمِينَ أَنَّكَ صائِرةٌ إلى الجنة أو النار؟ فكيف يلهو من لا يدري إلى أيّتهما يصير؟ وربما اخْتُطِفَ في يومه أو في غده، (أما تَعْلَمِينَ أَنَّ كل ما هو آتٍ قريب، وأن الموت يأتي بغتة من غير مَوْعِدٍ)، ولا يَتَوَقَّفُ على سِنٍّ دون سِنٍّ، بل كل نَفْسٍ من الأنفاس يُمكنُ أن يكون فيه الموتُ فجأةً، وإن لم يكن الموتُ فجأةً كان المرضُ فجأةً، ثم يُفْضِي إلى الموت. فما لك لا تَسْتَعِدِّينَ للموت وهو قريب منك؟ يا نفس! إن كانتْ جُرأتُكَ على معصية الله تعالى لاغْتِقَادِكَ أن الله لا يَرَاكَ فما أعظم كُفْرَكَ! وإن كانت مع عِلْمِكَ بأطلاعه عليك، فما أشد رَفَاعَتِكَ^(١)، وأقلَّ حياءِكَ! أَلَيْكَ طاقَةٌ على عذابه؟ جَرَّبِي ذلك بالقعود ساعةً في الحَمَّام، أو قَرَّبِي أصبعك من النار. يا نفس! إن كان المانع لك من الاستقامة حُبُّ الشهوات، فأطْلُبِي الشهوات الباقية الصافية عن الكَدَرِ، ورُبَّ أكلةٍ منعتْ أَكَلَاتٍ^(٢).

وما قولك في عقلٍ مريضٍ أشار عليه الطبيب بِتَرْكِ الماء ثلاثة أيام ليَصِحَّ وَيَتَهَيَّأ لِشُرْبِهِ طَوْلَ العمر؟ فما مُقْتَضَى العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام لِيَتَنَعَّمَ طول العمر؟ أم يقضي شهوته في الحال ثم يَلْزِمُهُ الألم أبداً؟ فجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مُدَّةُ نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر، بل أقل من لحظة بالإضافة إلى عمر الدنيا. وليت شعري! أَلَمْ الصبر عن الشهوات أشد وأطول، أم ألم النار في الدَّرَكَاتِ^(٣)؟ فمن لا يطيق الصبر على أَلَمِ المُجاهدة، كيف يطيق ألم العذاب في الآخرة؟ أَشَغَلَكَ حُبُّ الجاه؟ أما [تعرفين أنه] بعد سِتِّين سنة أو نحوها، لا

(١) هي: الحماقة وضعف العقل والسماجة، وتُستعمل فيما ينشأ عنها من قلة الحياء والصفاء.

(٢) هو مَثَلٌ يُضْرَبُ في ذم الحرص على الطعام، وقصته في «مجمع الأمثال» للميداني ٢٩٧/١ بتحقيق عبد الحميد.

(٣) من دركات جهنم؛ جمع دَرَكَة، وهي: المنزلة السفلى، فالدركات منازل بعضها تحت بعض.

تَبَقَّنَ أَنْتِ وَلَا مِنْ كَانَ لَكَ عِنْدَهُ جَاهٌ . هَلَا تَرَكْتِ الدُّنْيَا لِخِصَّةِ شُرَكَائِهَا ، وَكَثْرَةِ عَنَائِهَا^(١) ، وَخَوْفًا مِنْ سُرْعَةِ فَنَائِهَا؟ أَتَسْتَبْدِلِينَ بِجَوَارِ رَبِّ الْعَالَمِينَ صَفًّا نَعَالًا فِي صَحْبَةِ الْحَقِّقِيِّ؟ قَدْ ضَاعَ أَكْثَرُ الْبِضَاعَةِ ، وَقَدْ بَقِيَتْ مِنَ الْعَمْرِ ضُبَابَةٌ^(٢) ، وَلَوْ أَسْتَدْرَكْتَ نَدِمْتَ عَلَى مَا ضَاعَ ، فَكَيْفَ إِذَا أَضْفَتِ الْأَخِيرَ إِلَى الْأَوَّلِ؟ أَعْمَلِي فِي أَيَّامٍ قَصَارٍ لِأَيَّامٍ طَوَالٍ ، وَأَعِدِّي الْجَوَابَ لِلسُّؤَالِ . اخْرُجِي مِنَ الدُّنْيَا خُرُوجَ الْأَحْرَارِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ خُرُوجُ أَضْطَرَارٍ . إِنَّهُ مِنْ كَانَتْ مَطِئَتُهُ^(٣) اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ سِيرَ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْ . تَفَكَّرِي فِي هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ ، فَإِنْ عَدِمْتَ تَأْثِيرَهَا ، فَأَبْكِي عَلَى مَا أَصِيبَتْ بِهِ ، فَمُسْتَقْبَلُ^(٤) الدَّمْعِ : مِنْ بَحْرِ الرَّحْمَةِ .

باب التفكير

قد أمر الله سبحانه بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز، وأثنى على المتفكرين بقوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] . وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٢١ . الزمر: ٤٢ . الجاثية: ١٣] .

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَفَكَّرُوا فِي آلاءِ^(٥) الله، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي الله»^(٦) . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ . وقال وهب بن منبه: مَا طَالَتْ فِكْرَةُ أَمْرٍ قَطُّ إِلَّا فَهِمَ ، وَمَا فَهِمَ إِلَّا عَلِمَ ، وَمَا عَلِمَ إِلَّا عَمِلَ .

(١) أي: تَعَبَهَا .

(٢) هي: البقية القليلة من الشيء، وأكثر استعمالها للماء .

(٣) هي: مَا يُمْتَطَى وَيُرْكَبُ .

(٤) أي: الذي يُسْتَمَدُّ مِنْهُ الدَّمْعُ .

(٥) أي: نِعَمُ الله جَلَّ شَأْنُهُ .

(٦) رواه الطبراني وغيره . وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٢٩٧٥)، و«السلسلة الصحيحة» (١٧٨٨) .

وقال بِشْرُ الحافِي: لو تَفَكَّرَ الناس في عَظْمَةِ الله تعالى لَمَا عَصَوْهُ.
وقال الفِزْيَابِيُّ في قوله تعالى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ عَائِنِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ
يَعْبِرِ الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال: أَمْنَعُ قُلُوبَهُمُ التَّفَكِيرَ في أَمْرِي.
وكان داوُدُ الطائِيُّ على سَطْحٍ في لَيْلَةٍ قَمَرَاءَ، فَتَفَكَّرَ في مَلَكُوتِ السَّمُوتِ
وَالْأَرْضِ، فَوَقَعَ في دَارٍ جَارٍ لَهُ، فَوَثَبَ غُرِياناً وبيده السيفُ، فلما رآه قال: يا
داوُدُ، ما الذي أَلْفاكَ؟ قال: ما شَعَرْتُ بِذَلِكَ.
وقال يوسُفُ بن أسباط: إن الدنيا لم تُخْلَقْ لِيُنْظَرَ إليها، بل لينظر بها إلى
الآخرة.

وكان سُفْيَانُ مِنْ شِدَّةِ تَفَكُّرِهِ يَبُولُ الدَّمَ.
وقال أبو بكر الكَتَّانِيُّ: (روعة^(١)) عند آتِباهاةٍ من غَفْلَةٍ، وَأَنْقِطَاعٍ عن حَظٍّ
نَفْسَانِيٍّ، وَأَرْتِعاذٍ من خَوْفٍ قَطيعةٍ: أَفْضَلُ من عِبادَةِ الثَّقَلَيْنِ^(٢).

بيان مجاري الفكر وثمراته

أَعْلَمُ أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين، وقد يجري في أمر يتعلق
بغيره، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين، وَشَرَحَ ذلك يطول. فَلْيُنْظَرْ الإنسان في
أربعة أنواع: الطاعات، والمعاصي، والصفات المَهْلِكات، والصفات المُنْجِيَّات.
فلا تَغْفُلْ عن نفسك، ولا عن صفاتك المُبَاعِدة عن الله، والمُقَرَّبَةِ إليه.
وينبغي لكل مُريد أن تكون له جَرِيْدَةٌ يُثَبَّتُ فيها جملة الصفات المَهْلِكات،
وجملة الصفات المُنْجِيَّات وجملة المعاصي والطاعات، وَيَعْرِضُ ذلك على
نفسه كل يوم.

ويكفيه من المَهْلِكات النَّظَرُ في عشرة، فإنه إن سَلِمَ منها سلم من غيرها،
وهي: البخل، والكِبَرُ، والعُجْبُ، والرياء، والحسد، وشدة الغضب، وشره
الطعام، وشره الوقاع، وَحُبُّ المال، وَحُبُّ الجاه.

(١) أي: الفَرْعة والخوف.

(٢) أي: الإنس والجن.

ومن المُنَجِّيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، وأعتدال الخوف والرياء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحُسْنُ الخُلُقِ مع الخَلْقِ، وحب الله تعالى، والخشوع.

فهذه عشرون خصلة: عَشْرَةٌ مَذْمُومَةٌ، وَعَشْرَةٌ مَحْمُودَةٌ، فمَتَى كُفِيَ من المذمومات واحدةً خَطَّ عليها في جَرِيدَتِهِ، وَتَرَكَ الْفِكْرَ فيها، وَشَكَرَ اللهَ تعالى على كفايته إياها. وَلْيَعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَتِمَّ إِلَّا بِتَوْفِيقِ الله وَعَوْنِهِ، ثُمَّ يُقْبَلْ عَلَى التَّسْعَةِ الْبَاقِيَةِ، وَهَكَذَا يَفْعَلْ حَتَّى يَخْطَّ عَلَى الْجَمِيعِ. وَكَذَلِكَ يُطَالِبْ نَفْسَهُ بِالِاتِّصَافِ بِالصِّفَاتِ الْمُنَجِّياتِ، فَإِذَا اتَّصَفَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا، كَالْتَوْبَةِ وَالنَّدَمِ مِثْلًا، خَطَّ عَلَيْهَا وَأَشْتَغَلَ بِالْبَاقِي.

وهذا يحتاج إليه المريد المُشَمِّرُ.

فأما أكثر الناس من المعدودين في الصالحين، فينبغي أن يُثَبِّتُوا في جرائدِهم المعاصي الظاهرة، كأَكْلِ الشُّبُهَاتِ، وإِطْلَاقِ اللِّسَانِ بِالْغَيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، وَالْمِرَاءِ^(١)، والثناء على النفس، والإفراط في موالاة الأولياء، ومعاداة الأعداء، والمُداَهَنَةِ^(٢) في ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإن أكثر من يُعَدُّ نفسه من وجوه الصالحين لَا يَنْفَكُ عَنْ جُمْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَعَاصِي فِي جَوَارِحِهِ، وَمَا لَمْ تَطْهَرْ الْجَوَارِحُ مِنَ الْآثَامِ، لَا يُمَكِّنُ الْإِشْتَغَالَ بِعِمَارَةِ الْقَلْبِ وَتَطْهِيرِهِ.

وكل فريق من الناس يَغْلِبُ عَلَيْهِمْ نَوْعٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَفَقُّدُهُمْ لَهَا وَتَفَكُّرُهُمْ فِيهَا.

مثاله الْعَالِمُ الْوَرَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو فِي غَالِبِ الْأَمْرِ مِنْ إِظْهَارِ نَفْسِهِ بِالْعِلْمِ، وَطَلَبِ الشُّهُرَةِ، وَأَنْتِشَارِ الصُّنْتِ^(٣)، إِمَّا بِالتَّدْرِيسِ، أَوْ بِالْوَعْظِ. وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَدْ تَصَدَّى لِفِتْنَةٍ عَظِيمَةٍ لَا يَنْجُو مِنْهَا إِلَّا الصَّدِّيقُونَ. وَرَبَّمَا يَنْتَهِي الْعِلْمُ

(١) هو: الجِدَالُ.

(٢) هي: إظهار خلاف ما يُضمَرُ.

(٣) هو: الذِّكْرُ الْحَسَنُ.

بأهل العلم إلى أن يتغايروا^(١) كما يتغايّر النساء، وكل ذلك من رسوخ الصفات المَهْلِكات في سِرِّ^(٢) القلب التي يَظُنُّ العالمُ النجاة منها، وهو مغرور فيها.

وَمَنْ أَحْسَنَ من نفسه هذه الصفات، فالواجب عليه الانفراد والعزلة، وطلّب الخمولِ والمُدافعة للفتاوى، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى، وكلّ منهم، يَودُّ لو أن أخاه كفاه. وعند هذا ينبغي أن يتَّقِيَ شياطين الإنس، فإنهم قد يقولون: هذا سبب لاندراس^(٣) العلم، فليقلّ لهم: دين الإسلام مُسْتَعْنٍ عني، ولو مُتُّ لم ينهدِم الإسلام، وأنا غير مُسْتَعْنٍ عن إصلاح قلبي. فليكن فكرُ العالمِ في التَّقَطُّنِ لِخَفَايا هذه الصفات من قلبه، نسأل الله أن يَصلِحَ فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا.

فصل

قد تقدم أن النبي ﷺ قال: «تَفَكَّرُوا فِي آلاءِ اللَّهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ»^(٤) فالتفكر في ذاته سبحانه ممنوع منه، وذلك أن العقول تَحْتَجِرُ في ذلك. فإنه أعظم من أن تَمَثَّلَهُ^(٥) العقول بالتفكر، أو تَتَوَهَّمَهُ القلوب بالتصوير: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»^(٦) [الشورى].

[بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى]

فأما التفكير في مخلوقات الله تعالى، فقد ورد القرآن بالحثِّ على ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٧) [آل عمران] الآيات. وقوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

(١) كذا أوردها المصنف تبعاً لـ «الإحياء» ويقصد بها الغيرة، ولكنها في المعجمات بمعنى: الاختلاف.

(٢) أي: في أصل القلب.

(٣) أي: ذهاب أثره وفقده.

(٤) حسن، سلف تخريجه في الصفحة (٤٧٤) حاشية (٦).

(٥) أي: تتصور شبيهاً له.

ومن آيات الله تعالى الإنسان المخلوق من نُطفة، فَيَتَفَكَّرُ الإنسان في نفسه، فإن في خَلْقِهِ من العجائب الدالة على عَظَمَةِ الله تعالى، ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عَشْرِ عَشْرِهِ وهو غافلٌ عن ذلك. وقد أمره الله تعالى بالتدبُّر في نفسه، فقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات]. وقد تقدم في (كتاب: الشكر) الكلام على بعض خلق الإنسان فَلْيُطَلَّبْ هناك.

ومن آياته الجواهر المؤدعة في الجبال، والمعادن من الذهب والفضة والفَيَرُوزِج^(١) ونحوها، وكذلك النَّفْطُ، والكبريت والقار^(٢) وغيرها.

ومن آياته البحار العظيمة العميقة المُكْتَنِفَةُ لأقطار الأرض، التي هي قِطْعٌ من البحر الأعظم، المحيط بجميع الأرض. ولو جُمِعَ المكشوف من الأرض، من البراري، والجبال، لكان بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وفي البحر عجائب؛ أضعاف ما تُشَاهِدُهُ في البر.

وأنظر كيف خَلَقَ اللؤلؤ^(٣)، ودَوَّرَهُ في صَدْفِهِ تحت الماء، وأنظر كيف أُثْبِتَ المَرْجَانُ^(٤) في صَمٍّ^(٥) الصخور تحت الماء، وكذلك ما عداه من العنبر^(٦) وأصناف ما يَقْدِفُهُ البحر.

(١) هو الفيروز نفسه، وهو: حجر كريم غير شفاف، معروف بلونه الأزرق، كلون السماء أو أَمِيلٌ إلى الخُضْرَةِ، ويتبدل لونه إذا عرض على الشمس والهواء، وهو مما يُتَحَلَّى بِهِ.

(٢) هو: الزُّفْتُ.

(٣) يتكون في الأصداق من رواسب أو جوامد صُلْبَةٍ لَمَاعَةٍ مستديرة في بعض الحيوانات المائية الدنيا من الرُّخَوِيَّاتِ.

(٤) جنس حيوانات بحرية ثوابت من طائفة المرجانيات لها هيكل وكِلْس أحمر، يُعَدُّ من الأحجار الكريمة، ويكثر في البحر الأحمر. وعَدُّ المصنّف لها من النبات هو على عَدِّ القدماء الحركة دليلاً على الحيوانية، بينما المُخَدِّثون يرون غير ذلك.

(٥) أي: الصُّلْبُ المُضْمَت.

(٦) رَوْث حيوان ثديي بحري، وهي صُلْبَةٌ لا طعم لها ولا ريح، إلا إذا سُحِقَتْ أو أُخْرِقَتْ.

وأنظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء، وسيرها في البحار تسوقها الرياح .

وأعجب من ذلك الماء، فإنه حياة كل ما على الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء، ومُنِعَ منها لَبَدَلَ جميع خزائن الدنيا في تحصيلها لو مَلَكَ ذلك، ثم إذا شربها ومُنِعَ خُروجها، لَبَدَلَ جميع خزائن الأرض في إخراجها، فلا يَغْفُل العبدُ عن هذه النعمة .

ومن آياته الهواء وهو جسم لطيف لا يُرى بالعين، ثم أنظر إلى شدته وقوته . وأنظر إلى عجائب الجو، وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبرد والشهب والصواعق، وغير ذلك من العجائب . وأنظر إلى الطير تَسْبُحُ بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر في الماء . ثم أنظر إلى السماء وعظمتها وكواكبها وشمسها وقمرها، وما فيها كوكب إلا والله فيه حكمة في لونه وشكله وموضعه . وأنظر إلى إيلاج^(١) الليل في النهار، والنهار في الليل . وأنظر مسير الشمس، كيف اختلف في الصيف والشتاء والربيع والخريف .

وقد قيل: إن الشمس مثل الأرض مئة وثيِّفاً وستين مرة، وإن أصغر كوكب في السماء مثل الأرض ثمان مرات، فإذا كان هذا كوكب واحد، فأنظر إلى كثرة الكواكب، وإلى السماء التي فيها الكواكب، وإلى إحاطة عينك بذلك مع صغرها، والعجب منك أنك تَدْخُلُ بيتَ غنيٍّ، مُزَخَرَفٌ مُمَوَّاةٌ بالذهب، فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكّره، وأنت تنظر إلى هذا البيت العظيم، وإلى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه، ثم لا تتحدث فيه، ولا تلتفت بقلبك إليه، ولا تتفكر في بناء خالقك، فلقد نسيَتَ نفسك وربك، وأشتغلت ببطنك وفرجك، فما مثلك في غفلتك إلا كمثّل نملة تخرج من بيتها الذي حَفَرَتْهُ في حائط قصر المَلِكِ، فَتَلْقَى أختها فتحدث معها في حديث بيتها، وكيف بَنَتْهُ وما جمعت فيه، ولا تَذْكُرُ قَصْرَ الملك ولا من فيه . فهكذا أنت في غفلتك، فما تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك .

(١) أي: إدخاله .

فهذا بيان معاهد الجَمَل التي يجول فيها فِكْر المتفكرين، والأعمار تَقْصُر، والعلوم تَقِلُّ عن الإحاطة ببعض المخلوقات، إلا أنك كلما أَسْتَكْثَرْتَ من معرفة عجائب المصنوعات، كانت معرفتك بجلال الصانع أَتَمَّ. فتفكر فيما أشرنا إليه ههنا مع ما قدمناه من الإشارة في (كتاب: الشكر). فَمَنْ نظر في هذه الأشياء من حيث إنها فعل الله وصُنْعُه، أَسْتَفَادَ المعرفة بجلال الله تعالى وعَظَمَتِه، وَمَنْ قَصَرَ النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض، لا من حيث ارتباطها بِمُسَبِّبِ الأسباب، شَقِيَ. نعوذ بالله من مَزَلَّةٍ ^(١) أقدام الجُهَال، ومن الرُّكُون ^(٢) إلى أسباب الضلال. ولا وَجْهَ للتفكر فيما لا نراه من الملائكة والجن، فلذلك عَدَلْنَا عنه إلى ما نراه، والله أعلم.

[كتاب: ذكر

الموت وما بعده]

باب في ذكر الموت وما بعده وما يتعلق به

[في ذكر الموت أعلم أن المُنْهَمِك في الدنيا المِكْبَب ^(٣) على غرورها، يَغْفُل قَلْبُه والترغيب في لا مَحَالَة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإن ذكره كَرِهَهُ ونَفَرَ منه، ثم الإكثار من ذكره] الناس إما مُنْهَمِكٌ، أو تائب مبتدئ، أو عارف مُنْتَهٍ.

فأما المنهمك فلا يذكره، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياءه، ويشغل بذهمه. وهذا لا يزيده ذكر الموت من الله تعالى إلا بُغْدًا.

وأما التائب، فإنه يُكْثِرُ ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فَيَفِي بِتَمَامِ التوبة، وربما يَكْرَهُ الموت خِيفَةً ^(٤) أن يَخْتِطِفَهُ قبل تمامها أو قبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت، ولا يدخل بهذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم:

(١) أي: موضع الزلل.

(٢) أي: الميل إليها.

(٣) أي: المُقْبِل عليها المشغول بها.

(٤) أي: مخافة.

«مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١) فإنه إنما يَخَافُ لقاءَ اللَّهِ لِقُصُورِهِ وتقصيره، فهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مُشْتَغِلاً بالاستعداد لِلِقَائِهِ عَلَى وجهِ يرضاه فلا يُعَدُّ كَارِهاً لِلِقَائِهِ، وعلامة هُذَا أن يكون دائمَ الاستعداد له، لا شُغْلَ له سِوَاهُ، وإلا أَلْتَحَقَ بالمنهمك في الدنيا.

وأما العارف، فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعدُ لقاء الحبيب، وهو لا يَنْسِي موعدَ لقاء حبيبه. وهُذَا في غالب الأمر يَسْتَبْطِئُ مجيء الموت، وَيُحِبُّهُ لِيَتَخَلَّصَ من دار العاصِينَ، وَيَنْتَقِلَ إِلَى جِوَارِ رب العالمين، كما قال بعضهم: حبيب جاء عَلَى فاقة^(٢).

فإِذَا: التائب معذور في كراهة الموت، وهُذَا معذور في حُبِّ الموت وَتَمَنِيهِ، وَأَعْلَى مِنْهُمَا مَنْ قَوَّضَ أمره إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَصَارَ لَا يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً، بَلْ تَكُونُ [أَحَبُّ] الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ أَحَبُّهَا إِلَى مَوْلَاهُ، فَهَذَا قَدْ أَنْتَهَى بِفَرْطِ الْحُبِّ وَالْوَلَاءِ: إِلَى مَقَامِ التَّسْلِيمِ وَالرِّضَا، وَهُوَ الْغَايَةُ وَالْمُنْتَهَى.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَفِي ذِكْرِ الْمَوْتِ ثَوَابٌ وَفَضْلٌ، فَإِنْ الْمُنْهَمَكُ فِي الدُّنْيَا قَدْ يَسْتَفِيدُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ التَّجَافِيَّ عَنِ الدُّنْيَا، لِأَن ذِكْرَهُ يُنْغِصُ عَلَيْهِ نَعِيمَهُ وَيُكَدِّرُهُ.

باب ما جاء في فضل ذكر الموت

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَازِمٍ»^(٣) اللَّذَاتِ: الْمَوْتِ»^(٤).

(١) متفق عليه من حديث جمع من الصحابة. وهو في «صحيح الجامع» (٥٩٦٤) وحقه

أن يكون متواتراً. وسيأتي شطر آخر منه في الصفحة (٤٨٨) حاشية (٣).

(٢) يضرب للشئ يأتيك على حاجة منك إليه وموافقة. انظر كتاب «مجمع الأمثال» ١/ (١٠٨٨).

(٣) هَازِمُ اللَّذَّةِ، أَي: قَطَعَهَا بِسُرْعَةٍ.

(٤) أخرجه أحمد (٧٩٠٧)، والنسائي [«صحيحه» (١٧٢٠)]، والترمذي [«صحيحه»

(٢٣٠٧/١٨٧٧)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٤٢٣٤/٣٥٨)]. وهو في «صحيح

الجامع» (١٢١١)، و«الإرواء» (٦٨٢).

وعن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً ذَكَرَ عند النبي ﷺ فأخسَنوا عليه الشَّاءَ، فقال النبي ﷺ: «كيف كان ذِكْرُ صاحبكم للموت؟» قالوا: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت. قال: «فإن صاحبكم ليس هناك»^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ سئل: أي المؤمنين أكْبَسُ^(٢)، قال: «أكثرهم للموت ذِكْراً، وأحسنهم لما بعده أَسْتعداداً أولئك الأكياس»^(٣).

وقال الحسن البصري: فَضَحَ الموتُ الدنيا، فلم يترك لذي لُبٍّ^(٤) فيها فَرْحاً، وما أَلَزَمَ عَبْدٌ قَلْبَهُ ذِكْرَ الموت إلا صَغُرَتِ الدنيا عليه، وهَانَ عليه جميع ما فيها.

وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا ذَكَرَ الموت والقيامة ائْتَفَضَ ائْتَفَضَ الطَّيْرَ، وكان يَجْمَعُ كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت ثم ييكون، حتى كأن بين أيديهم جنازة. وكان حامدُ القَيْصَرِيِّ يقول: كُلُّنا قد أيقنَ بالموت، وما نَرى له مُسْتَعِدّاً، وكلنا قد أيقنَ بالجنة وما نَرى لها عاملاً، وكلنا قد أيقنَ بالنار وما نَرى لها خائفاً، فَعَلَامَ تفرحون؟ وما عسيتم تنتظرون؟ الموت؟ فهو أول واردٍ عليكم من أمر الله بخير، أو بشرٍّ، فيا إِخْوَتَاهُ! سِيرُوا إلى ربكم سَيْراً جميلاً. وقال شُمَيْط بن عَجْلان: مَنْ جَعَلَ الموت نُصْبَ عينيه، لم يُبال بِضيقِ الدنيا ولا بِسَعَتِهَا.

وأعلم أن خَطَرَ الموت عظيم، وإنما غَفَلَ الناس عنه لِقَلَّةِ فِكْرِهِمْ [بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت] وذِكْرِهِمْ له، ومن يذكره منهم إنما يذكره بقلب غافل، فلهذا لا يَنْجَعُ^(٥) فيه ذِكْرُ الموت، والطريق في ذلك أن يُفَرِّغَ العبدُ قَلْبَهُ لذكر

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الموت» بسند ضعيف.

(٢) أي: أعقل.

(٣) أخرجه ابن ماجه [«صحيحه» (٤٢٥٩/٣٤٣٥)]. وهو في «الصحيحه» (١٣٨٤).

قوله: قال: أكثرهم للموت. . . إلى آخره، لم يرد في المطبوعة الأولى.

(٤) اللَّبُّ: العقل. ف (ذو اللب): العاقل.

(٥) أي: ينفع ويظهر أثره.

الموت الذي هو بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر إلى مَفَاذَةٍ مُخْطِرَةٍ^(١) ، أو يركب البحر ، فإنه لا يَتَفَكَّرُ إلا في ذلك . وأنفع طريق في ذلك ذِكْرُ أَشْكَالِهِ وأقرانه الذين مَضَوْا قبله . فَيَذْكُرُ موتهم ومَصَارِعَهُمْ تحت الثُّرى^(٢) .
قال ابن مسعود رضي الله عنه : السعيد مَنْ وُعِظَ بغيره^(٣) .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذُكِرَ الموتى ، فَعُدَّ نَفْسَكَ كَأَحَدِهِمْ .
وينبغي أن يُكْثَرَ دخولُ المَقَابِرِ ، ومتى سَكَنْتَ نفسه إلى شيء في الدنيا ، فَلْيَتَفَكَّرْ في الحال أنه لا بد من مفارقتها ، وَيُقْصِرْ أَمَلَهُ .

وقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بِمَنْكِبِي^(٤) فقال :
[فضيلة قصر الأمل]

«كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابرُ سبيلٍ»^(٥) ، وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت ، فلا تنتظر المساء ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لمرضك ، ومن حياتك لموتك .

وفي حديث آخر : «إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَى أَمْتِي : الهوى وطول الأمل ، فأما الهوى فيُضِلُّ عن الحق ، وأما طول الأمل فيُنْسِي الآخرة»^(٦) .

وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «أَكُلُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَدْخَلَ

(١) أي : إلى الصحراء التي تجعله بين السلامة والتلف .

(٢) أي : التراب .

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٤٥) .

(٤) هو : مُجْتَمَعُ رَأْسِ الْعِضْدِ وَالْكَتِفِ .

(٥) أخرجه البخاري (٦٤١٦) ، وأحمد (٤٧٦٥ و ٦١٥٠) ، والترمذي [«صحيحه»

(٢٣٣٣/١٩٠٢)] ، وابن ماجه [«صحيحه» (٤١١٤/٣٣٢٢)] . وهو في «صحيح

الجامع» (٤٥٧٩) ، و«الصحيحه» (١١٥٧) .

(٦) ضعيف جداً؛ أخرجه ابن عدي عن جابر . وهو في «ضعيف الجامع» (٢٤٦) ،

و«الضعيفة» (٢١٧٧) .

الجنة؟» قالوا: نعم يا رسول الله؟ قال: «قَصُّرُوا الأمل، وأنبتوا آجالكم بين أبصاركم، وأسْتَحْيُوا من الله ﷻ حق حياته»^(١).

وعن أبي زكريا التِّمِّي قال: بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام، إذ أتى بحجر منقوش. فطلب من يقرؤه، فإذا فيه: أبْن آدم! لو رأيت قُرْبَ ما بقي من أَجَلِكَ لَزَهَدْتَ في طول أَمَلِكَ، وَلَرَغِبْتَ في الزيادة من عملك، وَلَقَصَرْتَ من حِرْصِكَ وحيلِكَ، وإنما يلِقَاكَ نَدْمُكَ لو قد زَلَّتْ بك قَدَمُكَ، وأَسْلَمَكَ أهلك وَحَشَمَكَ^(٢)، فبان منك الولد والنسب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فأعملْ ليوم القيامة، يوم الحُسرة والندامة.

وَأَعْلَمْ أن السبب في طول الأمل شيان: أحدهما: حب الدنيا،
[بيان السبب في
طول الأمل
والثاني: الجهل:

وعلاجه] أما حب الدنيا: فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثَقُلَ على قلبه مُفَارَقَتُها، فامتنع قلبه من الفِكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأمانى الباطلة، فيَمِئْتِي نفسه أبداً بما يوافق مُرادَه من البقاء في الدنيا، وما يَحْتَاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا، فيَصِير قلبه عاكفاً على هذا الفكر، فيَلْهُو عن ذكر الموت، ولا يُقَدِّر قُرْبَه. فإن حَظَرَ له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له، سَوَّفَ بذلك ووَعَدَ نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تَكْبُرَ ثم تتوب. وإذا كَبِرَ قال: إلى أن يصير شيخاً، وإن صار شيخاً قال: إلى أن يَفْرُغَ من بناء هذه الدار، وعِمارة هذه الضيعة، أو يرجع من هذه السفرة. فلا يزال يُسَوِّف وَيُؤَخِّر ولا يَخْرِص في إتمام شُغْلٍ إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عَشْرَةَ أَشْغَالٍ، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد

(١) ضعيف؛ أخرجه ابن أبي الدنيا عن الحسن مرسلاً.

(٢) الحَشَم: خاصة الرجل الذين يغضبون لغضبه، ولما يصيبه من مكروه، من عبيد أو أهل أو جيرة، والآن من حزيه.

يوم، وَيَشْتَغِل بِشُغْلٍ بَعْدَ شُغْلٍ، إِلَى أَنْ تَخْتَطِفَهُ الْمَنِيَّةُ^(١) فِي وَقْتٍ لَا يَخْتَسِبُهُ^(٢)، فَتَطُولُ عِنْدَ ذَلِكَ حَسْرَتُهُ.

وَأَكْثَرُ صِيَاحِ أَهْلِ النَّارِ مِنْ (سَوْفَ) يَقُولُونَ: وَاحْسِرْتَاهُ! مِنْ (سَوْفَ). وَأَصْلُ هَذِهِ الْأَمَانِيُّ كُلُّهَا: حُبُّ الدُّنْيَا وَالْأَنْسَ بِهَا، وَالْغَفْلَةُ عَنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَخْبِبْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ»^(٣).

السَّبَبُ الثَّانِي، الْجَهْلُ: وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُعَوِّلُ^(٤) عَلَى شَبَابِهِ، وَيَسْتَبْعِدُ قُرْبَ الْمَوْتِ مَعَ الشَّبَابِ، أَوْ لَيْسَ يَتَفَكَّرُ الْمُسْكِينُ فِي أَنْ مَشَايِخَ بَلَدِهِ لَوْ عُذُّوا كَانُوا أَقْلَ مِنَ الْعُشْرِ؟ وَإِنَّمَا قَالُوا لِأَنَّ الْمَوْتَ فِي الشَّبَابِ أَكْثَرُ، وَإِلَى أَنْ يَمُوتَ شَيْخٌ قَدْ يَمُوتُ أَلْفَ صَبِيٍّ وَشَابٍّ، وَقَدْ يَغْتَرُّ بِصِحَّتِهِ، وَلَا يَدْرِي أَنَّ الْمَوْتَ يَأْتِي فَجَاءَةً، (وَإِنْ أَسْتَبْعَدَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَرَضَ يَأْتِي فَجَاءَةً، وَإِذَا مَرِضَ لَمْ يَكُنِ الْمَوْتُ بَعِيداً) وَلَوْ تَفَكَّرَ وَعَلِمَ أَنَّ الْمَوْتَ لَيْسَ لَهُ وَقْتُ مَخْصُوصٍ، مِنْ صَيْفٍ وَشِتَاءٍ وَرَبِيعٍ وَخَرِيفٍ وَلَيْلٍ وَنَهَارٍ، وَلَا هُوَ مُقَيَّدٌ بِسَنٍّ مَخْصُوصَةٍ مِنْ شَابٍّ وَشَيْخٍ^(٥) أَوْ كَهْلٍ أَوْ غَيْرِهِ لَعَظَمَ ذَلِكَ عِنْدَهُ وَأَسْتَعَدَّ لِلْمَوْتِ.

فصل

وَالنَّاسُ مُتَّفَاوِتُونَ فِي طُولِ الْأَمَلِ تَفَاوُتاً كَثِيراً، مِنْهُمْ مَنْ يَأْمَلُ الْبَقَاءَ إِلَى زَمَانِ الْهَرَمِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَنْقَطِعُ أَمَلُهُ بِحَالٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ قَصِيرُ الْأَمَلِ، فَ:

[بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره]

رَوَى عَنْ أَبِي عَثْمَانَ التَّهْدِي أَنَّهُ قَالَ: بَلَغَتْ ثَلَاثِينَ وَمِئَةَ سَنَةٍ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا قَدْ عُرِفَ فِيهِ النِّقْصَانُ إِلَّا أَمَلِي فَإِنَّهُ كَمَا هُوَ.

(١) أي: الموت.

(٢) أي: لا يظنه آتياً فيه.

(٣) هُوَ فِي «سُلْسَلَةِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ» (٨٣١).

(٤) أي: يعتمد ويتكل على شبابه.

(٥) الْكَهْلُ: مَنْ جَاوَزَ الثَّلَاثِينَ إِلَى نَحْوِ الْخَمْسِينَ، ثُمَّ يُسَمَّى شَيْخاً، ثُمَّ إِذَا بَلَغَ أَقْصَى الْكِبَرِ سُمِّيَ هَرِمًا عَلَى اخْتِلَافٍ بَيْنَهُمْ. وَيَنْظُرُ «مَنَارُ السَّبِيلِ» (٤٢/٢)؛ بِتَحْقِيقِي وَطَبِيعِ الْمَكْتَبِ الْإِسْلَامِيِّ مِنَ الطَّبْعَةِ الْأُولَى. وَهِيَ فِي طَبْعَتِنَا الْجَدِيدَةِ لَهُ مَعَ حَاشِيَتِهِ «الْأَنْوَارُ عَلَى مَنَارِ السَّبِيلِ مِنْ إِرْوَاءِ الْغَلِيلِ» (٤٢٧).

وحكي في قِصْرِ الأمل أن امرأة حبیب أبي محمد قالت : كان يقول لي - يعني أبا محمد - : إِنَّ مِثَّ اليَوْمِ فَأرسلني إلى فلان يغسلني ويفعل كذا وكذا، وأصنعي كذا وكذا، فقبل لها : أري رؤيا؟ قالت : هكذا يقول كل يوم .

وعن إبراهيم بن سِنْبَط قال : قال لي أبو زُرْعَة : لأقولنَّ لك قولاً ما قُلْتُهُ لأحد سواك : ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة ، فَحَدَّثْتَنِي نَفْسِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْهِ .

وقيل لبعضهم : ألا تغسل قميصك؟ قال : الأمر أعجل من ذلك .

وعن محمد بن أبي تَوْبَة قال : أقام معروفُ الصلاة ثم قال لي : تَقَدَّمْ ، فقلت : إني إِنْ صَلَّيْتُ بكم هذه الصلاة لم أَصِلْ بكم غيرها ، فقال معروف : أنت تُحَدِّثُ نَفْسَكَ أَنَّكَ تصلي صلاة أخرى؟ نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يَمْنَعُ خَيْرَ الْعَمَلِ .

فهذه أحوال الزهاد في قِصْرِ الأمل ، وكلما قَصُرَ الأمل ، جَادَ الْعَمَلُ ، لأنه يُقَدَّرُ أَنْ يَمُوتَ اليَوْمَ ، فَيَسْتَعِدُّ أَسْتَعْدَادَ مَيِّتٍ ، فإذا أَمْسَى شكر الله تعالى على السلامة ، وَقَدَّرَ أَنَّهُ يَمُوتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فَيُبَادِرُ إِلَى الْعَمَلِ .

[بيان المبادرة إلى
العمل وحذرة الآفة
التأخير]

وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه ، ففي «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» ^(١) .

وعنه : أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يَعِظُهُ : «أَغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ : شِبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وصحتك قبل سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وفراغك قبل شُغْلِكَ ، وحياتك قبل موتك» ^(٢) .

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢) ، وأحمد (٣٢٠٦) ، والترمذي [«صحيحه» (١٨٧٥) / ٢٣٠٤] ، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٣٦٢) / ٤١٧٠] . وهو في «صحيح الجامع» (٦٧٧٨) .

(٢) رواه الحاكم والبيهقي . وهو في «صحيح الجامع» (١٠٧٧) . وانظر «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي تحقيق الألباني ، طبع المكتب الإسلامي (١٧٠) .

وقال عمر رضي الله عنه: التَّؤَدَةُ في كل شيءٍ خيرٌ إلا ما كان من أمر الآخرة .
 وكان الحسن يقول: عَجَباً لِقَوْمِ أَمَرُوا بِالزَّادِ، وَنُودِيَ فِيهِمْ بِالرَّحِيلِ، وَحُبِسَ
 أُولَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ، وَهُمْ قَعُودٌ يَلْعَبُونَ .
 وقال سُحَيْمٌ مَوْلَى بَنِي تَمِيمٍ: جَلَسْتُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فَأَوْجَزَ فِي
 صَلَاتِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ وَقَالَ: أَرِخْنِي بِحَاجَتِكَ، فَإِنِّي أَبَادِرُ. فَقُلْتُ: وَمَا تُبَادِرُ؟
 قَالَ: مَلَكَ الْمَوْتِ. وَكَانَ يُصَلِّي كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ رَكْعَةٍ .
 وَكَانُوا يَبَادِرُونَ بِالْأَعْمَالِ غَايَةَ مَا يُمَكِّنُ:
 فَكَانَ ابْنُ عَمْرِو يَقُومُ فِي اللَّيْلِ فَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي. ثُمَّ يُغْفِي إِغْفَاءَ الطَّيْرِ، ثُمَّ
 يَقُومُ فَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي، ثُمَّ يُغْفِي إِغْفَاءَ الطَّيْرِ، ثُمَّ يَقُومُ يُصَلِّي، يَفْعَلُ ذَلِكَ مِرَاراً .
 وَكَانَ عُمَيْرُ بْنُ هَانئٍ يُسَبِّحُ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ أَلْفٍ تَسْبِيحَةً .
 وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَّاشٍ: خَتَمْتُ الْقُرْآنَ فِي هَذِهِ الزَّوَايَةِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ
 خَتْمَةً^(١) .

فصل في ذكر شدة الموت وما يُستحب من الأحوال عنده

أَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ يَدَيِ الْعَبْدِ الْمُسْكِينِ كَرْبٌ، وَلَا هَوْلٌ سِوَى الْمَوْتِ،
 لَكَانَ جَدِيراً أَنْ يَتَنَغَّصَ عَلَيْهِ عَيْشُهُ، وَيَتَكَدَّرَ عَلَيْهِ سُرُورُهُ، وَتَطُولَ فِيهِ فِكْرَتُهُ .
 وَالْعَجَبُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ كَانَ فِي أَعْظَمِ اللَّذَاتِ، فَأَنْتَظِرُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ جَنْدِيٌّ
 يَضْرِبُهُ خَمْسَ ضَرْبَاتٍ، لَكَدَّرَتْ عَلَيْهِ عَيْشُهُ وَلَذَّتْهُ، وَهُوَ فِي كُلِّ نَفْسٍ بِصَدَدٍ أَنْ
 يَدْخُلَ عَلَيْهِ مَلَكُ الْمَوْتِ بِسَكْرَاتِ النَّزْعِ، وَهُوَ غَافِلٌ عَنْ ذِكْرِ ذَلِكَ، وَلَيْسَ لِهَذَا
 سَبَبٌ إِلَّا الْجَهْلُ وَالْغُرُورُ .

أَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ أَشَدَّ مِنْ ضَرْبِ السِّيفِ، وَإِنَّمَا يَصِيحُ الْمَضْرُوبُ، وَيَسْتَغِيثُ
 لِبَقَاءِ قُوَّتِهِ، وَأَمَّا الْمَيِّتُ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَإِنَّهُ يَنْقَطِعُ صَوْتُهُ مِنْ شِدَّةِ أَلَمِهِ، لِأَنَّ الْكَرْبَ

(١) ولهذا يعني أنه أستمَر في ذلك ٥٠ سنة، إذا كانت تلاوة كل ختمة في أسبوع!!
 وقد سلف ذلك .

قد بالغ فيه، وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه، وضَعُفَتْ كل جراحة فيه، فلم يبق فيه قوة لاستغاثته، وَيَوَدُّ لو قَدَّرَ على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثته، وتُجذب الروح من جميع العروق، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجاً، فتَبَرَّد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، حتى تَبْلُغَ الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نَظَرُهُ إلى الدنيا وأهلها، وَيُغْلَقُ دونه باب التوبة، قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل التوبة من العبد ما لم يُغْرِغْ»^(١).

وقد روي أن المَلَكِينَ المُوَكَّلِينَ بالعبد يَتَرَاءِيَانِ له عند الموت، فإن كان صالحاً أثْنِيَا عليه، وقالوا: جزاك الله خيراً، وإن كان صَحِبَهُمَا بِشَرٌّ، قالوا: لا جزاك الله خيراً.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ وكل بعبد المؤمن مَلَكَيْنِ يكتبان عمله، فإذا مات قالوا: قد مات، أتأذن لنا أن نصعد إلى السماء؟ قال: فيقول الله تعالى: إن سمائي مملوءة من ملائكتي يُسَبِّحُونِي. فيقولان: فتأذن لنا فنقيم في الأرض؟ فيقول الله تعالى: إن أرضي مملوءة من خلقي، يُسَبِّحُونِي. فيقولان: فأين نقيم؟ فيقول الله تعالى: قوما على قبر عبدي، فَسَبِّحَانِي وَأَحْمَدَانِي وَكَبِّرَانِي وَهَلِّلَانِي، وَآكُتِبَا ذَلِكَ لِعَبْدِي إلى يوم القيامة»^(٢).

وفي «الصحيحين» من حديث عُبَادَةَ بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه. وأما صاحب النار الذي خُتِمَ له بسوء فهو يُبَشِّرُ بها وهو في تلك الأهوال»^(٣).

وقد كان كثير السلف يخافون سوء الخاتمة، وقد ذكرنا ذلك في (كتاب: الخوف)، وهو لائق بهذا المكان، نسأل الله الكريم أن يرحمنا برحمته التي

(١) حسن، سلف تخريجه في الصفحة (٣١٤) حاشية (٢).

(٢) رواه ابن عدي. وفي سنده هيثم بن جمار، وهو منكر الحديث.

(٣) متفق عليه، سلف في الصفحة (٤٨١) حاشية (١).

﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وأن يُلَطَّفَ بنا وأن يختم لنا بخير إنه جواد كريم .

وأما ما يُستحب من الأحوال عند المُخْتَضِر، فأن يكون قلبه يُحسن الظن بالله تعالى، ولسانه يَنطق بالشهادة، والسكون من علامات اللُّطف، وهو أَمارة^(١) على أنه قد رأى الخير .

وقد روي أن روح المؤمن تخرج رَشْحاً^(٢) .

وَيُسْتَحَبُّ تَلْقِينُهُ: لا إله إلا الله كما جاء في الحديث الصحيح من رواية مسلم: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لا إله إلا الله»^(٣) .

وينبغي للملقن أن يَرَفُقَ به، ولا يُلِحَّ عليه . وقد جاء في حديث آخر: «احضروا موتاكم، ولَقِّنُوهُمْ لا إله إلا الله، وبَشِّرُوهُمْ بِالْجَنَّةِ، فإنَّ الحليم العليم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع، وإن إبليس عدو الله أقرب ما يكون من العبد في ذلك الموطن . . .»^(٤) وذكر الحديث إلى آخره .

وفي الحديث الصحيح: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»^(٥) .

وروي أن النبي ﷺ دخل على رجل وهو يموت فقال: «كيف تَجِدُكَ؟» قال:

(١) أي: علامة .

(٢) الرِّشْح: العَرَقُ لأنه يخرج من البدن شيئاً فشيئاً، كما يَزْشَحُ الإناء المُتَخَلِّلُ الأجزاء . والحديث أخرجه الطبراني، وضعفه الهيثمي .

(٣) هو في مسلم (٩١٦)، وأحمد (١٠٩٧٥)، وأبو داود [«صحيحه» (٢٦٧٤)/

(٣١١٧)]، والترمذي [«صحيحه» (٩٧٦/٧٨١)]، والنسائي [«صحيحه»

(١٧٢٢)]، عن أبي سعيد الخدري، ورواه مسلم (٩١٧)، وابن ماجه [«صحيحه»

(١١٨٥ و ١١٨٦/١٤٤٤ و ١٤٤٥)] عن أبي هريرة . وهو في «الإرواء» (٦٨٦) .

(٤) أخرجه أبو نعيم عن واثلة . وهو في «ضعيف الجامع الصغير وزيادته» (٢٠٨)، و«الضعيفة» (٢٠٨٣) .

(٥) أخرجه مسلم، وسلف تخريجه في الصفحة (٣٧١) حاشية (٢) .

أرجو الله وأخاف ذنوبي . فقال : « ما أَجْتَمَعَا في قلبِ عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو ، وأمنه من الذي يَخَافُ »^(١) .

والرجاء عند الموت أفضل ، لأن الخوف سَوَطٌ يُسَاقُ به ، وعند الموت يقف البصر ، فينبغي أن يتلطف به ، ولأن الشيطان يأتي حينئذ يسخط العبد على الله فيما يجري عليه ، ويخوفه فيما بين يديه . فَحَسُنُ الظنُّ أقوى سلاح يدفع به العدو .

وقال سليمان التيمي لابنه عند الموت : يا بني ! حَدِّثْنِي بِالرُّخَصِ ، لَعَلِّي أَلْقَى الله تعالى وأنا أَحْسِنُ الظنَّ به .

(١) أخرجه الترمذي [«صحيحه» (٩٨٣/٧٨٥)] ، وابن ماجه [«صحيحه» (٣٤٣٦/٤٢٦١)] عن أنس . وهو في «الصحيحه» (١٠٥١) ، و«المشكاة» (١٦١٢) ، و«أحكام الجنائز» (ص ٣) طبع المكتب الإسلامي .

باب ذكر وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم

أَعْلَمُ أَنَّ «فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» [الأحزاب: ٢١] فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَخْلُوقِينَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ، وَلَمْ يُؤْخَرْهُ تَعَالَى حِينَ أَنْقَضَى أَجَلَهُ.

وَقَدْ لَقِيَ ﷺ مِنَ الْمَوْتِ شِدَّةً، فَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ بَيْنَ يَدَيَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَكْوَةً^(١) أَوْ عُلبَةً^(٢) فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي الْمَاءِ، فَيَمْسَحُ بِهَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنْ لِلْمَوْتِ لَسَكْرَاتٌ»^(٣).

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ، جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ الْكَزْبُ فَقَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَاکْرَبْ أَبْتَاهُ! فَقَالَ لَهَا: «لَيْسَ عَلَيَّ أَبْيَكُ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ»^(٤).

وَرَوَى أَبُو بَنِی مَسْعُودٍ قَالَ: أَجْتَمَعْنَا فِي بَيْتِ أُمِّنَا عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَنَظَرَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ، فَنَعَى إِلَيْنَا نَفْسَهُ وَقَالَ: «مَرْحَبًا، حَيَّاكُمُ اللَّهُ

(١) إِنْاء صَغِيرٍ مِنْ جِلْدٍ يَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءُ.

(٢) قَدَحٌ ضَخْمٌ مِنْ خَشَبٍ أَوْ جِلْدِ الْإِبِلِ، يُحْلَبُ فِيهِ، وَقَدْ يَكُونُ لَهُ طَوْقٌ مِنْ خَشَبٍ، وَأَمَّا الْآنَ فَقَدْ أَطْلَقُوا الْعُلْبَةَ عَلَى كُلِّ وَعَاءٍ.

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٥١٠؛ بَلْفِظَهُ هُنَا)، وَ(٤٤٤٩) وَفِيهِ وَفَاتِهِ ﷺ مُسْتَنْدَأً إِلَى صَدْرِ عَائِشَةَ الَّذِي سَيَأْتِي فِي الصَّفْحَةِ (٤٩٣) حَاشِيَةٌ (٢).

(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٤٦٢)، وَأَحْمَدُ (١٣٠١٣)، وَالدَّارِمِيُّ ٤٠/١ عَنْ أَنَسٍ. وَهُوَ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٥٣٩٧)، وَ«الْمَشْكَاة» (٥٩٦١) وَلَهُ تَمَتَّةٌ تَأْتِي فِي الصَّفْحَةِ (٤٩٣) حَاشِيَةٌ (٥).

بالسلام، حفظكم الله، رعاكم الله، جَمَعَكُمُ اللهُ، نصركم الله، وَفَقَّكُمْ اللهُ،
نفعكم الله، رفعكم الله، سَلَّمَكُمْ اللهُ، أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَأَوْصَى اللهُ بِكُمْ،
وَأَسْتَخْلَفَهُ عَلَيْكُمْ». قلنا: يا رسول الله! متى أَجَلُكَ؟ قال: «قد دنا الأجل،
وَالْمُنْقَلَبُ^(١) إِلَى اللهِ، وَإِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى^(٢) وَجَنَةِ الْمَأْوَى، وَالْفِرْدَوْسِ
الْأَعْلَى». قلنا: يا رسول الله! ففيم نُكَفِّنُكَ؟ قال: «في ثيابي هذه إن شئتم، أو
في حُلَّةٍ^(٣) يَمَانِيَّةٍ^(٤)، أو بياض». فقلنا: يا رسول الله! من يصلي عليك؟
وَيَكْنِيَا. فقال:

«مهلاً، رحمكم الله، وجزاكم عن نبيكم خيراً. إذا غسلتموني وكفتموني،
فضعنوني على سريري لهذا على شفير^(٥) قبري، ثم أخرجوا عني ساعة، فإن أول
من يصلي عليّ خليلي وحبيبي جبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم مَلَكُ
الموت ثم ملائكة كثيرة، ثم أدخلوا عليّ فَوْجاً فَوْجاً، ف ﴿صَلُّوا﴾ عليّ
﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ولا تؤذوني بتزكية، ولا بِرَنَّةٍ، وليبدأ بالصلاة عليّ رجال
أهل بيتي، ثم نساؤهم، ثم أنتم بعد، وأقرؤوا السلام عليّ من غاب عني من
أصحابي، وعليّ من تابعني عليّ ديني إلى يوم القيامة، ألا وإني أشهدكم أنني قد
سَلَّمْتُ عليّ كل من دخل في الإسلام»^(٦).

ولقد دخل عليه جبريل قبل موته بثلاثة أيام (فقال: يا أحمد! إن الله

(١) أي: المَرْجِع.

(٢) السَّدْرُ: شجر النَّبَق. وسدرة الْمُنْتَهَى: شجرة في أقصى الجنة، إليها ينتهي علم
الأولين والآخرين ولا يتعداها.

(٣) هي ثياب مخططة وهي لا تكون إلا من ثوبين: إزار يستر الجزء الأسفل، ورداء يستر
الجزء الأعلى. وقد قيدها الْخَطَّابِيُّ بأنها لا تكون حُلَّةً إلا وهي جديدة تُحَلَّ من طَيِّهَا
فَتُلْبَسَ. وأما أبو عبيد فقد قيدها بأنها اليمينية فقط كما هنا.

(٤) أي: يمنية صُنعت في بلاد اليمن.

(٥) أي: حرفه وجانبه وناحيته.

(٦) رواه ابن سعد ٢/٢٥٦، والطبراني في «الدعاء». وهو ضعيف جداً.

أرسلني إليك يسألك عما هو أعلم به منك يقول: كيف تَجِدُكَ؟ فقال: «أَجِدُنِي يا جبريل مغموماً، وأجدني يا جبريل مكروباً» ثم أتاه في اليوم الثاني فأعاد الكلام، وأعاد عليه الجواب، ثم جاءه في اليوم الثالث وأعاد عليه الكلام، فأعاد عليه الجواب. فإذا مَلَكَ الموت يَسْتَأْذِن. فقال جبريل: يا أحمد! هذا ملك الموت يَسْتَأْذِن عليك، ولم يَسْتَأْذِن على آدمي قبلك، ولا يَسْتَأْذِن على آدمي بعدك. فقال: «اِئْذَن لَه». فدخل، فوقف بين يديه وقال: إن الله أرسلني إليك، وأمرني أن أطيعك، فإن أمرتني أن أقبض نفسك قَبْضَتُهَا، وإن أمرتني أن أتركها تَرْكُهَا. قال رسول الله ﷺ: «وتفعل يا ملك الموت؟» قال: كذلك أمرت أن أطيعك. فقال جبريل: يا أحمد! إن الله قَدْ أَشْتَقَ إِلَيْكَ. فقال: «فَامْضِ لِمَا أَمَرْتُ بِهِ يَا مَلَكُ الْمَوْتِ». فقال جبريل ﷺ: السلام عليك يا رسول الله، هذا آخر مَوْطِنِي فِي الْأَرْضِ إِنَّمَا كُنْتُ حَاجَتِي مِنَ الدُّنْيَا^(١).

فتوفي رسول الله ﷺ مُسْتَنْدِئاً إِلَى صدر عائشة رضي الله عنها^(٢) في كساء مُلْبَدٍ، وإزار غليظ^(٣).

وقامت فاطمة رضي الله عنها تَنْدُبُ^(٤) وتقول: يَا أَبَتَاهُ! أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهُ، [مَنْ] جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَاوَاهُ، يَا أَبَتَاهُ! إِلَى جَبْرِيلَ نَنْعَاهُ، يَا أَبَتَاهُ! مِنْ رَبِّهِ مَا أَدْنَاهُ^(٥). فلما دفن قالت: يَا أَنْسَ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَخْتُوا التَّرَابَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!!

(١) أخرجه الطبراني عن الحسين بن علي، وفيه عبد الله بن ميمون القداح، وهو ذاهب الحديث.

(٢) أخرجه البخاري، وسلف تخريجه في الصفحة (٤٩١) حاشية (٣).

(٣) متفق عليه، سلف تخريجه في الصفحة (٤٠٦) حاشية (٣).

(٤) نَدَبَ المِيتَ، أي: عَدَدَ محاسنه.

(٥) أخرجه البخاري، وسلف تخريجه في الصفحة (٤٩١) حاشية (٤).

وقال أبو بكر الصديق ﷺ:

لما رأيتُ نبيَّنا متجداً ضاقتُ عليَّ بعرضهنَّ الدُّورُ
وأزنتُ روعةَ مُستَهاًمٍ وإليه والعَظُمُ مني وإِهْنُ مكسورُ
أعتيقُ ويحك إنَّ جِبكَ قد تَوَى وبقيتُ مُنفرداً وأنتَ حَسيرُ
يا ليتني مِن قَبْلِ مَهْلِكَ صاحبي عُييتُ في جدِّ عليٍّ صُخورُ

وفاة أبي بكر الصديق ﷺ

روى أبو المَليح أن أبا بكر ﷺ لما حضرته الوفاة أرسل إلى عمر ﷺ فقال:
إني أوصيك بوصية، إن أنت قبلت عني: إن الله ﷻ حقاً بالليل لا يقبله بالنهار،
وإن الله حقاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة.
وإنما ثقلت موازين ﴿مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة] في الآخرة بآتباعهم
الحق في الدنيا، وثقل ذلك عليهم. وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون
ثقيلاً. وإنما خفت موازين ﴿مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة. الأعراف: ٩].
المؤمنون: ١٠٣] في الآخرة بآتباعهم الباطل، وخفته عليهم في الدنيا. وحق
لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً.

ألم تر أن الله أنزل آية الرجاء عند آية الشدة، وآية الشدة عند آية الرجاء،
ليكون العبد راغباً راهباً لا يلقي بيديه إلى التهلكة، ولا يتمنى على الله غير
الحق. فإن أنت حفظت وصيتي هذه، فلا يكون غائب أحب إليك من الموت
- ولا بد لك منه - وإن أنت ضيعت وصيتي هذه، فلا يكون غائب أبغض إليك
من الموت، - ولا بد لك منه - ولست تُعجزه.

وقيل: لما احتضر جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لَعَمْرُكَ ما يُغني الثَّراءُ عَنِ الفَتى إذا حَشَرَجَتْ يوماً وضاق بها الصَّدْرُ^(١)

(١) الحشرجة: الغرغرة عند الموت وتردد النفس.

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قلني: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق] انظروا ثوبي هذين، فأغسلوهما وكفنوني فيهما، فإن الحيَّ أَخْرُجَ إلى الجديد من الميت.

وفاة عمر بن الخطاب ؓ

وعن ابن عمر قال: كان رأس عمر في جِجْري بعدما طعن، وكان مرضه الذي توفي فيه، فقال: ضع خَدِّي على الأرض، فقلت: وما عليك إن كان في جِجْري أم على الأرض؟ وظننت أن ذلك تَبْرُمُ به، فلم أفعل. فقال: ضع خدي على الأرض لا أُمُّ لك، وَيْلِي وويل أُمِّي إن لم يرحمني ربي.

وروي أنه لما طعن وحُمِلَ إلى بيته، وجاء الناس يُثْنُونَ عليه، جاء رجل شاب فقال: أَبَشِّرْ يا أمير المؤمنين بِبُشْرَى من الله، [قد كان] لك صحبة من رسول الله ﷺ، وَقَدْ م في الإسلام ما قد علمتُ، ثم وُلِّيتَ فعدلتَ، ثم شهادة. فقال: وددت أن ذلك كان كفافاً، لا لي ولا عَلَيَّ، ثم قال: يا عبد الله بن عمر! أَنْطَلِقْ إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: عمر يقرأ عليك السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً وقل: يستأذن عمر ابن الخطاب أن يُدْفَنَ عند صاحبيه. فمضى وَسَلَّمْ وأستأذن عليها. ثم دخل فوجدها قاعِدةً تبكي، فقال: عمر يقرأ عليك السلام، ويستأذن أن يُدْفَنَ عند صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسِي، ولأَوْثَرُهُ اليوم على نفسي. فلما أقبل، قيل: هَذَا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: أرفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال: ما وراءك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أَذِنْتُ. قال: الحمد لله، ما كان شيء أحب إليَّ من ذلك، فإذا أنا مُتُّ، فَأَحْمِلُونِي ثم سَلِّمْ وقل: يستأذن عمر بن الخطاب. فَإِنْ أَذِنْتُ، فَأَدْخِلُونِي، وَإِنْ رَدَدْتَنِي فَرُدُّونِي إلى مقابر المسلمين.

وفي أفراد مسلم من حديث المِسْوَر بن مَخْرَمَةَ، أن عمر قال:
والله لو أن لي طِلاعاً^(١) الأرض ذَهَباً، لأَفْتَدَيْتُ به من عذاب الله قبل أن
أراه.

وفي خبر آخر: والله لو أن لي ما طَلَعْتُ عليه الشمس أو غربت، لأَفْتَدَيْتُ
له من هول المَطْلَعِ.

وفاة عثمان بن عفان ؓ

عن نائلة بنت الفَرَافِصَةِ امرأةَ عثمان ؓ، قالت: لما كان اليوم الذي قُتِلَ فيه
عثمان، ظل في اليوم الذي قبله صائماً. فلما كان عند إفطاره سألهُم الماء العَذْبُ
فلم يُعْطَوْهُ، فنام ولم يفطر، فلما كان وقت السَّحْرِ أَتَيْتُ جاراتِ لي على أَجَاجِيرٍ
مُتَّصِلَةٍ^(٢) فَسَأَلْتُهُمُ الماءَ العَذْبَ، فَأَعْطَوْنِي كُوزاً^(٣) من ماء، فَأَتَيْتُهُ فَحَرَكْتُهُ
فَأَسْتَيْقِظُ، فَقُلْتُ: هَذَا ماءٌ عَذْبٌ. فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَى الْفَجْرِ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ
أَصْبَحْتُ صَائِماً، وَإِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَطْلَعَ عَلَيَّ مِنْ هَذَا السَّقْفِ وَمَعَهُ ماءٌ عَذْبٌ.
فَقَالَ: «اشْرَبْ يَا عَثْمَانُ!» فَشَرِبْتُ حَتَّى رَوَيْتُ، ثُمَّ قَالَ: «أَزْدُدْ»، فَشَرِبْتُ حَتَّى
نَهَلْتُ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْقَوْمَ سَيَنْكُرُونَ عَلَيْكَ، فَإِنْ قَاتَلْتَهُمْ ظَفِرْتَ، وَإِنْ تَرَكْتَهُمْ
أَفْطَرْتُ عِنْدَنَا». قالت: فدخلوا عليه من يومه فقتلوه.

وعن العلاء بن الفضيل عن أبيه قال: لما قتل عثمان بن عفان ؓ فتشوا
خزائنه، فوجدوا فيها صندوقاً مَقْفُلاً ففتحوه، فوجدوا فيه حُقَّةً^(٤) فيها ورقة

(١) في المطبوع: «قلاع» وهو خطأ، وطلاع الشيء: ملؤه. قال أوس بن حجر يصف
قوساً:

كثوم طلاع الكف لا دون ملثها ولا عجسها عن موضع الكف أفضلا
(٢) أي: سطوح متصلة.

(٣) هو: إناء صغير بغرورة يُشْرَبُ به الماء.

(٤) هي: وعاء صغير ذو غطاء من عاج، أو زجاج، أو فخار أو غيرها.

مكتوب فيها: هذه وصية عثمان، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج] ﴿لِيَوْمٍ لَا رَبَّ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ لَا يُخْلِفُ أَلِيمَكَادَ﴾ [آل عمران] عليها نحياء، وعليها نموت، وعليها نبعث إن شاء الله تعالى.

وفاة علي بن أبي طالب ؓ

عن الشَّعْبِيِّ، قال: لما ضُرب عليّ ؓ تلك الضربة، قال: ما فُعل بضاربي؟ قالوا: أَخَذْنَاهُ. قال: أَطْعَمُوهُ مِنْ طَعَامِي، وَأَسْقَوْهُ مِنْ شَرَابِي، فَإِنِ أَنَا عِشْتُ رَأَيْتُ فِيهِ رَأْيِي، وَإِنِ أَنَا مِتُّ فَأَضْرِبُوهُ ضَرْبَةً وَاحِدَةً لَا تَزِيدُوهُ عَلَيْهَا.

ثم أوصى الحسن أن يغسله، وقال: لَا تُغَالِ فِي الْكَفَنِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تُغَالُوا فِي الْكَفَنِ، فَإِنَّهُ يُسَلَبُ سَلْباً سَرِيعاً»^(١)، إِمْشُوا بِي الْمَشْيَتَيْنِ لَا تُسْرِعُوا بِي، وَلَا تُبْطِئُوا، فَإِن كَانَ خَيْرًا عَجَّلْتُمُونِي إِلَيْهِ، وَإِن كَانَ شَرًّا أَلْفَيْتُمُونِي عَنْ أَكْتَاكُمْ.

وروي أنه لما كانت الليلة التي أُصِيبَ فيها عليّ ؓ أتاه أَبْنُ التَّيَّاحِ حين طلع الفجر يُؤَذِّنُهُ بِالصَّلَاةِ وهو مضطجع متناقل. فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة فقام يمشي وهو يقول:

شَدَّ حَيَازِيمَكَ لِلْمَوْتِ فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا قِيكَ
وَلَا تَجَزَّعَ مِنَ الْمَوْتِ وَإِنْ حَلَّ بِنَادِيكَ
فلما بلغ الباب الصغير، شَدَّ عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلْجِمٍ فَضْرِبَهُ.

(١) أخرجه أبو داود [«ضعيفه» (٣١٥٤/٦٨٩)]. وهو في «ضعيف الجامع» (٦٢٤٧)، و«المشكاة» (١٦٣٩).

ذكر كلمات نُقلت عن جماعة

عند موتهم من الصحابة وغيرهم

وذكر زيارة القبور ونحو ذلك

لما نزل الموت بالحسن بن علي رضي الله عنهما قال: أخرجوا فراشي إلى صحن الدار. فأخرج فقال: اللهم إني أختسب نفسي عندك، فإني لم أصب بمثلها.

وقد ذكرنا ما تقدم من كلام الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم.

وروي أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قال: انظروا هل أصبحنا؟ فأتي ف قيل: لم تُصبح. حتى أتى في بعض ذلك، ف قيل له: قد أصبحنا. فقال: أعوذ بالله من ليلة صباؤها إلى النار. ثم قال: مرحباً بالموت؛ زائرٌ مُغيَّبٌ، و(حبيبٌ جاء على فاقة)، اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أزجوك، اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لِكُرِّي الأنهار^(١) ولا لِعَرَسِ الأشجار، ولكن لطول ظمإِ الهواجر^(٢)، وقيام ليل الشتاء، ومكابدة الساعات، ومُزاحمة العلماء بالرُكْبِ عند حلق الذكر.

وقال أبو مسلم: جئتُ أبا الدرداء وهو يَجُود بِنَفْسِهِ ويقول: ألا رجلٌ لمثل مَضْرَعِي هَذَا؟ ألا رجلٌ يعمل لمثل يومي هَذَا؟ ألا رجلٌ يعمل لمثل ساعتِي هَذِهِ؟ ثم قبض رحمه الله.

وبكى سلمان الفارسي عند موته. ف قيل له: ما يُبكيك؟ فقال: عهد إلينا رسول الله ﷺ أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب^(٣)، و حولي هذه الأزواد.

(١) كريت النهر: حفرة. وتستعمل الآن - كما في الكتاب - ل: تنظيف الأنهر.

(٢) جمع الهاجرة، وهي: نصف النهار عند اشتداد الحر.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٧٠٦). وهو في «صحيح ابن ماجه» (٣٣١٢/٤١٠٤).

وقيل: إنما كان حوله إجماعة^(١) وجفنة^(٢) ومظهرة^(٣).

وروى المُرْنِيُّ قال: دخلتُ على الشافعيّ في مرضه الذي مات فيه. فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راجلاً، وللإخوان مُفَارِقاً، ولسوء عملي مُلَاقِياً، ولكأس المَنيّة شارباً، وعلى الله واردة، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنتها، أم إلى النار فأعزّيتها، ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضافت مَذهبي جعلتُ الرجا مني بعفوك سلماً
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربّي كان عفوك أعظماً
وما زلت ذا عفٍ عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منّة وتكرماً

قيل: كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقعد إلى القبور. ف قيل له في ذلك.

فقال: أجلس إلى قوم يُذكروني معادي، وإن غبت لم يغتابوني. [بيان حال القبر وأقاويلهم عند

وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى القبور]

المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى. ثم أقبل عليّ فقال: يا ميمون هذه قبور آباء بني أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى قد حلّت بهم المثلث^(٤)، وأسّتحكم فيهم البلاء، وأصاب الهوامّ مقيلاً^(٥) في أبدانهم؟ ثم بكى وقال: والله ما أعلم أحداً أنعم - ممن صار إلى هذه القبور - وقد أمّن من عذاب الله تعالى.

(١) هي: إناء تُغسل فيه الثياب.

(٢) أي: قُضعة الطعام.

(٣) أي: إناء الطهارة.

(٤) المثلّة: العقوبة والتكيل.

(٥) يقصد أنه صار مكاناً لهم. والأصل فيه: الموضع الذي يُستراح فيه في نصف النهار.

وُتَسْتَحَبُّ زيارة القبور، فإن النبي ﷺ قال :

[بيان زيارة
القبور والدعاء
للميت وما
يتعلق به]

«زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»^(١). ومن زار قبراً فَلَيْسَتْ قَبْلُ
وَجْهَ الميت، وليقرأ شيئاً من القرآن ويهديه له^(٢) ولتكن الزيارة يوم
الجمعة.

وقد روي أنه لما مات عاصمُ الجَحْدَرِيُّ رآه رجل من أهله في المنام بعد
موته بِسَنَتَيْنِ فقال له : أألسْتَ قد مُتَ؟ قال : بلى. قال : وأين أنت؟ قال
عاصم : أنا والله في روضة من رياض الجنة، أنا ونَفَرٌ من أصحابي نجتمع كل
ليلة جمعة وَصَبِيحَتِهَا إلى أبي بكر بن عبدالله المُرْنِي نلتاقي أخباركم. قال :
قلت له : أجسامكم أم أرواحكم؟ قال : هيهات ! بَلَيْتِ الأجسامُ، وإنما نلتاقي
الأرواح. قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال : نعلم بها عَشِيَّةَ الجمعة،
ويوم الجمعة كله، ويوم السبت إلى طلوع الشمس. قلت : وكيف ذلك دون
الأيام كلها؟ قال : لشرف يوم الجمعة وعِظَمِهِ.

وحكى عثمان بن سَوَادِ الطُّفَاوِيُّ وكانت أمه من العابدات، وكان يقال لها :
راهبة، قال : لما أَحْتَضَرَتْ رَفَعَتْ رأسها إلى السماء وقالت :

يا دُخْرِي ويا دُخْرِي ومن عليه أَعْتَمَدِي في حياتي وبعد مماتي، لا تَخْذُلْنِي
عند الموت، ولا تُوحِشْنِي في قبري. قال : فماتت، فَكُنْتُ أَتِيهَا كل جمعة
وأدعو لها. وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ليلة في منامي فقلت لها : يا

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦)، وأحمد (٩٦٦٨)، وأبو داود [«صحيحه» (٢٧٧١)/
(٣٢٣٤)]، والنسائي [«صحيحه» (١٩٢٣)] عن أبي هريرة. ورواه أبو داود
[«صحيحه» (٣٢٣٥/٢٧٧٢)]، وابن ماجه [«صحيحه» (١٥٦٩/١٢٧٥)] عن
بريدة. وهو في «الإرواء» (٧٧٢).

(٢) في قراءة القرآن عند القبور خلاف مشهور، وكذلك في إهداء الثواب، وإنما الثابت
هو الدعاء لهم، والمنامات والأحاديث الضعيفة والموضوعة الواردة في هذه الأمور
الأربعة لا تُثَبَّت فيها عقيدة، ولا يُبنى عليها حُكْمٌ.

أماه! كيف أنت؟ قالت: يا بُني! إن الموت لَكَرْبٌ شديد، وأنا بحمد الله في بَرْزَخٍ^(١) محمود، يُفْتَرَشُ فيه الريحان، وَيُتَوَسَّدُ فيه السُّنْدُسُ^(٢) والإِسْتَبْرَقُ^(٣) إلى يوم النشور. فقلت: ألك حاجة؟ قالت: نعم، لا تَدْعُ ما كنت تصنع من زيارتنا، فإنني لأسرُّ بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك، فيقال لي: يا راهبة! هذا أبْنكِ قد أقبل، فأسرُّ ويُسَرُّ بذلك مَنْ حولي من الأموات.

وعن أنس بن منصور قال: كان رجل يختلف إلى الجنائز فيشهد الصلاة عليها. فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال:

(أَنَسَ اللهُ وَخَشَتَكُمْ، وَرَجِمَ غُرْبَتَكُمْ، وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَقَبِلَ حَسَنَاتِكُمْ) لا يزيد على هؤلاء الكلمات. قال ذلك الرجل: فأمسيت ذات ليلة، ولم آتِ المقابر فأدْعُو كما كنت أدعو، فبينما أنا نائم إذا أنا بِخَلْقٍ كثير قد جاؤوني فقلت: من أنتم؟ وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، إنك كنت عَوَّدْتَنَا منك هدية. فقلت: وما هي؟ قالوا: الدَّعَاوُ التي كنت تدعو بها. قلت: فإنني أعود لذلك. فما تَرَكْتُهَا بَعْدُ.

وقال بشار بن غالب: رأيت رابعةً في منامي، وكنتُ كثير الدعاء لها، فقالت لي: يا بشار! هداياك تأتينا على أطباق من نور، مُحَمَّرَةٌ بمناديل الحرير. قلت: وكيف ذلك؟ قالت: هكذا دعاء الأحياء إذا دَعَّوْا للموتى وأَسْتَجِيبَ لهم، جُعِلَ ذلك الدعاء على أطباق النور، وَخُمِّرَ بمناديل الحرير، ثم أُتِيَ به إلى الذي دُعي له من الموتى، فقيل له: هذه هدية فلان إليك.

(١) هو الحاجز بين شيئين وكذا ما بين الموت والبعث.

(٢) نوع من الحرير الخالص.

(٣) الحرير الخالص الغليظ.

فصل

[بيان حقيقة الموت وما يلقاه الروح للجسد، وأن الروح تكون بعد ذلك باقية، إما مُعَذَّبَةً أو الميت في القبر إلى مُنْعَمَةٍ، فإن الروح قد تتألم بنفسها بأنواع الحزن والغَمِّ، وتَنعَمُ بأنواع نفخة الصور] الفرح والسرور من غير تعلقٍ لها بالأعضاء، فكل ما هو وَصْفُ للروح بنفسها، يبقى معها بعد مفارقة الجسد، وكل ما هو لها بواسطة الأعضاء يَتَعَطَّلُ بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد. ولا يَبْعُدُ أن تُعاد الروح إلى الجسد في القبر. ولا يَبْعُدُ أن تُؤَخَّرَ إلى يوم البعث، والله سبحانه أعلم بما حَكَمَ به على كل عَبْدٍ من عباده.

فمعنى الموتِ انقطاعُ تصرفِ الروح عن البدن، وخروجُ البدنِ عن أن يكون آلة لها، وسَلْبُ الإنسان عن أمواله وأهله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يُناسب هذا العالم، فإن كان له بالدنيا شيءٌ يَفْرَحُ به، ويستريح إليه، عَظُمَتْ حسرته عليه بعد الموت، وإن كان لا يَفْرَحُ إلا بذكر الله تعالى والأنس به، عَظُمَ نعيمُه وَتَمَّتْ سعادته إذا خُلِّيَ بينه وبين محبوبه، وَقُطِعَتْ عنه العوائق والشواغل، لأن جميع شواغل الدنيا شاغلة عن ذكر الله تعالى.

وينكشف للميت بالموت ما لم يكن مكشوفاً في حال الحياة، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له عند النوم، والناس نيام وإذا ماتوا انتبهوا. وأول ما ينكشف له ما يضره وما ينفعه من حسناته وسيئاته. وقد كان ذاك مسطوراً في كتاب مَطْوِيٍّ في سِرِّ قلبه، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا، فلما انْقَطَعَتْ أَنْكَشَفَتْ له جميع أعماله، فلا ينظر إلى سيئة إلا وَيَتَحَسَّرُ عليها تَحَسُّراً يُؤْثِرُ أن يَخوض غَمْرَةً نارٍ للخلاص من تلك الحسرة، وكل ذلك يَنكشِفُ له عند الموت. وهذه آلام تَهْجُمُ على العاصي قبل الدفن، نسأل الله العافية.

ومما يدل على أن الروح لا تنعدم بالموت. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْصِبَنَّ الَّذِينَ

قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ [آل عمران]. قال مسروق: سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: أرواحهم في جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، لها قناديل^(١) مُعَلَّقةٌ بالعرش، تَسْرَحُ من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل...، وذكر تمام الحديث.

وجاء في قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر] أخبر أنهم يُعَذَّبُونَ بعد الموت.

وفي «الصحيحين» عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات، عُرض عليه مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إن كان من أهل الجنة فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وإن كان من أهل النار، فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فيقال: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وقد تقدم أن الإنسان إذا أَنْكَشَفَتْ له سيئاته تَحَسَّرَ لها وتَأَلَّمَ تألماً عظيماً، فأما المؤمن، فقال عبد الله بن عمر: مثل المؤمن حين تخرج نَفْسُهُ مثل رجل كان في سِجْنٍ فأُخْرِجَ منه، فهو يَتَفَسَّحُ في الأرض، وَيَتَقَلَّبُ فيها. وهو صحيح، فإن المؤمن ينكشف عليه عُقُوبُ الْمَوْتِ من فضل الله وكرامته ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن، فيكون كمحبوس في بَيْتٍ مُظْلِمٍ فُتِحَ له باب إلى بستان واسع الأكفاف، فيه أنواع الأشجار، فلا يَسْرُهُ الرجوع إلى الدنيا كما لا يسره الرجوع إلى بطن أمه.

وقال مجاهد: إن المؤمن لَيُبَشِّرُ بِصَلاَحٍ وَلَدَهُ من بعده لِيَتَقَرَّ بِذَلِكَ عَيْنُهُ.

(١) القُنْدِيل: مصباح كالقوب في وسطه فتيل يملأ بالزيت ويُسْعَلُ.
(٢) أخرجه البخاري (٦٥١٥)، ومسلم (٢٨٦٦)، والترمذي [«صحيحه» (٨٥٧/١٠٧٢)]، والنسائي [«صحيحه» (١٩٥٧-١٩٥٩)]، وابن ماجه [«صحيحه» (٤٢٧٠/٣٤٤٥)].

فصل في ذكر القبر

روي عن النبي ﷺ أنه قال :

«القبر روضة من رياض الجنة . أو حفرة من حفر النار»^(١) . وروي أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : «يقول القبر للميت حين يوضع فيه : ويحك يا ابن آدم؟! ما غرّك؟! ألم تعلم أنني بيتُ الظُّلْمةِ، وبيت الوحدة، وبيت الدُّود؟»^(٢) .

وروى الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ مُصْلاً، فرأى ناساً كأنهم يَكْتَشِرُونَ^(٣) . فقال : «أما إنكم لو أكثرتم من ذكر هاذم اللذات لَشَغَلَكُمْ عما أرى، فأكثروا ذكر هاذم اللذات الموت . فإنه لم يأت على القبر يوم إلا يتكلم فيقول : أنا بيت العُزْبَةِ، أنا بيت الوحْدَةِ، أنا بيت التراب، أنا بيت الدُّود . فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحباً وأهلاً! أما إن كنت لأَحَبُّ من يمشي على ظهري إليّ، فإذا وَلَيْتَكَ اليومَ، وصرت إليّ، فستري صنيعي بك» . قال : «فَيَتَسَّعُ له مَدَّ بَصَرِهِ، وَيُفْتَحُ له باب إلى الجنة، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر : لا مرحباً ولا أهلاً! أما إن كنت لأَبْغَضُ من يمشي على ظهري إليّ، فإذا وَلَيْتَكَ اليومَ، وصرت إليّ، فستري صنيعي بك» . قال : «فَيَلْتَمِسُ عليه حتى تَخْتَلِفَ أضْلاعه» وقال رسول الله ﷺ بأصابعه، فأدخل بعضها في بعض قال : «وَيُقَيِّضُ له سبعون تَنِيناً، لو أن واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبت شيئاً ما بَقِيَت الدنيا، فَيَنْهَشُهُ وَيَخْدِشُهُ، حتى يُفْضِيَ به إلى الحساب» . قال رسول الله ﷺ عليه وسلّم :

«القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار»^(٤) .

(١) سيأتي تخريجه بعد تخريج الحديث اللاحق .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «القبور» وغيره من حديث أبي الحجاج الثُمالي بإسناد ضعيف .

(٣) أي : يكشفون عن أسنانهم، وهو هنا دليل على الضحك .

(٤) أخرجه الترمذي [«ضعيف سننه» (٢٤٦٠/٤٣٧)] . وهو في «ضعيف الجامع الصغير» (١٢٣١) .

وقال كعب: إذا وُضع الرجل الصالح في قبره، أَخْتَوَشَتْهُ أَعْمَالُهُ الصَّالِحَةُ: الصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، والصدقة. قال: وتجيء ملائكة العذاب مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ فتقول الصلاة: إِيْكُمْ عَنْهُ فَلَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَطَالَ بِي الْقِيَامَ اللَّهُ ﷻ، قال: فَيَأْتُونَهُ مِنْ قَبْلِ رَأْسِهِ، فيقول الصيام: لَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَطَالَ بِي الصِّيَامَ. قال: فَيَأْتُونَهُ مِنْ قَبْلِ جَسَدِهِ، فيقول الحج والجهاد: إِيْكُمْ عَنْهُ، فَقَدْ أَنْصَبَ نَفْسَهُ، وَأَتَعَبَ بَدَنَهُ، وَحَجَّ وَجَاهَدَ اللَّهُ ﷻ، لَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ. فَيَأْتُونَهُ مِنْ قَبْلِ يَدَيْهِ، فتقول الصدقة: كَمْ مِنْ صَدَقَةٍ خَرَجْتَ مِنْ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ حَتَّى وَضَعْتَ فِي يَدِ اللَّهِ أَبْتِغَاءَ وَجْهِهِ، فَلَا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ. قال: فيقال له: هَنِئَا طُبِّتَ حَيًّا، وَطُبِّتَ مَيِّتًا. قال: وتأتيه ملائكة الرحمة، فَتُفْرَشُهُ فِرَاشًا مِنَ الْجَنَّةِ وَدِثَارًا مِنَ الْجَنَّةِ، فيفسح له فِي قُوَّةٍ مَدَّ بَصَرَهُ، وَيُؤْتَى بِقَنْدِيلٍ مِنَ الْجَنَّةِ يَسْتَضِيءُ بِنُورِهِ إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مِنْ قَبْرِهِ.

وعن أنس بن مالك أن نبي الله ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نَعَالِهِمْ، أَنَاهُ مُلْكَانِ فِيْقَعِدَانِهِ، فيقولان له: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فيقول: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ. فيقولان: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ ﷻ بِهِ مَقْعَدًا فِي الْجَنَّةِ. قال رسول الله ﷺ: فَتَرَاهُمَا جَمِيعًا. وَأَمَّا الْفَاجِرُ أَوْ الْمُنَافِقُ فيقال له: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فيقول: لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ. فيقال له: لَا دَرَنْتَ وَلَا تَلَيْتَ^(١)، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطَارِقٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيصيحُ صِيحَةً يَسْمَعُهَا مِنْ يَلِيهِ غَيْرُ الثَّقَلَيْنِ^(٢)» أخرجاه في «الصحيحين».

(١) لعل أقرب الأقوال أن أصلها: (وَلَا أَتَلَّيْتُ) مِنْ قَوْلِهِمْ: مَا أَلَوْتُ، أَي: مَا أَسْتَطَعْتُ.

(٢) هو عند البخاري (١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠)، وهو في «صحيح أبي داود» (٢٧٦٨/٣٢٣١ و ٣٩٧٧/٤٧٥١)، و«صحيح النسائي» (١٩٣٨). وهو في «الصحيحة» (١٣٤٤).

وفيهما من حديث أسماء بنت أبي بكر عن النبي ﷺ أنه قال: «أَوْحِي إِلَيَّ أَنْكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ - أَوْ قَالَ: «قَرِيباً مِنْ - فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، يُقَالُ: مَا عَلِمْتُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ...»^(١)، وذكر باقي الحديث.

وعن ابن عباس قال: لما أُخْرِجَتْ جِنَازَةُ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ وَسَوَّيْنَا عَلَيْهَا، أَلْتَقَيْتَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا وَلَهُ ضَغْطَةٌ فِي قَبْرِهِ، وَلَوْ كَانَ مُتَقَلِّباً مِنْهَا أَحَدٌ لَانْفَلَتَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ...»^(٢)، وذكر باقي الحديث.

وعن عبد الله الصنعاني قال: رَأَيْتُ يَزِيدَ بْنَ هَارُونَ فِي الْمَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعِ لَيَالٍ، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ قَالَ: تَقَبَّلَ مِنِّي الْحَسَنَاتِ، وَتَجَاوَزَ عَنِّي السَّيِّئَاتِ. قُلْتُ: وَمَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: وَهَلْ يَكُونُ مِنَ الْكَرِيمِ إِلَّا الْكَرَمُ، غَفَرَ لِي ذَنْبِي وَأَدْخَلَنِي الْجَنَّةَ. قُلْتُ: بِمَا نِلْتَ الَّذِي نِلْتَ؟ قَالَ: بِمَجَالَسِ الذِّكْرِ، وَقَوْلِي الْحَقَّ، وَصِدْقِي فِي الْحَدِيثِ، وَطُولِ قِيَامِي فِي الصَّلَاةِ، وَصَبْرِي فِي الْفَقْرِ. قُلْتُ: مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ حَقٌّ؟ قَالَ: إِي وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَقَدْ أَقْعَدَانِي وَسَأَلَانِي مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ، وَمَا نَبِيُّكَ؟ فَجَعَلْتُ أَنْفُضُ لِحْيَتِي الْبَيْضَاءَ مِنَ التَّرَابِ، وَقُلْتُ: مِثْلِي يُسْأَلُ؟ أَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ الْوَاسِطِيُّ، كُنْتُ فِي دَارِ الدُّنْيَا سِتِّينَ سَنَةً أَعْلَمُ النَّاسَ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: صَدَقَ، هُوَ يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، ثُمَّ تَوَمَّاءَ الْعُرُوسِ، فَلَا رَوْعَةَ عَلَيْكَ بَعْدَ الْيَوْمِ.

وَقَالَ الْمَرْؤُذِيُّ: رَأَيْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ فِي النَّوْمِ فِي رَوْضَةٍ، وَعَلَيْهِ حُلَّتَانِ خَضِرَاوَانِ، وَعَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنَ النُّورِ، وَإِذَا هُوَ يَمْشِي مِشْيَةً لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهَا لَهُ. فَقُلْتُ: يَا أَحْمَدُ! مَا هَذِهِ الْمَشْيَةُ الَّتِي لَمْ أَكُنْ أَعْهَدُهَا لَكَ؟ فَقَالَ: هَذِهِ مَشْيَةُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٨٦)، وَمُسْلِمٌ (٩٠٥).

(٢) رَوَاهُ بَنُحُوهُ أَحْمَدُ (٢٤٢٧٥) عَنْ عَائِشَةَ. وَهُوَ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٢١٨٠)، وَ«الصَّحِيحَةِ» (١٦٩٥).

الْحُدَامُ فِي دَارِ السَّلَامِ . فَقُلْتُ : وَمَا هَذَا التَّاجُ الَّذِي أَرَاهُ عَلَى رَأْسِكَ؟ فَقَالَ : إِنَّ رَبِّي ﷻ أَوْقَفَنِي وَحَاسِبَنِي ﴿حَسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق] وَكَسَانِي وَحَبَانِي ^(١) وَقَرَّبَنِي ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَتَوَجَّجَنِي بِهَذَا التَّاجِ وَقَالَ لِي : يَا أَحْمَدُ! هَذَا تَاجُ الْوَقَارِ تَوَجَّجْتُكَ بِهِ ، كَمَا قُلْتُ : الْقُرْآنُ كَلَامِي غَيْرُ مَخْلُوقٍ .

فصل في أحوال الميت من وقت نفخة الصور

إلى حين الاستقرار في الجنة أو النار

قَدْ أَشْرْنَا إِلَى أَهْوَالِ الْقَبْرِ ، وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ نَفْخُ الصُّورِ وَالْبَعْثُ وَالْحِسَابُ وَنَصَبُ الْمِيزَانِ وَالصِّرَاطِ ، وَهَذِهِ أَهْوَالٌ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهَا ، وَيَنْبَغِي تَطْوِيلُ الْفِكْرِ فِيهَا ، وَجُمْهُورُ النَّاسِ لَمْ يَتِمَكَّنْ مِنْ قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ بِالْآخِرَةِ . وَلَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَمْ يَشَاهِدْ تَوَالِدَ الْحَيَوَانَاتِ ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ : إِنَّ صَانِعًا يَصْنَعُ مِنْ هَذِهِ النُّطْفَةِ الْقُدْرَةَ مِثْلَ هَذَا الْآدَمِيِّ الْمُتَصَوِّرِ الْعَاقِلِ الْمُتَكَلِّمِ ، لَاشْتَدَّ نَفُورُ طَبْعِهِ عَنِ التَّصَدِيقِ بِذَلِكَ ، فَخَلَقَهُ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْأَعَاجِيبِ ، يَزِيدُ عَلَى بَعْثِهِ وَإِعَادَتِهِ . وَكَيْفَ يُنْكِرُ ذَلِكَ - مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحِكْمَتِهِ - مَنْ يَشَاهِدُ الْبَدَايَةَ؟ فَإِنْ كَانَ فِي إِيْمَانِكَ ضَعْفٌ ، فَقَوِّ الْإِيمَانَ بِالنَّظَرِ فِي النُّشْأَةِ الْأُولَى ، فَإِنَّ الثَّانِيَةَ مِثْلُهَا وَأَسْهَلُ مِنْهَا ، وَإِنْ كُنْتَ قَوِيَّ الْإِيمَانَ بِهَا ، فَأَشْعِرْ قَلْبَكَ تِلْكَ الْمَخَافَ وَالْأَخْطَارَ ، وَأَكْثِرْ فِيهَا التَّفَكُّرَ وَالْإِعْتِبَارَ ، وَلْيَحُثِّكَ ذَلِكَ عَلَى الْجَدِّ وَالتَّشْمِيرِ .

وَأَوَّلُ مَا يَقْرَعُ أَسْمَاعَ الْمَوْتَى صَوْتُ إِسْرَافِيلَ حِينَ يَنْفُخُ ذَلِكَ فِي الصُّورِ ^(٢) . فَصَوْرُ نَفْسِكَ وَقَدْ قَمْتَ ذَاهِلًا مَبْهُوتًا شَاخِصًا ^(٣) نَحْوَ النَّدَاءِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ^(٤) ﴿٥١﴾ [يس] .

(١) أي : أعطاني .

(٢) شيء كالقرن ينفخ فيه .

(٣) أي : فتح عينيه ولم يطرف بهما متأملًا أو منزعًا .

(٤) أي : يُسرعون . والأجداد : القبور .

وعن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدْ حَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْغَى بِسَمْعِهِ، يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفُخَ ﴿فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣...]. فَيَنْفُخُ؟!». قال المسلمون: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ﴿٧٣﴾» [آل عمران] وتوكلنا على الله^(١).

ثم أنظر كيف يُخَشِّرُ الناس يوم القيامة، فيساقون^(٢) بعد البعث خُفَاءَ عُرَاةٍ إلى أرضِ المَخَشَرِ، وهي قاع ليس فيها ربوة^(٣) يختفي الإنسان بفنائها.

وفي «الصحيحين» قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«يُخَشِّرُ الناس يوم القيامة على أرضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ^(٤) كَقُرْصَةِ النَّقْيِ^(٥)».

ثم تَفَكَّرْ في أزدحام الناس، وقُرْبِ الشمس من رؤوسهم، وشِدَّةِ العَرَقِ، مع ما في القلوب من القلق.

وفي الحديث أن العرق يأخذ الناس «على قدر أعمالهم»^(٦).

وتَفَكَّرْ يا مسكين في سؤال ربك لك عن أعمالك بغير واسطة، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(١) رواه أحمد (١١٦٨٢). وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٣١/١٩٨٠) و (٣٢٤٣/٢٥٨٥).

(٢) السُّوق: الحث من الخلف على السير.

(٣) هي: ما ارتفع من الأرض.

(٤) هي: الأرض البيضاء لم توطأ.

(٥) أي: الخبز الأبيض، ويقصد بها هنا أنها الأرض الجيدة.

والحديث رواه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠).

(٦) أخرجه مسلم (٢٨٦٤)، والترمذي [«صحيح سننه» (٢٤٢١/١٩٧٣)] عن المقداد. وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (١٦٧٩).

«يُعَرِّضُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ: فَأَمَّا عَرَضَتَانِ، فَجِدَالٌ وَمَعَاذِيرٌ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطَايَرُ الصُّحُفُ، فَأَخِذْ بِيَمِينِهِ وَآخِذْ بِشِمَالِهِ»^(١).

وعن أَبِي بَرْزَةَ^(٢) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عَمَلِهِ فِي مَا أَنْفَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِي مَا عَمَلَ فِيهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِي مَا أَنْفَقَهُ، [وَعَنْ جَسَدِهِ فِي مَا أَبْلَاهُ]»^(٣).

وعن صفوان بن مُخْرَزٍ قَالَ: كُنْتُ آخِذًا بِيَدِ ابْنِ عَمْرِو^(٤)، إِذْ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى^(٥) يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُذْنِبُ الْمُؤْمِنَ، فَيُضَعُّ عَلَيْهِ كَتْفُهُ»^(٦) وَيُقَرَّرُهُ^(٧) بِذُنُوبِهِ، وَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» قَالَ: «ثُمَّ يُعْطَى كِتَابُ حَسَنَاتِهِ»^(٨).

= وَأَمَّا الْكَفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ
أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٨﴾ [هود] =

(١) أخرجه الترمذي [«ضعيفه» (٢٤٢٥/٤٢٦)]، وابن ماجه [«ضعيفه» (٩٣٢)/ (٤٢٧٧)]. وهو في «ضعيف الجامع» (٦٤٣٢)، و«المشكاة» (٥٥٥٧ و ٥٥٥٨).

(٢) في الأصل أبو بردة، وهو خطأ. وإنما هو: أبو ברزة الأسلمي.

(٣) أخرجه الترمذي [«صحيحه» (٢٤١٧/١٩٧٠)، وكذا (٢٤١٦/١٩٦٩)] عن ابن مسعود. وهو في «الصحيحه» (٩٤٦).

(٤) يريد: مناجاة وخطاب الله للعبد يوم القيامة.

(٥) الكتف: الناحية والجانب.

(٦) أي: يحمله على الاعتراف بها.

(٧) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨). وهو في «صحيح الجامع الصغير وزياته» (١٨٩٤).

= أخرجاه في «الصحيحين».

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال:

«يُضْرَبُ جِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَجُوزُ»^(١).

وفيهما أيضاً، عن النبي ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالْجِسْرِ فَيَجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرِي وَجَهَنَّمَ». قالوا: يا رسول الله! ما الجسر؟ قال: «مَذْحَضَةٌ^(٢) مَرَّةً^(٣)، عليها خطاطيف^(٤) وكلاليب^(٥) وَحَسَكٌ^(٥)، يمر المؤمنون عليه كالطَّرْفِ، وكالبَرْقِ الخاطِفِ، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، وناجٍ مخدوشٌ، حتى يمر آخرهم يُسْحَبُ سَحَباً»^(٦).

ذكر جهنم أعادنا الله منها

عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: كنا عند النبي ﷺ يوماً، فسمعنا وجبة. فقال النبي ﷺ «أتدرون ما لهذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفاً، فالآن انتهى إلى قعرها»^(٧). رواه مسلم.

(١) رواه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من مسند أبي هريرة، وإقرار أبي سعيد له، لكنه بلفظ: «الصرائط» بدل كلمة: «الجسر» فهي من الحديث الذي بعده وسيأتي في الصفحة (٥١٦) حاشية (٢) وهو قطعة منه. وينظر شرح «الإحياء» ٢/ ٢٢٠، و«تفسير القرطبي» ٦/ ١١.

(٢) أي: ذات دَخْض، أي: زَلَقٌ.

(٣) من زَلَّ إذا زَلَقَ؛ أراد أنه تَزَلَّقَ عليه الأقدام ولا تثبت.

(٤) جمع حُطَّاف وكَلَّاب، وهما: حديد مُعَوَّجَة الرأس يُنْشَلُ بها الشيء أو يُعَلَّقُ.

(٥) الحسك: نبات له ثمرة خشنة شوكية قاسية. والحسك من الحديد: ما يُعْمَلُ على مثال الحسك؛ كان يلقي حول العسكر ويُبَثُّ في مذاهب وطرق الخيل فينشب في حوافرها.

(٦) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٧) هو عند مسلم (٢٨٤٤). وهو في «صحيح الجامع» (٦٩٩٣).

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم». قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله. قال: «فإنها فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرّها»^(١).

وفي أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرُؤْنَهَا»^(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: يُلقَى على أهل النار الجوع، فيعدل عندهم ما فيه من العذاب، فيستغيثون بالطعام، فيغاثون بالـ ﴿صَرِيحٌ﴾ (٦) لَا يُسْنُّ وَلَا يُفْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ [الغاشية] (فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي ﴿عَصَةٍ﴾ [المزمل: ١٣] فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصة بالشراب) فيستغيثون بالشراب فيغاثون بالحميم، ينالونه بكلاليب من حديد، فإذا دنا منهم شوى وجوههم، وإذا دخل بطونهم، قطع ما في بطونهم، فيطلبون إلى خزنة ﴿جَهَنَّمَ﴾ أن: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يَحْفَظْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] فيجيبونهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (٥٠) [غافر] فيقولون: سلوا مالكم، فيقولون: ﴿يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ (٧٧) [الزخرف] فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (١٧٧) [المؤمنون] فيقول عز وجل: ﴿قَالَ اتَّخِذُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (١٧٨) [المؤمنون] فعند ذلك يياسون من كل خير، ويأخذون في الشهيق والويل والثبور^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

(٢) رواه مسلم (٢٨٤٢)، والترمذي «صحيح سننه» (٢٠٨٢/٢٥٧٣).

(٣) أي: الهلاك.

وَتَفَكَّرْ فِي حَيَاتِهَا وَعِقَارِبِهَا، فِي الْحَدِيثِ: (إِنْ حَيَاتُهَا أَمْثَالُ أَعْنَاقِ الْبُخْتِ^(١)، وَعِقَارِبُهَا كَالْبَغَالِ الْمَوْكُفَةِ)^(٢)،

وعن الحسن: أَنْ النَّارَ تَأْكُلُهُمْ سَبْعِينَ أَلْفَ مَرَّةٍ، ثُمَّ يَعُودُونَ كَمَا كَانُوا.

وَأَعْلَمْ أَنَّ صِفَةَ جَهَنَّمَ تَطُولُ، وَأَيْسَرُ الْيَسِيرَ مِنْ ذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكْفِيَ فِي التَّخْوِيفِ، فَإِنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا بِهَذَا فَانْتَبِهْ لِنَفْسِكَ، وَخَفْ مَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ عَلَى عَبْدٍ خَوْفَيْنِ، وَلِسْنَا نَعْنِي بِالْخَوْفِ رِقَّةَ النِّسَاءِ فَتَبْكِي سَاعَةً ثُمَّ تَتْرَكِ الْعَمَلَ، وَإِنَّمَا نَرِيدُ خَوْفًا يَمْنَعُ عَنِ الْمَعَاصِي، وَيُحْتِ عَلَى الطَّاعَةِ. فَأَمَّا خَوْفُ الْحَقِيقِيِّ الَّذِينَ اقْتَصَرُوا عَلَى سَمَاعِ الْأَهْوَالِ. وَأَنْ يَقُولُوا: اسْتَعْنَا بِاللَّهِ، نَعُودُ بِاللَّهِ، يَا رَبِّ سَلِّمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُصِرُّونَ عَلَى الْقَبَائِحِ، وَالشَّيْطَانُ يَسْخَرُ بِهِمْ كَمَا يُسْخَرُ مِمَّنْ قَصَدَهُ سَبْعُ ضَارٍ وَهُوَ إِلَى جَانِبِ حَصْنٍ، فَيَقُولُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذَا، وَهُوَ لَا يَدْخُلُ الْحَصْنَ وَلَا يَبْرَحُ مَكَانَهُ.

فصل

وَكُنْ فِي الدُّنْيَا مُحِبًّا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَرِيصًا عَلَى تَعْظِيمِ سُنَّتِهِ، لَعَلَّهُ يَشْفَعُ فِيكَ فِي الْآخِرَةِ، فَإِنْ لَهُ شَفَاعَةٌ يَتَقَدَّمُ فِيهَا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وَيَسْأَلُ اللَّهَ فِي أَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ فَيُنْجِيهِمْ. وَأَسْتَكْثِرُ مِنَ الْإِخْوَانِ الصَّالِحِينَ، فَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ شَفَاعَةٌ، وَلَا تَحْمِلَنَّكَ الْعِزَّةُ عَلَى التَّوَانِي وَتَسْمِي ذَلِكَ رَجَاءً، فَإِنْ مِنْ رَجَا شَيْئًا طَلَبَهُ. وَأَحْثَرُ مِنَ الْمَظَالِمِ، فَإِنْ مِنْ كَانَتْ عَلَيْهِ مَظَالِمٌ وَمَاتَ قَبْلَ رَدِّهَا، فَإِنْ غُرَّمَا يَحِيطُونَ بِهِ فِي الْقِيَامَةِ، فَهَذَا يَقُولُ: ظَلَمَنِي، وَهَذَا يَقُولُ: أَسْتَهْزَأُ بِبِي، وَهَذَا يَقُولُ: أَسَاءَ جَوَارِي، وَهَذَا يَقُولُ: عَشَّنِي، فَلَا خَلَاصَ لَكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ. فَإِذَا تَوَهَّمْتَ الْخَلَاصَ قِيلَ: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧].

(١) هي: نوع من الإبل طويلة الأعناق مشهورة في عُمان ومسقط.

(٢) رواه أحمد (١٧٦٨١) عن ابن جَزْء الزُّبَيْدِيِّ. وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف لا اختلاطه.

وعن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّارِ، فَيُخَبَّسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصَرُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِبُوا وَنُقُوا أُذُنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ»^(١).

وعن أبي هريرة ؓ، أن النبي ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مِنَ الْمَفْلَسِ فِيكُمْ؟» قَالُوا: الْمَفْلَسُ فِينَا مِنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعٍ. قَالَ: «إِنَّ الْمَفْلَسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا.

فَيَقْضِي هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(٢). =

= وعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «لَتُؤَدَّنَ الْحَقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَمَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءِ»^(٣).

= وهذه الأحاديث كلها في «الصحيح».

فَانْظُرْ وَفَقَكَ اللَّهُ إِلَى بُعْدِ سَلَامَةِ حَسَنَاتِكَ لِدُخُولِ مَا يُبْطِلُهَا مِنَ الرِّيَاءِ وَالْغِيْبَةِ، فَإِنْ سَلِمَتْ أَخَذَهَا الْخُصُومُ، فَتَقِظْ لِنَفْسِكَ، وَلَا تُفَرِّطْ فِي أَوْقَاتِكَ، فَإِنَّ الْمَسْكِينَ مَنْ آثَرَ لَذَّةَ مُتَقَطَّعَةٍ، وَاشْتَرَى بِهَا عَذَابًا دَائِمًا. نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالتَّوْفِيقَ.

ذكر صفة الجنة نسال الله العظيم من فضله

عن أبي هريرة ؓ قال: قلنا: يا رسول الله! حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ، مَا بَنَآؤُهَا؟

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨١)، والترمذي [«صحيح سننه» (٢٤١٨/١٩٧١)]. وهو في «الصحيحة» (٨٤٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٢)، والترمذي [«صحيح سننه» (٢٤٢٠/١٩٧٢)]. وهو في «الصحيحة» (١٥٨٨). و(الجماء): التي لا قرن لها.

قال: «لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا^(١) الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ^(٢)، وَخَضْبَاؤُهَا^(٣) اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يُنْعَمَ وَلَا يَبْئَسَ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شِبَابُهُ»^(٤).

وفي حديث أسامة بن زيد، عن النبي ﷺ أنه قال يوماً وذكر الجنة: «أَلَا مُشْمَرٌ لَهَا؟ هِيَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ رِيحَانَةٌ تَهْتَرُ، وَنُورٌ يَتَلَأَلُ، وَنَهْرٌ مُطَرَّدٌ^(٥)، وَزَوْجَةٌ لَا تَمُوتُ، فِي حُبُورٍ^(٦) وَنَعِيمٍ، وَمَقَامٍ فِي أَبَدٍ». فقالوا: نَحْنُ الْمُشْمَرُونَ لَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «قُولُوا: إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(٧).

وفي «الصحيحين» من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنْ اللَّهُ ﷻ قَالَ: أَغْدِثُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ»^(٨).

وفيهما أيضاً من حديثه عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَوَّلُ زِمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ^(٩) فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوِّطُونَ وَلَا يَتَفَلُّونَ وَلَا يَتَمَخَّطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ،

(١) المِلاط، هو: الطين يُجَعَلُ بَيْنَ كُلِّ لَبْنَتَيْنِ أَوْ آجَرَتَيْنِ أَوْ حَجَرَيْنِ فِي الْبِنَاءِ.

(٢) ذَفِرُ الشَّيْءِ: أَشَدُّ رَائِحَتِهِ، طَيِّبَةٌ كَانَتْ أَوْ خَبِيثَةٌ. فَالْمِسْكُ الْأَذْفَرُ هُوَ الْجَيِّدُ إِلَى الْغَايَةِ.

(٣) الحَصْبَاءُ: صَغَارُ الْحَجَارَةِ.

(٤) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٩٧٢٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَهُوَ فِي «صَحِيحِ سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٠٥٠/٢٥٢٦) وَ«ضَعِيفِ سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٥٢٦/٤٥٤).

(٥) أَطْرَدَ النَّهْرُ: تَتَابَعَ جَرِيَانُ مَائِهِ.

(٦) هُوَ: النِّعْمَةُ وَسَعَةُ الْعَيْشِ.

(٧) «ضَعِيفِ سَنَنِ ابْنِ مَاجَةَ» (٤٣٣٢/٩٤٦).

(٨) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٧٧٩-٤٧٨٠) (٣٢٤٤)، وَمُسْلِمٌ (٢٨٢٤).

(٩) هُوَ: الْكَوْكَبُ الْمَتَلَأِلِيُّ الضَّوْءِ.

وَرِيحُهُمُ الْمِسْكُ، ومجامرهم الأُلُوَّةُ الأَلَنْجُوجُ^(١)، أزواجهم الْخُورُ^(٢) الْعَيْنُ^(٣)، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سَتُونَ ذِرَاعاً فِي السَّمَاءِ. وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «الْكَلُّ وَاحِدٌ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يَرَى مُخَّ سَوْقَهُمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحَسَنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بِكِرَّةٍ وَعَشِيًّا»^(٤).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(٥) أخرجاه في «الصحيحين».

وفيها من حديث أبي موسى أيضاً عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَخِيْمَةً مِنْ دُرَّةٍ^(٦) مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخِرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ»^(٧).

وأعلم أن الله ذكر نعيم الجنة مبسوطاً في مواضع القرآن، ثم جمعه في آيات. منها قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا شَتَّهِبِهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] وقوله: ﴿لَا يَبْغَوْنَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] ثم زاد على ذلك بقوله:

(١) الأُلُوَّةُ، هو الأَلَنْجُوجُ، وهو: شجر له عود إذا أحرق سطعت له رائحة جميلة ويُسمى أيضاً العود الهندي أو اللِّدَّ.

(٢) جمع خُوراء، وهي: الشديدة بياض العين الشديدة سوادها.

(٣) جمع عَيْناء، وهي: الواسعة العين.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٤٦)، ومسلم (٢٨٣٤). وهو في «الصحيحة» (١٧٣٦)، و«المشكاة» (٥٦٣٥).

(٥) أخرجه البخاري (٧٤٤٤)، ومسلم (١٨٠). وهو في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (٣١٠١).

(٦) هي: اللؤلؤة العظيمة الكبيرة.

(٧) هو عند البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨).

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وصفات الجنة كثيرة أقتصرنا منها على هذا .

وأفضل ما يُنال في الجنة رؤية الله تعالى .

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قيل: يا رسول الله! هل نرى ربنا؟ فقال: «فهل تضامون»^(١) في القمر ليلة البدر ليس دون سحاب؟ قالوا: لا قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك»^(٢) .

باب في ذكر سعة رحمة الله تعالى

نَخْتِمُ الكتاب بذكر سعة رحمة الله ﷻ، نرجو بذلك فضله، إذ ليس لنا أعمال نرجو بها العفو، لكن نرجو ذلك من رحمته وكرمه . قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اتَّخَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٢) [الزمر] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله ﷻ الخلق، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»^(٣) أخرجاه في «الصحيحين» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إن لله ﷻ مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الإنس والجن والهوام والبهائم . فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تغطف الوحش على أولادها، وأخر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»^(٤) . =

(١) يُروى بالتشديد والتخفيف، فالتشديد معناه: لا تنضم بعضكم إلى بعض وتزدحمون وقت النظر إليه . ومعنى التخفيف: لا ينالكم ضييم - أي: ظلم - في رؤيته؛ فيراه بعضكم دون بعض .

(٢) سلف تخريجه في الصفحة (٥١٠) حاشية (١) .

(٣) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) .

(٤) هو عند مسلم (٢٧٥٢)، وابن ماجه في «صحيحه» (٤٢٩٣/٣٤٦٥)، وبنحوه عند

البخاري (٦٠٠٠) . وهو في «صحيح الجامع» (٢١٧٢) .

= وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن ربكم تبارك وتعالى رحيم، مَنْ هَمَّ بحسنة فلم يعملها كُتِبَتْ له حسنة، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ له عَشْرُ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ، وَمَنْ هَمَّ بسيئة فلم يعملها كُتِبَتْ له حسنة، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ له سِيئَةٌ وَاحِدَةٌ أَوْ يَمْحُوهَا اللَّهُ. وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا هَالِكٌ»^(١). =

= وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الله تعالى: مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ. وَمَنْ عَمِلَ سِيئَةً، فـ ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ . . . مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] أَوْ أَغْفِرُ. وَمَنْ أَقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا أَقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ أَقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا أَقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»^(٢). =

= وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن رجلاً أذنب ذنباً فقال: أي رب! أذنبت ذنباً فأغفر لي، فقال تبارك وتعالى: (عَلِمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي). ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ! عَمِلْتُ ذَنْبًا فَأَغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ تعالى: (عَلِمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي). ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ! عَمِلْتُ ذَنْبًا فَأَغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: عَلِمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»^(٣). =

(١) متفق عليه، سلف تخريجه في الصفحة (٤٥١) حاشية (٣).

(٢) هو في مسلم (٢٦٨٧).

قال محقق «صحيح مسلم»: إن التضعيف بعشرة أمثالها لا بد منه بفضل الله ورحمته ووعده الذي لا يخلف، والزيادة بعد بكثرة التضعيف إلى سبعمئة ضعف، وإلى أضعاف كثيرة، يحصل لبعض الناس دون بعض على حسب مشيئته سبحانه.

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨)، وأحمد (٧٩٣٠ و ٩٢٢٩).

= هذه الأحاديث كلها صحاح .

وفي «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قُدِّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَبِيٍّ^(١)، وَإِذَا أَمْرًا مِنَ السَّبِيِّ تَسَعَى، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبِيِّ فَأَخَذَتْهُ، فَأَلَصَّقَتْهُ بِبَطْنِهَا، فَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لَا وَاللَّهِ. قَالَ: «لِلَّهِ أَزَحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ بَوْلَدِهَا»^(٢).

وفي «الصحيحين» من حديث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ:

«وَأِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» ثُمَّ قَالَ فِي الرَّابِعَةِ: «عَلَى رَغَمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ»^(٣).

وفيهما من حديث عِثْبَانَ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنْ اللَّهُ حَرَّمَ النَّارَ عَلَى مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»^(٤).

وفيهما من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ وَزْنُ بُرَّةٍ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً»^(٥).

(١) هم: المأسورون.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤). وهو في «صحيح الجامع» (٥٧٣٣).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٢٣)، ومسلم (٣٣) بنحوه.

(٥) أخرجه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣).

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان يوم القيامة لم يبق مؤمن إلا أتى بيهودي أو نصراني حتى يُدفع إليه فيقال له: هذا فداؤك من النار»^(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فيُنشَرُ عليه تسعاً وتسعين سَجَلاً، كُلُّ سَجَلٍ منها مَدُّ البصرِ ثم يقول: أَتُنْكِرُ من هذا شيئاً؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتِي الحافظون؟ قال: لا يا رب. فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فينهت الرجل، فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضِرْ وَزَنَكَ. فيقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فيقال: إنك لا تُظلم. فتوضع السجلات في كِفَّة، والبطاقة في كِفَّة. قال: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء مع أسم الله تعالى»^(٢).

ونظر الفضيل بن عياض إلى تسييح الناس وبكائهم يوم عرفة فقال: رأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل يسألونه دانيقاً^(٣)، أكان يرُدُّهم؟ فقيل: لا. فقال: والله؛ المغفرة عند الله تعالى أهون من إجابة رجلٍ لهم بدانيقٍ.

وعن إبراهيم بن أدهم قال: خلا لي الطواف في ليلة مُظْلِمَةٍ شديدة المطر، فلم أزل أطوف إلى السَّحَرِ، ثم رفعت يدي إلى السماء. فقلت: اللهم إني أسألك أن تعصمني عن جميع ما تكره. فإذا قائل يقول في الهواء: أنت تسألني العصمة، وكلُّ خلقي يسألني العصمة، فإذا عصمتك فعلى من أتفضل؟ فهذه الأحاديث مع ما ذكرناه^(٤) في (كتاب: الرجاء)، تُبَشِّرنا بكرم الله تعالى

(١) أخرجه مسلم بنحوه (٢٧٦٧). وهو في «الصححة» (٩٥٩ و ١٣٨١).

(٢) هو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٣٠٠/٣٤٦٩).

(٣) الدانيق: سدس الدرهم.

(٤) هنا انتهت المخطوطة الثالثة.

وَسِعَةَ رَحْمَتِهِ وَجُودِهِ، وَنَحْنُ نَرْجُو مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَلَّا يُعَامِلَنَا بِمَا نَسْتَحِقُّهُ، وَأَنْ يُتَفَضَّلَ عَلَيْنَا بِمَا هُوَ أَهْلُهُ. وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ﷻ مِنْ أَقْوَالِنَا الَّتِي تَخَالَفُ أَعْمَالَنَا، وَمَنْ كُلُّ تَصْنُوعٍ تَزَيُّتًا بِهِ لِلنَّاسِ، وَكُلَّ عِلْمٍ وَعَمَلٍ قَصْدُنَاهُ، ثُمَّ خَالَطَهُ مَا يُكَدِّرُهُ، فَبِكَرَمِهِ نَسْتَشْفَعُ إِلَى كَرَمِهِ، وَبِجُودِهِ نَسْأَلُ مِنْ جُودِهِ، إِنَّهُ ﴿قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ ﴿٦١﴾ [هود].

«وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾» [الأنعام. الصفات: ١٨٢] حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه . . . كما يحب ربنا ويرضى^(١). وكما ينبغي لكريم وجهه ﷻ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

(١) من أذكار الاعتدال من الركوع. وقد رواه البخاري وغيره من حديث رفاعة، وهو في «صفة صلاة النبي ﷺ» و«الإرواء» (٣٠٧) وهما طبع المكتب الإسلامي.

والحمد لله رب العالمين .
والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وعلى آله وأصحابه أجمعين .
وقد امتن الله عليّ بإعادة النظر فيه للمرة الأخيرة مغرب يوم
الاثنين الرابع من صفر سنة ١٤٢١ = ٨ / ٥ / ٢٠٠٠ .
والله أسأل أن ينفع به ، كما نفع فيما قدمنا من كتب العلم . وأن
لا يحرمنا الثواب والأجر .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .
بيروت .

زهير الشاويش

فهرس الأحاديث

«أَخْلَصَ دِينَكَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ» ٤٥٦

«إِذَا أَتَيْتَ خَانَ» ٣٨٢

«إِذَا ابْتَلَى بِذِي شَرٍّ فَيَنْبَغِي أَنْ يَجَامِلَهُ» ١٣٤

«إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ» ٧٨

«إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُغْلِمْهُ» ١٢٧

«إِذَا أَخَذْتُمَا مِضْجَعَكُمَا» ٧٨

«إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ أَرْضَاهُ» ٤٤١

«إِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ» ١٣١

«إِذَا أَقْشَعَرَ جِلْدُ الْعَبْدِ مِنْ مَخَافَةِ اللَّهِ» ٣٧٨

«إِذَا أَلْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا» ١٨٧

«إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَتَنَفَّضْهُ» ٧٧

«إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ» ٧٨

«إِذَا تَطَيَّرْتَ فَأَمُضْ» ٢٣٤

«إِذَا حَدَّثَ كَذِبًا» ٣٨٢

«إِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ» ٢٣٤

«إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَسْلَمْ» ٧٢

«إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ مَرَجَتْ عَهْدُهُمْ» ١٤٠

«إِذَا رَأَيْتَ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ» ١٥٣

«إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَالِمَ يَغْشَى الْأُمَرَاءَ فَاحْذَرُوا مِنْهُ» ٣٣

«إِذَا صَافَحَ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْمِنَ» ١٣٣

«إِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ» ٢٣٤

«إِذَا غَسَلْتُمُونِي وَكَفَنْتُمُونِي فَضَعُونِي عَلَى» ٣٣

سُرِيرِي» ٤٩٢

«إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ» ٢٢٩

١

«آيَةُ الْمَنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذِبًا» ٣٨٢

«أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ الْخَصْمُ» ٢٠٩

«إِبْلِيسُ عَدُوُّ اللَّهِ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ» ٤٨٩

«أَبَى اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ إِلَّا مِنْ» ٢٥٢

«أَتَبَعَ السَّيِّئَةُ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا» ٣٢٤

«أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟» ٥١٠

«أَتَدْرُونَ مِنَ الْمَفْلَسِ فَيْكُمْ؟» ٥١٣

«أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ» ٥١٨

«أَتَقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ» ٢٥٢

«أَتُبْتُوا آجَالَكُمْ بَيْنَ أَبْصَارِكُمْ» ٤٨٤

اجْتَمَعْنَا فِي بَيْتِ أَمْنَاءَ عَائِشَةَ، فَنَظَرَ إِلَيْنَا رَسُولُ

اللَّهِ ٤٩١

«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤَبَّاتِ» ٣١٦

«أَجِدْنِي يَا جَبْرِيلَ مَغْمُومًا وَأَجِدْنِي مَكْرُوبًا» ٤٩٣

«اجْمِيعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ» ٢٥٠، ٣٣١

«أَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ» ٢٥٢

«أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ» ٨٤

«أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَذْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ» ٨٢، ٣٢١

«أَحْبَبُ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ» ٤٨٥

«أَحْضَرُوا مَوْتَائِكُمْ، وَلَقِّنُوهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ٤٨٩

«أطلبوا مع العلم السكينة والجلم» ٢٣٠
«أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ»

٥١٤

أعطاه غنماً بين جبليين ٢٥٤

«أَعْقَلُهَا وَتَوَكَّلْ» ٤١٨

«أَعْلَفْهُ نَاضِحَكَ» ١١٧

اعلم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ٣٩٢

«أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ» ١٣٤

«أَغْتَنِمُ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ» ٤٨٦

«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ» ١٥٣ ، ١٥٦

«أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُهَا»

شحيح ٥٣

«أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جِهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ» ٣٩٨

«أَفْضَلُ صَلَاةِ اللَّيْلِ نِصْفُ اللَّيْلِ» ٧٩

«أَفْلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا» ٣٤٤

«أَقْتَصِرْ مِنِّي» ١٧١

«أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نَدَاءً» ٣١٦

«أَكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِينٍ» ٤٥٦

«أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا» ٤٨٢

«أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَاتِ» ٤٨١ ، ٥٠٤

أكل أبو بكر شيئاً من شبهة ثم قاءه ١١١

«أَكَلِ الرِّبَا» ٣١٦

«أَكَلِ مَالِ الْيَتِيمِ» ٣١٦

«أَكُلْكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَدْخَلَ الْجَنَّةَ؟» ٤٨٣

«أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ» ١٩٩

«أَكْبَسُ الْمُؤْمِنِينَ أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا» ٤٨٢

«التَّقَى مُؤْمِنَانِ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ» ٣٩٧

«الْتَمِسُوا [سَاعَةَ الْجُمُعَةِ] مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ

إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ» ٤٣

«اللَّهُمَّ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ» ٤٤

«إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ» ٢٢٨

«إِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ» ٢٢٨

«إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يَصَلِّي بِاللَّيْلِ» ٧٩

«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَمْ يَبْقَ مُؤْمِنٌ» ٥١٩

«إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِیَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعَوْا» ٢٦

«إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكَينَ» ٣٤٠

«إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ» ٣٥٩

«إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مُصِيبَةً» ٣٣٩

«إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ» ٣٨٢

«أَذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تِرَاوُونَ فِي الدُّنْيَا»

٢٦٨

«أَرْسَلَا فِي غَنَمٍ» ٢٤٦ ، ٢٦٥

أرواحهم في جوف طير خضر ٥٠٣

«أَزْدَدْ» ٤٩٦

«أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ» ٤٣٤

«أَسْتَأْذِنُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَأَمِي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي»

٢٩٦

«اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ حَيَاتِهِ» ٤٨٤

«أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» ٣١٤

«أَسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا» ٩٩

«أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ» ٢٨

«أَشْرَبَ يَا عَثْمَانُ» ٤٩٦

«أَشْرَفَ الْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ» ٦٩

«أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ» ٦٠

«أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ» ٧١

«أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمَلِكُ اللَّهُ» ٧١

أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول

الله ٤٩٣

«أَطِيبْ طُعْمَتَكَ تُسْتَجَبْ دَعْوَتُكَ» ١١١

«أَطْلُبُوا الْعِلْمَ» ٢٣٠

«اللهم آتنا في الدنيا حسنة» ٣٦٥
 «اللهم أجعل رِزْقَ آل محمد قوتاً» ٣٩٤
 «اللهم أسلمت نفسي إليك» ٧٨
 «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة» ٧٢
 «اللهم أعطني على ذكرك» ٣٤٤
 «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» ٢٠٠
 «اللهم افتح لي أبواب رحمتك» ٧٢
 «اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت» ٧١
 «اللهم إني أسألك التوفيق لِمَحَابِّكَ» ٤١٢
 «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك» ٧٢
 «اللهم إني أسألك من فضلك» ٧٢
 «اللهم إني أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان»
 ٣٨٣
 «اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل»
 ٢٥٧
 «اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السماوات
 والأرض ومن فيهن» ٧٨
 «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت» ٧٩
 «أما إنكم لو أكثرتم من ذكر هادم اللذات»
 ٥٠٤
 «أما إنه قد صدقك وهو كذوب» ٧٨
 «أمرت أن أخطب الناس على قدر عقولهم»
 ٣١
 «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع» ١٣١
 «أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله» ٧٠
 «أمض لما أمرت به» ٤٩٣
 «أُمْلِكْ عليك لسانك وليسعك بيتك» ١٣٧
 «أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك» ٣١٦
 «أن تحب للناس ما تحب لنفسك» ١٣١
 «إن تركتهم أفطرت عندنا» ٤٩٦
 «أن تُزَانِي حَلِيلَةَ جَارِكَ» ٣١٦
 «أن تصدّق وأنت صحيح صحيح» ٥٣
 «أن تغبّد الله كأنك تراه» ٤٦٦
 «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» ٣١٦
 «إن شاء الله» ٥١٤
 «إن قاتلتهم ظفرت» ٤٩٦
 «إن كان في أخيك ما تقول فقد أغتبتّه» ٢١٤
 «أنا أعرفكم بالله، وأشدكم له خشية» ٣٧٥
 «أنا عند ظن عبدي بي» ٣٧١
 «أنا مع عبدي ما ذكرني» ٦٨
 «أنتم شهداء الله في الأرض» ٢٧٦
 «أنظروا إلى عبادي، أتوني شعثاً غبراً» ٦٠
 «أنظروا إلى من دونكم، ولا تنظروا إلى من
 فوقكم» ١٤٢
 «أنظروا إلى من هو أسفل منكم» ٢٥٣، ٣٦٠
 «إن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً» ١٢١
 «إن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة
 مساويكم أخلاقاً» ١٢١، ٢٠٩
 «إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك، لا
 أبرح أغوي بني آدم» ٣٧٣
 «إن أحب أسمائكم إلى الله ﷻ عبد الله» ١٠١
 «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً» ١٢١
 «إن أحذركم إذا مات، عرض عليه مقعده»
 ٥٠٣
 «إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء
 والشهوة» ٢٦٢
 «إن أخوف ما أخاف على أمتي الهوى» ٤٨٣
 «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»
 ٢٦٩
 «أن أزواج النبي ﷺ كن يراجعنه» ٩٩

«اللهم آتنا في الدنيا حسنة» ٣٦٥
 «اللهم أجعل رِزْقَ آل محمد قوتاً» ٣٩٤
 «اللهم أسلمت نفسي إليك» ٧٨
 «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة» ٧٢
 «اللهم أعطني على ذكرك» ٣٤٤
 «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» ٢٠٠
 «اللهم افتح لي أبواب رحمتك» ٧٢
 «اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت» ٧١
 «اللهم إني أسألك التوفيق لِمَحَابِّكَ» ٤١٢
 «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك» ٧٢
 «اللهم إني أسألك من فضلك» ٧٢
 «اللهم إني أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان»
 ٣٨٣
 «اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل»
 ٢٥٧
 «اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السماوات
 والأرض ومن فيهن» ٧٨
 «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت» ٧٩
 «أما إنكم لو أكثرتم من ذكر هادم اللذات»
 ٥٠٤
 «أما إنه قد صدقك وهو كذوب» ٧٨
 «أمرت أن أخطب الناس على قدر عقولهم»
 ٣١
 «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع» ١٣١
 «أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله» ٧٠
 «أمض لما أمرت به» ٤٩٣
 «أُمْلِكْ عليك لسانك وليسعك بيتك» ١٣٧
 «أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك» ٣١٦
 «أن تحب للناس ما تحب لنفسك» ١٣١
 «إن تركتهم أفطرت عندنا» ٤٩٦

أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَذَبَ رِداءَ النَّبِيِّ ١٩٩
 «إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيائِي عِنْدِي لِمُؤْمِنٍ خَفِيفِ الْحَاذِ»
 ٢٦٣
 «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يَوْزَنُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا» ٢٠
 «إِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ» ٤٦٠
 «إِنَّ الْجَبِرَانَ ثَلَاثَةٌ: جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ» ١٣٥
 «إِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ» ٢٣٣
 «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ» ٣٨٤
 «إِنَّ الرَّجُلَ يُؤْجَرُ فِي نَفَقَتِهِ كُلِّهَا إِلَّا فِي
 التَّرَابِ» ٤٠٧
 «إِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ» ٢٢٩
 «إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ» ٤٦٠
 «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئَ غَضَبَ الرَّبِّ» ٥٢
 أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَرَجَ بِرُوحِهِ إِلَى السَّمَاءِ ٣٨٤
 «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ» ٥٠٥
 «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَزِلُّ بِهَا» ٢٠٨
 «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَحْرَمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ بِصِيَّهِ» ٣٣٠
 «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ» ٢٠
 «إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ» ٢٢٩
 «إِنَّ الْغِيْبَةَ أَشَدُّ مِنَ الزِّنَى» ٢١٣
 «إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ٦٣
 «إِنَّ الْقَوْمَ سَيُنْكَرُونَ عَلَيْكَ» ٤٩٦
 «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا أَبْتَلَاهُ» ٤٣٥
 «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رَمْحِي» ١٠٥
 «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» ٢٧٢
 «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ النَّارَ عَلَى مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا
 اللَّهُ» ٥١٨
 «إِنَّ اللَّهَ ﷻ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا» ٣٨١
 «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ» ٢٣٢
 «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا» ٤٨، ١١٠

«إِنَّ اللَّهَ قَالَ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ» ٥١٤
 «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُحْتَرِفَ» ١٠٤
 «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ» ٩٢
 «إِنَّ اللَّهَ ﷻ وَكَّلَ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مَلَكَينَ» ٤٨٨
 «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ، وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ» ١٩
 «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ» ٢١٠
 «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ» ٢٩٧
 «إِنَّ اللَّهَ يُبَاهِي بِالْحَاجِّ الْمَلَائِكَةَ فَيَقُولُ» ٦٠
 «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُحِبُّ الرُّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» ٢٣٢
 «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ النَّقِيَّ» ٢٦٣
 «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُفْتَنَ التَّوَابَ» ٣٢٧
 «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسَالَ» ٦٩
 «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُذْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ» ٥٠٩
 «إِنَّ اللَّهَ يَسْتَخْلَصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي» ٥١٩
 «إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ الْفَاسِقُ» ٢٢٠
 «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ»
 ٤٨٨
 «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرِغْ» ٣١٤،
 ٤٨٨
 «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرْنِي» ٦٨
 «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ
 إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ» ٤٣٥
 «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نَكْتَةً سُودَاءَ فِي
 قَلْبِهِ» ٣٣٠
 «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَ الْمَوْتَ» ٤٨٨
 أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ ٣٢١
 «إِنَّ الْمَفْلَسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»
 ٥١٣
 «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ»
 ٢٠

«إِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لِيُسَوُّوا بِالْمُتَّعِّمِينَ» ٤٠٦
 «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَخِيَمَةً مِّنْ دُرَّةٍ مَّجُوفَةٍ» ٥١٥
 «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُّسْلِمٌ» ٨٤
 «إِنَّ فِي الْمَعَارِضِ مَنَدُوحَةً عَنِ الْكُذْبِ» ٢١٢
 «إِنَّ فِيكَ خُلُقَيْنِ يَجْبِهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ» ٢٣٠
 «إِنَّ قِرَاءَةَ الرَّجُلِ آخِرَ اللَّيْلِ مُحْضُورَةٌ» ٨٠
 «أَنَّ كُلَّ مَا يَصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ يَكُونُ كَفَّارَةً لَهُ» ٣٦٣
 «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامٍ دَهْرَكُمْ نَفَحَاتٍ» ٣٤٣
 «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّهْبَانِيَّةٌ» ١٤٩
 «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ سِيَاحَةٌ» ١٤٩
 «إِنَّ اللَّهَ أَهْلِيْنِ مِنَ النَّاسِ» ٦٢
 «إِنَّ اللَّهَ ﷻ مِثْلُ مِثَّةِ رَحْمَةٍ» ٥١٦
 «إِنَّ اللَّهَ ﷻ مَلَائِكَةٌ تَرْعُدُ فَرَائِضُهُمْ» ٣٨٥
 «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَلَائِكَةٌ حَوْلَ الْعَرْشِ» ٣٨٦
 «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا» ١٩٧
 «إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصْلَهُمْ وَيَقْطَعُونِي» ١٣٦
 «إِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالُ وَارَثِهِ مَا آخَرَ» ٥١
 «إِنَّ مِثْلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى» ٢١
 «إِنَّ مِثْلَ هَذَا وَمِثْلَ أُمَّتِهِ كَمِثْلِ قَوْمٍ» ٢٤٤
 «إِنَّ مِنْ أَسْرَرِ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ» ١٠٢
 «إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ» ١٠٤
 «أَنْ نَّبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ شَكََا إِلَى رَبِّهِ ﷻ الْجُوعَ» ٤٤٢
 «إِنَّا حَامِلُونَ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ» ٢١١
 «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدْقُ فِي أَعْيُنِكُمْ» ٣٢١

«إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَرْفَعُونَ عَمَلَ الْعَبْدِ فَيُكْثِرُونَهُ» ٤٥٦
 «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يَغْيِرُوهُ» ١٥٣
 «أَنَّ النَّبِيَّ ﷻ حَجَّ عَلَى رَاحِلَةٍ» ٥٩
 «أَنَّ النَّبِيَّ ﷻ قَامَ حَتَّى تَفْطَرَتْ قَدَمَاهُ» ٣٤٤
 «أَنَّ النَّبِيَّ ﷻ كَانَ يَتَنَفَسُ فِي الْإِنَاءِ» ٩٢
 «إِنَّ النَّبِيَّ ﷻ كَانَ يَرْقِي الرِّقِيَةَ بَعْدَ نَزُولِ الْمَرَضِ» ٤٢٠
 «إِنَّ بُدْلَاءَ أُمَّتِي لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِعِبَادَةٍ» ٢٥٤
 «إِنَّ حَسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ» ١٢٩
 «إِنَّ حَيَاتِهَا [النَّارِ] أَمْثَالُ أَعْنَاقِ الْبَخْتِ» ٥١٢
 «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ» ٢١٣
 «إِنَّ رَبِّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ» ٥١٧
 «إِنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ!» ٥١٧
 «إِنَّ رَحْمَتِي غَلِبَتْ غَضَبِي» ٥١٦
 «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷻ أَتَاهُ فِيمَا يَرَى النَّائِمَ مَلَكًا» ٢٤٤
 «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷻ اقْتَصَصَ مِنْ نَفْسِهِ» ١٧١
 «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷻ قَدْ تَدَاوَى وَأَمَرَ بِالتَّدَاوِي» ٤١٩
 «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷻ لَمَّا سَافَرَ تَزَوَّدَ وَاسْتَأْجَرَ دَلِيلًا» ٤١٧
 «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي» ٢٥٢
 «أَنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَخْرُجُ رَشْحًا» ٤٨٩
 «أَنَّ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ نَجَارًا» ١٠٤
 «إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادَ» ١٤٩
 «إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ» ٢١٩
 «إِنَّ صَاحِبَ الْغَيْبَةِ لَا يَغْفِرُ لَهُ حَتَّى» ٢١٣
 «إِنَّ صَاحِبَكُمْ لَيْسَ هُنَاكَ» ٤٨٢

«إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين»

٣١٤

«أهل القرآن هم أهل الله» ٦٢
«أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق للجنة أهلاً» ٣٨١

«أوثق عرى الإيمان، أن تحب في الله» ١٢٢
«أَوْحِيَّ إِلَيَّ أَنْكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ» ٥٠٦
«أوصيكم بتقوى الله» ٤٩٢
«أول رباً أضع . . . رب العباس» ١١٤
«أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة بدر» ٥١٤

«ألا أحدثكم بسورة مَلَأَ عِظْمُهَا» ٤٤

«ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا» ٢٣١

«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: قول الزور» ٣١٧

«ألا مُشْمَرٌ لَهَا؟ هي ورب الكعبة» ٥١٤

«ألا وقول الزور، وشهادة الزور» ٣١٧

«أي الذنب أكبر» ٣١٦

«أي الصدقة أفضل؟» ٥٣

«أي الناس خير؟» ١٣٧

«أي داء أدوأ من البخل؟» ٢٥٧

«أي صلاة الليل أفضل؟» ٧٩

«إياك ومجالسة الأغنياء» ٣٩٥

«إياكم والظن فإن الظن أكذب» ١٢٦

«إياكم والغيبة» ٢١٣

«إياكم والفحش» ٢١٠

«أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله» ٥١

«أيما وال مات غاشاً لرعيته» ١٧٠

«أيها الناس، أجمِلُوا فِي الطَّلَبِ» ٢٥٠

«الأجرة على تعليم القرآن ١٠٨

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» ٤٦٦

«إنما الأعمال بالنيات» ٢٦٩

«إنما الأعمال بالنية» ٤٥٠

«إنما الصبر عند الصدمة الأولى» ٣٣٩

«إنما العلم بالتعلم» ٢٣٠

«إنما تطفأ النار بالماء» ٢٢٩

«إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب» ٢٤٣

«إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به» ٢٤٤

«إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا» ٢٤٤

أنه شكاً إلى رسول الله وجعاً يجده في جسده
١٣٤

أنه قال يوماً وذكر الجنة ٥١٤

أنه قام ليلة بأية يرددها ﴿إِنْ تَعَذَّبْهُمْ﴾ ٦٥

«إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» ١٨٨

«إنه لَيُعَانِ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ» ٣١٤

«إنه لن يُدْخَلَ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ» ٣٧٣

«إنه لا يدخل الجنة عجوز» ٢١١

«إنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته» ٢٥٢

«إنه يحب الله ورسوله» ٤٣٧

أنها آخر ساعة بعد العصر ٤٣

«إنها ألَهَنِي أَنْفًا عَنْ صَلَاتِي» ٣٩

«إنها فَضِّلَتْ عَلَيْهَا ب (٩٩) جزءاً» ٥١١

«إنها كانت تغشانا في أيام خديجة» ١٢٩

أنها ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تُقضى الصلاة ٤٣

«إني أتوب إلى الله في اليوم مئة مرة» ٣١٣

«إني أحبك فقل: اللَّهُمَّ اعْنِنِي عَلَى ذِكْرِكَ

وشكرك وحسن عبادتك» ٣٤٤

«إني أُوَعِّكَ كَمَا يُوعِّكَ رَجُلَانِ مِنْكُمْ» ٤٢٠

«إني قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد» ٢٤١

«الإسلام دينٌ أَرْضَيْنَهُ لِنَفْسِي» ٢٥٣

الأسودين: الماء والتمر ٤٠٥

«الإشراك بالله وعقوق الوالدين» ٣١٧

«الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأُمَم» ٣٣٨

ب

«بأسَمِكَ ربي وَصَغُتُ جنبي وبِكَ أرفعه» ٧٧

«بَرَدَ العيش بعد الموت» ٤٣٤

«بركة الطعام الوضوء قبله وبعده» ٩١

«بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء» ٧١

«بعزتك وجلالك، لا أبرح أغوي بني آدم ما

دامت الأرواح» ٣٧٣

«بقي كلها إلا كتفها» ٥٢

«بل سيدكم بشر بن البراء» ٢٥٧

«بينما رجل يَتَبَخَّرُ في بُزْدَيْنِ» ٢٩١

«البذاذة من الإيمان» ٣٦

«البخل وسوء الخلق» ٢٥٦

«البطاقة مع هذه السجلات» ٥١٩

ت

«تتجافى جنوبهم عن المضاجع» ٧٥

«تجافوا عن ذنوب السَّخِيِّ» ٢٥٣

تداوى ﷺ وأمر بالتداوي ٤١٩

تزوجت فاطمة وما لي ولها فراش ٤٠٨

تزوج واستأجر دليلاً إلى المدينة ٤١٧

«تصدقوا فإن الصدقة فِكَائِكُمْ من النار» ٥٢

«تصل من قطعك» ٢٣٢

«تصلي أربع ركعات، تقرأ في كل ركعة» ٤٥

«تعطي من حرمك» ٢٣٢

«تعفو عن ظلمك» ٢٣٢

تعلموا العلم، فإن تعلمه الله خشية ٢٢

«تعوذوا بالله من جهد البلاء» ٣٦٥

«تغدو خماصاً وتروح بطاناً» ٤١٢، ١٠٥

«تَفَكَّرُوا في آلاء الله،» ٤٧٤، ٤٧٧

«تقوى الله وحسن الخلق» ١٢١

«تكره لهم ما تكره لنفسك» ١٣١

«تلك عاجل بُشْرَى المؤمن» ٢٧٦

توضأ النبي ﷺ من مَزَادَة مُشْرَكَة ٣٠٣

توضأ عمر من جَرَّة نصرانية ٣٥، ١١٥

توفي رسول الله ﷺ مُسْتَنْدِئاً إلى صدر عائشة

٤٩٣

توفي رسول الله ﷺ ولم يضع لينة على لينة

٤٠٧

«التأني من الله تعالى» ١٨٦

«التائب من الذنب كمن لا ذنب له» ٣١٩

«التحدث بالنعم: شكر وتركها كفر» ٣٤٥

«التحدث بنعمة الله . . .» ٣٤٥

«التدبير نصف العيش» ٢٥١

«التَّوَلَّى يوم الزحف» ٣١٦

ث

«ثَكِلْتُكَ أُمُّكَ يا معاذ» ٢٠٧

«ثلاث منجيات: خشية الله تعالى» ٢٥١

«ثلاث مُهْلِكَات: شَحْ مُطَاع» ٢٥١، ٢٥٧،

٢٩١

«ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن . . .» ٢٣٤

«ثلاث لطعامه، وثلاث لشرايه» ٢٠٤

ج

«جزاكم عن نبيكم خيراً» ٤٩٢

«الحاسد عدو نعمتي متسخط لقضائي» ٢٣٣
 «الحسد والبغضاء» ٢٣٢
 «الحلال بَيِّنٌ، والحرام بين» ١١٠
 «الحلم بالتحلم» ٢٣٠
 «الحلم والأناة» ٢٣٠
 «الحليم العليم من الرجال والنساء» ٤٨٩
 «الحكمة ضالة المؤمن» ٢٩
 «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا» ٧٠
 «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا» ٧٨

غ

«خدمته عشر سنين، فما قال لي أف» ١٨٠
 «خذوا بِحَظِّكُمْ من العزلة» ١٣٧
 «خزاة رسول الله ﷺ» ٤٠٨
 «خشية الله في السر والعلانية» ٢٥١
 «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن» ٢٥٦
 «خير الأمور أوسطها» ٢٩١
 «خير الناس رجل يجاهد بنفسه وماله» ١٣٧
 «خير الناس قرني» ٣٠١
 «خير الناس مَنْ طال عمره» ٤٢٨
 «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» ٦٢

ر - ز

«دَبَّ إِلَيْكُمْ داءُ الأمم قبلكم:» ٢٣٢
 «دخل على رجل وهو يموت» ٤٨٩
 «دخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير» ٤٠٧
 «دع ما يريك إلى ما لا يريك» ١١٢
 «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب» ١٢٨
 «دينار أنفقته في سبيل الله» ٩٦

«جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما» ٥١٥
 «جُهْدٌ من مُقِلٍّ إلى فقير في السر» ٣٩٨
 «الجار المشرك» ١٣٥
 «الجار المسلم» ١٣٥
 «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة» ٦٥
 «الجبارون» ٢٨٤
 «الجنة حرام على كل فاحش» ٢١٠
 «الجنة دار الأسخياء» ٢٥٤
 «الجود في رمضان» ٥٤

ح

«حاسبوا أَنْفُسَكُمْ قبل أن تُحاسَبوا» ٤٦٦، ٤٦٧
 «حب الدنيا رأس كل خطيئة» ٣٩٢
 «حبب إلى رسول الله ﷺ النساء» ٤٠٨
 «حبس لأهله قوت سنتهم» ٤١٧
 «حبيب جاء على فاقة» ٤٨١
 «حج على راحلة وتحتة رجل رث» ٥٩
 «حدثوا الناس بما يعرفون» ٣١
 «حديث سيد الاستغفار» ٧١
 «حديث صلاة التيسيع» ٤٥
 «حسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه» ٢٠٤
 «حسبنا الله ونعم الوكيل» ٥٠٨
 «حق الجوار» ١٣٥
 «حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة» ٢٩
 «حق المسلم على المسلم خمس» ١٣١
 «حق المسلم على المسلم ست» ١٣١
 «حققت مَحَبَّتِي للمتحابين في» ١٢٢
 «حملة العرش من تسيل عينيه» ٣٨٥
 «حياتك قبل موتك» ٤٨٦
 «حياتها أمثال أعناق البخت» ٥١٢

«ديوان لا يترك الله منه شيئاً» ٣١٥

«ديوان لا يعبأ الله به شيئاً» ٣١٥

«ديوان لا يغفره الله» ٣١٥

الدعاء للظالم بطول البقاء ١١٩

«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» ٢٤٠

الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها ٢٤٣

«الدنيا ملعونة ملعون ما فيها» ٢٤٠

«الدواوين عند الله ثلاثة:» ٣١٥

«يُكْرَهُ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» ٢١٣

ر - ز

رأيت رب العزة في المنام ٦٣

رُبْ أَكَلَةٌ مَنَعَتْ أَكَلَاتِ ٤٧٣

«رجل آتاه الله ﷻ القرآن» ٢٣٥

«رجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا» ٤٥١

«رجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه» ٢٣٥

«رجل آتاه الله مالا وعِلْماً» ٤٥١

«رجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً» ٤٥١

«رجل في شَيْعٍ من الشَّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ» ١٣٧

«رجل يجاهد بنفسه وماله» ١٣٧

«رجلان تحاببا في الله اجتمعا على» ١٢١

«ردوا السائل ولو بظُلْفٍ مُخْرَقٍ» ٣٩٩

«رضيت بالله رَبّاً، وبالإسلام ديناً» ٧١

رفعنا عن بطوننا عن حجر حجر ٢٤١

«رهبانية أمتي الرباط» ١٤٩

روح المؤمن تخرج رشحاً ٤٨٩

«الرجل يطيل السفر أشعث أغبر» ١١١

الرجل يعمل العمل فيسره ٢٧٥

«الرحم معلقة بالعرش، تقول» ١٣٥

«الرياء والشهوة الخفية» ٢٦١

«الرياء . يقول الله لهم يوم القيامة» ٢٦٨

«زوجك الذي في عينيه بياض» ٢١١

«زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة» ٥٠٠

س

سأل رجل رسول الله ﷺ فأعطاه غنماً ٢٥٤

سألت رسول الله ﷺ أي صلاة الليل أفضل؟

٧٩

سئل رسول الله ﷺ أي الصدقة أفضل؟ ٥٣

سابق ﷺ عائشة ٩٩

ساعة الجمعة آخر ساعة بعد العصر ٤٣

ساعة الجمعة هي ما بين أن يجلس الإمام ٤٣

ساعة الجمعة هي ما بين أن يفرغ الإمام ٤٣

«سبحان الله! لا تُطِيقه» ٣٦٥

«سبحان الملك القدوس» ٧٦

«سبعة يُظْلَهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ» ٢٢١

«سدّدوا وقاربوا وأبشروا» ٣٧٣

سرد أبو طلحة الصوم بعد رسول الله ﷺ

أربعين عاماً ٥٧

«سَلِ اللهُ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»

٣٦٥

«سلوا الله من فضله» ٦٩

«سوء القضاء» ٣٦٥

«سورة الكهف» ٤٤

«السحر» ٣١٦

السعيد من وعظ بغيره ٤٨٣

«السموات السبع في الكرسي كحلقة» ٤٣٠

«السياحة» ١٤٩

ش

- «شبابك قبل هرمك» ٤٨٦
«شر الناس ذو الوجهين» ٢١٩
«شماتة الأعداء» ٣٦٥
«شهادة الزور» ٣١٧
«الشح والإيمان» ٢٥٦
«الشرك بالله» ٣١٦
«الشن البالي» ٣٨٥

ص - ض

- «صاحب الغيبة لا يغفر له» ٢١٣
«صبر على الطاعة» ٣٣٧
«صبر على المعصية» ٣٣٧
«صحتك قبل سقمك» ٤٨٦
«صدقة السر تطفئ غضب الرب» ٥٢
«صلاة التهجد» ٧٩
«صلاة التسبيح» ٤٥
«صلوا من الليل، صلوا أربعاً» ٨٥
«صلوا من الليل ولو أربعاً» ٨٥
«صلوا ولو ركعتين» ٨٥
«الصبر ثلاثة: صبر على المصيبة» ٣٣٧
«الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس» ٣٣٤
«الصحّة والفراغ» ٤٨٦، ٣٥١
«الصمتُ حُكْمٌ وقليلُ فاعِلُهُ» ٢٠٨
«الصوم لي وأنا أجزي به» ٣٣٣، ٥٤
«ضع يدك على الذي تألم من جسدك» ١٣٤

ط - ظ

- «طاشت السجلات وثقلت البطاقة» ٥١٩
«طلب الحلال جهاد» ١٠٤

- «طلب العلم فريضة على كل مسلم» ٢٢
«طوبى لمن هُدي إلى الإسلام» ٣٩٦
«الظلم ثلاثة...» ٣١٦

ع - غ

- «عبدى وأمتى» ٢٢٢
«عجلت منيته» ٢٦٤
«عذب قوم بالريح» ٣٨٧
«عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً...» ٢٤١
«عِزَّتِي وجلالي ما زَوَيْتُ الدنيا عنك لهوانك علي» ٤٦٤
«عزتي وجلالي، لا أجمع على عبدي خوفين» ٣٧٨
«عصب بطنه بعصاة على حجر» ٢٤١
«عقاربها كالغزال الموكفة» ٥١٢
«عقوق الوالدين» ٣١٧
«على رَغَمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ» ٥١٨
«على قدر أعمالهم» ٥٠٨
«علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب» ٥١٧
«عليك باليأس مما في أيدي الناس» ٣٣١
«عليك بذات الدين» ٩٧
«عليكم بأصطناع المعروف» ٢٥٤
«عليكم بالصدق» ٤٦٠
«عليكم بقيام الليل» ٨٣
«عمل لما بعد الموت» ٤٦٦
«عهد إلينا رسول الله ﷺ أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب» ٤٩٨

- «عين باتت تحرس في سبيل الله» ٣٧٨
«عين بكت من خشية الله» ٣٧٨

ق

«قال الله تعالى: إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَصِيبَةً» ٣٣٩

«قال الله ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» ٣٧١

«قال الله تعالى: وَالصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» ٣٣٣

«قال الله ﷻ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفِينَ» ٣٧٨

«قال جبريل: قال الله ﷻ الإسلام دين» ٢٥٣

«قالت النار: أَوْتَرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ» ٢٨٤

«قام النبي ﷺ حتى تَفَطَّرَتْ قَدَمَاهُ» ٣٤٤

«قام إلى التَّهَجُّدِ قَرَأَ الْعَشْرَ آيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ٧٩

قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَيْنِ ٤٠٦

«قُتِلَ النَّفْسُ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ» ٣١٦

«قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا» ٢٥٠

«قَدْ دَنَا الْأَجَلَ، وَالْمُنْقَلَبُ إِلَى اللَّهِ» ٤٩٢

«قَذَفَ الْمُحْصَنَاتُ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ» ٣١٦

«قَصَّروا الْأَمَلَ وَأَتْبَتُوا آجَالَكُمْ» ٤٨٤

«قَصَّمَ ظَهْرِي رَجُلَانِ عَالِمٍ مَتَهَتَكَ ٣١

«قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ» ٢٢١

«قل: وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» ٢٢٢

«قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَإِذَا عَامَةٌ مِنْ يَدْخُلُهَا

الْفُقَرَاءُ» ٣٩٤

«قول الزور» ٣١٧

«قولوا: إِنْ شَاءَ اللَّهُ» ٥١٤

«قولوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» ٥٠٨

«قولوا هُكْذَا» ٣٤٥

«القرآن غني لا فقر بعده» ٣٦٠

«عينان لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ أَبَدًا» ٣٧٨

«العاجزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا» ٤٦٦، ٣٧٠

«العَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالتَّانِي مِنَ اللَّهِ» ١٨٦

«العدل في الرضا والغضب» ٢٥١

«العرق يأخذ الناس» على قدر أعمالهم» ٥٠٨

«العلم بالتعلم» ٢٣٠

«غناك قبل فقرك» ٤٨٦

«غلامي وجاريتي» ٢٢٢

«غير النبي ﷺ أسماء جماعة» ١٠١

«الغنى غنى النفس» ٢٦٣

«الغيبة أشد من الزنى» ٢١٣

ف

«فَإِنْ صَاحِبَكُمْ لَيْسَ هُنَاكَ» ٤٨٢

«فَإِنْ مَالُهُ مَا قَدَّمَ وَمَالُ وَارَثِهِ مَا آخَرَ» ٥١

«فَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ» ٤٨٦

«فَرَّ مِنَ النَّاسِ كَمَا تَفَرُّ مِنَ الْأَسَدِ» ١٣٧

«فَضْلُ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ» ٢٠

«فضل العالم على العابد كفضلي» ١٩

«فضل قراءة السر على قراءة العلانية» ٦٥

«فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر»

٨٦

«فليظن ظان ما شاء» ٣٧١

«فهل تضامون في القمر ليلة البدر» ٥١٦

«فهما في الأجر سواء» ٤٥١

«فهما في الوزر سواء» ٤٥١

«في ثيابي هذه إن شئتم» ٤٩٢

«الفقيه الزاهد في الدنيا ٢٥

كان الشبائل الشريفة

- كان أجود بالخير من الريح المرسلة ٢٥٤
 كان أحب الطعام إليه اللحم ١٧٩
 كان أحلم الناس ١٧٩
 كان إذا أراد أن ينام وهو جُبْتُبُ تَوْضاً ٧٦
 كان إذا أراد غزوة ورى بغيرها ٤٦٠
 كان إذا أمسى قال: «أمسينا» ٧٠
 كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا» ٧٨
 كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ٧٧
 كان إذا دخل العشر الأخير شد مئزره ٥٥
 كان أزهى اللون ولم يكن بالآدم ١٨٠
 كان أسخى الناس ١٧٩
 كان أشجع الناس ١٨٠
 كان أشد حياء من العذراء في خدرها ١٧٩
 كان أصدق الناس لهجة ١٨٠
 كان بين يدي رسول الله ﷺ زكوة أو غلبة ٤٩١
 كان خلقه القرآن ١٧٨
 كان رجلاً الشعر ١٨٠
 كان طويل السكوت ١٨٠
 كان عمله ديمة ٨٢
 كان من خلقه أنه يبدأ بالسلام من لقيه ١٨٠
 كان واسع الجبهة، أَرَجَ الحواجب ١٨٠
 كان لا يأكل الصدقة ١٧٩
 كان لا يأكل متكئاً ١٧٩
 كان لا ينام حتى يقرأ (السجدة) و(تبارك) ٧٥
 كان يأكل ما حضر ١٧٩

«القبر روضة من رياض الجنة» ٥٠٤

«القصد في الغنى والفقر» ٢٥١

«القناعة مال لا ينفد» ٢٥٠

ك

- «كان داود يصوم يوماً ويفطر يوماً» ٥٦
 كان عمر يصلي من الليل ما شاء الله ٨٥
 «كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه» ٨٤
 كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ ٢٨٧
 كره النبي من الأسماء أفلح ونافع ويسار ١٠١
 «كفارة من أعتبت أن تستغفر له» ٢١٨
 «كُفَّ عليك هذا» ٢٠٧
 «كل أمتي مُعافى إلا المجاهرين» ٣٢٢
 «كل ما يصاب به المسلم» ٣٦٣
 «كُنْ في الدنيا كأنك غريب» ٤٨٣
 كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ، نلت السقف ٤٠٧
 كنا عند النبي ﷺ يوماً فسمعنا وجبة ٥١٠
 «كونوا عباد الله إخواناً» ٢٣٣
 كوى أسعد بن زرارة ٤٢٠
 «كيف أنعم وصاحب الصور قد حنى» ٥٠٨
 «كيف تجدك؟» ٤٨٩
 «كيف كان ذكر صاحبكم للموت؟» ٤٨٢
 «الكافر يأكل في سبعة أمعاء» ٢٠٤
 «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» ٣١٧
 «الكبير بطر الحق وغمط الناس» ٢٧٢، ٢٨٥
 «الكيس من دان نفسه» ٣٧٠، ٤٦٦

«لَذَّةُ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ» ٤٣٤
 «لَسْتُ مِمَّنْ يَصْنَعُهُ خِيَلَاءُ» ٢٨٣
 «لَقَدْ خَلَفْتُمْ بِالْمَدِينَةِ رَجَالًا» ٤٥٠
 لقد رأيت رسول الله يظل اليوم يلتوي ما يجد
 دَقْلًا ٣٩٥
 «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ٤٨٩
 «لكل واحد منهم زوجتان، يرى مُخً» ٥١٥
 «للسائل حق وإن جاء على فَرَسٍ» ٣٩٩
 «للمسلم على المسلم ست» ١٣١
 «لله أَزَحَمُ بعباده مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ بولدها» ٥١٨
 «لله أَشَدُّ فَرَحًا بتوبة عبده المؤمن» ٣١٣
 لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام تباعاً ١٧٩
 «لم يصم ولم يفطر» ٥٧
 لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله ٢٨٧
 لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ، جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ الْكَرْبُ ٤٩١
 «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب» ٥١٦
 «لما كان ليلة أُسري بي، رأيت جبريل» ٣٨٥
 «لن يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» ٢٩٣
 «لن يغضب الله على من كان فيه مخافة»
 ٣٧٨
 «له أجران: أجر السر، وأجر العلانية» ٢٧٥
 «لو أنكم تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ» ٤١٢
 «لو جاز لأحد أن يسجد لأحد» ١٠٢
 «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح» ٢٤٠
 «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم» ٣٧٣
 لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم ٢٢
 «لي عملي ولكم عملكم» ١٧٣
 «ليس الشديد بالصرعة» ٢٢٤
 «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان» ٢١٠
 «ليس الواصل بالمكافئ» ١٣٥

كان يأكل مما يليه ١٧٩
 كان يبيع نخل بني التَّضِيرِ ٤١٧
 كان يتنفس في شربه ثلاثاً ٩٢
 كان يجلس حيث ينتهي به المجلس ١٨٠
 كان يجيب دعوة المملوك ١٧٩
 كان يحب الطَّيِّبَ ١٧٩
 كان يحبس لأهله قوت سنتهم ٤١٧
 كان يخدم في مهنة أهله ١٧٩
 كان يخصف النعل ١٧٩
 كان يداعب نساء ﷺ ٩٩
 كان يرقى الرقية بعد نزول المرض ٤٢٠
 كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة ٨٠
 كان يصلي ولجوفه أزيز كأزيز الرجل ٣٨٧
 كان يَغْصِبُ عَلَى بطنه الحجر ١٧٩
 كان يعفو مع القدرة ١٨٠
 كان يعود المرضى ١٧٩
 كان يقبل الهدية ويأكلها ١٧٩
 كان يكره الريح الخبيثة ١٧٩
 كان يكرم أهل الفضل ١٧٩
 كان يلبس ما وجد ١٧٩
 كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت
 رسول الله نار ٤٠٥
 كان يمزح ولا يقول إلا حقاً ٢١٠

ل

«لَأَن يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا» ٢١
 «لئن كنت كما قلت» ١٣٦
 «لَبَنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبَنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ» ٥١٤
 «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» ١٥٣
 «لَتُؤَدَّنَ الْحَقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ٥١٣

«ليس بكاذبٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا»

٤٦٠

«ليس شيءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الدُّعَاءِ» ٦٩

«ليس عَلَى أَيْكَ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ» ٤٩١

«ليس لِعَبْدٍ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ» ٢٥٠

«لَيْسَ لَطَنُ اللَّهِ شَرَّكُمْ عَلَى خِيَارِكُمْ» ١٥٣

«لَيْنَا لِمَنْ تَعْلَمُونَ» ٢٣٠

م

«مَا أَجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ» ٤٩٠

«مَا أَزْدَادُ عَبْدٍ مِنَ السُّلْطَانِ قَرَبًا» ١١٨

«مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟» ٤٢١

«مَا أَعْطَيْ أَحَدَ عَطَاءٍ خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»

٣٣٣

«مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطْ خَيْرًا» ١٠٤

«مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمِثْلِ» ٢٣٩

«مَا النِّجَاجَةُ؟» ١٣٧

«مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عَقُولُهُمْ»

٣١

«مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تَنْتَهَكَ حُرْمَاتِ اللَّهِ» ١٧٩

«مَا أَنْتُمْ يَوْمُئِذٍ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ»

٣٧٤

«مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً» ٣٤١

«مَا بَقِيَ مِنْهَا؟» ٥٢

«مَا تَرَكْتَ فِي النَّاسِ بَعْدِي فَتْنَةً» ٢٠٥

«مَا تَقَرَّبَ الْمُتَقَرَّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ آدَاءِ» ٣٠٥

«مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي» ٣٠٥

«مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ» ٢٣١

«مَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ

وَلَا سَائِلٍ، فَخُذْهُ» ٣٩٩

«مَا جُبِلَ وَلِيُّ اللَّهِ إِلَّا عَلَى السَّخَاءِ» ٢٥٤

«مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا فَتَفَرَّقُوا» ٦٨

«مَا حَقَّ أَمْرِي مُسْلِمًا لَهْ شَيْءٌ يَوْصِي فِيهِ» ٧٧

«مَا خَيْرٌ بَيْنَ شَيْئَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا» ١٧٩

«مَا ذُبَّانٌ جَانِعَانِ أُرْسَلَا فِي غَنَمٍ» ٢٤٦

«مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَطْ مُسْتَجْمَعًا ضَاحِكًا

٣٨٧

«مَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا» ٢٣١

«مَا سَبَقَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِكَثْرَةِ صَوْمٍ وَلَا صَلَاةٍ» ٣٠

«مَا سَتَرَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا» ٢٧٥

«مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ مِنْذُ قَدَمِ الْمَدِينَةِ» ٣٩٤

«مَا ضَرَبَ أَحَدًا بِيَدِهِ قَطْ» ١٧٩

«مَا ضَلَّ قَوْمٌ قَطْ بَعْدَ هُدًى» ٣٠١

«مَا عَالَ مَنْ أَقْتَصَدَ» ٢٥١

«مَا قَضَى اللَّهُ لِمُؤْمِنٍ مِنْ قِضَاءٍ» ٤٤٤

«مَا كُنَّا نَشَاءُ أَنْ نَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُصَلِّيًا مِنْ

الليل ٨٥

«مَا لَعَنَ امْرَأَةٌ وَلَا خَادِمًا قَطْ» ١٧٩

«مَا لَكَ وَلِهَا؟ دَعَهَا مَعَهَا حَذَاؤُهَا» ١٤٣

«مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ الدُّنْيَا» ٢٤٣

«مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ» ٩١

«مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ» ٥٦،

٢٠٤

«مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا وَلَهُ ضَغْطَةٌ» ٥٠٦

«مَا مِنْ أَحَدٍ يَسْلُمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ» ٦١

«مَا مِنْ أَمْرٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ» ٣٧

«مَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ تَعْرِفُ لَهُمْ صَلَاةٌ» ٨٥

«مَا مِنْ رَجُلٍ يَذْنِبُ ذَنْبًا، فَيَتَوَضَّأُ» ٣٢٨

«مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ لَهُ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ» ٤٥٢

«مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلَ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ» ١٢١

«ما من عبد قال: لا إله إلا الله» ٥١٨
«ما من مسلمين التقيا فأخذ أحدهما بيد»
١٣٣

«ما من مصيبة تصيب المسلم» ٣٣٨
«ما من وإل يلي شيئاً من أمور الناس» ١٧٢
«ما نَقَصَتْ صدقةٌ من مالٍ» ٢٣١، ٥٢
«ما وقى الرجل به عرضه فهو صدقة» ٢٤٨
«ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟» ٣٨٧
«ما يبيحك؟ قال: ما جفت لي عين» ٣٨٥
«ما يُخْرِجُ أحدُ شيئاً من الصدقة» ٥٢
«ما يزال الرجل يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصدقَ»
٤٦٠

«ما يزال عبدي يتَقَرَّبُ إليَّ بالنوافل» ٤٣٥
«ما يصيب المسلم من وَصَبٍ ولا نَصَبٍ»
٣٣٨

«ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه» ٤٠٠
«مثل القائم على حدود الله» ١٥٢
«مثل القلب كمثّل ريشة بأرض فلاة» ١٨٨
«مَثُلُ هذه الأمة مثل أربعة نفر:» ٤٥١
«مجالس الذكر» ٢٦

محمد رسول الله، عبدي المختار ١٨٠
«مَذْخُصَةٌ مَزَلَّةٌ، عليها خطاطيف» ٥١٠
«مرحباً، حَيَّاكُمُ الله بالسلام» ٤٩١
«مَصُّوا الماءَ مَصّاً ولا تَعْبُوهُ عَبّاً» ٩٢
«من أتى أبواب السلاطينِ أَفْتَتَنَ» ١١٨
«من أحب آخرته، أضُرَّ بدنيها» ٢٤٠
«من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً» ٢٨٦
«من أحب دنياه، أضُرَّ بآخرته» ٢٤٠
«من أُذِلَّ عنده مؤمن وهو يقدر» ٢١٤

«مَنْ أَرْتَكَبَ شيئاً من هذه القاذورات» ٢٨٠
«مَنْ أَسْتَيْقِظَ من الليل وأيقظ امرأته» ٨٥
«من أصبح آمناً في سِرْبِهِ مُعَافًى في بدنه»
٣٦٠

«من أصبح وَهْمُهُ الدنيا شتت الله عليه» ٤٠٣
«مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الحياء فلا غِيبَةَ» ٢١٧
«من الناس من يمر على الصراط «كالبرق»
٣١٨

«من تصدق بَعْدَلِ ثمرة من كسب طيب» ٥١
«من تعلم العلم ليباهي به العلماء» ٣٢
«مَنْ تَعَلَّمَ علماً مما يُبْتَغَى به وجه الله» ٣٢
«من جاءه الموت وهو يطلب العلم» ٢٠
«من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف
ولا مسألة، فليقبله» ٣٩٩

«من جَرَّ ثوبه خِيَلَاءَ لم يَنْظُرِ الله إليه» ٢٨٤
«مَنْ حَسَنَ إسلام المرء تركه» ٢٠٨
«مِنْ حَمَلَةِ العرش من تسيل عينيه» ٣٨٥
«مَنْ حَمَى مؤمناً من منافق يعيبه» ٢١٤
«مَنْ خَافَ أدْلَجَ» ٣٧٥

«من ختم القرآن فله دعوة مستجابة» ٦٤
«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده» ١٥٣
«من سأل عني، أو سره أن ينظر إليّ» ٢٤٣
«مَنْ سَأَلَ وله ما يُغْنِيهِ جاءت مسألته» ٤٠٠
«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً» ٢٠
«من سَنَّ في الإسلام سنة سيئة» ٣٢٢
«من سيدكم؟» ٢٥٧

«من شرب في إناء ذهب وفضة» ٣٤٩
«من صلى الفجر في جماعة ثم قعد» ٧٣
«من صلى بعد المغرب ست ركعات» ٧٥

«من همَّ بحسنة فلم يعملها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ»
٤٥١، ٥١٧

«من وجد شيئاً من ذلك، فليلصق» ٢٢٩
«مَنْ وصلني وصله الله» ١٣٥

«من لا يسأل الله يغضب عليه» ٦٩

«من يأجوج ومأجوج» ٩٩٩، ٣٧٣

«مَنْ يُحَرِّمِ الرِّفْقَ يُحَرِّمِ الْخَيْرَ» ٢٣٢

«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُصِيبْ مِنْهُ» ٣٣٧

«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» ١٩

«من يضمن لي ما بين لَحْيَيْهِ» ٢٠٧

«من يعص الله ورسوله» ٢٢٢

«منعني وِطْأَتُهُ صَلَاتِي اللَّيْلَةَ» ٧٧

منهم من يبقى في النار «سبعة آلاف سنة» ٣١

«مهلاً، رحمكم الله، وجزاكم عن نبيكم
خيراً» ٤٩٢

«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر» ١٣٨

«المؤمن يأكل في معي واحد» ٢٠٤

«المخلصون على خطر عظيم» ٣٠٩

«المرء على دين خليله» ١٢٣، ١٩٢، ٢٠٨

«المرء مع من أحب» ٤٢١

«المسجد الحرام، ومسجدي هذا» ٦١

«المُسِيرُ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِيرِ بِالصَّدَقَةِ» ٦٥

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه» ١٢٧

ن

«ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد» ٥١١

«نصف الليل أو جوف الليل» ٧٩

«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس» ٣٥١،

٤٨٦

نهى النبي ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً ١٠٠

«من صلى ركعتين لا يُحَدِّثُ فِيهِمَا» ٣٧

«من صَلَّى عَلَيَّ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ» ٤٣

«من صَمَتَ نَجَا» ٢٢٢

«مَنْ طَالَ عَمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ» ٣٥٢، ٤٢٨

من عجلت عقوبته في الدنيا ٣٠٩

«من عمل حسنة فله عشر أمثالها وَأَزِيدُ»

٥١٧

«من عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي» ٢٦٨

«من غشنا ليس منا» ١٠٧

«مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا» ٢٧٧،

٤٥٠

«مَنْ قَرَأَ الْخَمْسَ الْأَوَاخِرَ مِنْهَا» ٤٤

«من قرأ القرآن فهو غني» ٣٦٠

مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ ٤٤

«من قرأ سورة الواقعة كل ليلة» ٧٦

«مَنْ قَرَأَهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُفِرَ لَهُ» ٤٤

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً»

١٩٩

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم

ضيفه» ١٩٩

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤْذِ

جاره» ١٩٩

«من كانت عنده مظلمة لأخيه» ٢١٧

«مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ» ٤٨١

«من كظم غيظاً وهو قادر على» ٢٢٩

«مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ» ٢٠٧

مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ٧٦

«من لزم السلطان افتتن» ١١٨

«من لم يَدِّغْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ» ٥٥

«من لم يشكر الناس لم يشكر الله» ٥٠

«لا يَقُلْ أحدكم: ما شاء الله وشئت» ٢٢١
 «لا يكتون» ٤١٢، ٤١٩، ٤٢٠
 «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»
 ٣٧١، ٣٨٠، ٤٨٩
 «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه» ٤٠٠

ي

«يا آدم! قم فأبعث بعث النار» ٣٧٣
 «يا أبتاه! أجاب رباً دَعَاه» ٤٩٣
 «يا ابن الخطاب والله ما تعطينا الجزل» ٢٢٦
 «يا أحمد! إن الله أرسلني إليك يسألك» ٤٩٢
 «يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على
 رسول الله» ٤٩٣
 «يا أهل البيت قوموا لصلاتكم» ٨٥
 «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»
 ٤٨، ١١٠
 «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم» ٣١٣
 «يا ذا الأذنين» ٢١١
 «يا رب، أية ساعة أقوم لك؟» ٧٩
 «يا رسول الله الرجل يعمل العمل فيسره» ٢٧٥
 «يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني»
 ١٣٦
 «يا رسول الله أي الناس خير؟» ١٣٧
 «يا رسول الله حدثنا عن الجنة» ٥١٣
 «يا رسول الله ما النجاة؟» ١٣٧
 «يا رسول الله هل نرى ربنا؟» ٥١٦
 «يا عائشة: ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟»
 ٣٨٧
 «يا عباس، ويا صفية، ويا فاطمة» ١٧٣
 «يا عثمان! إنني لم أؤمر بالرهانية» ١٤٩

«لا تكونوا من جبابرة العلماء» ٢٣٠
 «لا تلغنه، فإنه يحب الله ورسوله» ٤٣٧
 «لا تنظروا إلى من هو فوقكم» ١٤٢، ٢٥٣
 «لا حسد إلا في أثنتين» ٢٣٥
 «لا رهبانية، ولا تبئل» ١٤٩
 «لا سياحة في الإسلام» ١٤٩
 «لا صام ولا أفطر» ٥٧
 «لا صغيرة مع إصرار» ٣٢١
 «لا كبيرة مع الاستغفار» ٣٢١
 «لا هجرة فوق ثلاث» ١٣٨
 «لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه» ١٩٩
 «لا يجتمع الشُّح والإيمان في قلب عبد» ٢٥٦
 «لا يجلس قوم مجلساً لا يذكرون الله» ٦٩
 «لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه» ١٠٧
 «لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمناً» ١٣١
 «لا يحملنكم استبطاء الرزق» ٢٥٢
 «لا يخلون رجل بامرأة» ٢٠٦
 «لا يدخل الجنة قتات» ٢١٨
 «لا يدخل الجنة من كان في قلبه» ٢٧٢،
 ٢٨٣، ٢٨٤
 «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة» ٣٣٨
 «لا يزال معك من الله ظهير عليهم» ١٣٦
 «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه» ٢٠٧
 «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» ٣٦٦
 «لا يعذب الله قلباً وعى القرآن» ٦٢
 «لا يقضي القاضي وهو غضبان» ٢٤
 «لا يقضي الله للمؤمن قضاء» ٣٦٤
 «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حَفَّتْهم» ٦٨
 «لا يَقُلْ أحدكم: عبادي وأمتي» ٢٢٢

نهى رسول الله ﷺ بلالاً أن يدّخر ٤١٧

نهى عن التصرية ١٠٧

نهى عن النجش ١٠٧

«نية المؤمن خير من عمله» ٤٥٢

الناس نيام وإذا ماتوا انتبهوا ٥٠٢

«الندم والاستغفار» ٣٢٤

هـ

«هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين» ٥١٠

هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء ٢٩

«هل تضامون في القمر ليلة البدر؟» ٥١٦

«هل كنت تدعو بشيء، أو تسأله؟» ٣٦٥

«هل يكبّ الناس في النار على وجوههم»

٢٠٧

«هلا بكمراً تلاعبها وتلاعبك» ٩٩

«هم الذين لا يكتفون، ولا يسترقون» ٤١٢

«هما في الوزر سواء» ٤٥١

«هؤلاء في الجنة ولا أبالي» ٣٧٧

هي ما بين فراغ الإمام من الخطبة إلى أن

تقضى ٤٣

«الهوى وطول الأمل» ٤٨٣

و

«والذي نفسي بيده، لو لم تذبوا» ٣٧٣

«والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب

لأخيه» ١٩٩

«والله إنني لأرجو أن تكونوا رُبُع أهل الجنة»

٣٧٣

«وإن زنى وإن سرق، وإن زنى» ٥١٨

«وأي داء أدوأ من البخل؟» ٢٥٧

«وعزّتي وجلالي ما زوّيت الدنيا عنك

لهوانك علي» ٤٦٤

«وعزّتي وجلالي، لا أجمع على عبدي

خوفين» ٣٧٨

«ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته» ٢٩٣

«ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله منه برحمته» ٣٧٣

«ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم

خصاصة» ٢٥٨

«ويلك، قطعت عنق صاحبك...» ٢٢٠

«ويحذركم الله نفسه» ٣٨٠

وجعاً يجده في جسده ١٣٤

«الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها» ١٣٥

لا

«لا أغني عنكم من الله شيئاً» ١٧٤، ٢٩٣

«لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة» ٢٩٤

«لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات» ٤٩١

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له» ٧١

«لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك» ٢٩٣

«لا تباغضوا، ولا تقاطعوا» ٢٣٣

«لا تتبّعوا عوراتهم» ٢١٣

«لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله ﷻ»

وليس في وجهه مزعة» ٤٠٠

«لا تزول قدما عبدٍ حتى يُسأل عن عمره فإنه

يسلب سلباً» ٥٠٩

«لا تغالوا في الكفن» ٤٩٧

«لا تغالوا في مهور النساء» ٩٨

«لا تغتابوا المسلمين» ٢١٣

«لا تغضب» ٢٢٤، ٣٣٠

«لا تكن مثل فلان» ٨٦

فهرس الموضوعات على حروف المعجم

تربية الصبيان ٢٠٠-٢٠٢
قبول الأخلاق للتغيير ١٩١-١٩٢
التصوف: غرور المتصوفة ٣٠٥-٣٠٧
التفكر ٤٧٤-٤٨٠
تلاوة القرآن، ك ٦٢-٦٧
التواضع ٢٨٨ وينظر الكبير
التواضع لا يكون مع العزلة ١٤٥
تواضعه ﷺ ١٨٠
التوبة، ك ٣١٣-٣٣٢
التوحيد والتوكل، ك ٤١٢-٤٢٠
التوحيد: معنى اللفظ ٢٦
التوكل، ك ٤١٢-٤٢٠

ج

الجاه، ك ذم الجاه ٢٦٢-٢٦٨
الجدال والمراء ٢٠٩، ٣٠٠
علم الخلاف ٢٨، ٣٠٠
الجوار: حقوق الجوار ١٣٥
الجوع: فضيلته وفوائده ٢٠٤-٢٠٥
الجنة ٥١٣-٥١٦
جهنم ٥١٠-٥١٢

ح

الحب، ك المحبة ٤٢١-٤٤٩
الحج، ك ٥٨-٦١
الحرص؛ ذمه ٢٤٦، ٢٥٠-٢٥٣
الحسنة ١٥٤-١٦١

أ

آداب المعيشة وأخلاق النبي ١٧٨-١٨١
الاحتكار ١٠٧
الإحسان في المعاملة ١٠٧
الإخلاص، ٤٤٩، ٤٥٦-٤٦٠
إخلاف الوعد ٢١٢
الأخوة، ك ١٢١-١٣٦
الأذكار والدعوات، ك ٦٨-٦٩
الذكر، مدلول اللفظ ٢٦، ٣٦٨
الاستهزاء والسخرية ٢١١
الأكل: آدابه، ك ٩١-٩٥
الأمر بالمعروف، ك ١٣٩، ١٥٢-١٧٦
الأمل: طوله وقصره ٤٨٣-٤٨٧
الأنس بالله ٤٤٠-٤٤١
الأوراد ٧٠-٨٢
أولويات؛ ترتيب فروض الكفاية ٢٥
الإيثار؛ فضيلته ٢٥٨-٢٥٩

ب

البخل ٢٤٦-٢٦١
الطهارة من البخل ٤٨
البطن؛ كسر شهوته ٢٠٤
البغض في الله ١٢٢-١٢٣

ت

التربية:

«يا عقبه، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل

الدنيا» ٢٣١

«يا عم، نفس تنجيها خير من إمارة» ١٧٣

«يا عمّاه، ألا أُعْطِيكَ ألا أعلمك» ٤٥

«يا فاطمة، لا أغني عنك من الله شيئاً» ٢٩٣

يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاءً ٢٥٤

«يا مُصْرِفَ القلوبِ أَصْرِفْ قَلْبَنَا» ١٨٨

«يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل» ٢١٣

«يا مُقَلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلوبنا» ١٨٨

يا موسى إياك والجلدة ٢٢٥

«يُؤْتَى بالجرس فيجعل بين ظَهْرِي جهنم»

٥١٠

يُؤْتَى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز

شمطاء ٢٤٢

«يُؤْتَى بالبعد يوم القيامة فيعتذر الله إليه» ٣٩٥

«يُؤْتَى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام»

٥١١

«يتعرض من البلاء ما لا يطيق» ٤٠٠

«يحب له ما يحب لنفسه» ١٣١

«يُخْشَرُ الجبارون والمتكبرون يوم القيامة»

٢٨٣

«يُخْشَرُ الناس يوم القيامة على أرض» ٥٠٨

«يُخْرِجُ من النار من قال: لا إله إلا الله» ٥١٨

«يُخْلَصُ المؤمنون يوم القيامة من النار» ٥١٣

يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً لا حساب

عليهم ٤١٢

«يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم»

٣٩٥

«يُضْرَبُ جِسر على جهنم» ٥١٠

«يُطْلَعُ عليكم من هذا الفَجِّ رجل» ٢٣٣

يظل اليوم يلتوي ما يجد دَقْلاً ٣٩٥

«يُعْرَضُ الناس يوم القيامة ثلاث عَرَضَات»

٥٠٩

«يقال لصاحب القرآن: اقرأ» ٦٢

«يقول القبر للميت حين يوضع فيه» ٥٠٤

«يقول الله ﷻ من عمل حسنة فله عشرُ

أمثالها وَأَزِيدُ» ٥١٧

يقول الله ﷻ: «حققت محبتي للمتحابين في»

١٢٢

«يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا آدم! قم فأبعث

بعث النار فيقول:» ٣٧٣

يُلْقَى على أهل النار الجوع ٥١١

يمر الناس على الصراط «كالبرق» ٣١٨

«يوشك الناس أن يسألوا» ٢٢٢

«ينصح له إذا غاب أو شهد» ١٣١

«اليد العليا خير من اليد السفلى» ٤٠٠

الحسد ٢٣٢-٢٣٩

الحقد ٢٣٢

حقوق الأخوة ١٢٥

حقوق المسلم ١٣١-١٣٤

الحكمة: معنى اللفظ ٢٧

الحلال والحرام ١١٠-١٢٠

الحلم؛ فضيلته ٢٣٠-٢٣١

الحمام؛ دخوله ٣٦-٣٧، ١٦٣

خ

الخاتمة؛ حسنها وسوؤها ٣٨٣-٣٨٥

الخشوع في الصلاة ٣٧-٤٢

الخصومة ٢٠٩

الخلق:

ك تهذيب الأخلاق ١٩٠-٢٠٣

أخلاق النبوة ١٧٨-١٨١

الخوف ٣٧٤-٣٧٨ و ٣٨٠-٣٩١

الخوف والرجاء ٣٦٨-٣٧٠ و ٣٧٨-٣٨٠

الصدق في خوف ٤٦٠-٤٦٢

د، ذ

الدعوة إلى الله ١٦٤

الدنيا، ك ذم الدنيا ٢٣٩-٢٤٦

الذنوب ٣١٤-٣٢٣

كتمان الذنوب ٢٨٠

ر، ز

الرجاء:

الرجاء في الرجاء ٣٧١-٣٧٤

الرجاء والخوف؛ ك ٣٦٨-٣٩١

الفرق بينه وبين الغرور ٢٩٥

الرحم وحقوقها ١٣٥-١٣٦

رحمة الله ٥١٦-٥٢٠

الرضا؛ فضيلته ٤٤١-٤٤٩

الرفق؛ فضيلته ٢٣١-٢٣٢

الرياء؛ ك ذم الرياء ٢٠٥ و ٢٦٩-٢٨٢

الزكاة، ك ٤٧-٥٣

الزهد والفقر، ك ٣٩٢-٤١١

الزهد ٤٠٣-٤١١

س

السؤال؛ تحريمه: ٣٩٩-٤٠٢

أسئلة العوام ٢٢٢-٢٢٣

السخاء؛ حله ٢٥٩-٢٦٠

فضيلته ٢٥٣-٢٥٦

السخرية ٢١١

السر: إفشاؤه ٢١٢

السفر، ك آداب السفر ١٤٧-١٥١

السلطين؛ مخالطتهم ١١٧-١٢٠

السلطين؛ أمرهم بالمعروف ١٦٤-١٧٦

السماع ١٧٦-١٧٨

السوق؛ منكراته ١٦٢

ش

الشطح: معنى اللفظ ٢٦

الشعر؛ حُكمه ٢٤

الشكر ٣٤٤-٣٦٧

شمائل النبي ١٧٨-١٨١

الشهوة، ك كسر الشهوتين ٢٠٤-٢٠٦

الشوارع؛ منكراتها ١٦٣

الشوق ٤٣٣-٤٣٤

الشیطان؛ مداخله إلى القلب ١٨٥-١٨٧

ص، ض

الصبر ٣٤٣-٣٤٣

الصبر والشكر، ك ٣٣٣-٣٦٧

الصحة = الأخوة، ك ١٢١-١٤٦

الصدق؛ حقيقته وفضله ٤٦٠-٤٦٢

الصلاة، ك ٣٧-٤٦

الصمت؛ فضيلته ٢٠٧-٢٠٨

الصوم، ك ٥٤-٥٧

الضيافة؛ آدابها ٩٤

منكراتها ١٦٣-١٦٤

ط، ظ

الطامات؛ معناها ٢٦

الطمع؛ ذمه ٢٥٠

الطهارة، ك ٣٥-٣٧

الظلم؛ الخروج عن المظالم ١١٦-١١٧

الظن؛ سوء الظن ١٨٧، ٢١٦

ع

العجب، ك ذم العجب ٢٩١-٢٩٤

العزل؛ حكمه ١٠١

العزلة ١٣٦-١٤٦

العزم ١٨٧-١٨٨

العفو عن الزلات ١٢٨

فضيلة العفو ٢٣١-٢٣٢

العلم وفضله، ك ١٩-٣٤

العلماء:

تكبر العلماء ٢٨٥، ٢٩٠

غرور العلماء ٢٩٦-٣٠٢

العلماء أطباء الناس ٣٢٩

التعلم من فوائد المخالطة ١٤٢

علماء الدنيا ٣١-٣٢

علماء الآخرة ٣٢-٣٤

عيادة المريض ١٣٤

غ

الغرور، ك ٢٩٥-٣٠٩

الغضب، ك ذم الغضب ٢٢٤-٢٢٩

الغناء؛ آداب السماع ١٧٦-١٧٨ و ٢١٠

الغنية ١٣٩، ٢١٢-٢١٨

الغيظ؛ كظمه ٢٢٩

ف، ق

الفحش؛ ذمه ٢١٠

الفرج؛ كسر شهوته ٢٠٥

الفقر ٣٩٢-٤٠٢

الفقه؛ مدلول اللفظ ٢٥

القبر:

عذاب القبر وسؤاله ٥٠٢-٥٠٧

زيارة القبور ٤٩٩-٥٠١

القرآن، ك تلاوة القرآن ٦٢-٦٧

القرآن؛ تعليمه ١٠٨

القلب:

حضوره في الصلاة = الخشوع

ك شرح عجائب القلب ١٨٥-١٨٩

سرعة تقلب القلب ١٨٨

مرض القلب ١٩٤

كثرة مرض القلوب ٣٢٩

القناعة؛ مدحها ٢٥٠

القيام للإنسان ٢٨٦-٢٨٧

قيام الليل ٨٣-٨٧

ك

الكبر؛ ك ذم الكبر ٢٨٣-٢٩١
الكذب؛ ذمه وأحكامه ٢١٢
الكسب؛ ك آدابه ١٠٤-١٠٩
الكلام:

الكلام فيما لا يعني ٢٠٨
التقعر في الكلام ٢٠٩-٢١٠
الخطأ في فحوى الكلام ٢٢١-٢٢٢
كلام ذي اللسانين ٢١٩

ل

اللسان؛ ك آفات اللسان ٢٠٧-٢٢٣
اللسان وحقوق الأخوة ١٢٥

م

المال

ذم حب المال ٢٤٦-٢٦١
غرور أرباب الأموال ٣٠٧-٣٠٨
مجاهدة النفس ٤٧٠-٤٧٢
المحاسبة والمراقبة ٤٦٢
المحبة، ك ٤٢١-٤٤٩
المحبة والشوق والأنس، ك ٤٢١-٥٢٠
المدح:
آفات المدح ٢٢٠-٢٢١
حب المدح ٢٦٧
حب ذبوع خبر الطاعات ٢٧٥-٢٧٦
المدينة النبوية ٦١
المراقبة ٤٦٦
المزاح ٢١٠-٢١١
المساجد: منكراتها ١٦١-١٦٢
المشاركة ٤٦٣

مصطلحات ١٨٧ ، ٣٦٨

معجزاته ﷺ ١٨١
المملوك؛ حقوقه ١٣٦
المنكرات المألوفة ١٦١-١٦٤
الموت ٤٨٠-٥١٦

ن

النعمة؛ تعريفها وشكرها ٣٥٠-٣٦١
النظافة ٣٥-٣٧
النفس:

حديث النفس ١٨٧
ك رياضة النفس ١٩٠-٢٠٣
ك محاسبة النفس ٤٦٢-٤٧٤
معاتبه النفس ٤٧٢-٤٧٤
النكاح، ك النكاح وآدابه ٩٦-١٠٣
النميمة ٢١٨-٢١٩
النية ٤٤٩-٤٥٥

هـ، و

الهجر ١٣١-١٣٢
الورع؛ درجاته ١١١-١١٢ ، ١٥٦
الوسوسة = الشيطان، مداخله
الوفاء والإخلاص ١٢٩
وفاة الخلفاء الراشدين ٤٩٤-٤٩٧
وفاة الرسول ﷺ ٤٩١
الولد؛ حقوقه ١٣٦
الوعد؛ إخلافه ٢١٢

ي

اليأس؛ مدحه ٢٥٠
يوم القيامة ٥٠٧

فهرس الأشعار

صدر البيت	القافية	الراوي	الصفحة
أأنثر درأ بين سارحة النعم	الغنم	الشافعي	٣١
ستور بيتك نيل الأمن منك	الباري	...	٦١
عدوك من صديقك مستفاد	الصحاب	...	١٤١
ولم أر في عيوب الناس شيئاً	التمام	المتنبي	١٤٧
وفينا رسول الله يتلو كتابه	ساطع	ابن رواحة	٢١٢
فإن عبثَ قوماً بالذي فيك مثله	أعور	...	٢١٥
أيا جود معن ناج معنا بحاجتي	شفيع	...	٢٥٦
وكنا إذا الجبار صعر خده	فتقوما	المتلمس	٢٨٥
مقام النبوة في برزخ	الولي	ابن عربي	٣٠٦
إذا لم يكن عون من الله للفتى	اجتهاده	...	٣٥٢
إذا ما القوت يأتي لك	والأمن	أبو العتاهية	٣٦٠
اصبر نكن بك صابرين فإنما	الرأس	...	٣٦٤
وهجره أعظم من ناره	جنته	...	٤٢٨
إن كنت تزعم حبي	كتابي	...	٤٣٧
ومن قلبه مع غيره كيف حاله	يكتم	...	٤٣٩
لا والذي أنا عبد في عبادته	إحن	...	٤٤٣
لما رأيت نبينا متجدلاً	الدور	أبو بكر	٤٩٤
لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى	الصدر	...	٤٩٤
شد حيازيمك للموت	لافيك	علي	٤٩٧
ولما قسا قلبي وضاعت مذاهبي	سلما	الشافعي	٤٩٩

فهرسالموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المحقق	٣
صور الأصول المخطوطة	٨
مقدمة المؤلف	١٣

ربيع العبادات

١ - كتاب العلم وفضله، وما يتعلق به	١٩
فضيلة العلم والتعلم	١٩
فضيلة التعليم	٢١
فصل في العلم المحمود والمذموم، وأقسامهما، وأحكامهما	٢٢
بيان العلم الذي هو فرض كفاية	٢٣
فصل في علم المعاملة	٢٤
بيان ما بُدِّل من ألفاظ العلوم	٢٥
فصل: بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة	٢٧
فصل: بيان التلبس في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف	٢٨
باب في آداب المتعلم والمعلم، وآفات العلم، وبيان علماء السوء، وعلماء الآخرة	٢٩
بيان وظائف المرشد المعلم	٣٠
فصل في آفات العلم، وبيان علماء السوء وعلماء الآخرة	٣١
٢ - كتاب الطهارة وأسرارها، والصلاة وما يتعلق بها	٣٥
إزالة الفضلات	٣٦
كتاب أسرار الصلاة ومهماتنا	٣٧
فضيلة الخشوع	٣٧

- في الشروط الباطنة من أعمال القلب ٣٨
- بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة ٣٨
- بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب من أعمال الصلاة ٤٠
- فصل في آداب تتعلق بصلاة الجمعة ويوم الجمعة ٤٢
- فصل في ذكر النوافل ٤٥
- فصل في أوقات النهي عن الصلاة ٤٦
- ٣ - كتاب الزكاة، وأسرارها وما يتعلق بها ٤٧
- في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة ٤٧
- فصل في دقائق الآداب الباطنة في الزكاة ٤٨
- فصل في آداب القابض ٥٠
- فصل في صدقة التطوع، وفضلها، وآدابها ٥١
- ٤ - كتاب الصوم وأسراره ومهماته وما يتعلق به ٥٤
- فصل في سنن الصوم ٥٤
- بيان أسرار الصوم وآدابه ٥٥
- في التطوع بالصيام، وترتيب الأوراد فيه ٥٦
- ٥ - كتاب الحج وأسراره، وفضائله، وآدابه ونحو ذلك ٥٨
- في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر ٥٨
- فصل في الآداب الباطنة، والإشارة إلى أسرار الحج ٥٩
- ٦ - كتاب آداب تلاوة القرآن الكريم، وذكر فضله ٦٢
- فصل في آداب التلاوة ٦٤
- في أعمال الباطن في التلاوة ٦٥
- ٧ - كتاب الأذكار والدعوات وغيرها ٦٨
- فضيلة مجالس الذكر ٦٨
- آداب الدعاء ٦٩
- كتاب ترتيب الأوراد، وتفصيل إحياء الليل ٧٠
- فصل في الأوراد وفضلها، وتوزيع العبادات ٧٠
- على مقادير الأوقات ٧٠
- بيان عدد أوراد الليل والنهار، وترتيبها ٧٠

٧٥	ذكر أوراد الليل
٨٠	فصل في اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال
٨٣	باب في قيام الليل وفضله
٨٣	فصل في الأسباب الميسرة لقيام الليل
٨٤	بيان طرق القسمة لأجزاء الليل
٨٦	فصل في بيان الليالي والأيام الفاضلة

ربع العادات

٩١	٨ - باب في آداب الأكل، والاجتماع عليه، والضيافة ونحو ذلك
٩٣	فصل فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع، والمشاركة في الأكل ...
٩٣	فصل في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين
٩٤	فصل في الدخول على الآكلين
٩٤	فصل في آداب الضيافة
٩٦	٩ - كتاب النكاح وآدابه وما يتعلق به
٩٦	فوائد النكاح
٩٧	فصل في آفات النكاح
٩٧	فصل في الخصال المطيبة للعيش
٩٨	فصل في آداب المعاشرة، والنظر فيما على الزوج
١٠٢	القسم الثاني في ما على الزوجة لزوجها
	١٠ - كتاب آداب الكسب والمعاش، وفضله، وصحة المعاملة، وما يتعلق بذلك
١٠٤	فصل في فضل الكسب، والحث عليه
١٠٦	مكونات عقد الاكتساب
١١٠	بيان الحلال والحرام
١١١	فصل في درجات الحلال والحرام
١١١	فصل في درجات الورع
١١٢	مراتب الشبهات وتمييزها عن الحلال والحرام
١١٥	في البحث والسؤال عن الحلال

- ١١٦ كيفية خروج الثائب عن المظالم المالية
- ١١٧ فصل في ما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة، وما يحرم
- ١١ - كتاب آداب الصحبة والأخوة، ومعاشرة الخلق، ونحو ذلك ١٢١
- ١٢١ فضيلة الألفة والأخوة
- ١٢١ بيان معنى الأخوة في الله
- ١٢٢ بيان البغض في الله
- ١٢٢ بيان مراتب الذين يبغضون في الله، وكيفية معاملتهم
- ١٢٣ فصل في بيان الصفات المشروطة في من تختار صحبته
- ١٢٥ فصل في بيان ما على الإنسان لأخيه من الحقوق
- ١٣٠ فصل في جملة آداب العشرة، والمجالسة مع أصناف الخلق
- ١٣١ باب في حقوق المسلم، والرحم، والجوار، والملك، ونحو ذلك ..
- ١٣٥ حقوق الجوار
- ١٣٥ فصل في حقوق الأقارب، والرحم
- ١٣٦ حقوق الولد
- ١٣٦ حقوق المملوك
- ١٣٦ باب العزلة
- ١٣٨ حجج المائلين إلى المخالطة
- ١٣٨ فصل في ذكر فوائد العزلة وغوائلها، وكشف الحق في فضلها
- ١٤٢ فصل في آفات العزلة
- ١٤٥ آداب العزلة
- ١٤٧ - كتاب آداب السفر ١٤٧
- ١٤٨ فصل في أقسام السفر
- ١٥٠ فصل في ما لا بد للمسافر منه
- ١٥٢ - كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٥٢
- ١٥٢ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ١٥٢ فصل في مراتب الإنكار، وبعض ما ورد فيه
- ١٥٤ فصل في أركانه، وشروطه، ودرجاته، وآدابه، ونحو ذلك
- ١٥٤ مراتب الحسبة

شروط الحسبة	١٥٥
فصل في آداب المحتسب	١٦٠
باب في المنكرات المألوفة في العادات، وفي الإنكار	
على الأمراء والسلاطين، وأمرهم بالمعروف	١٦١
منكرات المساجد	١٦١
منكرات الأسواق	١٦٢
منكرات الشوارع	١٦٢
منكرات الحمامات	١٦٣
منكرات الضيافة	١٦٣
المنكرات العامة	١٦٤
منتخب من مواظ السلف للخلفاء والأمراء	١٦٥
موعظة أبي حازم لسليمان بن عبد الملك	١٦٦
كتاب آداب السماع والوجد	١٧٦
فصل في حكم السماع	١٧٦
باب آداب المعيشة، وأخلاق النبوة	١٧٨
جملة من محاسن أخلاقه ﷺ، وصفته	١٧٩
من معجزاته ﷺ	١٨١

ربع المهلكات

١٤ - كتاب شرح عجائب القلوب	١٨٥
فصل في بيان تسلط الشيطان على القلب بالوساوس	١٨٥
بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب	١٨٥
بيان أنه يعفى عن حديث النفس	١٨٧
فصل في بيان سرعة تقلب القلب	١٨٨
١٥ - كتاب رياضة النفس، وتهذيب الخلق، ومعالجة أمراض القلب	١٩٠
الفصل الأول: في فضيلة حسن الخلق، وذم سوء الخلق	١٩٠
بيان قبول الأخلاق للتغيير	١٩١
الفصل الثاني: في بيان الطريق إلى تهذيب الأخلاق	١٩٢

- الفصل الثالث: في علامات مرض القلب، وعوده إلى الصحة ١٩٤
- بيان الطريق إلى معرفة الإنسان عيوب نفسه ١٩٦
- فصل في شهوات النفوس ١٩٧
- بيان علامات حسن الخلق ١٩٧
- فصل في رياضة الصبيان أول النشوء ٢٠٠
- بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة ٢٠٣
- ١٦ - كتاب كسر الشهوتين: شهوة البطن، وشهوة الفرج ٢٠٤
- بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن ٢٠٥
- بيان آفة الرياء ٢٠٥
- القول في شهوة الفرج ٢٠٥
- ١٧ - كتاب آفات اللسان ٢٠٧
- ذكر آفات الكلام ٢٠٨
- الكلام فيما لا يعني، والخوض في الباطل ٢٠٨
- التقعر في الكلام ٢٠٩
- الفُحش والسب والبذاء، والمزاح ٢١٠
- السخرية والاستهزاء ٢١١
- إفشاء السر وإخلاف الوعد، والغيبة ٢١٢
- فصل في بيان الأسباب الباعثة على الغيبة، وذكر علاجها ٢١٥
- بيان الأعذار المرخصة في الغيبة، وكفارة الغيبة ٢١٦
- النميمة ٢١٨
- كلام ذي اللسانين ٢١٩
- المدح ٢٢٠
- الخطأ في فحوى الكلام ٢٢١
- فصل: من آفات العوام سؤلهم عن صفات الله سبحانه وتعالى وكلامه ٢٢٢
- ١٨ - كتاب ذم الغضب والحقد والحسد ٢٢٤
- بيان حقيقة الغضب ٢٢٥
- فصل في بيان الأسباب المهيجة للغضب، وذكر علاج الغضب ٢٢٦
- فصل في كظم الغيظ ٢٢٩

٢٣٠	فصل في الحلم
٢٣١	فصل في الحلم العفو والرفق
٢٣٢	باب في الحقد والحسد
٢٣٦	فصل في بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران
٢٣٨	دواء الحسد
٢٣٩	باب ذم الدنيا
٢٤٥	فصل في بيان حقيقة الدنيا، والمذموم منها، والمحمود
٢٤٥	بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها
	باب في ذم البخل والحرص والطمع، وذم المال ومدحه،
٢٤٦	ومدح القناعة والسخاء، وغير ذلك
٢٤٧	بيان مدح المال
٢٤٧	فوائد المال الدينية
٢٤٩	آفات المال الدينية
٢٤٩	آفات المال الدنيوية
٢٥٠	بيان ذم الحرص والطمع، ومدح القناعة، واليأس
٢٥١ ..	بيان علاج الحرص والطمع، والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة
٢٥٣	فصل في بيان فضيلة السخاء
٢٥٤	ومن حكايات الأسخياء
٢٥٦	فصل في البخل وذمه
٢٥٧	من حكايات البخلاء
٢٥٨	فصل في فضل الإيثار وبيانه
٢٥٩	فصل في بيان حد السخاء والبخل، وحقيقتهما
٢٦٠	علاج البخل
٢٦٢	١٩ - كتاب ذم الجاه والرياء وعلاجهما، وفضيلة الخمول ونحو ذلك
٢٦٢	بيان ذم الشهرة، وانتشار الصيت، وفضيلة الخمول
٢٦٤	فصل في بيان معنى الجاه وحقيقته
٢٦٥	بيان ما يُحمد من حب الجاه وما يذم
٢٦٥	بيان علاج حب الجاه

- ٢٦٧ فصل في بيان وجه العلاج لحب المدح، وكراهة الذم
- ٢٦٧ بيان علاج كراهة الذم
- القسم الثاني من الكتاب في بيان الرياء، وحقيقته وأقسامه وذمه،
- ونحو ذلك ٢٦٨
- ٢٦٨ بيان ذم الرياء
- ٢٦٩ بيان حقيقة الرياء وما يراى به
- ٢٧٢ فصل في بيان درجات الرياء
- ٢٧٣ بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من ديب النمل
- ٢٧٦ فصل في بيان ما يُحبط العمل من الرياء، وما لا يحبط
- ٢٧٧ باب في دواء الرياء وطريقة معالجة القلب فيه
- ٢٧٩ فصل في بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات
- بيان الرخصة في كتمان الذنوب، وكراهة اطلاع الناس عليها،
- وكراهة ذمهم لها ٢٨٠
- ٢٨٠ فصل في بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء، ودخول الآفات
- فصل في بيان ما يصح من نشاط العبد بسبب رؤية الخلق،
- وما لا يصح ٢٨١
- ٢٨٢ بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده
- ٢٨٣ ٢٠ - كتاب ذم الكبر والعجب
- ٢٨٣ بيان ذم الكبر
- ٢٨٤ بيان حقيقة الكبر وآفته
- ٢٨٥ درجات العلماء والعباد في آفة الكبر
- ٢٨٦ بيان ما به التكبر من الأمور الدنيوية
- ٢٨٦ بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر
- ٢٨٨ بيان معالجة الكبر، واكتساب التواضع
- ٢٩١ بيان غاية الرياضة في خلق التواضع
- ٢٩١ الفصل الثاني في العجب
- ٢٩٢ بيان آفة العجب
- ٢٩٢ بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما

- ٢٩٢ فصل في علاج العجب
- ٢٩٣ بيان أقسام ما به العجب، وتفصيل علاجه
- ٢٩٥ ٢١ - كتاب الغرور وأقسامه ودرجاته
- ٢٩٦ فصل في بيان أصناف المغترين، وأقسام فرق كل صنف
- ٢٩٦ صنف أهل العلم
- ٣٠٢ صنف أرباب التبعيد والعمل
- ٣٠٥ صنف المتصوفة
- ٣٠٧ صنف أرباب الأموال

ربع المنجيات

- ٣١٣ ٢٢ - كتاب التوبة، وذكر شروطها، وأركانها، وما يتعلق بذلك
- ٣١٤ بيان وجوب التوبة وفضلها
- ٣١٤ فصل في بيان أقسام الذنوب
- ٣١٦ الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر
- فصل في كيفية توزع الدرجات في الآخرة على الحسنات
- ٣١٨ والسيئات في الدنيا
- ٣٢٠ فصل في بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب
- ٣٢٣ فصل في شروط التوبة
- ٣٢٦ بيان أقسام العباد في دوام التوبة
- ٣٢٨ فصل في بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب
- ٣٢٨ فصل في دواء التوبة، وطريق علاج حل عقد الإصرار
- ٣٣٣ ٢٣ - كتاب الصبر والشكر
- ٣٣٣ بيان فضيلة الصبر
- ٣٣٤ بيان حقيقة الصبر ومعناه
- ٣٣٥ بيان الأسامي التي تتجدد للصبر
- ٣٣٥ بيان مظان الحاجة إلى الصبر
- ٣٣٩ فصل في آداب الصبر
- ٣٤١ فصل في بيان دواء الصبر، وما يستعان به عليه

الشرط الثاني من الكتاب في الشكر وفضله وذكر النعم،

- وأقسامها ونحو ذلك ٣٤٤
- فصل في بيان حد الشكر وحقيقته ٣٤٥
- فصل في بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه ٣٤٦
- فصل في بيان النعم وحقيقتها وأقسامها ٣٥٠
- فصل في بيان كثرة نعم الله تعالى، وتسلسلها،
وخروجها عن الحصر والإحصاء ٣٥٠
- فصل في بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى ٣٥٢
- نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك ٣٥٢
- في أصناف النعم في خلق الإرادات ٣٥٣
- في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة ٣٥٤
- فصل في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة ٣٥٦
- بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر ٣٥٧
- فصل في بيان اجتماع الصبر والشكر على وجه واحد ٣٦١
- بيان فضل النعمة على البلاء ٣٦٥
- فصل في بيان أيهما أفضل الصبر أم الشكر؟ ٣٦٥
- ٢٤ - كتاب الرجاء والخوف ٣٦٨
- بيان حقيقة الرجاء ٣٦٨
- فصل في فضيلة الرجاء ٣٧١
- فصل في دواء الرجاء، والسبب الذي يحصل به ٣٧١
- الشرط الثاني من الكتاب في الخوف وحقيقته،
وبيان درجاته وغير ذلك ٣٧٤
- بيان حقيقة الخوف ٣٧٤
- فصل في بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف ٣٧٦
- بيان أقسام الخوف ٣٧٧
- فصل في فضيلة الخوف والرجاء، وما ينبغي أن يكون الغالب منهما ٣٧٨
- بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف، أو غلبة الرجاء، أو اعتدالهما ٣٧٨
- فصل في بيان الدواء الذي يستجلب به الخوف ٣٨٠

- ٣٨٣ بيان معنى سوء الخاتمة
- ٣٨٥ ذكر خوف الملائكة عليهم السلام
- ٣٨٦ ذكر خوف الأنبياء عليهم السلام
- ٣٨٧ ذكر خوف نبينا صلى الله عليه وسلم
- ٣٨٨ ذكر خوف أصحابه رضي الله عنهم
- ٣٨٩ ذكر خوف التابعين ومن بعدهم
- ٢٥ - كتاب الزهد والفقر ٣٩٢
- ٣٩٢ الشطر الأول من الكتاب في الفقر
- ٣٩٢ بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه
- ٣٩٤ فصل في فضيلة الفقر، وتفضيل الفقر على الغنى
- ٣٩٦ التفضيل بين الغني والفقير
- ٣٩٧ فصل في آداب الفقير في فقره
- ٣٩٨ بيان آدابه في قبول العطاء
- فصل في بيان تحريم السؤال من غير ضرورة،
- ٣٩٩ وآداب الفقير المضطر في السؤال
- ٤٠٢ بيان أحوال السائلين
- الشرط الثاني من الكتاب وفيه: بيان حقيقة الزهد وفضيلته،
- ٤٠٢ وذكر درجاته وأقسامه، ونحو ذلك
- ٤٠٢ بيان حقيقة الزهد
- ٤٠٣ بيان فضيلة الزهد
- ٤٠٤ فصل في درجات الزهد وأقسامه
- ٤٠٥ فصل في بيان تفصيل الزهد، فيما هو من ضروريات الحياة
- ٤١٠ فصل في بيان علامات الزهد
- ٢٦ - كتاب التوحيد والتوكل ٤١٢
- ٤١٢ بيان فضيلة التوكل
- ٤١٣ بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل
- ٤١٤ فصل في بيان أحوال التوكل وأعماله وحده ونحو ذلك
- ٤١٥ فصل في بعض أعمال المتوكلين

٢٧ - كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا	٤٢١
بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى	٤٢١
بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده	٤٢٢
فصل في بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله سبحانه، والنظر إلى وجهه الكريم، وأنه لا يتصور أن يؤثر على ذلك لذة أخرى إلى من حُرِم هذه اللذة	٤٢٥
فصل في بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى، وتفاوت الناس في الحب، وبيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى	٤٢٩
بيان السبب في تفاوت الناس في الحب	٤٣١
بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه	٤٣١
فصل في بيان معنى الشوق إلى الله تعالى	٤٣٣
فصل في بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها، وبيان علامات محبة العبد لله تعالى	٤٣٥
فصل في بيان معنى الأنس بالله، والرضا بقضاء الله عز وجل	٤٤٠
بيان معنى الانبساط والإدلال الذي ثمره غلبة الأنس	٤٤٠
القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى، وحقيقته، وما ورد في فضيلته	٤٤١
فصل في بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى	٤٤٣
فصل في بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا	٤٤٧
خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها	٤٤٩
باب في النية والإخلاص والصدق	٤٤٩
الفصل الأول: في النية وحقيقتها وفضلها وما يتعلق بذلك	٤٥٠
بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية	٤٥٢
بيان أن النية غير داخلية تحت الاختيار	٤٥٤
الفصل الثاني: في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته	٤٥٦
بيان حقيقة الإخلاص	٤٥٧
الشوائب المكندة للإخلاص	٤٥٨
فصل في حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به	٤٥٩

٤٦٠	الفصل الثالث : في الصدق وحقيقته وفضله
٤٦٢	كتاب المراقبة والمحاسبة
٤٦٢	باب في المحاسبة والمراقبة
٤٦٣	المقام الأول : المشاركة
٤٦٦	المقام الثاني : المراقبة
٤٦٧	المقام الثالث : المحاسبة بعد العمل
٤٦٩	المقام الرابع : معاقبة النفس على تقصيرها
٤٧٠	المقام الخامس : المجاهدة
٤٧٢	المقام السادس : في معاقبة النفس وتوبيخها
٤٧٤	كتاب التفكير
٤٧٤	فضيلة التفكير
٤٧٥	بيان مجاري الفكر وثمراته
٤٧٧	فصل في بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى
٤٨٠	كتاب ذكر الموت وما بعده
٤٨٠	بيان في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره
٤٨١	باب ما جاء في فضل ذكر الموت
٤٨٢	بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت
٤٨٣	فضيلة قصر الأمل
٤٨٤	بيان السبب في طول الأمل وعلاجه
٤٨٥	فصل في بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره
٤٨٦	بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير
٤٨٧	فصل في ذكر شدة الموت وما يُستحب من الأحوال عنده
٤٩١	باب في ذكر وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين ؓ
٤٩٤	وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه
٤٩٥	وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه
٤٩٦	وفاة عثمان بن عفان رضي الله عنه
٤٩٧	وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

ذكر كلمات نقلت عن جماعة عند موتهم من الصحابة وغيرهم،	
وذكر زيارة القبور ونحو ذلك	٤٩٨
بيان حال القبر وأقاربهم عند القبور	٤٩٩
بيان زيارة القبور، والدعاء للميت وما يتعلق به	٥٠٠
بيان حقيقة الموت، وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور	٥٠٢
فصل في ذكر القبر	٥٠٤
فصل في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين	
الاستقرار في الجنة أو النار	٥٠٧
ذكر جهنم أعادنا الله منها	٥١٠
ذكر صفة الجنة نسأل الله العظيم من فضله	٥١٣
باب في ذكر سعة رحمة الله تعالى	٥١٦
خاتمة الكتاب ومراجعته	٥٢١
فهرس الأحاديث	٥٢٣
فهرس الموضوعات على حروف المعجم	٥٤٢
فهرس الأشعار	٥٤٦
فهرس الموضوعات	٥٤٧